الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

١٢

بسم الله الرحمن الرحیم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل

کاتب:

آیت الله ناصرمکارم شیرازی

نشرت فی الطباعهٔ:

مدرسه الامام علی بن ابی طالب (علیه السلام)

رقمی الناشر:

مرکز القائمیهٔ باصفهان للتحریات الکمبیوتریهٔ

الفهرس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل المجلد ۱۲

اشاره

سرشناسه : مکارم شیرازی، ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پدیدآور : الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل/ تالیف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا]

وضعیت ویراست : [ویرایش]۲

مشخصات نشر : قم: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)، ۱۴۲۱ق. = ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری : ج ۲۰

شابک : ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۳-X(دوره) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۹-۱(ج.۱) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۳-۲(ج.۲) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۸-۳(ج.۳) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۲-۴(ج.۴) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۷-۵(ج.۵) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۱-۶(ج.۶) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۶-۷(ج.۷) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۰-۸(ج.۸) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۵-۹(ج.۹) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۴-۰(ج.۱۰) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۲-۱(ج.۱۱) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۷-۲(ج.۱۲) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۱-۳(ج.۱۳) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۰-۵(ج.۱۵)

وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی

یادداشت : کتاب حاضر ترجمه و تلخیص "تفسیر نمونه" است

یادداشت : کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است

یادداشت : کتابنامه

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)

رده بندی کنگره : BP۹۸/م۷ت ۷۰۴۴۷ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی : م ۷۹-۱۰۳۹۱

ص: ۱

اشاره

سوره النمل

اشاره

مکیّه و عدد آیاتها ثلاث و تسعون آیه

ص :۵

محتوى سوره النمل

هذه السوره نزلت بمكّه-كما ذكرنا آنفا-و المعروف أنّها نزلت بعد سوره الشعراء.

و محتوى هـذه السوره-بصوره عـامّه-كمحتوى سـائر السور المكيه،فـأكثر اهتمامها-من الوجهه الاعتقاديه-ينصبّ على المبـدأ و المعـاد...و تتحـدث عن الوحى و القرآن و آيـات اللّه فى عالم الإيجاد و الخلق،و كيفيه المعاد و القيامه؟ و أمّا من ناحيه المسائل العمليه و الاخلاقيه،فالقسم الكبير منها يتحـدث عن قصـص خمسه أنبياء كرام و مواجهاتهم لأممهم المنحرفه،لتكون هـذه السوره تسـليه للمؤمنين القلّه بمكّه فى ذلك اليوم،و فى الوقت ذاته تكون إنـذارا للمشـركين المعاندين الظالمين ليروا عواقب أمرهم فى صفحات تاريخ الظلمه الماضين،فلعلهم يحذرون و يرجعون إلى الرشد.

و أحـد خصـائص هـذه السوره هى بيـان قسم مهم من قصّه النّبى سـليمان و ملكه سـبأ،و كيفيه إيمانهـا بالتوحيـد،و كلاـم الطير-كالهدهد،و الحشرات كالنمل- مع سليمان عليه السّلام.

و هـذه السوره سـمّيت سوره«النمل»لورود ذكر النمل فيها،و العجيب أنّها سـمّيت بسوره«سـليمان»كما فى بعض الرّوايات«و النمل أخرى»سـليمان أحيانا،و كما سـنلاحظ...فإنّ هـذه التسـميات للسور ليست اعتباطا،بل هى مـدروسه و دقيقه فى تسـميتها،فهى من تعليمات النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و تكشف عن حقيقه

مهمّه یغفل عنها الناس فی الظروف الاعتیادیه!.

و تتحدث هذه السوره ضمنا عن علم اللّه غیر المحدود،و هیمنته و سلطانه علی کل شیء فی عالم الوجود،و حاکمیته عالم عباده...و الالتفات إلی ذلک له أثره الکبیر فی المسائل التربویه للإنسان.

و تبدأ هذه السوره بالبشری و تنتهی بالتهدید،فالبشری للمؤمنین،و التهدید للناس بأنّ اللّه غیر غافل عن أعمالکم.

فضیله سوره النمل:

جاء فی بعض أحادیث النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ طس سلیمان کان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق سلیمان و کذّب به،و هود و شعیب و صالح و إبراهیم و یخرج من قبره و هو ینادی لا إله إلاّ اللّه» (1) .

و بالرغم من أنّ هذه السوره تتحدث عن موسی و سلیمان و داود و صالح و لوط،و لیس فیها کلام عن هود و شعیب و إبراهیم،إلاّ أنّه حیث أنّ جمیع الأنبیاء سواء فی دعوتهم إلی اللّه-فلا مجال لأن نعجب من هذا التعبیر.

و

ورد فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «من قرأ سور الطواسین الثلاث«یعنی سور الشعراء و النمل و القصص»فی لیله جمعه کان من أولیاء اللّه و فی جواره و کنفه،و لم یصبه فی الدنیا بؤس أبدا،و أعطی فی الآخره من الجنّه حتی یرضی و فوق رضاه،و زوجه اللّه مائه زوجه من الحور العین» (2) .

1- 1) -مجمع البیان ذیل الآیات و تفسیر الثقلین،ج 4،ص 74.

2- 2) -«ثواب الأعمال»نقلا،نور الثقلین،ج 4،ص 74.

الآيات [سوره النمل (٢٧): الآيات ١ الی ۶]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ طس تِلْكَ آيٰاتُ اَلْقُرْآنِ وَ كِتٰابٍ مُبِينٍ (١) هُدىً وَ بُشْرىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اَلَّذِينَ يُقِيمُونَ اَلصَّلاٰةَ وَ يُؤْتُونَ اَلزَّكٰاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ زَيَّنّٰا لَهُمْ أَعْمٰالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (۴) أُولٰئِكَ اَلَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ اَلْعَذٰابِ وَ هُمْ فِي اَلْآخِرَهِ هُمُ اَلْأَخْسَرُونَ (۵) وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى اَلْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (۶)

التّفسير

اشاره

القرآن منزل من لدن حكيم عليم:

نواجه مرّه أخرى-فی بدايه هذه السوره-الحروف المقطّعه من القرآن (طس).

و بملاحظه أنّ ما بعدها مباشره هو الكلام عن عظمه القرآن،فيبدو أنّ واحدا من أسرار هذه الحروف هو أنّ هذا الكتاب العظيم و الآيات البيّنات منه،كل ذلك يتألف من حروف بسيطه...و إن الجدير بالثناء هو الخالق العظيم الموجد لهذا الأثر البديع من حروف بسيطه كهذه الحروف، و كان لنا فی هذا الشأن بحوث مفصّله فی بدايه سوره البقره و سوره آل

ص :٩

عمران و سوره الأعراف.

ثمّ يضيف القرآن قائلا: تِلْكَ آيٰاتُ الْقُرْآنِ وَ كِتٰابٍ مُبِينٍ و الإشاره للبعيد بلفظ(تلك)لبيان عظمه هذه الآيات السماويه،و التعبير ب(المبين)تأكيد على أنّ القرآن واضح بنفسه و موضح للحقائق أيضا (۱) .

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرين احتمل أنّ التعبير ب اَلْقُرْآنِ وَ كِتٰابٍ مُبِينٍ إشاره إلى معنيين مستقلين،و أن«الكتاب المبين»يراد منه اللوح المحفوظ...إلاّ أن ظاهر الآيه يدلّ على أنّ كلاهما لبيان حقيقه واحده،فالأوّل فى ثوب الألفاظ و التلاوه،و الثّانى فى ثوب الكتابه و الرسم.

و فى الآيه التاليه وصفان آخران للقرآن إذ تقول: هُدىً وَ بُشْرىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ... الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاٰةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكٰاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ .

و هكذا فإن اعتقاد المؤمنين راسخ فى شأن المبدأ و المعاد،و ارتباط متين باللّه و خلقه أيضا...فالأوصاف المتقدمه تشير إلى اعتقادهم الكامل و منهجهم العملى الجامع!.

و هنا ينقدح سؤال و هو:إذا كان هؤلاء المؤمنون قد اختاروا الطريق السوى، من حيث المبانى الاعتقاديه و العمليه،فما الحاجه لأنّ يأتى القرآن لهدايتهم؟! و يتّضح الجواب بملاحظه أنّ الهدايه لها مراحل مختلفه،و كل مرحله مقدمه لما بعدها،.

ثمّ إنّ استمرار الهدايه مسأله مهمّه،و هى ما نسألها اللّه سبحانه ليل نهار بقولنا: اِهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِيمَ ليثبتنا فى هذا المسير،و يجعلنا مستمرين فيه بلطفه،فلو لا لطفه لما كان ذلك ممكنا لنا...

۱- ۱) -«المبين»مشتق من(الإبانه)و كما يقول بعض المفسّرين«كالآلوسى فى روح المعانى»:إنّ هذه الماده قد يأتى فعلها لازما،و قد يأتى متعديا ففى الصوره الأولى يكون مفهوم المبين هو الواضح و البيّن،و فى الصوره الثّانيه يكون مفهومه الموضح!

و بعد هذا كلّه،فالإفاده من آيات القرآن و الكتاب المبين هى نصيب أولئك الذين فيهم القابليه على معرفه الحق و طلب الحق.و إن لم يبلغوا مرحله الهدايه الكامله...و إذا ما وجدنا التعبير فى بعض آيات القرآن بأنّه هُدىً لِلْمُتَّقِينَ «كما فى الآيه ٢ من سوره البقره»و فى مكان آخر لِلْمُسْلِمِينَ «كما فى الآيه ١٠٢ من سوره النحل»و هنا هُدىً وَ بُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ فإنّ ذلك ناشئ من أنّه إذا لم يكن فى قلب الإنسان أدنى مرحله من التقوى و التسليم و الإيمان بالواقع،فإنّه لا يتجه نحو الحق،و لا يبحث عنه،و لا يفيد من نور هذا الكتاب المبين...لأنّ قابليه المحل شرط أيضا.

ثمّ بعد ذلك فإن الهدى و البشرى مقترنين معا..و هما للمؤمنين فحسب، و ليس للآخرين مثل هذه المزيه...

و من هنا يتّضح مجىء التعبير بالهدايه بشكل واسع لعموم الناس هُدىً للناس فإن المراد منه أولئك الذين تتوفر فيهم الأرضيّه المناسبه لقبول الحق، و إلاّ فأنّ المعاندين الألداء.عماه القلوب،لو أشرقت عليهم آلاف الشموس بدل شمسنا هذه ليهتدوا،لما اهتدوا أبدا.

و تتحدّث الايه التاليه عن الأشخاص فى المقابله للمؤمنين،و تصف واحده من أخطر حالاتهم فتقول: إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ زَيَّنّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ .أى حيارى فى حياتهم.

فهم يرون الملوّث نقيّا،و القبيح حسنا،و العيب فخرا،و الشقاء سعاده و انتصارا!.

أجل،هذا حال من يسلك الطريق المنحرف و يتوغل فيها...فواضح أن الإنسان حين يقوم بعمل قبيح.فإنّ قبحه يخف تدريجا،و يعتاد عليه،و عند ما يتطبع عليه يوجهه و يبرره،حتى يبدو له حسنا و يعدّه من وظائفه!و ما أكثر الذين تلوثت أيديهم بالأعمال الإجراميه...و هم يفتخرون بتلك الأعمال و يعدونها

أعمالا إيجابيّه.

و هـذا التغير فى القيم،أو اضـطراب المعـايير فى نظر الإنسـان،يؤدى إلى الحيره فى متاهـات الحيـاه...و هو من أسوأ الحالات التى تصيب الإنسان.

و الـذى يلفت النظر أنّ«التزيين»فى الآـيه محـل البحث-و فى آيه أخرى من القرآن،و هى الآـيه(١٠٨)من سوره الأنعام،نسب إلى اللّه سـبحانه،مع أنّه نسب فى ثمـانيه مواطن إلى الشـيطان،و فى عشـره أخر جاء بصـيغ الفعل المجهول(زيّن) و لو فكرنا بإمعان-و أمعنا النظر،لوجدنا جميع هذه الصور كاشفه عن حقيقه واحده! فأمّا نسبه التزيين إلى اللّه،فلأنّه«مسبب الأسباب»فى عالم الإيجاد،و ما من موجود مؤثر إلاّ و يعود تأثيره إلى اللّه.

أجل،إنّ هذه الخاصيه أوجدها اللّه فى تكرار العمل ليتطبّع عليه الإنسان...

و يتغير حسّ التشخيص فيه دون أن تسلب المسؤوليه عنه،أو أن تكون نقصا فى خلقه اللّه أو إيرادا عليه(لاحظوا بدقّه).

و أمّا نسبه التزيين إلى الشيطان(أو هوى النفس)فلأن كلاّ منهما عامل قريب و بغير واسطه للتزيين.

و أمّـا مجىء التزيين بصوره الفعـل المبنى للمجهول،فهو إشـاره إلى أنّ طبيعه العمـل يقتضـى أن يوجـد-علـى أثر التكرار-حاله و ملكه و علاقه و عشـقا!! ثمّ تبيّن الآيه التاليه نتيجه«تزيين الأعمال»و عاقبه أولئك الـذين شـغفوا بها فتقول: أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ .

فهم فى الدنيا سيمسون حيارى آيسين نادمين،و سينالون العقاب الصارم فى الآخره وَ هُمْ فِى الْآخِرَهِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ .

و الدليل على أنّهم فى الآخره هم الأخسرون،ما جاء فى الآيه(١٠٣)من سوره الكهف قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاهِ

الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً .

فأيه خساره أعظم من أن يرى الإنسان عمله القبيح حسنا!!و أن يهدر جميع طاقاته من أجله،ظنّا منه بأنّه عمل«إيجابى»مثبت،إلاّ أنّه يراه فى عاقبه أمره شقاء و ذله و عذابا.

و أمّا الآيه الأخيره-من الآيات محل البحث-فهى بمثابه إكمال البيانات السابقه فى صدد عظمه محتوى القرآن،و مقدمه لقصص الأنبياء التى تبدأ بعدها مباشره فتقول: وَ إِنَّکَ لَتُلَقَّى (۱) الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَکِیمٍ عَلِیمٍ .

و بالرغم من أنّ الحكيم و العليم كلاهما إشاره إلى علم اللّه سبحانه،إلاّ أن الحكمه تبيّن الجوانب العمليه،و العلم يبيّن الجوانب النظريه...و بتعبير آخر:إن العليم يخبر عن علم اللّه الواسع،و الحكيم يدل على الهدف من إيجاد هذا العالم و إنزال القرآن على قلب النّبى(محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم).

و مثل هذا القرآن النازل من قبل اللّه ينبغى أن يكن مبينا...و هدى و بشرى للمؤمنين،و أن تكون قصصه خاليه من أى نوع من أنواع الخرافات و التضليل و الأباطيل و التحريف.

الواقعيه و الإيمان:

المسأله المهمه فى حياه الإنسان هى أن يدرك الواقعيّات بما هى عليه،و أن يكون موقفه منها صريحا...فلا تمنعه من فهمها و إدراكها تصوراته و أحكامه المسبقه و رغباته الانحرافيه و حبّه و بغضه،و لذلك فأنّ أهم تعريف للفلسفه هو:

إدراك الحقائق كما هى!.

---

۱ – ۱) -«تلقى»فعل مضارع مبنى للمفعول،و هو من باب التفعيل،و الفعل الثلاثى المجرّد من هذه الماده(لقى)و هو يتعدى إلى مفعول واحد.أمّا المزيد فيتعدى إلى مفعولين.و فى الآيه محل البحث(اللّه)هو الفاعل و ملقى القرآن، و النّبى(مفعول به أول)،و القرآن مفعول ثان،و حيث أنّ الفعل بنى للمجهول يقوم المفعول الأوّل مقام الفاعل فرفع، و أمّا المفعول الثّانى فعلى حاله.

و لذلک فقد کان من دعاء المعصومین:(اللّهم أرنی الأشیاء کما هی)أی لأعرف قیمها و أؤدی حقّها.

و هـذه الحـاله لاـ تتحقق بغیر الإیمـان!لأـنّ الهوی و الهوس و الانحرافات أو الرغبات النفسیه،تکون حجابا و سـدا کبیرا فی هـذا الطریق،و لا یمکن رفع هذا الحجاب أو السد إلاّ بالتقوی و ضبط هوی النفس!.

لذلک فقد قرأنا فی الآیات آنفه الذکر: إِنَّ الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ زَیَّنّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ یَعْمَهُونَ .

و المثـل الواضـح و الجلی لهـذا المعنی نراه فی حیـاه کثیر من عبـده الـدنیا فی زماننا بشـکل بیّن.فهم یفتخرون ببعض المسائل و یرونها حضاره،إلاّ أنّها فی الواقع لیست إلاّ الفضیحه و العار و الذل.

فالتفسخ و الحماقه عندهم دلیل«الحریه».

و التعری و السفور من قبل النساء دلیل«التمدن».

التکالب علی بهارج الدنیا و زخارفها دلیل علی«الشخصیّه».

الغرق فی ألوان الفساد دلیل«التحرر».

القتل و الإجرام دلیل علی«القوّه».

التخریـب و غصـب رؤوس الأـموال دلیـل علی الاسـتعمار،أی البنـاء و العمران (۱) !! اسـتخدام اجهزه الاعلاـم العـامه کالرادیو و التلفزیون لتوکید المفاهیم!! سحق حقوق المحرومین دلیل علی احترام حقوق البشر.

الأسر فی قبضه المخدرات و الفضائح و ما إلی ذلک من أشکال الحریه!.

و التزویر و الغش و اقتناء الأموال من أی طریق کان و کیف کان،دلیل علی

۱- ۱) -المفهوم اللغوی للاستعمار مفهوم جمیـل،یعنی الإعمـار کمـا جاء فی القرآن وَ اسْتَعْمَرَکُمْ فِیها إلاّ أن المفهوم السیاسـی للاستعمار هو التسلط من قبل الأجنبی و استثماره لخیرات الشعوب(المصحح).

الجداره و الذكاء.

رعايه أصول العدل و احترام حقوق الآخرين دليل على الضعف و عدم اللياقه!.

الكذب و الدجل و نقض العهود و ما إلى ذلك دليل على السياسه.

و الخلاصه:إنّ الأعمال السيئه و القبيحه تتزين فى نظر هؤلاء الى درجه أنّهم لا يشعرون فى أنفسهم بالخجل منها.بل و يفتخرون و يتباهون بها!! و واضح إلى اين يتجه مثل هذا العالم و ماذا سيكون مصيره!!

ص: ۱۵

الآیات [سوره النمل (۲۷): الآیات ۷ الی ۱۴]

اشاره

إِذْ قٰالَ مُوسىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّی آنَسْتُ نٰاراً سَآتِیکُمْ مِنْهٰا بِخَبَرٍ أَوْ آتِیکُمْ بِشِهٰابٍ قَبَسٍ لَعَلَّکُمْ تَصْطَلُونَ (۷) فَلَمّٰا جٰاءَهٰا نُودِیَ أَنْ بُورِکَ مَنْ فِی اَلنّٰارِ وَ مَنْ حَوْلَهٰا وَ سُبْحٰانَ اَللّٰهِ رَبِّ اَلْعٰالَمِینَ (۸) یٰا مُوسىٰ إِنَّهُ أَنَا اَللّٰهُ اَلْعَزِیزُ اَلْحَکِیمُ (۹) وَ أَلْقِ عَصٰاکَ فَلَمّٰا رَآهٰا تَهْتَزُّ کَأَنَّهٰا جَانٌّ وَلّٰى مُدْبِراً وَ لَمْ یُعَقِّبْ یٰا مُوسىٰ لاٰ تَخَفْ إِنِّی لاٰ یَخٰافُ لَدَیَّ اَلْمُرْسَلُونَ (۱۰) إِلاّٰ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّی غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۱) وَ أَدْخِلْ یَدَکَ فِی جَیْبِکَ تَخْرُجْ بَیْضٰاءَ مِنْ غَیْرِ سُوءٍ فِی تِسْعِ آیٰاتٍ إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ إِنَّهُمْ کٰانُوا قَوْماً فٰاسِقِینَ (۱۲) فَلَمّٰا جٰاءَتْهُمْ آیٰاتُنٰا مُبْصِرَةً قٰالُوا هٰذٰا سِحْرٌ مُبِینٌ (۱۳) وَ جَحَدُوا بِهٰا وَ اِسْتَیْقَنَتْهٰا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا فَانْظُرْ کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَةُ اَلْمُفْسِدِینَ (۱۴)

التّفسیر

اشاره

موسى یقتبس النّور:

یجری الکلام فی هذه السوره-کما أشرنا من قبل-بعد بیان أهمّیه القرآن، عن قصص خمسه أنبیاء عظام،و ذکر أممهم،و الوعد بانتصار المؤمنین و عقاب

ص :۱۶

الکافرین.

فأوّل نبیّ تتحدث عنه هذه السوره،هو موسی علیه السّلام أحد الأنبیاء«أولی العزم»و تبدأ مباشره بأهم نقطه من حیاته و أکثرها«حسّاسیه»و هی لحظه نزول الوحی علی قلبه و إشراقه فیه،و تکلیم اللّه إیّاه إذ تقول الآیه: إِذْ قٰالَ مُوسیٰ لِأَهْلِهِ إِنِّی آنَسْتُ نٰاراً (۱) ای رأیت نارا من بعید،فامکثوا هنیئه سَآتِیکُمْ مِنْهٰا بِخَبَرٍ أَوْ آتِیکُمْ بِشِهٰابٍ قَبَسٍ لَعَلَّکُمْ تَصْطَلُونَ (۲) .

فی تلک اللیله الظلماء،کان موسی علیه السّلام یسیر بزوجته بنت النبیّ شعیب علیه السّلام فی طریق مصر-و فی الصحراء-فهبت ریح بارده،و کانت زوجته(أهله)مقرّبا، فأحسّت بوجع الطلق،فوجد موسی علیه السّلام نفسه بمسیس الحاجه إلی النّار لتصطلی المرأه بها،لکن لم یکن فی الصحراء أیّ شیء،فلمّا لاحت له النّار من بعید سرّ کثیرا،و علم أنّها دلیل علی وجود إنسان أو أناس،فقال:سأمضی و آتیکم منها بخبر أو شعله للتدفئه.

ممّا یلفت النظر أنّ موسی علیه السّلام یقول لأهله سآتیکم منها بخبر أو آتیکم بشهاب قبس«بضمیر الجمع لا الإفراد»و لعل هذا التعبیر هو أنّ موسی علیه السّلام کان معه بالإضافه إلی زوجته أطفال أیضا..لأنّه کان قد مضی علی زواجه عشر حجج(عشر سنین)فی مدین..أو أنّ الخطاب بصیغه الجمع(آتیکم)یوحی بالاطمئنان فی هذه الصحراء الموحشه!.

و هکذا فقد ترک موسی أهله فی ذلک المکان و اتّجه نحو«النّار»التی آنسها فَلَمّٰا جٰاءَهٰا نُودِیَ أَنْ بُورِکَ مَنْ فِی النّٰارِ وَ مَنْ حَوْلَهٰا وَ سُبْحٰانَ اللّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِینَ .

و هناک احتمالات مختلفه عند المفسّرین فی المراد من قوله تعالی:

۱- ۱) -«آنست»فعل ماض مأخوذ من(الإیناس)و هو الرؤیه المقرونه بالراحه النفسیه و السکینه و إنما یطلق علی الإنسان فهو لهذا المعنی.

۲- ۲) -«الشهاب»هو النور الذی ینبثق من النار کالعمود،و کل نور له عمود یدعی شهابا،و فی الأصل یطلق الشهاب علی واحد النیازک التی تهوی من السماء بسرعه مذهله فتحرق بسبب اصطدامها بالغلاف الجوی فیکون لها عمود من نار،«و القبس»شعله من النار تنفصل عنها.«و تصطلون»من الاصطلاء و هو الدفء(بالنار)..

مَنْ فِی النّارِ

وَ مَنْ حَوْلَها

!...فما المقصود من هـذا التعبیر؟! و یبدو أنّ المراد من مَنْ فِی النّارِ هو موسـی نفسه،حیث کان قریبا منها و من الشـجره الخضـراء التی عنـدها،فکـأنّ موسـی کـان فی النّار نفسـها،و أنّ المراد من مَنْ حَوْلَها هم الملائکه المقرّبون من ساحه القـدس،الـذین کانوا یحیطون بتلک الأرض المقدسه فی ذلک الوقت.

أو أنّ المراد-علی عکس ما ذکرنا آنفا-فمن فی النّار:هم الملائکه المقرّبون،و من حولها هو موسی علیه السّلام.

و علی کلّ حال فقد جاء فی بعض الرّوایات أنّ موسـی علیه السّلام لما وصل النّار و نظر بدقّه،رأی النّار تشتعل من غصن أخضر! و تتسع الشـعله لحظه بعد أخری، و الشجره تزداد اخضرارا و جمالا..فلا حراره النّار تحرق الشجره،و لا رطوبه الشجره تطفئ لهب النّار،فتعجب من هـذا المشـهد الرائع....و انحنی لیقتبس من هـذه النّار و یشـعل الغصن الیابس«الحطب»الـذی کان معه،فأتته النّار فارتاع و رجع...فمرّه یأتی موسی إلی النّار،و مرّه تأتی النّار إلی موسی،و بیّنا هو علی هذه الحاله،إذا بالنداء یقرع سمعه مبشرا إیّاه بالوحی.

فالمراد أنّ موسی علیه السّلام اقترب من النّار ألی درجه عبّر عنه بأنّه«فی النّار».

و التّفسـیر الثّالث لهـذه الجمله،هو أنّ المراد من(من فی النّار)هو نور اللّه الـذی تجلّی فی تلک الشـعله،و المراد من«من حولها»هو موسـی الـذی کان قریبا منها.و علی کل حال فمن أجل أن لا یتوهم أحـد من هـذه العباره مفهوم «التجسـیم»فقـد ختمت الآیه ب سُبْحانَ اللّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ تنزیها له عن کل عیب و نقص و جسمیّه و ما یعترض الجسم من عوارض!.

و مرّه أخری نودی موسی بالقول: یا مُوسی إِنَّهُ أَنَا اللّهُ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ .

و ذلک یزول عن موسـی علیه السّـلام کل شک و تردّد،و لیعلم أنّ الّذی یکلمه هو ربّ العالمین،لا شعله النّار و لا الشجره،الربّ القوی العزیز الذی لا یغلب و لا یقهر،

و الحكيم ذو التدبير فى جميع الأمور!.

و هذا التعبير فى الحقيقه مقدّمه لبيان المعجزه التى سيأتى بيانها فى الآيه التاليه لأنّ الإعجاز آت من هاتين الصفتين«قدره اللّه»و«حكمته»،و لكن قبل أن نصل إلى الآيه التاليه..ينقدح هذا السؤال و هو:من أين تيقن موسى عليه السّلام أنّ هذا النداء هو نداء اللّه و ليس سواه؟! يمكن أن يجاب على هذا السؤال بأنّ هذا النداء-أو الصوت المقرون بمعجزه جليّه،و هى إشراق النّار من الغصن الأخضر«فى الشجره الخضراء»- دليل حى على أنّ هذا أمر إلهى!.

ثمّ إنّه-كما سنرى فى الآيه التاليه-بعد هذا النداء أمر موسى عليه السّلام بإلقاء العصا و إظهار اليد البيضاء،على نحو الإعجاز،و هما شاهدان صادقان آخران على هذه الحقيقه.

ثمّ بعد هذا كله(فعلى القاعده)فإن نداء اللّه له خصوصيه تميزه عن كلّ نداء آخر،و حين يسمعه الإنسان يؤثر فى روحه و قلبه تأثيرا لا يخالطه الشك أو التردد بأنّ هذا النداء هو نداء اللّه سبحانه.

و حيث أنّ الصدع بالرساله و البلاغ(و أيه رساله و بلاغ...رساله إلى جبار مستكبر ظالم كفرعون).لا بدّ له من قوّه ظاهريه و باطنيه و سند على حقانيته...

فلذا أمر موسى بأن يلقى عصاه: وَ أَلْقِ عَصٰاکَ .

فألقى موسى عصاه،فتبدلت ثعبانا عظيما،فلمّا رآه موسى يتحرك بسرعه كما تتحرك الحيّات الصغار خاف و ولّى هاربا و لم يلتفت الى الوراء: فَلَمّٰا رَآهٰا تَهْتَزُّ كَأَنَّهٰا جَانٌّ وَلّٰى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ . (١)

و يحتمل أنّ عصا موسى تبدلت بادئ الأمر إلى حيّه صغيره،ثمّ تحولت إلى

١- ١) -يعتقد بعض المفسّرين أنّ«الجان»مأخوذ من الجن،و هو الموجود غير المرئى،لأنّ الحيّات الصغيره تتحرك بين العشب فى الأرض و تخفى نفسها.

أفعی کبیره فی المراحل الأخر! و هنا خوطب موسی مرّه أخری أن یٰا مُوسیٰ لاٰ تَخَفْ إِنِّی لاٰ یَخٰافُ لَدَیَّ الْمُرْسَلُونَ فهنا مقام القرب،و حرم أمن اللّه القادر المتعال.

و هنا لا معنی للخوف و الوحشه.و معنی الآیه:أن یا موسی إنّک بین یدی خالق الوجود العظیم،و الحضور عنده ملازم لأمن المطلق!.

و نقرأ نظیر هذا التعبیر فی الآیه(۳۱)من سوره القصص:یٰا مُوسیٰ أَقْبِلْ وَ لاٰ تَخَفْ إِنَّکَ مِنَ الْآمِنِینَ .

إلاّ أنّ فی الآیه التالیه استثناء للجمله السابقه،حیث ذکره القرآن فقال: إِلاّٰ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّی غَفُورٌ رَحِیمٌ !.

و هناک رأیان مختلفان لدی المفسّرین فی علاقه الاستثناء بالجمله:

فالرأی الأوّل:أنّ هناک حذفا ذیل الآیه آنفه الذکر و تقدیره:إنّک من الآمنین و غیر الأنبیاء لیس آمنا.ثمّ استثنی سبحانه من ذلک«بإلاّ»من ظلم ثمّ بدل حسنا،فهو من الآمنین أیضا لأن الله غفور رحیم.

و الثّانی:أنّ الاستثناء من ضمن الجمله،و الظلم إشاره إلی ترک الأولی الذی قد یقع من الأنبیاء،و هو لا ینافی مقام العصمه،و معنی الآیه علی هذا الرأی:أن الأنبیاء فی حال ترک الأولی غیر آمنین أیضا،و أنّ اللّه یحاسبهم حسابا عسیرا، کما جاء فی آیات القرآن عن قصّه آدم و قصّه یونس علیهما السّلام!.

إلاّ أولئک الذین التفتوا إلی ترک الأولی، و انعطفوا نحو اللّه الرحیم،فبدلوا حسنا و عملا صالحا بعد ذلک،کما جاء فی شأن موسی علیه السّلام نفسه فی قصّه قتله الرجل القبطی،إذ اعترف موسی بترکه الأولی،فقال: رَبِّ إِنِّی ظَلَمْتُ نَفْسِی فَاغْفِرْ لِی (۱) .

۱- ۱) -القصص،۱۶.

أمّا المعجزه الثّانيه التى أمر موسى أن يظهرها،فهى اليد البيضاء،إذ تقول الآيه: وَ أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضٰاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .

و القيد مِنْ غَيْرِ سُوءٍ إشاره إلى أن بياض اليد ليس من برص و نحوه،بل هو بياض نورانى يلفت النظر،و هو بنفسه كاشف عن إعجاز و أمر خارق للعاده:

و من أجل أن يظهر اللّه تعالى عنايته و لطفه لموسى أكثر،و كذلك منح الفرصه للمنحرفين للهدايه أكثر،قال لموسى بأن معاجزه ليست منحصره بالمعجزتين الآنفتين،بل فِي تِسْعِ آيٰاتٍ إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ إِنَّهُمْ كٰانُوا قَوْماً فٰاسِقِينَ (۱) .

و يستفاد من ظاهر الآيه أن هاتين المعجزتين من مجموع تسع معاجز «آيات»موسى المعروفه،و قد استنتجنا ذلك من الآيه(۱۰۱)من سوره الإسراء، و إن المعاجز السبع الأخر هى:

۱-الطوفان ۲-الجراد ۳-كثره الضفادع ۴-تبدل لون نهر النيل كلون الدم ۵ -الآفات فى النباتات.و كل واحده من هذه المعاجز الخمس تعدّ إنذارا لفرعون و قومه،فكانوا عند البلاء يلجأون إلى موسى ليرفع عنهم ذلك.

أمّا المعجزتان الأخريان فهما ۶-القحط«السنين»۷-و نقص الثمرات.إذ أشارت إليهما الآيه(۱۳۰)من سوره الأعراف فقالت: وَ لَقَدْ أَخَذْنٰا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَرٰاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ...«و لمزيد الإيضاح يراجع الجزء التاسع من التّفسير الأمثل ذيل الآيه(۱۰۱)من سوره الإسراء».

و أخيرا تعبّأ موسى بأقوى سلاح-من المعاجز-فجاء إلى فرعون و قومه يدعوهم إلى الحق،كما يصرح القرآن بذلك فى آيته التاليه فَلَمّٰا جٰاءَتْهُمْ آيٰاتُنٰا مُبْصِرَةً قٰالُوا هٰذٰا سِحْرٌ مُبِينٌ .

و معلوم أنّ هذا الاتّهام«بالسحر»لم يكن خاصّا بموسى عليه السّلام،بل اتّخذه

---

۱ - ۱) -الجار و المجرور«فى تسع آيات»إمّا متعلقان بجمله(اذهب)أو بأحد أفعال العموم المقدره..و قد تكون(فى) بمعنى(مع)و(إلى فرعون)متعلق بالجمله ذاتها،أو بجمله أنت مرسل بها المفهومه من السياق تقديرا.

المعانـدون ذريعه بوجه الأنبياء،ليجعلوه سدّا فى طريق الآخرين،و الاتّهام بنفسه دليل واضح على عظمه ما يصدر من الأنبياء خارقا للعاده،بحيث اتّهموه بالسحر.

مع أنّنـا نعرف أن الأنبيـاء كانوا رجالا صالحين صادقين طلّاب حق مخلصـين،أمّا السـحره فهم منحرفون ماديّون تتوفر فيهم جميع صفات المدلّسين «أصحاب التزوير».

و إضـافه إلى ذلـك فـإن السـحره كانت لـديهم قـدره محـدوده على الأعمال الخارقه،إلّا أنّ الأنبياء فقـد كان محتوى دعوتهم و منهاجهم و سـلوكهم يكشف عن حقانيتهم، و كانوا يقومون بأعمال غير محـدوده،بحيث كان ما يقومون به معجزا لا يشـبه سـحر السحره أبدا.

و ممّا يلفت النظر أنّ القرآن يضـيف فى آخر الآيه-محل البحث-قائلا:إنّ هـذا الاتهام لم يكن لأنّهم كانوا فى شك من أمرهم و مترددين فعلا،بل كذبوا معاجز أنبيائهم مع علمهم بحقانيتها وَ جَحَدُوا بِهٰا وَ اسْتَيْقَنَتْهٰا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا .

و يستفاد من هذا التعبير أنّ الإيمان له حقيقه و واقعيه غير العلم و اليقين، و يمكن أن يقع الكفر جحودا و إنكارا بالرغم من العلم بالشيء!.

و بعبـاره أخرى:إنّ حقيقه الإيمـان هى الإذعـان و التسـليم-فى البـاطن و الظـاهر-للحقّ،فبنـاء على ذلـك إذا كان الإنسان مستيقنا بشيء ما،إلّا أنّه لا يذعن له فى الباطن أو الظاهر فليس له إيمان.بل هو ذو كفر جحودى،و هذا موضوع مفصل،و نكتفى هنا بهذه الاشاره.

لذلك فإنّنا نقرأ حديثا عن الإمام الصادق عليه السّلام يذكر فيه ضمن عدّه أقسام الكفر الخمسه

«كفر الجحود» و يبيّن بعض شعبه بالتعبير التالى(هو أنّ يجحد الجاحد و هو يعلم أنّه حق قد استقرّ عنده). (1)

ص:22

1- 1) -الكافى،ج 2،باب وجوه الكفر ص 287.

و ممّا ينبغى الالتفات إليه أنّ القرآن يعد الباعث على إنكار فرعون و قومه أمرين:الأوّل الظلم،و الثّانى العلوّ: ظُلْماً وَ عُلُوًّا .

و لعل«الظلم»إشاره إلى غصب حقوق الآخرين،و«العلوّ»إشاره إلى طلب التفوّق على بنى إسرائيل.

أى إنّهم كانوا يرون أنّهم إذا أذعنوا لموسى عليه السّلام و آمنوا به و بآياته،فإنّ منافعهم غير المشروعه ستكون فى خطر،كما أنّهم سيكونون مع رقيقهم «بنى إسرائيل»جنبا إلى جنب،و لا يمكنهم تحمل ایّ من هذين الأمرين.

أو أنّ المراد من الظلم هو ظلم النفس أو الظلم بالآيات،و أنّ المراد من العلوّ هو الظلم للآخرين،كما جاء فى الآيه(۹)من سوره الأعراف بِمٰا كٰانُوا بِآيٰاتِنٰا يَظْلِمُونَ .

و على كل حال،فإنّ القرآن يذكر عاقبه فرعون و قومه على أنّه درس من دروس العبره،فى جمله موجزه ذات معنى كبير،مشيرا إلى هلاكهم و غرقهم فيقول: فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ .

و القرآن هنا لا يرفع الستار عن هذه العاقبه،لأنّ قصّه هؤلاء الكفره و نهايتهم الوخيمه ذكرها فى آيات أخرى و اكتفى هنا بالاشاره الى تلك الآيات ليفهم من يفهم.

و القرآن يعوّل-ضمنا على كلمه(مفسد)مكان ذكر جميع صفاتهم السيئه، لأنّ الإفساد له مفهوم جامع يشمل الإفساد فى العقيده،و الإفساد فى الأقوال و الأعمال،و الإفساد على المستوى الفردى،و المستوى الجماعى،فجمع كلّ أعمالهم فى كلمه(المفسدين).

الآیتان [سوره النمل (۲۷): الآیات ۱۵ الی ۱۶]

اشاره

وَ لَقَدْ آتَیْنا داوُدَ وَ سُلَیْمانَ عِلْماً وَ قالاَ اَلْحَمْدُ لِلّهِ اَلَّذِی فَضَّلَنا عَلی کَثِیرٍ مِنْ عِبادِهِ اَلْمُؤْمِنِینَ (۱۵) وَ وَرِثَ سُلَیْمانُ داوُدَ وَ قالَ یا أَیُّهَا اَلنّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ اَلطَّیْرِ وَ أُوتِینا مِنْ کُلِّ شَیْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ اَلْفَضْلُ اَلْمُبِینُ (۱۶)

التّفسیر

اشاره

حکومه داود و سلیمان علیهما السّلام:

بعد الکلام عن جانب من قصّه موسی علیه السّلام فی هذه السوره،یجری الکلام عن نبیّین آخرین من الأنبیاء العظام،و هما«داود»و«سلیمان»...و الکلام علی داود لا یتجاوز الإشاره العابره،إلاّ أنّ الکلام علی سلیمان أکثر استیعابا.

و ذکر هذا المقطع من قصّه هذین النبیّین بعد قصّه موسی علیه السّلام،لأنّهما کانا من أنبیاء بنی إسرائیل أیضا،و ما نجده من اختلاف بین تأریخهما و تاریخ الأنبیاء الآخرین،هو أنّهما-و نتیجه للاستعداد الفکری و ملائمه المحیط الاجتماعی فی عهدهما-قد وفّقا إلی تأسیس حکومه عظیمه، و أن ینشرا بالاستعانه و الإفاده من حکومتهما دین اللّه،لذلک لا نجد هنا أثرا أو خبرا عمّا عهدناه من أسلوب فی تلک الآیات التی کانت تتکلم عن الأنبیاء الآخرین،و هم یواجهون قومهم

ص:۲۴

المعاندين،و ربّما نالوا منهم الأذى و الطرد و الإخراج من مدنهم و قراهم..فالتعابير هنا تختلف عن تلكم التعابير تماما.

و يدلّ هذا بوضوح أنّه لو كان المصلحون و الدعاه إلى اللّه يوفقون إلى تشكيل حكومه لما بقيت معضله و لغدا طريقهم معبدا سالكا.

و على كل حال،فالكلام هنا عن العلم و القدره و العظمه،و عن طاعه الآخرين حتى الجن و الشياطين لحكومه اللّه و عن تسليم الطير فى الهواء و الموجودات الأخر لحكومه اللّه!.

و أخيرا،فإنّ الكلام عن مكافحه عباده الأصنام عن طريق الدعوه المنطقيه، ثمّ الإفاده من قدره الحكومه!.

و هذه الأمور هى التى ميّزت قصّه هذين النبيّين عن الأنبياء الآخرين.

الطريف،أن القرآن يبدأ من مسأله«موهبه العلم»التى هى أساس الحكومه الصالحه القويه،فيقول: وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَ سُلَيْمانَ عِلْماً .

و بالرغم من أن كثيرا من المفسّرين أجهدوا أنفسهم و أتعبوها ليعرفوا هذا العلم الذى أوتيه سليمان و داود،لأنّه جاء فى الآيه بصوره مغلقه..فقال بعضهم:

هو علم القضاء،بقرينه الآيه(٢٠)من سوره ص: وَ آتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَ فَصْلَ الْخِطابِ و الآيه(٧٩)من سوره الأنبياء وَ كُلاًّ آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً .

و قال بعضهم:إن هذا العلم هو معرفه منطق الطير بقرينه الآيه عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ .

و قال بعضهم:«إن المراد من هذا العلم هو صنعه الدروع، بقرينه صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ .

إلاّ أن من الواضح أن العلم هنا له مفهوم واسع،بحيث يحمل فى نفسه علم التوحيد و الإعتقادات المذهبيه و القوانين الدينيه،و كذلك علم القضاء،و جميع العلوم التى ينبغى توفرها لمثل هذه الحكومه الواسعه القويه...لأنّ تأسيس

حکومه إلهیه علی أساس العدل...و حضاره عامره حرّه...دون الإفاده من علم واسع غیر ممکن...و هکذا فإنّ القرآن یعدّ مقام العلم لتشکیل حکومه صالحه أوّل حجر أساس لها!.

و بعد هذه الجمله ینقل القرآن ما قاله داود و سلیمان من ثناء للّه: وَ قٰالاَ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِی فَضَّلَنٰا عَلیٰ کَثِیرٍ مِنْ عِبٰادِهِ الْمُؤْمِنِینَ .

و الذی یجلب النظر هو أنّه بعد بیان هذه الموهبه الکبیره«العلم»یجری الکلام عن«الشکر»مباشره...لیکون واضحا أنّ کل نعمه لا بدّ لها من شکر، و حقیقه الشکر هو أنّ یستفاد من النعمه فی طریقها الذی خلقت من أجله.

و هذان النبیّان العظیمان علیهما السّلام استفادا من نعمه علمهما الاستفاده القصوی فی تنظیم حکومه إلهیه.

و قد جعل داود و سلیمان معیار تفضیلهما علی الآخرین«العلم»لا ـ القدره و لا ـ الحکومه،و عدّا الشکر للعلم لا ـ لغیره من المواهب،لأنّ کلّ قیمه هی من أجل العلم،و کلّ قدره تعتمد أساسا علی العلم.

و الجدیر بالذکر أنّهما یشکران اللّه و یحمدانه لتفضیلهما و لحکومتهما علی امّه مؤمنه..لأنّ الحکومه علی امّه فاسده غیر مؤمنه لیست مدعاه للفخر! و هنا ینقدح هذا السؤال،و هو:لم قال داود و سلیمان اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِی فَضَّلَنٰا عَلیٰ کَثِیرٍ مِنْ عِبٰادِهِ الْمُؤْمِنِینَ و لم یقولا ـ علی عباده المؤمنین جمیعا،مع أنّهما کانا نبیّین،و هما أفضل أهل عصرهما؟ و لعلّ هذا التعبیر رعایه لأصول الأدب و التواضع،إذ علی الإنسان أن لا یری نفسه أفضل من الجمیع فی أی مقام کان! أو لأنّهما کانا ینظران إلی جمیع الأزمنه،و لم ینظرا إلی مقطع زمنیّ خاص، و نعرف أن علی مدی التأریخ یوجد أنبیاء کانوا أفضل منهما.

و الآیه التالیه تتکلم علی إرث سلیمان أباه داود أولا،فتقول: وَ وَرِثَ

سُلَيْمانُ داوُدَ

.

و هناك كلام بين المفسّرين فى المراد من الإرث هنا،ما هو؟ فقال بعضهم:هو ميراث العلم فحسب...لأنّ فى تصورهم أنّ الأنبياء لا يورثون.

و قال بعضهم:هو ميراث المال و الحكومه،لأنّ هذا المفهوم يتداعى إلى الذهن قبل أى مفهوم آخر.

و قال بعضهم:هو منطق الطير.

و لكن مع الالتفات إلى أنّ الآيه مطلقه،و قد جاء فى الجمل التاليه الكلام على العلم و عن جميع المواهب أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فلا دليل على حصر مفهوم الآيه و جعله محدودا،فبناء على ذلك فإنّ سليمان ورث كل شيء عن أبيه.

و فى الرّوايات الوارده عن أهل البيت عليهم السّلام أنّهم كانوا يستدلون بهذه الآيه على عدم صحه ما

نسب إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من حديث «نحن معاشر الأنبياء لا نورث و ما تركناه صدقه» و أنّه ساقط من الإعتبار لمخالفته كتاب اللّه.

و

فى بعض الأحاديث عن أهل البيت أنّه لما أجمع أبو بكر على أخذ فدك من فاطمه عليها السّلام،محتجّا بالحديث آنف الذكر،جاءته فاطمه عليها السّلام فقالت:(يا أبا بكر،أفى كتاب اللّه أن ترث أباك و لا أرث أبى؟!لقد جئت شيئا فريّا،فعلى عمد تركتم كتاب اللّه و نبذتموه وراء ظهوركم،إذ يقول: وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ (1) .

ثمّ تضيف الآيه حاكيه عن لسان سليمان وَ قالَ يا أَيُّهَا النّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَ أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ .

و بالرغم من ادعاء بعضهم أن تعبير النطق و الكلام فى شأن غير الناس لا يمكن إلاّ على نحو المجاز..إلاّ أنّه إذا أظهر غير الإنسان أصواتا من فمه كاشفا

1- 1) -راجع كتاب الإحتجاج للطبرسى طبقا لما جاء فى تفسير نور الثقلين،ج 4،ص 75.

عن مطلب ما،فلا دليل على عدم تسميته نطقا،لأنّ النطق كل لفظ مبين للحقيقه و المفهوم (۱) .

و لا ـ نريـد أنّ نقول أنّ ما يظهر من أصوات الحيوانات عنـد الغضب أو الرضا أو الألم أو إظهار الشوق لأطفالها هو نطق،كلّا فهى أصوات تقترن بحالات الحيوان...إلّا أنّنا-كما سيأتى فى الآيات التاليه-سنرى بتفصيل أن سليمان تكلم مع الهدهد فى مسائل و حمّله رساله...و طلب منه أن يتحرّى جوابها.

و هذا الأمر يدلّ على أن الحيوانات بالإضافه إلى أصواتها الكاشـفه عن حالاتها الخاصه...لها القدره على النطق فى ظروف خاصه بأمر اللّه،كما سيأتى الكلام فى شأن تكلم النمل فى الآيات المقبله إن شاء اللّه.

و بالطبع فإن النطق استعمل فى القرآن بمعناه الوسيع،حيث يبيّن حقيقه النطق و نتيجته،و هو بيان ما فى الضـمير،سواء كان ذلك عن طريق الألفاظ أو عن طريق الحالات الأخر،كما فى قوله تعالى: هٰذٰا كِتٰابُنٰا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ (۲) إلّا أنّه لا حاجه إلى تفسير كلام سليمان و منطق الطير بهـذا المعنى...بل طبقا لظاهر الآيات فإن سليمان كان بإمكانه أن يعرف ألفاظ الطير الخاصه الداله على مسائل معيّنه فيشخّصها،أو أنّه كان يتكلم معها فعلا..

و سنتكلم فى هذا الشأن فى البحوث إن شاء اللّه تعالى.

أمّا جمله أُوتِينٰا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فهى على خلاف ما حدده جماعه من المفسّرين،لها مفهوم واسع شامل..فهى تشمل جميع الأسباب اللازمه لإقامه حكومه اللّه فى ذلك الحين..و أساسا فإن الكلام سيقع ناقصا بدونها،و لا يكون له

ص: ۲۸

---

۱ – ۱) -يقول ابن منظور فى لسان العرب:«النطق»هو التكلم،ثمّ يضيف«و كلام كل شىء منطقه.و منه قوله تعالى: عُلِّمْنٰا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ثمّ ينقل عن بعض علماء العرب-و هو ابن سيده-أنّه«خلافا لما قال بعضهم:إن النطق خاص بالإنسان.فقد يستعمل النطق فى غير الإنسان».و ينبغى الالتفات إلى أن الفلاسفه و علماء المنطق أطلقوا النطق على القدره على التفكير الذى يعطى الإنسان التمكن من الكلام...

۲ – ۲) -الجاثيه،الآيه ۲۹.

ارتباط واضح بما سبق.

و هنا يثير الفخر الرازى سؤالا ـ فيقول:أليس التعبير ب(علمنا)و(أوتينا)من قبيل كلام المتكبرين؟! ثمّ يجيب على سؤاله هذا بالقول:إن المراد من ضمير الجمع هنا هو سليمان و أبوه،أو هو و معاونوه فى الحكومه..و هذا التعبير مستعمل حين يكون الشخص فى رأس هيئه ما،أن يتكلم عن نفسه بضمير الجمع!.

بحوث

اشاره

١-علاقه الدين بالسيّاسه

خلافا لما يتصوره أصحاب النظره الضيقه من أن الدين مجموعه من النصائح و المواعظ،أو المسائل الخاصه بالحياه الشخصيّه للإنسان..بل هو مجموعه من القوانين و المناهج الحيويه التى تستوعب جميع مسائل حياه الإنسان و خاصه المسائل الاجتماعيه.

فقد بعث الأنبياء لإقامه القسط و العدل كما فى الآيه(٢٥)من سوره الحديد، إذ يقول سبحانه لِيَقُومَ النّٰاسُ بِالْقِسْطِ .

و ليضع الأنبياء عن الناس إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلاٰلَ الَّتِي كٰانَتْ عَلَيْهِمْ فيتمتعوا بالحريه كما أشارت إلى ذلك الآيه(١٥٧)من سوره الأعراف.

و الدين رحمه و منجاه للمستضعفين و تخليصهم من نير المتكبرين الظالمين.

و الدين-أخيرا-مجموعه من التعاليم و التربيه فى مسير تزكيه الإنسان و الرقى به نحو الكمال(كما أشارت إليه الآيه ٢ من سوره الجمعه).

و بديهى أن هذه الأهداف الكبرى لا ـ يمكن أن تتحق دون إقامه الحكومه! فمن ذا يستطيع أن يقيم القسط بين الناس بمجرّد التوصيات الاخلاقيّه؟..أو أن

يقطع أيدى الظالمين عن المستضعفين. و يضع الإصر و الأغلال عن يدى الإنسان و رجليه دون الاستناد الى قدره شامله!! و من يستطيع أن ينشر الثقافه الصحيحه و المسائل التربويه فى مجتمع يشرف عليه المفسدون،فيمنح القلوب الملكات الأخلاقيه؟ و هذا هو ما نقوله بأنّ الدين لا ينفصل عن السياسه،فإذا انفصل الدين عن السياسه فقد فقد عضده و شلت يده،و إذا انفصلت السياسه عن الدين تبدّلت إلى عنصر مخرب يستغله أصحاب المنافع الشخصيّه! إن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنّما وفق لنشر هذا الدين القويم السماوى فى أرجاء العالم بسرعه،لأنّه أسس حكومته فى أوّل فرصه واتته،و تابع أهدافه الإلهيه عن طريق الحكومه الإسلاميه.

و هناك بعض الأنبياء ممن نال مثل هذا التوفيق فنشروا دعوتهم إلى اللّه فى الأرض أفضل بشكل...أمّا من لم تسمح لهم الفرصه بإقامه حكومه إلهيه،فإنّهم لم يحالفهم التوفيق كثيرا فى نشر رسالتهم الالهيه..

٢-آيات الحكومه الإلهيه

ممّا يلفت النظر أنّنا نجد فى قصّه سليمان و داود-بصوره واضحه-أنّهما استطاعا أن يقلعا جذور الشرك و آثاره بسرعه،و أن يقيما نظاما إلهيا عادلا..

نظاما يقوم على أسس و اركان-طبقا لما فى الآيات محل البحث-العلم و المعرفه و الاطلاع فى المجالات المختلفه.

نظاما يتوج منهجه اسم اللّه،فهو على رأس لوحته.

نظاما استعمل كل قواه حتى الطائر، من أجل الوصول إلى أهدافه.

نظاما جعل الشياطين مغلوله،و الظالمين أذلاء لا يتجاوزون حدودهم.

و أخيرا فإنّ هذا النظام كانت لديه القدره النظاميه«العسكريه»الكافيه،

و الجهاز التجسس«الأمنى»،و الأفراد المتخصصون فى المجالات الاقتصاديه و الإنتاجيّه و العلميه المختلفه،و كل ذلك كان تحت خيمه«الإيمان»و مظلّه «التوحيد».

۳-منطق الطير

فى الآيات المتقدمه و الآيات التاليه بعدها التى تذكر قصّه سليمان و الهدهد، إشاره صريحه إلى منطق الطير،و بعض ما يتمتع به الحيوان من شؤون.

و ممّا لا شك فيه أنّ الطيور كسائر الحيوانات تظهر أصواتا فى حالاتها المختلفه،بحيث يمكن معرفتها بدقه،أن أىّ صوت يعبّر عن الجوع؟و أىّ صوت يعبر عن الغضب؟و أى صوت يعبر عن الرضا؟و أى صوت يعبّر عن التمنى؟و أىّ صوت يدعوا الأفراخ إليه؟و أى صوت يعبر عن القلق و الاستيحاش و الرعب؟.

فهذه الأصوات من أصوات الطيور،لا مجال للشك و التردد فيها،و كلّنا نعرفها مع اختلاف فى كثره الاطلاع أو قلّته!إلاّ أنّ آيات هذه السوره-بحسب الظاهر-تبيّن موضوعا أوسع ممّا ذكرناه آنفا..فالبحث هنا عن نطقها بنحو «معمّى خفىّ»بحيث ينطوى على مسائل دقيقه،و البحث عن تكلّمها و تفاهمها مع الإنسان..و بالرغم من أن هذا الأمر مدعاه لتعجب بعضهم،إلاّ أنّه مع الالتفات إلى المسائل المختلفه التى كتبها العلماء و مشاهداتهم الشخصيه فى شأن الطيور،لا يكون الموضوع عجيبا.

فنحن نعرف عن ذكاء الطيور مسائل أعجب من هذا.

فبعضها لديها المهاره فى صنع أعشاشها و بيوتها بشكل أنيق،قد يفوق عمل مهندسينا أحيانا.

و بعض الطيور تعرف عن وضع أفراخها فى المستقبل،و حاجاتها،و تعمل لها عملا دقيقا،بحيث تكون مثار إعجابنا جميعا.

ص:۳۱

و توقعها لما سيكون عليه الجوّ حتى بالنسبه لعدّه أشهر تاليه،و معرفتها بوقوع الزلازل قبل أن تقع،و قبل أن تسجلها مقاييس الزلازل المعروفه!.

و التعليمات التى تصدر إلى الحيوانات فى«السيرك»و نشاطاتها و أعمالها الخارقه للعاده الحاكيه عن ذكائها العجيب..

أعمال النمل و حركاته العجيبه و تمدنه المثير.

عجائب حياه النحل،و ما تقوم به من أعمال محيره.

معرفه الطيور المهاجره بالطرق الجويّه،و قد تقطع المسافه بين القطبين الشمالى و الجنوبى! خبره الأسماك فى مهاجرتها الجماعيه فى أعماق البحار.

كل ذلك من المسائل العلميه المسلّم بها،كما أنّها دليل على وجود مرحله مهمّه من الإدراك أو الغريزه-أو ما شئت فسمه-فى هذه الحيوانات!.

وجود الحواس غير الطبيعيه فى الحيوانات-كالرادار للخفاش،و حاسه الشم القويه فى بعض الحشرات،و النظر الحاد عند بعض الطيور،و أمثالها،دليل آخر على أنّها ليست متخلفه عنّا فى كل شيء! فمع الأخذ بنظر الإعتبار جميع ما بيّناه،لا يبقى مجال للعجب من أن لهذه الحيوانات تكلما و نطقا خاصا،و أنّها تستطيع أن تتكلم مع الإنسان الذى يعرف، «ألف باءها»...و قد وردت الإشاره فى آيات القرآن إلى هذا المعنى،و منها الآيه (٣٨)من سوره الأنعام وَ مٰا مِنْ دَابَّهٍ فِى الْأَرْضِ وَ لاٰ طٰائِرٍ يَطِيرُ بِجَنٰاحَيْهِ إِلاّٰ أُمَمٌ أَمْثٰالُكُمْ (١) .

و فى الرّوايات الإسلاميه أمور كثيره أيضا،تكشف عن نطق الحيوانات و خاصه الطيور..و حتى أنّه نقل لكلّ«منطق»هو بمثابه الشعار،بحيث يطول

ص:٣٢

١- ١) -كان لنا بحث آخر ذيل الآيه(٣٨)من سوره الأنعام.

المقام بنا لو تعرضنا له بالتفصيل (۱) .

ففی روایه عن الإمام أبی عبـد اللّه الصادق أنّه قال:قال أمیر المؤمنین علی لابن عباس «إنّ اللّه علّمنا منطق الطیر کما علّم سـلیمان بن داود و منطق کل دابه فی برّ أو بحر» (۲) .

۴-روایه«نحن معاشر الأنبیاء لا نورّث»..

نقل أهل السنه فی کتبهم المختلفه

حدیثا عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مضمونه أنّه قال:

«نحن معاشر الأنبیاء لا نورّث،ما ترکناه صدقه».. و ربّما نقل الحدیث فی بعض الکتب بحذف الجمله الأولی و الاکتفاء بعباره:

«ما ترکناه صدقه».

و سـند هـذا الحدیث ینتهی فی کتب أهل السـنه المشـهوره إلی«أبی بکر»- غالبا-إذ تولّی بعد النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم زمام أمور المسلمین،و حین طلبت منه سیده النساء فاطمه علیها السّلام أو بعض أزواج النّبیّ میراثها منه امتنع عن دفع میراث النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلیها استنادا إلی الحدیث آنف الذکر.

و قـد نقل هـذا الحدیث«مسـلم»فی صـحیحه«الجزء ۳-کتـاب الجهـاد و السـیر ص ۱۳۷۹»و«البخـاری»فی الجزء الثـامن من کتاب الفرائض ص ۱۸۵، و جماعه آخرون فی کتبهم.

ممّا یلفت النظر أن«البخاری»نقل فی صـحیحه حدیثا عن«عائشه»أنّها قالت:«إن فاطمه و العباس علیهما السّلام أتیا أبا بکر یلتمسان میراثهما من رسول اللّه،و هما حینئذ یطلبان أرضیهما من فدک و سهمهما من خیبر،

فقـال أبو بکر:سـمعت رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم یقول: لاـ نورّث...ما ترکناه صـدقه، إنّما یأکل آل محمّـد من هـذا المال...

قال أبو بکر:و اللّه لا أدع أمرا رأیت رسول اللّه یصنعه فیه إلاّ صنعته«قال»فهجرته

۱- ۱) -لمزید الاطلاع یراجع تفسیر القرطبی ذیل الآیات محل البحث و تفسیر نور الثقلین،ج ۴،ص ۷۷،فما بعد..
۲- ۲) -المصدر السابق،ص ۸۱.

فاطمه فلم تكلمه حتى ماتت (۱) !.

و بالطبع فإنّ هذا الحديث فيه مجال للنقد و الطعن من جهات متعدده،إلاّ أنّنا نقتصر فى هذا التّفسير على ذكر ما يلى:

۱-إنّ هـذا الحديث لا ينسـجم مع نصّ القرآن...و وفقا للقواعد الأصوليه التى عندنا،أن كلّ حديث لا يوافق كتاب اللّه ساقط عن الإعتبار،و لا يمكن التعويل على أنّه حديث شريف من أحاديث النبى أو المعصومين عليهم السّلام.

ففى الآيات آنفه الذكر،ورد«و ورث سـليمان داود»و ظاهر الآيه مطلق يشمل حتى الأموال..و نقرأ فى شأن يحيى و زكريا يَرِثُنِی وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ «مريم الآيه ۶».و لا سيما فى ما يخصّ زكريا،فإن كثيرا من المفسّرين أكّدوا على الأمور الماليه!.

إضافه إلى ذلك فإنّ ظاهر آيات الإرث فى القرآن المجيد عام و يشمل جميع الموارد.

و ربّما كان لهذا السبب أن يفسر«القرطبى»-مضطرا-الحديث على أنّه غالبا ما يكون كذلك،لا أنّه عام،و قال:هذا مثل قولهم:إنّا-معشر العرب-أقرى الناس للضيف،مع أن هذا الحكم غير عام (۲) .

إلاّ أن من الواضـح أن هـذا الكلام ينفى«قيمه هـذا الحـديث...»لأنّنا إذا توسّـلنا بهـذا العذر فى شأن سـليمان و يحيى،فإنّ شـموله للموارد الأخرى غير قطعى أيضا.

۲-إنّ الرّوايه المتقدمه تعارض روايه أخرى تدلّ على أن أبا بكر صـمّم على إعاده فدك إلى فاطمه عليها السّلام،إلاّ أن الآخرين ما نعوه،كما نقرأ فى سيره الحلبى:إن فاطمه قالت له:من يرثك؟!قال أهلى و ولدى!فقلت:فما لى لا أرث أبى؟.و فى

۱- ۱) -صحيح البخارى-الجزء الثامن،ص ۱۸۵.

۲- ۲) -تفسير القرطبى،ج ۷،ذيل الآيات محل البحث،ص ۴۸۸۰.

کلام سبط بن الجوزی:إنّه کتب لها بفدک و دخل علیه عمر فقال:ما هذا؟فقال:

کتاب کتبته لفاطمه بمیراثها من أبیها.فقال:فما ذا تنفق علی المسلمین،و قد حاربتک العرب کما تری؟ثمّ أخذ عمر الکتاب فشقّه . (۱)

تری کیف یمنع النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم موضوع الإرث و ینهی عنه بصراحه،و یجرأ أبو بکر علی مخالفته؟!و لم استند عمر إلی المسائل العسکریه و حاجه المعارک، و لم یستند إلی الروایه؟! إن التحقیق الدقیق-فی الروایات الآنفه-یدل علی أن الموضوع لم یکن موضوع نهی النّبی عن الإرث،کما أثاره أبو بکر،بل المهم هنا المسائل السیاسیه آنئذ،و هذه المسائل هی ما تدعونا إلی أن نتذکر مقاله ابن أبی الحدید المعتزلی إذ یقول:سألت أستاذی«علی بن الفارقی»:أ کانت فاطمه،صادقه؟فقال:نعم.

قلت:فلم لم یدفع إلیها أبو بکر فدک و هی عنده صادقه؟یقول:المعتزلی:فتبسم أستاذی،ثمّ قال کلاما لطیفا مستحسنا مع ناموسه و حرمته و قلّه دعابته،قال:لو أعطاها الیوم فدکا بمجرّد دعواها،لجاءت إلیه غدا و ادعت لزوجه الخلافه و لم یمکنه الاعتذار بشیء لأنّه یکون قد أسجل علی نفسه أنّها صادقه فیما تدعی کائنا ما کان من غیر حاجه الی بیّنه و لا شهود (۲) .

۳-الروایه المعروفه عن النّبی الوارده فی کثیر من کتب أهل السنّه و الشیعه

«العلماء ورثه الأنبیاء» (۳) .

و ما

نقل عنه صلّی اللّه علیه و آله أیضا «إن الأنبیاء لم یورثوا دینارا و لا درهما».

یستفاد من مجموع هذین الحدیثین أن الهدف الأساس للأنبیاء نشر العلم، و هم یفخرون به،و أهم ما یترکونه هو الهدایه.و من یحصل علی الحظ الکبیر من

۱- ۱) -سیره الحلبی،ج ۳،ص ۴۸۸.

۲- ۲) -شرح نهج البلاغه،لابن أبی الحدید،ج ۱۶،ص ۲۸۴.

۳- ۳) -صحیح الترمذی،باب العلم،الحدیث ۱۹،و سنن ابن ماجه مقدمه الحدیث ۱۷. (،)-أصول الکافی،ج ۱،باب صفه العلم،الحدیث ۲.

العلم و المعرفه فهو وارثهم الأصيل...بصرف النظر عن الأموال التی یرثها عنهم، ثمّ إن هذا الحدیث منقول فی المعنی،و عبّر عنه تعبیرا سیئا و یحتمل أن یکون(ما ترکناه صدقه)المستنبط من بعض الرّوایات مضاف علیه.

و لکی لا یطول بنا الکلام ننهی کلامنا ببحث للمفسر المعروف من أهل السنه «الفخر الرازی»الذی أورده ذیل الآیه(١١)من سوره النساء إذ یقول:من تخصیصات هذه الآیه«آیه الإرث»ما هو مذهب أکثر المجتهدین،أن الأنبیاء علیهم السّلام لا یورّثون،و الشیعه خالفوا فیه..روی أن فاطمه علیها السّلام لما طلبت المیراث و منعوها منه احتجوا

بقوله علیه السّلام: «نحن معاشر الأنبیاء لا نورّث..ما ترکناه صدقه».. فعند هذا احتجت فاطمه علیها السّلام بعموم قوله: لِلذَّکَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَیَیْنِ و کأنّها أشارت إلی أن عموم القرآن لا یجوز تخصیصه بخبر الواحد.

ثمّ یضیف الفخر الرازی قائلا:إنّ الشیعه قالوا:بتقدیر أن یجوز تخصیص عموم القرآن بخبر الواحد،إلاّ أنّه غیر جائز هنا و بیانه من ثلاثه أوجه:

«أحدها»:أنّه علی خلاف قوله تعالی حکایه عن زکریا علیه السّلام: یَرِثُنِی وَ یَرِثُ مِنْ آلِ یَعْقُوبَ ..و قوله تعالی: وَ وَرِثَ سُلَیْمانُ داوُدَ قالوا:و لا یمکن حمل ذلک علی وراثه العلم و الدین،لأنّ ذلک لا یکون وراثه فی الحقیقه،بل یکون کسبا جدیدا مبتدأ،إنّما التوریث لا یتحقق إلاّ فی المال علی سبیل الحقیقه.

«و ثانیها»:أن المحتاج إلی معرفه هذه المسأله ما کان إلاّ فاطمه و علی و العباس،و هؤلاء کانوا من أکابر الزهاد و العلماء و أهل الدین،و أمّا أبو بکر فإنّه ما کان محتاجا إلی معرفه هذه المسأله البته،لأنّه ما کان یخطر بباله أن یرث من الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،فکیف یلیق بالرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یبلغ هذه المسأله إلی من لا حاجه به إلیها؟و لا یبلغها إلی من له إلی معرفتها أشدّ الحاجه؟! «و ثالثها»:یحتمل أن قوله:«ما ترکناه صدقه»صله«لا نورث»و التقدیر (الذی ترکناه صدقه)فذلک الشیء(لا یورّث).

فإن قیل:لا یبقی للرّسول خاصیه فی ذلک! قلنا:بل تبقی الخاصیه،لاحتمال أن الأنبیاء إذا عزموا علی التصدّق بشیء فبمجرّد العزم یخرج ذلک عن ملکهم و لا یرثه وارث عنهم،و هذا المعنی مفقود فی حق غیرهم! و الجواب:أنّ فاطمه رضیت بقول أبی بکر بعد هذه المناظره،و انعقد الإجماع علی صحه ما ذهب إلیه أبو بکر!إلخ (1) .

إلاّ أن من الواضح أن جواب الفخر الرازی لا یناسب الاستدلالات السابقه، لأنّه کما ذکرنا آنفا و نقلناه عن المصادر المعتبره عند أهل السنه...فإن فاطمه لا أنّها لم ترض بکلام أبی بکر فحسب،بل ظلّت واجده و«غاضبه»علیه،فلم تکلمه حتی آخر عمرها سلام اللّه علیها! ثمّ بعد هذا کلّه کیف یمکن أن یدّعی الإجماع فی هذه المسأله،مع أنّ علیّا و فاطمه علیها السّلام و العباس و أضرابهم الذین تربّوا فی مهبط الوحی و مرکزه،کانوا مخالفین لهذا الرأی.

1- 1) -تفسیر الفخر الرازی،ج 9،ص 210.

الآيات [سوره النمل (۲۷): الآيات ۱۷ الی ۱۹]

اشاره

وَ حُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ اَلْجِنِّ وَ اَلْإِنْسِ وَ اَلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (۱۷) حَتّی إِذا أَتَوْا عَلی وادِ اَلنَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا اَلنَّمْلُ اُدْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۱۸) فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها وَ قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِی أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ اَلَّتِی أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلی والِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَ أَدْخِلْنِی بِرَحْمَتِكَ فِی عِبادِكَ اَلصّالِحِينَ (۱۹)

التّفسير

اشاره

سليمان فی وادی النمل:

يستفاد من آيات هذه السوره،و آيات سوره سبأ أن«حكومه سليمان»لم تكن حكومه مألوفه،بل حكومه مقرونه بما يخرق العادات و المعاجز المختلفه، التی ورد قسم منها فی هـذه السوره،و القسم الآخر ورد فی سوره«سبأ»أمّا ما ورد فی هـذه السوره من الأمور الخارقه للعاده«حكومه سليمان علی الجن، و الطير،و إدراكه كلام النمل،و كلامه مع الهدهد».

و فی الحقيقه فإنّ اللّه أظهر قدرته فی هـذه الحكومه و ما سخّر لها من قوی، و نحن نعرف أن هـذه الأمور عنـد اللّه-فی نظر الإنسان الموحّد-يسيره و سهله!.

و أوّل ما تبدأ هذه الآيات بقوله تعالى: وَ حُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ وَ الطَّيْرِ .

و كـانت جنوده من الكثره بحيث كـانوا عنـد التحرك و المسير،و من أجـل المحافظه على النظم.يؤمرون بتوقف مقـدمه الجيش لتلحق بها مؤخرتها فَهُمْ يُوزَعُونَ .

«يوزعون»من مـاده(وزع)على وزن(جمع)و معناه الحبس و الإيقاف، و هـذا التعبير متى أطلق على الجنـد أو الجيش فيعنى إيقاف أوّل الجيش ليلحق به آخره،لكى يحفظ من التشتت و التفرق.

و كلمه«وزع»معناها الحرص و العلاقه الشديده بالشيء،بحيث تمنع الإنسان عن الأمور الأخرى.

و يستفاد من هذا التعبير أنّ جنود سليمان كانوا كثيرين،كما كانوا يخضعون للنظم و الانضباط.

«و حشر»فعل ماض من(الحشر)على وزن(نشر)و معناه إخراج الجمع من المقرّ،و التحرك نحو الميدان للقتال،و ما أشبه ذلك.

و يسـتفاد من هـذا التعـبير-و التعبير التـالى فى الآـيه الأـخرى أنّ سـليمان عليه السّـلام كـان قـد جمع جنوده و حرّكهم نحو نقطه ما،لكن هذه النقطه أيه نقطه هى؟و أين كان يتجه سليمان؟ليس ذلك معلوما على وجه الدقّه.

و اسـتفاد بعضـهم من الآـيه التـاليه التى تتحـدث عن وصول سـليمان إلى وادى النمـل،أنّهـا منطقه على مقربه من الطـائف.و قـال بعضهم:بل هى منطقه على مقربه من«الشام».

و حيث أنّ هذا الموضوع لا تأثير له فى الأمور الأخلاقيه و التربويه«للآيه» لذلك لم تتطرق له الآيه الكريمه.

و هناك-ضمنا-جدل بين كثير من المفسّرين فى أن الإنس و الجن و الطير،

هل كانوا جميعا من جنود سليمان؟فتكون(من)فى الآيه بيانيه،أو أن قسما منهم كان يؤلف جيشه و جنوده فتكون(من)تبعيضيه..و يبدو أن هذا بحث لا طائل تحته...لأنّ سليمان-دون أدنى شك-لم يكن حاكما على وجه البسيطه كلها،بل كانت منطقه نفوذه و حكومته منطقه الشام و بيت المقدس،و قد يدخل بعض ما حولهما تحت سلطته و حكومته!.

كما يستفاد من الآيات التاليه أنّه لم تكن له بعد سلطه على اليمن أيضا..

و إنّما صارت اليمن تحت نفوذه بعد قصّه الهدهد و«تسليم ملكه سبأ»و إذعانها له.

و جمله وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فى الآيات التاليه،تدلّ على أن هدهدا واحدا كان ضمن الطير التى كانت تحت أمر سليمان،بحيث أنّه لما افتقده سأل عنه،فلو كانت الطيور جميعها تحت أمره و فيها آلاف الهداهد،لكان هذا التعبير غير صحيح «فتأمّلوا بدقه».

و على كل حال،فإنّ سليمان تحرك بهذا الجيش العظيم حَتّٰى إِذٰا أَتَوْا عَلىٰ وٰادِ النَّمْلِ .

فخاطبت نمله من النمل أصحابها محذره،كما تقول الآيه: قٰالَتْ نَمْلَةٌ يٰا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسٰاكِنَكُمْ لاٰ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمٰانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ (1) .

و لنا كلام سيأتى-إن شاء اللّه-فى كيفيه اطّلاع النمله و معرفتها بحضور سليمان و جنوده فى تلك المنطقه،و كيف أوصلت صوتها إلى بقيه النمل؟.

و يستفاد ضمنا من جمله لاٰ يَشْعُرُونَ أن عدل سليمان كان ظاهرا و واضحا حتى عند النمل،لأنّ مفهوم الجمله أن سليمان و جنوده لو شعروا و التفتوا إلى النمله الضعيفه لما وطأوها بالأقدام،و إذا وطئوها فإنّما ذلك لعدم توجههم و التفاتهم. فَتَبَسَّمَ ضٰاحِكاً مِنْ قَوْلِهٰا .

هناك كلمات مختلفه عند المفسّرين فى الشيء الذى أضحك سليمان،

۱- ۱) -قال بعض المفسّرين:إن(التاء)فى النمله للوحده،و تأنيث الفعل مراعاه لظاهر الكلمه!..

و الظاهر أن القضيه ذاتها كانت عجيبه عند سليمان،بحيث تحذّر نمله صويحباتها من النمل...تحذرهنّ من تحطيم سليمان و جنوده إياهن و هم لا يشعرون:

فضحک من أجلها! و قال بعضهم:کان ضحک سليمان سرورا منه بأن عرف أن النمل تعترف بتقواه و عدالته و تقوى جنوده و عدالتهم.

و قال بعضهم:کان ضحکه و تبسمه لأنّ اللّه أعطاه هذه القدره،و هی أنّه برغم جلجله جيشه و لجبه فإنّه التفت إلی صوت النمله مخاطبه بقيه النمل فلم يغفل عنها.

و علی کل حال،فإن سليمان توجه نحو اللّه..داعيا و شاکرا مستزيدا فضله وَ قٰالَ رَبِّ أَوْزِعْنِی أَنْ أَشْکُرَ نِعْمَتَکَ الَّتِی أَنْعَمْتَ عَلَیَّ وَ عَلیٰ وٰالِدَیَّ (۱) .

أی،لتکون لی القدره أن استعمل هذه النعم جميعها فی ما أمرتنی به و ما يرضيک،و لا أنحرف عن طريق الحقّ..فإن أداء شکر هذه النعم لا يکون إلّا بتوفيقک و إعانتک. وَ أَنْ أَعْمَلَ صٰالِحاً تَرْضٰاهُ و هو يشير إلی أن بقاء هذا الجيش و حکومته و تشکيلاتها الواسعه غير مهم بالنسبه إليه،بل المهم أن يؤدی عملا صالحا يرضی به ربّه،و حيث أن«أعمل»فعل مضارع فهو دليل علی طلب استمرار التوفيق من قبل اللّه له.

و الطلب الثّالث الذی طلبه سليمان من ربّه،کما حکته الآيه،هو أن يجعله فی زمره الصالحين،إذ قال: وَ أَدْخِلْنِی بِرَحْمَتِکَ فِی عِبٰادِکَ الصّٰالِحِينَ ..

۱- ۱) -«أوزعنی»من ماده(إيزاع)و معناه«الإلهام»،أو المنع عن الانحراف،أو إيجاد العشق و التعلق،إلّا أن أغلب المفسّرين اختاروا المعنی الأوّل.

بحوث

اشاره

۱–معرفه سليمان بلغه الحيوانات و منطقها

ليس لنا كثير معرفه بعالم الحيوانات...و ما يزال الغموض أو الإبهام يكتنف هذا العالم و يلقى عليه ظلاله،بالرغم من التقدم العلمى فى هذا المجال.

إنّنا نرى آثار ذكاء الحيوانات و مهارتها فى كثير من أعمالها..فبناء خلايا النحل بشكلها المنظّم الدقيق،و دقه النمل فى جميع ما يحتاج للشتاء،و كيفيه ذخيرته و مذخره!و دفاع الحيوانات عن نفسها عند مواجهتها العدوّ،و حتى معرفتها بكثير من الأمراض،و العثور على بيوتها و أوكارها من الأماكن البعيده، و قطع المسافات الطويله للوصول إلى هدفها...و توقّعها عن حوادث المستقبل و أمثالها.

كل هذه الأمور تدل على أن فى دنيا الحيوانات المجهوله كثيرا من الوسائل الغامضه التى لا نعرف حلّها!.

ثمّ بعد هذا كلّه فإنّ كثيرا من الحيوانات تقوم بأعمال مذهله نتيجه للتعلم و التربيه...يعجز عنها حتى الإنسان.

إلاّ أنّه ليس من الواضح أنّ هذه الحيوانات إلى أيه درجه هى خبيره بدنيا الناس!..ترى هل تعلم الحيوانات واقعا:من نحن؟!و ما نعمل؟و قد لا نعهد فى هذه الحيوانات ذكاء بهذا المستوى،إلاّ أن هذا لا يعنى نفيه و سلبه عنها.

فعلى هذا الحساب إذا كنّا قرأنا فى القصّه السابقه..أن النمل علم بمجىء سليمان و جنوده،و حذر من البقاء،و أنّه يجب التوجه نحو مساكنه لئلا يحطمه سليمان و جنوده..و سليمان عرف هذا الموضوع تماما..فلا مجال للعجب.

ثمّ بعد هذا فإن حكومه سليمان–كما قلنا آنفا–كانت خارقه للعادات مقرونه بالمعاجز،فعلى هذا الأساس أبدى بعض المفسّرين اعتقادهم بأن هذا

المستوى من الاطلاع و المعرفه-من قبل فئه من الحيوانات فى عصر سليمان، هو بنفسه إعجاز خارق للعاده،و لا يمنع أن لا نرى ذلك عينه فى سائر العصور و القرون.

و الغرض أنّه لا- دليل عندنا على حمل قصّه سليمان و النمل،أو سليمان و الهدهد،على الكنايه أو لسان الحال،مع إمكان حفظ الظاهر و حمله على المعنى الحقيقى (۱) !

۲-سليمان و إلهامه الشكر للّه

إن واحده من أفضل العلامات لمعرفه الحكام الإلهيين و تمييزهم عن الحكام الجبابره،هى أن الجبابره حين يصلون إلى القدره يغرقون فى الغرور و الغفله، و ينسون القيم الإنسانيه كلّها...و ينذكّون بشدّه فى أنانيتهم! إلاّ- أن الحكام الإلهيين حين ينالون القدره يحسّون بأعباء المسؤوليه..

فيتوجهون نحو اللّه أكثر من أى وقت مضى،و يسألونه العون و القدره على أداء رسالتهم...كما أن«سليمان»بعد أن وصل إلى تلك القدره.كان أهم شىء عنده أن يسأل اللّه الشكر على نعمه،و الإفاده من هذه المواهب فى مسير رضاه و سعاده عباده!.

و ممّا يلفت النظر أن يبدأ طلبه بعباره أَوْزِعْنِي و مفهومه الإلهام الوجدانى و إعداد القوى الباطنيه كلها لأداء هذا الهدف الكبير.و معناها:اللّهم تفضل على بقدره و طاقه تجعلنى أعبئ كل قواى الداخليه لأداء شكرك،و أداء ما علىّ من مسئوليه..و دلّنى على السبيل إليك،لأنّ الطريق طويل صعب محفوف

۱- ۱) -تحدثنا فى تفسير الآيه(۳۸)من سوره الأنعام عن هذا الشأن أيضا..

بالمخاوف و المخاطر..طريق أداء حقوق جميع الناس فى مثل هذه الحكومه الواسعه.

إنّه لاـ يطلب الإيزاع على شكر نعم اللّه عليه فحسب،بل يطلب فى الوقت ذاته أن يؤدى الشكر على المواهب و النعم التى أنعمها اللّه على والديه...لأنّ كثيرا من مواهب وجود الإنسان يرثها عن والديه...و ممّا لاـ شك فيه أن الإمكانات التى يمنحها اللّه للوالدين تعين الأبناء كثيرا فى سبيل الوصول لأهدافهم.

۳-سليمان و العمل الصالح

ممّا يلفت النظر أن سليمان رغم حكومته و سلطنته التى لاـ نظير لها،و تلك القدره الواسعه،إلاّ أنّه يطلب من اللّه يوفقه للعمل الصالح باستمرار،و أهم من ذلك و أسمى أن يكون فى زمره عباده الصالحين.

و يستفاد من هذا التعبير:

أوّلا:أنّ الهدف النهائى من نيل القدره هو أداء العمل الصالح،العمل الجدير القيّم...و كل ما سواه يعدّ مقدمه له!.

و العمل الصالح مقدمه-أيضا-لنيل رضا اللّه-الذى هو الهدف النهائى و غايه الغايات.

ثانيا:أنّ الدخول فى زمره«الصالحين»مرحله أسمى من مرحله أداء العمل الصالح،لأنّ الأوّل يعنى صلاح الذات،و الثّانى صلاح العمل«لا حضوا بدقّه».

و بتعبير آخر:قد يقوم الإنسان بعمل صالح،إلاّ أن هذا المعنى لا يعدّ جزءا من ذاته و روحه و نسيج وجوده،فسليمان عليه السّلام يطلب من اللّه أن يشمله بعنايته إلى درجه يتجاوز بها مرحله كونه يعمل صالحا،لينفذ الصلاح إلى أعماق وجوده و روحه،و لا يمكن تحقق هذا إلاّ برحمه اللّه.

فكم هو عزيز و غال أن يكون الإنسان عبدا صالحا للّه،بحيث يطلب سليمان من ربّه أن يدخله فى عباده الصالحين،على الرغم من جاهه و حشـمته و جلاله الـذى لا يشك فيها أحـد،و أن يحفظه اللّه من العثرات و الزلات فى كل آن،و خاصّه ما قـد يصـدر من الإنسان و هو على رأس هيئه عظيمه و تشكيلات واسعه!

ص :45

الآیات [سوره النمل (۲۷): الآیات ۲۰ الی ۲۶]

اشاره

وَ تَفَقَّدَ اَلطَّیْرَ فَقٰالَ مٰا لِیَ لاٰ أَرَی اَلْهُدْهُدَ أَمْ کٰانَ مِنَ اَلْغٰائِبِینَ (۲۰) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذٰاباً شَدِیداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَیَأْتِیَنِّی بِسُلْطٰانٍ مُبِینٍ (۲۱) فَمَکَثَ غَیْرَ بَعِیدٍ فَقٰالَ أَحَطْتُ بِمٰا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ جِئْتُکَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ یَقِینٍ (۲۲) إِنِّی وَجَدْتُ اِمْرَأَهً تَمْلِکُهُمْ وَ أُوتِیَتْ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ وَ لَهٰا عَرْشٌ عَظِیمٌ (۲۳) وَجَدْتُهٰا وَ قَوْمَهٰا یَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ وَ زَیَّنَ لَهُمُ اَلشَّیْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ اَلسَّبِیلِ فَهُمْ لاٰ یَهْتَدُونَ (۲۴) أَلاّٰ یَسْجُدُوا لِلّٰهِ اَلَّذِی یُخْرِجُ اَلْخَبْءَ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ یَعْلَمُ مٰا تُخْفُونَ وَ مٰا تُعْلِنُونَ (۲۵) اَللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ رَبُّ اَلْعَرْشِ اَلْعَظِیمِ (۲۶)

التّفسیر

اشاره

قصّه الهدهد و ملکه سبأ:

یشیر القرآن فی هذا القسم من الآیات إلی جانب آخر من حیاه سلیمان علیه السّلام المدهشه،و ما جری له مع الهدهد و ملکه سبأ.

ص :۴۶

فیقول أوّلا: وَ تَفَقَّدَ الطَّیْرَ .

و هـذا التعبیر یکشف هـذه الحقیقه،و هی أنّه کان یراقب وضع البلاد بدقّه، و کان یتحری أوضاع حکومته لئلا یخفی علیه غیاب شیء،حتی لو کان طائرا واحدا.

و ما لا شک فیه أنّ المراد من الطیر هنا هو الهدهـد،لأنّ القرآن یضـیف اسـتمرارا للکلام فَقالَ ما لِیَ لا أَرَی الْهُدْهُدَ أَمْ کانَ مِنَ الْغائِبِینَ .

و هناک کلام بین المفسّرین فی کیفیه التفات سلیمان إلی عدم حضور الهدهد.

فقـال بعضـهم:کـان سـلیمان علیه السّـلام عنـد مـا یتحرک تظلـل الطیر بأنواعهـا فوق رأسه فتکون مثل الخیمه،و قـد عرف غیاب الهدهد من وجود ثغره فی هذا الظل!.

و قال بعضـهم:کان الهدهد مأمورا من قبل سـلیمان بالتقصّـی عن الماء کلما دعت الحاجه إلیه...و عند ما دعت الحاجه إلی الماء فی هذه المرّه لم یجد الهدهد فعرف غیابه.

و علی کل حال،فهـذا التعبیر ما لِیَ لا أَرَی الْهُدْهُدَ ثمّ قوله: أَمْ کانَ مِنَ الْغائِبِینَ لعله إشاره إلی أن غیاب الهدهـد هل کان لعـذر مقبول أو لغیر عـذر؟ و علی أیّه حـال،فـان حکومه منظمه و مقتـدره یجب أن تجعـل کـل شـیء یجری داخل اطار الـدوله تحت نظرها و نفوذها..حتی وجود طائر واحد و غیابه، لا بدّ أن لا یخفی عن علمها و نظرها...و هذا درس کبیر لمن أراد التدبیر.

و من أجـل أن لاـ یکون حکم سـلیمان غیابیا،و أن لا یؤثر غیاب الهدهـد علی بقیه الطیور،فضـلا عن الأشـخاص الـذین یحملون بعض المسؤولیات،أضاف «سلیمان»قائلا: لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِیداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَیَأْتِیَنِّی بِسُلْطانٍ مُبِینٍ .

و المراد من«السـلطان»هنا هو الـدلیل الذی یتسلط به الإنسان من أجل إثبات قصده،و تأکید هذا اللفظ ب«مبین»هو أنّه لا بد لهذا الفرد المتخلف من

ص :47

إقامه دليل واضح و عذر مقبول لتخلفه! و فی الحقيقه فإنّ سليمان قبل أن يقضی غيابيا ذكر تهديده اللازم فی صوره ثبوت التخلّف...و حتی هذا التهديد جعله فی مرحلتين تناسبان الذنب...مرحله العقاب بما دون الاعدام،و مرحله العقاب بالإعدام.

و قد برهن«سليمان»ضمنا أنّه-حتی بالنسبه للطائر الضعيف-يستند فی حكمه إلی المنطق و الدليل،و لا يعوّل علی القوّه و القدره أبدا.

و لكن غيبه الهدهد لم تطل فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ عاد الهدهد و توجه نحو سليمان: فَقٰالَ أَحَطْتُ بِمٰا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ .

و كأن الهدهد قد رأی آثار الغضب فی وجه سليمان،و من أجل أن يزيل ذلك التهجم،أخبره أوّلا بخبر مقتضب مهم الی درجه أن سليمان نفسه كان غير مطّلع عليه،برغم ما عنده من علم،و لما سكن الغضب عن وجه سليمان،فصّل الهدهد له الخبر،و سيأتی بيانه فی الآيات المقبله.

و ممّا ينبغی الالتفات إليه أنّ جنود سليمان-حتی الطيور الممتثله لأوامره- كانت عداله سليمان قد أعطتهم الحريه و الأمن و الدعه بحيث يكلمه الهدهد دون خوف و بصراحه لا ستار عليها فيقول: أَحَطْتُ بِمٰا لَمْ تُحِطْ بِهِ .

فتعامل الهدهد«و علاقته»مع سليمان لم يكن كتعامل الملأ المتملقين للجبابره الطغاه..إذ يتملقون فی البدء مده طويله،ثمّ يتضرعون و يعدون أنفسهم كالذرّه أمام الطود،ثمّ يهوون علی أقدام الجبابره و يبدون حاجتهم فی حاله من التضرع و التملق،و لا يستطيعون أن يصرّحوا فی كلامهم أبدا،بل يكنّون كنايه أرق من الورد لئلا يخدش قلب السلطان غبار كلامهم!!.

أجل،إنّ الهدهد قال بصراحه:غيابی لم يكن اعتباطا و عبثا...بل جئتك بخبر يقين«مهم»لم تحط به! و هذا التعبير درس كبير للجميع،إذ يمكن أن يكون موجود صغير كالهدهد

يعرف موضوعا لا يعرفه أعلم من فى عصره،لئلا يكون الإنسان مغرورا بعلمه...

حتى لو كان ذلك سليمان مع ما عنده من علم النبوّه الواسع.

و على كل حال،فإنّ الهدهد أخذ يفصّل لسليمان ما حدث فقال: إِنِّی وَجَدْتُ امْرَأَهً تَمْلِکُهُمْ وَ أُوتِیَتْ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ وَ لَهٰا عَرْشٌ عَظِیمٌ .

لقد بيّن الهدهد لسليمان بهذه الجمل الثلاث جميع مواصفات هذا البلد تقريبا،و أسلوب حكومته! فقال أوّلا:إنّه بلد عامر فيه جميع المواهب و الإمكانات،و الآخر إنّنى وجدت امرأه فى قصر مجلل تملكهم،و الثّالث:لها عرش عظيم-و لعله أعظم من عرش سليمان-لأنّ الهدهد كان رأى عرش سليمان حتما،و مع ذلك يصف عرش هذه الملكه بأنّه عظيم.

و قد أفهم الهدهد بكلامه هذا سليمان أنّه لا ينبغى أن تتصور أن جميع العالم تحت«نفوذ أمرك و حكومتك»!و أن عرشك هو وحده العرش العظيم...

و لما سمع سليمان عليه السّلام كلام الهدهد غرق فى تفكيره،إلاّ أن الهدهد لم يمهله طويلا فأخبره بخبر جديد..خبر عجيب،مزعج مريب،إذ قال: وَجَدْتُهٰا وَ قَوْمَهٰا یَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَ زَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ فكانوا يفخرون بعبادتهم للشمس و بذلك صدّهم الشيطان عن طريق الحق فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِیلِ .

و قد غرقوا فى عباده الأصنام حتى أنّى لا أتصور أنّهم يثوبون إلى رشدهم فَهُمْ لاٰ یَهْتَدُونَ .

و هكذا فقد بين الهدهد ما هم عليه من حاله دينيه و معنويه أيضا،إذ هم غارقون فى الشرك و الوثنيه و الحكومه تروّج عباده الشمس...و الناس على دين ملوكهم.

معابدهم و أوضاعهم الأخرى تدل على أنّهم سادرون فى التيه،و يتباهون

بهذا الضلال و الانحراف،و فی مثل هذه الظروف التی یری فیها الناس و الحکومه علی خط واحد،فمن البعید إمکان هدایتهم.

ثمّ أضاف الهدهد قائلا: أَلاّ یَسْجُدُوا لِلّٰهِ الَّذِی یُخْرِجُ الْخَبْءَ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ یَعْلَمُ مٰا تُخْفُونَ وَ مٰا تُعْلِنُونَ (۱) .

و کلمه«خبء»علی وزن(صبر)معناها کل شیء خفی مستور،و هی هنا إشاره إلی إحاطه علم اللّه بغیب السماوات و الأرض،أی:لم لا یسجدون للّه الذی یعلم غیب السماوات و الأرض و ما فیهما من أسرار؟! و ما فسّره بعضهم بأن الخبء فی السماوات هو الغیث،و الخبء فی الأرض هو النبات،فهو-فی الحقیقه-من قبیل المصداق البارز.

و الطریف فی الآیه أنّها تتکلم أوّلا عما خفی فی السماوات و الأرض،ثمّ تتکلم عن أسرار القلوب!.

إلاّ أنّه لم استند الهدهد من بین جمیع صفات اللّه إلی علمه بغیب العالم و شهوده کبیره و صغیره؟! لعل ذلک لمناسبه أن سلیمان-بالرغم من جمیع قدرته-کان یجهل خصائص بلد سبأ،فالهدهد یقول:ینبغی الاعتماد علی اللّه الذی لا یخفی علیه شیء فی السماوات و الأرض.

أو لمناسبه أنّه-طبقا لما هو معروف-للهدهد حس خاص یدرک به وجود الماء فی داخل الأرض...لذلک یتکلم عن علم اللّه الذی یعلم بکل خافیه فی عالم الوجود.

و أخیرا یختتم الهدهد کلامه هکذا اَللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِیمِ .

ص: ۵۰

---

۱ – ۱) -کلمه«ألاّ»مرکبه من(أن و لا)کما یذهب إلی ذلک کثیر من المفسّرین،و هی متعلقه بجمله(فصدهم)أو«زین لهم الشیطان»و قدروا لها اللام فتکون الجمله هذا النحو من التقدیر«صدّهم عن السبیل لئلا یسجدوا للّه»إلاّ أن الظاهر أن (ألاّ)حرف تحضیض و معناه(هلاّ)و کما قلنا فی المتن فإنّ هذه الجمله من کلام الهدهد تعقیبا علی ما سبق،و إن کان هناک من یقول بأنها استئنافیه و إنها من کلام اللّه.

و هكذا يختتم الهدهد كلامه مستندا إلى«توحيد العباده»و«توحيد الرّبوبيه» للّه تعالى.مؤكدا نفى كل أنواع الشرك عنه سبحانه.

ملاحظتان

اشاره

أ-الدروس التعليميّه

ما قرأناه فى هذا القسم من الآيات،فيه لطائف كثيره و مسائل دقيقه،يمكن أن يكون لها كبير الأثر فى حياه الناس و سياسه الحكومات جميعا.

١-فرئيس الحكومه أو المدير العام،ينبغى عليه أن يكون دقيقا فى دائرته أو تشكيلاته التنظيميه،بحيث يتابع حتى غياب الفرد الواحد و يتفقده! ٢-أن يراقب تخلف الفرد،و أن يتخذ الحكم الصارم،لكيلا يؤثر غيابه على الآخرين.

٣-لا ينبغى أن يصدر حكما غيابيا أبدا دون أن يمنح المتخلف الفرصه للدفاع عن نفسه،مع الإمكان.

۴-ينبغى أن يجعل لكل جريمه عقابا مناسبا...و أن يكون العقاب بمقدار الذنب،و أن يراعى سلسله مراتبه.

۵-أن على أى شخص-حتى لو كان أكبر الناس،أو بيده أعظم المسؤوليات و القدره الاجتماعيه-أن يذعن للمنطق و الدليل حتى و لو صدر من فم أضعف الخلق!.

۶-ينبغى أن تحكم الصراحه فى محيط المجتمع،و أن يتمتع أفراده بالحريه بحيث يستطيع الواحد منهم عند اللزوم أن يقول لرئيس الحكومه: أَحَطْتُ بِمٰا لَمْ تُحِطْ بِهِ ! ٧-من الممكن أن يكون أقل الأفراد على اطلاع و معرفه،فى حين أنّ أكبر

العلماء و أصحاب النفوذ غير مطلعين،لكيلا يغتر أىّ إنسان بعلمه! ٨-فى المجتمع البشرى حاجات و ضرورات متبادله،بحيث قد يحتاج أكبر شخص فيه-كسليمان مثلا-إلى مساعده أدنى شخص حتى و لو كان مثل الهدهد! ٩-بالرغم من أن فى النساء قابليات كثيره!و قصّه سليمان نفسها حاكيه عن أن ملكه سبأ كانت تتمتع بدرايه كبيره و فهم عال،إلاّ أنّ قياده الحكومه لا تتلاءم مع حاله المرأه و روحها و جسمها،بحيث يتعجب الهدهد من هذه المسأله و يقول:

إِنِّی وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِکُهُمْ

! ١٠-أغلب الناس على دين ملوكهم...لذلك نقرأ فى هذه القصّه أن الهدهد يقول فى شأن الملكه و قومها: وَجَدْتُها وَ قَوْمَها یَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللّهِ .

يتحدث الهدهد أولا عن سجودها ثمّ عن سجود قومها.

ب-الجواب على بعض الأسئله

للمفسرين هنا بعض الأسئله،و منها:كيف لم يحط سليمان عليه السّلام بمثل هذه البلده مع ما لديه من علم و إمكانات و فيره فى حكومته؟.

ثمّ كيف طوى الهدهد هذه المسافه بين اليمن و مركز حكومه سليمان الّذى كان فى الشام«على ما يظهر»؟ و هل كان الهدهد قد ضل الطريق ثمّ اهتدى إلى ذلك المكان،أو كان له غرض آخر؟! أمّا فى ما يخص السؤال الأوّل فيمكن أن يجاب عنه بأن سليمان عليه السّلام كان ذا علم بوجود هذه البلده،إلاّ أنّه لم يعرف خصائصها،ثمّ إن صحراء الحجاز كانت تفصل بين اليمن و الشام،و لم تكن و سائل المواصلات بين البلدان يومئذ كما هى

ص: ٥٢

علیه فی یومنا هذا«و بالطبع فإنّ علمه عن طریق الغیب و الإلهام الإلهی موضوع آخر».

و أمّا قطع المسافه من قبل الهدهد،فإنّها لم یکن عسیره علیه...لأنّنا نعرف بعض الطیور التی تقطع المسافه بین القطبین...و الفاصله بین الشام و الیمن إزاء تلک المسافه لا تعدّ شیئا.

و أمّا مجیء الهدهد إلی سبأ فکان-کما تقول بعض التواریخ-أنّ سلیمان عزم علی زیاره بیت اللّه الحرام،فتوجه من الشام لیؤدی مناسک إبراهیم علیه السّلام«أی الحج»،و فی مسیره رغب فی السیر نحو الجنوب،فواصل منطقه لا تبعد عن الیمن کثیرا...فاغتنم الهدهد الفرصه عند ما استراح سلیمان فی تلک المنطقه و جاء إلی قصر ملکه سبأ فرأی ما رأی من المشهد المثیر العجیب (۱) .

---

۱ – ۱) -لا بأس بمراجعه دائره المعارف لمحمّد فرید و جدی،ج ۱۰،ص ۴۷۰ ماده«الهدهد»بالرغم من أن الرّوایه المذکوره هناک لم تخل من المبالغات!...

الآيات [سوره النمل (۲۷): الآیات ۲۷ الی ۳۵]

اشاره

قالَ سَنَنْظُرُ أَ صَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ اَلْكاذِبِينَ (۲۷) اِذْهَبْ بِكِتابِي هٰذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ (۲۸) قالَتْ يا أَيُّهَا اَلْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ (۲۹) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ (۳۰) أَلاّٰ تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ (۳۱) قالَتْ يا أَيُّهَا اَلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتّٰى تَشْهَدُونِ (۳۲) قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَ أُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَ اَلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ (۳۳) قالَتْ إِنَّ اَلْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَ كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ (۳۴) وَ إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ اَلْمُرْسَلُونَ (۳۵)

التّفسير

اشاره

الملوك مفسدون مخرّبون:

لقد أصغى سليمان عليه السّلام إلى كلام الهدهد بكل اهتمام...و فكّر مليّا،و لعل سليمان كان يظنّ أن كلام الهدهد صحيح،و لا دليل على كذب بهذا الحجم...لكن

ص: ۵۴

حیث أن هـذه المسأله لم تکن مسأله«ساذجه»بسـیطه،و لها أثر کبیر فی مصـیر بلد کامل و أمّه کبیره!...فینبغی أن لا یکتفی بمخبر واحد،بل ینبغی التحقیق أکثر فی هذا المجال: قٰالَ سَنَنْظُرُ أَ صَدَقْتَ أَمْ کُنْتَ مِنَ الْکٰاذِبِینَ .

و هـذا الکلاـم یثبت بصوره جیـده أنّه یجب الاهتمـام فی المسائل المصـیریه المهمّه،حتی لو أخبر بها«فردّ»صـغیر،و أن یعجّل فی التحقیقات اللازمه«کما تقتضیه السین»فی جمله«سننظر»!.

سلیمان علیه السّـلام لم یتهم الهدهـد فیحکم علیه بالکـذب...و لم یصدّق کلامه دون أیّ دلیل...بل جعله أساسا للتحقیق! و علی کل حال،فقد کتب کتابا وجیزا ذا مغزی عمیق،و سلّمه إلی الهدهد و قال له: اِذْهَبْ بِکِتٰابِی هٰذٰا فَأَلْقِهْ إِلَیْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مٰا ذٰا یَرْجِعُونَ (۱) .

یسـتفاد من التعبیر فَأَلْقِهْ إِلَیْهِمْ أن یلقی الکتاب عند ما تکون ملکه سـبأ حاضـره بین قومها،لئلا تعبث به ید النسـیان أو الکتمان.،و من هنـا یتّضـح أن مـا ذهب إلیه بعض المفسّـرین بـأن الهدهـد ذهب إلی قصـر ملکه سـبأ و دخـل مخـدعها و ألقی الکتاب علی صدرها أو حنجرتها- لا یقوم علیه دلیل-و إن کان متناسبا مع الجمله التی وردت فی الآیه التالیه إِنِّی أُلْقِیَ إِلَیَّ کِتٰابٌ کَرِیمٌ .

ففتحت ملکه سـبأ کتاب سـلیمان،و اطّلعت علی مضـمونه،و حیث أنّها کانت من قبل قد سمعت بأخبار سلیمان و اسمه،و محتوی الکتاب یـدلّ علی إقدامه و عزمه الشدید فی شأن بلده«سـبأ»،لذلک فکّرت ملیّا،و لما کانت فی مثل هذه المسائل المهمّه تستشـیر من حولها،لذلک فقد دعتهم و توجهت إلیهم و قٰالَتْ یٰا أَیُّهَا الْمَلَأُ إِنِّی أُلْقِیَ إِلَیَّ کِتٰابٌ کَرِیمٌ .

ص :۵۵

۱- ۱) -قال بعض المفسّـرین:إن جمله«ثمّ تول عنهم»مؤخره معنی،و إن تقدمت فی العباره،و أصـلها هکذا:فانظر ماذا یرجعون ثمّ تولّ عنهم...و إنّمـا قـدروا ذلک لأنّ تولّ عنهم معناه العوده و الرجوع،مع أن ظاهر الآیه أنّه ألق الکتاب و اعرض عنهم و انظر فی مکان مشرف لتری رد فعلهم!...

تری،حقّا أن ملکه سبأ لم تکن رأت«حامل الکتاب»،إلاّ أنّها أحست بأصاله الکتاب من القرائن الموجوده فیه؟و لم تحتمل أن یکون الکتاب مفتعلا و مفتری أبدا...؟! أم أنّها رأت الرّسول بأم عینیها،و رأت کیفیه وصول الکتاب الدهشه التی هی بنفسها دلیل علی أن المسأله واقعیه و مهمّه،و مهما کان الأمر فإنّها عوّلت علی الکتاب بکل اطمئنان؟.

و قول الملکه: إِنِّی أُلْقِیَ إِلَیَّ کِتٰابٌ کَرِیمٌ «أی قیم»لعله لمحتواه العمیق،أو لأنّه بدئ باسم اللّه أو لأنّه ختم بإمضاء صحیح (1) .أو لأنّ مرسله رجل عظیم، و قد احتمل کل مفسّر وجها منها-أو جمیعها-لأنّه لا منافاه بینها جمیعا. و قد تجتمع جمیعها فی هذا المفهوم الجامع!.

صحیح أنّهم(قوم سبأ)کانوا یعبدون الشمس،إلاّ أننا نعرف أن کثیرا من عبده الأصنام کانوا یعتقدون باللّه-أیضا-و یسمونه رب الأرباب و یعظمونه و یحترمونه.

ثمّ إن«ملکه سبأ»تحدثت عن مضمون الکتاب فقالت: إِنَّهُ مِنْ سُلَیْمٰانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیمِ أَلاّٰ تَعْلُوا عَلَیَّ وَ أْتُونِی مُسْلِمِینَ (2) .

و من البعید-کما یبد و-أن یکون سلیمان کتب کتابه إلی ملکه سبأ بهذه العبارات«و هذه الألفاظ العربیّه».إذا فالجمل الأنفه یمکن أن تکون منقوله بالمعنی،أو أنّها خلاصه ما کان کتبه سلیمان،و قد أدّتها ملکه سبأ بهذه الوجازه و الاقتضاب إلی قومها.

1- 1) -ورد فی الحدیث أن کون الکتاب کریما هو بخاتمه«تفسیر مجمع البیان و المیزان و القرطبی».و جاء فی حدیث آخر أن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أراد أن یکتب رساله للعجم،فقیل له:إنّهم لا یقبلونها إلاّ بالخاتم،فأمر النّبی أن یصنع له خاتم و نقشه«لا اله إلاّ اللّه محمّد رسول اللّه»و ختم الرساله أو الکتاب بذلک الخاتم«القرطبی ذیل الآیات محل البحث».

2- 2) -جمله«ألاّ تعلوا علی»یمکن أن تکون بمجموعها بدلا من(کتاب)و بیان لمحتواه.کما یمکن أن تکون(أن) تفسیریه فهی هنا بمعنی(أی)-کما یحتمل أن(أن)تکون متعلقه بمحذوف و تقدیره:أوصیکم ألا تعلوا إلخ.

الطريف أن مضمون هذا الكتاب لم يتجاوز فى الواقع ثلاث جمل:

الأولى:ذكر«اسم اللّه»و بيان رحمانيّته و رحمته.

الثّانيه:الأمر بترك الاستعلاء و الغرور...لأنّ الاستعلاء مصدر المفاسد الفرديّه و الاجتماعيّه.

و الثّالثه:التسليم و الإذعان للحق.

و إذا أمعنا النظر لم نجد شيئا آخر لا بدّ من ذكره.

و بعد أن ذكرت ملكه سبأ محتوى كتاب سليمان لقومها...التفتت إليهم و قٰالَتْ يٰا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى أَمْرِى مٰا كُنْتُ قٰاطِعَةً أَمْراً حَتّٰى تَشْهَدُونِ .

لقد أرادت الملكه بهذه الاستشاره تقويه مركزها فى قومها،و أن تلفت أنظارهم إليها،كما أرادت ضمنا أن تعرف مدى انسجامهم و ميزان استجابتهم لما تقدم عليه من تصميم.

كلمه«أفتونى»مشتقّه من(الفتوى)معناها فى الأصل الحكم الدقيق و الصحيح فى المسائل الغامضه و الصعبه...فملكه سبأ أرادت بهذا التعبير أن تشعرهم بصعوبه المسأله أوّلا،و أن يدققوا النظر و يجمعوا الرأى فيها ليتجنبوا الخطأ ثانيا.

«تشهدون»مأخوذ من ماده«الشهود»،و معناه الحضور...الحضور المقرون بالتعاون و المشوره!.

فالتفت إليها أشراف قومها و أجابوها على استشارتها ف قٰالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَ أُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَ الْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِى مٰا ذٰا تَأْمُرِينَ .

و هكذا فقد أظهروا لها تسليمهم و إذعانهم لأوامرها...كما أبدوا رغبتهم فى الاعتماد على القوّه و الحضور فى ميدان الحرب.

و لمّا رأت الملكه رغبتهم فى الحرب خلافا لميلها الباطنى،و من أجل إطفاء هذا الظمأ و أن تكون هذه القضيه مدروسه،لذلك قٰالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذٰا دَخَلُوا

قَرْيَةً أَفْسَدُوهٰا وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهٰا أَذِلَّةً

.

فيقتلون جماعه منهم و يأسرون آخرين و يطردون طائفه ثالثه و يخرجونهم من ديارهم و يخربون حيّهم و ينهبون ثرواتهم و أموالهم.

و لمزيد التأكيد أردفت قائله: وَ كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ .

و فى الحقيقه...إن ملكه سبأ التى كانت بنفسها ملكه،كانت تعرف نفسيه الملوك بصوره جيده،و أن سيرتهم تتلخص فى شيئين:

١-الإفساد و التخريب.

٢-و إذلال الأعزه...

لأنّهم يفكرون فى مصالحهم الشخصيه،و لا يكترثون بمصالح الأمّه و عزتها...و هما على طرفى نقيض دائما.

ثمّ أضافت الملكه قائله:علينا أن نختبر سليمان و أصحابه،لنعرف منهم و ما يريدون؟و هل سليمان نبيّ حقا أو ملك؟و هل هو مصلح أو مفسد؟و هل يذلّ الناس أم يحترمهم و يعزّهم؟ فينبغى أن نرسل شيئا إليه وَ إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنٰاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ .

فالملوك لهم علاقه شديده بالهدايا،و نقطه الضعف كامنه فى هذا الأمر، فيمكن أن يذعنوا للهدايا الغاليه...فإذا أذعن سليمان بهذه الهديه فهو ملك، و ينبغى أن نواجهه بالقوّه فنحن أقوياء...و إذا ألح على كلامه و لم يكترث بنا فهو نبيّ،و فى هذه الصوره ينبغى التعامل معه بالحكمه و التعقل! و لم يذكر القرآن أيه هديه أرسلتها الملكه إلى سليمان،لكنّه بتنكيرها بيّن عظمتها،إلاّ أن المفسّرين ذكروا مسائل كثيره لا يخلو بعضها من الإغراق:

قال بعضهم:أرسلت إليه خمسمائه غلام و خمسمائه جاريه ممتازه،و قد ألبست الرجال ثياب النساء و النساء ثياب الرجال،و جعلت الأقراط فى آذان

الرجال و الا سوره فی أیدیهم،و ألبست الجواری تیجانا...و کتبت فی رسالتها إلی سلیمان:لو کنت نبیّا فمیّز الرجال من النساء!.

و بعثت أولئک علی مراکب ثمینه،و معهم جواهر و أحجار کریمه،و أوصت رسولها-فی الضمن-أن أنظر کیف یواجهک سلیمان عند وردک علیه،فإن واجهک بالغضب فاعلم بأنه سیره الملوک،و إن واجهک بالمحبه و اللطف فاعلم أنّه نبیّ.

بحوث

اشاره

١-آداب کتابه الرسائل

ما ورد فی الآیات آنفه الذکر فی شأن کتاب«سلیمان»إلی أهل سبأ،هو قدوه لکتابه الرسائل و«الکتب»و قد تکون من المسائل المهمّه و المصیریه...إذ تبدأ ببسم الله الرحمن الرحیم و تبیّن روح الکلام فی جملتین مدروستین.

و یظهر من التاریخ الإسلامی و الرّوایات-بشکل واضح-أن أئمتنا الکرام علیهم الصلاه و السّلام،کانوا یعنون بالاختصار و الاقتضاب فی إرسال الکتاب خالیا من الحشو و الزوائد،و هو مدروس أیضا.

فأمیر المؤمنین علیه السّلام یکتب إلی عماله و ممثلیه فی بعض کتبه:

«أدقوا أقلامکم، و قاربوا بین سطورکم،و احذفوا عنّی فضولکم،و اقصدوا قصد المعانی،و إیّاکم و الإکثار،فإن أموال المسلمین لا تحتمل الإضرار» (١) .

إن یری لسان القلم یجعل الکلمات أصغر،و تقارب السطور و حذف الفضول،لا یؤدی إلی الاقتصاد فی الأموال العامه أو الشخصیه فحسب-بل یقتصد فی وقت الکاتب و القارئ أیضا...و قد یضیع الفضول و التشریفات

١- ١) -الخصال-للصدوق،طبقا لما جاء فی البحار،ج ٧۶،ص ۴٩.

الوارده فی أثناء جمل الکتاب الهدف من کتابته،فلا یصل الکاتب و القارئ إلی الهدف المنشود! و فی هذه الأیّام أصبح من المألوف الإکثار فی کتابه العناوین البراقه و الألقاب الفخمه و زیاده المقدمات و الحواشی و الإضافات علی خلاف ما کان فی صدر الإسلام ممّا یهدر الکثیر من الطاقات و الأوقات و الثروات.

و خاصه ینبغی الالتفات إلی أن الکتاب«الرساله»فی ذلک العصر کان یتطلب زمانا طویلا لإیصاله و بذل المال لحامل الکتاب،و مع ذلک کانت الکتب موجزه مقتضبه،و یمکن ملاحظه أمثله منها فی کتب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی خسرو پرویز و قیصر الروم و أمثالهما.

و أساسا فإنّ رساله الإنسان و کتابه دلیل علی شخصیته،کما أن حامل الکتاب و الرّسول دلیل علی شخصیه المرسل أیضا.

یقول الإمام علی علیه السّلام فی نهج البلاغه: «رسولک ترجمان عقله،و کتابک أبلغ من ینطق عنک» (۱) .

و

یقول الإمام الصادق علیه السّلام «یستدل بکتاب الرجل علی عقله و موضع بصیرته، و برسوله علی فهمه و فطنته» (۲) .

و الجدیر بالذکر أنّه یستفاد من الرّوایات الإسلامیه أنّ ردّ الکتاب واجب کردّ السلام،إذ نقرأ

عن الإمام الصادق أنّه قال: «ردّ جواب الکتاب واجب کوجوب ردّ السلام» (۳) .

و حیث أن کل رساله أو کتاب مشفوع عاده بالتحیه،فلا یبعد أن یکون مشمولا بالآیه الکریمه وَ إِذٰا حُیِّیتُمْ بِتَحِیَّهٍ فَحَیُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهٰا أَوْ رُدُّوهٰا (۴) .

۱- ۱) -نهج البلاغه،الکلمات القصار-الجمله ۳۰۱.

۲- ۲) -البحار،ج ۷۶،ص ۵۰.

۳- ۳) -وسائل الشیعه،ج ۸،ص ۴۲۷«کتاب الحج أبواب العشره باب ۳۲».

۴- ۴) -النساء،الآیه ۸۶.

۲-هل دعا سليمان إلى التقليد؟!

بعض المفسّرين استفادوا من كتاب سليمان أنّه دعا أهل سبأ إليه دون دليل! ثمّ أجابوا بأن مجيء الهدهد بتلك الصوره«المعجزه»بنفسه دليل على حقانيه دعوته (۱) .

إلاّ أنّنا نعتقد أنّه لا حاجه إلى مثل هذه الردود و الإجابات،فوظيفه النّبى هى الدعوه.و وظيفه الآخرين التحقيق فى أمره.و بتعبير آخر:إنّ الدعوه هى الباعث على التحقيق...كما قامت بذلك ملكه سبأ،فاختبرت سليمان و تحققت عنه،أهو ملك أم نبيّ؟!

۳-مداليل عميقه فى قصّه سليمان عليه السّلام

نلاحظ فى هذا القسم من قصّه سليمان عليه السّلام إشارات قصيره إلى مسائل مهمّه أيضا:

أ-تتلخص«روح»دعوه الأنبياء فى نفى الاستعلاء الذى يعنى نفى كل نوع من أنواع الاستثمار و الاستعمار،و التسليم للحق و القانون الصحيح.

ب-بالرغم من أنّ أصحاب ملكه سبأ أعلنوا استعدادهم لخوض المعركه، إلاّ أن الطبع النسائى الشفاف فى الملكه لم يكن موافقا على ذلك،و لذلك عطفت انظارهم الى مسائل أخرى.

ج-و لو أن الملكه أذعنت لرأيهم فى الحرب لكانت بعيده عن الحقيقه و الصواب،و سنرى أن إقدامها على إرسال الهديه كان مثمرا،و كانت نتيجه طيبه لها و لقومها،و كان سببا لأن يهتدوا إلى طريق الحق و العدل،و يبتعدوا عن سفك

۱- ۱) -تفسير الرازى،ذيل الآيه مورد البحث.

الدماء! د-و یستفاد من هذه القضیه ضمنا أن المناهج التشاوریه لا تنتهی إلی الحق دائما...إذ کانت عقیده الأکثریه هنا أن یلجأ و إلی القوّه و القتال فی حین أن ملکه سبأ کانت تری خلاف نظرتهم،و سنری أن الحق کان معها فی نهایه القصّه! ه-و یمکن أن یقال:إنّ هذا النوع من التشاور أو المشوره غیر ما هو جار بیننا الیوم من التشاور...فنحن نأخذ برأی الأکثریه علی أنّه هو المعیار،و نعطیهم حق التصویت و التصویب. فی حین أن التشاور محل البحث هو مجرّد إبداء النظر من قبل الأکثریه،و الرأی الحاسم لقائد تلک الجماعه...و لعل الآیه وَ شاوِرْهُمْ فِی الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَکَّلْ عَلَی اللّهِ (۱) تشیر إلی هذا القسم الثّانی من التشاور.أمّا الآیه الکریمه وَ أَمْرُهُمْ شُوری بَیْنَهُمْ (۲) فناظره إلی القسم الأوّل (۳) .

و-قال أصحاب ملکه سبأ لها نَحْنُ أُولُوا قُوَّهٍ وَ أُولُوا بَأْسٍ شَدِیدٍ و لعل هذا الاختلاف بین«القوه»و«البأس»فی التعبیر،هو أنّ«القوه»إشاره إلی الکمیه العظیمه من الجیش...و«البأس الشدید»إشاره إلی کیفیه العمل و روح الشجاعه و الشهامه فی الجیش،أی أن مرادهم أنّهم مستعدون للقتال من الناحیه«الکمیه» و من حیث«الکیفیه»لمواجهه العدو أیضا.

۴-علامات الملوک

یستفاد من هذه الآیات-بصوره جیده-أن الحکومه الاستبدادیه و السلطنه فی کل مکان مدعاه للفساد و إذلال الأعزه...لأنّ الملوک یبعدون عنهم

ص: ۶۲

۱- ۱) -آل عمران،الآیه ۱۵۹.

۲- ۲) -الشوری،الآیه ۳۸.

۳- ۳) -لمزید الإیضاح فی موضوع الشوری یراجع تفسیر الآیه(۱۵۹)من سوره آل عمران.

الشخصـيات الفذه،و يدنون المتملقين،و يبحثون فی كل شـیء عن مصالحهم و منافعهم الذاتيه،و هم أهل رشوه و ذهب و مال،و بالطبع فإنّ الأمراء و الأعوان القادرين على هذه الأمور أحبّ عندهم من غيرهم.

و بينما نری تفكير الملوك و رغباتهم تتلخص فی نيل الهـدايا و الجاه و المقام و الـذهب و المال...نجد أنّ الأنبياء لا يفكرون إلّا بإصلاح أممهم!.

الآیتان [سوره النمل (٢٧): الآیات ٣۶ الی ٣٧]

اشاره

فَلَمّٰا جٰاءَ سُلَيْمٰانَ قٰالَ أَ تُمِدُّونَنِ بِمٰالٍ فَمٰا آتٰانِيَ اَللّٰهُ خَيْرٌ مِمّٰا آتٰاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣۶) اِرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاٰ قِبَلَ لَهُمْ بِهٰا وَ لَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهٰا أَذِلَّةً وَ هُمْ صٰاغِرُونَ (٣٧)

التّفسير

اشاره

لا تخدعونی بالمال:

خرج رسل ملكه سبأ بقافله الهدايا و تركوا اليمن وراءهم قاصدين مقر سليمان«فی الشام»ظنّا منهم أن سليمان سيكون مسرورا بمشاهدته هذه الهدايا و يرحب بهم.

لكن ما إن حضروا عند سليمان حتى رأوا ما يدهش الإنسان...فإنّ سليمان عليه السّلام مضافا الى عدم استقباله و اكتراثه بتلك الهدايا قٰالَ أَ تُمِدُّونَنِ بِمٰالٍ فَمٰا آتٰانِيَ اللّٰهُ خَيْرٌ مِمّٰا آتٰاكُمْ فما قيمه المال،إزاء مقام النبوّه و العلم و الهدايه و التقوى بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ .

أجل،أنتم الذين تفرحون بمثل هذه الزخارف،فيهدی بعضكم لبعض

فيشرق وجه تملع عيناه!إلاّ أن هذه الأمور لا قيمه لها عندى و لا أكترث بها.

و هكـذا فقد حقّر سليمان عليه السّلام معيار القيم عندهم،و أوضح لهم أن هناك معيارا آخر للقيمه تضـمحلّ عنده معايير عبده الدنيا و لا تساوى شيئا.

و من أجل أن يريهم سليمان موقفه الحاسم من الحق و الباطل،قال لرسول ملكه سبأ الخاص: اِرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاٰ قِبَلَ لَهُمْ بِهٰا وَ لَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهٰا أَذِلَّةً وَ هُمْ صٰاغِرُونَ .

و أَذِلَّةً فى الحقيقه حال أولى و هُمْ صٰاغِرُونَ حال ثانيه،و هما إشاره إلى أن أولئك لا يخرجون من أرضـهم فحسب،بل بالإذلال و الإحقار و الصغار بشكل يتركون جميع ممتلكاتهم من قصور و أموال و جاه و جلال...لأنّهم لم يذعنوا-و يسلموا-للحق...و إنّما قصدوا الخداع و المكر! و طبيعى أن هذا التهديد كان تهديدا جديّا جديرا بأن يؤخذ بنظر الإعتبار بالنسبه لرسل ملكه سبأ الذين كانوا عند سليمان!.

و مع ملاحظه ما قرأناه فى الآيات السابقه من أنّ سليمان طلب من أولئك شيئين:ترك الاستعلاء،و التسليم للحق أَلاّٰ تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ و كـان عـدم إجابتهم لهـذين و توسـلهم بالهـديّه دليلا على امتناعهم من قبول الحقّ و ترك الاستعلاء،و لـذلك هدّدهم باستخدام القوه العسكريه.

و لو أنّ ملكه سبأ و قومها طلبوا من سليمان الـدليل و المعجزه(على أنّه نبيّ مطاع)لأعطاهم الحق أن يتحروا و يفحصوا أكثر...إلاّ أنّ إرسال الهديه ظاهره أنّهم فى مقام الإنكار.

و اتضح كذلك أنّ أهمّ خبر مزعج أخبر به الهدهد عن هذه الجماعه«ملكه سبأ و قومها»أنّهم كانوا يعبدون الشمس و يسجدون لها من دون اللّه الذى له ما فى السماوات و الأرض فكان سليمان عليه السّلام قلقا من هذا الأمر...و من المعلوم أن عباده الأصنام ليست أمرا هيّنا تسكت عنه الأديان السماويه،أو أن تتحمل عبده

الأصنام على أنّهم أقليّه دينيه.بل تستخدم القوّه إذا لزم الأمر و تحطم الأصنام و يطوى الشرك و مريدوه من الوجود!.

و ممّا بيّناه من توضيحات آنفا يظهر أنّه لا تنافى بين تهديدات سليمان و الأصل الأساس لاٰ إِكْرٰاهَ فِي الـدِّينِ لأنّ عباده الأصنام ليست دينا،بل هى خرافه و انحراف.

ملاحظات

۱-ممّا ينبغى الالتفات إليه أن الزهد فى الأديان السماويه لا يعنى أن لا يتمتع الإنسان بماله و ثرواته و إمكاناته الدنيويه،بل حقيقه الزهد هى أن لا يكون أسير هذه الأمور..بل أميرا عليها..و قد بيّن سليمان هذا النبىّ العظيم بردّه الهدايا الثمينه على ملكه سبأ أنّه أميرها لا أسيرها.

و نقرأ

حديثا للإمام الصادق عليه السّلام يقول فيه: «الدنيا أصغر قدرا عند اللّه و عند أنبيائه و أوليائه من أن يفرحوا بشىء منها،أو يحزنوا عليه،فلا ينبغى لعالم و لا لعاقل أن يفرح بعرض الدنيا» (۱) .

۲-و مرّه أخرى نجد فى هذا القسم من قصّه سليمان دروسا جديره بالنظر، خافيه فى تعابير الآيات الكريمه:

ألف:إن الهدف من تعبئه الجيش ليس قتل الناس،بل أن يرى العدوّ نفسه ضعيفا قبالها،و لا يرى نفسه قادرا على مواجهه الطرف الآخر: بِجُنُودٍ لاٰ قِبَلَ لَهُمْ بِهٰا .

و هذا التعبير نظير ما أمر به المسلمون وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ...

ص :۶۶

۱- ۱) -تفسير روح البيان ذيل الآيه محل البحث.

تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللّهِ . (۱)

ب-إنّ سليمان عليه السّلام لا يهدد مخالفيه بالقتل،بل يهددهم بالإخراج من القصور أذله صاغرين،و هذا الأمر جدير بالملاحظه.

ج-إنّ سليمان لا يستغفل مخالفيه،بل يحذرهم بصراحه قبل الهجوم.

د-إنّ سليمان لا يطمع فى أموال الآخرين،بل يقول:«ما آتانى اللّه خير»فهو لا يرى مواهب اللّه منحصره بالقدره الماديه و الماليه،بل يفتخر بالعلم و الإيمان و المواهب المعنويه!.

۱- ۱) -الأنفال،الآيه ۶۰.

الآيات [سوره النمل (٢٧): الآيات ٣٨ الی ۴٠]

اشاره

قٰالَ يٰا أَيُّهَا اَلْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهٰا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قٰالَ عِفْرِيتٌ مِنَ اَلْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقٰامِكَ وَ إِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قٰالَ اَلَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ اَلْكِتٰابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمّٰا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قٰالَ هٰذٰا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّمٰا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (۴٠)

التّفسير

اشاره

حضور العرش فی طرفه عین:

و أخيرا عاد رسل ملكه سبأ بعد أن جمعوا هداياهم و أمتعتهم إلى بلدهم، و أخبروا ملكه سبأ بما شاهدوه من عظمه ملك سليمان عليه السّلام المعجز و جهازه الحكومى،و كل واحد من هذه الأمور دليل على أنّه لم يكن كسائر الأفراد و لا ملكا كسائر الملوك،بل هو مرسل من قبل اللّه حقّا،و حكومته حكومه إلهيه.

و هنا اتّضح لأولئك جميعا أنّهم غير قادرين على مواجهته عكسريا،بل إذا استطاعوا-فرضا-فهم على احتمال قوى فى مواجهه نبىّ عظيم ذى سلطه

واسعه!.

لذلک قررت الملکه أن تأتی بنفسها مع أشراف قومها إلی سلیمان، و یتفحصوا عن هذه المسأله لیتعرفوا علی دین سلیمان؟ فوصل هذا الخبر-عن أیّ طریق کان-إلی سمع سلیمان علیه السّلام،فعزم علی اظهار قدرته العجیبه-و الملکه و أصحابها فی الطریق إلیه-لیعرفهم قبل کل شیء علی إعجازه،لیذعنوا له و یسلّموا لدعوته...لذلک التفت إلی من حوله و قٰالَ یٰا أَیُّهَا الْمَلَؤُا أَیُّکُمْ یَأْتِینِی بِعَرْشِهٰا قَبْلَ أَنْ یَأْتُونِی مُسْلِمِینَ .

و بالرغم من أن المفسّرین أتعبوا أنفسهم للوقوف علی علّه إحضار عرش الملکه،و ربّما ذکروا وجوها لا تنسجم مع مفاد الآیات و لا تتناسب و إیّاها!.إلاّ أن من الواضح أنّ هدف سلیمان علیه السّلام من هذه الخطه إنّه کان یرید أن یظهر أمرا مهما للغایه خارقا للعاده لیذعنوا له دون قید،و یؤمنوا بقدره اللّه من دون حاجه إلی سفک الدماء و المواجهه فی ساحات القتال.

کان یرید أن ینفذ الإیمان إلی أعماق قلب ملکه سبأ و أشراف قومها، لیستجیب الباقون لدعوته و التسلیم لأمره!.

و هنا أظهر شخصان استعدادهما لامتثال طلب سلیمان علیه السّلام،و کان أمر أحدهما عجیبا و الآخر أعجب!إذ قٰالَ عِفْرِیتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِیکَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقٰامِکَ (۱) .فهذا الأمر علی یسیر،و لا أجد فیه مشقه،کما أنّی لا أخونک أبدا،لأنّی قادر علی ذلک وَ إِنِّی عَلَیْهِ لَقَوِیٌّ أَمِینٌ .

و«العفریت»...معناه المارد الخبیث.

و جمله وَ إِنِّی عَلَیْهِ لَقَوِیٌّ أَمِینٌ المشفوعه بالتأکیدات من عدّه جهات«إنّ و الجمله الاسمیّه،و لام التوکید»تشر الی احتمال خیانه هذا العفریت...لذلک فقد

ص:۶۹

۱- ۱) -کلمه«آتیک»ربّما کانت اسم فاعل مضاف إلی(الکاف)و یمکن أن تکون فعل؛مضارعا من(أتی)إلاّ أن الاحتمال الأوّل یبدو أقرب للنظر!

أظهر الدفاع عن نفسه بأنه أمين و فيّ.

و على كل حال فإنّ قصّه«سليمان»مملوءه بالعجائب الخارقه للعادات فلا عجب أن يرى عفريت بهذه الحاله مبديا استعداده للقيام بهذه المهمّه خلال سويعات..و سليمان يقضى بين الناس،أو يتابع أمور مملكته،أو يقدم نصحه و إرشاده للآخرين.

أمّا الشخص الآخر فقد كان رجلا صالحا له علم ببعض ما فى الكتاب، و يتحدث عنه القرآن فيقول: قٰالَ الَّذِی عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْکِتٰابِ أَنَا آتِیکَ بِهِ قَبْلَ أَنْ یَرْتَدَّ إِلَیْکَ طَرْفُکَ .

فلمّا وافق سليمان عليه السّلام على هذا الأمر،أحضر عرش بلقيس بطرفه عين بالاستعانه بقوته المعنويه فَلَمّٰا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قٰالَ هٰذٰا مِنْ فَضْلِ رَبِّی لِیَبْلُوَنِی أَ أَشْکُرُ أَمْ أَکْفُرُ .

ثمّ أضاف قائلا: وَ مَنْ شَکَرَ فَإِنَّمٰا یَشْکُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ کَفَرَ فَإِنَّ رَبِّی غَنِیٌّ کَرِیمٌ .

و هناك اختلاف بين المفسّرين و كلام طويل فى أن هذا الشخص الذى جاء بعرش الملكه،من كان؟!و من أين له هذه القدره العجيبه؟!و ما المراد عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْکِتٰابِ ؟ إلاّ أنّ الظاهر أنّ هذا الشخص هو أحد أقارب سليمان المؤمنين و أوليائه الخاصين،و قد جاء اسمه فى التواريخ بأنه(آصف بن برخيا)وزير سليمان و ابن أخته (۱) .

و أمّا«علم الكتاب»فالمراد منه معرفه ما فى الكتب السماويه...المعرفه العميقه التى تمكّنه من القيام بهذا العمل الخارق للعاده! و قال بعضهم:يحتمل أن يكون المراد من(علم الكتاب)هو اللوح المحفوظ

۱- ۱) -و ما قاله بعضهم بأنه سليمان أو جبرئيل فلا دليل عليه...و كونه سليمان نفسه(فهو)مخالف لظاهر الآيات قطعا!

الذی علم اللّه بعضه ذلک الرجل«آصف» و لذلک استطاع أن یأتی بعرش ملکه سبأ بطرفه عین،و یحضره عند سلیمان!.

و قال کثیر من المفسّرین:إنّ هذا الرجل المؤمن کان عارفا بالاسم الأعظم، ذلک الاسم الذی یخضع له کل شیء،و یمنح الإنسان قدره خارقه للعاده!.

و ینبغی القول أن«الاسم الأعظم»لیس کما یتصوره الکثیر بأنّ مفهومه أن یتلفظ الإنسان بکلمه فیکون وراءها الأثر العجیب،بل المراد منه التخلق بذلک الاسم و الوصف،أی علی الإنسان أن یستوعب«الاسم»فی نفسه و روحه،و أن یتکامل علمه و خلقه و تقواه و إیمانه إلی درجه یکون بها مظهرا من مظاهر ذلک الاسم الأعظم،فهذا التکامل المعنوی و الروحانی(بواسطه الاسم الأعظم)یوجد فی الإنسان مثل هذه القدره الخارقه للعاده (۱) .

کما أنّ للمفسّرین فی جمله قَبْلَ أَنْ یَرْتَدَّ إِلَیْکَ طَرْفُکَ لکن بملاحظه الآیات الاخر من القرآن یمکن معرفه حقیقتها...ففی الآیه(۴۳)من سوره إبراهیم نقرأ: لاٰ یَرْتَدُّ إِلَیْهِمْ طَرْفُهُمْ .

و نحن نعرف أن الإنسان عند ما یستوحش و یذهل،تبقی عیناه مفتوحتان علی وتیره واحده کأنّهما عینا میت لا تتحرکان.

فبناء علی ذلک فالمراد منه أنّنی سأحضر عرش ملکه بلقیس قبل أن یتحرک جفناک (۲) .

۱- ۱) -کان لنا فی ذیل الآیه(۱۸۰)من سوره الأعراف بحث فی شأن الاسم الأعظم،فلا بأس بمراجعته.

۲- ۲) -ما یقوله بعضهم:إن المراد من(یرتد إلیک طرفک)هو إلقاء النظره علی شیء ما و عوده النظره للإنسان لا دلیل علیه،کما أن هذا التعبیر لا یکون شاهدا علی النظریه القائله بخروج الشعاع من العین الوارده فی الفلسفه-القدیمه.

مسائل مهمه:

اشاره

۱-الجواب على بعض الاسئله

من الأسئله-التى تثار حول الآيات آنفه الذكر-هذا السؤال:لم لم يقدم سليمان بنفسه على هذا العمل الخارق للعاده؟فهو نبىّ كريم من قبل اللّه و ذو معاجز!فلم حوّل هذا الأمر إلى«آصف بن برخيا»؟!لعل الوجه فى ذلك أن آصف كان وصيّه،و كان سليمان يريد أن يبيّن موقعه فى هذه اللحظه الحساسه للجميع (۱) .

إضافه إلى ذلك فإن من المهم أن يختبر الأستاذ تلاميذه فى الموارد اللازمه و يعرف جدارتهم،و أساسا فإنّ جداره التلاميذ دليل كبير على جداره الأستاذ.

السؤال الآخر هو:كيف جاء سليمان بعرش ملكه سبأ و أحضره عنده دون إذنها؟.

فيقال:لعل ذلك لبيان هدف أسمى،كمسأله الهدايه و بيان معجزه كبيره.ثمّ بعد هذا كله فإننا نعرف أن الملوك ليس لهم مال من أنفسهم،بل أموالهم فى الغالب مغصوبه من الآخرين!.

السؤال الآخر:كيف تكون لعفريت من الجن القدره على أمر خارق للعاده كهذه الحادثه؟!و قد بيّنا الجواب على هذا السؤال فى الأبحاث المتعلقه بالإعجاز،فقلنا:إن من الناس حتى غير المؤمنين من تكون له قدره على بعض الأمور الخارقه للعاده (و ذلك للرياضه المجهده و مجاهده النفس)إلاّ أن الفرق بين ما يقومون به ممّا يخرق العاده و بين المعجزه هو أنّه لما كانت أعمالهم مستنده إلى قدره بشريه محدوده...فهى«أعمالهم الخارقه للعاده»محدوده دائما،فى حين أن المعاجز تستند إلى قدره اللّه التى لا نهايه لها،و قدرته كسائر صفاته غير محدوده!.

۱- ۱) -هذا الجواب نفسه أجاب به الإمام الهادى يحيى بن أكثم كما جاء فى روايه عن تفسير العياشى ذيل الآيه محل البحث.

لـذلك نرى أن العفريت من الجن يحـدّد قـدرته-على فتره بقاء سـليمان فى مجلس القضاء و التحقيق فى أمور البلد،ليأتيه بعرش ملكه سبأ،فى حين أنّ آصف بن برخيا لم يحـدد قـدرته،و تحديـدها بارتـداد الطرف هو فى الحقيقه إشاره إلى أدنى فتره زمنيه ممكنه...و من المسـلم به أن سليمان عليه السّلام يشجع الأعمال التى تبيّن للناس الأشخاص الصالحين،و يباركها،لا عمل العفريت الذى قد يوقع العوام و البساط فى الوهم،فيعدونه دليلا على تقواه و طهارته!.

و بـديهى أن أىّ إنسان يقوم بعمل مهم فى المجتمع و يكون عمله مقبولا فانّ أفكاره و معتقـداته سـتتجذّر و تتحدّد فى المجتمع بـذلك«العمـل»فلا ـ ينبغى أن يأخـذ العفاريت زمام المبادره فى حكومه سـليمان الإلهيه،بل ينبغى أن يقوم به من عنـدهم علم من الكتاب ليؤثروا على أفكار الناس و عواطفهم.

۲-القوه و الأمانه شرطان مهمان

جاء فى الآيات المتقدمه-و الآيه(۲۶)من سوره القصص-أن أهم شرط للعامل أو الموظف شيئان:الأوّل القوه،و الثّانى الأمانه!.

و بالطبع فإنّ المبانى الفكريه و الأخلاقيه قد تقتضـى أن يكون الإنسان حاويا على هاتين الصـفتين«كما هى الحال فى شأن موسى الوارد ذكره فى سوره القصـص»و قـد يقتضـى نظـام المجتمع و الحكومه الصـالحه أن يتصف بهاتين الصـفتين حتى العفريت من الجن إلزاما.. و لكن-على كل حال-فليس من الممكن القيام بأى عمل كبير أو صغير فى المجتمع دون توفر هاتين الصفتين...

سواء كان مصدرهما«التقوى»أو«النظام القانونى»..«فتأملّوا بدقه».

۳-الفرق بين«علم من الكتاب»و«علم الكتاب» جاء التعبير فى الآيات-محل البحث-عن الذى أتى بعرش ملكه سبأ فى

أدنی مدّه«و بطرفه عین»ب مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ بینما جاء فی الآیه (۴۳)من سوره الرعد فی شأن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و من یشهد علی حقانیته قُلْ كَفیٰ بِاللّٰهِ شَهِیداً بَیْنِی وَ بَیْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ .

فی حدیث عن أبی سعید الخدری أنّه قال: سألت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن اَلَّذِی عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ الوارد فی قصّه سلیمان،فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:هو وصی أخی سلیمان بن داود،فقلت:و الآیه وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ عمن تتحدث؟ فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:ذاک أخی علی بن أبی طالب علیه السّلام (۱) .

و الالتفات إلی الفرق بین«علم من الكتاب»الذی یعنی«العلم الجزئی»و (علم الكتاب)الذی یعنی«العلم الكلی»،یكشف البون الشاسع بین آصف و علی علیه السّلام.

لذلک نقرأ فی روایات كثیره أنّ الاسم الأعظم ثلاثه و سبعون حرفا إنّما كان عند آصف منها حرف واحد فتكلم به فخسف بالأرض ما بینه و بین سریر بلقیس حتی تناول السریر بیده،ثمّ عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفه عین-كان «حرف»واحد منه عند«آصف بن برخیا»و قام بمثل هذا العمل الخارق للعاده- و عندنا نحن الائمّه من أهل البیت-اثنان و سبعون حرفا،و حرف واحد عند اللّه تبارک و تعالی استأثر به فی علم الغیب عنده (۲) .

۴-هذا من فضل ربّی

إن عبده الدنیا و طلّابها المغرورین حین ینالون«القوّه»و الاقتدار ینسون كل شیء إلّا أنفسهم..و كل ما یقع فی أیدیهم یحسبونه من عند أنفسهم لا من غیرهم،

ص: ۷۴

---

۱ - ۱) -نقل هذا الحدیث جماعه من المفسّرین و علماء السنه بالعباره ذاتها أو ما یقرب منها،و لمزید الإیضاح یراجع الجزء الثّالث من إحقاق الحق،ص ۲۸۰ و ۲۸۱.

۲- ۲) -راجع اصول الكافی و تفسیر نور الثقلین،ج ۴،ص ۹۰.

كما كان قارون يقول: إِنَّمٰا أُوتِيتُهُ عَلىٰ عِلْمٍ عِنْدِی ..فی حین أن عباد اللّه و خاصّته کلما نالوا شیئا قالوا: هٰذٰا مِنْ فَضْلِ رَبِّی ..

الطریف أن سلیمان علیه السّلام لم یقل هذا الکلام عند ما شاهد عرش ملکه سبأ عنده فحسب،بل أضاف قائلا: لِيَبْلُوَنِی أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ .

و قرأنا فی هذه السوره-من قبل-أن سلیمان علیه السّلام کان یری جمیع النعم التی یتمتع بها من نعم اللّه علیه،و کان یدعو ربّه خاضعا فیقول: رَبِّ أَوْزِعْنِی أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِی أَنْعَمْتَ عَلَیَّ وَ عَلیٰ وٰالِدَیَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صٰالِحاً تَرْضٰاهُ ! أجل..هذا هو معیار معرفه الموحدین المخلصین من عبده الدنیا المغرورین..و هذه سیره الرجال العظماء فی قبال غیرهم من الأنانیین!.

و بالرغم من أنّه اعتید کتابه هذه العباره المهمه هٰذٰا مِنْ فَضْلِ رَبِّی من قبل المتظاهرین بالشکر علی أبواب قصورهم«الطاغوتیه»دون أن یعتقدوا بذلک أو یکون أدنی أثر من هذه العباره فی عملهم..إلاّ أن المهم هو أن تکتب علی الباب و علی جبین حیاه الإنسان و فی قلبه...أیضا، و أن یکشف عمله أن کل ذلک من فضل اللّه..و أن یشکره علیه،لا شکرا باللسان فحسب،بل شکرا مقرونا بالعمل و فی جمیع وجوده (۱) .

۵-کیف أحضر«آصف»عرش الملکه؟!

لم یکن هذا(الأمر)أوّل خارق للعاده نراه فی قصّه سلیمان علیه السّلام،أو فی حیاه الأنبیاء بشکل عام..و علی من یحمل هذه التعبیرات علی الکنایه و المجاز،و لا یؤخذ بظاهرها،أن یبینوا موقفهم من معاجز الأنبیاء.

تری هل یرون الأعمال الخارقه للعاده للأنبیاء و خلفائهم محالا،و ینکرونها

---

۱ – ۱) -کان لنا بحث مفصّل فی أهمیّه الشکر،و تأثیره علی زیاده النعمه،و أقسام الشکر«التکوینی و التشریعی»فی ذیل الآیه السابقه من سوره إبراهیم.

كليّا؟!فهذا ما لا ينسجم مع أصل التوحيد،و لا مع قدره اللّه الحاكمه على قوانين الوجود،و لا ينسجم مع صريح القرآن فى آيات كثيره..أيضا.

أمّا إذا قبلوا بإمكان المعاجز،فلا ينبغى أن يفرقوا بين أن يكون البحث عن إحياء الموتى و إبراء العمى من قبل«عيسى بن مريم»عليه السّلام،أو عن إحضار عرش ملكه سبأ من قبل آصف بن برخيا.

و لا شك أن هنا علائق مجهوله و عللا لا نعزفها فى هذا الأمر،إذ نجهل ذلك بعلمنا«المحدود»،لكننا نعرف أن هذا الأمر غير محال.

فهل استطاع«آصف»بقدرته المعنويه أن يبدل عرش بلقيس إلى أمواج من نور،و بلحظه أحضرها عند سليمان عليه السّلام ثمّ أرجعها إلى مادتها الأصليّه مرّه أخرى؟...هذا الأمر عندنا يلفّه الغموض.

و ما نعرف أن الإنسان يقوم اليوم بأعمال بواسطه الطرق العلميه المتداوله، كانت قبل مائتى عام تعدّ فى دائره المحال!.

فمثلا لو كان يقال لشخص ما قبل عدّه قرون:سيأتى زمان على الناس يتكلم الرجل فى المشرق فيسمعه الآخرون و يرونه فى المغرب فى اللحظه ذاتها..لكان يعد هذا المقال ضربا من الهذيان أو الحلم! و ليس هذا إلّا لأنّ الإنسان يريد أن يقوّم كل شىء بعلمه المحدود و قدرته القاصره!مع أن ما وراء علمه و قدرته أسرارا خفيه كثيره!

الآیات [سوره النمل (۲۷): الآیات ۴۱ الی ۴۴]

اشاره

قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِی أَمْ تَكُونُ مِنَ اَلَّذِینَ لا یَهْتَدُونَ (۴۱) فَلَمّا جاءَتْ قِیلَ أَ هٰكَذا عَرْشُكِ قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَ أُوتِینَا اَلْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَ كُنّا مُسْلِمِینَ (۴۲) وَ صَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِینَ (۴۳) قِیلَ لَهَا اُدْخُلِی اَلصَّرْحَ فَلَمّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَ كَشَفَتْ عَنْ ساقَیْها قالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِیرَ قالَتْ رَبِّ إِنِّی ظَلَمْتُ نَفْسِی وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَیْمانَ لِلّٰهِ رَبِّ اَلْعالَمِینَ (۴۴)

التّفسیر

اشاره

نور الایمان فی قلب الملكه:

نواجه فی هذه الآیات مشهدا آخر،ممّا جری بین سلیمان و ملكه سبأ فسلیمان من أجل أن یختبر عقل ملكه سبأ و درایتها،و یهیء الجوّ لإیمانها باللّه، أمر أن یغیروا عرشها و ینكّروه ف قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِی أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِینَ لا یَهْتَدُونَ .

و بالرغم من أن المجیء بعرشها من سبأ الی الشام كان كافیا لان لا تعرفه ببساطه..و لكن مع ذلک فإنّ سلیمان أمر أن یوجدوا تغییرات فیه،من قبیل تبدیل

ص: ۷۷

بعض علاماته،أو تغيير ألوانه و مواضع مجوهراته،و لكن هذا السؤال:ما الهدف الذى كان سليمان عليه السّلام يتوخّاه من اختبار عقل(و درايه)ملكه سبأ و ذكائها؟ لعل هذا الاختبار كان لمعرفه أى منطق يواجهها به؟و كيف يأتى لها بدليل لإثبات المبانى العقائديه؟ أو كان يفكر أن يتزوجها،و كان يريد أن يعرف هل هى جديره بأن تكون زوجه له،أم لا؟..أو أراد-واقعا-أن يعهد لها بمسؤوليه بعد ايمانها...فلا بدّ من معرفه مقدار استعدادها لقبول المسؤوليه! و هناك تفسيران لجمله أَ تَهْتَدِی فقال بعضهم:المراد منها معرفه عرشها.

و قال بعضهم:المراد من هذه الجمله أنّها هل تهتدى إلى اللّه برؤيه المعجزه، أو لا؟! إلاّ أنّ الظاهر هو المعنى الأوّل،و إن كان المعنى الأوّل بنفسه مقدمه للمعنى الثّانى.

و على كل حال... فَلَمّٰا جٰاءَتْ قِيلَ أَ هٰكَذٰا عَرْشُكِ و الظاهر أن القائل لها لم يكن سليمان نفسه،و الاّ فلا يناسب التعبير ب«قيل»،لأنّ اسم سليمان ورد قبل هذه الجمله و بعدها،و عبّر عن كلامه ب«قال».

أضف إلى ذلك أنّه لا يناسب مقام سليمان عليه السّلام أن يبادرها بمثل هذا الكلام.

و على أى حال.فإنّ ملكه سبأ أجابت جوابا دقيقا و قٰالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ .

فلو قالت:يشبه،لأخطأت..و لو قالت:هو نفسه،لخالفت الاحتياط،لأنّ مجىء عرشها إلى أرض سليمان لم يكن مسأله ممكنه بالطرق الاعتياديه،إلاّ أن تكون معجزه.

و قد جاء فى التواريخ أن ملكه سبأ كانت قد أودعت عرشها الثمين فى مكان محفوظ،و فى قصر مخصوص فيه غرفه عليها حرس كثير! و مع كل ذلك فإنّ ملكه سبأ استطاعت أن تعرف عرشها رغم كل ما حصل له

من تغییرات..فقالت مباشره: وَ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهٰا وَ كُنّٰا مُسْلِمِينَ .

أی،إذا كـان مراد سـليمان عليه السّلام من هـذه المقـدمات هو اطلاعنا على معجزته لكی نؤمن به،فإنّنا كنّا نعرف حقانيته بعلائم أخر..كنّا مؤمنين به حتی قبل رؤيه هذا الأمر الخارق للعاده فلم تكن حاجه إلی هذا الأمر.

و هكذا فأنّ سليمان عليه السّلام منعها وَ صَدَّهٰا مٰا كٰانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ (۱) بالرغم من إِنَّهٰا كٰانَتْ مِنْ قَوْمٍ كٰافِرِينَ .

أجل،إنّها ودعت ماضيها الأسود برؤيه هذه العلائم المنيره،و خطت نحو مرحله جديده من الحياه المملوءه بنور الإيمان و اليقين.

و فی آخر آيه من الآيات محل البحث يجری الكلام عن مشهد آخر من هذه القصّه،و هو دخول ملكه سبأ قصر سليمان الخاص.

و كان سليمان عليه السّلام قد أمر أن تصنع إحدی ساحات قصوره من قوارير،و أن يجری الماء من تحتها.

فلمّا وصلت ملكه سبأ إلی ذلك المكان قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ (۲) فلما رأته ظنته نهرا جاريا فرفعت ثوبها لتمر وسط الماء و هی متعجبه عن سبب وجود هذا الماء الجاری،و كما يقول القرآن: فَلَمّٰا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَ كَشَفَتْ عَنْ سٰاقَيْهٰا (۳) .

۱- ۱) -للمفسّرين أقوال مختلفه فی فاعل(صدّ)و أنّ(ما)هل هی موصوله أو مصدريه،فقال جماعه من المفسّرين.إن الفاعل هو سليمان كما بيّناه فی المتن،و بعضهم قال:بل هو اللّه،و النتيجه تكاد تكون واحده و طبقا لهذين التّفسيرين تكون«ها»مفعولا أوّلا و(ما كانت)مكان المفعول الثّانی،و إن كان أصلها جارا و مجرورا،أی و صدها سليمان أو اللّه عما كانت تعبد من دون اللّه.إلاّ أن جماعه ذهبوا إلی أن فاعل صدّ،هو(ما كانت)،لكن حيث أن الكلام عن إيمانها لا كفرها فالتّفسير الأوّل أنسب..و أمّا كلمه(ما)فقد تكون موصوله..أو مصدريه.

۲- ۲) -«صرح»معناه الفضاء الواسع،و قد يأتی بمعنی البناء العالی و القصر و فی الآيه المشار إليها آنفا معناه ساحه القصر أی فضاءه الواسع ظاهرا.

۳- ۳) -«اللّجه»فی الأصل مأخوذه من اللجاج،و معناه الشدّه،ثمّ أطلق علی ذهاب الصوت و إيابه فی الحنجره تعبير

إلّا أنّ سليمان عليه السّلام التفت إليها و قال: إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ (۱) .

فلا حاجه الى الكشف عن ساقيك فلا يمس الماء قدميك.

و هنا ينقدح سؤال هام،و هو أن سليمان نبيّ كبير،فلم كان لديه هذا البناء الفائق و التزيّن الرائق...و الصرح الممرد و البساط الممهّد!..و صحيح أنّه كان حاكما مبسوط اليد،إلّا أن الأنسب أن يكون له بساط مألوف كسائر الأنبياء.

إلّا أنّه،ما يمنع أن يرى سليمان ملكه سبأ التى كانت ترى قدرتها و عظمتها بالعرش و التاج و القصر العظيم و الزينه..يريها هذا المشهد لتذعن لأمره،و لتحتقر ما عندها؟!و هذه نقطه انعطاف فى حياتها لتعيد النظر فى ميزان القيم و معيار الشخصيه! ما يمنعه-بدلا من أن يغير جيشا لجبا فيسفك الدماء-أن يجعل فكر ملكه سبأ حائرا مبهوتا بحيث لم تكن تتوقع ذلك أصلا...خاصه أنّها كانت امرأه تهتم بهذه الأمور و التشريفات! و لا سيما أنّ أغلب المفسّرين صرحوا بأن سليمان أمر أن يبنى مثل هذا الصرح و القصر قبل أن تصل ملكه سبأ إلى الشام،و كان هدفه أن يريها قدرته لتذعن لأمره و تسلم له...و هذا الأمر يدلّ على أن سليمان عليه السّلام كان يتمتع فى سلطانه بقدره عظيمه من حيث القوّه الظاهريه وفق بها للقيام بمثل هذا العمل!.

و بتعبير آخر:إنّ هذه النفقات الماليه إزاء أمن منطقه واسعه،و قبول دين الحق،و الوقايه عن الإنفاق المفرط للحرب-لم تكن أمرا مسرفا.

و لذلك حين رأت ملكه سبأ هذا المشهد الرائع قالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ .

٣)

(لجه)على وزن(ضجه)،أمّا الأمواج المتلاطمه فى البحر فتسمى(لجه)على وزن(جبه)و هى هنا فى الآيه بهذا المعنى الأخير.

۱- ۱) -«الممرد»معناه الصافى...و(القوارير)جمع قاروره و هى الزجاجه.

لقـد كنت فى ما مضـى أسـجد للشـمس و أعبـد الأصـنام،و كنت غارقه فى الزينه و التجميل،و كنت أتصور أنّى أعلى الناس فى الدنيا.

أمّا الآن فإنّنى أفهم أنّنى ضعيفه جدّا و هذه الزخارف و الزبارج لا تروى ظمأ الإنسان و لا تبلّ غليل روحه!.

ربّاه...أتيت إليـك مسـلمه مع سـليمان نـادمه عـن سـالف عمرى،خاضـعه عنقى إليـك.الطريف هنـا أنّهـا تقـول:أسـلمت مع سليمـان،فتسـتعمل كلمه(مع)ليتجلّى أن الجميع إخوه فى السبيـل إلى اللّه!لا ـ كمـا يعتـاده الجبـابره إذ يتسـلط بعضـهم على رقـاب بعض،و ترى جماعه أسيره فى قبضه آخر.

فهنا لا يوجد غالب و مغلوب،بل الجميع-بعد قبول الحق-فى صف واحد!.

صحيح أن ملكه سبأ كانت قد أعلنت إيمانها قبل ذلك أيضا،لأنّنا سمعنا عن لسانها فى الآيات آنفه الذكر وَ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهٰا وَ كُنّٰا مُسْلِمِينَ .

إلاّ أن إسلام الملكه هنا وصل إلى أوجه،لذلك أكّدت إسلامها مرّه أخرى.

إنها رأت دلائل متعدده على حقانيه دعوه سليمان.

فمجىء الهدهد بتلك الحاله الخاصّه! و عدم قبول سليمان الهديه الثمينه المرسله من قبلها.

و إحضار عرشها فى فتره قصيره من مدى بعيد.

و أخيرا مشاهده قدره سليمان الاعجازيه،و ما لمسته فيه من أخلاق دمثه لا تشبه أخلاق الملوك!

بحثان

اشاره

١-عاقبه أمر ملكه سبأ

كان هذا كل ما ورد فى القرآن المجيد عن ملكه سبأ إذ آمنت أخيرا و لحقت

بالصالحين...لكن هل عادت إلى وطنها بعد إيمانها،و واصلت حكمها من قبل سليمان،أو بقيت عند سليمان و تزوجت منه؟!أو تزوجت من أحد ملوك اليمن المشهورين باسم«تبّع»؟ هذه الأمور لم يشر إليها القرآن الكريم،لأنّها لا علاقه لها بالهدف الأصلى الذى يبتغيه القرآن من المسائل التربويه!...إلاّ أن المؤرّخين و المفسّرين كلاّ منهم اختار رأيا،و لا نجد ضروره فى الخوض فى ذلك،و إن كان المشهور-طبقا لما قاله أغلب المفسّرين-أنّها تزوّجت من سليمان نفسه (۱) .

إلاّ أنّه ينبغى أن نذكّر بهذا الأمر المهم،و هو أنّه وردت أساطير كثيره حول سليمان و جنوده و حكومته و خصوصيات ملكه سبأ.و جزئيات حياتها أيضا، ممّا يصعب على عامه الناس تمييزها من الحقائق التاريخيه،و ربّما يغشّى هذه الحقائق التاريخيه.ظلّ مظلم من الخرافات يشوه وجهها الناصع..و هذه هى نتيجه الخرافات المتداخله فى الحقائق التى ينبغى أن تراقب مراقبه تامّه!.

۲-خلاصه عامه عن حياه سليمان

ما ورد عن سيره سليمان و حالاته فى الثلاثين آيه آنفه الذكر،يكشف عن مسائل كثيره،قرأنا قسما منها فى أثناء البحث،و نشير إلى القسم الآخر إشاره عابره:

۱-إنّ هذه القصّه تبدأ بالحديث عن موهبه(العلم الوافر)التى وهبها اللّه لسليمان بن داود،و تنتهى بالتسليم لأمر اللّه،و ذلك التوحيد أساسه العلم أيضا.

۲-هذه القصّه تدل على أن غياب طائر أحيانا(فى تحليقه استثنائيه)قد يغير مسير تأريخ أمّه،و يجرها من الفساد إلى الصلاح،و من الشرك إلى الإيمان...

و هذا مثل عن بيان قدره اللّه،و مثل من حكومه الحق!.

۱- ۱) -الآلوسى فى روح المعانى.

۳-إنّ هـذه القصّه تكشف عن أن نور التوحيـد يشـرق فی جميع القلوب، حتی الطائر الـذی يبـدو ظاهرا أنّه صامت،فإنّه يخبر عن أسرار التوحيد العميقه!.

۴-ينبغی من أجل لفت نظر الإنسان إلی القيمه الواقعيه له و هدايته نحو اللّه، أن يدمّر غروره و كبرياؤه أولا..ليماط عن وجه ستار الظلام،كما فعل سليمان، فدمر غرور ملكه سبأ و ذلك بإحضار عرشها،و إدخالها الصرح الممرد الذی حسبته لجه.

۵-إنّ الهـدف النهـائی فی حكومه الأنبيـاء ليس التوسع فی رقعه الأـرض،بـل الهـدف هو مـا قرأناه فی آخر آيه من الآيات محل البحث،و هو أن يعترف الظالم بذنبه،و أن يسلم لربّ العالمين،و لذلك فإن القرآن ختم بهذه«اللطيفه»القصّه المذكوره.

۶-إنّ روح الإيمان هی التسليم،لذلك فقد أكّد سليمان عليه فی كتابه إلی ملكه سبأ.

۷-قـد يكون بعض الناس مع ما لديه من قدره عظيمه لا ترقی إليه قدره الآخرين،محتاجا إلی موجود ضـعيف كالطائر مثلا،لا إلی علمه فحسب،بل قـد يسـتعين بعلمه أيضا، و قد تحقّره نمله بما هی عليه من ضـعف! ۸-إنّ نزول هـذه الآيات فی مكّه حيث كان المسلمون تحت نير العدو، و كانت الأبواب موصده بوجوههم،هذا النّزول كان له مفهومه الخاص.و هو تقويه معنويات المسلمين و تسليه قلوبهم،و احياء أملهم بلطف اللّه و رحمته و الانتصارات المقبله.

ص :۸۳

الآيات [سوره النمل (۲۷): الآيات ۴۵ الی ۴۷]

اشاره

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ (۴۵) قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ اَلْحَسَنَهِ لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اَللّٰهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۴۶) قالُوا اِطَّيَّرْنا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اَللّٰهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (۴۷)

التّفسير

اشاره

صالح فی ثمود:

بعد ذكر جانب من قصص موسى و داود و سليمان عليه السّلام فإنّ هذه الآيات تتحدث عن قصّه رابع نبىّ-و تبيّن جانبا من حياته مع قومه-فى هذه السوره، و هى ما جاء عن صالح عليه السّلام و قومه«ثمود»! إذ يقول القرآن: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ (۱) .

و كما قيل من قبل:إنّ التعبير ب«أخاهم»الوارد فى قصص كثير من الأنبياء، هو إشاره إلى منتهى المحبّه و الإشفاق من قبل الأنبياء لأممهم،كما أن فى بعض المواطن إشاره الى علاقه القربى«الروابط العائليه للأنبياء بأقوامهم».

۱- ۱) -جمله(أن اعبدوا اللّه)مجروره بحرف جر مقدر و أصلها:و لقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا بعباده اللّه.

و على كل حال،فإنّ جميع دعوه هـذا النّبى العظيم تلخصت فى جمله أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ .أجل،إنّ عباده اللّه هى عصاره كل تعليمات رسل اللّه.

ثمّ يضيف قائلا: فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ (۱) .المؤمنون من جهه و المنكرون المعاندون من جهه أخرى.

و قـد عبر فى الآيتين ۷۵ و ۷۶ من سوره الأعراف عن الفريقين، بالمسـتكبرين و المستضـعفين: قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ، قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنّا بِالَّذِى آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ .

و بـالطبع فـإنّ هـذه المواجهه بين الفريقين«الكفـار و المؤمنين»تصـدق فى شـأن كثير من الأنبيـاء،بالرغم من أن بعض الأنبياء بقوا محرومين حتى من هذا المقدار القليل من الأنصار حيث وقف كل افراد قومهم ضدهم.

فأخذ صالح عليه السّلام ينذرهم و يحذرهم من عذاب اللّه الأليم...إلاّ أنّ أولئك لم يستجيبوا له و تمسـكوا بعنادهم و طلبوا منه بإصرار أن إذا كنت نبيّا فليحل بنا عذاب اللّه«و قد صرحت الآيه ۷۷ من سوره الأعراف بأنّهم سألوا نبيّهم نزول العذاب» وَ قالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ .

إلاّ أن صالحا أجابهم محذرا و قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَهِ قَبْلَ الْحَسَنَهِ .

فلم تفكرون بعـذاب اللّه دائما و تسـتعجلونه؟أ لا تعلمون أن عذاب اللّه إذا حلّ بساحتكم ختم حياتكم و لا يبقى مجال للايمان؟ تعالوا و اختبروا صدق دعوتى فى البعد الايجابى و الأمل فى رحمه اللّه فى

۱- ۱) -كلمه(فريقان)تثنيه،و فعلها مسند إلى ضمير الجميع،و ذلك لأنّ كل فريق يتألف من جماعه...فأخذ الجمع بنظر الإعتبار..

ظل الإيمان به لَوْ لاٰ تَسْتَغْفِرُونَ اللّٰهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ !.

علام تسألون عن نزول العذاب و تصرون على السيئات؟!و لم هذا العناد و هذه الحماقه؟! لم يكن قوم صالح-وحدهم-قد طلبوا العذاب بعد انكارهم دعوه نبيّهم، فقد ورد فى القرآن المجيد هذا الأمر مرارا فى شأن الأمم الآخرين،و منهم قوم هود«كما فى الآيه ۷۰ من سوره الأعراف».

و نقرأ فى شأن النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ما واجهه به بعض المشركين المعاندين،إذ قالوا: اَللّٰهُمَّ إِنْ كٰانَ هٰذٰا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنٰا حِجٰارَةً مِنَ السَّمٰاءِ أَوِ ائْتِنٰا بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ . (۱)

و هذا أمر عجيب حقّا أن يريد الإنسان اختبار صدق دعوه نبيّه عن طريق العقاب المهلك،لا عن طريق طلب الرحمه!مع أنّهم يعلمون يقينا احتمال صدق دعوه هؤلاء الأنبياء«يعلمون ذلك فى قلوبهم و إن أنكروه بلسانهم».

و هذا الأمر يشبه حاله ما لو أدعى رجل بأنّه طبيب،فيقول:هذا الدواء ناجع شاف،و ذلك الدواء ضار مهلك.و نحن من أجل أن نختبر صدقه نستعمل الدواء المهلك!! فهذا منتهى الجهل و التعصب...و لمرض الجهل الكثير من هذه الافرازات.

و على كل حال،فإنّ هؤلاء القوم المعاندين بدلا من أن يصغوا لنصيحه نبيّهم و يستجيبوا له،واجهوه باستنتاجات واهيه و كلمات باطله!...منها أنّهم قٰالُوا اطَّيَّرْنٰا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ و لعل تلك السنه كانت سنه قحط و جدب،فقالوا:إنّ هذا البلاء و المشاكل و العقبات كلّها بسبب قدوم هذا النّبى و أصحابه...فهم مشئومون

۱- ۱) -الأنفال،الآيه ۳۲.

جلبوا الشقاء لمجتمعنا!! فكانوا يحاولون مواجهه دعوه نبيّهم صالح و منطقه المتين بحربه التطير، التى هى حربه المعاندين الخرافيين.

لكنّه ردّ عليهم و قٰالَ طٰائِرُكُمْ عِنْدَ اللّٰهِ فهو الذى يبتليكم بسبب أعمالكم بهذه المصائب التى أدت إلى هذه العقوبات.

فى الحقيقه إن ذلك اختبار و إمتحان إلهى كبير لكم،أجل بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ .

هذه امتحانات و فتن إلهيه...هذه إنذارات و تنبيهات لينتبه-من فيهم اللياقه من غفلتهم،و يصلحوا انحرافهم و يتجهوا نحو اللّه!.

بحث

اشاره

«التطيّر و التفاؤل»

«التطيّر»مأخوذ من ماده«طير»و هو معروف،إذ يعنى ما يطير بجناحين فى الجوّ،و لما كان العرب يتشاءمون غالبا من بعض الطيور،سمى الفأل غير المحبوب تطيّرا،و هو فى قبال«التفأل»و معناه الفأل الحسن المحبوب.

و قد وردت فى القرآن الإشاره إلى هذا المعنى مرارا و هى أن المشركين الخرافيّين كانوا يواجهون أنبياءهم بحربه التطير،كما نقرأ ذلك فى قصّه موسى و أصحابه وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسىٰ وَ مَنْ مَعَهُ (1) .

و فى الآيات-محل البحث-أظهر قوم«ثمود»المشركون رد فعلّهم فى

١- ١) -الأعراف،١٣١.

مقابل نبيّهم«صالح»بالتطير أيضا.

و أساسا،و نقرأ فی سوره«يس»أن المشركين تطيّروا من مجیء رسل المسيح عليه السّلام الی«انطاكيه»(يس-۱۸).

فإنّ الإنسان لا يمكن أن يقف أمام الحوادث على حال واحده،فلا بدّ أن يفسّر آخر الأمر لكل حادثه عله...فإذا كان الإنسان مؤمنا موحدا للّه،فإنّه يرجع العلل إلى ذاته المقدسه تعالى طبقا لحكمته،فكل شیء عنده بمقدار،عالم الغيب و الشهاده الكبير المتعال.و لو استند إلى العلم فی تحليل العله و المعلول الطبيعيين، فستحل مشكلته ايضا،و إلاّ فإنّه سينتج أوهاما و خرافات لا أساس لها..أوهاما لا حد لها..و أحدها«التطير»و الفأل السیء! مثلا كان عرب الجاهليه إذا رأوا الطائر يتحرك من اليمين نحو الشمال عدوّه فألا حسنا،و إذا رأوه يتحرك من الشمال«اليسار»نحو اليمين عدّوه فألا سيئا، و دليلا على الخسران أو الهزيمه!و غيرها من الخرافات الكثيره عندهم (۱) .

و اليوم يوجد-من قبيل هذه الخرافات و الأوهام-الكثير فی مجتمعات لا تؤمن باللّه،و إن حققت نصرا من حيث العلم و المعرفه،بحيث لو سقطت «مملحه»على الأرض أقلقتهم إلى حد كبير!...و يستوحشون من الدار أو البيت أو الكرسی المرقم ب ۱۳،و ما زالت سوق المنجمين و أصحاب الفأل رائجه غير كاسده!فهناك مشترون كثر«للطالع و البخت»!.

إلاّ أنّ القرآن جمع كل هذه الأمور فجعلها فی جمله موجزه قصيره فقال:

طائِرُكُمْ عِنْدَ اللّهِ

.

۱- ۱) -يشير الكميت الأسدی إلى بعض هذه الخرافات فی قصيدته البائيه فيقول: و لا أنا ممن يزجر الطير همّه أ صاح غراب أم تعرض ثعلب و لا السانحات البارحات عشيه أمرّ سليم القرن أم مرّ أعضب (المصحح).

أجـل،فطائركم و طالعكم و انتصاركم و هزيمتكم و توفيقكم و فشـلكم كله عنـد اللّه،اللّه الحكيم الـذى يهب عطاياه لمن كانت عنده اللياقه،و اللياقه بدورها انعكاس تنعكس عن الايمان و الأعمال الصالحه أو الطالحه!

و هكذا فإنّ الإسلام يدعو أتباعه ليخرجهم من وادى الخرافه إلى الحقيقه، و من المفازه (۱) إلى الصراط المستقيم.

«كان لنا بحث مفصل فى مجال التطير و التفاؤل ذيل الآيه ۱۳۱ من سوره الأعراف».

۱- ۱) -المفازاه تأتى بمعنى الفوز،و تأتى بمعنى الهلاك...فهى من الأضداد فى اللغه-و هنا معناها الصحراء المهلكه (المصحح).

الآيات [سوره النمل (٢٧): الآيات ۴٨ الی ۵٣]

اشاره

وَ كانَ فِی اَلْمَدِينَهِ تِسْعَهُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِی اَلْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ (۴٨) قالُوا تَقاسَمُوا بِاللّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَ إِنّا لَصادِقُونَ (۴٩) وَ مَكَرُوا مَكْراً وَ مَكَرْنا مَكْراً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۵٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَهُ مَكْرِهِمْ أَنّا دَمَّرْناهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (۵١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَهً بِما ظَلَمُوا إِنَّ فِی ذلِكَ لَآيَهً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۵٢) وَ أَنْجَيْنَا اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ (۵٣)

التّفسير

اشاره

تآمر تسعه رهط فی وادی القری:

نقرأ هنا قسما آخر من قصّه«صالح»و قومه،حيث يكمل القسم السابق و يأتی علی نهايته،و هو ما يتعلق بالتآمر علی قتل«صالح»من قبل تسعه «رهط» (١) من المنافقين و الكفار،و فشل هذا التآمر!فی وادی القری منطقه «النّبی صالح و قومه».

ص: ٩٠

١- ١) -«الرهط»من الناس ما لا يقل عن الثلاثه و لا يزيد عن العشره،و هو اسم جنس لا مفرد له من نوعه و يجمع علی أراهط و أرهاط-و لا يكون فی الرهط امرأه(المصحح).

يقول القرآن فى هذا الشأن وَ كٰانَ فِى الْمَدِينَهِ تِسْعَهُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ وَ لاٰ يُصْلِحُونَ .

و مع ملاحظه أنّ«الرّهط»يعنى فى اللغه الجماعه التى تقلّ عن العشره أو تقلّ عن الأربعين،فإنّه يتّضح أن كلاّ من المجموعات الصغيره التسع كان لها منهج خاص،و قد اجتمعوا على أمر واحد،و هو الإفساد فى الأرض و الإخلال بالمجتمع(و نظامه الاجتماعى)و مبادئ العقيده و الأخلاق فيه.

و جمله«لا يصلحون»تأكيد على هذا الأمر،لأنّ الإنسان قد يفسد فى بعض الحالات ثمّ يندم و يتوجه نحو الإصلاح..إنّ المفسدين الواقعيين ليسوا كذلك، فهم يواصلون الفساد و الإفساد و لا يفكرون بالإصلاح!.

و خاصّه أن الفعل فى الجمله«يفسدون»فعل مضارع،و هو يدل على الاستمرار، فمعناه أن إفسادهم كان مستمرا...و كلّ رهط من هؤلاء التسعه كان له زعيم و قائد...و يحتمل أن كلاّ ينتسب إلى قبيله!.

و لا ريب أن ظهور«صالح»بمبادئه الساميه قد ضيّق الخناق عليهم،و لذلك تقول الآيه التاليه فى حقّهم: قٰالُوا تَقٰاسَمُوا بِاللّٰهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مٰا شَهِدْنٰا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَ إِنّٰا لَصٰادِقُونَ .

«تقاسموا»فعل أمر،أىّ اشتركوا جميعا فى اليمين،و تعهّدوا على هذه المؤامره الكبرى تعهدا لا عوده فيه و لا انعطاف!.

الطريف أنّ أولئك كانوا يقسمون باللّه،و يعنى هذا أنّهم كانوا يعتقدون باللّه،مع أنّهم يعبدون الأصنام،و كانوا يبدأون باسمه فى المسائل المهمّه..كما يدل هذا الأمر على أنّهم كانوا فى منتهى الغرور و«السكر»بحيث يقومون بهذه الجنايه الكبرى على اسم اللّه و ذكره!!فكأنّهم يريدون أن يقوموا بعباده أو خدمه مقبوله...

إلاّ أنّ هذا نهج الغافلين المغرورين الذين لا يعرفون اللّه و الضالين عن الحق.

و كلمه«لنبيتنّه»مأخوذه من«التبييت»،و معناه الهجوم ليلا،و هذا التعبير

يدلّ على أنّهم كانوا يخافون من جماعه صالح و أتباعه،و يستوحشون من قومه..

لذلك و من أجل أن يحققوا هدفهم و لا يكونوا فى الوقت ذاته مثار غضب أتباع صالح،اضطروا إلى أن يبيتوا الأمر، و اتفقوا أن لو سألوهم عن مهلك النّبى-لأنّهم كانوا معروفين بمخالفته من قبل-حلفوا بأن لا علاقه لهم بذلك الأمر،و لم يشهدوا الحادثه أبدا.

جاء فى التواريخ أن المؤامره كانت بهذه الصوره،و هى أن جبلا كان فى طرف المدينه و كان فيه غار يتعبّد فيه صالح،و كان يأتيه ليلا بعض الأحيان يعبد اللّه فيه و يتضرع إليه،فصمّموا على أن يكمنوا له هناك ليقتلوه عند مجيئه فى الليل،و يحملوا على بيته بعد استشهاده ثمّ يعودوا إلى بيوتهم،و إذا سئلوا أظهروا جهلهم و عدم معرفتهم بالحادث.

فلمّا كمنوا فى زاويه و اختبئوا فى ناحيه من الجبل انثالت صخور من الجبل تهوى إلى الأرض،فهوت عليهم صخره عظيمه فأهلكتهم فى الحال! لذلك يقول القرآن فى الآيه التاليه: وَ مَكَرُوا مَكْراً وَ مَكَرْنا مَكْراً وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ .

ثمّ يضيف قائلا: فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنّٰا دَمَّرْنٰاهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ .

و كلمه(مكر)-كما بينّاها سابقا-تستعملها العرب فى كل حيله و تفكير للتخلص أو الاهتداء إلى أمر ما..و لا تختص بالأمور التى تجلب الضرر،بل تستعمل بما يضر و ما ينفع..فيصح وصف المكر بالخير إذا كان لما ينفع،و وصفه بالسوء إذا كان لما يضرّ..قال سبحانه: وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللّٰهُ وَ اللّٰهُ خَيْرُ الْمٰاكِرِينَ .

و قال: وَ لاٰ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاّٰ بِأَهْلِهِ !«فتأملوا بدقّه» يقول الراغب فى المفردات..المكر صرف الغير عما يقصده..فبناء على هذا إذا نسبت هذه الكلمه إلى اللّه فإنّها تعنى إحباط المؤامرات الضاره من قبل

الآخرین،و إذا نسبت إلی المفسدین فهی تعنی الوقوف بوجه المناهج الإصلاحیه،و الحیلوله دونها.

ثمّ یعبّر القرآن عن کیفیه هلاکهم و عاقبه أمرهم فیقول: فَتِلْکَ بُیُوتُهُمْ خاوِیَهً بِما ظَلَمُوا .

فلا صوت یسمع منها و لا حرکه تتردد و لا أثر من تلک الزخارف و الزبارج و النعم و المجالس الموبوءه بالذنوب و الخطایا.

أجل،لقد أذهبهم ریح عتوّهم و ظلمهم،و احترقوا بنار ذنوبهم فهلکوا جمیعا إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ .

إلّا أن الأخضر لم یحترق بالیابس،و الأبریاء لم یؤخذوا بجرم الأشقیاء...بل سلم المتقون وَ أَنْجَیْنَا الَّذِینَ آمَنُوا وَ کانُوا یَتَّقُونَ .

ملاحظات

اشاره

۱-عقوبه ثمود

تختلف تعابیر آیات القرآن فی موضوع هلاک قوم صالح«ثمود».

فتاره یأتی التعبیر عن هلاکهم بالزلزله فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَهُ . (۱)

و تاره یقول:«عنهم»القرآن: فَأَخَذَتْهُمُ الصّاعِقَهُ (۲) .

و تاره یقول: وَ أَخَذَ الَّذِینَ ظَلَمُوا الصَّیْحَهُ (۳) .

ص :۹۳

۱- ۱) -الأعراف،الآیه ۷۸.

۲- ۲) -الذاریات،۴۴.

۳- ۳) -هود،۶۷.

إلّا أنّه لا منافاه بين هذه التعابير الثلاثه أبدا...لأنّ«الصاعقه»هی الشعله الكبيره بين السحاب و الأرض المقرونه بصيحه عظيمه و اهتزاز شديد فی الأرض«ذكرنا تفصيلا عن الصيحه السماويه فی ذيل الآيه ۶۷».

۲-روی بعض المفسّرين أن أصحاب صالح الذين نجوا معه كانوا أربعه آلاف رجل،و قد خرجوا بأمر اللّه من المنطقه الموبوءه بالفساد إلی حضر موت» (۱) .

۳-«خاويه»من(الخواء)علی وزن(الهواء)معناه السقوط و الهویّ و الانهدام،و قد يأتی الخواء بمعنی الخلو...و هذا التعبير ورد فی سقوط النجم و هويّه،إذا قالوا«خوی النجم»أی هوی.

و يری الراغب فی المفردات أن الأصل فی«خوی»هو الخلو...و يرد هذا التعبير فی البطون الغرثی،و الجوز الخالی،و النجوم التی لا تعقب الغيث،كان عرب الجاهليه يعتقدون أن كل نجم يظهر فی الأفق يصحبه الغيث!«المطر».

۴-روی عن ابن عباس أنّه قال:استفدت من القرآن أن الظلم يخرب البيوت و يهدمها،ثمّ استدل بالآيه الكريمه فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خٰاوِيَةً بِمٰا ظَلَمُوا (۲) .

و فی الحقيقه فإن تأثير الظلم فی تخريب البيوت و المدن و المجتمعات لا يقاس بأی شیء،فالظلم يأتی بالصاعقه المهلكه،و الظلم يزلزل و يدمر...و الظلم له أثر كأثر الصيحه-فی السماء-المهلكه المميته،و قد أكد التأريخ مرارا هذه الحقيقه و أثبتها،و هی أن الدنيا قد تدوم مع الكفر،إلّا أنّها لا تدوم مع الظلم أبدا.

۵-ما لا شك فيه أن عقاب ثمود«قوم صالح»كان بعد أن عقروا الناقه «قتلوها»و كما يقول القرآن فی الآيات(۶۵)-(۶۷)من سوره هود:

ص:۹۴

۱- ۱) -راجع الطبرسی فی مجمع البيان،و الآلوسی فی روح المعانی،و القرطبی فی تفسيره المعروف،ذيل الآيات محل البحث.
۲- ۲) -مجمع البيان ذيل الآيه محل البحث..

فَعَقَرُوهٰا فَقٰالَ تَمَتَّعُوا فِی دٰارِکُمْ ثَلاٰثَهَ أَیّٰامٍ ذٰلِکَ وَعْدٌ غَیْرُ مَکْذُوبٍ، فَلَمّٰا جٰاءَ أَمْرُنٰا نَجَّیْنٰا صٰالِحاً وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَهٍ مِنّٰا وَ مِنْ خِزْیِ یَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّکَ هُوَ الْقَوِیُّ الْعَزِیزُ، وَ أَخَذَ الَّذِینَ ظَلَمُوا الصَّیْحَهُ فَأَصْبَحُوا فِی دِیٰارِهِمْ جٰاثِمِینَ .

فبناء على هـذه الآيات لم ينزل العـذاب مباشـره بعـد المؤامره على قتل صالـح، بل الاحتمال القوى أن الجماعه الذين تآمروا على قتله أهلكوا فحسب،ثمّ أمهل اللّه الباقين،فلمّا قتلوا الناقه أهلك اللّه جميع الظالمين و الآثمين الكافرين.

و هذه هی نتيجه الجمع بين آيات هذه السوره،و الآيات الوارده فی هذا الشأن فی سورتی الأعراف و هود.

و بتعبير آخر:فی الآيات محل البحث جاء بيان إهلاكهم بعد مؤامرتهم على قتل نبيهم صالح،أمّا فی سورتی الأعراف و هود فبيان هلاكهم بعد عقرهم الناقه.

و نتيجه الأمرين أنّهم حاولوا قتل نبيّهم،فلمّا لم يفلحوا أقـدموا على قتل الناقه (و عقرها)التی كانت معجزته الكبرى...و نزل عليهم العذاب بعد أن أمهلوا ثلاثه أيام.

و يحتمل أيضا أنّهم أقـدموا على قتل الناقه أولا،فلما هـدّدهم نبيّهم صالـح بنزول العـذاب بعد ثلاثه أيّام حاولوا قتله،فأهلكوا دون أن يفلحوا فی قتله (۱) .

۱- ۱) -تفسير روح البيان ذيل الآيه محل البحث..

الآیتان [سوره النمل (۲۷): الآیات ۵۴ الی ۵۵]

اشاره

وَ لُوطاً إِذْ قٰالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ اَلْفٰاحِشَهَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (۵۴) أَ إِنَّکُمْ لَتَأْتُونَ اَلرِّجٰالَ شَهْوَهً مِنْ دُونِ اَلنِّسٰاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (۵۵)

التّفسیر

اشاره

انحراف قوم لوط!

بعد ذکر جوانب من حیاه موسی و داود و سلیمان و صالح علیهم السّلام مع أممهم و أقوامهم،فإنّ النّبی الخامس الذی وردت الإشاره إلیه فی هذه السوره:نبیّ اللّه العظیم«لوط».

و لیست هذه أوّل مرّه یشیر القرآن إلی هذا الموضوع،بل تکررت الإشاره إلیه عدّه مرّات،کما فی سوره الحجر،و سوره هود،و سوره الشعراء،و سوره الأعراف.

و هذا التکرار و التشابه،لأنّ القرآن لیس کتابا تاریخیا کی یتحدث عن الموضوع مرّه و لا یعود إلیه..بل هو کتاب تربوی إنسانی..و نعرف انّ المسائل التربویه قد تقتضی الظروف أحیانا أن تکرر الحادثه و یذکر بها مرارا،و أن ینظر إلیها من زوایا مختلفه،و یستنتج من جهاتها المتعدده.

و علی کل حال فإنّ حیاه قوم لوط المشهورین بالانحراف الجنسی و العادات السیئه المخزیه الأخری،کما أنّ عاقبه حیاتهم الوخیمه یمکن أن تکون لوحه بلیغه لأولئک السادرین فی شهواتهم...و إن سعه هذا التلوث بین الناس تقتضی أن یکرر ما جری علی قوم لوط مرارا.

یقول القرآن:فی الآیتین محل البحث أوّلا: وَ لُوطاً إِذْ قٰالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفٰاحِشَهَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (۱) .

«الفاحشه»کما أشرنا إلیها من قبل،تعنی الأعمال السیئه القبیحه،و المراد منها الانحراف الجنسی و عمل اللواط المخزی.

و جمله وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ إشاره إلی أنّکم-یعنی قوم لوط-ترون بأم أعینکم قبح هذا العمل و آثاره الوخیمه،و کیف تلوّث مجتمعکم من قرنه إلی قدمه به...و حتی الأطفال فی غیر مأمن من هذا العمل القبیح،فعلام تبصرون و لا تتنبهون! و أمّا ما یحتمله بعضهم من أن جمله«تبصرون»إشاره إلی أنّهم کانوا یشهدون فعل اللواط«بین الفاعل و المفعول»فهذا المعنی لا ینسجم و ظاهر التعبیر،لأنّ لوطا یرید أن یحرّک«وجدانهم»و ضمائرهم،و أن یوصل نداء فطرتهم إلی آذانهم...فکلام لوط نابع من البصیره و رؤیه العواقب الوخیمه لهذا العمل و التنبه منه.

ثمّ یضیف القرآن قائلا: أَ إِنَّکُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجٰالَ شَهْوَهً مِنْ دُونِ النِّسٰاءِ .

و قد ورد التعبیر عن هذا العمل القبیح بالفاحشه،ثمّ وضحه أکثر لئلا یبقی أی إبهام فی الکلام،و هذا اللون من الکلام واحد من فنون البلاغه لبیان المسائل المهمه.

---

۱ - ۱) -یحتمل أن«و لوطا»منصوب بالفعل(أرسلنا)الذی سبق ذکره فی الآیات المتقدمه،و یحتمل أن یکون منصوبا بفعل محذوف تقدیره(اذکر)و حیث جاء بعد الکلمه(إذ قال)فالاحتمال الثّانی أنسب...

و لکی یتّضح بأن الدافع علی هذا العمل هو الجهل،فالقرآن یضیف قائلا:

بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ

.

تجهلون باللّه..و تجهلون هدف الخلق و نوامیسه..و تجهلون آثار هذا الذنب و عواقبه الوخیمه،و لو فکرتم فی أنفسکم لرأیتم أن هذا العمل قبیح جدّا،و قد جاءت الجمله بصیغه الاستفهام لیکون الجواب نابعا من أعماقهم و وجدانهم، فیکون أکثر تأثیرا.

ص :۹۸

بدایه الجزء العشرون من القرآن الکریم

ص: ۹۹

الآيات [سوره النمل (٢٧): الآيات ٥٦ الى ٥٩]

اشاره

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥۶) فَأَنْجَيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (٥٨) قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ سَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩)

التّفسير

اشاره

عند ما تعدّ الطهاره عيبا كبيرا!

لاحظنا-فى ما سبق من البحوث-منطق نبى اللّه العظيم«لوط»،ذلك المنطق المتين أمام المنحرفين الملوثين،و بيانه الاستدلالى الذى كان يعنّفهم على عملهم القبيح،و يكشف لهم نتيجه جهلهم و عدم معرفتهم بقانون الخلق و بجميع القيم الإنسانيه.

و الآن،لنستمع الى جواب هؤلاء المنحرفين بماذا أجابوا منطق«لوط»؟! يقول القرآن: فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ .

فجوابهم كاشف عن انحطاطهم الفكرى و السقوط الأخلاقى البعيد!.

أجل..إنّ الطهاره تعدّ عيبا و نقصا فى المحيط الموبوء،و ينبغى أن يلقى أمثال يوسف المتعفف فى السجن،و أن يطرد آل لوط نبىّ اللّه العظيم و يبعدوا- لأنّهم يتطهرون-خارج المدينه،و أن يبقى أمثال«زليخا»أحرارا أولى مقام...

كما ينبغى أن يتمتع قوم لوط فى مدينتهم دون حرج!.

و هذا هو المصداق الجلى لكلام القرآن فى الضالين،إذ يقول: خَتَمَ اللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلىٰ سَمْعِهِمْ وَ عَلىٰ أَبْصٰارِهِمْ غِشٰاوَةٌ بسبب أعمالهم السيئه المخزيه.

و يحتمل فى جمله إِنَّهُمْ أُنٰاسٌ يَتَطَهَّرُونَ أن قوم لوط لانحرافهم و غرقهم فى الفساد،و تطبعهم و تعودهم على التلوّث،كانوا يقولون مثل هذا الكلام من باب السخريه و الاستهزاء..أى إنّهم يتصورون أن أعمالنا قبيحه و غير طاهره!و أن تقواهم من التطهر،فما أعجب هذا الكلام!إنه لمهزله!.

و ليس هذا غريبا أن يتبدل إحساس الإنسان-نتيجه تطبعه بعمل قبيح- فيتغير سلوكه و نظرته..فقد سمعنا بقصّه الدباغ المعروفه،إذ ورد أن رجلا كان يدبغ الجلود المتعفنه دائما،و تطبعت«شامّته»برائحه الجلود«العفنه»فمرّ ذات يوم فى سوق العطارين،فاضطرب حاله و أغمى عليه،لأنّ العطور لا تناسب «شامّته»فأمر رجل حكيم أن يؤخذ إلى سوق الدباغين لانقاذه من الموت...

فهذا مثال حسىّ طريف لهذا الموضوع المنطقى.

جاء فى الرّوايات أن لوطا كان يبلغ قومه حوالى ثلاثين عاما و ينصحهم،إلاّ أنّه لم يؤمن به إلاّ أسرته و أهله باستثناء زوجته فإنّها كانت من المشركين و على عقيدتهم (1) .

بديهى أن مثل هؤلاء القوم لا أمل فى إصلاحهم فى عالم الدنيا،فينبغى أن يطوى«طومار»حياتهم،لذلك تقول الآيه التاليه فى هذا الشأن

1- 1) -تفسير نور الثقلين،ج 2،ص 382.

فَأَنْجَيْنٰاهُ وَ أَهْلَهُ إِلاّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنٰاهٰا مِنَ الْغٰابِرِينَ

(۱)

.

و بعد أن خرج آل لوط فی الموعد المعین«سحر لیله کانت المدینه غارقه فیها بالفساد»فلمّا أصبح الصباح نزلت علیهم الحجاره من السماء،و تزلزلت الأرض بهم،فدفنوا جمیعا تحت الحجاره و الأنقاض،و الی هذا تشیر الآیه الکریمه التالیه وَ أَمْطَرْنٰا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسٰاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ .

و کان لنا بحث مفصل فی قوم لوط و عاقبتهم الوخیمه و آثار الانحراف الجنسی،فی ذیل الآیات ۷۷-۸۳ من سوره هود،و لا حاجه إلی تکراره.

إن قانون الخلق عیّن لنا مسیرا لو سلکناه لکان ذلک مدعاه لتکاملنا و حیاتنا،و لو انحرفنا عنه لکان باعثا علی سقوطنا و هلاکنا.

فقانون الخلق جعل الجاذبیه الجنسیه بین الجنسین المتخالفین عاملا لبقاء نسل الإنسان و اطمئنان روحه.و تغییر المسیر نحو الانحراف الجنسی«اللواط أو السحاق»یذهب بالاطمئنان الروحی...و النظام الاجتماعی.

و حیث أن لهذه القوانین الاجتماعیه جذرا فی الفطره،فالتخلف«أو الانحراف»یسبب الاضطراب و عدم الانسجام فی نظام وجود الإنسان!.

فلوط نبیّ اللّه العظیم نبّه قومه المنحرفین إلی هذا الأساس«الفطری»فقال لهم: أَ تَأْتُونَ الْفٰاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ؟!فالجهل و عدم معرفتکم بقانون الحیاه و السفاهه هو الذی یقودکم إلی الضلال و التیه!.

فلا عجب أن تتغیر سائر قوانین الخلق فی شأن هؤلاء القوم الضالین،فبدلا من أن یغاثوا بماء من السماء یهب الحیاه یمطرون بالحجاره..و بدلا من أن تکون الأرض مهادا وثیرا لهم تضطرب و تتزلزل و یقلب عالیها سافلها،لئلا یقتصر الحال علی هلاکهم فحسب،بل لتمحی آثارهم!.

و فی آخر آیه من الآیات محل البحث،و بعد بیان ما جری علی لوط و قومه

۱- ۱) -«الغابرین»جمع الغابر و معناه هنا الباقی من الذاهبین من المکان.

المنحرفين،يتوجه الخطاب إلى النّبى الكريم«محمّد»صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليستنتج ممّا سبق، فيقول له: قُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ .

الحمد و الثناء الخاص للّه،لأنّه أهلك أمما مفسدين كقوم لوط،لئلا تتلوث الأرض من وجودهم!.

الحمد للّه الذى أبار قوم صالح ثمود،و فرعون و قومه المفسدين،و جعل آثارهم عبره للمعتبرين.

و أخيرا فالحمد للّه الذى أنعم و تفضل على عباده المؤمنين...كداود و سليمان و أمثالهما،و أولاهم القوّه و القدره،و هدى القوم الضالين كقوم سبأ.

ثمّ يضيف قائلا: وَ سَلاٰمٌ عَلىٰ عِبٰادِهِ الَّذِينَ اصْطَفىٰ .

سلام على موسى و صالح و لوط و سليمان و داود،و سلام على جميع الأنبياء و المرسلين و عباد اللّه الصالحين،و من والاهم بإحسان.

ثمّ يقول: آللّٰهُ خَيْرٌ أَمّٰا يُشْرِكُونَ (۱) !! رأينا فى قصص هؤلاء الأنبياء أن الأصنام لم تستطع عند نزول البلاء أن تسعف اتباعها،أو تقوم بأدنى مساعده لهم!غير أن اللّه سبحانه لم يترك عباده وحدهم فى هذه الخطوب،بل أعانهم بلطفه الذى لا ينفذ!

ص :۱۰۴

۱- ۱) (آللّه)أصلها(أ اللّه)فانقلبت إحدى الهمزتين ألفا ثمّ صارت مده كما هى عليه الآن..و جمله(أمّا يشركون)أصلها (أم ما يشركون)إذ أدغمت(أم)المعادله الاستفهاميه بما الموصوله فصارت(أمّا).

الآیات [سوره النمل (٢٧): الآیات ۶٠ الی ۶۴]

اشاره

أَمَّنْ خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً فَأَنْبَتْنٰا بِهِ حَدٰائِقَ ذٰاتَ بَهْجَةٍ مٰا كٰانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهٰا أَ إِلٰهٌ مَعَ اَللّٰهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (۶٠) أَمَّنْ جَعَلَ اَلْأَرْضَ قَرٰاراً وَ جَعَلَ خِلاٰلَهٰا أَنْهٰاراً وَ جَعَلَ لَهٰا رَوٰاسِيَ وَ جَعَلَ بَيْنَ اَلْبَحْرَيْنِ حٰاجِزاً أَ إِلٰهٌ مَعَ اَللّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (۶١) أَمَّنْ يُجِيبُ اَلْمُضْطَرَّ إِذٰا دَعٰاهُ وَ يَكْشِفُ اَلسُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفٰاءَ اَلْأَرْضِ أَ إِلٰهٌ مَعَ اَللّٰهِ قَلِيلاً مٰا تَذَكَّرُونَ (۶٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمٰاتِ اَلْبَرِّ وَ اَلْبَحْرِ وَ مَنْ يُرْسِلُ اَلرِّيٰاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَ إِلٰهٌ مَعَ اَللّٰهِ تَعٰالَى اَللّٰهُ عَمّٰا يُشْرِكُونَ (۶٣) أَمَّنْ يَبْدَؤُا اَلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ اَلسَّمٰاءِ وَ اَلْأَرْضِ أَ إِلٰهٌ مَعَ اَللّٰهِ قُلْ هٰاتُوا بُرْهٰانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (۶۴)

التّفسیر

اشاره

أ مع کلّ هذه الأدله ما تزالون مشرکین؟!

فی آخر آیه من آیات البحث السابق،و بعد ذکر جوانب مثیره من حیاه

خمسه أنبياء عظام،ألقى هذا السؤال الوجيز المتين آللّهُ خَيْرٌ أَمّٰا يُشْرِكُونَ ؟! أمّا فى الآيات محل البحث فتفصّل السؤال..و توجه للمشركين خمس آيات تبدأ بخمسه أسئله،لتناقش المشركين و تحاكمهم،و تكشف دلائل التوحيد فى الآيات الخمس فى اثنى عشر مثلا! فالآيه الأولى من هذه الآيات تتحدث عن خلق السماوات و الأرض،و نزول الماء من السماء و البركات الناشئه عنه،فتقول:هل أن معبوداتكم أفضل أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَنْبَتْنٰا بِهِ حَدٰائِقَ ذٰاتَ بَهْجَهٍ . (١) (٢)

«الحدائق»جمع«الحديقه»،و هى كما يقول كثير من المفسرين:البستان الذى يحيطه الجدار أو الحائط،و محفوظ من جميع الجهات،و منها سمّيت حدقه العين حدقه لأنّها محفوظه بين الجفنين و الهدب،أمّا الراغب فيقول فى المفردات:

إنّ الحديقه تطلق فى الأصل على الأرض المجتمع فيها الماء،كما أنّ حدقه العين فيها الماء دائما.

و يستفاد من مجموع هذين الرأيين أن الحديقه بستان له جدار و ماء كاف.

و«البهجه»على وزن(لهجه)معناها الجمال و حسن الظاهر الذى يسر الناظرين.

و يتوجه الخطاب نحو العباد فى ختام الآيه فيقول: مٰا كٰانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهٰا .

١- ١) -كلمه(ذات)فى«ذات بهجه»جاءت مفرده،مع أن حدائق جمع و هى موصوفها،و ذلك لأنّ الحدائق جمع تكسير،و جمع التكسير قد يأتى أحيانا بمعنى الجماعه،و هى-أى لفظه الجماعه-مفرد و صفتها مفرده أيضا..

٢- ٢) -هذه الآيه فى الحقيقه فيها حذف و تقديره:ما يشركون خير أم من خلق السماوات و الأرض؟و فى الحقيقه إن السؤال فى الآيه السابقه كان هكذا:اللّه خير أم الشركاء؟و هنا يبدأ السؤال بالعكس:ما يشركون خير أم من خلق السماوات و الأرض.

فأنتم تستطيعون أن تنثروا البذور و تسقوا الأرض،لكن الذى جعل الحياه فى قلب البذره،و أمر الشمس أن تشرق على الأرض،و الماء ينزل من السماء حتى تنبت البذره فتكون شجرا،هو اللّه فحسب.

فهذه حقائق لا يمكن إنكارها،و لا أن تنسب لغير اللّه...فهو الذى خلق السماوات و الأرض،و هو الذى أنزل الغيث من السماء،و هو مبدأ هذه البهجه و الحسن و الجمال فى عالم الحياه!.

إن مجرّد التأمل فى لون الزهره الجميله،و أوراقها اللطيفه المنظمه التى تشكل حلقه رائعه..كاف أن يجعل الإنسان عارفا بعظمه الخالق و قدرته و حكمته..فهذه الأمور تهز قلب الإنسان و تدعوه إلى اللّه.

و بتعبير آخر فإن التوحيد فى الخلق يؤدى الى«توحيد الخالق»،و التوحيد فى الربوبيّه«توحيد مدبّر هذا العالم»باعث على«توحيد العباده»!.

و لذلك فالقرآن يقول فى نهايه الآيه: أَ إِلهٌ مَعَ اللّهِ و لكن هؤلاء جهله عدلوا عن اللّه و عبدوا ما لا ينفعهم و لا يضرهم بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (١) .

و السؤال الثّانى بحث عن موهبه استقرار الأرض و ثباتها،و أنّها مقر الإنسان فى هذا العالم،فيقول:هل أنّ أصنامكم أفضل، أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً وَ جَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَ جَعَلَ لَها رَواسِيَ (٢) كما تحافظ على القشره الارضيه من الزلازل، كما وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً و مانعا من اختلاط البحر المالح بالبحر العذب.

و هكذا فقد ورد فى هذه الآيه ذكر أربع نعم عظيمه،ثلاث منها تتحدث عن استقرار الأرض!فتقول:

إن استقرار الأرض فى الوقت الذى تتحرك بسرعه و تدور حول نفسها

---

١ - ١) -قد يكون(يعدلون)من ماده(العدول)أى الانحراف و الرجوع من الحق إلى الباطل،أو أنّه ماده(عدل)على وزن (قشر)و معناه المعادل و النظير..ففى الصوره الأولى مفهوم الآيه أنّهم ينحرفون عن اللّه الواحد إلى غيره،و فى الصوره الثّانيه مفهومها أنّهم يجعلون له عديلا.

٢- ٢) -«الخلال»فى الأصل معناه الشق بين الشيئين.و«الرواسى»جمع«راسيه»،و هى الثابته.

و حول الشمس،و تتحرك فى المنظومه الشمسيه و حركه هادئه و فى وتيره واحده،إلى درجه أن سكّانها لا يحسّون بحركتها أبدا...فكأنّها أوتدت فى مكان واحد!و بقيت ثابته فلا يرى فيها أقلّ حركه.

و النعمه الأخرى وجود الجبال،التى قلنا عنها سابقا أنّها تحيط بالأرض، و جذورها متصله بعضها ببعض كالحاجر القوى الذى يقاوم الضغوط الداخليه للأرض،و حركات الجزر و المدّ الذين يحصلان بسبب جاذبيه القمر، كما أنّها تعبر مانعا امام الأعاصير و السيول من أن تدمّر الأرض بطغيانها! و النعمه الأخرى الحجاب الحاجز بين البحرين،و الحائل الطبيعى الذى يحول بين الماء المالح و الماء العذب،و هذا الحجاب-غير المرئى-هو الاختلاف فى درجه الغلظه بين الماء العذب و الماء المالح،أو كما يصطلح عليه اختلاف «الوزن النوعى»الخاص الذى يسبب عدم انحلال مياه الأنهار العظيمه العذبه التى تنصب فى البحار المالحه لمدّه طويله،و عند حاله«المدّ»تتمدد هذه المياه العذبه على السواحل الصالحه للزراعه فتسقيها(و قد بيّنا تفصيل هذا الموضوع ذيل الآيه ۵۳ من سوره الفرقان).

و فى الوقت ذاته جعل اللّه خلال أجزاء الأرض المختلفه أنهارا تسقى المزارع و الأحياء...فتخضرّ البساتين و تثمّر الأشجار و بعض مصادر هذه المياه تكمن فى قمم الجبال...و بعضها بين الطبقات الأرضيّه!.

ترى هل يمكن أن يكون هذا النظام قد ولد عن طريق الصدفه العمياء الصمّاء،و المبدأ الفاقد للعقل و الحكمه؟!و هل للأصنام تأثير فى هذا النظام البديع المثير للدهشه؟! حتى عبده الأصنام لا يدعون مثل هذا الادعاء!لذلك يكرر القرآن فى ختام الآيه هذا السؤال: أَ إِلٰهٌ مَعَ اللّٰهِ ؟!حاش للّه بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ .

السؤال الثّالث من هذه الأسئله الخمسه التى تحكى عن محاوره و محاكمه

المعنویه یتحدث عن حلّ المشکلات،و فتح الطرق الموصده،و إجابه الدعاء،إذ تقول الآیه التالیه: أَمَّنْ یُجِیبُ الْمُضْطَرَّ إِذٰا دَعٰاهُ وَ یَکْشِفُ السُّوءَ .

أجل...عند ما تغلق جمیع أبواب عالم الأسباب بوجه الإنسان،و یبلغ النصل إلی العظم،و یغدو مضطرا حیرانا لا حیله له،فإنّ الذی یحلّ المعضله،و یفتح الأقفال،و یزیل السدود عن الطرق،و ینثر فی القلوب نور الأمل،و یفتح أبواب الرحمه بوجه الناس المتحیرین،هو اللّه لا غیر!.

و حیث أنّ الناس یدرکون هذه الحقیقه بالفطره فی اعماق نفوسهم جمیعا، فإنّ المشرکین حین یقعون بین أمواج البحر المتلاطمه ینسون جمیع معبودیهم و یتوجهون نحو لطف اللّه،کما یقول القرآن: فَإِذٰا رَکِبُوا فِی الْفُلْکِ دَعَوُا اللّٰهَ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ (۱) لذلک تضیف الآیه قائله:إنّه لا ینقذکم من هذه المآزق و الشدائد فحسب،بل:

وَ یَجْعَلُکُمْ خُلَفٰاءَ الْأَرْضِ أَ إِلٰهٌ مَعَ اللّٰهِ

و لکنکم لا تتعضون بهذه الدلائل.. قَلِیلاً مٰا تَذَکَّرُونَ (۲) .

و حول مفهوم المضطر،و مسأله استجابه الدعاء و شروطها،بحوث ستأتی فی نهایه هذه الآیات! و المراد من خُلَفٰاءَ الْأَرْضِ لعله بمعنی«سکنه الأرض»و أصحابها..لأنّ اللّه جعل الإنسان حاکما علی هذه الأرض،مبسوط الید فیها بما أولاه من النعم و أسباب الرفاه و الدعه و الاطمئنان!.

و لا سیما حین یقع الإنسان فی شدّه،فیغدو مضطرا و یتجه نحو خالقه الکریم-فیرفع بکرمه البلایا و الموانع-فتستحکم أسس هذه الخلافه و هنا

۱- ۱) -العنکبوت،الآیه ۶۵.
۲- ۲) (ما)فی قوله تعالی: قَلِیلاً مٰا تَذَکَّرُونَ زائده ظاهرا،و نعرف أن الحروف الزائده فی کثیر من المواطن للتأکید، و(قلیلا)صفه لمصدر محذوف و تقدیره:تتذکرون تذکرا قلیلا.

تتجلى العلاقه بين شطرى الآيه.

كما قد يكون المراد بهذا المعنى،و هو أنّ اللّه جعل ناموس الحياه أن يخلف قوم قوما على الدوام،بحيث لو لم يكن هذا التناوب لم تغد الصوره متكامله (۱) !.

و يثير القرآن فى السؤال الرّابع مسأله الهدايه فيقول:هل أن الأصنام أفضل، أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمٰاتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بواسطه النجوم وَ مَنْ يُرْسِلُ الرِّيٰاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ؟!!.

فالرياح التى تدل على نزول الغيث،و كأنّها رسل البشرى تتحرك قبل نزول الغيث، إنّها فى الحقيقه تهدى الناس إلى الغيث أيضا.

و التعبير ب بُشْراً فى شأن الرياح،و التعبير ب بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ فى شأن الغيث،كلاهما تعبيران طريفان لأنّ الرياح هى التى تحمل الرطوبه فى الجو و تنقل أبخره الماء من على وجه المحيطات بشكل قطعات من السحب على متونها،إلى النقاط اليابسه،و تخبر عن قدوم الغيث! و كذلك الغيث الذى ينشد نغمه الحياه على وجه البسيطه،و حيثما نزل حلت البركه و الرحمه (۲) .

(ذكرنا شرحا مفصلا فى تأثير الرياح فى نزول الغيث فى ذيل الآيه ۵۷ من سوره الأعراف).

و يخاطب القرآن فى ختام الآيه المشركين مرّه أخرى فيقول: أَ إِلٰهٌ مَعَ اللّٰهِ ؟! ثمّ يضيف دون أن ينتظر الجواب قائلا تَعٰالَى اللّٰهُ عَمّٰا يُشْرِكُونَ .

أمّا فى آخر آيه من الآيات محل البحث،فيثير القرآن السؤال الخامس فى

ص: ۱۱۰

۱- ۱) -فبناء على هذا المعنى يكون(خلفاء الأرض)بمعنى:خلفاء فى الأرض.

۲- ۲) -«بشر»على وزن«عشر»-كما ذكرنا آنفا-مخفف بشر على وزن«كتب»،و هى جمع«بشور»على وزن «قبول»و معناه المبشر.

شأن المبدأ و المعاد بهذه الصوره،فيقول:هل أنّ أصنامكم أفضل، أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ مَنْ يَرْزُقُكَمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللّهِ ..فهل بعد ذلك تعتقدون بوجود معبود غير اللّه قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ؟! و فى الواقع فإن الآيات المتقدمه كلها كانت تتكلم على المبدأ،و ايات عظمه اللّه فى عالم الخلق و الوجود،و مواهبه و نعمه،إلاّ أنّه فى الآيه الأخيره ينتقل البحث من معبر ظريف إلى مسأله المعاد،لأنّ بدايه الخلق نفسها دليل على تحققها،و القدره على بدايه الخلق تعد دليلا واضحا على المعاد.

و من هنا يتّضح الجواب على السؤال الذى يثيره كثير من المفسّرين،و هو أن المشركين المخاطبين بهذه الآيات أغلبهم لم يعتقدوا بالمعاد«المعاد الجسمانى» فكيف يمكن أن يوجه إليهم هذا السؤال مع هذه الحال و يطلب منهم الإقرار.

فالجواب عليه أن هذا السؤال مقرون بدليل يسوق الطرف الآخر للإقرار، لأنّه باعترافهم أن بدايه الخلق من اللّه،و هذه المواهب و النعم كلّها منه،لكى تقبل عقولهم إمكان المعاد و الرجوع الى الحياه فى يوم القيامه مرّه أخرى.

و المراد من(الرزق السماوى)هو الغيث و نور الشمس و أمثال ذلك،أمّا (الرزق الارضى)فالنباتات و المواد الغذائيه المختلفه التى تنمو على الأرض مباشره،أو عن طريق غير مباشر كالأنعام و المعادن و المواد المختلفه التى يتمتع بها الإنسان فى حياته!.

بحوث

اشاره

۱-من المضطر الذى يجاب إذا دعاه؟

مع أنّ اللّه-يجيب دعاء الجميع عند تحقق شروط الدعاء،إلاّ أنّ فى الآيات آنفه الذكر اهتماما بالمضطر،و ذلك لأنّ من شروط إجابه الدعاء أن يغمض

الإنسان عينيه عن عالم الأسباب كليّا، و أن يجعل قلبه و روحه بين يدى رحمه اللّه،و أن يرى كل شىء منه و له!و أن حل كل معضله بيده،و هذه النظره و هذا الإدراك إنّما يتحققان فى حال الاضطرار.

و صحيح أنّ العالم هو عالم الأسباب و المسببات،و المؤمن يبذل منتهى سعيه و جهده فى هذا الشأن...إلاّ أنّه لا يضيع فى عالم الأسباب أبدا...و يرى كل شىء من بركات ذاته المقدسه،و يرى من وراء الحجاب ببصره النافذ«مسبب الأسباب»فيطلب منه ما شاء!.

أجل،إذا وصل الإنسان إلى هذه المرحله،فإنه يوفّر لنفسه أهم شرط لإجابه الدعاء.

الطريف أنّه قد ورد فى بعض الرّوايات تفسير هذه الآيه بقيام المهدى صلوات اللّه و سلامه عليه!

ففى روايه عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «و اللّه لكأنّى أنظر إلى القائم و قد أسند ظهره إلى الحجر ثمّ ينشد اللّه حقّه...قال و اللّه هو المضطر فى كتاب اللّه فى قوله: أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذٰا دَعٰاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفٰاءَ الْأَرْضِ » (۱) ! و

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: «نزلت فى القائم من آل محمّد عليهم السّلام هو و اللّه المضطر إذا صلى فى المقام ركعتين و دعا اللّه عزّ و جلّ فأجابه و يكشف السوء و يجعله خليفه فى الأرض» (۲) .

و لا شك أن هذا التّفسير-كما رأينا نظائره الكثيره-لا يحصر المراد من هذه الآيه بالمهدى عليه السّلام،بل مفهوم الآيه واسع،و المهدى عليه السّلام واحد من مصاديقها الجليّه...إذ الأبواب فى زمانه موصده،و الفساد عمّ البسيطه،و البشريه فى طريق

۱- ۱) -تفسير نور الثقلين،ج ۴،ص ۹۴.

۲- ۲) -تفسير نور الثقلين،ج ۴،ص ۹۴.

مسدود،و حاله الاضطرار ظاهره فی جمیع العالم..فعندئذ یظهر الإمام فی أقدس بقعه..فیطلب کشف السوء،فیلبی اللّه دعوته،و یجعله بدایه«الظهور»المبارک فی العالم،و یستخلفه فی الأرض هو و أصحابه،فیکون مصداقا لقوله تعالی وَ یَجْعَلُکُمْ خُلَفٰاءَ الْأَرْضِ .

«کان لنا بحث فی شروط إجابه الدعاء و أهمیته،و فی سبب عدم الإجابه، فصّلناه فی ذیل الآیه(۱۸۶)من سوره البقره»

۲-الاستدلال المنطقی فی کلّ مکان

نقرأ فی آیات القرآن-مرارا-أنّه یطالب المخالفین بالدلیل،و خاصه بقوله:

هٰاتُوا بُرْهٰانَکُمْ

و قد جاء هذا النص فی أربعه مواضع البقره:الآیه ۱۱۵، الأنبیاء:الآیه ۲۴،النمل:الآیه ۶۴،و القصص:الآیه ۷۵ کما أنّه أکّد فی مواضع أخری علی البرهان خاصه«و المراد من البرهان:أصدق دلیل».

و هذا المنطق(المطالبه بالبرهان)للإسلام یحکی عن محتواه الغنی و القوی، لأنّه یسعی لأن یواجه مخالفیه مواجهه منطقیه،فکیف یطالب الآخرین بالبرهان و هو لا یکترث به؟!فآیات القرآن المجید مملوءه بالاستدلالات المنطقیه...

و البراهین العلمیه فی المسائل المتعدده!.

و هذا الأمر علی خلاف ما حرفته المسیحیه الیوم-و عوّلت علیه،و تری أن الدین هو ما یوحیه القلب!!و تفصل العقل عنه إذ تراه أجنبیا عنه...حتی أنّها تؤمن بالتناقضات العقلیه کالتوحید فی التثلیث،و من هنا فقد سمحت للخرافات أن تدخل فی الدین،مع أن الدین لو خلا من العقل و الاستدلال العقلی فسوف لا یقوم دلیل علیه،و یکون ذلک الدین و ما یضادّه سواء!.

و تبرز عظمه هذا المنهج(و هو الاهتمام بالبرهان و دعوه المخالفین إلی الاستدلال المنطقی)حین نلتفت إلی أن الإسلام ظهر فی محیط یعیش الخرافات

التی لا أساس لها و المسائل غیر المنطقیه فی جمیع مفاصل منظومته الفکریه و المعرفیه!!

۳-خلاصه عامّه و مرور علی الآیات السابقه

فی الآیات السابقه کان اهتمام القرآن منصبا لإثبات«توحید المعبود»علی «توحید الخالق»،و«توحید الرب»ای(توحید الخلق و توحید التدبیر)و تحدّث عن اثنتی عشره آیه و علامه للّه العظیم فی عالم الوجود:

۱-السماء و الأرض.

۲-نزول الغیث.

۳-برکاته فی الحیاه.

۴-قرار الأرض.

۵-الأنهار.

۶-الجبال الرواسی.

۷-الحاجز بین البحرین(العذب و المالح).

۸-إجابه دعوه العباد.

۹-هدایتهم فی ظلمات البر و البحر.

۱۰-إرسال الریاح بشرا بین یدی رحمته.

۱۱-بدء الخلق و إعادته.

۱۲-رزق الإنسان«و سائر الخلق»من السماء و الأرض.

هذه المواهب«و النعم»الاثنتا عشره بیّنت فی خمس آیات و ضمن خمسه أسئله!.و کانت تعالج الأمور الخمسه التالیه علی التوالی:

۱-الخلق.

۲-و الاستقرار.

۳-کشف الضرّ.

۴-الهدایه.

۵-إعاده الحیاه(بعد الموت).

و قد عقّب ذیل کل واحد من الأسئله الخمسه،بقوله تعالی: أَ إِلٰهٌ مَعَ اللّٰهِ ؟! و قد أوضح القرآن فی نهایه کل سؤال أمورا،فأشار فی نهایه الآیه الأولی إلی انحراف المخالفین عن الحق.

و أشار فی الآیه الثّانیه إلی جهلهم.

و أشار فی الآیه الثّالثه إلی عدم تفکیرهم! و أشار فی الآیه الرابعه إلی انحطاط أفکارهم.

و طالبهم فی نهایه الآیه الخامسه بالاستدلال! و قد أبدی القرآن بشکل عام مجموعه من الأسئله الجامعه و المنسجمه بعضها مع بعض.

ص :۱۱۵

الآيات [سوره النمل (٢٧): الآيات ۶۵ الی ۶۸]

اشاره

قُلْ لاٰ يَعْلَمُ مَنْ فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ اَلْغَيْبَ إِلاَّ اَللّٰهُ وَ مٰا يَشْعُرُونَ أَيّٰانَ يُبْعَثُونَ (۶۵) بَلِ اِدّٰارَكَ عِلْمُهُمْ فِي اَلْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهٰا بَلْ هُمْ مِنْهٰا عَمُونَ (۶۶) وَ قٰالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا أَ إِذٰا كُنّٰا تُرٰاباً وَ آبٰاؤُنٰا أَ إِنّٰا لَمُخْرَجُونَ (۶۷) لَقَدْ وُعِدْنٰا هٰذٰا نَحْنُ وَ آبٰاؤُنٰا مِنْ قَبْلُ إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ أَسٰاطِيرُ اَلْأَوَّلِينَ (۶۸)

التّفسير

لمّا كان البحث فى آخر الآيات السابقه عن القيامه و البعث،فإن الآيات- محل البحث-تعالج هذه المسأله من جوانب شتى،فتجيب أولا على السؤال الذى يثيره المشركون دائما،و هو قولهم:متى تقوم القيامه؟و«متى هذا الوعد»؟! فتقول: قُلْ لاٰ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللّٰهُ وَ مٰا يَشْعُرُونَ أَيّٰانَ يُبْعَثُونَ ! لا شك أن علم الغيب-و منه تاريخ وقوع القيامه-خاص باللّه،إلاّ أنّه لا منافاه فى أن يجعل اللّه بعض ذلك العلم عند من يشاء من عباده،كما نقرأ فى الآيتين(٢۶)و(٢٧)من سوره الجن عٰالِمُ الْغَيْبِ فَلاٰ يُظْهِرُ عَلىٰ غَيْبِهِ أَحَداً إِلاّٰ

ص:١١۶

مَنِ ارْتَضىٰ مِنْ رَسُولٍ .

و بتعبير آخر فإنّ علم الغيب بالذات،و بصورته المستقله و المطلقه غير المحدوده،خاصّ باللّه سبحانه،و كل علوم الآخرين مسترفده من علمه تعالى.

و لكن مسأله تاريخ وقوع القيامه مستثناه من هذا الأمر أيضا،و لا يعلم بها أحد «إلاّ اللّه» (۱) .

ثمّ يتكلم القرآن عن عدم علم المشركين بيوم القيامه و شكهم و جهلهم، فيقول: بَلِ ادّٰارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَهِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهٰا بَلْ هُمْ مِنْهٰا عَمُونَ .

«ادّارك»في الأصل«تدارك»و معناه التتابع أو لحوق الآخر بالأوّل،فمفهوم جمله: بَلِ ادّٰارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَهِ أنّهم لم يصلوا إلى شيء بالرغم ممّا بذلوه من تفكير،و جمعوا المعلومات في هذا الشأن،لذلك فإنّ القرآن يضيف مباشره بعد هذه الجمله بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهٰا بَلْ هُمْ مِنْهٰا عَمُونَ .لأنّ دلائل الآخره ظاهره في هذه الدنيا،فعوده الأرض الميته إلى الحياه في فصل الربيع،و إزهار الأشجار و إثمارها مع أنّها كانت في فصل الشتاء جرداء!...و مشاهده عظمه قدره الخالق في مجموعه الخلق و الوجود،كلها دلائل على إمكان الحياه بعد الموت، إلاّ أنّهم كالعمي الذين لا يبصرون كل شيء! و بالطبع فإنّ هناك تفاسير أخر للجمله أعلاه،منها أنّ المراد من اِدّٰارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَهِ أن أسباب التوصل للعلم في شأن الآخره متوافره و متتابعه، إلاّ أنّهم عمي عنها.

و قال بعضهم:إنّ المراد منها أنّهم عند ما تكشف الحجب في يوم الآخره، فإنّهم سيعرفون حقائق الآخره بشكل كاف.

ص: ۱۱۷

۱- ۱) -كان لنا بحوث مفصله في علم الغيب في الأجزاء السابقه في هذا التّفسير.

إلاّـ أنّ الأـنسب من بين هـذه التفاسـير الثلاـثه هو التّفسـير الأـوّل حيث ينـاسب بقيه الجمل فى الآيه،و البحوث الوارده فى الآيات الأخر!.

و هكذا فقد ذكرت ثلاث مراحل لجهل المنكرين(للآخره).

الأولى:أنّ إنكارهم و إشكالهم هو لأنّهم يجهلون خصوصيّات الآخره «و حيث أنّهم لم يروها فهم يظنون الحقيقه خيالا».

الثّانيه:أنّهم فى شك من الآخره أساسا،و سؤالهم عن زمان تحققها ناشئ من أنّهم فى شك منها!.

الثّالثه:أن جهلهم و شـكهم ليس منشؤهما أنّهم لا يملكون دليلا أو دلائل كافيه على الآخره، بل الأدله متوفره إلاّ أن أعينهم عمى عنها! و الآيه التاليه:توجز منطق منكرى القيامه و البعث فى جمله واحده،فتقول:

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَ إِذا كُنّا تُراباً وَ آباؤُنا أَ إِنّا لَمُخْرَجُونَ

؟! فهم مقتنعون بهـذا المقـدار،أنّ هـذه المسأله بعيـده(أن يتحول الإنسان إلى تراب ثمّ يعود إلى الحياه)!مع أنّهم كانوا أوّل الأمر ترابـا و خلقوا من الـتراب،فمـا يمنع أن يعودوا إلى الـتراب،ثمّ يرجعون أحيـاء بعـد أن كـانوا ترابـا! الطريف أنّنـا نواجه مثـل هـذا الاسـتبعاد فى ثمانيه مواضع من القرآن،فهم يشـكون فى مسأله القيامه فى المواضع آنفه الذكر بمجرّد استبعاد عودتهم إلى الحياه من«التراب»ثانيه!.

ثمّ يحكى القرآن عمّا يضـيفه المشـركون من قول: لَقَـدْ وُعِـدْنا هـذا نَحْنُ وَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ و لكن لم نجـد أثرا لهـذا الوعـد و لن يوجد إِنْ هذا إِلاّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

فما هى سوى خرافات و خزعبلات القدماء.

فبناء على هـذا فإنّهم يبـدأون من الاسـتبعاد ثمّ يجعلونه أساسا للإنكار المطلق...فكأنّهم كانوا ينتظرون أن تتحقق القيامه عاجلا،و حيث أنّهم لم يشهدوا

ذلك فی حیاتهم فهم ینکرونه.

و علی کل حال،فهذه التعبیرات جمیعها تدل علی غفلتهم و غرورهم!.

و یستفاد-ضمنا من هذا التعبیر-أنّهم أرادوا أن یسخروا من کلام النّبی فی شأن یوم القیامه،و یطعنوا علیه،فیقولوا:إن هذه الوعود الباطله سبقت لأسلافنا، فلا جدید فیها یستحق بذل التفکیر و المراجعه!.

ص: ۱۱۹

الآیات [سوره النمل (٢٧): الآیات ۶۹ الی ۷۵]

اشاره

قُلْ سِیرُوا فِی اَلْأَرْضِ فَانْظُرُوا کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَهُ اَلْمُجْرِمِینَ (۶۹) وَ لاٰ تَحْزَنْ عَلَیْهِمْ وَ لاٰ تَکُنْ فِی ضَیْقٍ مِمّٰا یَمْکُرُونَ (۷۰) وَ یَقُولُونَ مَتیٰ هٰذَا اَلْوَعْدُ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ (۷۱) قُلْ عَسیٰ أَنْ یَکُونَ رَدِفَ لَکُمْ بَعْضُ اَلَّذِی تَسْتَعْجِلُونَ (۷۲) وَ إِنَّ رَبَّکَ لَذُو فَضْلٍ عَلَی اَلنّٰاسِ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لاٰ یَشْکُرُونَ (۷۳) وَ إِنَّ رَبَّکَ لَیَعْلَمُ مٰا تُکِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مٰا یُعْلِنُونَ (۷۴) وَ مٰا مِنْ غٰائِبَهٍ فِی اَلسَّمٰاءِ وَ اَلْأَرْضِ إِلاّٰ فِی کِتٰابٍ مُبِینٍ (۷۵)

التّفسیر

اشاره

لا یضیق صدرک بمؤامراتهم:

کان الکلام فی الآیات السابقه عن إنکار المعاندین الکفار للمعاد، و استهزائهم و تکذیبهم بالیوم الآخر.

و لما کان البحث المنطقی غیر مجد لهؤلاء القوم المعاندین و الأعداء الألدّاء، بالإضافه إلی ما أقامته الآیات الأخر من الدلائل الوافره علی المعاد ممّا یری کلّ یوم فی عالم النباتات و فی عالم الأجنّه،و ما إلی ذلک،فإنّ الآیات محل البحث

بـدلا من أن تأتيهم بـدليل،هددتهم بعذاب اللّه الّذى شـمل من سـبقهم من الكفّار، و أنذرتهم بعقابه المخزى...فوجهت الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائله: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ .

فأنتم تعترفون أن هذه الوعود تلقّاها أسـلافكم،فلم يكترثوا بها،و لم يروا ضـررا..فهلّا سـرتم فى الأرض قليلا،لتشهدوا آثار هؤلاء المجرمين المنكرين للتوحيد و المعاد،و خاصه الآثار فى المناطق القريبه من الحجاز...لتنظروا أن الأمر ليس كما تزعمون.

و لكن سيحين موعدكم فلا تعجلوا...فأنتم كأولئك ستواجهون المصير المحتوم و العاقبه المخزيه إذا لم تصلحوا أنفسكم!.

و القرآن دعا مرارا إلى السـير فى الأرض،و مشاهده آثار الماضين،و المدن الخاويه الخربه التى حاق بأهلها سوء العذاب،و قصور الظالمين المتداعيه، و القبور الدارسه و العظام النخره،و الأموال التى خلفها أصـحابها المغرورون!! إنّ مطالعه تلك الآثار التى تعبّر عن التأريـخ الحىّ لأولئك الماضـين،توقظ القلوب الغافله!و تبصّرها بالحق...و الواقع كـذلك،فإن مشاهـده واحـد من هذه الآثار يترك فى القلب أثرا لا تتركه مطالعه عدّه كتب تأريخيه!.

(كان لنا بحث مفصل فى هذا المجال ذيل الآيه ١٣٧ من سوره آل عمران).

ممّا ينبغى ملاحظته أنّه جاء فى هـذه الآيه التعبير ب«المجرمين»بدلا من «المكذبين»...و هو إشاره إلى أن تكذيبهم لم يكن لأنّهم أخطأوا فى التحقيق،بـل أسـاسه العنـاد و اللجـاجه.و تلوثهم بـأنواع الجرائم! و حيث أن الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم كان يشـفق عليهـم لإنكـارهم،و يحزن لعنـادهم، و يحـترق قلبـه مـن أجلهم،إذ كـان حريصـا على هـدايتهم،و كـان يـواجه مـؤامراتهم أيضا..فإنّ الآيه التاليه تسرى عن قلب النّبى فتقول له: وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ و لا تقلق من مؤامراتهم وَ لا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمّا يَمْكُرُونَ .

إلاّ أنّ هؤلاء المنكرين المعاندين،بدلا من أن يأخذوا إنذار النّبى المشفق عليهم مأخذ الجد فيتعظوا بوعظه و يستر شدوا بنصحه،أخذوا يسخرون منه وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ .

و مع أنّ المخاطب هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،إلاّ أنّ الموضوع ذكر بصيغه الجمع«إن كنتم صادقين»لأنّ المؤمنين الصادقين كانوا قد ضموا صوتهم إلى صوت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا...فهم مخاطبون بما خوطب به كذلك! و هنا يردّ القرآن على استهزائهم و سخريتهم بلهجه موضوعيه،فيقول مخاطبا نبيّه: قُلْ عَسىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ .

فعلام تستعجلون؟!و علام تستصغرون عقاب اللّه؟!أ فلا ترحمون أنفسكم؟! ترى،هل عذاب اللّه ضرب من الهزل أو المزاح؟فعسى أن يأخذكم اللّه بعذابه لكلامكم هذا فيهلككم...فلم هذا العناد و اللجاجه؟! «ردف»فعل مشتق من(ردف)على وزن(حرف)و معناه كون الشىء خلف الشىء الآخر،و لذا يطلق على من يركب الفرس خلف صاحبه(رديف)كما يطلق الرديف على الأشخاص أو الأشياء التى تقف صفا واحدا بعضها خلف بعض.

و هناك كلام عن المراد من العذاب الذى كانوا يستعجلون به،فقيل:هو ما أصابهم يوم بدر من هزيمه كبرى،إذ صرع من عتاتهم سبعون رجلا و أسر سبعون رجلا!.

كما و يحتمل أنّ المراد منه العقاب العام الذى دفع أخيرا،ببركه وجود النّبى إذ كان رحمه للعالمين،و الآيه(٣٣)من سوره الأنفال شاهده عليه وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ .

و التعبير ب«عسى»لعله على لسان النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.و حتى لو كان من قبل اللّه سبحانه-فعلى خلاف ما يتصوّره بعضهم،فإنّه ليس فيه أى إشكال...إذ هو إشاره إلى وجود مقدمات الشىء و مقتضياته،مع إمكان أن تقترن هذه المقدمات

بالمانع،فلا تصل إلی النتیجه النهائیه(فلاحظوا بدقّه)!.

ثمّ یتحدث القرآن فی الآیه التالیه عن هذه الحقیقه:و هی أنّ اللّه إذا لم یعجل فی عقابکم،فذلک بفضله و برحمته،حیث یمهل عباده الإمهال الکافی لإصلاح أنفسهم،فیقول: وَ إِنَّ رَبَّکَ لَذُو فَضْلٍ عَلَی النّاسِ وَ لکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لا یَشْکُرُونَ .

و إذا کانوا یتصورون أن تأخیر العقاب لعدم علم اللّه سبحانه لما یدور فی خلدهم من نیات سیئه و أفکار ضاله،فهم فی غایه الخطأ: وَ إِنَّ رَبَّکَ لَیَعْلَمُ ما تُکِنُّ صُدُورُهُمْ وَ ما یُعْلِنُونَ (۱) .

فهو یعلم خفایاهم بمقدار ما یعلم من ظاهرهم و ما یعلنون،و الغیب و الشهاده عنده سیّان.

فهذه المفاهیم هی من نتاج علمنا المحدود،و إلاّ فهی فی مقابل غیر المحدود تفقد معانیها و تتلاشی حدودها.

و هنا ذکر«علم اللّه بما تکنّ القلوب»مقدما علی علمه بالأفعال الخارجیه، و لعل ذلک هو بسبب أهمیه النیات و الإراده!کما یمکن أن یکون التقدیم لأنّ الأفعال الخارجیه ناشئه عن النیات الداخلیه،و العلم بالعله مقدم علی العلم بالمعلول!.

ثمّ یضیف القرآن قائلا:إنّه لیس علم اللّه منحصرا بما تکن القلوب و ما تعلن، بل علمه واسع مطلق! وَ ما مِنْ غائِبَهٍ فِی السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِلاّ فِی کِتابٍ مُبِینٍ (۲) .

و واضح أن«الغائبه»لها معنی واسع،فهی تحمل فی مفهومها کلّ ما خفی عن حسّنا و غاب...و تشمل أعمال العباد الخفیه و النیات الباطنیه،و أسرار

---

۱ – ۱) -«تکنّ»مأخوذ من کنّ علی وزن جنّ،و هذا الفعل یطلق علی ما تستر فیه الأشیاء و تحفظ،و هنا کنایه عن ما یخطر فی قلوب الکفّار من خواطر و أفکار عدوانیه!..

۲- ۲) -«الغائبه»اسم فاعل مشتق یدل علی الوصف،و کما یعتقد بعضهم«التاء»لیست فی هذه الکلمه للتأنیث،بل هی إشاره للأشیاء المخفیه،فهی للمبالغه فی الخفاء...إلا أنّه لا مانع من أن نحتمل أن التاء للتأنیث،و أن موصوفها محذوف،و تقدیره:و ما من خصله غائبه.أو أشیاء غائبه،و اللّه العالم..

السماوات و الأرض و قيام الناس للحساب يوم القيامه،زمان نزول العذاب، و أمثال ذلك.و لا دليل على أن نفسّر«الغائبه»هنا بواحد من هذه الأمور المذكوره آنفا-كما ذهب إليه بعض المفسّرين-.

و المراد ب«الكتاب المبين»هو اللوح المحفوظ،و علم اللّه الذى لا نهايه له، و قد بحثنا هذا الموضوع فى ذيل الآيه(۵۹)من سوره الأنعام.

ملاحظات

التحقيق فى الآيات المتقدمه يدل على أن منكرى المعاد من أجل أن يتنصّلوا من عبء الإيمان بالقيامه و المسؤوليات الناشئه عنه،كانوا يتوسلون بثلاثه طرق:

۱-استبعاد العوده للحياه بعد أن يغدو الإنسان ترابا،لاعتقادهم أنّ التراب لا يمكن أن يكون أساسا للحياه! ۲-قدم هذه العقيده و عدم الجده فيها.

۳-عدم نزول العذاب على منكرى المعاد...لأنّه لو كان حقّا أن يبتلى المنكرون بالعذاب فلم لا ينزل عليهم! و قد ترك القرآن الجواب على الإشكالين الأوّل و الثانى،لأنّنا نرى بأم أعيننا أنّ التراب مصدر الحياه و أساسها،و كنا فى البدايه ترابا ثمّ صرنا أحياء! و كون الشيء قديما لا ينقص من أهميّته أيضا...لأنّ قوانين هذا العالم الأصيله ثابته و مستقره من الأزل حتى الأبد...و فى الأصول الفلسفيه و المسائل الرياضيّه و العلوم الأخر أصول كثيره ثابته...فهل كون امتناع اجتماع النقيضين قديما،أو جدول ضرب فيثاغورس قديما،دليلا على ضعفه؟!و إذا رأينا العدل حسنا و الظلم سيئا منذ القدم،و لا يزال كذلك،فهل هو دليل على بطلانه...فكثيرا

ما يتفق أن القدم دليل على الأصاله.

و أمّا فی شأن الإشكال الثالث،فیجیب القرآن:ألاّ تعجلوا..فعدم نزول العذاب من لطف اللّه،فهو یمهلكم و لا یعذبكم عاجلا،لكن إذا جاء عذابه فلا مفرّ منه.

الآيات [سوره النمل (٢٧): الآيات ٧٦ الى ٨١]

اشاره

إِنَّ هٰذَا اَلْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلىٰ بَنِی إِسْرٰائِيلَ أَكْثَرَ اَلَّذِی هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧۶) وَ إِنَّهُ لَهُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّکَ يَقْضِی بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اَللّٰهِ إِنَّکَ عَلَى اَلْحَقِّ اَلْمُبِينِ (٧٩) إِنَّکَ لاٰ تُسْمِعُ اَلْمَوْتىٰ وَ لاٰ تُسْمِعُ اَلصُّمَّ اَلدُّعٰاءَ إِذٰا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَ مٰا أَنْتَ بِهٰادِی اَلْعُمْیِ عَنْ ضَلاٰلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاّٰ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيٰاتِنٰا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١)

التّفسير

اشاره

عمی القلوب لا يقبلون دعوتک!

كان الكلام فی الآيات السابقه عن المبدأ و المعاد...أمّا فی الآيات-محل البحث-فيقع الكلام على مسأله النبوّه،و حقّانيّه القرآن،ليكتمل بهما هذا البحث!.

و من جهه أخرى فقد كان الكلام فی الآيات السابقه عن علم اللّه الواسع غير المحدود،و فی الآيات محل البحث مزيد تفصيل فی هذا الشأن.

أضف إلى ذلک أنّ الخطاب كان فيما سبق من الآيات موجها للمشركين، و هنا يوجه الخطاب نحو الكفار الآخرين كاليهود و اختلافاتهم!.

فتقول الآيات أوّلا: إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلىٰ بَنِی إِسْرٰائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِی هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

لقد اختلف بنو إسرائيل فيما بينهم فی مسائل كثيره!فقد اختلفوا فی شأن مريم و عيسی عليهما السّلام.و فی شأن النّبی الذی بشّرت به«التّوراه»من هو؟ كما أنّهم اختلفوا فی ما بينهم فی كثير من المسائل الدينيه و الأحكام الشرعيه...فجاء القرآن موضحا هذه الأمور بجلاء،و قال:إن المسيح عليه السّلام عرف نفسه بصراحه ف قٰالَ إِنِّی عَبْدُ اللّٰهِ آتٰانِیَ الْكِتٰابَ وَ جَعَلَنِی نَبِيًّا (۱) .

و قال أيضا:إنّ المسيح ولد من دون أب،و ليس أمره محالا و إِنَّ مَثَلَ عِيسیٰ عِنْدَ اللّٰهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرٰابٍ (۲) .

و أمّا النّبی الذی بشرت به التّوراه فتنطبق أوصافه علی نبی الإسلام محمّد صلّی اللّه عليه و آله و سلّم،و لا تنطبق علی أحد سواه!.

و علی كل حال فإنّ واحده من مهامّ القرآن هی مواجهه الاختلافات المتولّده من اختلاط الخرافات و حقائق التعليمات التی جاء بها الأنبياء...و كل نبی مسئول أن يحسم الاختلافات الناشئه من التحريف و الخلط بين الحقّ و الباطل...و حيث أن هذا العبء لا يمكن أن ينهض به رجل أمی لم يسبق له أن يقرأ،و فی محيط جاهلی،فيتّضح أنّه مرسل من قبل اللّه! و لما كانت مواجهه الاختلافات و الوقوف بوجهها مدعاه للهدی و الرحمه، فإنّ الآيه التاليه تشير إلی هذا«الأصل الكلی»و تقول: وَ إِنَّهُ لَهُدیً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ .

أجل،إنّه هدی و رحمه من حيث حسم الخلافات و مبارزه الخرافات، هدی و رحمه لأنّ دليل حقانيته كامن فی عظمه محتواه!

۱- ۱) -سوره مريم،الآيه ۳۰.

۲- ۲) -آل عمران،الآيه ۵۹.

هدی و رحمه لأنّه یهدی إلی سبیل الحق و یدل علیه!.

و ذکر«المؤمنین»هنا خاصّه..هو لما ذکرناه آنفا من أنّه ما لم تتوفر مرحله من الإیمان فی الإنسان،و هی مرحله الاستعداد لقبول الحق و التسلیم للّه،فإنّه لا یستطیع الاستفاده من هذا المصدر الإلهی الفیّاض.

و حیث أنّ جماعه من بنی إسرائیل وقفت بوجه القرآن و الحقائق الوارده فیه،لأوامر اللّه،فإنّ الآیه التالیه تقول فی شأنهم: إِنَّ رَبَّکَ یَقْضِی بَیْنَهُمْ بِحُکْمِهِ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْعَلِیمُ .

و بالرغم من أنّ هذه الآیه لم تصرّح بأن قضاء اللّه بینهم سیکون یوم القیامه...

إلاّ أنّه بقرینه آیتین أخریین تتحدثان عن اختلافات بنی إسرائیل،و أن اللّه یقضی بینهم یوم القیامه،یتّضح أنّ مراد الآیه محل البحث هو هذا المعنی ذاته.

ففی الآیه(۱۷)من سوره الجاثیه یقول سبحانه: إِنَّ رَبَّکَ یَقْضِی بَیْنَهُمْ یَوْمَ الْقِیامَهِ فِیما کانُوا فِیهِ یَخْتَلِفُونَ .

کما ورد فی ذیل الآیه(۹۳)من سوره یونس،هذا النص المتقدم نفسه.

و وصف اللّه«بالعزیز»و«العلیم»إشاره إلی ما ینبغی توفره فی القاضی من هاتین الصفتین،«العلم»بصوره کافیه و«القدره»علی إجراء الحکم،و اللّه سبحانه أعلم من الجمیع و أعزّهم.

و هذا الکلام إضافه إلی أنّه یبیّن عظمه القرآن،و هو تهدید لبنی إسرائیل،فهو فی الوقت ذاته تسلیه عن قلب النّبی و تسریه عنه،لذا فالآیه التالیه تقول: فَتَوَکَّلْ عَلَی اللّهِ .

توکل علی اللّه العزیز الذی لا یغلب،و العلیم بکل شیء..توکل علی اللّه الذی أنزل القرآن علی عظمته فجعله عندک،فتوکل علیه و لا تقلق من المشرکین و المعاندین،لأنّه یرعاک و إِنَّکَ عَلَی الْحَقِّ الْمُبِینِ .

و هنا ینقدح هذا السؤال،و هو:إذا کان القرآن حقّا مبینا فلما ذا خالفوه؟

فالآیات التالیه تجیب علی هـذا السؤال،فتقول:إذا کان أولئک لا یذعنون للحق المبین، و لا یؤثر فی قلوبهم هذا الکلام المتین،فلا مجال للعجب..ل إِنَّکَ لاٰ تُسْمِعُ الْمَوْتیٰ (1) .

بـل تسـمع الأحیـاء الـذین یبحثـون عن الحق و أرواحهم تـوّاقه إلیه،أمّـا إحیـاء الموتی-أو موتی الأحیـاء-لتعصـبهم و عنـادهم و اسـتمرارهم علی الـذنب، فلاـ ترهق فکرک و نفسـک من أجلهم و حتی لو کـانوا احیـاء فـإنهم صمّ لاـ یسـمعون فلا یمکنهم أن یسمعوا صوتک،و خاصه إذا أداروا إلیک ظهورهم و ابتعدوا عنک وَ لاٰ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعٰاءَ إِذٰا وَلَّوْا مُدْبِرِینَ .

و لعلهم لو کانوا عندک و کنت تصرخ فیهم لبلغت بعض أمواج صوتک إلی مسامعهم،إلّا أنّهم مع صممهم یبتعدون عنک.

کما أنّهم لو کانوا مع هـذه الحال یبصـرون بأعینهم لاهتدوا إلی الصـراط المسـتقیم،و لو ببعض العلامات،إلّا أنّهم عمی وَ مٰا أَنْتَ بِهٰادِی الْعُمْیِ عَنْ ضَلاٰلَتِهِمْ .

و هکـذا فقـد أوصـدت جمیع طرق إدراک الحقیقه بوجوههم،فقلوبهم میته، و آذانهم صمّ موقره،و أعینهم عمی! فـأنت یا رسول اللّه إِنْ تُسْمِعُ إِلاّ مَنْ یُؤْمِنُ بِآیٰاتِنٰا فَهُمْ مُسْلِمُونَ و یشعرون فی أنفسهم بالإذعان للحق.

و فی الحقیقه إن الآـیتین-آنفتی الـذکر-تتحـدثان عن مجموعه واضـحه من عوامـل المعرفه و ارتباط الإنسان بالعالم الخارجی و هی:

«حس التشخیص»،و العقل الیقظ،فی مقابل القلب المیت.

«الأذن الصاغیه»لاکتساب الکلام الحق،عن طریق السمع.

ص: ۱۲۹

۱- ۱) -قال جماعه من المفسّرین:إن هـذه الجمله و الجمل الأخر التی تلیها بمثابه الـدلیل علی لزوم توکل النّبی علی اللّه و عدم یأسه...مع أن الظاهر أنّها جواب علی سؤال یثار فی شأن القرآن و کونه هو«الحق المبین».

«و العين الباصره»لرؤيه وجه الحق و وجه الباطل،عن طريق البصر.

إلّا أن العناد و اللجاجه و التقليد الأعمى و الذنب...كلها تعمى العين التى بها يرى الإنسان الحقيقه،و توفر سمعه،و تميت قلبه.

و مثل هؤلاء المعاندين المذنبين،لو جاء جميع الأنبياء و الأولياء و الملائكه لهدايتهم،لما أثّروا فيهم شيئا،لأنّ ارتباطهم بالعالم الخارجى مقطوع،و هم غارقون فى«مستنقع ذواتهم»فحسب!.

و نظير هذا التعبير ورد فى سوره البقره و سوره الروم و سور أخر من القرآن (و كان لنا بحث آخر فى نعمه«و سائل المعرفه»فى تفسير سوره النحل ذيل الآيه ٧٨.

و مرّه أخرى نذكّر بهذه اللطيفه و هى أنّ المراد من الإيمان و التسليم ليس معناه أنّهم قبلوا حقائق الدين من قبل،فيكون من باب تحصيل الحاصل،بل الهدف من ذلك أن الإنسان إذا لم يكن فيه شوق للحق و خضوع لأمر اللّه،فإنه لا يصغى إلى كلام النّبى أبدا.

بحثان

اشاره

١-أسباب التوكل

«التوكل»مأخوذ من«الوكاله»،و هو فى منطق القرآن يعنى الاعتماد على اللّه و جعله وليّا وكيلا،و عدم القلق و الخوف من كثره المشاكل و الموانع و عظم حجمها،بسبب التوكل على اللّه! و هذا الأمر واحد من دلائل الإيمان المهمّه و مدعاه للنصر و التوفيق!.

و الطريف أنّ الآيات المتقدمه عدّت التوكل فى شيئين:

أحدهما:القدره و العلم لمن يتوكل عليه الإنسان.

و الآخر:وضوح الطريق الذی اختاره الإنسان!.

و فی الحقیقه فإنّ القرآن یقول:لاـ مدعاه للضعف و الخوف و الوحشه،فأنت تعوّل علی اللّه العزیز الذی لا یقهر،و العلیم الخبیر بکل شیء هذا من جهه..ثمّ إنّک علی الطریق الواضح و الحق اللائح من جهه أخری..فالمدافع عن الحق المبین علام یخاف؟! و إذا ما رأیت جماعه خالفتک فلا تحزن أبدا...فهی لا تملک عیونا باصره، و لا آذانا صاغیه،و لا قلوبا حیّه!...و هی خارجه أساسا عن طریق الهدایه و التبلیغ...و إنّما یلتفّ حولک طلاب الحق و عشاق اللّه،و العطاشی إلی العدل حیث یخفّون نحو منبع القرآن الزلال،لیرتووا من نمیره العذب.

۲-الموت و الحیاه فی منطق القرآن!

هناک کثیر من الألفاظ لها مدالیل و معان شتّی بحسب النظرات المختلفه، و من هذه الألفاظ،لفظا الحیاه و الموت.«فالحیاه»بالنظره المادیه تعنی الحیاه الطبیعه«الفیزیائیه»فحسب،أی متی کان القلب ینبض،و الدم یجری فی العروق إلی أعضاء الجسم کافه،و کانت الحرکه و عملیه الجذب و الدفع فی البدن،کان البدن حیا..أمّا إذا سکنت هذه الحرکه،فتدل علی«الموت»القطعی الذی یعرف بالاختبار الدقیق خلال عدّه لحظات!.

إلاّـ أنّ النظره القرآنیه تختلف عن النظره المادیه،فکثیر من الناس یعدون أحیاء بحسب النظره المادیه- إلاّ أنّهم أموات بحسب النظره القرآنیه..کأولئک الذین أشارت إلیهم الآیات المتقدمه..و علی العکس منهم الشهداء،فهم بحسب الظاهر أموات،لکنّهم بالمنطق القرآنی أحیاء خالدون! و السبب فی هذا الاختلاف بین النظرتین،هو أنّ الإسلام بالإضافه إلی أنّه یعدّ معیار الحیاه الإنسانیه و شخصیه الإنسان فی القیم الروحانیه،فهو یری فی

إيصال النفع الى الآخرين و عدمه معيار الوجود الحياه و عدمها فى الإنسان.

فالإنسان الذى يرى بحسب الظاهر حيّا،إلّا أنّه غارق فى الشهوات، فلا يسمع صرخه لمظلوم،و لا صوتا لمنادى الحق،و لا ينظر بعين بصيره فيرى آثار اللّه فى خلقه،و لا يفكر و لو لحظه واحده فى مستقبله و ماضيه..فمثل هذا الإنسان ميّت فى منطق القرآن.أمّا الذين ما تزال آثارهم تملأ الدنيا بعد موتهم، و أفكارهم أسوه و قدوه للآخرين،فهؤلاء أحياء خالدون (۱) .

و بغض النظر عن هذه الأمور كلّها..فالإسلام-حسب ما لدينا من المدارك- يؤمن بالحياه البرزخيه للناس..و العجب أن بعض الوهابيين الجهله يصرون على نفى أى نوع من أنواع الحياه و العلم بعد الوفاه،حتى للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يمنعون التوسل به،لأنّه بزعمهم ميّت و لا أثر للميت،و الأعجب من ذلك أنّهم يستندون إلى الآيات-محل البحث-لتأييد دعواهم!! فى حين أنّ بعضهم الآخر يصرّح على أنّ للنبىّ نوعا من الحياه البرزخيه، حياه أشرف من حياه الشهداء المصرّح بها فى القرآن،و قال:إنّه يسمع سلام المسلّم عليه (۲) .

و الرّوايات فى هذا الشأن كثيره وافره عن الفريقين الشيعه و السنه،أن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمه المعصومين يسمعون من يسلّم عليهم من بعيد أو قريب، و يردّون عليه سلامهم،كما أنّ أعمال الأمّه تعرض عليهم (۳) .

و نقرأ فى حديث ورد فى صحيح البخارى فى قصّه معركه بدر أن النّبى صلّى اللّه عليه و آله مع بعض أصحابه وقف على«القليب»و قد ألقيت فيه أجساد قتلى المشركين، فناداهم بأسمائهم،و

قال: هلّا أطعتم اللّه و رسوله،لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا،

۱- ۱) -كان لنا بحث مفصل«فى الموت و الحياه الروحيين»فى ذيل الآيه(۲۴)من سوره الأنفال.

۲- ۲) -الرساله الثّانيه من الهديّه السنيه لمحمّد بن عبد الوهاب،ص ۴۱.

۳- ۳) -لمزيد من الإيضاح يراجع كتاب كشف الارتياب ص ۱۰۹ للسيد محسن الأمين العاملى.

فهل وجدتم ما وعد ربّكم حقا..فقال عمر:يا رسول اللّه،تكلم أجسادا لا روح فيها...فقال صلّى اللّه عليه و آله:«و الذى نفس محمّد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» (۱) .

و نقرأ فى قصّه الجمل عن الأصبغ بن نباته،أنّه لما انهزم أصحاب الجمل ركب على عليه السّلام بغله رسول اللّه الشهباء و سار فى القتلى يستعرضهم فمرّ ب«كعب بن سور»قاضى البصره و هو قتيل،فقال:أجلسوه،فأجلس.فقال:و يلمّك يا كعب بن سور،لقد كان لك علم لو نفعك..و لكن الشيطان أضلك فأزلّك فعجلك إلى النّار (۲) .

و نقرأ فى نهج البلاغه-أيضا-أنّه عليه السّلام بعد رجوعه من صفين بلغ مقبره كانت خلف سور الكوفه،فخاطب الموتى فقال كلاما فى تقلب الدنيا ثمّ

قال: «هذا ما عندنا فما خبر ما عندكم ثمّ أضاف عليه السّلام أمّا لو أذن لهم فى الكلام لأخبروكم أن خير الزاد التقوى» (۳) .

و هذا بنفسه دليل على أنّهم يسمعون إلاّ أنّهم لا يسمح لهم بالردّ..و لو أذن لهم لأجابوا!.

فجميع هذه التعبيرات«إشاره»إلى حياه الإنسان البرزخيه.

ص: ۱۳۳

۱- ۱) -صحيح البخارى،ج ۵،ص ۹۷،باب قتل أبى جهل.

۲- ۲) -شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد،ج ۱،ص ۲۴۸.

۳- ۳) -نهج البلاغه-الكلمات القصار رقم ۱۳۰.

الآيات [سوره النمل (٢٧): الآيات ٨٢ الى ٨٥]

اشاره

وَ إِذا وَقَعَ اَلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دابَّةً مِنَ اَلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ اَلنّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ (٨٢) وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتّى إِذا جاؤُ قالَ أَ كَذَّبْتُمْ بِآياتِي وَ لَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً أَمّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَ وَقَعَ اَلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ (٨٥)

التّفسير

لمّا كانت الآيه السابقه تتحدث عن استعجال الكفّار بالعذاب و نزوله،أو تحقق القيامه و انتظارهم بفارغ الصبر و وقوع ذلك،و كانوا يقولون للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ .و متى يوم القيامه؟!فإنّ الآيات-محل البحث- تشير إلى بعض الحوادث التى تقع بين يدى القيامه،و تجسد عاقبه المنكرين الوخيمه،فتقول: وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ .

و المراد من قوله تعالى: وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ هو صدور أمر اللّه و ما وعدهم من العقاب و الجزاء..أو وقوع يوم القيامه و حضور علائمها،العلائم التى يخضع لها كل من يراها،و يستسلم لأمر اللّه،و يحصل عنده اليقين بأنّ وعد اللّه حق،و أن

القیامه قد اقتربت...و حینئذ توصد أبواب التوبه...لأنّ الإیمان فی مثل هذه الظروف یقع اضطرارا.

و بالطبع فإنّ هذین المعنیین متلازمان لأنّ اقتراب القیامه یقترن بنزول العذاب و مجازاه الکافرین.

و لکن ما هی«دابه الأرض»؟و ما مصداقها؟و أیه مهمّه تحملها؟..فالقرآن یجمل و لا یفصل،و کأنّه یرید أن یترک الموضوع مجملا غامضا،لیکون الکلام فیه أکثر تأثیرا و باعثا علی التهویل.

فیقول مختصرا:یخرج اللّه موجودا یتحرک«أو دابه من الأرض»بین یدی القیامه،فیتکلم مع الناس و یقول:«إنّ الناس کانوا لا یؤمنون بآیات اللّه».

و بتعبیر آخر:إنّ مهمّه هذه الدابه هی تفریق الصفوف و تمییز المنافقین و المنکرین من المؤمنین.

و بدیهی أن المنکرین یرجعون إلی أنفسهم عند مشاهده هذه الآیات، و یندمون علی ما سلف منهم و علی أیّامهم المظلمه،و لکن ما عسی أن ینفعهم الندم و أبواب التوبه موصده؟! و هناک مسائل کثیره و مطالب و فیره فی خصوصیات«دابه الأرض» و جزئیاتها و صفاتها فی الرّوایات الإسلامیه الوارده فی کتب الفریقین،الشیعه و أهل السنه،و سنتعرض إلیها ذیل هذه الآیات فی باب البحوث إن شاء اللّه.

ثمّ تشیر الآیات إلی علامه أخری من علامات القیامه،فتقول: وَ یَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ کُلِّ أُمَّهٍ فَوْجاً مِمَّنْ یُکَذِّبُ بِآیاتِنا فَهُمْ یُوزَعُونَ .

«و الحشر»معناه إخراج جماعه ما من مقرّها و السیر بها نحو میدان الحرب أو غیره!و«الفوج»،کما یقول الراغب فی المفردات:الجماعه التی تتحرک بسرعه.

و أمّا«یوزعون»فمعناه حبس الجماعه و إیقافها حتی یلحق الآخر منها بالأوّل..و هذا التعبیر یطلق-عاده-علی الجماعات الکثیره،نظیر ما قرأنا فی

شأن جنود سليمان فی هذه السوره ذاتها.

فبناء علی هذا یستفاد من مجموع الآیه أن یوما سوف سیأتی یحشر اللّه فیه من کل أمّه جماعه،و یهیؤهم للحساب و الجزاء علی أعمالهم!.

و الکثیر من الأعاظم یعتقدون بأنّ هذه الآیه تشیر إلی مسأله الرجعه و عوده جماعه من الصالحین و جماعه من الطالحین إلی هذه الدنیا قبیل یوم القیامه..لأنّ التعبیر لو کان عن القیامه لم یکن قوله«نحشر من کل أمّه فوجا»صحیحا..إذ فی القیامه یکون الحشر عاما للجمیع،کما جاء فی الآیه(۴۷)من سوره الکهف قوله تعالی: وَ حَشَرْنٰاهُمْ فَلَمْ نُغٰادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً .

و الشاهد الآخر علی أنّ الآیات هذه تتحدث عمّا یقع قبیل القیامه،هو أن الآیات التی قبلها کانت تتحدث عن الحوادث التی تقع قبل القیامه،و الآیات التی تلی الآیات محل البحث تتحدث عن الحوادث التی تقع قبیل القیامه أیضا...فمن البعید أن تتحدث الآیات السابقه و اللاحقه عن ما یقع قبل القیامه،و هذه الآیات محل البحث-فقط-تتحدث عن ما یقع فی یوم القیامه.

و هناک روایات کثیره فی هذا الصدد عن مسأله الرجعه سنتناولها فی البحوث القادمه إن شاء اللّه، إلاّ أن المفسّرین من أهل السنه یعتقدون أن الآیه ناظره إلی یوم القیامه، و قالوا:إنّ المراد بالفوج هو إشاره إلی رؤساء الجماعات و أئمتهم!و أمّا عدم الانسجام بین الآیات الذی یحدثه هذا التّفسیر،فقالوا:إنّ الآیات بحکم التأخیر و التقدیم،فکأن الآیه(۸۳)حقّها أن تقع بعد الآیه(۸۵).

إلاّ أننا نعلم أن تفسیر الفوج بالمعنی الآنف الذکر خلاف الظاهر،و کذلک عدم انسجام الآیات بأنّها فی حکم التأخیر و التقدیم هو خلاف الظاهر أیضا.

حَتّٰی إِذٰا جٰاؤُ قٰالَ أَ کَذَّبْتُمْ بِآیٰاتِی وَ لَمْ تُحِیطُوا بِهٰا عِلْماً أَمّٰا ذٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

(۱)

.

ص :۱۳۶

۱- ۱) -جمله(أمّا ذا کنتم تعملون)جمله استفهامیّه و(أما)مرکبه من(أم)التی هی حرف عطف و تأتی بعد همزه

و قائل هذا الكلام هو اللّه سبحانه،و المراد من«الآيات»هى المعاجز التى يأتى بها الأنبياء،أو أوامر اللّه،أو الجميع!.

و المراد من جمله وَ لَمْ تُحِيطُوا بِهٰا عِلْماً هو أنّكم بدون أن تتحققوا و تطّلعوا على حقيقه الأمر،كذبتم الآيات،و هذا منتهى الجهل و عدم المعرفه أن ينكر الإنسان شيئا دون أن يتحقق منه!.

و فى الحقيقه فإنّهم يسألون عن شيئين.

الأوّل:تكذيبهم دون أن يفحصوا عن الحق.

و الآخر:عن أعمالهم التى كانوا يقومون بها.

و إذا كانت الآيه-آنفه الذكر-تتحدث عن القيامه،فمفهومها واضح.و أمّا إذا كانت تشير إلى مسأله الرّجعه-كما يقتضيه انسجام الآيات-فهى إشاره إلى أنّه عند ما يرجع إلى هذه الدنيا طائفه من المجرمين...فولى الأمر الذى يمثل اللّه، و هو خليفته فى الأرض،يتحقق منهم و يسألهم عمّا فعلوه فى حياتهم،ثمّ يجازيهم حسب ما يستحقون من الجزاء الدنيوى،و لا يمنع هذا من عذاب الآخره،كما أن كثيرا من المجرمين ينالون الحدّ الشرعى فى هذه الدنيا، و يستوفون جزاءهم،فإذا لم يتوبوا فإنّ ما يستحقون من العقاب ينتظرهم فى الآخره.

و بديهى أنّ هؤلاء المجرمين لا يستطيعون الإجابه على أىّ من هذين السؤالين، لذلك فإنّ الآيه الأخيره من الآيات محل البحث تضيف قائله: وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمٰا ظَلَمُوا فَهُمْ لاٰ يَنْطِقُونَ .

و هذا القول أو العذاب دنيوى،إذا فسّرنا الآيه بالرجعه،أو هو عذاب الآخره إذا فسّرنا الآيه بيوم القيامه.

١)

الاستفهام عاده،و تسمّى بالمعادله،و(ما)الاستفهاميه.و معنى الآيه:أو أىّ شىء كنتم تعملون.

بحوث

اشاره

۱-ما هی دابه الأرض؟!

«الدّابه»معناها ما یدب و یتحرک،و«الأرض»معناها واضح..و خلافا لما یتصوّره بعضهم بأنّ الدّابه تطلق علی غیر الإنسان...بل الحق أنّها ذات مفهوم واسع یشمل الإنسان أیضا،کما نقرأ فی الآیه(۶)من سوره هود وَ مٰا مِنْ دَابَّهٍ فِی الْأَرْضِ إِلاّٰ عَلَی اللّٰهِ رِزْقُهٰا ،و فی الآیه(۶۱)من سوره النحل وَ لَوْ یُؤٰاخِذُ اللّٰهُ النّٰاسَ بِظُلْمِهِمْ مٰا تَرَکَ عَلَیْهٰا مِنْ دَابَّهٍ .

و فی الآیه(۲۲)من سوره الأنفال إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللّٰهِ الصُّمُّ الْبُکْمُ الَّذِینَ لاٰ یَعْقِلُونَ .

إلاّ أنّه-کما ذکرنا فی تفسیر الآیه آنفا-فإنّ القرآن لا یفصّل فی بیان هذه الکلمه و إنّما یذکرها علی إجمالها،فکأنّ البناء کان علی الإجمال و الإبهام، و الوصف الوحید المذکور لها بأنّها تکلم الناس و تمیز المؤمن من غیر المؤمن...

إلاّ أنّ هناک کلاما طویلا فی الرّوایات الإسلامیه و أقوال المفسّرین فی الشأن، و یمکن تلخیص مجموعها فی تفسیرین:

۱-فطائفه تعتقد بأنّ هذه«الدابه»حیوان غیر مألوف و من غیر جنس الإنسان له شکل عجیب،و نقلوا له عجائب شبیهه بما یخرق العادات و المعاجز!.

هذه الدابه تخرج فی آخر الزمان،و تتحدث عن الإیمان و الکفر،و تفضح المنافقین و تسمهم بمیسمها! ۲-و طائفه تعتقد-حسب الرّوایات الإسلامیه الوارده فی هذا الشأن-أنّها إنسان فوق العاده-إنسان متحرک فعّال!و واحد من أفعاله الأصلیه تمییز المؤمنین عن المنافقین و وسمهم..حتی أنّه یستفاد من بعض الرّوایات أن معه عصا موسی علیه السّلام و خاتم سلیمان..و نحن نعرف أن عصا موسی رمز للقدره و الإعجاز،و خاتم سلیمان رمز للحکومه و السلطه الإلهیه!فإذا هذا الإنسان

رجل قویّ ذو سلطه و هیمنه! و

قد جاء فی حدیث عن«حذیفه بن الیمان»عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله فی وصف هذه الدابه قوله: «لا یدرکها طالب و لا یفوتها هارب،فتسم المؤمن بین عینیه و یکتب بین عینیه مؤمن،و تسم الکافر بین عینیه و یکتب بین عینیه کافر،و معها عصا موسی و خاتم سلیمان» (۱) .

و قد طبق هذا المفهوم فی روایات کثیره علی«أمیر المؤمنین»علیه السّلام

ففی تفسیر علی بن إبراهیم عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّ رجلا قال لعمار بن یاسر:فی القرآن آیه شغلت بالی و جعلتنی فی شک قال عمار:أیّه آیه هی؟قال:آیه وَ إِذٰا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَیْهِمْ أَخْرَجْنٰا لَهُمْ دَابَّهً مِنَ الْأَرْضِ تُکَلِّمُهُمْ أَنَّ النّٰاسَ کٰانُوا بِآیٰاتِنٰا لاٰ یُوقِنُونَ فیقول عمار:و اللّه لا أجلس علی الأرض و لا آکل طعاما و لا أشرب ماء حتی أریکها.ثمّ یأخذه عمار إلی الإمام علی،و هو یأکل طعاما فلما بصر به الإمام علی ناداه فجاء عمار عنده و أکل معه!.

فتعجب الرجل و لم یصدق هذا المشهد،إذ کان عمار قد حلف و وعده أن لا یجلس علی الأرض و لا یأکل و لا یشرب حتی یریه دابه الأرض،فکأنّه نسی وعده!.

فلمّا قام عمار و ودّع علیّا..قال له الرجل:عجیب منک أن تقسم باللّه أن لا تأکل و لا تشرب و لا تجلس علی الأرض،حتی ترینی دابه الأرض!...فقال له عمار:أریتکها لو کنت تعقل (۲) .

و نظیر هذا المعنی فی تفسیر العیاشی،إلاّ أنّه ورد اسم«أبی ذر»مکان عمار (۳) .

۱- ۱) -مجمع البیان ذیل الآیه محل البحث.

۲- ۲) -مجمع البیان ذیل الآیات محل البحث..

۳- ۳) -المصدر السابق.

و

ينقل العلّامه المجلسی رحمه اللّه فی بحار أنواره بسند معتبر عن الإمام الصادق علیه السّلام قال: انتهی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله إلی أمیر المؤمنین علیه السّلام و هو نائم فی المسجد قد جمع رملا و وضع رأسه علیه،فحرّکه برجله،ثمّ قال:قم یا دابه اللّه،فقال رجل من أصحابه:یا رسول اللّه أ نسمّی بعضنا بعضا بهذا الاسم؟ فقال لهم:«لا و اللّه ما هو إلّا له خاصّه و هو الدابه التی ذکر اللّه فی کتابه وَ إِذٰا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَیْهِمْ أَخْرَجْنٰا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُکَلِّمُهُمْ أَنَّ النّٰاسَ کٰانُوا بِآیٰاتِنٰا لاٰ یُوقِنُونَ ثمّ قال:یا علی إذا کان آخر الزمان أخرجک اللّه فی أحسن صوره، و معک میسم تسم به أعداءک» (۱) .

و بناء علی هذه الرّوایه،فالآیه تنطبق علی الرجعه و تنسجم هی و الآیه التی تلیها فی الرجعه!.

و یقول المرحوم«أبو الفتوح الرازی»فی تفسیره فی ذیل الآیه:طبقا للأخبار التی جاءتنا عن طریق أصحابنا،فإن دابه الأرض کنایه عن المهدی «صاحب الزمان علیه السّلام» (۲) .

و مع الأخذ بنظر الإعتبار لهذا الحدیث و الأحادیث المتقدمه،یمکن أن یستفاد من دابه الأرض مفهوم واسع،ینطبق علی أی إمام عظیم یخرج فی آخر الزمان و یمیز الحق عن الباطل.

و هذا التعبیر الوارد فی الرّوایات الاسلامیه بأن معه عصا موسی علیه السّلام التی هی رمز القوه و الإنتصار،و خاتم سلیمان علیه السّلام الذی یرمز للحکومه الإلهیه،قرینه علی أن دابه الأرض إنسان نشط فعال فوق العاده!.

کما أنّ ما ورد فی الرّوایات الإسلامیه من أنّها تسم المؤمن بین عینیه فیکتب مؤمنا،و تسم الکافر فیکتب کافرا ینسجم و القول بأنّها إنسان!.

۱- ۱) -بحار الأنوار،ج ۵۳،ص ۵۲،خ ۳.

۲- ۲) -تفسیر الرازی،ج ۸ ص ۴۲۳.

إضافه إلى ذلك فالتصريح فى القرآن بأنّها تكلم الناس يساعد على هذا المعنى!.

و من مجموع ما مرّ نصل هنا إلى أنّ الدّابه تطلق فى الأغلب على غير الناس، و قد استعملها القرآن فى الأعم من الإنسان و غيره أو فى خصوص الإنسان،هذا من جهه.و من جهه أخرى فالقرائن المتعدده الموجوده فى الآيه ذاتها، و الرّوايات الكثيره فى تفسير الآيه،تدل على أنّ المراد من«دابه الأرض» هنا إنسان نشط فعال بما ذكرنا له من خصائص آنفا،فهو يميز الحق من الباطل و المؤمن من المنافق و الكافر.

إنسان يخرج فى آخر الزمان قبيل يوم القيامه،و هو بنفسه آيه من آيات عظمه الخالق!.

۲-الرجعه فى الكتاب و السنه!

من المسائل التى تجدر بالملاحظه،فى الآيات-محل البحث-ظهور بعض من هذه الآيات فى مسأله الرجعه!.

و«الرجعه»من عقائد الشيعه المعروفه،و تفسيرها فى عباره موجزه بهذا النحو:«بعد ظهور المهدى عليه السّلام و بين يدى القيامه،يعود طائفه من المؤمنين الخلّص،و طائفه من الكفار الأشرار،إلى هذه الدنيا..فالطائفه الأولى تصعد فى مدارج الكمال...و الطائفه الثّانيه تنال عقابها الشديد!.

يقول«الشريف المرتضى»الذى هو من أعاظم الشيعه:إنّ الذى تذهب الشيعه الإماميه إليه،أن اللّه تعالى يعيد عند ظهور الإمام المهدى عليه السّلام أقواما ممن كان قد تقدم موته من شيعته ليفوز بثواب نصرته و معونته و مشاهده دولته،و يعيد أيضا قوما من أعدائه لينتقم منهم،فيلتذوا بما يشاهدون من ظهور الحق و علوّ كلمه أهله!

ثمّ یضیف السید المرتضی قائلا:و الدلاله علی صحه هذا المذهب أن الذی ذهبوا إلیه ممّا لا شبهه علی عاقل فی أنّه مقدور للّه تعالی غیر مستحیل فی نفسه، فإنا نری کثیرا من مخالفینا ینکرون الرجعه إنکار من یراها مستحیله غیر مقدوره،و إذا ثبت جواز الرجعه و دخولها تحت المقدور،فالدلیل إلی إثباتها إجماع الإمامیه علی وقوعها (1) .

و یظهر بالطبع-من کلمات بعض قدماء علماء الشیعه و کذلک من کلام العلامه«الطبرسی»فی مجمع البیان-أن«الأقلّیه»القلیله من الشیعه لا تؤمن بهذه العقیده،أی«الرجعه»و فسّروها بعوده حکومه أهل البیت علیهم السّلام،لا رجوع الأشخاص و حیاتهم بعد موتهم فی هذه الدنیا،إلاّ أنّ مخالفه هذه القله لا تؤثر فی الإجماع.

و علی کل حال،فهنا مطالب کثیره،و من أجل ألاّ نخرج عن أسلوب بحثنا نشیر إلیها بإیجاز فی ما یلی:

١-لا ریب أنّ إحیاء جماعه من الموتی فی هذه الدنیا لیس محالا!...کما أن إحیاء جمیع البشر فی یوم القیامه ممکن،و التعجب من هذه المسأله کتعجب المشرکین«من أهل الجاهلیه»من مسأله المعاد،و السخریه منها کالسخریه من المعاد!...لأنّ العقل لا یحکم علی مثل هذا الأمر بالاستحاله...و قدره اللّه واسعه بحیث أنّ هذه الأمور عندها سهله یسیره هیّنه!.

٢-جاء ذکر الرجعه فی القرآن المجید إجمالا،و وقوعها فی خمسه مواطن فی شأن الأمم السالفه.

ألف:فی ما یتعلق بالنّبی الذی مرّ علی قریه و هی خاویه علی عروشها، و عظام أهلها نخره متفرقه هنا و هناک.فتساءل فی نفسه و قال: أَنّی یُحْیِی هٰذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِها فأماته اللّه مائه عام ثمّ أحیاه فقال له:کم لبثت؟!قال:لبثت یوما أو

١- ١) -سفینه البحار،ج ١،ص ۵١١،ماده رجع.

بعض يوم قال:بل لبثت مائه عام«مؤدّى الآيه ۲۵۹-من سوره البقره».

و سواء كان هذا النّبى عزيرا أم سواه،فلا فرق فى ذلك،المهم أنّ القرآن صرح بحياته بعد موته فى هذه الدنيا فأماته اللّه مائه عام ثمّ بعثه!.

ب-يتحدث القرآن-فى الآيه(۲۴۳)من سوره البقره ذاتها-عن جماعه أخرى خرجت من ديارها خوفا من الموت،و امتنعت من الذهاب إلى سوح القتال بحجّه مرض الطاعون،فأماتها اللّه ثمّ أحياها أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ هُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْياهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَشْكُرُونَ .

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرين لم يتحملوا وقوع مثل هذه الحادثه غير المألوفه،و عدوها مثالا فحسب،إلاّ أنّ من الواضح أنّ مثل هذه التأويلات إزاء ظهور الآيه-بل صراحتها-لا يمكن المساعده عليه!.

ج-و فى الآيتين ۵۵ و ۵۶ من سوره البقره أيضا،يتحدث القرآن عن بنى إسرائيل فيقول: وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّى نَرَى اللّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ، ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

د-و نقرأ فى الآيه(۱۱۰)ضمن معاجز عيسى قوله تعالى: وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى بِإِذْنِي .

و يدل هذا التعبير على أنّ المسيح عليه السّلام أحيا الموتى فعلا،بل التعبير بالفعل المضارع(تخرج)يدلّ على أنّه أحيا الموتى مرارا،و هذا الأمر بنفسه يعد نوعا من الرجعه لبعضهم! ه-و أخيرا ففى الآيتين(۷۲)و(۷۳)من سوره البقره،إشاره إلى مقتل رجل من بنى إسرائيل و وقوع الجدال و النزاع فى شأن قاتله،و ما أمرهم اللّه أن يفعلوه بضرب القتيل ببعض البقره-الوارده خصائصها فى الآيه ۷۲-إذ يقول سبحانه:

وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادّارَأْتُمْ فِيها وَ اللّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ، فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها

كَذٰلِكَ يُحْيِ اللّٰهُ الْمَوْتىٰ وَ يُرِيكُمْ آيٰاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

و بالإضافه إلى هذه المواطن الخمسه التى أشرنا إليها،فهناك مواطن أخر فى القرآن،منها قصّه أصحاب الكهف،و هى قصّه تشبه الرجعه.و قصّه الأربعه من الطير التى أمر إبراهيم أن يذبحها فأتينه سعيا بعد ذبحهن و تفريقهن على رأس كل جبل جزءا منهنّ،ليتّضح له إمكان المعاد للناس و يكون مجسدا برجوع هذه الطيور إلى الدنيا.

و على كل حال!كيف يمكن أن يؤمن الشخص بالقرآن و أنّه كتاب سماوى، ثمّ ينكر هذه الآيات الواضحه فى الرجعه؟و هل الرجعه-أساسا-إلاّ العوده للحياه بعد الموت؟! أو ليست الرجعه مثلا مصغرا من القيامه فى هذه الدنيا.

فمن يؤمن بالقيامه بمقياسها الواسع،كيف يمكنه أن يعترض على مسأله الرجعه و أن يسخر منها؟!و أن يقول قائل كأحمد أمين المصرى فى كتابه«فجر الإسلام»اليهوديه ظهرت بالتشيع بالقول بالرجعه (۱) .!! و أى فرق بين كلام أحمد أمين هذا،و إنكار عرب الجاهليه لمسأله المعاد الجسمانى؟! ۳-ما ذكرناه-إلى هنا-يثبت إمكان الرجعه،و أمّا ما يؤيد وقوعها فروايات كثيره نقلها الثقات عن أئمّه أهل البيت عليهم السّلام و حيث لا يسع بحثنا نقلها و التحقيق فيها،فيكفى أن نذكر ما عدّه المرحوم العلاّمه المجلسى فى بحار أنواره و ما جمعه منها،إذ يقول:و كيف يشك مؤمن بحقيّه الأئمه الأطهار عليهم السّلام فيما تواتر عنهم فى قريب من مائتى حديث صريح (۲) ،رواها نيّف و أربعون من الثقات العظام و العلماء الأعلام،فى أزيد من خمسين من مؤلفاتهم..فإذا لم يكن مثل هذا

۱- ۱) -انظر عقائد الإماميه-للشيخ محمّد رضا المظفر ص ۷۱.

۲- ۲) -يعنى«بالرجعه».

متواترا ففی أیّ شیء یمکن دعوی التواتر (۱) ؟!

۴-فلسفه الرجعه!

إنّ أهم سؤال یثار فی هذا الصدد،هو:ما الهدف من الرجعه قبل یوم القیامه؟! و مع ملاحظه ما یستفاد من الرّوایات الإسلامیه من أنّ هذا الموضوع لیس عامّا بل یختصّ بالمؤمنین الخلّص الذین هم فی مرحله عالیه من الإیمان، و الکفار و الطغاه الظلمه الذین هم فی مرحله منحطه من الکفر و الظلم..فیبدو أن الرجعه لهاتین الطائفتین للدنیا ثانیه هی من أجل إکمال الطائفه الأولی حلقتها التکاملیه،و أن تذوق الطائفه الثّانیه جزاءها الدنیوی.

و بتعبیر آخر:إن الطائفه المؤمنه«خالصه الإیمان»الذین واجهوا الموانع و العوائق فی مسیر تکاملهم المعنوی فی حیاتهم و لم یتکاملوا الکمال اللائق باستعدادهم،فإنّ حکمه اللّه تقتضی أن یتکاملوا عن طریق الرجعه لهذه الدنیا و أن یکونوا شهداء الحکومه العالمیّه للحقّ و العدل،و أن یساهموا فی بناء هذه الحکومه،لأنّ المساهمه فی بناء مثل هذه الحکومه من أعظم الفخر!.

و علی عکس الطائفه الآنفه الذکر،هناک طائفه من المنافقین و الجبابره المعاندین،ینبغی أن ینالوا جزاءهم الدنیوی بالإضافه إلی جزاءهم الأخروی، کما ذاق-قوم فرعون و ثمود و عاد و قوم لوط جزاءهم-و لا طریق لأن یذوقوا عذاب الدنیا إلّا بالرجعه!.

یقول الإمام الصادق علیه السّلام فی بعض أحادیثه«إن الرجعه لیست بعامه،و هی خاصّه،لا یرجع الّا من محض الإیمان محضا،أو محض الشرک محضا» (۲) .

و لعل الآیه(۹۵)من سوره الأنبیاء وَ حَرٰامٌ عَلیٰ قَرْیَهٍ أَهْلَکْنٰاهٰا أَنَّهُمْ لاٰ یَرْجِعُونَ

ص:۱۴۵

۱- ۱) -بحار الأنوار،ج ۵۳،ص ۱۲۲.

۲- ۲) -بحار الأنوار،ج ۵۳،ص ۳۹.

تشیر إلی هذا المعنی أیضا،لأنّها تتحدث عن عدم رجوع أولئک الذین ذاقوا عذابهم الشدید فی هذه الدنیا،فیتّضح منها أن أولئک الذین لم یذوقوا مثل هذا الجزاء ینبغی أن یرجعوا،فیذوقوا عذابهم«فلاحظوا بدقه».

کما یرد هذا الاحتمال أیضا،و هو أنّ رجعه«الطائفتین هاتین»فی ذلک المقطع الخاص من الزمان هی بمثابه درسین کبیرین و آیتین مهمتین من آیات عظمه اللّه-و مسأله القیامه و«المبدأ و المعاد»-للناس،لیبلغوا أسمی درجات الکمال المعنوی بمشاهدتهما و یزداد إیمانهم...و لا یکونوا مفتقرین إلی شیء أبدا.

۵-و یتصور بعضهم أنّ الإعتقاد بالرجعه لا ینسجم و أصل حریه الإراده و الإختیار عند البشر!.

و ممّا بیّناه آنفا یتّضح أنّ هذا اشتباه محض،لأنّ رجوع من یرجع إلی هذه الدنیا سیکون فی ظروف طبیعیه،و یتمتع بحریه کامله.

و ما یقوله بعضهم بأنّه من الممکن أن یتوب الجبابره و الکفار المعاندون بعد الرجعه و یعودوا إلی الحق،فجوابه أنّ هؤلاء الأفراد غارقون فی الظلم و الفساد و الکفر بحیث أن هذه الأمور مندمجه مع روحهم و نسیجهم و لا یتصور توبتهم!.

کما أنّ القرآن یحکی فی ردّه علی طلب أهل النّار یوم القیامه الرجوع إلی الدنیا،لیقضوا ما فاتهم و لا یعملوا السیئات...فیقول: وَ لَوْ رُدُّوا لَعٰادُوا لِمٰا نُهُوا عَنْهُ . (۱)

کما یتّضح الجواب علی إشکال بعضهم من أنّ الرجعه لا تنسجم مع الآیه (۱۰۰)من سوره المؤمنون لأنّه طبقا لهذه الآیه فإن المشرکین یطلبون الرجوع إلی هذه الدنیا لیعملوا صالحا،و یقول کل منهم: رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّی أَعْمَلُ صٰالِحاً فِیمٰا تَرَکْتُ فیرد علیه بالقول: کَلاّٰ إِنَّهٰا کَلِمَهٌ هُوَ قٰائِلُهٰا .

۱- ۱) -الأنعام،الآیه ۲۸.

فالجواب على هذا الإشكال،أن هذه الآيه عامه و الرجعه خاصه«فلاحظوا بدقه».

۶-و آخر الكلام هنا أنّ الشيعه مع اعتقادهم بالرجعه التى أخذوها عن أهل البيت عليهم السّلام فإنّهم لا يحكمون على منكرى الرجعه بالكفر،لأنّ الرجعه من ضروريّات المذهب الشيعى لا من ضروريات الإسلام.

فبناء على ذلك فإنّ هذه المسأله لا تقطع وشائج الأخوه الإسلاميه مع الآخرين..إلاّ أن الشيعه تواصل دفاعها المنطقى عن عقيدتها هذه.

و ينبغى الالتفات إلى أن هناك خرافات تمتزج أحيانا بالرجعه فتشوّه وجهها فى نظر البعض،فينبغى أن نعول على الأحاديث الإسلاميه الصحيحه فى الشأن، و أن نتجنب الأحاديث المطعون فيها أو المشكوكه.

و ما ذكرناه هنا خلاصه موجزه عمّا يتعلق بالرجعه،و ينبغى مراجعه الكتب التى تتحدث عن هذا الشأن لمن أراد أن يستزيد و يعرف خصائص أخر للرجعه أو جزئياتها.

و مع ملاحظه هذا المقدار الذى بيّناه يتّضح الجواب على الحملات المسعوره من قبل أولئك الذين لم يطّلعوا على هذا الموضوع من إخواننا أهل السنه«كما فعل«الآلوسى»فى تفسيره روح المعانى ذيل الآيات محل البحث» و أن إشكالهم على مسأله الرجعه ناشئ من عدم تعقلهم لها حتى عدّوها أسطوره!.

الآيات [سوره النمل (۲۷): الآيات ۸۶ الى ۸۸]

اشاره

أَ لَمْ يَرَوْا أَنّٰا جَعَلْنَا اَللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَ اَلنَّهٰارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۸۶) وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي اَلصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِي اَلْأَرْضِ إِلاّٰ مَنْ شٰاءَ اَللّٰهُ وَ كُلٌّ أَتَوْهُ دٰاخِرِينَ (۸۷) وَ تَرَى اَلْجِبٰالَ تَحْسَبُهٰا جٰامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ اَلسَّحٰابِ صُنْعَ اَللّٰهِ اَلَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمٰا تَفْعَلُونَ (۸۸)

التّفسير

اشاره

حركه الأرض إحدى معاجز القرآن العلميّه:

مرّه أخرى تتحدث هذه الآيات عن مسأله المبدأ و المعاد،و آثار عظمه اللّه، و دلائل قدرته فى عالم الوجود،و حوادث القيامه،فتقول: أَ لَمْ يَرَوْا أَنّٰا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهٰارَ مُبْصِراً و فى ذلك علائم و دلائل واضحه على قدره اللّه و حكمته لمن كان مستعدا للايمان إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

و هذه ليست أوّل مرّه يتحدث فيها القرآن عن الليل و النهار الحيويّه،و نظامى النور و الظلمه،كما أنّها ليست آخر مرّه أيضا..و ذلك لأنّ القرآن كتاب تعليم و تربيه،و هو يهدف إلى بناء الشخصيه الإنسانيه...و نحن نعرف أن أصول التعليم

و التربیه تقتضی أحیانا أن یتکرر الموضوع فی«فواصل»مختلفه،و أن یذکّر الناس به لیبقی فی الذهن کما یقال.

فالسکن أو الهدوء الذی یحصل من ظلمه اللیل،مسأله علمیه و حقیقه مسلّم بها،فسدل اللیل لیست أسبابا إجباریه لتعطیل النشاطات الیومیه فحسب،بل لها أثر عمیق علی سلسله الأعصاب فی الإنسان و سائر الحیوانات،و یجرها إلی الراحه و النوم العمیق،أو کما یعبر القرآن عنه بالسکون!.

و کذلک العلاقه بین ضوء النهار و السعی و الحرکه التی هی من خصائص النور من الناحیه العلمیه-أیضا-و لا مجال للتردد فیها.فنور الشمس لا یضیء محیط الحیاه لیبصر الإنسان به مأربه فحسب،بل یوقظ جمیع ذرات وجود الإنسان و یوجهه إلی الحرکه و النشاط!.

فهذه الآیه توضح جانبا من التوحید الرّبوبی،و لما کان المعبود الواقعی هو ربّ«عالم الوجود»و مدبّره،فهی تشطب بالبطلان علی وجوه الأوثان!...و تدعو المشرکین إلی إعاده النظر فی عبادتهم.

و ینبغی الالتفات إلی هذه اللطیفه،و هی أنّ علی الإنسان أن یجعل نفسه منسجما مع هذا النظام،فیستریح فی اللیل و یسعی فی النهار،لیبقی نشطا صحیحا دائما...لا کالمنقاد لهواه الذی یطوی اللیل یقظا ساهرا و ینام النهار حتی الظهر!.

و الطریف أن کلمه«مبصر»نسبت إلی النهار و وصف بها،مع أنّها وصف للإنسان فی النهار،و هذا نوع من التأکید الجمیل للاهتمام بالنشاط فی النهار،کما یوصف اللیل أحیانا بأنه«لیل نائم» (۱) .

۱- ۱) -هذا النوع من التعبیر یسمّی عند البلاغیین ب«المجاز العقلی»،و یراد منه إسناد الفعل أو ما فی معناه«کاسم الفاعل و اسم المفعول»لغیر ما وضع له لعلاقه،منها العلاقه الزمانیه،فیقال مثلا:نهار الزاهد صائم و لیله قائم.(المصحح)

و هذا التفاوت فی التعبیر فی الآیه،هو لبیان فائده اللیل و النهار،إذ جاء فی شأن اللیل لِیَسْـکُنُوا فِیهِ و عبر عن النهار ب(مبصـر)فلعل هذا الاختلاف فی التعبیر إشاره إلی أن الهدف الأصـلی من وجود اللیل هو السکون و الهدوء، و الهدف من الضوء و النهار لیس النظر فحسب،بل رؤیه الوسائل الموصله إلی مواهب الحیاه و الاستمتاع بها«فلاحظوا بدقه».

و علی کل حال،فهذه الآیه و إن کانت تتکلم مباشره عن التوحید و تدبیر عالم الوجود،إلاّ أنّها ربّما کانت إشاره لطیفه إلی مسأله المعاد،لأنّ النوم بمثابه الموت،و الیقظه بمثابه الحیاه بعد الموت!.

و الآیه التالیه تتحـدث عن مشاهـد القیامه و مقدماتها،فتقول:و اذکر یَوْمَ یُنْفَخُ فِی الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ إِلاّ مَنْ شاءَ اللّهُ وَ کُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِینَ أی خاضعین.

و یستفاد من مجموع آیات القرآن أنّ النفخ فی الصور یقع مرّتین أو ثلاث مرات.

فالمرّه الأولی یقع النفـخ فی الصور عنـد نهایه الدنیا و بین یدی القیامه!و بها یفزع من فی السـماوات و الأرض إلاّ من شاء اللّه! و الثّانیه«عند النفخ»یموت الجمیع من سماع الصیحه،و لعل هاتین النفختین واحده.

و المرّه الثّالثه ینفخ فی الصور عند البعث و قیام القیامه..إذ یحیا الموتی جمیعا بهذه النفخه،و تبدأ الحیاه الجدیده معها.

و هنـاک کلاـم بین المفسّـِرین الی أنّ الآـیه محل البحث هل تشـیر الی النفخه الأولی أم الثّانیه أم الثّالثه؟!..القرائن الموجوده فی الآیه و ما بعدها من الآیات تنطبق علی النفختین،و قیل:بل هی تشمل الجمیع.

إلاّ أن الظاهر من الآیه یدل علی أن النفخه هنا إشاره إلی النفخه الأولی التی

تقع فی نهایه الدنیا،لأنّ التعبیر ب(فزع)و هو یعنی الخوف أو الاستیحاش الذی یستوعب جمیع القلوب،یعدّ من آثار هذه النفخه...و نعلم أن الفزع فی یوم القیامه هو بسبب الأعمال لا من أثر النفخه!

و بتعبیر آخر:إن ظاهر«فاء»التفریع فی«ففزع»أن الفزع ناشئ من النفخه فی الصور،و هذا خاص بالنفخه الأولی،لأنّ النفخه الأخیره لیست لا تثیر الفزع فحسب،بل هی مدعاه للحیاه و الحرکه،و إذا حصلت حاله فهی من أعمال الإنسان نفسه!

و أمّا ما المراد بالنفخ فی الصور،؟هناک کلام طویل بین المفسّرین سنتناوله فی ذیل الآیه(۶۸)من سوره«الزمر»بإذن اللّه!.

و أمّا جمله إِلاّ مَنْ شاءَ اللّهُ المذکوره للاستثناء من الفزع العام،فهی إشاره للمؤمنین الصالحین سواء کانوا من الملائکه أو سائر المؤمنین فی السماوات و الأرض،فهم فی اطمئنان خاص!لا تفزعهم النفخه فی الصور الأولی و لا الأخری..إذ نقرأ فی الآیات التی تلی هذه الآیات قوله تعالی: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ خَیْرٌ مِنْها وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ یَوْمَئِذٍ آمِنُونَ .

و أمّا جمله وَ کُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِینَ فظاهرها عام و لیس فیه أی استثناء،حتی الأنبیاء و الأولیاء یخضعون للّه و یذعنون لمشیئته،و إذا ما لاحظنا قوله تعالی فی الآیه(۱۲۷)من سوره الصافات: فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلاّ عِبادَ اللّهِ الْمُخْلَصِینَ ،فلا منافاه بینها و بین عموم الآیه محل البحث،فالآیه محل البحث إشاره إلی أصل الحضور فی المحشر،و أمّا الثّانیه فهی إشاره إلی الحضور للمحاسبه و مشاهده الأعمال!.

و الآیه التالیه تشیر إلی إحدی آیات عظمه اللّه فی هذا العالم الواسع،فتقول:

وَ تَرَی الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَهً وَ هِیَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللّهِ الَّذِی أَتْقَنَ کُلَّ

شَیْءٍ

(۱)

.

فمن یکون قادرا علی کل هذا النظم و الإبداع فی الخلق،لا ریب فی علمه و إِنَّهُ خَبِیرٌ بِمٰا تَفْعَلُونَ .

یعتقـد کثیر من المفسّـرین أن هـذه الآیه تشـیر إلی الحوادث التی تقع بین یـدی القیامه،لأننا نعرف أن فی نهایه هـذه الـدنیا تقع زلازل و انفجارات هائله، و تتلاشـی الجبال و تنفصل بعضـها عن بعض،و قد أشـیر الی هذه الحقیقه فی السور الأخیره من القرآن کرارا.

و وقوع الآیه فی سباق آیات القیامه دلیل و شاهد علی هذا التّفسیر.

إلاّـ أن قرائن کثیره فی الآـیه تؤیـد تفسیرا آخر،و هو أن الآـیه آنفه الـذکر من قبیـل آیـات التوحیـد و دلائل عظمه اللّه فی هـذه الدنیا،و تشیر إلی حرکه الأرض التی لا نحس بها.

و توضیح ذلک:

۱-إنّ الآیه تقول:تحسب الجبال ساکنه و جامده مع أنّها تمرّ مرّ السحاب..

و هذا التعبیر واضح أنّه لا ینسـجم مع الحوادث التی تقع بین یدی القیامه..لأنّ هذه الحوادث من الوضوح بمکان بحیث یعبر عنها القرآن یَوْمَ تَرَوْنَهٰا تَذْهَلُ کُلُّ مُرْضِعَهٍ عَمّٰا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ کُلُّ ذٰاتِ حَمْلٍ حَمْلَهٰا وَ تَرَی النّٰاسَ سُکٰاریٰ وَ مٰا هُمْ بِسُکٰاریٰ . (۲)

۲-تشبیه حرکه الجبال بحرکه السـحاب یتناسب مع الحرکات المتناسـقه الهادئه،و لا یتناسب و الإنفجارات العظیمه التی تصطک منها المسامع!.

ص:۱۵۲

۱- ۱) -«صنع اللّه»منصوب بفعل محذوف تقدیر(أنذر صنع اللّه)أو ما شاکله.

۲- ۲) -سوره الحج،الآیه ۲.

۳-التعبیر الآنف الـذکر یـدلّ علی أنّه فی الوقت الـذی تری الجبال بحسب الظاهر جامـده،إلاّ أنّها فی الواقع تتحرک بسـرعه«علی حالتها التی تری فیها جامده»أی أن الحالتین تبینان شیئا واحدا.

۴-و التعبیر ب«الإتقان»الذی یعنی الإحکام و التنظیم،یتناسب زمان استقرار نظام العالم،و لا یتناسب و زمان انهیاره و تلاشیه.

۵-جمله إِنَّهُ خَبِیرٌ بِمٰا تَفْعَلُونَ مع ملاحظه أنّ«تفعلون» فعـل مضـارع، تـدل علی أنهـا تتعلق بهـذه الـدنیا،لأنّهـا تقول:إن اللّه خبیر بأعمالکم التی تصدر فی الحال و المستقبل.و لو کانت ترتبط بانتهاء العالم،لکان ینبغی أن یقال:إنّه خبیر بما فعلتم.«فتأملوا بدقّه».

و یستفاد من مجموع هذه القرائن أنّ هذه الآیه تکشف عن إحدی عجائب الخلق،و هی فی الواقع تشبه ما جاء فی الآیتین آنفتی الذکر: أَ لَمْ یَرَوْا أَنّٰا جَعَلْنَا اللَّیْلَ لِیَسْکُنُوا فِیهِ .

و بناء علی ذلک فالآیات محل البحث قسم منها فی التوحید،و قسم منها فی المعاد!.

و ما نستنتجه من هذا التّفسیر،هو أن هذه الجبال التی نتصورها ساکنه «جامده»هی فی سرعه مطّرده فی حرکتها...و من المقطوع به أنّه لا معنی لحرکه الجبال من دون حرکه الأرض المتصله بها،فیتّضح من الآیه أنّ الأرض تتحرک کما یتحرک السحاب!.

و وفقـا لحسابـات علمـاء الیوم فـإنّ سـرعه حرکه الأرض حول نفسـها تقرب من(۳۰)کیلومتر فی کـل دقیقه،و سـرعه سیرها فی حرکتها الانتقالیه حول الشمس أکثر من هذا المقدار...

لکن علام عنی بالجبال دون غیرها؟لعل ذلک إنّما هو لأنّ الجبال یضرب بها المثل لثقلها و قرارها،و تعدّ مثلا حسنا لبیان قدره اللّه سبحانه،فحیث أن هذه

الجبال على عظمتها و ما فيها من ثقل،تتحرك كالسحاب بأمر اللّه«مع الأرض» فقدرته على كل شيء«بينه،و ثابته»!.

و على كل حال،فالآيه آنفه الذكر تعدّ من معاجز القرآن العلميه...لأننا نعلم أن أوّل العلماء الذين اكتشفوا حركه كره الأرض هو«غاليو»الإيطالى و«كبرنيك»اللذين أظهرا هذه الحقيقه للملأ فى أواخر القرن السادس عشر و أوائل القرن السابع عشر! بالرغم من أن رجال الكنيسه حكموا عليهما حكما صارما،و تعرضا لمضايقات كثيره..

إلاّ أنّ القرآن كشف الستار عن وجه هذه الحقيقه قبل ذلك بألف عام تقريبا و بيّن حركه الأرض بالأسلوب الآنف الذكر على أنّها بعض أدله التوحيد! و يرى بعض فلاسفه الإسلام،فى الوقت الذى يقبلون فيه التّفسير الثانى، و هو الإشاره إلى حركه الجبال فى هذا العالم،أن الآيه ناظره إلى«الحركه الجوهريه»فى الأشياء،و اعتقدوا أنّ الآيه منسجمه و النظريه المعروفه بالحركه الجوهريه و مؤيده لها (۱)

۱- ۱) -المراد من«الحركه الجوهريه»هو أنّ أشياء عالم الماده بالإضافه إلى ما يحصل فيها من تغييرات مختلفه فى الكيفيه و الكميه و المكان و ما أشبه ذلك!فيها حركه فى داخلها«و جوهرها»أى أنّها وجود سيال و متحرك، و التغييرات الظاهريه هى انعكاس عن التغييرات الداخليه لها..و بتعبير آخر:إن لدينا وجودين مختلفين ذاتا.. الوجود الثابت«الوجود ما وراء المادى»،و وجود سيال و متحرك«الوجود المادى»و أهم دليل على إثبات هذه النظريه مسأله وجود الزمان للموجودات الماديه و عدم انفصال التغييرات الظاهريه عن التغييرات الباطنيه،و يطول بنا البحث فى هذا الصدد و هو خارج عن موضوعنا هنا.

الآيات [سوره النمل (۲۷): الآيات ۸۹ الى ۹۳]

اشاره

مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهٰا وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (۸۹) وَ مَنْ جٰاءَ بِالسَّيِّئَهِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِی اَلنّٰارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۹۰) إِنَّمٰا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هٰذِهِ اَلْبَلْدَهِ اَلَّذِی حَرَّمَهٰا وَ لَهُ كُلُّ شَیْءٍ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ اَلْمُسْلِمِينَ (۹۱) وَ أَنْ أَتْلُوَا اَلْقُرْآنَ فَمَنِ اِهْتَدیٰ فَإِنَّمٰا يَهْتَدِی لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمٰا أَنَا مِنَ اَلْمُنْذِرِينَ (۹۲) وَ قُلِ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ سَيُرِيكُمْ آيٰاتِهِ فَتَعْرِفُونَهٰا وَ مٰا رَبُّكَ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ (۹۳)

التّفسير

اشاره

آخر ما أمر به النّبی!

كـان الكلام فی الآيـات السـابقه عن أعمال العباد و علم اللّه بها..أمّا الآيات محل البحث فيقع الكلام فی مستهلّها عن جزائهم و ثواب أعمالهم و أمنهم من فزع يوم القيامه،إذ يقول سبحانه: مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهٰا وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ .

و هناک اختلاف بين تعبيرات المفسّرين فی المراد من«الحسنه»فی هذه الآيه:

ففسّرها بعضهم بكلمه التوحيد«لا إله إلاّ اللّه»و الإيمان باللّه.

و فسّرها بعضهم بولايه أمير المؤمنين عليه السّلام و الأئمّه من أهل البيت عليهم السّلام،و قد ورد التأكيد على هذا المعنى فى الرّوايات المتعدده عن أهل البيت،و من جملتها ما

جاء فى روايه عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه دخل أبو عبد اللّه الجدلى على أمير المؤمنين عليه السّلام فقال:يا أبا عبد اللّه أ لا أخبرك بقول اللّه عزّ و جلّ: مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهٰا وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ وَ مَنْ جٰاءَ بِالسَّيِّئَهِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النّٰارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ قال:بلى يا أمير المؤمنين جعلت فداك، فقال:«الحسنه معرفه الولايه حبّنا أهل البيت،و السيئه إنكار الولايه و بغضنا أهل البيت ثمّ قرأ عليه السّلام الآيه» (1) .

و بالطبع فإنّ معنى الآيه واسع-و قد أشرنا إلى ذلك مرارا-كما أنّ الحسنه هنا معناها واسع أيضا...فهى تشمل الصالحات و الأعمال الخالصه،و من ضمنها الإيمان باللّه و برسوله و ولايه الأئمّه من أهل البيت عليهم السّلام،التى تعدّ فى طليعه الأعمال الحسنه،و لا يمنع أن تكون هناك أعمال صالحه أخرى تشملها الآيه.

أمّا ما أورده بعضهم بأنّه:على فرض العموم فى«الحسنه»فسوف تشمل الإيمان باللّه و هل هناك خير من الإيمان حتى يقول سبحانه:من جاء بالحسنه فله خير منها؟ فالجواب على هذا الإشكال واضح...لأنّ رضا اللّه خير من الإيمان.و بتعبير آخر:جميع هذه الأمور مقدمه له...و ذو المقدمه خير من المقدمه!.

و هناك سؤال آخر يثار هنا،و هو أن ظاهر بعض الآيات-كالآيه ٢ من سوره الحج-أنّ الفزع يعمّ الجميع فى يوم القيامه،فكيف أستثنى أصحاب الحسنات منه؟.

فالآيه(١٠٣)من سوره الأنبياء توضح الجواب على هذا السؤال فتقول:

١- ١) -اصول الكافى،وفقا لما جاء فى تفسير نور الثقلين،ج ۴،ص ١٠۴.

لاّ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَ تَتَلَقّاهُمُ الْمَلاٰئِكَهُ هٰذٰا يَوْمُكَمُ الَّذِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ .

و«الفزع الأـكبر»-هو كما نعلم-فزع يوم القيامه،و فزع الـدخول فى نـار جهنّم -أعاذنـا اللّه منهـا-لا الفزع الحاصل من النفخه فى الصور«فلاحظوا بدقّه».

ثمّ يتحدث القرآن عن الطائفه الأخرى التى تقابل أصحاب الحسنات فتقول: وَ مَنْ جٰاءَ بِالسَّيِّئَهِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى النّٰارِ .

و ليس لهذه الطائفه أىّ توقع غيرها هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

و«كبّت»مـأخوذ مـن«كـبّ»على وزن«جـدّ»و معنـاه فى الأصـل إلقـاء الشـىء على وجهـه على الأـرض،فبناء على هـذا فإنّ ذكر«وجوههم»فى الآيه هو من باب التوكيد!.

و إلقاء هـذه الطائفه على وجوهها فى النّار من أسوأ أنواع العذاب.إضافه إلى ذلك،فإنّ أولئك حين كانوا يواجهون الحقّ يلوون وجوههم و رؤوسهم،و كانوا يواجهون الذنوب بتلك الوجوه فرحين...فالآن لا بدّ أن-يبتلوا بمثل هذا العذاب.

و جمله هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لعلها جواب على سؤال يلقى هنا، و هو ما لو قيل:إنّ هذا الجزاء«العقاب»شديد،فيجاب:بأنّ هذا الجزاء إن هو إلاّ عملك فى الدنيا،فهل تجزون إلاّ ما كنتم تعلمون«فلاحظوا بدقه».

ثمّ يوجه الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الآيات الثلاث من آخر هـذه السوره، و يؤكّـد له هـذه الحقيقه و هى أن يخبر أولئك المشركين بأن عليه أن يؤدى رسالته و وظيفته...سواء آمنتم أم لم تؤمنوا؟! فتقول الآيه الأولى من هـذه الآيات: إِنَّمٰا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هٰذِهِ الْبَلْدَهِ .

هـذه البلـده المقـدسه الـتى يتلخّص كـل وجودكم و شـرفكم بها...البلـده المقـدسه التى كرمهـا اللّه و كرّمكم بمـا أنزل فيهـا من البركات..إلاّ أنّكم بدل أن تشكروا نعمه اللّه كفرتم بها! البلده المقدسه التى هى حرم أمن اللّه،و أشرف بقعه على وجه الأرض، و أقدم معبد للتوحيد!

أجل...أعبد ربّ هذه البلده المقدسه اَلَّذِی حَرَّمَها و جعل لها خصائص و أحكاما و حرمه،و أمورا أخر لا تتمتع بها أيه بلده أخرى فى الأرض!.

لكن لا تتصوروا أن هذه البلده وحدها للّه،بل له كل شى فى عالم الوجود وَ لَهُ کُلُّ شَیْءٍ .

و الأمر الثّانى الذى أمرت به هو أن أسلم وجهى له وَ أُمِرْتُ أَنْ أَکُونَ مِنَ الْمُسْلِمِینَ .

و هكذا فإن الآيه بيّنت وظيفتين أساسيتين على النّبى و هما(عباده الواحد الأحد،و التسليم المطلق لأمره).

و الآيه التاليه تبيّن أسباب الوصول إلى هذين الهدفين فتقول: وَ أَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ .

أتلوه فأستضىء بنوره،و أنتهل من عذب معينه الذى يهب الحياه!و أن أعول فى جميع مناهجى على هديه.أجل..فالقرآن وسيلتى للوصول إلى هذين الهدفين المقدسين،و المواجهه لكل أنواع الشرك و الانحراف و الضلال و مكافحتها، ثمّ تعقب الآيه لتحكى عن لسان الرسول و هو يخاطب قومه:لا تتصوروا أنّكم إذا آمنتم انتفعت من وراء ذلك لنفسى،كما أن اللّه غنى عنكم،بل فَمَنِ اهْتَدیٰ فَإِنَّما یَهْتَدِی لِنَفْسِهِ .

و كل ما يترتب على الهدايه من منافع دنيويه،كانت أم أخرويه فهى عائده للمهتدى نفسه و العكس صحيح وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِینَ .

و عواقبه الوخيمه لا تصيبنى...فوظيفتى البلاغ و الإنذار و إراءه سبيل الحق، و الإصرار على أن تسلكوا سبيل الحق،إلاّ أنّ من أراد أن يبقى فى طريق الضلال، فإنّما يشقى وحده،فيكون من الخاسرين.

الطریف أنّ القرآن یقول فی شأن الهدایه: فَمَنِ اهْتَدیٰ فَإِنَّما یَهْتَدِی لِنَفْسِهِ و لکنّه لا یقول فی شأن الضلال:و من ضل فضرره علیه،بل یقول: فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِینَ .

و هذا الاختلاف فی التعبیر لعله إشاره إلی أنّ النّبی علیه السّلام یقول:إنّی لا أسکت بوجه الضالین أبدا،و لا أترکهم علی حالهم،بل أظلّ أنذرهم و أواصل الإنذار و لا أعیا عن ذلک،لأننی من المنذرین(بالطبع هناک آیات وردت فی القرآن فی شأن الهدایه و الضلاله،و فیها التعبیر«لنفسه و علیها»للموضوعین...کقوله تعالی:

فَمَنِ اهْتَدیٰ فَإِنَّما یَهْتَدِی لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ

فعلیها لکننا نعلم أنّ هذا الاختلاف فی التعبیرات منسجم مع اختلاف المقامات،و ربّما جاء لإلقاء المعانی المختلفه و المتفاوته)!
و الجدیر بالذکر أنّ هذه السوره شرعت ببیان أهمیه القرآن،و انتهت بالأمر بتلاوته،فبدایتها و نهایتها عن القرآن.

و الأمر الأخیر-فی آخر آیه من هذه السوره-موجه للنبیّ أن یحمد اللّه علی هذه النعم الکبری،و لا سیما نعمه الهدایه فیقول: وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ هذا الحمد أو الثناء یعود لنعمه القرآن،کما یعود للهدایه أیضا،و یمکن أن یکون مقدمه للجمله التالیه سَیُرِیکُمْ آیٰاتِهِ فَتَعْرِفُونَهٰا .

و هذا التعبیر إشاره إلی أنّه مع مرور الزمان و تقدم العلم و المعرفه،سینکشف کل یوم بعض أسرار عالم الوجود،و یرفع ستار جدید عنها..و ستعرفون نعم اللّه و عظمه قدرته و عمق حکمته یوما بعد یوم..و إراءه الآیات هذه مستمرّه دائما و لا تنقطع مدی عمر البشر.

إلاّ أنّکم إذا واصلتم طریق الخلاف و الانحراف،فلن یترککم اللّه سدی و ما ربک بغافل عما یعمل الظالمون.

و لا تتصوروا بأنّ اللّه إذا أخر عقابكم بلطفه،فهو غير مطلع على أعمالكم، و أنّها لا تسجل فى اللوح المحفوظ.

و جمله وَ مٰا رَبُّکَ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ الوارده بنفسها أو مع شیء من التفاوت اليسير فى تسع آيات من القرآن جمله موجزه،و هى تهديد ذو معنى عميق،و إنذار لجميع الناس.

و الحمد للّه رب العالمين نهايه سوره النمل

ص :۱۶۰

سوره القصص

اشاره

مکیّه و عدد آیاتها ثمان و ثمانون آیه

ص :۱۶۱

محتوى سوره القصص:

المعروف أنّ هـذه السوره نزلت بمكّه،و بإمكاننا ملاحظه أنّ محتواها الكلى و خطوطها العامّه الأساسيّه على شاكله السور المكّيه (۱) غير أن بعض المفسّرين استثنوا الآيه ۸۵أو الآيات ۵۱-۵۵ من هـذه السوره معتقدين أن الآيه الأولى «۸۵»نزلت بالجحفه-و هى منطقه بين مكّه و المدينه-و أمّا الآيات الأربع الأخرى فيقولون:إنّها نزلت بالمدينه.و لا يوجد دليل واضح على كلامهم..

و لعل محتوى الآيات الخمس التى تتحدث عن أهل الكتاب.(و كان أكثر أهل الكتاب يقطنون فى المدينه).كان سببا لمثل هذا التصور.فى حين أن نزول الآيات القرآنيه فى مكّه لا يعنى إنّها لا بدّ أن تتحد عن المشركين فى مكّه فحسب،و خاصّه أن أهالى مكّه و المدنيّه كانت لهم رحلات متقابله و علاقات و روابط قبليه و تجاريه.و بالطبع فإن المفسّرين ذكروا سببا آخر لنزول الآيات ۵۲-۵۵ يتناسب مع كونها مدينه،و سنتحدث،عن ذلك فى محله إن شاء اللّه..

أمّا الآيه(۸۵)التى تتحدث عن عوده النّبى إلى موطنه الأصلى،أى«مكّه» فلا مانع من أن تكون نزلت حين خروجه و هجرته من مكّه على مقربه من هـذه الأرض المقدسه..لأنّ النبى كان فى غايه الشوق و الحنين لمكّه بلد اللّه الحرام الآمن، و اللّه سبحانه يبشره فى هذه الآيه بأنّه سيردّه إلى معاده«مكّه المكرمه».

۱- ۱) -يراجع فى هذا الشأن«تاريخ القرآن»لأبى عبد اللّه الزنجانى و«الفهرست»لابن النديم،و كتب التّفسير الأخرى..

فعلى هـذا الأسـاس يمكن أن تكون هـذه الآيه-المشار إليها آنفا-مكيّه،و لو فرضـنا أنّها نزلت«بالجحفه»فهى إلى مكّه أقرب منها إلى المدينه.

و على هذا الأساس-أيضا-لا يمكن-فى تقسيم الآيات إلى مكّيه و مدنيه- إلاّ أنّ نعد هذه الآيه(۸۵)مكّيه!..

أجل..هذه السوره نزلت فى مكّه...و فى ظروف كان المؤمنون فى قبضه الأعداء الأقوياء و بين مخالبهم..الأعداء الذين كانوا أكثر عددا و أشدّ قدره و قوّه و نفيرا..

فهؤلاء الأقليه من المؤمنين و المسلمين كانوا يرزحون تحت وطأه هـذا التصور بحيث كـان جماعه من المسـلمين قلقين على مستقبل الإسـلام و خائفين من أجله.و بما أنّ هذه الحاله كانت كثيره الشبه بالحاله التى كان عليها بنو إسرائيل و هم بين مخالب الفراعنه،فإنّ قسما من محتوى هذه السوره يتحدث عن قصّه بنى إسرائيل و موسى عليه السّلام و الفراعنه..

و لعـل هـذا القسم يسـتوعب نصف هـذه السوره تقريبا..خاصه أنّها تتحـدث عن فتره كان موسـى طفلا ضـعيفا رضـيعا فى قبضـه الفراعنه...و لكنّ تلك القـدره التى تسـتوعب عالم الوجود كلّه-و لا تقف أيه قوّه أمامها-تكفلت هـذا الطفل الضـعيف و رعته و هو فى أحضان أعدائه الأقوياء،حتى منحته قدره و قوّه قصوى قهرت سلطان الفراعنه و نكّست تيجانهم و قلبت قصورهم!!.

هكـذا تتحـدث هـذه السوره ليطمئن المسـلمون إلى لطف اللّه و قدرته، و لا يرهبوا كثره الأعداء و قوّتهم،و لا يخافوا من الطريق ذاته!..

أجل..القسم الأوّل من هـذه السوره يتضـمن هذا التاريخ الملىء بالدروس و العبر و يبشـر المستضـعفين فى بدايه السوره بحكومه الحق و العدل لهم و كسر شوكه الظالمين،بشرى تمنحهم الاطمئنان و القدره.

تتحدث هذه السوره عن أن بنى إسرائيل كانوا مصفدين بأغلال أعدائهم ما

داموا بعيـدين عـن خيمـه الإيمـان و التوحيـد،و فاقـدين لأـى نـوع مـن أنـواع الحركـه و النهـوض و السـعى الـذى يتحـدّون به أعداءهم،لكن ما إن وجدوا قائدهم و نوّروا قلوبهم بنور العلم و التوحيد حتى أغاروا على الفراعنه و سيطروا على الحكم و حرروا أنفسهم من نير الفراعنه.

و«القسم الآخر»من هذه السوره يتحدّث عن«قارون»،ذلك الرجل المستكبر الثرى الذى كان يعتمد على علمه و ثروته...حتى لقى أثر غروره ما لقيه فرعون من مصير أسود! أحدهما غريق فى الماء و الآخر دفين فى الأرض..و ذلك معتمد على سلطانه و جيشه فى حكمه،و هذا معتمد على ماله و ثروته!ليتّضح أنّه لا يمكن لتجار مكّه و أثريائهم و لا لأقويائهم من المشركين،و لا سياسيّيهم فى ذلك المحيط،أن يقاوموا إراده اللّه فى انتصار المستضعفين على المستكبرين.

و هذا القسم جاء فى أواخر السوره.

و بين هـذين القسـمين دروس حيّه و قيّمه من التوحيـد و المعـاد و أهميه القرآن، و بيـان حال المشـركين فى يوم القيامه،و مسأله الهدايه و الضلاله،و الإجابه على حجج الأفراد الضعاف،و هى فى الحقيقه«نتيجه»الأوّل و«مقدمه»للقسم الثانى.

فضيله تلاوه سوره القصص:

نقرأ فى بعض الأحـاديث الوارده عن الرّسول الأـعظم صـلّى اللّه عليه و آله أنّه قال:«من قرأ طسم القصـص أعطى من الأجر عشـر حسنات بعدد من صدّق بموسى و كذب به، و لم يبق ملك فى السماوات و الأرض إلاّ شهد له يوم القيامه أنّه كان صادقا» (1) .

كما

ورد فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «من قرأ سوره الطواسين الثلاث فى ليله الجمعه كان من أولياء اللّه،و فى جواره و كنفه،لم يصبه

۱- ۱) -تفسير مجمع البيان فى بدايه سوره القصص.

فی الدنیا بؤس أبدا،و أعطی فی الآخره حتی یرضی و فوق رضاه،و زوجه اللّه مائه زوجه من الحور العین» (۱) .

و بـدیهی أن کـلّ هـذا الأجر و الثـواب هو لأولئـک الـذین یقفون جنبـا إلی جنب مع أصـحاب موسـی علیه السّلام و المؤمنین الصادقین-عند قراءه هذه السوره-لیبارزوا فراعنه عصرهم و قارون زمانهم،و لا یقبعون فی الأجحار أو یطأطئون رؤوسهم.

عند مواجهتهم الأخطار و المشاکل و الأعداء،و لا یضیّعون مواهبهم لیستغلّها الآخرون..

هذا الأجر خاص لمن یقرءون و یتفکرون،و علی ضوء هذه السوره یخططون لحیاتهم و عملهم..

۱- ۱) -ثواب الأعمال طبقا لنقل تفسیر نور الثقلین فی بدایه سوره القصص.

الآيات [سوره القصص (٢٨): الآيات ١ الی ۶]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ طسم (١) تِلْكَ آيٰاتُ اَلْكِتٰابِ اَلْمُبِينِ (٢) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسىٰ وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاٰ فِي اَلْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَهٰا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طٰائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنٰاءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِسٰاءَهُمْ إِنَّهُ كٰانَ مِنَ اَلْمُفْسِدِينَ (۴) وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى اَلَّذِينَ اُسْتُضْعِفُوا فِي اَلْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ اَلْوٰارِثِينَ (۵) وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي اَلْأَرْضِ وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هٰامٰانَ وَ جُنُودَهُمٰا مِنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَحْذَرُونَ (۶)

التّفسير

اشاره

المشيئه الالهيه تقتضى انتصار:

هـذه هی المرّه الرابعه عشـره التی نواجه بها بـدایات السوره«بالحروف المقطعه»فی القرآن،و قد تکررت فیها طسم ثلاث مرات،و هی هنا-أی «طسم»-ثالث المرات و آخرها..

و قـد بیّنا مرارا و تکرارا أنّ للحروف المقطعه من القرآن تفاسیر متعـدده و مختلفه،و قـد ذکرناها و بحثناها بحثا وافیا فی بدایات سور«البقره»و«آل

عمران»و«الأعراف».

و علاوه على ذلک کلّه فإنّه یظهر من کثیر من الرّوایات فی شأن طسم أن هذه الحروف إشارات موجزه عن صفات اللّه سبحانه و تعالی،أو أنّها أماکن مقدسّه..و لکنّها فی الوقت ذاته لا تمنع من ذلک التّفسیر المعروف الذی أکّدنا علیه مرارا،و هو أنّ اللّه تعالی یرید أن یوضح هذه الحقیقه للجمیع،و هی أنّ هذا الکتاب السماوی العظیم الذی هو أساس التغییر الکبیر فی تأریخ البشریه و حامل المنهج المتکامل للحیاه الکریمه للإنسانیّه یتشکّل من أمور بسیطه کهذه الحروف«ألف باء...» التی یستطیع أن یتلفظ بها کل صبّی.

و من هنا تتجلی عظمه القرآن و أهمیته القصوی،إذ یتألف من هذه الحروف البسیطه التی هی فی اختیار الجمیع.

و لعل هذا السبب کان داعیا لأن یکون الحدیث بعد«الحروف المقطّعه» مباشره عن عظمه القرآن،إذ یقول: تِلْکَ آیاتُ الْکِتابِ الْمُبِینِ ،و بالرغم من أن اَلْکِتابِ الْمُبِینِ جاء بمعنی اللوح المحفوظ کما قد ورد فی الآیه(۶۱)من سوره یونس وَ لاٰ أَصْغَرَ مِنْ ذٰلِکَ وَ لاٰ أَکْبَرَ إِلاّٰ فِی کِتٰابٍ مُبِینٍ و الآیه السادسه من سوره هود کُلٌّ فِی کِتٰابٍ مُبِینٍ و لکنّه جاء بمعنی القرآن فی الآیه محل البحث بقرینه ذکر«الآیات»و کذلک جمله نَتْلُوا عَلَیْکَ الوارده فی الآیه التی بعدها..

و قد وصف القرآن هنا بکونه«مبین»و کما یستفاد من اللغه فإنّ کلمه«مبین» تستعمل فی المعنیین«اللازم و المتعدی»،فهو واضح فی نفسه و موضّح لغیره، و القرآن المجید بمحتواه المشرق یمیّز الحق عن الباطل،و یبیّن الطریق اللاحب من الطریق المعوّج (۱) .

و القرآن بعد ذکر هذه المقدّمه القصیره یحکی قصّه«فرعون»و«موسی» فیقول: نَتْلُوا عَلَیْکَ مِنْ نَبَإِ مُوسیٰ وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ .

۱- ۱) -و نذکر ضمنا أنّ التعبیر ب«تلک»المستعمله للإشاره للبعید-کما بیّنا سابقا-لبیان عظمه هذه الآیات أیضا..

التعبير ب«من»التی هی للتبعیض إشاره إلی هذه اللطیفه الدقیقه،و هی أن ما ورد-هنا فی القرآن-من هذه القصّه ذات الأحداث الکبیره یتناسب و ما تقتضیه الضروره فحسب..

و التعبیر«بالحق»إشاره إلی أنّ ما ورد هنا خال من کل خرافه و أسطوره، و بعید عن الأباطیل و الأکاذیب..فهی إذن تلاوه مقترنه بالحق و الواقعیه..

و التعبیر ب لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ هو تأکید علی هذه الحقیقه،و هی أنّ مؤمنی ذلک العصر الذین کانوا یرزخون تحت ضغوط المشرکین و الأعداء،علیهم أن یدرکوا هذه الحقیقه،و هی أنّ الأعداء مهما تعاظمت قواهم و تزایدوا عددا و عددا،و أن المؤمنین مهما قلّوا و کانوا تحت ضغط أعدائهم و کانوا ضعافا بحسب الظاهر، فلا ینبغی أن یهنوا و ینکصوا عن طریق الحق،فکل شیء عند اللّه سهل یسیر!..

اللّه الذی ربّی«موسی»فی أحضان«فرعون»لإبادته و تدمیره..اللّه الذی أوصل العبید و المستضعفین إلی أن یکونوا حاکمین فی الأرض،و أذل الجبابره و المستکبرین و أبادهم.

اللّه الذی رعی الطفل الرضیع بین أمواج النیل فحفظه و نجاه و أغرق آلاف الفراعنه الأقویاء فی تلک الأمواج..هو قادر علی أن ینجیکم«أیّها المؤمنون»..

أجل،إنّ الهدف الأصل من هذه الآیات هم المؤمنون و هذه التلاوه لأجلهم، و المؤمنون الذین یستلهمون من معانی هذه الآیات و یشقّون طریقهم-وسط زحام المشاکل و الأخطار-باطمئنان.

کان ذلک فی الحقیقه بیانا إجمالیا،ثمّ یفصّل القرآن ما أجمله بقوله: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاٰ فِی الْأَرْضِ .

فقد کان عبدا ضعیفا،و علی أثر جهله و عدم معرفته أضاع شخصیته و وصل إلی مرحله من الطغیان حتی أنّه ادّعی الرّبوبیه..و التعبیر ب«الأرض»إشاره إلی أرض مصر و ما حولها..و حیث أن القسم المهم العامر من الأرض فی ذلک العصر

كان«مصرا»فقد جاء التعبير بالأرض بصوره مطلقه.

و يحتمل أيضا أنّ الألف و اللام للعهد أى«أرض مصر».

و على كل حال فإنّ فرعون-من أجل تقويه قواعده الاستكباريه-قد أقدم على عدّه جرائم كبرى!..

فالجريمه الأولى،أنّه فرّق بين أهل مصر وَ جَعَلَ أَهْلَهٰا شِيَعاً و هى سياسه معروفه و متبعه على امتداد التاريخ،و عليها يستند المستكبرون فى حكمهم، فلا يمكن أن تحكم الأقليه-التى لا تعدّ شيئا-على الأكثريه إلاّ بالخطه المعروفه «فرّق تسد»فهم مستوحشون من«كلمه التوحيد»و«توحيد الكلمه»و يخافون منهما أبدا- و يخافون من التفاف الناس بعضهم حول بعض،و لذلك يلجأون إلى الطبقيه فى الحكم،فهذه الطريقه وحدها تتكفل بقاءهم فى الحكم،كما صنعه فرعون فى أهل مصر،و يصنعه الفراعنه فى كل عصر و مصر.

أجل،إنّ فرعون قسّم أهل مصر إلى طائفتى«الأقباط»و«الأسباط».

فالأقباط هم أهل مصر«الأصليون»الذين كانوا يتمتعون بجميع وسائل الرفاه و الراحه،و كانت فى أيديهم القصور و دوائر الدوله و الحكومه.

و«الأسباط»هم المهاجرون إلى مصر من بنى إسرائيل الذين كانوا على هيئه العبيد و الخدم«فى قبضه الأقباط»! و كانوا محاطين بالفقر و الحرمان،و يحملون أشدّ الأعباء دون أن ينالوا من وراء ذلك نفعا[و التعبير بالأهل فى شأن الطائفتين الأقباط و الأسباط هو لأنّ بنى إسرائيل كانوا قد سكنوا مصر مدّه طويله فكانوا يعدّون من أهلها حقيقه!]

.

و حين نسمع أن بعض الفراعنه يستعمل مائه ألف مملوك من العبيد لتشييد مقبره خلال عشرين سنه(كما هى الحال بالنسبه إلى هرم خوفو المعروف الكائن بمقربه من القاهره عاصمه مصر)و يموت فى سبيل ذلك آلاف العبيد و المماليك

على أثر الضرب بالأسواط و تحت ضغط العمل الشاق،ندرك جيدا الحاله الارهابيه السائده فى ذلك المجتمع...

و الجريمه الثّانيه هى استضعافه لجماعه من أهل مصر بشكل دموى سافر كما يعبر عن ذلك القرآن بقوله: يَسْتَضْعِفُ طٰائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنٰاءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِسٰاءَهُمْ .

فقد كان أصدر أمرا بأن يراقبوا الأطفال الذين يولدون من بنى إسرائيل،فإن كانوا ذكورا فإنّ حظهم الذبح،و إن كانوا إناثا فيتركن للخدمه فى المستقبل فى بيوت الأقباط.

و ترى ماذا كان يهدف فرعون من وراء عمله هذا؟! المعروف أنّه رأى فى منامه أن شعله من النّار توهجت من بيت المقدس و أحرقت جميع بيوت مصر،و لم تترك بيتا لأحد من الأقباط إلاّ أحرقته،و لكنّها لم تمسّ بيوت بنى إسرائيل بسوء،فسأل الكهنه و المعبرين للرؤيا عن تأويل ذلك،فقالوا له:يخرج رجل من بيت المقدس يكون على يديه هلاككك و زوال حكومه الفراعنه (١) .

و أخيرا كان هذا الأمر سببا فى عزم فرعون على قتل الرضّع من الأطفال الذكور من بنى إسرائيل (٢) .

كما يحتمل-أيضا-أنّ الأنبياء السابقين بشّروا بظهور موسى عليه السّلام و خصائصه،و قد أحزن الفراعنه خبره،فلمّا اطّلعوا على هذا الأمر أقدموا على التصدى له (٣) .

و لكون ورود جمله يُذَبِّحُ أَبْنٰاءَهُمْ بعد جمله يَسْتَضْعِفُ طٰائِفَةً مِنْهُمْ

ص:١٧١

١- ١) -راجع فى ذلك مجمع البيان،ج ٧،ص ٢٣٩،و التّفسير الكبير للفخر الرازى ذيل الآيات.

٢- ٢) -المصدر السابق.

٣- ٣) -راجع التّفسير الكبير للفخر الرازى-ذيل الآيه محل البحث.

فإنّ مسأله أخرى تتجلّى أمامنا،و هى أنّ الفراعنه اتّخذوا خطه لاستضعاف بنى إسرائيل بذبح الأبناء،لئلا يستطيع بنوا إسرائيل أن يواجهوا الفراعنه و يحاربوهم، و كانوا يتركون النساء اللاتى لا طاقه لهن على القتال و الحرب،ليكبرن ثمّ يخدمن فى بيوتهم.

و الشاهد الآخر هو الآيه(۲۵)فى سوره المؤمن،إذ يستفاد منها-بصوره جيده-أن خطه قتل الأبناء و استحياء النساء كانت موجوده حتى بعد ظهور موسى عليه السّلام[و مجيئه إلى الفراعنه]

.إذ تقول: فَلَمّٰا جٰاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنٰا قٰالُوا اقْتُلُوا أَبْنٰاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِسٰاءَهُمْ وَ مٰا كَيْدُ الْكٰافِرِينَ إِلاّٰ فِي ضَلاٰلٍ .

و جمله يَسْتَحْيِي نِسٰاءَهُمْ يظهر منها أنّهم كانوا يصرّون على إبقاء البنات و النساء،إمّا لكى يخدمن فى بيوت الأقباط،أو للاستمتاع الجنسى،أو لكلا الأمرين جميعا.

و فى آخر جمله تأتى الآيه بتعبير جامع،و فيه بيان العله أيضا فتقول: إِنَّهُ كٰانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ .

و باختصار فإنّ عمل فرعون يتلخص فى الفساد فى الأرض،فاستعلاؤه كان فسادا،و إيجاد الحياه الطبقيه فى مصر فساد آخر،و تعذيب بنى إسرائيل و استضعافهم و ذبح أبنائهم و استحياء نسائهم ليخدمن فى بيوت الأقباط فساد ثالث،و سوى هذه المفاسد كانت لديه مفاسد كثيره أخرى أيضا.

و التعبير ب«يذبح»المشتق من ماده«المذبح»تدل على معامله الفراعنه لبنى إسرائيل كمعامله القصابين للأغنام و الأنعام الأخرى،إذ كانوا يذبحون هؤلاء الناس الأبرياء و يحتزون رؤوسهم! (۱) .

۱- ۱) -ممّا يلفت النظر أنّ ماده(ذبح)فى الفعل الثلاثى مجرّده،و فعلها متعدّ بنفسه،و لكنّها هنا استعملت بصيغه التفعيل لتدلّ على الكثره،كما تستفاد من صيغه المضارع الاستمرار على هذه الجنايه[فلاحظوا بدقه] .

و فی هـذه الخطه الإجرامیه من قبل الفراعنه ضـد الحوامل قصـص مـذکوره،إذ قال بعضـهم:إنّ فرعون کان قـد أمر برقابه مشدده علی النسـاء الحوامـل من بنی إسـرائیل،و أن لا- یلی إیلاـدهن إلاّ- قـابله من القبطیّـات و الفرعونیّـات،فـإذا کان المولود ذکرا فإنّ جلاوزه القصر الفرعونی یأتون لیتسلموا«قربانهم» (۱) .

و لا یعرف بدقّه کم بلغ عدد«ضحایا الحوامل»من أطفال بنی إسرائیل علی أثر هذه الخطه الإجرامیه؟قال بعضهم:کان الضحایا من الأطفال الموالید تسعین ألفا،و أوصلها بعضهم إلی مئات الآلاف!..

لقد کانوا یظنون أنّهم سیقفون بوجه إراده اللّه الحتمیه بهذه الجرائم الوحشیه، فلا ینهض بنوا إسرائیل ضدهم و لا یزول سلطانهم.

ثمّ تأتی الآیه الأخری لتقول:إنّ إرادتنا و مشـیئتنا اقتضت احتواء المستضعفین بلطفنا و کرمنا وَ نُرِیدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَی الَّذِینَ اسْتُضْعِفُوا فِی الْأَرْضِ و أن تشملهم رعایتنا و مواهبنا تکون بید الحکومه و مقالید الأمور: وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّهً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوٰارِثِینَ .

و یکونون اولی قوّه و قدره فی الأرض وَ نُمَکِّنَ لَهُمْ فِی الْأَرْضِ وَ نُرِیَ فِرْعَوْنَ وَ هٰامٰانَ وَ جُنُودَهُمٰا مِنْهُمْ مٰا کٰانُوا یَحْذَرُونَ ما أبلغ هاتـان الآیتـان،و مـا أعظم مـا فیهمـا من رجـاء و أمل!..إذ جاءتا بصوره الفعل المضارع و الاسـتمرار،لئلا یتصور أنّهما مختصـتان بالمستضعفین من بنی إسرائیل و حکومه الفراعنه،إذ تبد آن بالقول: وَ نُرِیدُ أَنْ نَمُنَّ... .

أی إنّ فرعون أراد أن یجعل بنی إسرائیل شذر مذر و یکسر شوکتهم و یبیر قواهم و قدرتهم،و لکننا أردنا-و نرید-أن ینتصروا و یکونوا أقویـاء! فرعون یریـد أن تکون الحکومه بیـد المسـتکبرین إلی الأبـد.و لکنّـا أردنا أن تکون بیـد المستضـعفین،فکان کما أردنا.

۱- ۱) -التّفسیر الکبیر الفخر الرازی ذیل الآیات محل البحث.

و التعبير ب«نمنّ»كما أشرنا إلى ذلك من قبل،معناه منح الهبات و النعم،و هو يختلف تمام الاختلاف مع«المنّ»المراد به عدّ النعم لتحقير الطرف المقابل،و هو مذموم قطعا.

و يكشف اللّه فى هاتين الآيتين الستار عن إرادته و مشيئته بشأن المستضعفين،و يذكر فى هذا المجال خمسه أمور بعضها مرتبط ببعض و متقاربه أيضا:

الأوّل:قوله تعالى: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ... لنشملهم بالمواهب و النعم..إلخ.

الثّانى:قوله: وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّهً .

الثّالث:قوله: وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ أى المستخلفين بعد الفراعنه و الجبابره.

الرّابع:قوله: وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أى نجعلهم يحكمون فى الأرض و تكون السلطه و القدره و غيرهما لهم و تحت تصرفهم..

و الخامس:إن ما كان يحذره الأعداء منهم و ما عبأوه لمواجهتهم يذهب أدراج الرياح،و تكون العاقبه لهم وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ .

هكذا لطف اللّه و عنايته فى شأن المستضفين،أمّا من هم أولئك المستضعفون؟!و ما هى أوصافهم؟!فسنتحدث عن كل ذلك بعد قليل بأذن اللّه و كان«هامان»وزير فرعون المعروف يتمتع بنفوذ و سلطه إلى درجه أن الآيه المتقدمه إذ تتحدث عن جنود مصر فإنّها تعزوهم إلى فرعون و هامان معا (و سيأتى مزيد إيضاح و شرح عن حال هامان بإذن اللّه فى ذيل الآيه(۳۸)من هذه السوره ذاتها).

ص :۱۷۴

بحوث

اشاره

۱-حکومه المستضعفین العالمیه

قلنا:إنّ الآیات المتقدمه لا تتحدث عن فتره خاصه أو معینه،و لا تختص ببنی إسرائیل فحسب،بل توضح قانونا کلیا لجمیع العصور و القرون و لجمیع الأمم و الأقوام،إذ تقول: وَ نُرِیدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَی الَّذِینَ اسْتُضْعِفُوا فِی الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّهً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِینَ .

فهی بشاره فی صدد انتصار الحق علی الباطل و الإیمان علی الکفر.

و هی بشاره لجمیع الأحرار الذین یریدون العداله و حکومه العدل و انطواء بساط الظلم و الجور.

و حکومه بنی إسرائیل و زوال حکومه الفراعنه ما هی إلاّ نموذج لتحقق هذه المشیئه الإلهیه و المثل الأکمل هو حکومه نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أصحابه بعد ظهور الإسلام..حکومه الحفاه العفاه و المؤمنین المظلومین الذین کانوا موضع تحقیر فراعنه زمانهم و استهزائهم و یرزخون تحت تأثیر الضغوط«الظالمه»لائمّه الکفر و الشرک.

و کانت العاقبه أن اللّه فتح علی أیدی هؤلاء المستضعفین أبواب قصور الأکاسره و القیاصره،و أنزل أولئک من أسرّه الحکم و القدره و أرغم أنوفهم بالتراب.

و المثل الأکبر و الأوسع هو ظهور حکومه الحق و العداله علی جمیع وجه البسیطه-و الکره الأرضیه-علی ید«المهدیّ»أرواحنا له الفداء.

فهذه الآیات هی من جمله الآیات التی تبشّر-بجلاء-بظهور مثل هذه الحکومه،و نقرأ عن أهل البیت علیهم السّلام فی تفسیر هذه الآیه أنّها إشاره إلی هذا الظهور العظیم.

فقد ورد فی نهج البلاغه عن علی علیه السّلام قوله: «لتعطفن الدنیا علینا بعد شماسها

عطف الضروس على ولدها،و تلا عقيب ذلك: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ » (۱) .

و

فی حدیث آخر نقرأ عنه علیه السّلام فی تفسیر الآیه المتقدمه قوله: «هم آل محمّد صلّی اللّه علیه و آله یبعث اللّه مهدّیهم بعد جهدهم فیعزّهم و یذل عدوّهم» (۲) .

و نقرأ

فی حدیث آخر عن الإمام علی بن الحسین زین العابدین علیه السّلام قوله:

«و الذی بعث محمّدا بالحقّ بشیرا و نذیرا،إنّ الأبرياء منّا أهل البيت و شيعتهم بمنزله موسی و شیعته،و إن عدونا و أشیاعهم بمنزله فرعون و أشیاعه» (۳) (أی سننتصر أخیرا و ینهزم أعداؤنا و تعود حکومه العدل و الحق لنا).

و من الطبیعی أن حکومه المهدی علیه السّلام العالمیّه فی آخر الأمر لا تمنع من وجود حکومات إسلامیه فی معاییر محدوده قبلها من قبل المستضعفین ضد المستکبرین،و متی ما تمّت الظروف و الشروط لمثل هذه المحکومات الإسلامیه فإنّ وعد اللّه المحتوم و المشیئه الإلهیه سیتحققان فی شأنها،و لا بدّ أن یکون النصر حلیفها بإذن اللّه.

۲-من هم المستضعفون و من هم المستکبرون؟!

کلمه«المستضعف»مشتقّه من ماده«ضعف»،و لکنّها لما استعملت فی باب «الاستفعال»دلت علی من یکبّل بالقید و الغلّ و یجرّ إلی الضعف.

و بتعبیر آخر:لیس المستضعف هو الضعیف و الفاقد للقدره و القوّه..بل المستضعف من لدیه قوی بالفعل و بالقوه،و لکنّه واقع تحت ضغوط الظلمه و الجبابره،و برغم أنّه مکبل بالأغلال فی یدیه و رجلیه فإنّه غیر ساکت

۱- ۱) -نهج البلاغه-الکلمات القصار رقم ۲۰۹.

۲- ۲) -الغیبه للشیخ الطوسی حسب نقل تفسیر نور الثقلین،ج ۴،ص ۱۱۰.

۳- ۳) -مجمع البیان ذیل الآیه.

و لا يستسلم،و يسعى دائما لتحطيم الأغلال و نيل الحريه،و التصدى للجبابره و المستكبرين،و نصره مبدأ العدل و الحق.

فاللّه سبحانه و عد أمثال هؤلاء بالمنّ و بالحكومه على الأرض،لا الأفراد الجبناء الذين لا يجرؤن على ادنى اعتراض فكيف إذا حمى الوطيس و حان أوان التضحيه و الفداء؟! فبنوا إسرائيل استطاعوا أن يأخذوا الحكومه و يرثوها من الفراعنه لأنّهم التفوا حول موسى عليه السّلام و عبؤوا قواهم و شكّلوا صفا واحدا،و استكملوا بقايا إيمانهم الذى ورثوه عن جدّهم إبراهيم الخليل،و نفضوا الخرافات عن أفكارهم و نهضوا مع موسى عليه السّلام.

و بالطبع فإنّ المستضعفين أنواع،فهناك مستضعف فكريّ،و هناك مستضعف ثقافيّ،و هناك مستضعف اقتصادى،و آخر مستضعف سياسى،أو أخلاقى،و أكثر ما أكّد عليه القرآن هو الاستضعاف السياسى و الأخلاقى!.

و ما من شك أنّ المستكبرين الجبابره يسعون أبدا لأن يجرّوا قرابينهم إلى الاستضعاف الفكرى و الثقافى، ثمّ إلى الاستضعاف الاقتصادى،لئلا تبقى لهم قوّه و لا قدره،و لئلا يفكروا بالنهوض و تولى زمام الحكومه.

و فى القرآن المجيد ورد الكلام عن المستضعفين فى خمسه موارد،و على العموم فإنّ هذا الكلام يدور حول المؤمنين الذين يرزخون تحت ضغوط الجبابره.

ففى مكان من القرآن الكريم يدعو إلى الجهاد و المقاتله فى سبيل اللّه و المستضعفين إذ يقول: وَ مٰا لَكُمْ لاٰ تُقٰاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللّٰهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجٰالِ وَ النِّسٰاءِ وَ الْوِلْدٰانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنٰا أَخْرِجْنٰا مِنْ هٰذِهِ الْقَرْيَهِ الظّٰالِمِ

أَهْلُها وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْکَ وَلِیًّا وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْکَ نَصِیراً

(۱)

.

و فی مکـان واحـد فقط ورد الکلام عن الـذین أعانوا الکفار و ظلموا أنفسـهم، و ادعوا أنّهم مستضـعفون،و لم یهاجروا فی سبیل اللّه،فالقرآن ینفی عنهم هذا الإستضعاف فیقول: إِنَّ الَّذِینَ تَوَفّاهُمُ الْمَلائِکَهُ ظالِمِی أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِیمَ کُنْتُمْ قالُوا کُنّا مُسْتَضْعَفِینَ فِی الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَکُنْ أَرْضُ اللّهِ واسِعَهً فَتُهاجِرُوا فِیها فَأُولئِکَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِیراً (۲) .

و علی کـل حـال فإنّه القرآن فی کل مکان منه یـدافع عن المستضـعفین و یـذکرهم بخیر،و یعبّر عنهم بالمؤمنین الـذین یرزخون تحت ضغوط المستکبرین...المؤمنون المجاهدون و الساعون بجدّهم المشمولون بعنایه اللّه و لطفه.

۳-أسلوب المستکبرین علی مدی التأریخ

لم یکن فرعون وحـده یذبح أبناء بنی إسـرائیل و یسـتحیی نساءهم لا ذلالهم، فعلی مدی التاریخ نجد أسـلوب الجبابره علی هذه الشـاکله،حیث یسـعون لتعطیل القـدرات و القوی بأیه وسـیله کانت،فحیث لم یسـتطیعوا قتل«الرجال»یلجأون إلی قتل«الرجوله»، و یـذوّبون روح الشـهامه بنشـر الفسـاد و المخـدّرات و الفحشاء و المنکر و الانحراف الجنسـی و کثره الشـراب و القمار،لیسـتطیعوا براحه بال و اطمئنان خاطر أن یواصلوا حکمهم و حکومتهم.

و لکنّ أنبیـاء اللّه،و خاصّه نبی الإسـلام صـلّی اللّه علیه و آله کانوا یسـعون لإیقاظ قوی الفتوه النائمه و یشـحنوا قـدرات الشـباب الهائله،و یحرروهم من أسر الذله،و کانوا

۱- ۱) -النساء،الآیه ۷۵.

۲- ۲) -النساء،الآیه ۹۷.

یعلمون حتی النساء دروسا من الشجاعه و الشهامه،لیقفن فی صفوف الرجال ضد المستکبرین.

و الشواهد علی هذین المنهجین فی البلاد الإسلامیه فی التأریخ المعاصر و التأریخ القدیم کثیره و واضحه جیّدا،فلا حاجه لسردها و ذکرها بتفصیل.

ص: ۱۷۹

الآیات [سوره القصص (۲۸): الآیات ۷ الی ۹]

اشاره

وَ أَوْحَیْنا إِلیٰ أُمِّ مُوسیٰ أَنْ أَرْضِعِیهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَیْهِ فَأَلْقِیهِ فِی اَلْیَمِّ وَ لاٰ تَخافِی وَ لاٰ تَحْزَنِی إِنّا رَادُّوهُ إِلَیْکِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ اَلْمُرْسَلِینَ (۷) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِیَکُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما کانُوا خاطِئِینَ (۸) وَ قالَتِ اِمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَیْنٍ لِی وَ لَکَ لاٰ تَقْتُلُوهُ عَسیٰ أَنْ یَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ هُمْ لاٰ یَشْعُرُونَ (۹)

التّفسیر

اشاره

فی قصر فرعون!

من أجل رسم مثل حیّ لانتصار المستضعفین علی المستکبرین،یدخل القرآن المجید فی سرد قصّه موسی و فرعون،و یتحدث بالخصوص عن مراحل یکون فیها موسی فی أشدّ حالات الضعف،أمّا فرعون فهو فی أقوی الحالات و أکثرها هیمنه...لیتجسّد انتصار مشیئه اللّه علی إراده الجبابره فی أعلی الصور و أحسن الوجوه..

یقول القرآن: وَ أَوْحَیْنا إِلیٰ أُمِّ مُوسیٰ أَنْ أَرْضِعِیهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَیْهِ فَأَلْقِیهِ

فِی الْیَمِّ وَ لاٰ تَخٰافِی وَ لاٰ تَحْزَنِی إِنّٰا رَادُّوهُ إِلَیْکِ وَ جٰاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِینَ

.

و هـذه الآیه علی ایجازهـا تشـتمل علی أمرین و نهیین و بشـارتین،و هی خلاصه قصّه کبیره و ذات أحـداث و مجریـات ننقلها بصوره مضغوطه:

کانت سلطه فرعون و حکومته الجائره قد خططت تخطیطا واسعا لذبح «الأطفال»من بنی إسرائیل حتی أن القوابل[من آل فرعون]

کن یراقبن النساء الحوامل[من بنی إسرائیل]

.

و من بین هؤلاء القوابل کانت قابله لها علاقه مودّه مع أمّ موسی علیه السّلام«و کان الحمل خفیّا لم یظهر أثره علی أم موسی»و حین أحست أم موسی بأنّها مقرّب و علی أبواب الولاده أرسلت خلف هذه القابله و أخبرتها بالواقع،و أنّها تحمل جنینا فی بطنها و توشک أن تضعه،فهی بحاجه-هذا الیوم-إلیها.

و حین ولد موسی علیه السّلام سطع نور بهیّ من عینیه فاهتزّت القابله لهذا النور و طبع حبّه فی قلبها،و أنار جمیع زوایا قلبها.

فالتفتت القابله إلی أم موسی و قالت لها:کنت أروم أن أخبر الجهاز الفرعونی بهـذا الولیـد لیأتی الجلاوزه فیقتلوه«و أنال بـذلک جائزتی»و لکن ما عسی أن أفعل و قد وقع حبّه الشدید فی قلبی،و أنا غیر مستعده لأن تنقص و لو شعره واحده من رأسه،فاهتمی بالمحافظه علیه،و أظنّ أن عدوّنا المتوقع سیکون هذا الطفل أخیرا.

ثمّ خرجت القابله من بیت أمّ موسی فرآها بعض الجواسـیس من جلاوزه فرعون و صـمموا علی أن یـدخلوا البیت،فعرفت أخت موسی ما أقدموا علیه فأسرعت إلی أمّها و أخبرتها بأن تتهیأ للأمر،فارتبکت و لم تدر ما ذا تصنع؟!و فی هذه الحاله من الارتباک و هی ذاهله لفت ولیـدها«موسی»بخرقه و ألقته فی التنور فإذا بالمأمورین و الجواسیس یقتحمون الدار،فلم یجدوا شیئا إلاّ التنور المشتعل نارا...فسألوا أم موسی عن سبب دخول القابله علیها فقالت:إنّها صدیقتی و قد

جاءت زائره فحسب،فخرجوا ءايسين.

ثمّ عادت أمّ موسى إلى رشدها و صوابها و سألت«أخت موسى»عن أخيها فأظهرت عدم معرفتها بمكانه،و إذا البكاء يعلو من داخل التنور،فركضت إلى التنور فرأت موسى مسالما و قد جعل اللّه النّار عليه بردا و سلاما«اللّه الذى نجّى إبراهيم الخليل من نار النمرود»فأخرجت وليدها سالما من التنور.

لكن الأمّ لم تهدأ إذ أن الجواسيس يمضون هنا و هناك و يفتشون البيوت يمنه و يسره،و كان الخطر سيقع لو سمعوا صوت هذا الطفل الرضيع.

و فى هذه الحال اهتدت أم موسى بإلهام جديد،إلهام ظاهره أنّه مدعاه للخطر،و لكن مع ذلک أحسّت بالاطمئنان أيضا.

كان ذلک من اللّه و لا بدّ أن يتحقق،فلبست ثياب عملها و صممت على أن تلقى وليدها فى النيل.

فجاءت إلى نجّار مصرى«و كان النجار من الأقباط و الفراعنه أيضا»فطلبت منه أن يصنع صندوقا صغيرا.

فسألها النجار قائلا:ما تصنعين بهذا الصندوق مع هذه الأوصاف؟و لكن الأمّ لما كانت غير متعوده على الكذب لم تستطع دون أن تقول الحق و الواقع،و أنّها من بنى إسرائيل و لديها طفل تريد إخفاءه فى الصندوق.

فلمّا سمع النجّار القبطى هذا الخبر صمم على أن يخبر الجلاوزه و الجلّادين، فمضى نحوهم لكن الرعب سيطر على قلبه فارتج على لسانه و كلّما حاول أن يفهمهم و لو كلمه واحده لم يستطع،فأخذ يشير إليهم إشارات مبهمه،فظن أولئک أنّه يستهزئ بهم فضربوه و طردوه،و لما عاد إلى محله عاد عليه وضعه الطبيعى، فرجع ثانيه إليهم ليخبرهم فعادت عليه الحاله الأولى من الارتجاج و العىّ، و أخيرا فقد فهم أن هذا أمر إلهى و سرّ خفى،فصنع الصندوق و أعطاه لأم موسى.

و لعلّ الوقت كان فجرا و الناس-بعد-نيام،و فى هذه الحال خرجت أم

موسى و فى يديها الصندوق الذى أخفت فيه ولدها موسى،فاتجهت نحو النيل و أرضعت موسى حتى ارتوى،ثمّ ألقت الصندوق فى النيل فتلقفته الأمواج و أخذت تسير به مبتعده عن الساحل،و كانت أم موسى تشاهد هذا المنظر و هى على الساحل..و فى لحظه أحست أن قلبها انفصل عنها و مضى مع الأمواج، فلو لا لطف اللّه الذى شملها و ربط على قلبها لصرخت و لانكشف الأمر و اتضح كل شىء.

و لا أحد يستطيع أن يصور-فى تلك اللحظات الحساسه-قلب الأم بدقّه.

لاـ يستطيع أىّ أحد أن يصور حال أم موسى و ما أصابها من الهلع و الفزع ساعه ألقت طفلها فى النيل و لكنّ هذه الأبيات المترجمه عن الشاعره«پروين اعتصامى»-بتصرف-تحكى صوره«تقريبيه»عن ذلك الموقف:

أمّ موسى حين ألقت طفلها

للذى رب السما أوحى لها

نظرت للنيل يمضى مسرعا

آه لو تعرف حقا حالها

و دوى الموج فيه صاخب

و فتاها شاغل بلبالها

و تناغيه بصمت:ولدى

كيف يمضى بك هذا الزورق

دون ربان،و إن ينسک من

هو ذو لطف فمن ذا يشفق

فأتاها الوحى:مهلا،و دعى

باطل الفكر و وهما يزهق

إن موسى قد مضى للمنزل

فاتق اللّه و لا تستعجلى

قد تلقينا الذى ألقيته

بيد ترعى الفتى لا تجهلى

و خرير الماء أضحى مهده

فى اهتزاز مؤنس إن تسألى

و له الموج رؤوما حدبا

يأمر البحر فيغدو هائجا

و له الطوفان طوعا مائجا

عالم الإيجاد من آثاره

كل شيء لعلاه عارجا

أين تمضين دعيه فله

خير ربّ يرتضيه لا هجا

كل هذا من جهه!..

ص :۱۸۳

أمّ موسى حين ألقت طفلها

للذى رب السما أوحى لها

نظرت للنيل يمضى مسرعا

آه لو تعرف حقا حالها

و دوى الموج فيه صاخب

و فتاها شاغل بلبالها

و تناغيه بصمت:ولدى

كيف يمضى بك هذا الزورق

دون ربان،و إن ينسك من

هو ذو لطف فمن ذا يشفق

فأتاها الوحى:مهلا،و دعى

باطل الفكر و وهما يزهق

إن موسى قد مضى للمنزل

فاتق اللّه و لا تستعجلى

قد تلقينا الذى ألقيته

بيد ترعى الفتى لا تجهلى

و خرير الماء أضحى مهده

فى اهتزاز مؤنس إن تسألى

و له الموج رؤوما حدبا

يأمر البحر فيغدو هائجا

و له الطوفان طوعا مائجا

عالم الإيجاد من آثاره

كل شيء لعلاه عارجا

أين تمضين دعيه فله

خير ربّ يرتضيه لا هجا

كل هذا من جهه!..

و لكن تعالوا لنرى ما يجرى فى قصر فرعون؟! ورد فى الأخبار أنّ فرعون كانت له بنت مريضه،و لم يكن له من الأبناء سواها،و كانت هذه البنت تعانى من آلام شديده لم ينفعها علاج الأطباء،فلجأ إلى الكهنه فقالوا له:نتكهّن و نتوقع أن إنسانا يخرج من البحر يكون شفاؤها من لعاب فمه حين يدهن به جسدها،و كان فرعون و زوجه«آسيه»فى انتظار هذا «الحادث»و فى يوم من الأيّام..فجأه لاح لعيونهما صندوق تتلاطمه أمواج النيل فلفت الأنظار،فأمر فرعون عمّاله أن يأتوا به ليعرفوا ما به؟! و مثل الصندوق«المجهول»الخفىّ أمام فرعون،و لم يتمكن أحد أن يفتحه.

بلى كان على فرعون أن يفتحه لينجو موسى على يد فرعون نفسه،و فتح الصندوق على يده فعلا!.

فلمّا وقعت عين آسيه عليه سطع منه نور فأضاء قلبها،و دخل حبّه فى قلوب الجميع،و لا سيما قلب امرأه فرعون«آسيه»..و حين شفيت بنت فرعون من لعاب فمه زادت محبّته أكثر فأكثر (۱) .

و لنعد الآن إلى القرآن الكريم لنسمع خلاصه القصّه من لسانه!يقول القرآن

ص :

---

۱ – ۱) -ورد هذا القسم من الرّوايه عن ابن عباس فى تفسير الفخر الرازى كما هناك روايات آخرها فى تفسير«أبو الفتوح»و«مجمع البيان».

فی هذا الصدد: فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِیَکُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً .

کلمه«التقط»مأخوذه من ماده«التقاط»و معناها فی الأصل الوصول إلی الشیء دون جهد و سعی،و إنّما سمیت الأشیاء التی یعثر علیها«لقطه» للسبب نفسه أیضا..

و بدیهی أنّ الفراعنه لم یجلبوا الصندوق الذی فیه الطفل الرضیع من الماء لیربوه فی أحظانهم فیکون لهم عدوا لدودا،بل أرادوه-کما قالت امرأه فرعون- قره عین لهم.

و لکن النتیجه و العاقبه..کان ما کان و حدث ما حدث..و کما یقول علماء الأدب:إنّ اللام فی الآیه هنا فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِیَکُونَ.. هی«لا ـ العاقبه» لیست«لام العله»و لطافه التعبیر کامنه فی أنّ اللّه سبحانه یرید أن یبیّن قدرته، و کیف أن هذه الجماعه«الفراعنه»عبّأت جمیع قواها لقتل بنی إسرائیل،و إذا الذی أرادوا قتله-و کانت کل هذه المقدمات من أجله-یتربی فی أحضانهم کأعزّ أبنائهم.

و التعبیر-ضمنا-بآل فرعون یدل علی أنّ الملتقط لم یکن واحدا،بل اشترک فی التقاط الصندوق جماعه من آل فرعون،و هذا بنفسه شاهد علی أنّهم کانوا ینتظرون مثل هذا الحدث!.

ثمّ تختتم الآیه بالقول: إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هٰامٰانَ وَ جُنُودَهُمٰا کٰانُوا خٰاطِئِینَ .

کانوا خاطئین فی کل شیء،و أی خطأ أعظم من أن یحیدوا عن طریق العدل و الحقّ،و أن یبنوا قواعد حکمهم علی الظلم و الجور و الشرک!.

و أی خطأ أعظم أن یذبحوا آلاف الأطفال لیقتلوا موسی علیه السّلام،و لکن اللّه سبحانه أودعه فی أیدیهم و قال لهم:خذوا عدوّکم هذا و ربّوه لیکبر عندکم؟! (۱)

۱- ۱) -یقول الراغب فی مفرداته:إن الفرق بین«الخاطئ»«و المخطئ»هو أنّ الخاطئ هو من یقدم علی عمل لا یخرج من عهدته و یطوی طریق الخطأ بنفسه.. أمّا المخطی فیقال فی من یقدم علی عمل و یخرج من عهدته،إلاّ أنّه یخطئ فی الأثناء صدفه،فیتلف العمل.

و یستفاد من الآیه التالیه أن شجارا حدث ما بین فرعون و امرأته،و یحتمل أن بعض أتباعه کانوا قد وقفوا عند رأس الطفل لیقتلوه،لأنّ القرآن الکریم یقول فی هذا الصدد: وَ قالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَیْنٍ لِی وَ لَکَ لا تَقْتُلُوهُ عَسی أَنْ یَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً.. .

و یلوح للنظر أنّ فرعون وجد فی مخایل الطفل و العلائم الأخری و من جملتها إیداعه فی التابوت«الصندوق»و إلقاءه بین أمواج النیل،و ما إلی ذلک-أن هذا الطفل من بنی إسرائیل،و أن زوال ملکه علی یده،فجثم کابوس ثقیل علی صدره من الهم و ألقی علی روحه ظلّه،فأراد أن یجری قانون إجرامه علیه.

فأیده أطرافه و أتباعه المتملّقون علی هذه الخطه،و قالوا:ینبغی أن یذبح هذا الطفل،و لا دلیل علی أن لا یجری هذا القانون علیه.

و لکن آسیه امرأه فرعون التی لم ترزق ولدا ذکرا،و لم یکن قلبها منسوجا من قماش عمال قصر فرعون،وقفت بوجه فرعون و أعوانه و منعتهم من قتله.

و إذا أضفنا قصّه شفاء بنت فرعون بلعاب فم موسی-علی ما قدمناه- فسیکون دلیلا آخر یوضح کیفیه انتصار آسیه فی هذه الازمه.

و لکن القرآن-بجمله مقتضیه و ذات مغزی کبیر-ختم الآیه قائلا: وَ هُمْ لا یَشْعُرُونَ! .

أجل،إنّهم لم یشعروا أنّ أمر اللّه النافذ و مشیئته التی لا تقهر،اقتضت أن یتربی هذا الطفل فی أهم المراکز خطرا...و لا أحد یستطیع أن یردّ هذه المشیئه، و لا یمکن مخالفتها أبدا..

ملاحظه

اشاره

تخطيط اللّه العجيب..

إظهـار القـدره..ليس معنـاه أن اللّه إذا أراد أن يهلـك قومـا جبارين،يرسل عليهم جنود السـماوات و الأرض،فيهلكهم و يـدمرهم تدميرا.

إظهار القـدره هو أن يجعل الجبابره و المسـتكبرين يدمرون أنفسـهم بأيديهم، يلهم قلوبهم بالإلقاء أنفسـهم فى البئر التى حفروها لغيرهم،و أن يصنعوا لأنفسهم سجنا يموتون فيه!و أن يرفعوا أعواد المشانق ليعدموا عليها!..

و فى قضيه الفراعنه الجبابره المعاندين حدث مثل هذا،و تمّت تربيه موسى و نجاته فى جميع المراحل على أيديهم.

فالقابله التى أولدت موسى كانت من الأقباط.

و النجار الذى صنع الصندوق الذى أخفى فيه موسى كان قبطيّا.

و الذين التقطوا الصندوق كانوا من آل فرعون!.

و الذى فتح باب الصندوق كان فرعون بنفسه أو امرأته آسيه.

و أخيرا فإن المكان الآمن و الهادىء الذى تربّى فيه موسى-البطل الذى قهر فرعون-هو قصر فرعون ذاته.

و بهذا الشكل يظهر اللّه تعالى قدرته.

الآيات [سوره القصص (۲۸): الآيات ۱۰ الی ۱۳]

اشاره

وَ أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسىٰ فارِغاً إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلىٰ قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ (۱۰) وَ قالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۱۱) وَ حَرَّمْنا عَلَيْهِ اَلْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ ناصِحُونَ (۱۲) فَرَدَدْناهُ إِلىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ وَ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اَللّهِ حَقٌّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۱۳)

التّفسير

اشاره

عوده موسى إلى حضن أمّه:

فی هذه الآیات تتجسد مشاهد جدیده..فأمّ موسى التی قلنا عنها:إنّها ألقت ولدها فی أمواج النیل،بحسب ما فصّلنا آنفا..اقتحم قلبها طوفان شدید من الهمّ على فراق ولدها،فقد أصبح مکان ولدها الذی کان یملأ قلبها خالیا و فارغا منه.

فأوشکت أن تصرخ من أعماقها و تذیع جمیع أسرارها،لکن لطف اللّه تدارکها،و کما یعبّر القرآن الکریم وَ أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسىٰ فارِغاً إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلىٰ قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

«الفارغ»معناه الخالى،و المقصود به هنا أن قلب أم موسى أصبح خاليا من كل شىء إلاّ من ذكر موسى..و إن كان بعض المفسّرين يرون أن المقصود به هو خلوّ القلب من الهمّ و الغمّ،أو أنّه خال من الإلهام و البشائر التى بشرت بها أم موسى من قبل،و لكن مع الالتفات لهذه الجمل و التدقيق فيها يبدوا هذا التّفسير غير صحيح.

و طبيعىّ تماما أنّ أمّا تفارق ولدها بهذه الصوره يمكن أن تنسى كل شىء إلاّ ولدها الرضيع،و يبلغ بها الذهول درجه لا تلتفت معها إلى ما سيصيبها و ولدها من الخطر لو صرخت من أعماقها و أذاعت أسرارها.

و لكن اللّه الذى حمّل أم موسى هذا العبء الثقيل ربط على قلبها لتؤمن بوعد اللّه،و لتعلم أنّه بعين اللّه،و أنّه سيعود إليها و سيكون نبيّا.

كلمه«ربطنا»من ماده«ربط»و معناها فى الأصل شدّ وثاق الحيوان أو ما أشبهه بمكان ما ليكون محفوظا فى مكانه،و لذلك يدعى هذا المحلّ الذى تربط فيه الحيوانات ب«الرباط»ثمّ توسعوا فى اللغه فصار معنى الربط:الحفظ و التقويه و الاستحكام،و المقصود من«ربط القلب»هنا تقويته..أى تثبيت قلب أم موسى، لتؤمن بوعد اللّه و تتحمل هذا الحادث الكبير.

و على أثر لطف اللّه أحست أم موسى بالاطمئنان،و لكنّها أحبت أن تعرف مصير ولدها،و لذلك أمرت أخته أن تتبع أثره و تعرف خبره وَ قٰالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ .

كلمه«قصّيه»مأخوذه من ماده«قصّ»على زنه«نصّ»و معناها البحث عن آثار الشىء،و إنّما سمّيت القصّه قصّه لأنّها تحمل فى طياتها أخبارا مختلفه يتبع بعضها بعضا.

فاستجابت«أخت موسى»لأمر أمّها،و أخذت تبحث عنه بشكل لا يثير الشبهه،حتى بصرت به من مكان بعيد،و رأت صندوقه الذى كان فى الماء يتلقفه

آل فرعون..و يقول القرآن فی هذا الصدد: فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ .

و لکن أولئک لم یلتفتوا إلی أن أخته تتعقبه وَ هُمْ لاٰ یَشْعُرُونَ .

قال البعض:إن خدم فرعون کانوا قد خرجوا بالطفل من القصر بحثا عن مرضعه له،فرأتهم أخت موسی.

و یبدوا أنّ التّفسیر الأوّل أقرب للنظر،فعلی هذا بعد رجوع أم موسی إلی بیتها أرسلت أخته للبحث عنه،فرأت-من فاصله بعیده-کیف استخرجه آل فرعون من النیل لینجو من الخطر المحدق.

هناک تفاسیر أخری لجمله وَ هُمْ لاٰ یَشْعُرُونَ أیضا.

فالعلامه«الطبرسی»لا یستعبد أن یکون تکرار هذه الجمله فی الآیه السابقه و الآیات اللاحقه إشاره إلی هذه الحقیقه،و هی أن فرعون جاهل بالأمور الی هذه الدرجه فکیف یدعی الرّبوبیه؟و کیف یرید أن یحارب مشیئه اللّه التی لا تقهر!؟.

و علی کل حال،فقد اقتضت مشیئه اللّه أن یعود هذا الطفل إلی أمّه عاجلا لیطمئن قلبها،لذلک یقول القرآن الکریم: وَ حَرَّمْنٰا عَلَیْهِ الْمَرٰاضِعَ مِنْ قَبْلُ (۱) .

و طبیعی أن الطفل الرضیع حین تمر علیه عده ساعات فإنه یجوع و یبکی و لا یطیق تحمل الجوع،فیجب البحث عن مرضع له،و لا سیما أن ملکه مصر «امرأه فرعون»تعلق قلبها به بشدّه،و أحبّته کروحها العزیزه.

کان عمال القصر یرکضون من بیت لآخر بحثا عن مرضع له،و العجیب فی الأمر أنّه کان یأبی أثداء المرضعات.

لعل ذلک آت من استیحاشه من وجوه المرضعات،أو أنّه لم یکن یتذوق

۱- ۱) -«المراضع»جمع«مرضع»علی زنه«مخبر»و معناها المرأه التی تسقی الطفل لبنها من ثدیها،و قال البعض:(المراضع)جمع(مرضع)علی زنه(مکتب)أی مکان الإرضاع،أی،«الأثداء»و قال البعض:یحتمل أن تکون الکلمه جمعا للمصدر المیمی«مرضع»بمعنی الرضاع،و لکن المعنی الأوّل أنسب کما یبدو..

ألبـانهن،إذ يبـدو لبن كـلّ منهن مرّا فى فمه،فكـأنّه يريـد أن يقفز من أحضـان المراضع،و هـذا هو التحريم التكوينى من قبـل اللّه تعالى إذ حرّم عليه المراضع جميعا.

و لم يزل الطفـل لحظه بعـد أخرى يجوع أكثر فـأكثر و هو يبكى و عمـال فرعون يـدورون به بحثـا عن مرضع بعـد أن ملأـ قصـر فرعون بكـاء و ضـجيجا،و مـا زال العمـال فى مثـل هـذه الحال حتى صادفوا بنتا أظهرت نفسـها بأنّها لا تعرف الطفل، فقالت: هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ نٰاصِحُونَ .

إنّنى أعرف امرأه من بنى إسرائيل لها ثديان مملوءان لبنا،و قلب طافح بالمحبّه،و قد فقدت وليدها،و هى مستعده أن تتعهد الطفل الذى عندكم برعايتها.

فسّر بها هؤلاء و جاءوا بأمّ موسى إلى قصر فرعون،فلمّا شمّ الطفل رائحه أمّه التقم ثديها بشغف كبير،و أشرقت عيناه سرورا،كما أن عمّال القصـر سـرّوا كـذلك لأنّ البحث عن مربيه له أعياهم،و امرأه فرعون هى الأخرى لم تكتم سـرورها للحصول على هذه المرضع أيضا.

و لعلهم قالوا للمرضع:أين كنت حتى الآن،إذ نحن نبحث عن مثلك منـذ مدّه..فليتك جئت قبل الآن،فمرحبا بك و بلبنك الذى حلّ هذه المشكله.

تقول بعض الرّوايـات:حين اسـتقبل موسـى ثـدى أمّه،قـال هامان وزير فرعون لأم موسـى:لعلك أمّه الحقيقيه،إذ كيف أبى جميع هـذه المراضع و رضـى بك،فقالت:أيّها الملك،لأنّى امرأه ذات عطر طيب و لبنى عذب،لم يأتى طفل رضـيع إلاّ قبل بى،فصدّقها الحاضرون و قدموا لها هدايا ثمينه (1) .

و نقرأ فى هذا الصدد

حديثا قال الراوى: فقلت للإمام الباقر عليه السّلام؛ فكم مكث موسى غائبا من أمّه حتى ردّه اللّه؟قال«ثلاثه أيّام» (2) .

1- 1) -تفسير الفخر الرازى،ج 24،ص 231.

2- 2) -تفسير نور الثقلين،ج 4،ص 116.

و قال بعضهم:هذا التحريم التكوينى لأنّ اللّه لم يرد لموسى أن يرتضع من الألبان الملوثه بالحرام..الملوّثه بأموال السرقه،أو الملوّثه بالإجرام و الرشوه و غصب حقوق الآخرين،و إنّما أراد لموسى أن يرتضع من لبن طاهر كلبن أمّه ليستطيع أن ينهض بوجه الأرجاس و يحارب الآثمين.

و تم كل شيء بأمر اللّه فَرَدَدْنٰاهُ إِلىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهٰا وَ لاٰ تَحْزَنَ وَ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (1) .

هنا ينقدح سؤال مهم و هو:هل أودع آل فرعون الطفل«موسى»عند أمّه لترضعه و تأتى به كل حين-أو كل يوم-إلى قصر فرعون لتراه امرأه فرعون؟! أم أنّهم أودعوا موسى فى القصر و طلبوا من المرضع«أم موسى»أن تأتى بين فترات متناسبه إلى القصر لترضعه؟! لا يوجد دليل قوى لأيّ من الاحتمالين،إلاّ أن الاحتمال الأوّل أقرب للنظر كما يبدو! و هناك سؤال آخر أيضا،و هو:هل انتقل موسى إلى قصر فرعون بعد إكماله فتره الرضاعه،أم أنّه حافظ على علاقته بأمّه و عائلته و كان يتردد ما بين القصر و بيته؟! قال بعضهم:أودع موسى بعد فتره الرضاعه عند فرعون و امرأته،و تربى موسى عندهما،تنقل فى هذا الصدد قصص عريضه حول موسى و فرعون،و لكن هذه العباره التى قالها فرعون لموسى عليه السّلام بعد بعثته أَ لَمْ نُرَبِّكَ فِينٰا وَلِيداً وَ لَبِثْتَ فِينٰا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ؟! (2) ،تدل بوضوح على أن موسى عاش فى قصر فرعون مده،بل مكث هناك سنين طويله.

و يستفاد من تفسير على بن إبراهيم أن موسى عليه السّلام بقى مع كمال الاحترام فى

1- 1) -تحدثنا عن الجذر اللغوى لماده«تقرّ عينها»فى ذيل الآيه«74»من سوره الفرقان-فيراجع هناك.

2- 2) -الشعراء،الآيه 18.

قصر فرعون حتی مرحله البلوغ،إلاّ أنّ کلامه عن توحید اللّه أزعج فرعون بشده إلی درجه أنّه صمّم علی قتله،فترک موسی القصر و دخل المدینه فوجد فیها رجلین یقتتلان،أحدهما من الأقباط و الآخر من الأسباط،فواجه النزاع بنفسه «و سیأتی تفصیل ذلک فی شرح الآیات المقبله إن شاء اللّه» (1) .

1- 1) -لاحظ تفسیر علی بن إبراهیم طبقا لما ورد فی نور الثقلین،ج 4،ص 117.

الآيات [سوره القصص (۲۸): الآيات ۱۴ الی ۱۷]

اشاره

وَ لَمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اِسْتَویٰ آتَیْناهُ حُکْماً وَ عِلْماً وَ کَذٰلِکَ نَجْزِی اَلْمُحْسِنِینَ (۱۴) وَ دَخَلَ اَلْمَدِینَهَ عَلیٰ حِینِ غَفْلَهٍ مِنْ أَهْلِهٰا فَوَجَدَ فِیهٰا رَجُلَیْنِ یَقْتَتِلاٰنِ هٰذٰا مِنْ شِیعَتِهِ وَ هٰذٰا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغٰاثَهُ اَلَّذِی مِنْ شِیعَتِهِ عَلَی اَلَّذِی مِنْ عَدُوِّهِ فَوَکَزَهُ مُوسیٰ فَقَضیٰ عَلَیْهِ قٰالَ هٰذٰا مِنْ عَمَلِ اَلشَّیْطٰانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِینٌ (۱۵) قٰالَ رَبِّ إِنِّی ظَلَمْتُ نَفْسِی فَاغْفِرْ لِی فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ اَلْغَفُورُ اَلرَّحِیمُ (۱۶) قٰالَ رَبِّ بِمٰا أَنْعَمْتَ عَلَیَّ فَلَنْ أَکُونَ ظَهِیراً لِلْمُجْرِمِینَ (۱۷)

التّفسیر

اشاره

موسی علیه السّلام و حمایه المظلومین:

فی هذه الآیات نواجه المرحله الثّالثه من قصّه موسی علیه السّلام و ما جری له مع فرعون،و فیها مسائل تتعلق ببلوغه،و بعض الأحداث التی شاهدها و هو فی مصر قبل أن یتوجه إلی«مدین»ثمّ سبب هجرته إلی مدین.

تقول الآیات فی البدایه وَ لَمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَویٰ آتَیْنٰاهُ حُکْماً وَ عِلْماً

وَ كَذٰلِكَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ

.

کلمه«أشدّ»مشتقّه من ماده«الشدّه»و هی القوّه.

و کلمه«استوی»مشتقه من«الاستواء»و معناها کمال الخلقه و اعتدالها.

و هناک کلام بین المفسّرین فی الفرق بین المعنیین:

فقال بعض المفسّرین:المقصود من بلوغ الأشد هو أن یصل الإنسان الکمال من حیث القوی الجسمانیه،و غالبا ما یکون فی السنه الثامنه عشره من العمر..

أمّا الإستواء فهو الاستقرار و الاعتدال فی أمر الحیاه،و غالبا ما یحصل ذلک بعد الکمال الجسمانی.

و قال بعضهم:إنّ المقصود من بلوغ الأشد هو الکمال الجسمانی،و أمّا الاستواء فهو الکمال العقلی و الفکری.

و نقرأ فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام فی کتاب معانی الأخبار قال:فلمّا بلغ أشدّه و استوی قال:«أشدّه ثمان عشر سنه و استوی،التحی» (1) .

و لیس بین هذه التعابیر فرق کبیر،و من مجموعها-مع ملاحظه المعنی اللغوی للکلمتین«الأشدّ و الاستواء»-یستفاد منهما أنّهما یدلان علی التکامل فی القوی الجسمیه و العقلیه و الروحیه.

و لعل الفرق بین«الحکم»و«العلم»هو أنّ الحکم یراد منه العقل و الفهم و القدره علی القضاء الصحیح،و العلم یراد به العرفان الذی لا یصحبه الجهل.

أمّا التعبیر کَذٰلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ فیدل بصوره جلیّه علی أن موسی علیه السّلام کان جدیرا بهذه المنزله،نظرا لتقواه و طهارته و أعماله الصالحه،إذ جازاه اللّه «بالعلم و الحکم»و واضح أنّ المراد بالحکم و العلم هنا لیس النبوّه و الوحی و ما إلیهما..لأنّ موسی علیه السّلام یومئذ لم یبعث بعد،و بقی مدّه بعد ذلک حتی بعث نبیّا.

بل المقصود و المراد من الحکم و العلم هما المعرفه و النظره الثاقبه و القدره

1- 1) -تفسیر نور الثقلین،ج 4،ص 117.

على القضاء الصحيح و ما شابه ذلك،و قد منح اللّه هذه الأمور لموسى عليه السّلام لطهارته و صدقه و أعماله الصالحه كما ذكرنا آنفا.

و يفهم من هذا التعبير-إجمالا-أنّ موسى عليه السّلام لم يتأثر بلون المحيط الذى عاشه فى قصر فرعون،و كان يسعى إلى تحقيق العدل و الحق ما استطاع إلى ذلك سبيلا..رغم أنّ جزئيات تلك الأعوام غير واضحه.

و على كل حال فإن موسى دَخَلَ الْمَدِينَهَ عَلىٰ حِينِ غَفْلَهٍ مِنْ أَهْلِهٰا .

فما هى المدينه المذكوره فى الآيه المتقدمه؟لا نعرفها على وجه التحقيق..

لكن الاحتمال القوى أنّها عاصمه مصر..و كما يقول بعض المفسّرين فإنّ موسى عليه السّلام على أثر المشاجرات بينه و بين فرعون،و مخالفاته له و لسلطته التى كانت تشتدّ يوما بعد يوم حتى بلغت أوجها،حكم عليه بالتبعيد عن العاصمه..

لكنّه برغم ذلك فقد سنحت له فرصه خاصّه و الناس غافلون عنه أن يعود إلى المدينه و يدخلها.

و يحتمل أيضا،أنّ المقصود دخوله المدينه من جهه قصر فرعون..لأنّ القصور يومئذ كانت تشاد على أطراف المدينه ليعرف الداخل إليها و الخارج منها.

و المقصود من جمله عَلىٰ حِينِ غَفْلَهٍ مِنْ أَهْلِهٰا هو الزمن الذى يستريح الناس فيه من أعمالهم،و لا تراقب المدينه فى ذلك الحين بدقّه،و لكن أى حين و أى زمن هو؟! قال بعضهم:هو أوّل الليل،لأنّ الناس يتركون أعمالهم و يعطلون دكاكينهم و محلاتهم ابتغاء الراحه و النوم،و جماعه يذهبون للتنزه،و آخرون لأماكن أخرى..هذه الساعه هى المعبر عنها بساعه الغفله فى بعض الرّوايات الإسلاميه.

و هناك حديث شريف

عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله فى هذا الشأن يقول: «تنفّلوا فى ساعه الغفله و لو بركعتين خفيفتين».

ص:۱۹۶

و قد ورد فی ذیل هذا الحدیث الشریف هذه العباره

«و ساعه الغفله ما بین المغرب و العشاء» (۱) .

و الحق أنّ هـذه السـاعه سـاعه غفله و کثیرا مـا تحـدث الجنایـات و الفسـاد و الانحرافـات الأخلاقیه فی مثل هـذه لساعه من أوّل اللیل..فلا الناس مشغولون بالکسب و العمل،و لا هم نائمون،بل هی حاله غفله عمومیه تغشی المدینه عاده، و تنشط مراکز الفساد أیضا فی هذه الساعه.

و احتمـل البعض أن سـاعه الغفله هی ما بعـد نصف النهار،حیث یستریـح الناس من أعمالهم استراحه مؤقته،و لکن التّفسـیر الأوّل أقرب للنظر کما یبدو.

و علی کل حال،موسـی دخل المـدینه،و هنالک واجه مشادّه و نزاعا،فاقترب من منطقه النزاع فَوَجَـدَ فِیهٰا رَجُلَیْنِ یَقْتَتِلاٰنِ هٰـذٰا مِنْ شِیعَتِهِ وَ هٰذٰا مِنْ عَدُوِّهِ .

و التعبیر ب«شیعته»یـدل علی أن موسـی قبـل أن یبعث کـان له أتباع و أنصار و شـیعه من بنی إسـرائیل،و ربّما کان قـد اختارهم لمواجهه فرعون و حکومته کنواه اساسیه.

فلمّا بصر الإسرائیلی بموسی استصرخه فَاسْتَغٰاثَهُ الَّذِی مِنْ شِیعَتِهِ عَلَی الَّذِی مِنْ عَدُوِّهِ .

فجاءه موسـی علیه السّـلام لاسـتنصاره و تخلیصه من عدوّه الظالم..الذی یقال عنه أنّه کان طباخا فی قصر فرعون،و کان یرید من الإسـرائیلی أن یحمل معه الحطب إلی القصـر،فضـرب موسـی هذا العدو بقبضه یده القویه علی صدره،فهوی إلی الأرض میتا فی الحال تقول الآیه: فَوَکَزَهُ مُوسیٰ فَقَضیٰ عَلَیْهِ (۲) .

و ممّـا لاـ شـک فیه،فـإنّ موسـی لم یقصـد أن یقتـل الفرعونی،و یتّضـح ذلک من خلال الآیات التالیه أیضا..و لا یعنی ذلک أن الفراعنه لم یکونوا یستحقون القتل،

۱- ۱) -وسائل الشیعه،ج ۵،ص ۲۴۹[باب ۲۰ من أبواب الصلوات المندوبه] .

۲- ۲) -«وکز»مأخوذ من«الوکز»علی زنه«رمز»و معناه الضرب بقبضه الید،و هناک معان اخری لا تناسب المقام..

و لكن لاحتمال وقوع المشاكل و التبعات المستقبليه على موسى و جماعته.

لذلك فإنّ موسى عليه السّلام أسف على هذا الأمر قٰالَ هٰذٰا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطٰانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ .

و بتعبير آخر:فإنّ موسى عليه السّلام كان يريد أن يبعد الفرعونى عن الرجل الإسرائيلى،و إن كان الفرعونيون يستحقون أكثر من ذلك.لكن ظروف ذلك الوقت لم تكن تساعد على مثل هذا العمل،و كما سنرى فإن ذلك الأمر دعا موسى عليه السّلام إلى أن يخرج من مصر إلى أرض مدين و حرمه من البقاء فى مصر.

ثمّ يتحدث القرآن عن موسى عليه السّلام فيقول: قٰالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

و من المسلم به أنّ موسى عليه السّلام لم يصدر منه ذنب هنا،بل ترك الأولى،فكان ينبغى عليه أن يحتاط لئلا يقع فى مشكله،و لذلك فإنّه استغفر ربّه و طلب منه العون،فشمله اللطيف الخبير بلطفه.

لذلك فإنّ موسى عليه السّلام حين نجا بلطف اللّه من هذا المأزق قٰالَ رَبِّ بِمٰا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ من عفوك عنى و انقاذى من يد الأعداء و جميع ما أنعمت على منذ بدايه حياتى لحدّ الآن فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ .و معينا للظالمين.

بل سأنصر المؤمنين المظلومين،و يريد موسى عليه السّلام أن يقول:إنّه لا يكون بعد هذا مع فرعون و جماعته أبدا..بل سيكون إلى جانب الإسرائيليين المضطهدين..».

و احتمل بعضهم أن يكون المقصود ب«المجرمين»هو هذا الإسرائيلى الذى نصره موسى،إلاّ أن هذا الاحتمال بعيد جدّا،حسب الظاهر.

مسألتان

اشاره

۱-أ لم یکن عمل موسی هذا مخالفا للعصمه!

للمفسّرین أبحاث مذیّله و طویله فی شأن المشاجره التی حدثت بین القبطی و الإسرائیلی و قتل موسی للقبطی.

و بالطبع فإنّ أصل هذا العمل لیس مسأله مهمّه..لأنّ الظلمه الأقباط و الفراعنه المفسدین الذین قتلوا آلاف الأطفال من بنی إسرائیل و لم یتأبّوا یحجموا عن أیه جریمه ضد بنی إسرائیل،لم تکن لهم حرمه عند بنی إسرائیل.

إنّما المهم عند علماء التّفسیر هو تعبیرات موسی علیه السّلام التی ولّدت إشکالات عندهم.

فهو تاره یقول: هٰذٰا مِنْ عَمَلِ الشَّیْطٰانِ .

و فی مکان آخر یقول: رَبِّ إِنِّی ظَلَمْتُ نَفْسِی فَاغْفِرْ لِی .

فکیف تنسجم أمثال هذه التعابیر مع عصمه الأنبیاء حتی قبل بعثتهم و رسالتهم.

و لکن هذه الإشکالات تزول بالتوضیح المتقدم فی تفسیر الآیه الآنفه،و هو أن ما صدر من موسی علیه السّلام هو من قبیل«ترک الأولی»لا-أکثر،إذ کان علیه أن یحتاط قبل أن یضرب القبطی،فلم یحتط،فأوقع نفسه فی مشاکل جانبیه،لأنّ قتل القبطی لم یکن أمرا هینا حتی یعفو عنه الفراعنه.

و نعرف أن ترک الأولی لا-یعنی أنّه عمل حرام ذاتا،بل یؤدی الی ترک عمل أهم و أفضل،دون أن یصدر منه عمل مخالف و مناف لذلک العمل!.

و نظیر هذه التعابیر ما ورد فی بعض قصص الأنبیاء من جملتهم أبو البشر آدم علیه السّلام التی تقدم شرحه فی ذیل الآیه(۱۹)من سوره الأعراف.

و نقرأ

فی حدیث عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام فی تفسیر الآیات

المتقدمه:

«قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ»

يعنى الاقتتال الـذى وقع بين الرجل لا ما فعله موسـى عليه السّلام من قتله«إنه»يعنى الشـيطان «عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ» - و أمّا المراد من جمله - «رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي» يعنى ان موسـى يريد أن يقول وضعت نفسى غير موضعها بدخول هذه المدينه «فَاغْفِرْ لِي» أى استرنى من أعدائك لئلا يظفروا بى فيقتلونى...». (۱)

۲-دعم المجرمين و إسنادهم من أعظم الآثام:

هناك باب مفصل فى الفقه الإسـلامى فيه أحاديث وافره تتحدث حول «الإعانه على الإثم»و«معاونه الظلمه»و تدل على أن واحدا من أسوأ الآثام إعانه الظالمين و المجرمين،و تكون سببا لأن يشترك المعين فى مصيرهم الأسود.

و أساسـا فـإنّ الظلمه و المجرمين-أمثـال فرعـون-فى المجتمع أنّيا كـان هم أفراد معـدودون،و إذا لم يساعـد المجتمع هؤلاء لم يكونوا فراعنه،فهؤلاء القلّه المتفرعنون..إنّما يعتمـدون على الناس الضـعاف أو الانتهازيين و عبـده الـدنيا، الذين يلتفّون حولهم و يكونون لهم أجنحه و أذرعا،أو على الأقل يكثّرون السواد ليوفروا لهم القدره الشيطانيه.

و فى القرآن الكريم آيات كثيره تشير إلى هذا الأصل الإسلامى،فنحن نقرأ فى الآيه الثّانيه من سوره المائده قوله تعالى: وَ تَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوى وَ لا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ .

كما أنّ القرآن يصرّح فى بعض آياته بالقول: وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النّارُ .

۱- ۱) -عيون أخبار الرضا طبقا لما ورد فى تفسير نور الثقلين،ج ۴،ص ۱۱۹.

(۱)

و سواء كان«الرّكون»هنا بمعنى الميل القلبى،أو بمعنى الإعانه الظاهريه،أو إظهار الرضا و المحبّه،أو طلب الخير لهم..هـذه المعانى التى ذكرهـا المفسّـرين «للركون»يجمعها مفهوم جامع لها،و هو الاتكاء و الاعتماد و التعلق و ما إلى ذلك، و هـذا المفهوم شاهد حى على مقصودنا.

و نقرأ فى هذا الصدد حديثا للإمام على بن الحسين عليه السّـلام مع«محمّد بن مسـلم الزهرى»الذى كان رجلا عالما،إلاّ أنّه كان يتعاطف و يتعاون مع الجهاز الأموى و لا سيما مع هشام بن عبد الملك،يحذّره الإمام فى حديثه هذا من إعانه الظالمين و الركون إليهم،و هو حديث مثير جدّا..و قد جاء فيه:

«أو ليس بـدعائهم إيّـاك حين دعوك جعلوك قطبـا أداروا بك رحى مظالمهم،و جسـرا يعبرون عليك إلى بلاياهم، سـلّما إلى ظلالتهم،داعيا إلى عينهم سالكا سبيلهم،يدخلون بك الشك على العلماء و يقتادون بك قلوب الجهال إليهم،فما أقل ما أعطوك فى قـدر مـا أخـذوا منـك،و مـا أيسـر ما عمروا لك فى جنب ما خرّبوا عليك!فانظر لنفسك فإنّه لا ينظر إليها غيرك، و حاسـبها حساب رجل مسئول» (۲) .

و الحقّ أنّ هـذا المنطق البليغ المؤثر للإمـام عليه السّـلام لكـل عـالم من وعّاظ السـلاطين مرتبط بالظالمين راكن إليهم،يمكن أن يبصّره بمصيره المشؤوم عاقبته المخزيه.

و يـذكر ابـن عبـاس أن آيـه رَبِّ بِمٰا أَنْعَمْـتَ عَلَيَّ فَلَـنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِيـنَ مـن جمله الآيـات الـتى تؤكّـد على أن الركـون للمجرمين ذنب عظيم،و إعانه المؤمنين إطاعه لأمر اللّه سبحانه.

ص:۲۰۱

۱- ۱) -سوره هود،الآيه ۱۱۴.

۲- ۲) -تحف العقول،ص ۶۶.

قـالوا لبعض العلمـاء:إنّ فلانـا أصـبح كاتبـا للظـالم الفلاـنى،و لاـ يكتب له إلاّـ الـدخل و الخرج.و حياته و حياه عائلته مرهونه بما يحصل عليه من مال لقاء هذا العمل،و إلاّ فسيقع هو و أسرته فى فقر مدقع.

فكان جواب هذا العالم:أمّا سمع قول العبد الصالح«موسى» رَبِّ بِمٰا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (1) .

١- ١) -كان لنا بحثان مستوفيان فى مجال إعانه الظالمين فى ذيل الآيه(٢)من سوره المائده و ذيل الآيه(١١٢)من سوره هود،فلا بأس بمراجعتهما.

الآیات [سوره القصص (۲۸): الآیات ۱۸ الی ۲۲]

اشاره

فَأَصْبَحَ فِی اَلْمَدِینَهِ خٰائِفاً یَتَرَقَّبُ فَإِذَا اَلَّذِی اِسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ یَسْتَصْرِخُهُ قٰالَ لَهُ مُوسیٰ إِنَّکَ لَغَوِیٌّ مُبِینٌ (۱۸) فَلَمّٰا أَنْ أَرٰادَ أَنْ یَبْطِشَ بِالَّذِی هُوَ عَدُوٌّ لَهُمٰا قٰالَ یٰا مُوسیٰ أَ تُرِیدُ أَنْ تَقْتُلَنِی کَمٰا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِیدُ إِلاّٰ أَنْ تَکُونَ جَبّٰاراً فِی اَلْأَرْضِ وَ مٰا تُرِیدُ أَنْ تَکُونَ مِنَ اَلْمُصْلِحِینَ (۱۹) وَ جٰاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَی اَلْمَدِینَهِ یَسْعیٰ قٰالَ یٰا مُوسیٰ إِنَّ اَلْمَلَأَ یَأْتَمِرُونَ بِکَ لِیَقْتُلُوکَ فَاخْرُجْ إِنِّی لَکَ مِنَ اَلنّٰاصِحِینَ (۲۰) فَخَرَجَ مِنْهٰا خٰائِفاً یَتَرَقَّبُ قٰالَ رَبِّ نَجِّنِی مِنَ اَلْقَوْمِ اَلظّٰالِمِینَ (۲۱) وَ لَمّٰا تَوَجَّهَ تِلْقٰاءَ مَدْیَنَ قٰالَ عَسیٰ رَبِّی أَنْ یَهْدِیَنِی سَوٰاءَ اَلسَّبِیلِ (۲۲)

التّفسیر

اشاره

موسی یتوجّه إلی مدین خفیه:

نواجه فی هذه الآیات المقطع الرّابع من هذه القصّه ذات المحتوی الکبیر.

حیث أن مقتل الفرعونی فی مصر انتشر بسرعه،و القرائن المتعدده تدلّ علی

ص:۲۰۳

أن القاتل من بنى إسرائيل،و لعل اسم موسى عليه السّلام كان مذكورا من بين بنى إسرائيل المشتبه فيهم.

و بالطبع فإنّ هذا القتل لم يكن قتلا عاديا،بل كان يعد شراره لانفجار ثوره مقدمه للثوره..و لا شك أن جهاز الحكومه لا يستطيع تجاوز هذه الحاله ببساطه ليعرّض أرواح الفرعونيين للقتل على أيدى عبيدهم من بنى إسرائيل.

لذلك يقول القرآن فى بدايه هذا المقطع فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَهِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ (١) .

و هو على حال من الترقب و الحذر،فوجئ فى اليوم التالى بالرجل الإسرائيلى الذى آزره موسى بالأمس يتنازع مع قبطى آخر و طلب من موسى أن ينصره فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ (٢) .

و لكن موسى تعجب منه و استنكر فعله و قالَ لَهُ مُوسى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ إذ تحدث كل يوم نزاعا و مشاده مع الآخرين،و تخلق مشاكل ليس أوانها الآن،إذ نحن نتوقع أن تصيبنا تبعات ما جرى بالأمس،و أنت اليوم فى صراع جديد أيضا!! و لكنّه كان على كل حال مظلوما فى قبضه الظالمين(و سواء كان مقصرا فى المقدمات أم لا)فعلى موسى عليه السّلام أنّ يعينه و ينصره و لا يتركه وحيدا فى الميدان، فَلَمّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما ج صاح ذلك القبطى: قالَ يا مُوسى أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ و يبدو من عملك هذا أنّك لست إنسانا منصفا

ص: ٢٠٤

١- ١) -كلمه«يترقب»مأخوذه من«الترقب»،و معناه الانتظار،و موسى هنا فى انتظار نتائج هذه الحادثه،و محل الجمله إعرابا-خبر بعد خبر،و إن قيل أنها حال،إلا أن هذا القول ضعيف.

٢- ٢) -كلمه«يستصرخ»مشتقه من ماده«الاستصراخ»،و معناها الإستغاثه،و لكنها فى الأصل تعنى الصياح أو طلب الصياح من الآخر،و هذا عاده ملازم للإعانه...

إِنْ تُرِيدُ إِلاّ أَنْ تَكُونَ جَبّاراً فِی الْأَرْضِ وَ مٰا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ

(۱)

.

و هذه العباره تدلّ بوضوح علی أن موسی علیه السّلام کان فی نیّته الإصلاح من قبل، سواء فی قصر فرعون أو خارجه،و نقرأ فی بعض الرّوایات أن موسی علیه السّلام کانت له مشادات کلامیه مع فرعون فی هذا الصدد،لذا فإن القبطی یقول لموسی:أنت کل یوم ترید أن تقتل إنسانا،فأیّ إصلاح هذا الذی تریده أنت؟!فی حین أن موسی علیه السّلام لو کان یقتل هذا الجبار،لکان یخطو خطوه أخری فی طریق الإصلاح..

و علی کل حال فإنّ موسی التفت إلی أن ما حدث بالأمس قد انتشر خبره، و من أجل أن لا تتسع دائره المشاکل لموسی فإنّه أمسک عن قتل الفرعونی فی هذا الیوم.

و من جهه أخری فإنّ الأخبار وصلت إلی قصر فرعون فأحسّ فرعون و من معه فی القصر أن تکرار مثل هذه الحوادث ینذره بالخطر،فعقد جلسه شوری مع وزرائه و انتهی«مؤتمرهم»إلی أن یقتلوا موسی،و کان فی القصر رجل له علاقه بموسی فمضی إلیه و أخبره بالمؤامره..و کما یقول القرآن الکریم: وَ جٰاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَی الْمَدِينَهِ يَسْعىٰ قٰالَ يٰا مُوسىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِکَ لِيَقْتُلُوکَ فَاخْرُجْ إِنِّی لَکَ مِنَ النّاصِحِينَ .

و یبدو أنّ هذا الرجل هو«مؤمن آل فرعون»الذی کان یکتم إیمانه و یدعی «حزقیل»و کان من أسره فرعون،و کانت علاقته بفرعون وثیقه بحیث یشترک معه فی مثل هذه الجلسات.

و کان هذا الرجل متألما من جرائم فرعون،و ینتظر أن تقوم ثوره«إلهیه»

۱- ۱) -یعتقد جماعه من المفسّرین أن هذه الجمله قالها الإسرائیلی لموسی،لأنّه ظن أن موسی یرید قتله،و لکن القرائن الکثیره فی الآیه تنفی هذا الاحتمال!

ضده فيشترك معها.

و يبدو أنّه كان له أمل كبير بموسى عليه السّلام إذ كان يتوسم فى وجهه رجلا ربّانيا صالحا ثوريّا،و لذلك فحين أحسّ بأن الخطر محدق بموسى أوصل نفسه بسرعه إليه و أنقذه من مخالب الخطر،و سنرى بعدئذ أن هذا الرجل لم يكن فى هذا الموقف فحسب سندا و ظهيرا لموسى،بل كان يعدّ عينا لبنى إسرائيل فى قصر فرعون فى كثير من المواقف و الأحداث.

أمّا موسى عليه السّلام فقد تلقى الخبر من هذا الرجل بجدّيه و قبل نصحه و وصيته فى مغادره المدينه فَخَرَجَ مِنْهٰا خٰائِفاً يَتَرَقَّبُ .

و تضرع إلى اللّه بإخلاص و صفاء قلب ليدفع عنه شرّ القوم و قٰالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظّٰالِمِينَ .

فأنا أعلم يا ربّ أنّهم ظلمه و لا يرحمون،و قد نهضت-دفاعا عن المحرومين-بوجه الظالمين،و لم آل جهدا و وسعا فى ردع الأشرار عن الإضرار بالطيبين،فأسألك-يا ربّى العظيم-أن تدفع عنّى أذاهم و شرّهم.

ثمّ قرر موسى عليه السّلام أن يتوجه إلى مدينه«مدين»التى كانت تقع جنوب الشام و شمال الحجاز،و كانت بعيده عن سيطره مصر و الفراعنه..و لكنه شاب تربّى فى نعمه و رفاه و يتجه إلى سفر لم يسبق له فى عمره أن يسافر إليه،فلا زاد و لا متاع و لا صديق و لا راحله و لا دليل،و كان قلقا خائفا على نفسه،فلعل أصحاب فرعون سيدركونه قبل أن يصل إلى هدفه«مدين»و يأسرونه ثمّ يقتلونه..فلا عجب أن يظل مضطرب البال! أجل،إن على موسى عليه السّلام أن يجتاز مرحله صعبه جدّا،و أن يتخلص من الفخ الذى ضربه فرعون و جماعته حوله ليصطادوه،ليستقرّ أخيرا إلى جانب المستضعفين و يشاطرهم آلامهم بأحاسيسه و عواطفه،و أن يتهيأ لنهضه إلهيه

لصالحهم و ضد المستكبرين.

إلّا أنّه كان لـديه فی هـذا الطريق و عواطفه رأس مال كبير و كثير لا ينفـد أبـدا، و هو الإيمان باللّه و التوكل عليه،لذا لم يكترث بأی شیء و واصل السير.. وَ لَمّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسى رَبِّی أَنْ يَهْدِيَنِی سَواءَ السَّبِيلِ (١) .

ص :٢٠٧

١- ١) -«تلقاء»مصدر أو اسم مكان،و معناه هنا:الجهه و الصوب الذی قصده.

الآيات [سوره القصص (٢٨): الآيات ٢٣ الی ٢٥]

اشاره

وَ لَمّٰا وَرَدَ مٰاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ اَلنّٰاسِ يَسْقُونَ وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ اِمْرَأَتَيْنِ تَذُودٰانِ قٰالَ مٰا خَطْبُكُمٰا قٰالَتٰا لاٰ نَسْقِی حَتّٰی يُصْدِرَ اَلرِّعٰاءُ وَ أَبُونٰا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقیٰ لَهُمٰا ثُمَّ تَوَلّٰی إِلَی اَلظِّلِّ فَقٰالَ رَبِّ إِنِّی لِمٰا أَنْزَلْتَ إِلَیَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢۴) فَجٰاءَتْهُ إِحْدٰاهُمٰا تَمْشِی عَلَی اِسْتِحْيٰاءٍ قٰالَتْ إِنَّ أَبِی يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مٰا سَقَيْتَ لَنٰا فَلَمّٰا جٰاءَهُ وَ قَصَّ عَلَيْهِ اَلْقَصَصَ قٰالَ لاٰ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ اَلْقَوْمِ اَلظّٰالِمِينَ (٢۵)

التّفسير

اشاره

عمل صالح يفتح لموسى أبواب الخير:

نواجه هنا المقطع الخامس من هذه القصّه،و هی قضيّه ورود موسی عليه السّلام إلی مدينه مدين.

هذا الشاب الطاهر الذی لا يغش أحدا أمضی عدّه أيّام فی الطريق،الطريق التی لم يتعود المسير فيها من قبل أبدا،و لم يكن له بها معرفه،و كما يقول بعضهم:

اضطر موسی إلی أن يمشی فی هذا الطريق حافيا،و قيل:إنّه قطع الطريق فی

ثمانیه أیّام،حتی لقی ما لقی من النصب و التعب،و ورمت قدماه من کثره المشی.

و کان یقتات من نبات الأرض و أوراق الشجر دفعا لجوعه،و لیس له أمام مشاکل الطریق و أتعابه إلاّ قلبه المطمئن بلطف اللّه الذی خلّصه من مخالب الفراعنه.

و بدأت معالم«مدین»تلوح له من بعید شیئا فشیئا،و أخذ قلبه یهدأ و یأنس لاقترابه من المدینه،و لما اقترب ثمّ عرف بسرعه أنّهم أصحاب أغنام و أنعام یجتمعون حول الآبار لیسقوا أنعامهم و أغنامهم.

یقول القرآن فی هذا الصدد: وَ لَمّا وَرَدَ ماءَ مَدْیَنَ وَجَدَ عَلَیْهِ أُمَّهً مِنَ النّاسِ یَسْقُونَ وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَیْنِ تَذُودانِ (۱) .

فحرکه هذا المشهد...حفنه من الشبان الغلاظ یملأون الماء و یسقون الأغنام،و لا یفسحون المجال لأحد حتی یفرغوا من أمرهم..بینما هناک امرأتان تجلسان فی زاویه بعیده عنهم،و علیهم آثار العفّه و الشرف،جاء إلیهما موسی علیه السّلام لیسألهما عن سبب جلوسهما هناک و قالَ ما خَطْبُکُما (۲) .

و لم لا تتقدمان و تسقیان الأغنام؟! لم یرق لموسی علیه السّلام أن یری هذا الظلم،و عدم العداله و عدم رعایه المظلومین،و هو یرید أن یدخل مدینه مدین،فلم یتحمل ذلک کله،فهو المدافع عن المحرومین و من أجلهم ضرب قصر فرعون و نعمته عرض الحائط و خرج من وطنه،فهو لا یستطیع أن یترک طریقته و سیرته و أن یسکت أمام الجائرین الذین لا ینصفون المظلوم!..

فقالت البنتان:إنّهما تنتظران تفرق الناس و أن یسقی هؤلاء الرعاه اغنامهم:

۱- ۱) -«تذودان»مشتقه من«ذود»علی زنه«زرد»و معناها المنع،فهما إذا کانتا تذودان أغنامهما لئلا تختلط بالأغنام الأخری.

۲- ۲) -ما خطبکما:أی ما شأنکما و ما شغلکما هنا؟!

قَالَتٰا لاٰ نَسْقِي حَتّٰى يُصْدِرَ الرِّعٰاءُ

(۱)

.

و من أجل أن لا يسأل موسى:أليس لكما أب؟و لماذا رضى بإرسال بناته للسقى مكانه،أضافتا مكملتين كلامهما وَ أَبُونٰا شَيْخٌ كَبِيرٌ فلا هو يستطيع أن يسقى الأغنام،و ليس عندنا أخ يعينه على الأمر فلا حيله لنا إلاّ أن نؤدى نحن هذا الدور.

فتأثر موسى عليه السّلام من سماعه حديثهما بشده.فأى أناس هؤلاء لا ينصفون المظلوم،و لا هم لهم غير أنفسهم.

فتقدم و أخذ الدلو و ألقاها فى البئر..يقال:إن هذه الدلو كان يجتمع عليها عدّه نفر ليخرجوها بعد امتلائها من الماء،إلاّ أن موسى عليه السّلام استخرجها بقوته و شكيمته و همّته بنفسه دون أن يعينه أحد فَسَقىٰ لَهُمٰا أغنامهما.

و يقال:إنّ موسى عليه السّلام حين اقترب من البئر لام الرعاء،قال:أى أناس أنتم لا همّ لكم إلاّ أنفسكم!و هاتان البنتان جالستان؟!ففسحوا له المجال و قالوا له:

هلمّ و املأ الدلو،و كانوا يعلمون أن هذه الدلو حين تمتلئ لا يستخرجها إلاّ عشره أنفار من البئر.

و لكن موسى عليه السّلام بالرغم من تعب السير فى الطريق و الجوع ملأ الدلو و سحبها بنفسه و سقى أغنام المرأتان جميعها.. ثُمَّ تَوَلّٰى إِلَى الظِّلِّ فَقٰالَ رَبِّ إِنِّي لِمٰا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ .

أجل..إنّه متعب و جائع،و لا أحد يعرفه فى هذه المدينه،فهو غريب،و فى الوقت ذاته كان مؤدبا و إذا دعا اللّه فلا يقول:ربّ إنّى أريد كذا و كذا،بل يقول:

رَبِّ إِنِّي لِمٰا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ

أى إنّه يكشف عن حاجته فحسب، و يترك الباقى إلى لطف اللّه سبحانه.

لكن هلمّ إلى العمل الصالح،فكم له من أثر محمود!و كم له من بركات

۱- ۱) -«يصدر»مأخوذ من ماده«صدر»و معناه الخروج من الماء،«و الرعاء»جمع راع،و هو سائس الغنم.

عجیبه!خطوه نحو اللّه ملء دلو من أجل إنصاف المظلومین،فتح لموسی فصلا جدیدا،و هیأ له.من عالم عجیب من البرکات المادیه و المعنویه..و وجد ضالته التی ینبغی أن یبحث عنها سنین طوالا.

و بدایه هذا الفصل عند ما جاءته احدی البنتین تخطو بخطوات ملؤها الحیاء و العفه و یظهر منها أنّها تستحی من الکلام مع شاب غریب:رجوعهما إلیه بهذه السرعه علی غیر ما اعتادتا علیه،فقصتا علیه الخبر،فأرسل خلفه فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِی عَلَی اسْتِحْیاءٍ فلم تزد علی أن قالَتْ إِنَّ أَبِی یَدْعُوکَ لِیَجْزِیَکَ أَجْرَ ما سَقَیْتَ لَنا .

فلمع فی قلبه إشراق من الأمل،و کأنّه أحس بأنّ واقعه مهمّه تنتظره و سیواجه رجلا کبیرا!..رجلا عارفا بالحق و غیر مستعد أن یترک أی عمل حتی لو کان ملء الدلو أن یجزیه علیه،هذا الرجل ینبغی أن یکون إنسانا نموذجیا و رجلا سماویا و إلهیّا..ربّاه..ما أروعها من فرصه.

أجل،لم یکن ذلک الشخص الکبیر سوی«شعیب»النّبی الذی کان یدعو الناس لسنین طوال نحو اللّه،کان مثلا لمن یعرف الحق و یطلب الحق،و الیوم إذ تعود بنتاه بسرعه یبحث عن السبب،و حین یعرف الأمر یقرر أن یؤدی ما علیه من الحق لهذا الشاب کائنا من کان.

تحرک موسی علیه السّلام و وصل منزل شعیب،و طبقا لبعض الروایات،فإنّ البنت کانت تسیر أمام موسی لتدله علی الطریق،إلاّ أن الهواء کان یحرّک ثیابها و ربّما انکشف ثوبها عنها،و لکن موسی لما عنده من عفه و حیاء طلب منها أن تمشی خلفه و أن یسیر أمامها،فإذا ما وصلا إلی مفترق طرق تدله و تخبره من أی طریق یمضی إلی دار أبیها شعیب: (1)

دخل موسی علیه السّلام منزل شعیب علیه السّلام،المنزل الذی یسطع منه نور النبوّه..و تشع

1- 1) -انظر:أبو الفتوح الرازی-ذیل الآیات.

فیه الروحانیه من کل مکان..و إذا شیخ و قور یجلس ناحیه من المنزل یرحب بقدوم موسی علیه السّلام،و یسأله:

من أین جئت؟!و ما عملک؟!و ما تصنع فی هذه المدینه.و ما مرادک و هدفک هنا؟! و لم أراک وحیدا؟! و أسئله من هذا القبیل..

یقول القرآن فی هذا الصدد: فَلَمّٰا جٰاءَهُ وَ قَصَّ عَلَیْهِ الْقَصَصَ قٰالَ لاٰ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظّٰالِمِینَ فأرضنا بعیده عن سیطرتهم و سطوتهم و لا تصل أیدیهم إلینا،فلا تقلق و لا تشعر نفسک الوحشه،فأنت فی مکان آمن و لا تفکر بالغربه،فکل شیء بلطف اللّه سیتیسر لک!..

فالتفت موسی إلی أنّه وجد استاذا عظیما..تنبع من جوانبه عیون العلم و المعرفه و التقوی،و تغمر وجوده الروحانیّه..و یمکن أن یروی ظمأه منه.

کما أحسّ شعیب أنّه عثر علی تلمیذ جدیر و لائق،و فیه استعداد لأن یتلقی علومه و ینقل إلیه تجارب العمر! أجل..کما أن موسی شعر باللذه حین وجد أستاذا عظیما..کذلک أحس شعیب بالفرح و السرور حین عثر علی تلمیذ مثل موسی.

مسألتان

اشاره

۱-أین کانت مدین؟!

«مدین»:اسم مدینه کان یقطنها«شعیب»و قبیلته،هذه المدینه کانت تقع فی شرق خلیج العقبه[و شمال الحجاز و جنوب الشامات]

و أهلها من أبناء إسماعیل

«الذبیح»ابن إبراهیم الخلیل علیهما السّلام،و کانت لهم تجاره مع مصر و فلسطین و لبنان.

أمّا الیوم فیطلق علی«مدین»اسم«معان».

کما أن بعضا من المفسّرین یعتقدون أن مدین اسم لجماعه کانت تعیش ما بین خلیج العقبه و جبل سینا المعروف بطور سیناء،و جاء اسمها فی التوراه ب «مدیان»أیضا (۱) .

کما یری البعض:إنّ أساس تسمیه هذه المدینه«بمدین»هو لأنّ أحد أبناء إبراهیم الخلیل و اسمه«مدین»کان یعیش فی هذه المدینه (۲) .

و فی الوقت الحاضر یبدو فی الخرائط الجغرافیه للأردن أن إحدی مدنها فی الجنوب الغربی منها،و اسمها«معان»تحمل الأوصاف ذاتها التی کانت فی مدین..

و تنطبق علیها تماما.

۲-دروس کثیره توحی بالعبر:

فی هذا القسم من قصّه موسی علیه السّلام دروس کثیره توحی بالعبر:

أ-إنّ أنبیاء اللّه هم حماه المظلومین دائما،فموسی سواء کان فی مصر أو کان فی مدین کان یسیئه أن یری ظلما و تجاوزا علی حقوق الآخرین،و کان ینهض لنصره المظلوم..و لم لا یکون کذلک،و أحد أهداف بعثه الأنبیاء نصره المظلوم.

ب-أداء عمل صغیر للّه له برکات کثیره! لم یفعل موسی سوی أنّه جلب دلوا من الماء و سقی الأغنام للبنتین،و لم یکن له هدف سوی مرضاه اللّه الخالق سبحانه! و لکن کم کان لهذا العمل الصغیر من خیر و برکه؟!لأنّه صار سببا لأن یصل

۱- ۱) -راجع أعلام القرآن،ص ۵۷۲.

۲- ۲) -راجع روح المعانی،ج ۲۰،ص ۵۱.

إلى منزل شعيب نبى اللّه،و أن يتخلّص من الغربه،و أن يجد مأوى يطمئن إليه، و صار من نصيبه الأكل الهنيء و الثياب و الزوجه الصالحه،و أهم من كل ذلك..إنّه وصل إلى شعيب،ذلك الشيخ الكبير الذى يتمتع بضمير حى و له دين سماوى، فعاش معه عشر سنين و أصبح مهيأ لقياده الأمه فى ذلك الوقت..

ج-إنّ رجال اللّه لا يتركون أى عمل سدى-و خاصّه ما يعمله المخلصون- دون أن يؤدوا أجره..و لهذه السبب فإنّ شعيبا حين بلغه ما قدمه موسى عليه السّلام من عمل-و هو شاب لم يكن معروفا لم يكن معروفا هناك-لم يقرّ حتى أرسل خلفه ليعطيه أجره.

د-و هذه المسأله تثير الانتباه،و هى أن موسى كان يذكر اللّه دائما،و يطلب منه العون فى كل أمر،يوكل حل مشاكله إليه.

فحين قتل القبطى و عرف أنّه«ترك الأولى»استغفر ربّه فورا و قَالَ رَبِّ إِنِّی ظَلَمْتُ نَفْسِی فَاغْفِرْ لِی .

و حين خرج من مصر سأل اللّه أن يحفظه و قَالَ رَبِّ نَجِّنِی مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِینَ .

و حين وصل أرض مدين قَالَ عَسیٰ رَبِّی أَنْ یَهْدِیَنِی سَوٰاءَ السَّبِیلِ! .

و حين سقى أغنام«شعيب»و تولى إلى الظل دعا ربّه فَقٰالَ رَبِّ إِنِّی لِمٰا أَنْزَلْتَ إِلَیَّ مِنْ خَیْرٍ فَقِیرٌ .

و هذا الدعاء الأخير-خاصه-الذى دعا به فى وقت تحوط فيه الأزمات و هو فى أشدّ الحاجات،دعا به و هو فى غايه التأدب و الخشوع،و لم يسأل اللّه أن يحقق له ما يحتاج،بل سأل المزيد و قال: رَبِّ إِنِّی لِمٰا أَنْزَلْتَ إِلَیَّ مِنْ خَیْرٍ فَقِیرٌ .

ه-لا ينبغى التصور أن موسى عليه السّلام إنّما كان يذكر اللّه فى الشدائد فحسب،فهو لم ينس ذكر اللّه حتى حين كان فى نعمه و رفاهيه من العيش،إذ كان يعيش فى

قصر فرعون-لذلک ورد فی الرّوایات..

«درج موسی کان یوما عند فرعون فعطس موسی فقال:الحمد للّه ربّ العالمین.فأنکر فرعون ذلک علیه و لطمه و قال:

ما هذا الذی تقول؟فوثب موسی علی لحیته-و کان طویل اللحیه-فهلبها أی قلعها،فآلمه ألما شدیدا،فهم فرعون بقتله فقالت له امرأته،هذا غلام حدث لا یدری ما یقول و قد لطمته بلطمه إیّاک.فقال فرعون:بلی یدری...»إلخ (۱) .

۱- ۱) -نور الثقلین،ج ۴،ص ۱۱۷.

الآیات [سوره القصص (۲۸): الآیات ۲۶ الی ۲۸]

اشاره

قٰالَتْ إِحْدٰاهُمٰا یٰا أَبَتِ اِسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَیْرَ مَنِ اِسْتَأْجَرْتَ اَلْقَوِیُّ اَلْأَمِینُ (۲۶) قٰالَ إِنِّی أُرِیدُ أَنْ أُنْکِحَکَ إِحْدَی اِبْنَتَیَّ هٰاتَیْنِ عَلیٰ أَنْ تَأْجُرَنِی ثَمٰانِیَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِکَ وَ مٰا أُرِیدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَیْکَ سَتَجِدُنِی إِنْ شٰاءَ اَللّٰهُ مِنَ اَلصّٰالِحِینَ (۲۷) قٰالَ ذٰلِکَ بَیْنِی وَ بَیْنَکَ أَیَّمَا اَلْأَجَلَیْنِ قَضَیْتُ فَلاٰ عُدْوٰانَ عَلَیَّ وَ اَللّٰهُ عَلیٰ مٰا نَقُولُ وَکِیلٌ (۲۸)

التّفسیر

اشاره

موسی فی دار شعیب:

هذا هو المقطع السادس من قصّه حیاه موسی علیه السّلام المثیره،جاء موسی إلی منزل شعیب،منزل قرویّ بسیط،منزل نظیف و ملیء بالروحیّه العالیه،و بعد أن قصّ علیه قصّته،بادرت إحدی بنتی شعیب بالقول-و بعباره موجزه-:إنّنی أقترح أن تستأجره لحفظ الأغنام و رعایتها:و قالت یٰا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَیْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِیُّ الْأَمِینُ .

هذه البنت التی تربّت فی حجر النّبی الکبیر،ینبغی أن تتحدث بمثل هذا

ص :۲۱۶

الحديث الوجيز الكريم،و أن تؤدى الكلام حقّه بأقلّ العبارات.

ترى من أين عرفت هذه البنت أنّ هذا الشاب قوىّ و أمين أيضا؟مع أنّها لم تره الاّ لأوّل مرّه على البئر،و لم تتّضح لها سوابق حياته! و الجواب على هذا السؤال واضح و جلىّ..إذ لاحظت قوته و هو ينحىّ الرعاء عن البئر و يملأ القربه الثقيله لوحده و يطالب بحق المظلوم،و أمّا أمانته و صدقه فقد اتّضحا لها منذ أن سارت أمامه إلى بيت أبيها،فطلب منها أن تتأخر و يتقدمها،لئلا تضرب الريح ثيابها!.

أضف إلى ذلك..من خلال نقله قصته لشعيب فقد اتّضحت قوته فى دفعه القبطى عن الإسرائيلى و قتله إيّاه بضربه واحده..و أمانته و صدقه..فى عدم مساومته الجبابره.

فرضى شعيب عليه السّلام باقتراح ابنته،و توجه إلى موسى و قٰالَ إِنِّی أُرِیدُ أَنْ أُنْکِحَکَ إِحْدَی ابْنَتَیَّ هٰاتَیْنِ عَلیٰ أَنْ تَأْجُرَنِی ثَمٰانِیَ حِجَجٍ ثمّ أضاف قائلا: فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِکَ (1) .

و على كل حال،فلا أريد إيذاءك وَ مٰا أُرِیدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَیْکَ سَتَجِدُنِی إِنْ شٰاءَ اللّٰهُ مِنَ الصّٰالِحِینَ .

فأنّا ألتزم بالعهد و الميثاق و أفى بما نتعاقد عليه،و لا أشدّد عليك فى الأمور، و أتعامل معك معامله حسنه و صالحه..إن شاء اللّه.

و من خلال هذا الاقتراح هناك أسئله كثيره حول الزواج من ابنه شعيب و المهر و سائر الخصوصيات،و سنبحث عنها فى البحوث القادمه إن شاء اللّه.

و استجابه لهذا القرار و العقد الذى أنشأه شعيب مع موسى..وافق موسى

١- ١) -هذا المضمون نفسه ورد فى روايه منقوله فى تفسير على بن إبراهيم،فقال لها شعيب:أمّا قوته فقد عرفتنيه إنّه يستقى الدلو وحده،فبم عرفت أمانته؟فقالت:«إنّه لمّا قال لى تأخرى عنّى و دلينى على الطريق فإنّا من قوم لا ينظرون فى أدبار النساء عرفت أنّه ليس من الذين ينظرون أعجاز النساء فهذه أمانته».

و قَالَ ذٰلِکَ بَیْنِی وَ بَیْنَکَ ..

ثمّ أردف مضیفا بالقول: أَیَّمَا الْأَجَلَیْنِ قَضَیْتُ فَلاٰ عُدْوٰانَ عَلَیَّ أی سواء قضیت عشر سنین أو ثمانی سنین«حجج»فلا عدوان علی..

و من أجل استحکام العقد بینهما جعل موسی علیه السّلام اللّه کفیلا و قال: وَ اللّٰهُ عَلیٰ مٰا نَقُولُ وَکِیلٌ! .

و بهذه البساطه أصبح موسی صهرا لشعیب علی ابنته.

بحوث

اشاره

۱-شرطان أساسیان للإداره الصحیحه

فی العباره القصیره التی وردت فی الآیات المتقدمه علی لسان بنت شعیب فی شأن استئجار موسی،کان من أهم الشروط و أکثرها أصاله شرطان لخّصا فی «القوّه»و«الأمانه».

و من البدیهی أنّ القوّه المذکوره-آنفا-لیس المراد منها قوّه الجسم فحسب، بل القدره علی تحمّل المسؤولیه أیضا.

فالطبیب«القوی الأمین»هو الطبیب الذی له معرفه جیده و کافیه فی عمله، و له تسلّط علیه أیضا.

و المدیر القوی هو الذی یعرف«أصول الإداره»و یعرف الأهداف المطلوبه..

و له تسلط فی وضع الخطط و«البرامج»،و له سهم وافر فی الابتکار و تنظیم الأعمال..و یعبئ القوی فی سبیل الوصول للهدف المعین.

و فی الوقت ذاته یکون مشفقا و ناصحا و أمینا و صادقا فی العمل.

و الأشخاص الذین یقنعون فی تحمل المسؤولیه وجود الأمانه و الطهاره فحسب، هم مخطئون بمقدار خطأ من یعتمد علی سمه التخصص و العلم فحسب.

فالمتخصصون الخونه و العلماء المنحرفون يضربون ضربتهم كما يضربها المخلصون الذين لا حظ لهم من الاطلاع و المهاره فی العمل.

و إذا أردنا أن نخرّب دوله ما فينبغی أن نوكل الأمور إلی إحدی هاتين الطائفتين..إلی مدراء خائنين ل«الأمانه»،إلی المخلصين الذين لاحظ لهم من العلم و الإداره و النتيجه واحده.

إنّ منطق الإسلام هو أن يوكل كل عمل إلی شخص قوی أمين مقتدر،ليصل نظام المجتمع إلی الكمال،و إذا ما تأمّلنا فی سبب زوال الحكومات فی طول التأريخ،و فكّرنا فی الأمر،وجدنا العامل الأصلی هو إيكال الأمر إلی إحدی هاتين الطائفتين اللتين تكلمنا عنهما آنفا.

و من الطريف أنّ منهج الإسلام فی جميع الأمور أنّه يقرن«العلم مع التقوی» جنبا إلی جنب.

فمرجع التقليد لا بدّ أن يكون«مجتهدا عادلا»و القاضی و كذلك القائد يجب أن يكون«مجتهدا عادلا»..و بالطبع فإن شروطا أخری ينبغی توفرها أيضا، و لكن أساس هذه الشروط جميعا شرطان هما«العلم المقترن بالتقوی و العدل».

٢-اسئله عن زواج موسی من بنت شعيب!...

ذكرنا-آنفا-أنّ الآيات المتقدمه تحمل بين ثنايها أسئله متعدده،و علينا أن نجيب عليها و لو باختصار:

أ-هل يجوز من الناحيه الشرعيه و الفقهيه،أن تكون الزوجه غير معلومه، بل يقال عند إجراء صيغه العقد«أزوّجك إحدی البنتين مثلا»؟...

و الجواب:ليس من المعلوم أن العباره السابقه أُنْكِحَكَ إِحْدَی ابْنَتَيَّ هٰاتَيْنِ ذكرت عند إجراء صيغه العقد..بل الظاهر أنّه جری كلام و مقدمات للعقد و الزواج،و بعد موافقه موسی علی الزواج،ثمّ تجری صيغه العقد علی واحده

بعينها.

ب-هل يمكن أن يكون المهر مجهولا-أو مرددا بين النقصان و التمام؟! و الجواب:يفهم من لغه الآيه أن المهر الواقعى كان ثمانى سنوات خدمه..أمّا السنتان الأخريان فموكلتان لرغبه موسى،إن شاء أدّاهما،و إلاّ فلا! ج-و هل يجوز أساسا أن يكون المهر«خدمه و عملا»؟! و كيف يمكن الزواج من امرأه على هذا المهر و الدخول بها،و المهر بعد لم يتمّ،و لا يمكن إتمامه فى مكان واحد! و الجواب:إنّه لا دليل على عدم جواز مثل هذا المهر،بل إطلاقات الأدله على المهر فى شريعتنا-أيضا-تشمل كل شىء ذى قيمه! كما أنّه لا يلزم أداء المهر فى مكان واحد،بل يكفى أن يكون فى ذمّه الرجل، و المرأه مالكه له.

و أصل السلامه و الاستصحاب يقضيان أنّ هذا الرجل يحيا مدّه و يستطيع أداء هذا المهر.

د-أساسا كيف يمكن جعل الخدمه للأب مهرا للبنت؟!فهل المرأه بضاعه تباع فى مقابل الخدمه (۱) ؟!..

و الجواب:لا شكّ أن شعيبا كان يحرز رضا ابنته على مثل هذا المهر،و لديه وكاله منها على هذا العقد،و بتعبير آخر:إن المالك الأصلى لما فى ذمّه موسى، هى زوجته«بنت شعيب».

و لكن..حيث أنّهم كانوا يعيشون فى بيت واحد و فى غايه الصفاء و النقاء، و لم تكن بينهم فرقه و انفصال«كما هى الحال بالنسبه إلى كثير من الأسر القرويه

---

۱ - ۱) -قال المحقق الحلى فى الشرائع«يصح العقد على منفعه كتعليم الصنعه و السوره من القرآن و كل عمل محلل، و على إجاره الزوج نفسه مدّه معينه»و يضيف الفقيه الكبير الشيخ محمّد حسن صاحب الجواهر بعد ذكر تلك العباره قوله:«وفاقا للمشهور»(جواهر الكلام،ج ۳۱،ص ۴).

القديمه التی تبدو حیاتها منسجمه تمام الانسجام»فلم تکن هذه المسأله- مسأله أداء الدین-محل بحث و لا کیف یوفّی المهر.

المهم هنا أن المالک للمهر البنت وحدها لا الأب،و الخدمات التی قدمها موسی کانت فی هذا السبیل أیضا.

ه-کان مهر بنت شعیب مهرا ثقیلا نسبیا-لأنّنا إذا أردنا أن نلاحظ أجره العامل العادی خلال شهر ثمّ خلال سنه،و بعدئذ نضاعف ذلک الأجر إلی ثمانی مرات فسیکون مبلغا کثیرا جدّا.

الجواب:أولا لم یکن هذا الزواج زواجا بسیطا،بل کان مقدمه لبقاء موسی عند«شعیب»متبعا شاکلته و مذهبه،و مقدمه لأن یدرس موسی علیه السّلام فی جامعه علمیه کبری خلال هذه الفتره الطویله،و اللّه العالم کم تعلم موسی من«شیخ مدین»فی هذه المدّه من امور؟! ثمّ بعد ذلک کله،لو قلنا:إنّ هذه المده الطویله کان یقضیها موسی فی خدمه شعیب،ففی مقابل ذلک سیؤمن له شعیب مصرفه و نفقات زوجه من هذا الطریق أیضا..فإذا جردنا مصرف موسی و نفقاته من أجره عمله لم یکن المهر غالیا-بل سیبقی مبلغ زهید و خفیف!..

۳-یستفاد ضمنا من هذه القصّه أن ما یشیع فی عصرنا من أن اقتراح الأب علی إختیار البعل لابنته أمر مصیب،لا مانع منه و لیس معیبا،فإذا وجد الأب شخصا لائقا و جدیرا،فله الحق أن یقترح علیه الزواج من ابنته،کما فعل شعیب علیه السّلام مع موسی فی شأن ابنته علیه السّلام و الزواج منها.

۴-اسما ابنتی شعیب:واحده«صفوره»أو«صفورا»و هی التی تزوجت من موسی علیه السّلام،أمّا الثّانیه فاسمها«لیا» (۱) .

ص: ۲۲۱

۱- ۱) -مجمع البیان،ج ۷،ص ۲۴۹.

الآيات [سوره القصص (۲۸): الآیات ۲۹ الی ۳۵]

اشاره

فَلَمّا قَضیٰ مُوسَی اَلْأَجَلَ وَ سارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ اَلطُّورِ ناراً قالَ لِأَهْلِهِ اُمْکُثُوا إِنِّی آنَسْتُ ناراً لَعَلِّی آتِیکُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَهٍ مِنَ اَلنّارِ لَعَلَّکُمْ تَصْطَلُونَ (۲۹) فَلَمّا أَتاها نُودِیَ مِنْ شاطِئِ اَلْوادِ اَلْأَیْمَنِ فِی اَلْبُقْعَهِ اَلْمُبارَکَهِ مِنَ اَلشَّجَرَهِ أَنْ یا مُوسیٰ إِنِّی أَنَا اَللّهُ رَبُّ اَلْعالَمِینَ (۳۰) وَ أَنْ أَلْقِ عَصاکَ فَلَمّا رَآها تَهْتَزُّ کَأَنَّها جَانٌّ وَلّی مُدْبِراً وَ لَمْ یُعَقِّبْ یا مُوسیٰ أَقْبِلْ وَ لا تَخَفْ إِنَّکَ مِنَ اَلْآمِنِینَ (۳۱) اُسْلُکْ یَدَکَ فِی جَیْبِکَ تَخْرُجْ بَیْضاءَ مِنْ غَیْرِ سُوءٍ وَ اُضْمُمْ إِلَیْکَ جَناحَکَ مِنَ اَلرَّهْبِ فَذانِکَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّکَ إِلیٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ إِنَّهُمْ کانُوا قَوْماً فاسِقِینَ (۳۲) قالَ رَبِّ إِنِّی قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ یَقْتُلُونِ (۳۳) وَ أَخِی هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّی لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِی رِدْءاً یُصَدِّقُنِی إِنِّی أَخافُ أَنْ یُکَذِّبُونِ (۳۴) قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَکَ بِأَخِیکَ وَ نَجْعَلُ لَکُما سُلْطاناً فَلا یَصِلُونَ إِلَیْکُما بِآیاتِنا أَنْتُما وَ مَنِ اِتَّبَعَکُمَا اَلْغالِبُونَ (۳۵)

ص: ۲۲۲

اشاره

الشّراره الأولى للوحی:

نصل الآن-إلی المقطع السابع-من هذه القصّه..

لا یعلم أحد-بدقّه-ما جری علی موسی فی سنواته العشر مع شعیب [(۱)](#footnote-1) ، و لا شکّ أن هذه السنوات العشر کانت من أفضل سنوات العمر لموسی علیه السّلام سنوات عذبه هادئه،سنوات هیأته للمسؤولیه الکبری.

فی الحقیقه کان من الضروری أن یقطع موسی علیه السّلام مرحله عشر سنین من عمره فی الغربه إلی جانب النّبی العظیم شعیب،و أن یکون راعیا لغنمه؛لیغسل نفسه ممّا تطبّعت علیه من قبل أو ما قد أثرت علیه حیاه القصر من خلق و سجیه.

کان علی موسی علیه السّلام أن یعیش إلی جوار سکنه الأکواخ فتره لیعرف همومهم و آلامهم،و أن یتهیأ لمواجهه سکنه القصور.

و من جهه أخری کان موسی بحاجه الی زمن طویل لیفکر فی أسرار الخلق و عالم الوجود و بناء شخصیته.فأیّ مکان أفضل له من صحراء مدین،و أفضل من بیت شعیب؟!.

إنّ مسئولیه نبی من أولی العزم،لیست بسیطه حتی یمکن لکل فرد أن یتحملها،بل یمکن أن یقال:إنّ مسئولیه موسی علیه السّلام-بعد مسئولیه النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله-من بین الأنبیاء جمیعا،کانت أثقل و أهم،بالنظر لمواجهته الجبابره علی الأرض،و تخلیص أمّه من أسرهم،و غسل آثار الأسر الثقافی من أدمغتهم.

نقرأ فی«التوراه»و فی بعض الروایات الإسلامیه-أیضا-أنّ شعیبا قرر تکریما لأتعاب موسی و جهوده معه أن یهب له ما تلده الأغنام فی علائم خاصه، فاتفق أن ولدت جمیع الأغنام أو أغلبها-فی السنه الذی ودّع فیها موسی شعیبا-

---

۱ – ۱) -یظهر من الرّوایات الإسلامیه أنّ موسی علیه السّلام عمل مع شعیب عشر سنوات،و هذا الموضوع موجود فی کتاب وسائل الشیعه،ج ۱۵،الصفحه ۳۴(کتاب النکاح..أبواب المهور.الباب ۲۲-الحدیث الرابع).

أولادها بتلك العلائم التى قررها شعيب [(1)] ،و قدمها شعيب مع كامل الرغبه إلى موسى.

و من البديهى أنّ موسى عليه السّلام لا يقنع فى قضاء جميع عمره برعى الغنم،و إن كان وجود«شعيب»الى جانبه يعدّ غنيمه كبرى.

فعليه أن ينهض إلى نصره قومه،و أن يخلصهم من قيود الأسر،و ينقذهم من حاله الجهل و عدم المعرفه.

و عليه أن ينهى وجود الظلمه و حكام الجور فى مصر،و أن يحطّم الأصنام، و أن يجد المظلومون العزه باللّه معه،هذا الإحساس كان يدفع موسى للسفر إلى قومه.

و أخيرا جمع موسى أثاثه و متاعه و أغنامه و تهيأ للسفر.

و يستفاد ضمنا من التعبير ب«الأهل»التى وردت فى آيات كثيره فى القرآن أن موسى عليه السّلام كان عنده هناك غير زوجته ولد أو أولاد،كما تؤيد الرّوايات الإسلاميه هذا المضمون،و كما صرّح بهذا المعنى فى«التوراه»فى سفر الخروج، و إضافه إلى كل ذلك فإنّ زوجته كانت حاملا أيضا.

و عند عودته من مدين إلى وطنه أضاع الطريق،و لئلا يقع أسيرا بيد الظلمه من أهل الشام اختار طريقا غير مطروق.

و على كل حال فإنّ القرآن يقول فى أوّل من آيه هذا المقطع: فَلَمّٰا قَضىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَ سٰارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جٰانِبِ الطُّورِ نٰاراً ثمّ التفت إلى أهله و قٰالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نٰاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهٰا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النّٰارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ أى(تتدفؤون).

«آنست»:مشتقّه من ماده«إيناس»و معناها المشاهده و الرؤيه المقترنه بالهدوء و الراحه.

١- ١) -راجع أعلام القرآن،ص ۴٠٩.

«جذوه»هی القطعه من النّار،و قال بعضهم:بل هی القطعه الکبیره من الحطب.

و یستفاد من قوله لَعَلِّی آتِیکُمْ مِنْهٰا بِخَبَرٍ أنّه کان أضاع الطریق،کما یستفاد من جمله لَعَلَّکُمْ تَصْطَلُونَ أن الوقت کان لیلا باردا.

و لم یرد فی الآیه کلام عن حاله زوجه موسی،و لکن المشهور أنّها کانت حاملا-کما فی کثیر من التفاسیر و الرّوایات-و کانت تلک اللحظه قد أحست بالطلق و ألم الولاده..و کان موسی قلقا لحالها أیضا.

فَلَمّٰا أَتٰاهٰا

أی أتی النّار التی آنسها و رآها،وجدها نارا لا کمثل النیران الأخر فهی غیر مقترنه بالحراره و الحریق،بل هی قطعه من النور و الصفاء، فتعجب موسی من ذلک نُودِیَ مِنْ شٰاطِئِ الْوٰادِ الْأَیْمَنِ فِی الْبُقْعَهِ الْمُبٰارَکَهِ مِنَ الشَّجَرَهِ أَنْ یٰا مُوسیٰ إِنِّی أَنَا اللّٰهُ رَبُّ الْعٰالَمِینَ .

«الشاطئ»معناه الساحل.

و«الوادی»معناه الطریق بین الجبلین،أو ممر السیول.

و«الأیمن»مشتق من«الیمین»خلاف الیسار،و هو صفه للوادی.

و«البقعه»القطعه من الأرض المعروفه الأطراف.

و لا شک أن اللّه سبحانه قادر علی أن یجعل الأمواج الصوتیه فی کل شیء، فأوجد فی الوادی شجره لیکلّم موسی..و موسی بشر له جسم و أذنان و لا بدّ له لیسمع الکلام من أمواج صوتیه..و طبیعی أن کثیرا من الأنبیاء کان الوحی بالنسبه لهم إلهاما داخلیا،و أحیانا یرون ما یوحی إلیهم فی«النوم»کما کان الوحی یأتیهم.أحیانا-عن طریق سماع الأمواج الصوتیه.

و علی کل حال فلا مجال للتوهم بأنّ اللّه جسم،تعالی اللّه عن ذلک.

و فی بعض الرّوایات ورد أن موسی علیه السّلام حین اقترب من النّار،دقق النظر فلاحظ أن النّار تخرج من غصن أخضر و تضیء و تزداد لحظه بعد لحظه و تبدو

أجمل،فانحنى موسى و فى يده غصن يابس ليوقده من النّار،فجاءت النّار من ذلك الغصن الأخضر إليه فاستوحش و رجع إلى الوراء..ثمّ رجع إليها ليأخذ منها قبسا فأتته ثانيه..و هكذا مرّه يتجه بنفسه إليها و مرّه تتجه النّار إليه،و إذا النداء و البشاره بالوحى إليه من قبل اللّه سبحانه.

و من هنا و مع ملاحظه قرائن لا تقبل الإنكار اتّضح لموسى عليه السّلام أنّ هذا النداء هو نداء إلهى لا غير.

و مع الالتفات إلى أنّ موسى عليه السّلام سيتحمل مسئوليه عظيمه و ثقيله..فينبغى أن تكون عنده معاجز عظيمه من قبل اللّه تعالى مناسبه لمقامه النبوى،و قد أشارت الآيات إلى قسمين مهمين من هذه المعاجز:

الأولى قوله تعالى: وَ أَنْ أَلْقِ عَصٰاكَ فَلَمّٰا رَآهٰا تَهْتَزُّ كَأَنَّهٰا جَانٌّ وَلّٰى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ .

و يوم اختار موسى عليه السّلام هذه العصا ليتوكأ عليها للاستراحه، و يهشّ بها على غنمه،و يرمى لها بهذه العصا أوراق الأشجار،لم يكن يعتقد أنّ فى داخلها هذه القدره العظيمه المودعه من قبل اللّه.و أن هذه العصا البسيطه ستهز قصور الظالمين،و هكذا هى موجودات العالم،نتصور أنّها لا شيء،لكن لها استعدادات عظيمه مودعه فى داخلها بأمر اللّه تتجلى لنا متى شاء.

فى هذه الحال سمع موسى عليه السّلام مرّه أخرى النداء من الشجره أَقْبِلْ وَ لاٰ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ .

«الجانّ»فى الأصل معناه الموجود غير المرئى،كما يطلق على الحيات الصغار اسم(جان)أيضا؛لأنّها تعبر بين الأعشاب و الأحجار بصوره غير مرئيه..

كما عبر فى بعض الآيات عن العصا ب ثُعْبٰانٌ مُبِينٌ [سوره الأعراف الآيه ۱۰۷ و سوره الشعراء الآيه ۳۲]

.

و قد قلنا سابقا:إنّ هذا التفاوت فى التعابير ربّما لبيان الحالات المختلفه

لتلک الحیه..التی کانت فی البدایه حیه صغیره،ثمّ ظهرت کأنّها ثعبان مبین.

کما و یحتمل أن موسی علیه السّلام رآها فی الوادی بصوره حیه،ثمّ فی المرات الأخری بدأت تظهر بشکل مهول ثُعْبٰانٌ مُبِینٌ و علی کل حال،کان علی موسی علیه السّلام أن یعرف هذه الحقیقه،و هی أنّه لا ینبغی له الخوف فی الحضره الإلهیه؛لأنّ الأمن المطلق حاکم هناک،فلا مجال للخوف إذا.

کانت المعجزه الأولی آیه«من الرعب»،ثمّ أمر أن یظهر المعجزه الثّانیه و هی آیه أخری«من النور و الأمل»و مجموعهما سیکون ترکیبا من«الإنذار» و«البشاره»إذ جاءه الأمر اُسْلُکْ یَدَکَ فِی جَیْبِکَ تَخْرُجْ بَیْضٰاءَ مِنْ غَیْرِ سُوءٍ .

فالبیاض الذی یکون علی یده للناس لم یکن ناشئا عن مرض-کالبرص و نحوه-بل کان نورا الهیا جدیدا.

لقد هزّت موسی علیه السّلام مشاهدته لهذه الأمور الخارقه للعادات فی اللیل المظلم و فی الصحراء الخالیه..و من أجل أن یهدأ روع موسی من الرهب،فقد أمر أن یضع یده علی صدره وَ اضْمُمْ إِلَیْکَ جَنٰاحَکَ مِنَ الرَّهْبِ .

قال بعضهم:هذه العباره وَ اضْمُمْ إِلَیْکَ جَنٰاحَکَ کنایه عن لزوم القاطعیه و العزم الراسخ فی أداء المسؤولیه بالنسبه لرسالته،و أن لا یخاف أو یرهب شیئا أو أحدا أو قوّه مهما بلغت.

و قال بعضهم:حین ألقی موسی علیه السّلام عصاه فرآها کأنّها«جان»أو ثُعْبٰانٌ مُبِینٌ رهب منها،فمدّ یده لیدافع عن نفسه و یطردها عنه،لکن اللّه أمره أن یضم یده إلی صدره،إذ لا حاجه للدفاع فهی آیه من آیاته.

و التعبیر ب«الجناح»[الذی یستعمل للطائر مکان الید للإنسان]

بدلا عن الید فی غایه الجمال و الروعه..و لعل المراد منه تشبیه هذه الحاله بحاله الطائر حین یدافع عن نفسه و هو أمام عدوّه المهاجم،و لکنه یعود إلی حالته الأولی و یضم

جناحه إليه عند ما يزول عنه العدو و لا يجد ما يرهبه!.

و جاء موسى النداء معقّبا: فَذٰانِکَ بُرْهٰانٰانِ مِنْ رَبِّکَ إِلیٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ إِنَّهُمْ کٰانُوا قَوْماً فٰاسِقِینَ .

فهم طائفه خرجت عن طاعه اللّه و بلغ بهم الطغيان مرحله قصوى..فعليك- يا موسى-أن تؤدى وظيفتك بنصحهم،و إلاّ واجهتهم بما هو أشد.

هنا تذكر موسى عليه السّلام حادثه مهمه وقعت له فى حياته بمصر،و هى قتل القبطى،و تعبئه القوى الفرعونيه لإلقاء القبض عليه و قتله.

و بالرغم من أنّ موسى عليه السّلام كان يهدف عندها الى انقاذ المظلوم من الظالم الذى كان فى شجار معه،فكان ما كان..إلاّ أن ذلك لا معنى له فى منطق فرعون و قومه،فهم مصممون على قتل موسى إن وجدوه..لذلك فإنّ موسى: قٰالَ رَبِّ إِنِّی قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخٰافُ أَنْ یَقْتُلُونِ .

و بعد هذا كلّه فإنّى وحيد و لسانى غير فصيح وَ أَخِی هٰارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّی لِسٰاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِی رِدْءاً یُصَدِّقُنِی إِنِّی أَخٰافُ أَنْ یُکَذِّبُونِ .

كلمه«أفصح»مشتقّه من«الفصيح»و هو فى الأصل كون الشىء خالصا،كما تطلق على الكلام الخالص من كل حشو و زياده كلمه«الفصيح»أيضا.

و«الردء»معناه المعين و المساعد.

و على كل حال فلأن هذه المسؤوليه كانت كبيره جدّا،و لئلا يعجز موسى عن أدائها،سأل ربّه أن يرسل معه أخاه هارون أيضا.

فأجاب اللّه دعوته،و طمأنه بإجابه ما طلبه منه و قٰالَ سَنَشُدُّ عَضُدَکَ بِأَخِیکَ وَ نَجْعَلُ لَکُمٰا سُلْطٰاناً فالسلطه و الغلبه لكما فى جميع المراحل.

و بشرهما بالنصر و الفوز،و أنّه لن يصل إليهما سوء من أولئك:إذ قال سبحانه:

فَلاٰ یَصِلُونَ إِلَیْکُمٰا بِآیٰاتِنٰا

فبهذه الآيات و المعاجز لن يستطيعوا قتلكما أو الإضرار بكما أَنْتُمٰا وَ مَنِ اتَّبَعَکُمَا الْغٰالِبُونَ .

فكـان ما أوحى اللّه إلى موسـى أملا كبيرا و بشاره عظمى اطمأن بها قلبه، و أصـبح راسـخ العزم و الحزم،و سـنجد آثار ذلك فى الصفحات المقبله حين نقرأ الجوانب الأخرى من قصّه موسى عليه السّلام إن شاء اللّه (۱) .

ص :۲۲۹

۱- ۱) -كانت لنا بحوث عديده فى هذا المجال،فراجعها إن شـئت فى«تفسـير سوره الأعراف»و«تفسـير سوره طه»و «تفسـير سوره الشعراء».و فى بعض السور الأخرى.

الآيتان [سوره القصص (۲۸): الآيات ۳۶ الی ۳۷]

اشاره

فَلَمّا جاءَهُمْ مُوسی بِآیاتِنا بَیِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاّ سِحْرٌ مُفْتَریً وَ ما سَمِعْنا بِهذا فِی آبائِنَا اَلْأَوَّلِینَ (۳۶) وَ قالَ مُوسی رَبِّی أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدی مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَکُونُ لَهُ عاقِبَهُ اَلدّارِ إِنَّهُ لا یُفْلِحُ اَلظّالِمُونَ (۳۷)

التّفسیر

اشاره

موسی فی مواجهه فرعون:

نواجه المقطع الثامن من هذه القصّه العظیمه..لقد تلقی موسی علیه السّلام من ربّه الأمر بأن یصدع بالنبوّه و الرساله فی تلک اللیله المظلمه و الأرض المقدسه، فوصل إلی مصر،و أخبر أخاه هارون بما حمّل..و أبلغه الرساله الملقاه علیهما..

فذهبا معا إلی فرعون لیبلغاه رساله اللّه،و بعد عناء شدید استطاعا أن یصلا إلی فرعون و قد حف به من فی القصر من جماعته و خاصته،فأبلغاه الدعوه إلی اللّه و وحدانیّته..و لکن لنر ما جری هناک-فی قصر فرعون-مع موسی و أخیه.

یقول القرآن فی أوّل آیه من هذا المقطع: فَلَمّا جاءَهُمْ مُوسی بِآیاتِنا بَیِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاّ سِحْرٌ مُفْتَریً .

و أنكروا أن يكونوا سمعوا مثل ذلك مٰا سَمِعْنٰا بِهٰذٰا فِی آبٰائِنَا الْأَوَّلِینَ .

فواجهوا موسى متوسّلين بحربه توسّل بها جميع الجبابره و الضالّون على طول التاريخ،حين رأوا المعاجز من أنبيائهم..و هى حربه«السحر»لأنّ الأنبياء يأتون بأمور خارقه للعادات،و«السحر»خارق للعاده«لكن اين هذا من هذه»؟ السحره أناس منحرفون و أهل دنيا و عبيد لها و أساس عملهم قائم على تحريف الحقائق،و يمكن معرفتهم جيدا بهذه العلامه..فى حين أنّ دعوه الأنبياء و محتواها شاهد على صدق معاجزهم..

ثمّ إنّ السحره طالما يعتمدون على القدره البشريه فإنّ عملهم محدود،أمّا الأنبياء الذين يعتمدون على قوّه الهيه،فإن معاجزهم عظيمه و غير محدوده!..

التعبير ب«الآيات البيّنات»عن معاجز موسى عليه السّلام بصيغه الجمع،ربّما يراد به أن معاجز أخرى غير المعجزتين هاتين،أو أن كل معجزه من معجزتيه مركبه من عدّه معاجز.

فتبديل العصا إلى ثعبان عظيم معجزه،و عوده الثعبان إلى عصا معجزه أخرى.

و التعبير ب«مفترى»مأخوذه من«فريه»بمعنى التهمه و الكذب لأنّهم قصدوا أنّ موسى يكذب على اللّه!.

و التعبير ب مٰا سَمِعْنٰا بِهٰذٰا فِی آبٰائِنَا الْأَوَّلِینَ مع أن نداء الأنبياء و دعوتهم من أمثال نوح و إبراهيم و يوسف عليهم السلام كانا من قبل موسى عليه السّلام فى هذه الأرض، فجميعهم دعوا إلى عباده اللّه سبحانه.هذا التعبير أساسه طول المدّه و بعد العهد عليهم،أو أنّهم يريدون أن يقولوا:إنّ آباءنا-أيضا-لم يذعنوا لدعوه الأنبياء قبلك!.

لكن موسى عليه السّلام أجابهم بلهجه التهديد و الوعيد،حيث يكشف لنا القرآن هذا الحوار وَ قٰالَ مُوسىٰ رَبِّی أَعْلَمُ بِمَنْ جٰاءَ بِالْهُدىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عٰاقِبَهُ

الدّارِ

.

إشاره إلى أنّ اللّه يعلم حالى،و هو مطلع علىّ بالرغم من اتهامكم إيّاى بالكذب..فكيف يمكن أن يمكننى اللّه من الأمور الخارقه للعادات لكى أضل بها عباده؟ فعلمه بحالى و منحه لى هذه القدره على الإتيان بالمعجزات دليل على حقانيه دعوتى.

ثمّ بعد هذا،الكاذب قد يقضى فتره بين الناس بالكذب و الخديعه،لكن سرعان ما يفتضح أمره،فانتظروا لتشهدوا من تكون له العاقبه و الإنتصار..و لمن يكون الخزى و الاندحار!؟ و لو كان كلامى كذبا فأنا ظالم و إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظّالِمُونَ .

و هذا التعبير يشبه تعبيرا آخر فى الآيه(۶۹)من سوره«طه»إذ جاء بهذه الصيغه «وَ لا يُفْلِحُ السّاحِرُ حَيْثُ أَتى» .

و هذه الجمله لعلها إشاره إلى الفراعنه المعاندين و المستكبرين ضمنا،و هى أنّكم مقتنعون بمعاجزى و دعوتى الحقّه،و لكنّكم تخالفوننى ظلما..فعليكم أن تعرفوا أنّكم لن تنتصروا أبدا،و العاقبه لى فحسب.

و التعبير ب عاقِبَهُ الدّارِ ربّما كان إشاره لعاقبه الدار الدنيا،أو لعاقبه الدار الآخره،أو لعاقبه الدارين جميعا،و بالطبع فإنّ المعنى الثّالث أجمع و أنسب حسب الظاهر.

بهذا المنطق المؤدب أنذر موسى عليه السّلام فرعون و قومه بالهزيمه فى هذه الدنيا و فى الأخرى!.

ص:۲۳۲

الآيات [سوره القصص (٢٨): الآيات ٣٨ الی ۴٢]

اشاره

وَ قٰالَ فِرْعَوْنُ يٰا أَيُّهَا اَلْمَلَأُ مٰا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يٰا هٰامٰانُ عَلَى اَلطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلىٰ إِلٰهِ مُوسىٰ وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ اَلْكٰاذِبِينَ (٣٨) وَ اِسْتَكْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِي اَلْأَرْضِ بِغَيْرِ اَلْحَقِّ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنٰا لاٰ يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنٰاهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْنٰاهُمْ فِي اَلْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ اَلظّٰالِمِينَ (۴٠) وَ جَعَلْنٰاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى اَلنّٰارِ وَ يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ لاٰ يُنْصَرُونَ (۴١) وَ أَتْبَعْنٰاهُمْ فِي هٰذِهِ اَلدُّنْيٰا لَعْنَةً وَ يَوْمَ اَلْقِيٰامَةِ هُمْ مِنَ اَلْمَقْبُوحِينَ (۴٢)

التّفسير

اشاره

كيف كان عاقبه الظالمين؟

نواجه هنا المقطع التاسع من هذا التاريخ الملىء بالأحداث و العبر.

هذا المقطع يعالج مسأله صنع فرعون البرج-أو بنائه الصرح المعروف- للبرهنه على وهميه دعوه موسى عليه السّلام.

و نعرف أن من سنن الساسه القدماء فى أعمالهم أنّه كلما وقعت حادثه مهمّه

على خلاف رغباتهم و ميولهم(و من أجل التمويه و إيهام الناس)يبادرون إلى خلق جوّ جديد ليلفتوا أنظار الناس إليه،و ليصرفوهم عن تلك الحادثه المطلوبه.

و يبدو أنّ بناء«الصرح العظيم»حدث بعد ما جرى لموسى من مواجهته السحره ما جرى..لأنّه يستفاد من سوره«المؤمن»أن هذا العمل«بناء البرج»تمّ حين كان الفراعنه يخططون لقتل موسى عليه السّلام،و كان مؤمن آل فرعون يدافع عنه..

و نعرف أنّه قبل أن يواجه موسى عليه السّلام السحره لم يكن مثل هذا العمل و لا مثل هذا الحديث،و حيث أن القرآن الكريم تحدّث عن مواجهه موسى عليه السّلام للسحره فى سوره«طه،و الأعراف،و يونس،و الشعراء»فإنّه لم يتطرق إليها هنا.و إنّما تحدث هنا و فى سوره المؤمن عن بناء البرج.

و على كل حال فقد شاع خبر انتصار موسى عليه السّلام على السحره فى مصر، و إيمان السحره بموسى زاد فى الأمر أهميه،كما أن موقع الحكومه الفرعونيه أصبح فى خطر جدىّ شديد.

و احتمال تيقظ الجماهير التى فى أسر الذل كان كبيرا جدّا..فيجب صرف أفكار الناس بأيه قيمه كانت،و اشغالهم بسلسله من المشاغل الذهنيه مقرونه ببذل من الجهاز الحكومى،لإغفال الناس و تحميقهم! و فى هذا الصدد يتحدث القرآن الكريم عن جلوس فرعون للتشاور فى معالجه الموقف،إذ نقرأ فى أوّل آيه من هذا المقطع: وَ قٰالَ فِرْعَوْنُ يٰا أَيُّهَا الْمَلَأُ مٰا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي .

فأنا إلهكم فى الأرض..أمّا إله السماء فلا دليل على وجوده،و لكننى سأتحقق فى الأمر و لا أترك الاحتياط،فالتفت إلى وزيره هامان و قال: فَأَوْقِدْ لِي يٰا هٰامٰانُ عَلَى الطِّينِ ثمّ أصدر الأوامر ببناء برج أو قصر مرتفع جدّا لأصعد عليه و استخبر عن إله موسى.

فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلىٰ إِلٰهِ مُوسىٰ وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكٰاذِبِينَ

.

لم لم يـذكر فرعون اسم الآـجر،و اكتفى بـالقول: فَأَوْقِدْ لِی یٰا هٰامٰانُ عَلَى الطِّينِ ؟قال بعضـهم:هـذا دليل على أن الآجر لم يكن متـداولا حتى ذلك الحين،و إنّما ابتكره الفراعنه من بعد..فى حين أن بعضـهم يرى أن هذا التعبير أو هذا البيان فيه نوع من التكبر و موافق لسنّه الجبابره.

و قال بعضهم:إنّ كلمه«آجر»ليست فصيحه،لذلك لم يستعملها القرآن، و إنّما استعمل هذا التعبير المتقدم على لسان فرعون!.

هنا ناقش جماعه من المفسّرين كالفخر الرازى و الآلوسـى مسأله«الصرح»، و هل بنى فرعون«الصرح»حقّا أم لا؟! و يبدو أن الذى شغل فكر المفسّرين هو أن هذا العمل لم يكن متزّنا بأىّ وجه و أى حساب.

ترى..أ لم يكن الناس قد صعدوا الجبال من قبل فرأوا منظر السماء كما هو على الأرض؟.

و هل البرج الذى يبنيه البشر أكثر ارتفاعا من الجبل؟.

و أى أحمق يصدق أنّه يمكن الوصول إلى السماء بواسطه مثل هذا البرج؟! و لكن أولئك الذين يفكرون مثل هذا التفكير غفلوا عن هـذه المسأله،و هى أن مصـر لم تكن أرضا جبليه،و بعـد هـذا كلّه نسوا أنّ الطبقه العامّه لأهل مصـر بسـطاء و يخدعون بشتى الوسائل.

حتى فى عصرنا الذى يسمى عصر العلم و عصر النور،نجد مسائل تشبه ما وقع فى العصور الماضيه ينخدع بها الناس.

و على كل حال،فطبقا لما ورد فى بعض التواريـخ،فإنّ هامان أمر بأرض واسـعه ليبنى عليها الصـرح أو البرج،و هيّأ خمسـين ألف رجـل من العمـال و المهندسـين لهـذا العمل المضـنى،و آلاف العمال لتهيئه الوسائل اللازمه لهـذا البناء، و فتـح أبواب الخزائن و صرف أموالا طائله فى هذا السبيل،و اشغل عمالا كثيرين

فى هذا البناء..حتى أنّه ما من مكان إلاّ و تسمع فيه أصوات هذا البناء أو أصداؤه!.

و كلما اعتلى البناء أكثر فأكثر كان الناس يأتون للتفرج،و ما عسى أن يفعل فرعون بهذا البناء و هذا البرج.

صعد البناء إلى مرحله بحيث أصبح مشرفا على جميع الأطراف.و كتب بعضهم:إنّ المعمارين بنوا هذا البرج بناء بحيث جعلوا حوله سلالم حلزونيه يمكن لراكب الفرس أن يرتقى الى أعلى البرج.

و لمّا بلغ البناء تمامه و لم يستطع البناؤون أن يعلوه أكثر من ذلك..جاء فرعون بنفسه يوما و صعده بتشريفات خاصه..فنظر إلى السماء فوجدها صافيه كما كان ينظرها من الأرض لم تتغير و لم يطرأ عليها جديد.

المعروف أنّه رمى سهما إلى السماء،فرجع السهم مخضبا بالدم على أثر إصابته لأحد الطيور أو أنّها كانت خديعه من قبل فرعون من قبل..فنزل فرعون من أعلى القصر و قال للناس:اذهبوا و اطمأنوا فقد قتلت إله موسى (١) .

و من المسلم به أن جماعه من البسطاء الذين يتبعون الحكومه اتباعا أعمى و أصم،صدّقوا ما قاله فرعون و نشروه فى كل مكان،و شغلوا الناس بهذا الخبر لإغفالهم عن الحقائق!.

و نقلوا هذا الخبر أيضا،و هو أنّ البناء لم يدم طويلا«و طبعا لا يدوم»أجل لقد تهدم البناء و قتل جماعه من الناس..و نقلوا فى هذا الصدد قصصا أخرى، و حيث أن لم تتّضح صحتها لنا فقد صرفنا عنها النظر.

و الذى يلفت النظر أن فرعون فى كلامه هذا مٰا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي كان قد استعمل نهايه الخبث و منتهى الشيطنه..إذ كان يرى من المسلّم به أنّه إله!!..و كان مدار بحثه:هل يوجد إله غيره؟!!..ثمّ ينفى أن يكون هناك إله سواه إله؛لعدم وجود الدليل!!

١- ١) -مقتبس من تفسير أبى الفتوح الرازى ذيل الآيات محل البحث،ج ٨٩،ص ٣۶٢.

و فی المرحله الثّالثه و الأخیره،و من أجل أن یقیم الدلیل علی عدم وجود إله غیره بنی ذلک الصرح!.

کل هذه الأمور تؤکّد جیدا أنّه کان یعرف تلک المسائل،إلاّ أنّه کان یضلل الناس و یصرف أفکارهم عن الحق،لیحفظ موقعه و حکومته!.

بعد هذا کلّه یتحدث القرآن عن استکبار فرعون و من معه،و عدم إذعانهم لمسألتی«المبدأ و المعاد»بحیث کان فرعون یرتکب ما یشاء من إجرام و جنایات بسبب انکار هذین الأصلین فیقول: وَ اسْتَکْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِّ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَیْنا لا یُرْجَعُونَ .

هذا الإنسان الضعیف الذی لا یستطیع أن یبعد عن نفسه بعوضه،و ربّما قتله میکروب لا یری بالعین المجرّده کیف یمکن له أن یدعی العظمه و الألوهیّه!؟.

ورد فی الحدیث القدسی أنّ اللّه سبحانه یقول: «الکبریاء ردائی،و العظمه إزاری،فمن نازعنی واحدا منهما ألقیته فی النّار» (1) .

و من البدیهی أنّ اللّه لا یحتاج إلی أوصاف کهذه..و لکن حاله الطغیان و العدوان تستولی الإنسان حینما ینسی نفسه،و تملأ ریح الکبر و الغرور فکره! لکن لننظر إلی أین وصل هذا الغرور بفرعون و جنوده؟! یقول القرآن الکریم: فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِی الْیَمِّ .

أجل،لقد جعلنا سبب موتهم فی مصدر معیشتهم،و جعلنا النیل الذی هو رمز عظمتهم و قوّتهم مقبره لهم!.

من الطریف أنّ القرآن یعبّر ب«نبذناهم»من ماده«نبذ»علی زنه«نبض» و معناه رمی الأشیاء التی لا قیمه لها و طرحها بعیدا،تری ما قیمه هذا الإنسان الأنانی المتکبر المتجبّر الجانی المجرم؟! أجل،لقد نبذنا هؤلاء الذین لا قیمه لهم من المجتمع البشری،و طهّرنا

1- 1) -تفسیر روح المعانی،التّفسیر الکبیر،للفخر الرازی،تفسیر المیزان و تفاسیر أخر ذیل الآیه محل البحث.

الأرض من لوث وجودهم.

ثمّ،يختتم الآيه بالتوجه إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله قائلا: فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَهُ الظّالِمِينَ .

هذا النظر ليس بعين«البصر»بل هو بعين«البصيره»،و هو لا يخص ظلمه الماضى و فراعنه العهد القديم،بل إن ظلمه هذا العصر ليس لهم من مصير سوى هذا المصير المشؤوم!.

ثمّ يضيف القرآن قائلا فى شأنهم: وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّهً يَدْعُونَ إِلَى النّارِ وَ يَوْمَ الْقِيامَهِ لا يُنْصَرُونَ .

هذا التعبير أوجد إشكالا لدى بعض المفسّرين،إذ كيف يمكن أن يجعل اللّه أناسا أئمه للباطل؟! و لكن هذا الأمر ليس معقدا..لأنّه أولا..إن هؤلاء هم فى مقدمه جماعه من أهل النّار،و حين تتحرك الجماعات من أهل النّار،فإنّ هؤلاء يتقدمونهم إلى النّار! فكما أنّهم كانوا فى هذه الدنيا أئمّه الضلال،فهم فى الآخره-أيضا-أئمّه النّار،لأنّ ذلك العالم تجسم كبير لهذا العالم!.

ثانيا..كونهم أئمّه الضلال-فى الحقيقه-نتيجه أعمالهم أنفسهم،و نعرف أن تأثير كل سبب هو بأمر اللّه،فهم اتخذوا طريقا يؤدى بهم إلى الضلال و ينتهى بهم إلى أن يكونوا أئمّه الضالين،فهذه حالهم فى يوم القيامه!.

و لمزيد التأكيد يصور القرآن صورتهم و ماهيتهم فى الدنيا و الآخره! وَ أَتْبَعْناهُمْ فِي هٰذِهِ الدُّنْيا لَعْنَهً وَ يَوْمَ الْقِيامَهِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ! (1) لعنه اللّه معناها طردهم من رحمته،و لعنه الملائكه و المؤمنين هى الدعاء عليهم صباحا و مساء..و فى كل وقت.و أحيانا تشملهم اللعنه العامه.و أحيانا يأتى اللعن خاصّه

١- ١) -«المقبوح»مشتق من«القبح»و معناه السوء.ما فسّره بعضهم بأنّ المقبوح معناه المطرود أو المفضوح أو المغضوب عليه و ما شاكلها،فهو من التّفسير بلازم المعنى،و إلاّ فالمقبوح معناه واضح.

لبعضهم.حیث أنّ کل من یتصفح تأریخهم یلعنهم،و یتنفّر من أعمالهم.

و علی کل حال فإنّ سوء أعمالهم فی هذه الدنیا،هو الذی قبّح وجوههم فی الدار الآخره«یوم القیامه»،لأنّه یوم البروز و یوم هتک الحجب.

ملاحظه!

اشاره

أئمّه«النّور»و أئمّه«النّار»

هناک طائفتان من الأئمه فی منطق القرآن الکریم،فأئمه للمتقین یهدونهم إلی الخیرات،کما ورد فی شأن الأنبیاء علیهم الصلاه و السلام: وَ جَعَلْنٰاهُمْ أَئِمَّهً یَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا وَ أَوْحَیْنٰا إِلَیْهِمْ فِعْلَ الْخَیْرٰاتِ وَ إِقٰامَ الصَّلاٰهِ وَ إِیتٰاءَ الزَّکٰاهِ وَ کٰانُوا لَنٰا عٰابِدِینَ (۱) .

فهؤلاء أئمّه أصحاب مناهج واضحه،لأنّ التوحید الخالص و الدعوه إلی الخیر و العمل الصالح و الحق و العداله،تشکّل متن مناهجهم..فهم أئمّه النور، و خطهم متصل بسلسله الأنبیاء و الأوصیاء الی خاتم النّبیین محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أوصیائه علیهم السلام.

و هناک أئمّه للضلال..و قد عبّرت عنهم الآیات محل البحث بأنّهم: أَئِمَّهً یَدْعُونَ إِلَی النّٰارِ !.

و من خصائص هاتین الطائفتین من الأئمّه،کما

ورد عن الإمام الصادق علیه السّلام ما یلی: «إنّ الأئمّه فی کتاب اللّه إمامان،قال اللّه تبارک و تعالی: وَ جَعَلْنٰاهُمْ أَئِمَّهً یَهْدُونَ بِأَمْرِنٰا لا بأمر الناس یقدمون أمر اللّه قبل أمرهم،و حکم اللّه قبل حکمهم، قال: وَ جَعَلْنٰاهُمْ أَئِمَّهً یَدْعُونَ إِلَی النّٰارِ یقدمون أمرهم قبل أمر اللّه،و حکمهم قبل

۱- ۱) -سوره الأنبیاء،الآیه ۷۳.

حکم اللّه،و یأخذون بأهوائهم خلاف کتاب اللّه» (۱) .

و بهذا المعیار یتّضح معرفه هاتین الطائفتین من الأئمه..ففی یوم القیامه الذی تتمایز فیه الصفوف،کل جماعه تمضی خلف إمامها،فأهل النار إلی النّار،و أهل الجنّه إلی الجنّه..کما یقول القرآن الکریم: یَوْمَ نَدْعُوا کُلَّ أُنٰاسٍ بِإِمٰامِهِمْ (۲) .

و قلنا مرارا:إنّ یوم القیامه تجسم عظیم عن هذا العالم«الصغیر»و أولئک الذین ارتبطوا بإمام معین و اقتفوا أثره،فهم سائرون خلفه هناک أیضا.

ینقل«بشر بن غالب»عن الإمام أبی عبد اللّه الحسین علیه السّلام أنّه سأله عن تفسیر الآیه یَوْمَ نَدْعُوا کُلَّ أُنٰاسٍ بِإِمٰامِهِمْ

فقال علیه السّلام: «إمام دعا إلی هدی فأجابوه إلیه، و إمام دعا إلی ضلاله فأجابوه إلیها،هؤلاء فی الجنّه،و هؤلاء فی النّار..و هو قوله عزّ و جلّ فَرِیقٌ فِی الْجَنَّهِ وَ فَرِیقٌ فِی السَّعِیرِ (۳) .

من الطریف أن فرعون الذی تقدّم قومه فی هذه الدنیا و أغرقهم بمعیّته فی أمواج النیل،یقدم قومه یوم القیامه-أیضا-یخزیهم بمعیته فی نار جهنم،إذ یقول القرآن فی شأنه: یَقْدُمُ قَوْمَهُ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ فَأَوْرَدَهُمُ النّٰارَ وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ . (۴)

و نختم هذا البحث

بحدیث الإمام علی علیه السّلام فی شأن المنافقین حیث یقول علیه السّلام:

«ثمّ بقوا بعده فتقربوا إلی أئمّه الضلاله و الدعاه إلی النّار بالزور و البهتان،فولّوهم الأعمال،و جعلوهم حکاما علی رقاب الناس» . (۵)

۱- ۱) -تفسیر الصافی ذیل الآیات مورد البحث.

۲- ۲) -الإسراء،۷۱.

۳- ۳) -أمالی الصدوق لما ورد فی نور الثقلین،ج ۳،ص ۱۹۲.

۴- ۴) -سوره هود،۹۸.

۵- ۵) -راجع نهج البلاغه،الخطبه ۲۱۰.

الآيات [سوره القصص (۲۸): الآيات ۴۳ الی ۴۶]

اشاره

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى اَلْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا اَلْقُرُونَ اَلْأُولى بَصائِرَ لِلنّاسِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۴۳) وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ اَلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى اَلْأَمْرَ وَ ما كُنْتَ مِنَ اَلشّاهِدِينَ (۴۴) وَ لكِنّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ اَلْعُمُرُ وَ ما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَ لكِنّا كُنّا مُرْسِلِينَ (۴۵) وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ اَلطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَ لكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۴۶)

التّفسیر

اشاره

الأخبار الغیبیّه هی من عند اللّه وحده..

نصل فی هـذا القسم من الآیـات إلی«المقطع العاشـر»و هو القسم الأخیر من الآیات التی تتعلق بقصّه موسـی و ما تحمله من معان کبیره!.

و هی تتحدث عن نزول الأحکام،و التوراه،أی إنّها تتحدث عن انتهاء الدور السلبی«الطاغوت»و بدایه«الدور الإیجابی»و البناء!.

ص :۲۴۱

يبدأ هذا المقطع بالآيه التاليه وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى بَصائِرَ لِلنّاسِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

و الكلام فى أنّ المقصود من«القرون الأولى»أى الأقوام السابقين.. من هم؟! قال بعض المفسّرين:هو إشاره إلى الكفّار من قوم نوح و عاد و ثمود و أمثالهم..لأنّه بتقادم الزمان و مضيّه تمحى اثار الأنبياء السابقين،و يلزم من ذلك وجود كتاب سماوىّ جديد فى أيدى البشر!

و قال بعض المفسّرين:هو إشاره إلى هلاك قوم فرعون الذين كانوا بقايا الأقوام السابقين،لأنّ اللّه سبحانه آتى موسى كتاب«التّوراه»بعد هلاكهم.

و لكنّه لا مانع من أن يكون المقصود بالقرون الأولى فى الآيه شاملا لجميع الأقوام.

و«البصائر»جمع«بصيره»و معناها الرؤيه،و المقصود بها هنا الآيات و الدلائل التى تستوجب إناره قلوب المؤمنين..و«الهدى»و«الرحمه»أيضا من لوازم البصيره..و على أثرها تتيقظ القلوب (1) .

ثمّ يبيّن القرآن الكريم هذه الحقيقه،و هى أنّ ما ذكرناه لك«يا رسول اللّه،فى شأن موسى و فرعون و ما جرى بينهما بدقائقه،هو فى نفسه دليل على حقانيّه القرآن،لأنّك لم تكن«حاضرا»فى هذه«الميادين»التى كان يواجه موسى فيها فرعون و قومه!و لم تشهدها بعينيك..بل هو من الطاف اللّه عليك،إذ أنزل عليك هذه الآيات لهدايه الناس..يقول القرآن: وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ أى الأمر بالنبوّه وَ ما كُنْتَ مِنَ الشّاهِدِينَ .

الذى يجلب الانتباه و يستلفت النظر هنا أنّ موسى عليه السّلام حين سار من مدين إلى مصر مرّ فى طريق سيناء،و كان بهذا الاتجاه يسير من الشرق نحو الغرب.

1- 1) -«البصائر»جمع«بصيره»و أمّا«البصر»فجمعه«أبصار».

و على العكس من ذلك مسير بنى إسرائيل حين جاءوا من مصر إلى الشام و مرّوا عن طريق سيناء،فإنّهم يتجهون بمسيرهم من الغرب نحو الشرق..و لذلک یری بعض المفسّرین أنّ المراد من الآیه«۶۰» فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ فی سوره الشعراء التی تتحدث عن متابعه فرعون و قومه لبنی إسرائیل، هو إشاره إلی هذا المعنی! ثمّ یضیف القرآن وَ لٰكِنّٰا أَنْشَأْنٰا قُرُوناً فَتَطٰاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ و تقادم الزمان حتی اندرست آثار الأنبیاء و هدایتهم فی قلوب الناس،لذلک أنزلنا علیک القرآن و بیّنا فیه قصص الماضین لیکون نورا و هدی للناس.

ثمّ یضیف القرآن الکریم وَ مٰا كُنْتَ ثٰاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ [أی علی أهل مکه]

آيٰاتِنٰا (١) وَ لٰكِنّٰا كُنّٰا مُرْسِلِينَ ..و أوحینا إلیک هذه الأخبار الدقیقه التی تتحدث عن آلاف السنین الماضیه..لتکون عبره للناس و موعظه للمتقین (٢) .

و تأکیدا علی ما سبق بیانه یضیف القرآن الکریم قائلا: وَ مٰا كُنْتَ بِجٰانِبِ الطُّورِ (٣) إِذْ نٰادَيْنٰا ای نادینا موسی بأمر النبوّه،و لکننا أنزلنا إلیک بهذه الاخبار رحمه من اللّه علیک وَ لٰكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مٰا أَتٰاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

و خلاصه الکلام:أنّ اللّه أخبرک یا محمّد بالحوادث التی فیها إیقاظ و إنذار لما جری فی الأقوام السابقین،و لم تکن فیهم من الشاهدین،لتتلو کل ذلک علی

۱- ۱) -«ثاوی»مشتق من(ثوی)و معناه الإقامه المقرونه بالاستقرار،و لذا سمّی المستقر و المکان الدائم بالمثوی.

۲- ۲) -کان بین ظهور موسی علیه السّلام و ظهور النّبی(محمّد)صلّی اللّه علیه و آله حدود ألفی عام.

۳- ۳) -قال بعض المفسّرین:یحتمل أن یکون المراد من«نادینا»هنا هو النداء الثّانی عند ما جاء موسی و سبعون رجلا من قومه إلی الطور،فجاءه النداء من اللّه،و لکن هذا الاحتمال بعید جدا؛لأنّ هذه الآیات تشیر إلی المسائل التی أخبر عنها النّبی فی الآیات المتقدمه فی حین أنّه لم یکن حاضرا هناک و لم یکن من الشاهدین،و نعرف أن الآیات المتقدمه تتحدث عن حرکه موسی من مدین باتجاه مصر،و سماعه النداء من قبل اللّه لأول مرّه فی وادی الطور «فلاحظوا بدقه».

قومک الذین هم علی ضلال لعلهم یهتدون و لعلهم یتذکرون.

هنا ینقدح هذا السؤال:کیف یقول القرآن: لِتُنْذِرَ قَوْماً مٰا أَتٰاهُمْ مِنْ نَذِیرٍ مِنْ قَبْلِکَ [أی العرب المعاصرین للنبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله]

فی حین أنّنا نعرف أن الأرض لا تخلو من حجّه للّه،و کان بین العرب أوصیاء للأنبیاء السابقین (کأوصیاء عیسی علیه السّلام).

و فی الجواب علی ذلک نقول:المقصود من ذلک هو إرسال رسول یحمل إلی قومه کتابا سماویّا بیّنا..لأنّ بین عصر عیسی علیه السّلام و ظهور نبی الإسلام صلّی اللّه علیه و آله قرونا مدیده،و لم یأت بین عیسی و النبیّ محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نبیّ من أولی العزم،و لذلک فقد کان هذا الموضوع ذریعه للملحدین و المفسدین.

یقول الإمام علی علیه السّلام فی هذا الصدد «إن اللّه بعث محمّدا صلّی اللّه علیه و آله و لیس أحد من العرب یقرأ کتابا و لا یدعی نبوه،فساق الناس حتی بوأهم محلتهم و بلغهم منجاتهم» (1) .

1- 1) -نهج البلاغه،الخطبه 33.

الآیات [سوره القصص (۲۸): الآیات ۴۷ الی ۵۰]

اشاره

وَ لَوْ لاٰ أَنْ تُصِیبَهُمْ مُصِیبَهٌ بِمٰا قَدَّمَتْ أَیْدِیهِمْ فَیَقُولُوا رَبَّنٰا لَوْ لاٰ أَرْسَلْتَ إِلَیْنٰا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آیٰاتِکَ وَ نَکُونَ مِنَ اَلْمُؤْمِنِینَ (۴۷) فَلَمّٰا جٰاءَهُمُ اَلْحَقُّ مِنْ عِنْدِنٰا قٰالُوا لَوْ لاٰ أُوتِیَ مِثْلَ مٰا أُوتِیَ مُوسیٰ أَ وَ لَمْ یَکْفُرُوا بِمٰا أُوتِیَ مُوسیٰ مِنْ قَبْلُ قٰالُوا سِحْرٰانِ تَظٰاهَرٰا وَ قٰالُوا إِنّٰا بِکُلٍّ کٰافِرُونَ (۴۸) قُلْ فَأْتُوا بِکِتٰابٍ مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ هُوَ أَهْدیٰ مِنْهُمٰا أَتَّبِعْهُ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ (۴۹) فَإِنْ لَمْ یَسْتَجِیبُوا لَکَ فَاعْلَمْ أَنَّمٰا یَتَّبِعُونَ أَهْوٰاءَهُمْ وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اِتَّبَعَ هَوٰاهُ بِغَیْرِ هُدیً مِنَ اَللّٰهِ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ یَهْدِی اَلْقَوْمَ اَلظّٰالِمِینَ (۵۰)

التّفسیر

اشاره

ذریعه للفرار من الحق:

حیث أن الآیات-آنفه الذکر-کانت تتحدث عن إرسال النّبی صلّی اللّه علیه و آله لینذر قومه،ففی هذه الآیات یبیّن القرآن ما ترتب من لطف اللّه علی وجود النّبی فی

ص:۲۴۵

قومه فیقول:إنّنا و قبل أن نرسل إلیهم رسولا إذا أردنا إنزال العذاب علیهم بسبب ظلمهم و سیئاتهم قالوا:لما ذا لم ترسل لنا رسول یبیّن لنا أحکامک لنؤمن به وَ لَوْ لاٰ أَنْ تُصِیبَهُمْ مُصِیبَهٌ بِمٰا قَدَّمَتْ أَیْدِیهِمْ فَیَقُولُوا رَبَّنٰا لَوْ لاٰ أَرْسَلْتَ إِلَیْنٰا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آیٰاتِکَ وَ نَکُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ (۱) .

هذه الآیه تشیر إلی موضوع دقیق،و هو أن طریق الحقّ واضح و بیّن...و کل «عقل»حاکم ببطلان الشرک و عباده الأصنام..و قبح کثیر من الأعمال التی تقع نتیجه الشرک و عباده الأصنام-کالمظالم و ما شاکلها-هی من مستقلات حکم العقل،و حتی مع عدم إرسال الرسل،فإنّ العقوبه علی مثل هذه الأمور ممکنه.

و لکن اللّه سبحانه حتی فی هذا المجال و مع وضوح حکم العقل فیه أرسل الرسل مع الکتب السماویه و المعاجز الساطعه،إتماما للحجّه و نفیا للعذر،لئلا یقول أحد:إنّما کان شقاؤنا بسبب عدم وجود الدلیل،إذ لو کان فینا قائد إلهی لکنّا من أهل الهدایه و من الناجین.

و علی کل حال فإنّ هذه الآیه من الآیات التی فیها دلاله علی لزوم اللطف عن طریق إرسال الأنبیاء و الرسل!و تدل علی أن سنه اللّه قائمه علی عدم تعذیب أیه أمه قبل إرسال الرسل إلیها،و نقرأ فی سوره النساء الآیه(۶۵)أیضا رُسُلاً مُبَشِّرِینَ وَ مُنْذِرِینَ لِئَلاّٰ یَکُونَ لِلنّٰاسِ عَلَی اللّٰهِ حُجَّهٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَ کٰانَ اللّٰهُ عَزِیزاً حَکِیماً .

ثمّ تتحدّث الآیات عن معاذیر أولئک،و تشیر إلی أنّهم-بعد إرسال الرسل- لم یکفّوا عن الحیل و الذرائع الواهیه،و استمروا علی طریق الانحراف،فتقول الآیه: فَلَمّٰا جٰاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنٰا قٰالُوا لَوْ لاٰ أُوتِیَ مِثْلَ مٰا أُوتِیَ مُوسیٰ .

۱- ۱) -یصرّح کثیر من المفسّرین أنّ جواب«لولا»الأولی محذوف و تقدیره«لما أرسلنا رسولا»أو«لما وجب إرسال الرسل»..و بدیهیّ أنّ التعبیر الثّانی أکثر دقّه و وضوحا..و علی کل حال فهذا الکلام مربوط بأحکام یدرکه العقل مستقلا..و إلاّ فإن إرسال الرسل ضروریّ بدلائل أخری،علی أنّ واحدا من فوائد إرسال الرسل-أیضا-هو تأکید الأحکام العقلیه کبطلان الشرک و قبح الظلم و الفساد..«فلاحظوا بدقّه».

فلم لم تكن عصا موسى فى يده؟و لم لا تكون يده بيضاء«كيد موسى»؟و لم لا ينشقّ البحر له كما انشقّ لموسى؟!و لم لم...إلخ.

فيجيب القرآن على مثل هذه الحجج،و يقول: أَ وَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمٰا أُوتِيَ مُوسىٰ مِنْ قَبْلُ قٰالُوا سِحْرٰانِ تَظٰاهَرٰا أى موسى و هارون،تعاونا فيما بينهما ليضلونا عن الطريق وَ قٰالُوا إِنّٰا بِكُلٍّ كٰافِرُونَ .

و التعبير ب«سحران»بدلا عن«ساحران»هو لشده التأكيد،لأنّ العرب حين تريد التأكيد على شخص فى خصله ما تقول:هو العدل بعينه،أو بعينه،أو السحر و هكذا.

كما يرد هذا الاحتمال-أيضا-و هو:إنّ مقصودهم المعجزتين العظيمتين لموسى عليه السّلام و هما عصاه و يده البيضاء! و إذا قيل:ما علاقه هذا الإنكار بمشركى مكّه،فهذه الأمور متعلقه بفرعون و قومه السابقين؟ فالجواب على ذلك واضح..و هو أن التذرع بالحجج الواهيه ليس أمرا جديدا..فجميعهم من نسيج واحد،و كلامهم يشبه كلام السابقين تماما،و خطهم و طريقتهم و منهجهم على شاكله واحده.

التفسير الواضح للآيه ما قلناه آنفا،إلاّ أن بعض المفسّرين فسّروا الآيه تفسيرا آخر و قالوا:إنّ المقصود بقوله تعالى: سِحْرٰانِ تَظٰاهَرٰا هو«النّبى موسى و نبى الإسلام العظيم محمّد صلّى اللّه عليه و آله»لأنّ مشركى العرب كانوا يقولون:إن كليهما ساحران...و إنّا بكلّ كافرون.

و قد نقلوا فى هذا الصدد حادثه تاريخيه،و هى أنّ أهل مكّه بعثوا جماعه منهم إلى اليهود فى بعض أعيادهم،و سألوهم عن نبى الإسلام«محمّد»صلّى اللّه عليه و آله أ هو نبىّ حقّا؟!فأجابوا:إنّهم وجدوا مكتوبا عندهم فى التوراه«بأوصافه»!.فرجع

المبعوثون إلى مشركى مكّه و نقلوا لهم ما جرى بينهم و بين اليهود،فقالوا:

سِحْرانِ تَظاهَرا وَ قالُوا إِنّا بِكُلٍّ كافِرُونَ

.

و لكن بملاحظه هاتين النقطتين يبدو هذا التّفسير بعيدا جدّا:

الأولى:أنّه قلّ أن يرى فى التاريخ و الرّوايات أن مشركى العرب يتهمون موسى بكونه ساحرا.

الثّانيه:كيف يمكن لأحد أن يدعى أن موسى و محمّدا صلّى اللّه عليه و آله ساحران يعين أحدهما الآخر مع وجود فاصله زمنيه بينهما تقدّر بالفى عام.

ترى هل يمكن لساحر قبل آلاف السنين أن يعرف من سيأتى فى المستقبل؟!و ماذا سيقول؟! و على كل حال فإنّ مشركى مكّه المعاندين كانوا يصرّون على أنّه لم لم يأت النّبى صلّى اللّه عليه و آله بمعاجز كمعاجز موسى،و من جهه أخرى لم يكونوا يعترفون بما يجدونه فى«التوراه»من علائمه و أوصافه و لا يؤمنون بالقرآن المجيد و آياته العظيمه...لذا يخاطب القرآن النّبى محمّدا صلّى اللّه عليه و آله ليتحداهم بأن يأتوا بكتاب أسمى من القرآن!! قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ .

و بتعبير آخر:إنّهم كانوا يبحثون عن كتاب هدايه و عن معاجز!! فأى كتاب هدايه أعظم من القرآن؟!و أيه معجزه أسمى منه؟! و لو لم يكن عند النّبى شىء آخر سوى القرآن لكان كافيا فى إثبات دعوته الحقه!و لكنّهم لم يكونوا طلاّب حق،بل أصحاب حجج واهيه فحسب! ثمّ يضيف القرآن فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ لأنّ أى إنسان إذا لم يتبع هواه فإنّه سيذعن لهذا الاقتراح،لكن أولئك لم يكونوا على صراط مستقيم،و لذلك يرفضون كل مقترح بذريعه جديده!.

و لکن من أضیع منهم وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَیْرِ هُدیً مِنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الظّالِمِینَ .

و لو کانوا طلّاب حقّ و قد أضلوا سبیلهم،فإنّ لطف اللّه سیشملهم بمقتضی الآیه الکریمه وَ الَّذِینَ جاهَدُوا فِینا لَنَهْدِیَنَّهُمْ سُبُلَنا و لکنّهم ظالمون لأنفسهم و لمجتمعهم الذی یعیشون فیه،فلا هدف لهم سوی اللجاجه و العناد...فکیف یهدیهم اللّه و یعینهم؟!

ملاحظه

اشاره

اتباع الهوی مدعاه للظلال:

فی الآیات المتقدمه بیّنت العلاقه بین الهوی و الضلال بصراحه،و قد عبّر فیها عن المتبعین هواهم بأضلّ النّاس،و أنّهم لم یحظو بهدایه اللّه.

هوی النفس حجاب کبیر أمام نظر العقل.

هوی النفس یشدّ الإنسان بالشیء و یجعل قلبه متعلقا به إلی درجه تفقده القدره علی فهم الحقائق و درکها..لأنّ التسلیم المطلق إزاء الواقعیات،و ترک التعلق بالشیء و التسرّع بالحکم،شرط لدرک الحقائق..التسلیم دون قید أو شرط إزاء الواقع الخارجی،مرا کان أم عذبا،موافقا لرغبات النفس أم مخالفا، منسجما مع المصالح و المنافع الشخصیه أم غیر منسجم...لکن هوی النفس لا یتفق مع هذه الأصول!.

و فی هذا المجال کان لنا بحث مسهب فی ذیل الآیه(۴۳)من سوره الفرقان.

و من الطریف هنا أنّ روایات عدیده تفسّر الآیه بأنّ المراد منها من ترک إمامه

و قائده الإلهی و اتبع هواه (۱) .

و هذه الرّوایات المنقوله عن الإمام الباقر علیه السّلام و الإمام الصادق علیه السّلام و بعض الائمّه الطاهرین علیهم السّلام..هی من قبیل المصداق البارز..و بتعبیر آخر:إنّ الإنسان محتاج لهدایه اللّه...هذه الهدایه تاره تنعکس فی کتاب اللّه،و اخری فی وجود النّبی و سنته،و أخری فی و أوصیائه المعصومین،و أخری فی منطق العقل.

المهم أن یکون الإنسان فی خطّ الهدایه الإلهیه غیر متبع لهواه،لیستطیع أن یستضیء بهذه الأنوار.

۱- ۱) -هذه الرّوایات فی أصول الکافی و بصائر الدرجات طبقا لما فی نور الثقلین،ج ۴،ص ۱۳۲.

الآيات [سوره القصص (٢٨): الآيات ۵۱ الى ۵۵]

اشاره

وَ لَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ اَلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۵۱) اَلَّذِينَ آتَيْناهُمُ اَلْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (۵۲) وَ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنّا بِهِ إِنَّهُ اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنّا كُنّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (۵۳) أُولٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ اَلسَّيِّئَةَ وَ مِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (۵۴) وَ إِذا سَمِعُوا اَللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَ قالُوا لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي اَلْجاهِلِينَ (۵۵)

سبب النّزول

نقل المفسّرون و رواه الأخبار روايات كثيره و مختلفه فى شأن نزول الآيات المتقدمه،و الجامع المشترك فيها واحد،و هو إيمان طائفه من علماء اليهود و النصارى و الأفراد الذين يتمتعون بقلوب طاهره-بالقرآن و نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله.

فعن«سعيد بن جبير»أن هذه الآيات نزلت فى سبعين قسّا مسيحيا بعثهم النجاشى من الحبشه إلى مكّه للتحقيق و الاطلاع على دين النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله،فلمّا

قرأ عليهم نبيّ الإسلام سوره«يس»دمعت عيونهم شوقا و أسلموا (۱) .

و قال بعضهم:هذه الآيات نزلت فى نصارى نجران«مدينه فى شمال اليمن» جاءوا إلى النّبى فسمعوا آيات القرآن فآمنوا به (۲) .

و قال آخرون:بل نزلت فى النجاشى و قومه. (۳)

كما يرى بعضـهم أنّها نازله فى«سـلمان الفارسى»و جماعه من علماء اليهود، كعبد اللّه بن سلام و تميم الدارى و الجارود العبدى و أضرابهم (۴) .

و أخيرا فـإنّ بعضـهم يرى أنّ الآيات تشـير إلى أربعين عالما مسـيحيا من ذوى الضـمائر حيّه و النيره،جاء اثنان و ثلاثون منهم مع جعفر بن أبى طالب من الحبشه،و ثمانيه آخرون من الشام،من بينهم«بحيرا»الراهب الى النّبى صلّى اللّه عليه و آله فأسلموا. (۵)

و بالطبع فإنّ الرّوايات الثلاث تتناسب مع نزول الآيات فى مكّه،كما أنّها تـدعم قول من يرى بأن جميع آيات هذه السوره مكيه.و لكن الروايه الرابعه و الروايه الخامسه تـدلّان على أن هـذه الآيات الآنفه نزلت بالمـدينه استثناء، كما أنّهما تـدعمان قول القائلين على أنّ الآيات المتقدمه مدنيه لا مكيه.

و على كـل حـال فإن هـذه الآيات«شواهـد بليغه»تـدل على أن جماعه من علماء أهل الكتاب أعلنوا إسـلامهم حين سـمعوا آيات القرآن...لأنّه لا يمكن لنبى الإسـلام صـلّى اللّه عليه و آله أن يقول مثل هـذا.و لم يكن أحـد من أهل الكتاب قد آمن به بعد لأنّ المشركين كانوا ينهضون فورا و يقومون بالصياح و الضجيج لتكذيب النّبى صلّى اللّه عليه و آله.

ص :۲۵۲

۱- ۱) -تفسير فى ظلال القرآن،ج ۶،ص ۳۵۷،و ۳۵۸.

۲- ۲) -المصدر السابق.

۳- ۳) -المصدر السابق.

۴- ۴) -مجمع البيان،ج ۷،ص ۲۵۸.

۵- ۵) -المصدر السابق.

التّفسير

اشاره

طلاب الحق من أهل الكتاب آمنوا بالقرآن:

حيث أنّ الآيات السابقه كانت تتحدث عن حجج المشركين الواهيه أمام الحقائق التى يقدّمها القرآن الكريم،فإنّ هذه الآيات محل البحث تتحدث عن القلوب المهيّأه لقبول قول الحق و التى سمعت هذه الآيات اهتدت الإسلام و بقى أصحابها متمسكين بالإسلام أوفياء له فى حين أنّ قلوب الجاهليين المظلمه لم تتأثر بها.، يقول القرآن فى هذا الصدد:لقد أنزلنا لهم آيات القرآن تباعا وَ لَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۱) .

هذه الآيات نزلت عليهم نزول المطر المتصله قطراته و جاءت الآيات على أشكال متنوعه،و كيفيات متفاوته،فتاره تحمل الوعد بالثواب،و تاره الوعيد بالنّار،و أخرى الموعظه و النصيحه،و أخرى تنذر و تهدد.و أحيانا تحمل استدلالات عقليه،و أحيانا تحمل قصص الماضين و تأريخهم الملىء بالعبر، و خلاصه كامله من الأحداث المتجانسه التى يؤمن بها أى قلب فيه أقل استعداد للإيمان،حيث أنّها تجذب القلوب إليها...إلاّ أن عمى القلوب لم يذعنوا لها.

إلاّ أنّ(اليهود و النصارى) اَلَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ .لأنّهم يرونه منسجما مع ما ورد فى كتبهم السماويه من علامات و دلائل!.

و من الطريف هنا أنّهم كانوا جماعه من«أهل الكتاب»،إلاّ أن الآيات المتقدمه تحدثت عنهم بأنّهم«أهل الكتاب»دون قيد أو تبعيض أو أى شىء آخر، و لعلها تشير إلى أنّهم أهل الكتاب حقّا،أمّا سواهم فلا.

۱- ۱) -«وصّلنا»مأخوذ من ماده«وصل»أى ربط،و حيث أنّها جاءت من باب التفعيل،فهى تدل على الكثره،و يستفاد منها التأكيد أيضا..

ثمّ يضيف القرآن فی وصفهم قائلا: وَ إِذٰا يُتْلىٰ عَلَيْهِمْ قٰالُوا آمَنّٰا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنٰا .

أجل:كانت تلاوه الآيات عليهم كافيه لأن يقولوا«آمنا»...ثمّ يضيف القرآن متحدثا عنهم:إنّنا مسلمون لا فی هذا اليوم فحسب،بل إِنّٰا كُنّٰا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ إنّنا وجدنا علائم النّبی صلّی اللّه عليه و آله فی كتبنا السماويه و تعلقت قلوبنا به،و انتظرناه بفارغ الصبر-و فی أوّل فرصه وجدنا بها ضالتنا أمسكنا بها-و قبلناه«بقلوبنا و أرواحنا».

ثمّ يتحدث القرآن الكريم عن هذه الجماعه التی آمنت بالنّبی من غير تقليد أعمی،و إنّما طلبا للحق،فيقول: أُولٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمٰا صَبَرُوا .

فمرّه لإيمانهم بكتابهم السماویّ الذی كانوا صادقين أوفياء لعهدهم معه...

و مرّه أخری لإيمانهم بنبیّ الإسلام العظيم صلّی اللّه عليه و آله النّبی الموعود المذكور عندهم فی كتبهم السماويه.

و يحتمل-أيضا-كما هو مستفاد من الآيات المتقدمه،إنّما يؤتون أجرهم مرتين؛لأنّهم آمنوا بنبی الإسلام قبل ظهوره،و حين ظهر لم يكفروا به بل آمنوا به كذلك.

و هؤلاء بذلوا جهدا و صبروا زمانا طويلا ليؤدوا ما عليهم من وظيفه و مسئوليه...و لم يرض بأعمالهم المنحرفون من اليهود و لا النصاری،و لم يسمح لهم تقليد السابقين و الجوّ الاجتماعی أن يتركوا دينهم و يسلموا،إلاّ أنّهم وقفوا و صبروا و تجاوزوا هوی النفس و المنافع الذاتيه،فنالوا ثواب اللّه و أجره مرّتين.

ثمّ يشير القرآن الكريم إلی بعض أعمالهم الصالحه من قبيل«دفع السيئه بالحسنه»و«الإنفاق ممّا رزقهم اللّه»و«المرور الكريم باللغو و الجاهلين» و كذلك الصبر و الاستقامه،و هی خصال أربع ممتازه.

حيث يقول فى شأنهم القرآن الكريم: وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَهِ السَّيِّئَهَ .

يدرءون بالكلام الطيب الكلام الخبيث،و بالمعروف المنكر،و بالحلم الجهل و الجاهلين،و بالمحبّه العداوه و البغضاء،و بصله الرحم من يقطعها،و الخلاصه أنّهم بدلا من أن يدفعوا السيئه بالسيئه فإنّهم يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَهِ السَّيِّئَهَ! .

و هذا أسلوب مؤثر جدّا فى مواجهه المفاسد و مبارزتها،و لا سيما فى مواجهه اللجوجين و المعاندين.

و قد أكّد القرآن الكريم على هذا الأسلوب مرارا و كرارا،و قد سبق أن بحثنا فى هذا المجال بشرح مبسّط فى ذيل الآيه(۲۲)من سوره الرعد و ذيل الآيه (۶۹)من«سوره المؤمنون».

و الخصله الأخرى فى هؤلاء الممدوحين بالقرآن أنّهم وَ مِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ .

و ليس الإنفاق من الأموال فحسب،بل من كل ما رزقهم اللّه من العلم و القوى الفكريه و الجسميّه و الوجاهه الاجتماعيه،و جميع هذه الأمور من مواهب اللّه و رزقه-فهم ينفقون منها فى سبيل اللّه!.

و آخر صفه ممتازه بيّنها القرآن فى شأنهم قوله: وَ إِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ .

و لم يردّوا الجهل بالجهل و اللغو باللغو،بل قالُوا لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ .

فلا تحاسبون بجريره أعمالنا،و لا نحاسب بجرمكم و جريره أعمالكم، و لكن ما أسرع ما سيجد كل منّا نتيجه عمله.

ثمّ يضيف القرآن فى شأنهم حين يواجهون الجاهلين الذين يتصدون لإثاره المؤمنين باللغو و ما شاكله،حيث يقولون: سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِى الْجاهِلِينَ .

فلسنا أهلا للكلام البذىء،و لا أهلا للجهل و الفساد،و لا نبتغى ذلك،إنّما

نبتغى العلماء و أصحاب الضمائر الحيّه و العاملين المؤمنين الصادقين.

و على هـذا فبـدلا من أن يهـدروا قـواهم فى مـواجهه الجـاهلين عمى القلـوب و أهـل الكلاـم البـذى،يمرون عليهم كراما ليؤدوا أهدافهم و مناهجهم الأساسيه.

الجدير بالذكر أنّ هؤلاء حين يواجهون الجاهلين،لا يسلّمون عليهم سلام تحيه و استقبال، بل سلام وداع.

ملاحظه!

اشاره

القلوب المهيّأه للإيمان:

رسمت الآيات المتقدمه للقلوب التى تقبّلت بذور الإيمان رسما جميلا و بليغا.

فهى ليست من نسيج الأشخاص الانتهازيين الذين ملئت قلوبهم من التعصب و الجهل،و الكلام البذىء السىء الفارغ،و البخل و الحقد،و ما إلى ذلك!!.

إنّ هؤلاـء العظمـاء من الرجـال و النسـاء حطموا قبل كلّ شـىء القيود التى فرضـها التقليـد الأعمى،ثمّ أصـغوا بكلّ دقّه إلى نـداء التوحيد،و حين وجدوا الدلائل الحقه بقدر كاف استجابوا له!.

و لاـ شـكّ أن على هؤلاـء أن يـدفعوا ثمنـا غاليـا،لأنّهم خرجوا عن طوق التقليـد الأعمى و حطموا أغلاله،و تحرروا عن محيطهم المنحرف،و عليهم أن يتحملوا الكثير من المشاكل و المتاعب فى هـذا السبيل و لكنّهم يتمتعون بصبر و اسـتقامه فى سبيل هدفهم الكبير ما يعينهم على تحمل تلك الشدائد و المصاعب..

فهؤلاء ليسوا حاقدين،و لا يردون السوء بالسوء،و لا هم بخلاء و لا خسيسون،ليجعلوا المواهب الإلهيه خاصه بهم!.

إنّهم أناس عظام بعيدون عن الكذب و الانشغال غير الصحيح،و الكلام

الفارغ الركيك،و المزاح و غيره.

لهم ألسنه طيبه و قلوب أطيب،و لا يضيعون طاقاتهم فی الردّ علی الجهلاء..

بل فی کثیر من الأحیان یفضلون السکوت علی الکلام و الردّ علی الجهّال!.

و یفکرون فی أعمالهم و مسئولیاتهم،و یمضون کأنهم الظماء إلی النبع.

الظماء إلی العلم و المتشوّقون لحضور مجالس العلماء و الفقهاء.

أجل هؤلاء العظام هم الذین یستطیعون أن یستوعبوا رساله الإیمان فی نفوسهم،لیؤتوا أجرهم..لا مرّه واحده،بل یؤتیهم اللّه أجرهم مرّتین بما صبروا!.

هؤلاء أمثال سلمان الفارسی و النجاشی و بحیرا الراهب الذین هم فی خط واحد و فی جبهه واحده،و الذین بذلوا جهدا و قاوموا أنواع الصعاب لیصلوا إلی معنی«الإیمان».

و من الطریف أنّنا نقرأ

حدیثا للإمام الصادق علیه السّلام فی هذا الصدد یقول: «نحن صبر و شیعتنا أصبر منّا و ذلک أنا صبرنا علی ما نعلم و صبروا علی ما لا یعلمون» تأملوا لو أن شخصین من المؤمنین توجها إلی میدان الجهاد،أحدهما یعلم بانتهاء الأمر و أن عاقبه جهاده النصر،و الآخر لا یعلم،أ لا یکون صبر الثّانی أکثر من صبر الأول؟!.

أو نقول-مثلا-أنّ القرائن تدل علی أن کلا منهما سیشرب من کأس الشهاده،لکن أحدهما یعلم ما فی شهادته من أسرار خفیه و ماذا ستحرک من أمواج علی مدی الأعصار و القرون المتمادیه،و أنّه سیکون أسوه و قدوه للأحرار...أمّا الثّانی فلا یعرف شیئا عن ذلک،فلا شک أن الثّانی أصبر من الأوّل فی هذا الصدد.

و فی حدیث آخر ورد فی تفسیر علی بن ابراهیم قال:«اللغو» الکذب، «اللهو»الغناء،و المعرضون عن اللغو و«المتقون»هم الأئمّه علیهم السّلام یعرضون عن

ذلک کلّه [(۱)](#) .

و واضـح أنّ الحدیثین من قبیل المصداق البارز،و إلاّ فإنّ مفهوم«اللغو» أوسع و یشـمل غیر ما ذکرنا،و«المعرضون عن اللغو»أیضـا هم جمیع المؤمنین الصادقین،و إن کان الأئمّه علیهم السّلام فی طلیعتهم!

۱- ۱) -تفسیر القمی،ج ۲،ص ۱۴۲.

الآیتان [سوره القصص (۲۸): الآیات ۵۶ الی ۵۷]

اشاره

إِنَّکَ لاٰ تَهْدِی مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لٰکِنَّ اَللّٰهَ یَهْدِی مَنْ یَشٰاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِینَ (۵۶) وَ قٰالُوا إِنْ نَتَّبِعِ اَلْهُدیٰ مَعَکَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنٰا أَ وَ لَمْ نُمَکِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً یُجْبیٰ إِلَیْهِ ثَمَرٰاتُ کُلِّ شَیْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنّٰا وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لاٰ یَعْلَمُونَ (۵۷)

التّفسیر

اشاره

الهدایه بید اللّه وحده!..

بالرغم من أن بحوثا کثیره و روایات وردت فی الآیه الأولی من هاتین الآیتین المتقدمتین و شأن نزولها،إلاّ أنّها-کما سنری- روایات غیر معتبره و لا قیمه لها،حتی کأنّها رویت لأغراض و مقاصد خاصّه،و لذلک رأینا أن نفسّر الآیه من القرآن نفسه ثمّ نعالج الرّوایات المشکوکه أو المجعوله.

و مع الالتفات إلی أن الآیات السابقه کانت تتحدث عن طائفتین:طائفه من مشرکی أهل مکّه المعاندین،کان رسول صلّی اللّه علیه و آله شدید الإصرار علی هدایتهم،لکنّهم لم یهتدوا و لم یذعنوا لنور الإیمان.و طائفه من أهل الکتاب و الأفراد البعیدین عن مکّه،تلقوا هدایه اللّه برحابه صدر و بعشق وضحوا فی سبیل الإسلام،و آثروا

على أنفسهم مصلحه الإسلام،و لم يكترثوا بعناد قومهم الجاهلين الأنانيين،و لم يستوحشوا من الضغوط و العزله و ما إلى ذلك!.

فمع الالتفات إلى كل هذه الأمور،نلاحظ أن الآيه الأولى من هاتين الآيتين تكشف الستار عن هذه الحقيقه فتقول: إِنَّكَ لاٰ تَهْدِی مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ يَهْدِی مَنْ يَشٰاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

فاللّه يعلم من هم الجديرون بالإيمان..و أيّه قلوب تطلب الحقّ و هو يعرف العاشقين له.

أجل،هو يعرف هؤلاء و يوفقهم بلطفه ليسيروا نحو الإيمان.

أمّا الذين أظلمت قلوبهم و ساءت سيرتهم و عادوا الحق فی الخفاء و نهضوا بكل ما عندهم من قوه بوجه رسل اللّه،و قد تلوثت قلوبهم فی حياتهم إلى درجه لم يكونوا جديرين بنور الإيمان فاللّه سبحانه لا يضع مصباح التوفيق فی طريقهم أبدا.

إذن،و بناء على ما تقدم،ليس المقصود من الهدايه«إراءه الطريق»،لأنّ إراءه الطريق هی من وظيفه النّبی صلّی اللّه عليه و آله،و تشمل جميع الناس دون استثناء،بل المقصود من الهدايه هنا هو«الإيصال للمطلوب و الهدف»،و الإيصال إلى المطلوب و إلى الهدف هو بيد اللّه وحده،الذی يغرس الإيمان فی القلوب،و ليس هذا العمل اعتباطا و دون حساب،فهو تعالى ينظر إلى القلوب المهيأه و المستعده ليهبها نور السماء! و على كل حال،فإنّ هذه الآيه بمثابه التسليه و التثبيت لقلب النّبی ليطمئن إلى هذه الحقيقه، و هی إنّه لا-إصرار المشركين و عنادهم و إن كانوا من أهل مكّه، و لا-إيمان أهل الحبشه و نجران و غيرهما أمثال سلمان الفارسی و بحيرا الراهب من دون دليل و سبب.

فعليه أن لا يكترث لعدم إيمان الطائفه الأولى،فإن اللّه يقذف نوره فی

القلوب المهيأه للنور و يبسط عليها خيمته!.

و نظير هذا المضمون كثير فی آيات القرآن!.

إذ نقرأ فی الآيه(۲۷۲)من سوره البقره قوله تعالی: لَيْسَ عَلَيْكَ هُدٰاهُمْ وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ يَهْدِی مَنْ يَشٰاءُ .

و فی الآيه(۳۷)من سوره النمل إِنْ تَحْرِصْ عَلىٰ هُدٰاهُمْ فَإِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِی مَنْ يُضِلُّ .

و فی الآيه(۴۳)من سوره يونس أَ فَأَنْتَ تَهْدِی الْعُمْیَ وَ لَوْ كٰانُوا لاٰ يُبْصِرُونَ .

كما نقرأ أيضا فی الآيه(۴)من سوره إبراهيم ما هو بمثابه القانون العام فَيُضِلُّ اللّٰهُ مَنْ يَشٰاءُ وَ يَهْدِی مَنْ يَشٰاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

فالآيه الأخيره تدلّ دلاله واضحه علی أن المشيئه الإلهيه فی شأن هاتين الطائفتين«جماعه الهدی و جماعه الضلال»ليست دون حساب،بل هی طبقا للجداره و اللياقه و سعی الأفراد أنفسهم...فاللّه يهب توفيقه علی هذا الأساس، و يهدی من يشاء إلی صراط مستقيم،و يسلب الهدی ممن يشاء فيضلون السبيل.

و فی الآيه الثّانيه-من الآيتين محل البحث-يتحدث القرآن الكريم عن طائفه اعترفوا بالإسلام فی واقعهم و أيقنت به قلوبهم، إلاّ أنّهم لم يظهروا إيمانهم بسبب منافع شخصيه و ملاحظات ذاتيه،حيث يقول: وَ قٰالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدیٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنٰا (۱)
.

ورد فی كتب التّفسير أن الذی قال: إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدیٰ مَعَكَ إلخ..هو «الحارث بن نوفل»،حيث قال للنّبی صلّی اللّه عليه و آله:إنّنا نعرف أن ما تقوله حق،لكن الذی يمنعنا من اتباعك و الإيمان بك،خوفنا من هجوم العرب علينا ليطردونا من

ص: ۲۶۱

---

۱ – ۱) -كلمه«معك»فی الآيه الآنفه متعلقه ب«نتبع»،و يحتمل أن تكون كلمه«معك»متعلقه ب«الهدی»و يكون التفاوت فی المعنی يسيرا..

أرضنا،و لا طاقه لنا على ردّهم (۱) .

هذا الكلام لا يقوله إلّا من يستضعف قدره اللّه و يرى أن قدره حفنه من العرب الجاهليين عظيمه!!و هذا الكلام لا يصدر إلّا من قلب لا يعرف عنايه اللّه و حمايته،و لا يعرف كيف ينصر اللّه أولياءه و يخذل أعداءه،لذلك يقول القرآن ردّا على مثل هذه المزاعم أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبىٰ إِلَيْهِ ثَمَرٰاتُ كُلِّ شَيْءٍ (۲) ... وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ .

اللّه الذى جعل هذه الأرض المالحه و المليئه بالصخور و الخاليه من الأشجار و الأنهار،جعلها حرما تهفوا إليه القلوب،و يؤتى إليه بالثمرات من مختلف نقاط العالم،كل ذلك بيد قدرته القاهره.

فإنّ من له هذه القدره على اقرار«الأمن»و جبابه«النعم»إلى هذا المكان و هؤلاء يرون ذلك بأعينهم،كيف لا يكون قادرا على أن يحفظكم من هجوم حفنه من الجاهليين عبّاد الأوثان؟! فقد كنتم فى زمان الكفر مشمولين بنعمتى اللّه العظيمتين«الأمن و المواهب المعاشيه»فكيف يمكن أن يحرمكم اللّه منهما بعد الإسلام؟! لتكن قلوبكم قويه و آمنوا بما انزل إليكم فإنّ ربّ الكعبه و ربّ مكّه معكم.

هنا،ينقدح هذا السؤال،و هو:إن التأريخ يدل على أن حرم مكّه لم يكن آمنا للمسلمين للغايه،أ لم تعذب طائفه من المسلمين فى مكّه؟أ لم يرموا النّبى صلّى اللّه عليه و آله بالأحجار الكثيره؟!أ لم يقتل بعض المسلمين فى مكّه؟!أ لم يهاجر جماعه من المسلمين من مكّه مع جعفر بن أبى طالب رضى اللّه عنه و جماعه آخرون مع النّبى صلّى اللّه عليه و آله آخر الأمر لعدم الأمن فى مكّه؟!

۱- ۱) -مجمع البيان-ذيل الآيه محل البحث...

۲- ۲) -«يجبى»مشتق من ماده«جبايه»[«و نمكن»فى الآيه بمعنى نجعل] و الجبابه معناها الجمع،لذلك يطلق على الحوض الذى يجمع فيه الماء جابيه...و نصب كلمه«حرم»على أنّها مفعول لنمكن.

فنقول جوابا على ذلک:

أوّلا:مع جميع هذه الأمور ما تزال مکّه أکثر أمنا من النقاط الأخرى..و کان العرب يحترمونها و يقدسونها،و بالرغم من أنّهم کانوا يقدمون على جرائم متعدده فى أماکن أخرى،إلاّ أنّهم کانوا يحجمون عن الإتيان بمثلها فى مکّه.

و الخلاصه:فمع عدم الأمن العام و الکلى کانت مکّه تتمتع بالأمن النسبى و لا سيما أن الأعراب خارجها کانوا يراعون أمنها و قداستها.

ثانيا:صحيح أن هذه الأرض التى جعلها اللّه حرما آمنا أضحت لفتره وجيزه غير آمنه على أيدى جماعه...إلاّ أنّها سرعان ما تحولت إلى مرکز کبير للأمن و تواتر النعم الکثيره المتعدده،فعلى هذا لم يکن تحمل هذه الصعاب المؤقته من أجل الوصول للنعم العظيمه،أمرا عسيرا و معقدا.

و على کل حال،فإنّ کثيرا ممن يقلقون على منافعهم الشخصيه،کالحارث بن نوفل،لا يسلکون سبيل الهدايه و الإيمان...فى حين أنّ الإيمان باللّه و التسليم لأمره،لا يؤمن المنافع المعنويه لهم فحسب،بل يؤمن لهم المحيط الصحيح و المنافع الماديه المشروعه و ما إلى ذلک.و عدم الأمن و الغارات و الحروب التى نجدها فى عصر التمدن-کما يصطلح عليه-و فى الدنيا البعيده عن الإيمان و الهدايه،کل هذه الأمور شاهد حى على هذا المدّعى!.

و من الضرورى الالتفات إلى هذه النقطه الأساسيه،و هى أنّ اللّه سبحانه أوّل ما يذکر من نعمه نعمه الأمن،ثمّ يذکر جلب الثمرات و الأرزاق و غير ذلک من جميع الأنحاء إلى مکّه،و يمکن أن يکون هذا التعبير مبيّنا هذا الواقع،و هو:طالما کان الأمن حاکما فى بلد کان اقتصاده جيدا،و إلاّ فلا،«قد بيّنا هذا الأمر فى بحثنا للآيه ۳۵ سوره إبراهيم».

کما أنّ الجدير بالذکر أنّ«يجبى»جاءت على صيغه الفعل المضارع الذى يدل على الاستمرار فى الحال و الاستقبال،و نحن اليوم و بعد مرور أربعه عشر

قرنـا،نری بـأم أعیننا مفهوم هـذا الکلام و اسـتمرار جبایه جمیع أنواع المواهب إلی هـذه الأرض المبارکه،فالـذین یحجّون مکّه و یزورون بیت اللّه الحرام،یرون بأعینهم هذه الأرض الجرداء الحاره التی لا تنبت شیئا،کم فیها من النعم!فکأن مکّه غارقه بها،و لعل أیه نقطه من العالم لیس فیها ما فی مکّه من هذه النعم الوفیره.

ملاحظه

اشاره

إیمان أبی طالب و الضجیج حوله:

هذا الموضوع یبدو عجیبا لمن کان من أهل البحث و المطالعه..فکیف یصرّ جماعه من رواه الأخبار علی أن یزعموا أنّ أبا طالب علیه السّـلام عم النّبی کان مشـرکا و غیر مؤمن و أنّه مات کافرا!!و هو بإجماع المسـلمین کان من الـذین بذلوا تضـحیات منقطعه النظیر،و حمی نبیّ الإسـلام صـلّی اللّه علیه و آله و ضـحّی من أجله؟! و لم لا یکون هذا الإصـرار بالنسـبه للآخرین الذین لا حظّ لهم فی تأریخ الإسلام؟! هنا نعرف أنّ المسأله لیست مسأله عادیه..ثمّ بأقل ملاحظه و تدقیق نصل إلی هذه النتیجه،و هی أنّ وراء هذه البحوث التاریخیه و الروائیه لعبه سیاسیّه خطیره من أعداء علی علیه السّلام و مناوئیه!فقد کانوا یصرّون علی سلب کل فضیله له، حتی جعلوا أباه المضحّی و الفادی للنبی و المؤثر له علی نفسه یموت کافرا بزعمهم!!.

و من المؤکّد أنّ بنی أمیه و مریدیهم فی عصـرهم،و قبل أن یصـلوا إلی دفه الحکومه،سـعوا ما اسـتطاعوا إلی ذلک سبیلا لإثبات مدعاهم بالشواهد و الحجج الواهیه.

و نحن بقطع النظر عن هـذه الأـمواج السياسيه المنحرفه و الملوثه،التی هی بنفسـها تسـتحق المطـالعه من جهات متعـدده...نبحث المسـأله علی أسـاس أنّهـا مسـأله بنفسـها تسـتحق المطـالعه من جهـات متعـدده...نبحث المسأله علی أساس أنّها مسأله تأریخیه و تفسـیریه بحته،بشـکل موجز و مضـغوط(کما یقتضـیه وضع الکتاب)لیتّضح أن لیس وراء هذا الضـجیج أی سـند معتبر،بل هناک شواهد حیّه ضده!.

۱-إن الآـیه محـل البحث إِنَّکَ لاٰـ تَهْـدِی مَنْ أَحْبَبْتَ لیس لهـا علاقه بأبی طالب کما بیّنا،و قلنا:إن الآیات التی جاءت قبلها تـدل بصوره واضحه أنّها فی شأن جماعه من أهل الکتاب المؤمنین،فی مقابل مشرکی مکّه.

الطریف أن الرازی الذی یزعم أن الآیه نزلت فی أبی طالب علیه السّـلام بإجماع المسـلمین!!یصـرّح بأن الآیه لیس فیها أقل دلاله علی کفر أبی طالب (۱) .

و لکن مع هذه الحال فلما ذا یصرون فیها علی أن یکون أبو طالب علیه السّلام مشرکا؟فهذه مسأله غریبه و مدعاه للدهشه!..

۲-و أهم دلیل لدیهم فی هذا المجال أنّهم ادعوا إجماع المسلمین علی أن أبا طالب مات مشرکا!.

فی حین أن مثل هذا الإجماع کذب محض لا أساس له،و هو عار عن الصحه.

فالمفسّـر المعروف«الآلوسی»-و هو من علمـاء السـنه-صـرح فی تفسـیر روح المعـانی أنّ هـذه المسـأله لیست إجماعیه،و حکایه الإجماع من قبل المسـلمین أو المفسّرین علی أنّ الآیه المتقدمه نزلت فی أبی طالب تبدو غیر صحیحه...لأنّ علماء الشیعه و جمع کثیر من المفسّـرین یعتقـدون بإسـلام أبی طـالب،و ادّعی أئمّه أهـل البیت علیهم السّـلام الإجماع علی ذلک،إضافه إلی أن أکثر قصائد

۱- ۱) -التّفسیر الکبیر للفخر الرازی،ج ۲۵،ص ۳.

أبی طالب تشهد علی إیمانه (۱) .

۳-التدقیق و البحث یدل علی أن هذا الإجماع المزعوم هو من قبل أخبار الآحاد الذین لا اعتبار لهم،و فی سند هذه الروایات أفراد مشکوک فیهم کذابون.

و من هذه الرّوایات ما نقله ابن«مردویه»بسنده عن ابن عباس أن آیه إِنَّکَ لاٰ تَهْدِی مَنْ أَحْبَبْتَ نزلت فی شأن أبی طالب،و قد أصرّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله علیه أن یؤمن فلم یؤمن (۲) .

فی حین أنّ فی سند هذه الروایه«أبو سهل السری»الذی عرف بین کبار أصحاب علم الرجال بأنّه من الکذابین الوضّاع السارقین للحدیث.کما أنّ فی سند هذه الرّوایه«عبد القدوس أبو سعید الدمشقی» و هو من الکذابین أیضا (۳) .

و ظاهر تعبیر الحدیث یدل علی أن ابن عباس ینقل هذا الحدیث من غیر واسطه و کان شاهدا علی ذلک،فی حین أنّنا نعرف أن ابن عباس ولد قبل الهجره بثلاث سنوات،فعلی هذا کان لا یزال رضیعا عند ما مات أبو طالب علیه السّلام...و من هنا نستنتج أنّ واضعی الحدیث حتی فی هذا العمل کانوا مبتدئین و ناشئین!!.

و هناک حدیث آخر فی هذا المجال

ینقله«أبو هریره»إذ یقول: حین دنت وفاه أبی طالب قال له النّبی صلّی اللّه علیه و آله:یا عم قل:لا إله إلاّ اللّه،لأشهد لک یوم القیامه عند اللّه بالتوحید،فقال أبو طالب:لو لا أن قریشا تقول إن أبا طالب أظهر الإیمان حال الموت خوفا،لکنت أشهد بالتوحید و أقرّ عینیک،فنزل قوله تعالی: إِنَّکَ لاٰ تَهْدِی مَنْ أَحْبَبْتَ (۴) .

و یبدو من ظاهر هذا الحدیث أن أبا هریره کان شاهدا علی هذه القضیه،فی حین أنّنا نعرف أن أبا هریره أسلم سنه فتح خیبر،بعد الهجره بسبع سنین،فأین

۱- ۱) -روح المعانی،ج ۲،ص ۸۴ ذیل الآیه محل البحث.

۲- ۲) -الدر المنثور،ج ۵،ص ۱۳۳.

۳- ۳) -الغدیر،ج ۸،ص ۲۰.

۴- ۴) -الدر المنثور،ج ۵،ص ۱۳۳.

أبو هريره من وفاه أبى طالب التى حدثت قبل الهجره...؟!! و إذا قيل أن ابن عباس و أبا هريره لم يكونا شاهدين على هذه القضيه، و سمعا هذه القصّه من شخص آخر فإننا نسأل من هو هذا الشخص؟!فالذى نقل هذا الحديث لهذين الشخصين-إذا-مجهول،و مثل هذا الحديث يعرف عند أهل الحديث بالمرسل،و الجميع يعلمون بأن لا اعتبار للمراسيل! و من المؤسف أنّ جماعه من رواه الأخبار و المفسّرين نقلوا هذا الحديث بعضهم عن بعض دون تدقيق فى كتبهم،و شيئا فشيئا كوّنوا إجماعا لهذا الحديث! و لكن أىّ إجماع هذا؟أم أى حديث معتبر!؟! ۴-و بعد هذا كلّه،فإنّ متن هذه الأحاديث الموضوعه يدل على أن أبا طالب عليه السّلام كان مؤمنا بحقانيه النّبى،غايه ما فى الأمر لم يجر ذلك على لسانه لملاحظات خاصه...و نحن نعرف أن الإيمان هو بالقلب،و أمّا اللسان فهو طريق القلب،و فى بعض الأحاديث الإسلاميه شبه أبو طالب بأصحاب الكهف الذين كانوا مؤمنين و إن لم يقدروا على إظهار الإيمان على ألسنتهم (۱) .

۵-ثمّ هل يمكن القناعه بروايه مرسله عن أبى هريره أو ابن عباس فى مثل هذه المسأله المهمه،فلم لا يؤخذ بإجماع أئمه أهل البيت عليهم السّلام و إجماع علماء الشيعه،و هم أعرف بحال أسره النّبى و أهله!! إنّنا اليوم نحتفظ بأشعار كثيره لأبى طالب توضح إيمانه بالإسلام و رساله النّبى(محمّد)صلّى اللّه عليه و آله،و قد نقل هذه الأشعار طائفه من العلماء و الأفاضل فى كتبهم (و قد نقلنا طائفه منها فى ذيل الآيه ۲۶ من سوره الأنعام من مصادر سنيه معروفه)!.

۶-و مع غض النظر عن جميع ما تقدم،فإنّ تأريخ حياه أبى طالب و تضحياته العظيمه للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و علاقه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و المسلمين الشديده به إلى درجه

۱- ۱) -راجع فى هذا الصدد تفسير الصافى و تفسير البرهان ذيل الآيه محل البحث.

أنّ النّبی سمی عام وفاته ب«عام الحزن»کل ذلک یدل علی أنّه کان یعشق الإسلام،و لم یکن دفاعه عن النّبی علی أنّه أحد أرحامه،بل دفاع رجل مؤمن مخلص و عاشق نظیف و جندی مضحّ عن قائده و إمامه..فمع هذه الحاله،کم یبلغ الجهل و الغفله و الظلم و عدم الشکر بطائفه أن تصرّ علی أنّ هذا الرجل المخلص المؤمن الموحّد مات مشرکا (۱) .

۱- ۱) -هناک بحث مفصل أوردناه لدی تفسیر الآیه ۳۶ من سوره الأنعام.

الآیات [سوره القصص (٢٨): الآیات ۵٨ الی ۶٠]

اشاره

وَ کَمْ أَهْلَکْنٰا مِنْ قَرْیَهٍ بَطِرَتْ مَعِیشَتَهٰا فَتِلْکَ مَسٰاکِنُهُمْ لَمْ تُسْکَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاّٰ قَلِیلاً وَ کُنّٰا نَحْنُ اَلْوٰارِثِینَ (۵٨) وَ مٰا کٰانَ رَبُّکَ مُهْلِکَ اَلْقُریٰ حَتّٰی یَبْعَثَ فِی أُمِّهٰا رَسُولاً یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیٰاتِنٰا وَ مٰا کُنّٰا مُهْلِکِی اَلْقُریٰ إِلاّٰ وَ أَهْلُهٰا ظٰالِمُونَ (۵٩) وَ مٰا أُوتِیتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَمَتٰاعُ اَلْحَیٰاهِ اَلدُّنْیٰا وَ زِینَتُهٰا وَ مٰا عِنْدَ اَللّٰهِ خَیْرٌ وَ أَبْقیٰ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (۶٠)

التّفسیر

اشاره

لا تخدعنکم علائق الدنیا:

کان الحدیث فی الآیات المتقدمه یدور حول ما یدعیه أهل مکّه،و قولهم:إن نتبع الهدی معک نتخطف من أرضنا بهجوم العرب علینا،و تتکدر حیاتنا و یختل وضعنا المعاشی و الاقتصادی..و قد أجابت الآیات السابقه علی هذا الکلام بردّ بلیغ.

و فی هذه الآیات مورد البحث ردّان آخران علی کلامهم:

الأوّل:یقول..علی فرض أنّکم لم تؤمنوا،و حییتم فی ظل الشرک مرفهین

ماديّا،و لكن لا تنسوا أن تعتبروا بحياه من قبلكم ف كَمْ أَهْلَكْنٰا مِنْ قَرْيَهٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهٰا .

أجل،إنّ الغرور دعاهم إلى أن يبطروا من النعم،و البطر أساس الظلم،و الظلم يجرّ حياتهم إلى النّار... فَتِلْكَ مَسٰاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاّٰ قَلِيلاً .

بلى...بقيت بيوتهم خاليه خربه متهدمه مظلمه لم يزرها و لم يسكنها أحد إلاّ لفتره قليله وَ كُنّٰا نَحْنُ الْوٰارِثِينَ .

فيا مشركى مكّه...أ تريدون أن تعيشوا حياه البطر و الكفر كما عاشه أولئك، و تكون عاقبتكم كعاقبتهم،فأى نفع فى ذلك؟!
كلمه«بطرت»مشتقّه من«بطر»على زنه«بشر»و معناه الطغيان و الغرور على أثر وفره النعم.

و التعبير ب«تلك»التى هى اسم إشاره للبعيد،و تستعمل غالبا للأمور التى يمكن مشاهدتها،و يحتمل أن يكون المقصود بها أرض«عاد و ثمود و قوم لوط» التى لا تبعد كثيرا عن أهل مكّه،و هى فى أرض الأحقاف بين اليمن و الشام،أو فى وادى القرى،أو فى أرض سدوم،و جميع هذه المناطق فى مسير قوافل التجار العرب الذين كانوا يمضون من مكّه إلى الشام،و كانوا يرون تلك البيوت بأم أعينهم خاليه خاويه لم تسكن إلاّ قليلا.

و جمله إِلاّٰ قَلِيلاً التى جاءت بصيغه الاستثناء،فيها ثلاثه احتمالات:

الاحتمال الأوّل:أن الاستثناء عن الساكنين.

و الاحتمال الثّانى:أنّه عن المساكن.

و الاحتمال الثّالث:أنّه عن السكن.

ففى الصوره الأولى يكون مفهومها أن جماعه قليله سكنتها«أى سكنت تلك المساكن».

و فى الصوره الثّانيه يكون مفهومها أن فتره قليله كان بها السكن فى هذه

«المساكن»لأنّ من يسكن فى هذه المساكن المشؤومه سرعان ما تنطوى فيها صفحه حياته.

و بالطبع فإنّ إراده المعانى الثلاثه من النصّ السابق لا يوجد لنا أى مشكله، و إن كان المفهوم الأوّل أظهر.

كما أن بعض المفسّرين قال:إنّ المقصود من هذه الآيه هو الإشاره إلى السكن المؤقت للمسافرين الذاهبين و الآئبين حيث يستريحون فيها لا أكثر، و فسرها آخرون بأنّها إشاره لسكن الحيوانات الوحشيه.

و القدر المسلم به أن هذه المساكن التى كانت ملوّثه بالإثمّ و الشرك أصبحت غير صالحه للسكن فهى خاويه و خاليه! و التعبير ب وَ كُنّا نَحْنُ الْوارِثِینَ إشاره إلى خلّوها من الساكنين،كما هى إشاره إلى أنّ مالكها الحقيقى هو اللّه سبحانه المالك لكل شىء،و إذا ما أعطى ملكا«اعتباريا»لأحد،فإنّه لا يدوم له طويلا حتى يرثه اللّه أيضا.

و الآيه الثّانيه فى الحقيقه جواب عن سؤال مقدر،و هو:إذا كان الأمر كذلك، بأن يهلك اللّه الطغاه،فلم لم يهلك المشركين من أهل مكّه و الحجاز،الذين بلغوا حدّا عظيما من الطغيان،و لم يكن إثم و لا جهل إلاّ و ارتكبوه،و لم لم يعذبهم اللّه بعذابه الأليم؟ يقول القرآن فى هذا الصدد وَ ما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرىٰ حَتّٰى يَبْعَثَ فِی أُمِّها رَسُولاً یَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا .

أجل..لا يعذب اللّه قوما حتى يتمّ عليهم حجّته و يرسل إليهم رسله،و حتى بعد إتمام الحجّه،فما لم يصدر ظلم يستوجب العذاب فإنّ اللّه لا يعذبهم،و هو يراقب أعمالهم، وَ ما كُنّا مُهْلِكِی الْقُرىٰ إِلاّ وَ أَهْلُها ظالِمُونَ .

و التعبير ب ما كُنّا أو وَ ما كانَ رَبُّكَ دليل على أن سنه اللّه الدائمه و الأبديه التى كانت و لا زالت،هى أن لا يعذب أحدا إلاّ بعد إتمام الحجه الكافيه.

ص:٢٧١

و التعبير ب حَتّٰى يَبْعَثَ فِي أُمِّهٰا رَسُولاً إشاره إلى عدم لزوم إرسال الرسل إلى جميع المدن،بل يكفى أن يبعث فى مركز كبير من مراكزها التى تنشر العلوم و الأخبار رسولا يبلغهم رسالاته!لأنّ أهل تلك المناطق فى ذهاب و إياب مستمر إلى المركز الرئيسى،لحاجتهم الماسه،و ما أسرع أن ينتشر الخبر الذى يقع فى المركز إلى بقيه الأنحاء القريبه و البعيده،كما انتشرت أصداء بعثه النّبى صلّى اللّه عليه و آله التى كانت فى مكّه-و بلغت جميع أنحاء الجزيره العربيه فى فتره قصيره!لأنّ مكّه كانت أم القرى،و كانت مركزا روحانيا فى الحجاز،كما كانت مركزا تجاريا أيضا..فانتشرت أخبار النّبى صلّى اللّه عليه و آله،و وصلت جميع المراكز المهمّه فى ذلك الحين و فى فتره قصيره جدّا.

فعلى هذا تبيّن الآيه حكما كليا و عامّا،و ما يدّعيه بعض المفسّرين من أنّها إشاره إلى«مكّه»لا دليل عليه،و التعبير ب فِي أُمِّهٰا هو تعبير عام كلى أيضا..

لأنّ كلمه«أم»تعنى المركز الأصلى،و لا يختص هذا بمكّه فحسب (۱) .

و أخر آيه من هذا المقطع محل البحث تحمل الردّ الثّالث على أصحاب الحجج الواهيه،الذين كانوا يقولون للنّبى صلّى اللّه عليه و آله: إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنٰا و يبعدنا العرب من ديارنا،و هو قوله تعالى: وَ مٰا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتٰاعُ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا وَ زِينَتُهٰا وَ مٰا عِنْدَ اللّٰهِ خَيْرٌ وَ أَبْقىٰ ممّا عندكم من النعيم الفانى..إذ أنّ نعم الدنيا تشوبها الأكدار و المشاكل المختلفه،و لس من نعمه ماديه خاليه من الضرر و الخطر أبدا.

إضافه إلى ذلك فإنّ النعم التى عند اللّه«الباقيه»لا تقاس مع النعم الدنيويه الزائله،فنعم اللّه-إذن-خير و أبقى!.

فبموازنه بسيطه يعرف كل إنسان عاقل أنّه لا ينبغى أن يضحى بنعم الآخره

۱- ۱) -فى أن الآيه هل تشمل المستقلات العقليه أم لا،بحثنا فى ذلك بحثا مناسبا فى ذيل الآيه(۱۵)من سوره الإسراء.

من أجل نعم الدنيا،و لذلك تختتم الآيه بالقول: أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ ؟.

يقول«الفخر الرازى»نقلا عن أحد الفقهاء أنّه قال:لو أوصى أحد بثلث ماله إلى أعقل الناس،فإنى أفتى أن يعطى هذا المال لمن يطيع أمر اللّه،لأن أعقل الناس من يعطى المتاع القليل،(الفانى)ليأخذ الكثير(الباقى)و لا يصدق هذا،إلاّ فى من يطيع اللّه.

ثمّ يضيف الفخر الرازى..قائلا:فكأنّما استفاد هذا الحكم من الآيه محل البحث (۱) .

۱- ۱) -التّفسير الكبير للفخر الرازى،ج ۲۵،ص ۶.

الآيات [سوره القصص (۲۸): الآيات ۶۱ الى ۶۴]

اشاره

أَ فَمَنْ وَعَدْنٰاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاٰقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنٰاهُ مَتٰاعَ اَلْحَيٰاهِ اَلدُّنْيٰا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ اَلْقِيٰامَهِ مِنَ اَلْمُحْضَرِينَ (۶۱) وَ يَوْمَ يُنٰادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكٰائِيَ اَلَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (۶۲) قٰالَ اَلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ اَلْقَوْلُ رَبَّنٰا هٰؤُلاٰءِ اَلَّذِينَ أَغْوَيْنٰا أَغْوَيْنٰاهُمْ كَمٰا غَوَيْنٰا تَبَرَّأْنٰا إِلَيْكَ مٰا كٰانُوا إِيّٰانٰا يَعْبُدُونَ (۶۳) وَ قِيلَ اُدْعُوا شُرَكٰاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ رَأَوُا اَلْعَذٰابَ لَوْ أَنَّهُمْ كٰانُوا يَهْتَدُونَ (۶۴)

التّفسير

اشاره

أنّهم عبده الهوى:

كان الحديث فى الآيات المتقدمه عن الذين فضّلوا الكفر على الإيمان بسبب منافعهم الشخصيّه-و رجّحوا الشرك على التوحيد،و فى الآيات التى بين أيدينا يبيّن القرآن حال هذه الجماعه يوم القيامه قبال المؤمنين الصادقين.

ففى بدايه هذه الآيات يلقى القرآن سؤالا يقارن فيه بين المؤمنين

و الكافرين،و يثير الوجدان و يجعله حكما فيقول: أَ فَمَنْ وَعَدْنٰاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاٰقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنٰاهُ مَتٰاعَ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ .

و لا شك أن وجدان يقظ يرجّح وعود اللّه و مواهبه العظيمه الخالده،على نعم الدنيا التى لا تطول إلاّ أيّاما و تتبعها آلام و شقاء خالد؟! جمله فَهُوَ لاٰقِيهِ تأكيد على أن وعد اللّه لا يتخلف أبدا و لا بدّ أن يكون كذلك،لأنّ تخلف الوعد إمّا ناشئ عن الجهل أو العجز،و كلاهما مستحيل على ذات اللّه المقدسه.

و جمله هُوَ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ إشاره إلى الإحضار فى محضر اللّه يوم القيامه للحساب،و فسرها البعض بالإحضار فى نار جهنّم،و لكن التّفسير الأوّل أنسب كما يبدو،و على كل حال فإنّ هذا التعبير يدل بصوره واضحه على أنّ المجرمين يساقون مكرهين،و على غير رغبه منهم إلى تلك العرصات المخوفه،و ينبغى أن يكون الأمر كذلك...لأنّ وحشه الحساب و القضاء يوم القيامه و مشاهدها تغمر وجودهم هناك!.

و التعبير ب اَلْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا التى تكررت فى سور مختلفه من القرآن الكريم، إشاره إلى حقاره هذه الحياه بالنسبه للحياه الأخرى و الخلود فيها و عدم الزوال و الاضمحلال،لأنّ كلمه«دنيا»فى الأصل مأخوذه من«دنو»على زنه«غلو» و معناها القرب فى المكان أو الزمان أو المنزله و المقام،ثمّ توسّع هذا المفهوم ليطلق بلفظ«دنيا أو أدنى»على الموجودات الصغيره التى تحت اليد فى مقابل الموجودات الكبيره،و قد يطلق هذا اللفظ على الموضوعات التى لا قيمه لها فى مقابل الأشياء ذات القيمه العاليه،و ربّما استعمل فى القرب فى مقابل البعد.

و حيث أن هذه«الحياه»فى مقابل العالم الآخر صغيره و لا قيمه لها و قريبه أيضا، فإنّ تسميتها بالحياه الدنيا تسميه مناسبه جدّا.

بعد هذا،یأتی الکلام عن عرصات یوم القیامه و مشاهدها لیجسّده أمام الکفار،مشاهد یقشعر منها البدن حین یتصورها الإنسان،فیقول القرآن: وَ یَوْمَ یُنٰادِیهِمْ فَیَقُولُ أَیْنَ شُرَکٰائِیَ الَّذِینَ کُنْتُمْ تَزْعُمُونَ .

و بدیهی أنّ هذا السؤال سؤال توبیخ و إهانه،لأنّ یوم القیامه یوم کشف الحجب و الأستار،فلا مفهوم للشرک،و لا المشرکون فی ذلک الیوم باقون علی عقیدتهم و«شرکهم».

فهذا السؤال فی الحقیقه فیه نوع من الإهانه و التوبیخ و العقوبه! و لکنّهم بدلا من أن یجیبوا بأنفسهم،فإنّ معبودیهم هم الذین یردّون الجواب،و یتبرءون منهم،و یتنفرون من عباده المشرکین إیّاهم.

و نعرف أن معبودات المشرکین و آلهتهم علی ثلاثه أنواع:فإمّا أن یکونوا أصناما«و أحجارا و خشبا»أو من المقدسین کالملائکه و المسیح،و إمّا أن یکونوا من الشیاطین و الجنّ.فالذین یردّون علی السؤال و یجیبون هم النوع الثالث،کما حکی عنهم القرآن قٰالَ الَّذِینَ حَقَّ عَلَیْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنٰا هٰؤُلاٰءِ الَّذِینَ أَغْوَیْنٰا أَغْوَیْنٰاهُمْ کَمٰا غَوَیْنٰا تَبَرَّأْنٰا إِلَیْکَ مٰا کٰانُوا إِیّٰانٰا یَعْبُدُونَ .

فعلی هذا تکون الآیه السابقه شبیهه بالآیه(۲۸)من سوره یونس إذ تقول:

وَ قٰالَ شُرَکٰاؤُهُمْ مٰا کُنْتُمْ إِیّٰانٰا تَعْبُدُونَ .

فعلی هذا یرد المعبودون الغواه علی عبدتهم و یتبرءون منهم،کما یبرأ فرعون و نمرود و الشیاطین و الجن من عبدتهم و قومهم و یتنفرون منهم، و یدافعون عن أنفسهم،حتی أنّهم ینسبون الضلاله لمن تبعهم و یقولون:إنّهم تبعونا طوعا...إلخ.

و لکن-من البدیهی-لیس لهذا النفی أثر،و لا تنفع البراءه منهم،فالعابد

و المعبود معا شريكان«فى النّار» (۱) .

الطريف الذى يستلفت النظر،هو أنّ كل واحد من المنحرفين يتبرأ فى ذلك اليوم من الآخر و كل يسعى لأن يلقى تبعه ذنبه على صاحبه.

و هذا يشبه تماما ما قد نراه فى هذه«الدنيا»من اجتماع رهط على أمر ما حتى إذا وقعوا فى مخالفه القانون،و ألقى القبض عليهم،و أحضروا إلى المحكمه، يتبرأ كلّ واحد من الآخر و يلقى بعضهم الجريمه على صاحبه،فهكذا هى عاقبه المنحرفين و الضالين فى الدنيا و الآخره! كما نجد مثل هذا فى الآيه(۲۲)من سوره إبراهيم وَ قٰالَ الشَّيْطٰانُ لَمّٰا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللّٰهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَ مٰا كٰانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ إِلاّٰ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاٰ تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ .

و نقرأ فى الآيه(۳۰)من سوره الصافات فى شأن المشركين الذين يتحاجون فى يوم القيامه مع أتباعهم فيقولون: وَ مٰا كٰانَ لَنٰا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طٰاغِينَ .

و على كل حال،فتعقيبا على السؤال عن آلهتهم. و عجز المشركين عن الجواب.يطلب أن يدعوهم لنصرتهم وَ قِيلَ ادْعُوا شُرَكٰاءَكُمْ (۲) .

و حيث يعلم المشركون أن دعاءهم غير نافع،و أن المعبودين«الشركاء» لا يمكن أن يفعلوا شيئا من شدّه الهلع و الوحشه،أو استجابه لأمر اللّه الذى يريد

ص: ۲۷۷

---

۱ - ۱) -و يحتمل فى الآيه الآنفه-أيضا-أنّ القائلين جوابا على سؤال اللّه هم رؤوساء المشركين«أى جماعه من عبده الأصنام»فهم من أجل أن يفروا عن الجواب يتحدثون عن أتباعهم،و يقولون:ربّنا إنّنا غوينا فمضينا فى طريق الشرك،و هؤلاء اتبعونا طوعا فأغويناهم،و لكنّهم لم يطيعونا«العباده فى الآيه الآنفه معناها الطاعه»و إنّما أطاعوا هواهم،و لكن التّفسير السابق أظهر.

۲ - ۲) -التعبير ب«شركاءكم»مع أن هؤلاء الشركاء كانوا قد جعلوا شركاء اللّه سبحانه،هو اشاره إلى أنّ هؤلاء الشركاء من صنعكم و هم متعلقون بكم لا باللّه...

أن يفضح المشركين و الشركاء أمام أعين الخلق،يتوجهون إلى الشركاء و يدعونهم كما يقول القرآن الكريم: فَدَعَوْهُمْ .

و من الواضح أنّه لا أثر لهذا النداء و الطلب،و لا يقال لهم«لبيك».. فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ .

فحينئذ لا ينفعهم شيء وَ رَأَوُا الْعَذٰابَ .

و يتمنون لَوْ أَنَّهُمْ كٰانُوا يَهْتَدُونَ! . (۱)

ص: ۲۷۸

---

۱ – ۱) -بحث المفسّرون فى الآيه لَوْ أَنَّهُمْ كٰانُوا يَهْتَدُونَ بحوثا شتى،فكثير منهم قالوا بأن«لو»حرف شرط هنا، فبحثوا عن الجزاء،فقالوا:يستفاد من جمله رَأَوُا الْعَذٰابَ و تقدير الجمله يكون هكذا:«لو أنّهم كانوا يهتدون لرأوا العذاب فى الدنيا بعين اليقين». و هذا يشبه قوله تعالى لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ فى سوره التكاثر الآيه السادسه. كما يرى البعض أن التقدير هكذا لو أنهم كانوا يهتدون فى الدنيا لما رأوا العذاب فى الآخره. و زعم بعضهم أن الجزاء غير ما تقدم«يطول بها البحث هنا». لكنّ بعضهم يعتقد أن جواب الشرط«الجزاء»غير محذوف أساسا،و جمله وَ رَأَوُا الْعَذٰابَ هى الجواب المتقدم، و ما بعده جمله الشرط،فيكون المعنى هكذا:لو كانوا يرون و يهتدون لرأوا العذاب لكنهم لم يهتدوا!... لكن وراء كل هذه المعانى معنى آخر ذكرناه فى بيان الآيه آنفا،و هو أن نفسر معنى لو ب«تمنّوا»فلا بأس بمراجعه الكتب اللغويه و الأدبيه«كمغنى اللبيب»و غيره!.

الآیات [سوره القصص (۲۸): الآیات ۶۵ الی ۷۰]

اشاره

وَ یَوْمَ یُنٰادِیهِمْ فَیَقُولُ مٰا ذٰا أَجَبْتُمُ اَلْمُرْسَلِینَ (۶۵) فَعَمِیَتْ عَلَیْهِمُ اَلْأَنْبٰاءُ یَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاٰ یَتَسٰاءَلُونَ (۶۶) فَأَمّٰا مَنْ تٰابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً فَعَسیٰ أَنْ یَکُونَ مِنَ اَلْمُفْلِحِینَ (۶۷) وَ رَبُّکَ یَخْلُقُ مٰا یَشٰاءُ وَ یَخْتٰارُ مٰا کٰانَ لَهُمُ اَلْخِیَرَهُ سُبْحٰانَ اَللّٰهِ وَ تَعٰالیٰ عَمّٰا یُشْرِکُونَ (۶۸) وَ رَبُّکَ یَعْلَمُ مٰا تُکِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مٰا یُعْلِنُونَ (۶۹) وَ هُوَ اَللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ لَهُ اَلْحَمْدُ فِی اَلْأُولیٰ وَ اَلْآخِرَهِ وَ لَهُ اَلْحُکْمُ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۷۰)

التّفسیر

تعقب الآیات محل البحث،علی ما کان فی الآیات السابقه فی شأن المشرکین و ما یسألون یوم القیامه.

فبعد أن یسألوا عن شرکائهم و معبودیهم،یسألون عن مواقفهم و ما أبدوه من عمل إزاء أنبیائهم وَ یَوْمَ یُنٰادِیهِمْ فَیَقُولُ مٰا ذٰا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِینَ .

و من المسلم به أنّ هؤلاء«المشرکین»لا یملکون جوابا لهذا السؤال،کما لم یملکوا للسؤال السابق جوابا.

ص :۲۷۹

ترى:أ يقولـون بأنّنـا لبيّنـا دعـوه المرسـلين؟فهـذا كـذب محض!و الكـاذب خاسـر فى ذلـك اليـوم،أم يقولـون بأنّنـا كـذّبناهم،و اتهمناهم،و قلنا لهم بأنّكم سحره و مجانين و حاربناهم و قتلناهم مع اتباعهم؟...

ما عسى أن يقولوا هناك؟!فكلّ ما يقولون كاشف عن فضيحتهم و شقائهم!.

حتى أنّ الأنبياء و المرسلين فى ذلك اليوم يجيبون ربّهم حين يسألون مّا ذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّکَ أَنْتَ عَلاّمُ الْغُيُوبِ . (۱)

ما الذى يقوله فى ذلك اليوم و فى ذلك المكان عمى القلوب من المشركين؟! لذلك يكشف القرآن عن حالهم هناك فيقول: فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبٰاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسٰاءَلُونَ أى يسأل بعضهم بعضا و لا يعرفون جوابا!.

و الـذى يسـتلفت النظر أن العمى نسب فى الآـيه للأنبـاء لاـ للمشـركين فلا يقول عمى المشـركون هناك بل يقول:«عميت عليهم الأنبـاء»..لأـنّه كثيرا مـا يحـدث أن يكون الإنسـان غير عـالم بـالخبر،لكنّه يصـله بانتشـاره على أفواه النـاس،كما يتفق لنا أن نكون جاهلين بالشىء أحيانا فنعرف به حين ينتشر بين المجتمع،لكن فى يوم القيامه،لا الناس مطّلعون،و لا الأخبار تنتشر!.

فعلى هـذا تعمى الأخبـار،فلاـ يملكون جوابـا هنـاك على قوله تعـالى: مٰا ذٰا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ فيحيط بهم الصـمت من قرنهم إلى أقدامهم.

و حيث أنّ أسـلوب القرآن هو ترك الأـبواب مفتوحه بوجه الكـافرين و الآـثمين دائما،لعلهم يتوبون و يرجعون إلى الحق فى أى مرحله كانوا من الإثم، فإنّه يضيف فى الآيه التى بعدها: فَأَمّٰا مَنْ تٰابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً فَعَسىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ .

فسبيـل النجـاه-حسب مـا يوضـحه القرآن-يتلخّص فى ثلاـث جمـل هى العـوده و التـوبه إلى اللّه،و الإيمـان،و العمـل الصالـح،و عاقبتهما النجاه و الفلاح حتما.

۱- ۱) -المائده،الآيه ۱۰۹.

و التعبير بعسى«من أفعال الرجاء»مع أن الذى آمن و عمل صالحا فهو من أهل الفلاح حتما-ربّما كان لأنّ الإيمان و العمل الصالح مشروطان بالبقاء و الدوام عليهما،و حيث أن التائبين لا يبقى جميعهم على التوبه،بل قد يعود بعضهم لعمله السابق،عبر القرآن بقول: فَعَسىٰ ..إلخ.

قال بعض المفسّرين:التعبير ب«عسى»حين يكون من شخص كريم،فإنّه يدل على المفهوم القطعى،و اللّه سبحانه أكرم الأكرمين.

و الآيه التى بعدها فى الحقيقه دليل على نفى الشرك و بطلان عقيده المشركين،إذ تقول: وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ وَ يَخْتٰارُ مٰا كٰانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ (١) .

فالخلق بيده،و التدبير و الإختيار بيده أيضا،و هو ذو الإراده،و ليس لأحد سواه أن يفعل ما يشاء،فكيف بالأصنام؟! فاختيار الخلق بيده،و الشفاعه بيده،و إرسال الرسل بيده أيضا.و الخلاصه أنّ اختيار كل شىء متعلق بمشيئته و إرادته المقدسه،فعلى هذا لا يمكن للأصنام أن تعمل شيئا،و لا حتى الملائكه و الأنبياء،إلاّ أن يأذن اللّه لمن يشاء و يرضى! و على كل حال فإطلاق الإختيار دليل على عموميته..بمعنى أن اللّه سبحانه صاحب الإختيار فى الأمور التكوينيه و الأمور التشريعيه أيضا..فجميعها يتعلقان به.

فمع هذه الحال،كيف يسلك هؤلاء طريق الشرك و يتجهون نحو غير اللّه؟ لذلك فإنّ الآيه تنزه اللّه عن الشرك و تقول: سُبْحٰانَ اللّٰهِ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ .

و فى الرّوايات الوارده عن أهل البيت عليهم السّلام فسرت الآيه المتقدمه باختيار الأئمّه المعصومين من قبل اللّه سبحانه-و جمله مٰا كٰانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ أيضا وردت فى هذا المعنى،و هى فى الواقع من قبيل بيان المصداق الواضح،لأنّ

---

١ - ١) -«ما»فى جمله«ما كان لهم الخيره»نافيه،و لكن البعض يحتمل أنّها موصوله و معطوفه على المفعول المحذوف «ليختار»لكن هذا الاحتمال بعيد جدا...

مسأله حفظ الدين و المذهب و اختيار القائد المعصوم لأجل هذا الهدف،لا تكون إلّا من قبل اللّه تعالى (۱) .

أمّا الآيه التى بعـدها فتتحـدث عن علم اللّه الواسع،و هى فى الحقيقه تأكيد أو دليل على الإختيار الواسع فى الآيه السابقه،إذ تقول هذه الآيه: وَ رَبُّکَ یَعْلَمُ مٰا تُکِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مٰا یُعْلِنُونَ .

فإحاطته بكل شـيء دليل على اختياره لكل شـيء،كما هى-ضـمنا-تهديد للمشركين،لئلا يظنوا أن اللّه غير مطلع على سرائرهم و نيّاتهم و«مؤامراتهم».

و الآيه الأخيره من هذا المقطع-هى نتيجه الحكم،و توضـيح للآيات السابقه فى مجال نفى الشرك،و هى ذات أربعه أوصاف من أوصاف اللّه،و جميعها فرع على خالقيته و اختياره.

فالأول:أنّه هُوَ اللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ .

فكيف يمكن أن يكون معبود آخر سواه،و هو الخالق وحده و جميع الإختيارات بأمره و بيده.فمن يتوسل بالأصـنام لتشفع له عند اللّه فهو من المضلين الخاطئين.

و الثّانى:أن جميع النعم دنيويه كانت أم أخرويه هى منه،و هى من لوازم خالقيته المطلقه،لـذلك يقول القرآن فى هـذا الصـدد لَهُ الْحَمْدُ فِی الْأُولیٰ وَ الْآخِرَهِ .

الثّالث:أنّه وَ لَهُ الْحُکْمُ فهو الحاكم فى هذا العالم،و فى العالم الآخر.

و الرّابع: وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ للحساب و الثواب و العقاب.

فاللّه الخالق،و هو المطّلع،و هو الحاكم يوم الجزاء،و بيده الحساب و الثواب و العقاب.

ص :۲۸۲

۱- ۱) -اصول الكافى.و تفسير على بن إبراهيم«طبقا لتفسير نور الثقلين،ج ۴،ص ۱۳۶».

الآیات [سوره القصص (۲۸): الآیات ۷۱ الی ۷۵]

اشاره

قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ جَعَلَ اَللّٰهُ عَلَیْکُمُ اَللَّیْلَ سَرْمَداً إِلیٰ یَوْمِ اَلْقِیٰامَهِ مَنْ إِلٰهٌ غَیْرُ اَللّٰهِ یَأْتِیکُمْ بِضِیٰاءٍ أَ فَلاٰ تَسْمَعُونَ (۷۱) قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ جَعَلَ اَللّٰهُ عَلَیْکُمُ اَلنَّهٰارَ سَرْمَداً إِلیٰ یَوْمِ اَلْقِیٰامَهِ مَنْ إِلٰهٌ غَیْرُ اَللّٰهِ یَأْتِیکُمْ بِلَیْلٍ تَسْکُنُونَ فِیهِ أَ فَلاٰ تُبْصِرُونَ (۷۲) وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَکُمُ اَللَّیْلَ وَ اَلنَّهٰارَ لِتَسْکُنُوا فِیهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۷۳) وَ یَوْمَ یُنٰادِیهِمْ فَیَقُولُ أَیْنَ شُرَکٰائِیَ اَلَّذِینَ کُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (۷۴) وَ نَزَعْنٰا مِنْ کُلِّ أُمَّهٍ شَهِیداً فَقُلْنٰا هٰاتُوا بُرْهٰانَکُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ اَلْحَقَّ لِلّٰهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا کٰانُوا یَفْتَرُونَ (۷۵)

التّفسیر

اشاره

نعمتا«اللیل و النهار»العظیمتان:

هذه الآیات-محل البحث-تتحدث عن قسم کبیر من مواهب اللّه سبحانه، التی تدل علی التوحید و نفی الشرک من جهه،کما أنّها تکمّل البحث السابق..

ص:۲۸۳

و تـذكر مثلاـ للنعم التى تسـتوجب الحمـد و الثناء..الحمـد المشـار إليه فى الآيات المتقـدمه،كما هى فى الوقت ذاته شاهـد على اختيار اللّه و تدبيره فى نظام الخلق من جهه أخرى!.

ففى الآـيه الأولى من هـذه الآيات إشاره إلى نعمه النهار و النور الـذى هو أساس لأيه حركه،فتقول الآيه: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللّٰهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَهِ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللّٰهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيٰاءٍ أَ فَلاٰ تَسْمَعُونَ (1) .

هنا عبر عن النهار بالضـياء،لأنّ الهدف الأصـلى من النهار هو الضياء و الانبلاج،ذلك الضياء الذى تتعلق به حياه كل الموجودات الحيه،فلولا ضياء الشمس لما تنسمت«زهره»و لا نمت«شجره»و لا طار«طائر»و لا بقى«إنسان» و لا هطل مطر.

«السـرمد»معناه الدائم المتواصل،و يرى البعض بأنه المتتابع،و أصـله«سـرد» و يرون أن ميمها زائده..لكن الظاهر أنّها كلمه مسـتقله تعطى معنى الدوام و الاستمرار. (2)

كمـا تتحـدث الآـيه الأخرى عن نعمه الظلمه فتقول: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللّٰهُ عَلَيْكُمُ النَّهٰارَ سَرْمَداً إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَهِ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللّٰهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَ فَلاٰ تُبْصِرُونَ .

أمّا الآيه الثّالثه فتحكى عن نتيجه النعمه المشار إليها فى الآيتين السابقتين فيقول وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهٰارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أجل،إنّ سعه رحمه اللّه تستوجب أن تضمن جميع عوامل حياتكم،فأنتم-

---

۱- ۱) -«أ رأيتم»جمله تأتى بمعنى«أخبرونى»عاده،كما فسّروها،و لكن كما قلنا سابقا تأتى أحيانا بمعنى:هل علمتم؟!

۲- ۲) -قـال أهل اللغه:إن كلمه«سـرمدى»تطلق على ما ليس له بـدايه و لا نهايه،و«الأزلى»ما ليس له بـدايه، و«الأبـدى»ما ليس له نهايه...

من جانب-بحاجه إلى السعی و الحرکه، و کل ذلک لا بدّ لهما من اللیل! لقد ثبت-فی هذا العصر-علمیّا أن جمیع أجهزه البدن تکون فعاله و نشطه مع وجود النور،إذ تنشط الحرکه الدمویه و الجهاز التنفسی و حرکه القلب و سائر الأجهزه،و إذا استمر النور أکثر من المعتاد تعبت خلایا الجسم و تحول النشاط إلی خمول! و بالعکس فإنّ الخلایا تهدأ فی اللیل و تستریح استراحه عمیقه تستعید نشاطها و قواها«شرحنا هذا المعنی فی الجزء السادس ذیل الآیه ۶۷ من سوره یونس و الآیه(۱۲)من سوره الاسراء»، الطریف هنا أن الآیه حین تتحدث عن سرمدیّه اللیل تخاطب الناس قائله:

أَ فَلاٰ تَسْمَعُونَ

...و حین تتحدث عن سرمدیه النهار تخاطبهم قائله: أَ فَلاٰ تُبْصِرُونَ و لعل هذا التعبیر لأجل أن الحسّ المناسب للیل هو السمع و الأذن،و ما یناسب النهار هو البصر و العین..إلی هذه الدرجه نلاحظ الدقّه فی القرآن الکریم.

کما أنّ من الجدیر الالتفات إلی أنّ الآیه هنا بعد ذکر مسألتی السمع و البصر أو اللیل و النهار،تختتم الحدیث بالقول: لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ الشکر إزاء النظام المحسوب النور و الظلمه،الشکر الذی یوصل الإنسان إلی معرفه المنعم و الشکر الذی یکون باعثا علی الإیمان فی المباحث الاعتقادیه!.

و مرّه أخری-بعد ذکر جانب من دلائل التوحید و نفی الشرک-یعود القرآن الکریم علی السؤال الأوّل الذی أثیر فی الآیات السابقه لیقول: وَ یَوْمَ یُنٰادِیهِمْ فَیَقُولُ أَیْنَ شُرَکٰائِیَ الَّذِینَ کُنْتُمْ تَزْعُمُونَ .

و هذه الآیه مکرره فی السوره نفسها،إذ وردت بنصّها فی الآیه ۶۲،و لعل هذا التکرار ناشئ عن السؤال مرتین فی یوم القیامه،مرّه بصوره انفرادیه لیعودوا إلی وجدانهم فیخجلوا من أنفسهم،و مرّه بصوره عامّه فی محضر الشهود، و هو ما أشیر إلیه فی الآیه التی بعدها..لیخجلوا أیضا من حضورهم.

لذلک تأتی الآیه التی بعدها فتقول: وَ نَزَعْنا مِنْ کُلِّ أَمَّهٍ شَهِیداً (۱) فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَکَمْ أیّها المشرکون الضالون.

و حین تنکشف المسائل و تتجلی الأمور لا تبقی خافیه فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلّهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما کانُوا یَفْتَرُونَ .

هؤلاء الشهود هم الأنبیاء بقرینه الآیات الأخری فی القرآن،إذ أن کل نبی شاهد علی أمته،و نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و آله الذی هو خاتم الأنبیاء هو شهید علی جمیع الأنبیاء و الأمم،کما نقرأ ذلک فی الآیه(۴۱)من سوره النساء فَکَیْفَ إِذا جِئْنا مِنْ کُلِّ أُمَّهٍ بِشَهِیدٍ وَ جِئْنا بِکَ عَلی هؤُلاءِ شَهِیداً .

فعلی هذا،ینعقد یوم القیامه مجلس کبیر بحضور الأنبیاء،و یؤتی بالمشرکین المعاندین عمی القلوب،و هناک یعرفون الفاجعه العظمی للشرک، و حقانیه اللّه،و ضلال الأصنام...بجلاء.

و من الطریف أن القرآن یعبر ب ضَلَّ عَنْهُمْ ما کانُوا یَفْتَرُونَ أی إن تصوراتهم و اعتقاداتهم فی الأصنام تمحی عنهم یوم القیامه،لأنّ عرصه القیامه عرصه الحق،و لا مکان للباطل هناک،فالباطل یضل هناک و یمحی من الوجود!.

فإذا کان الباطل یغطی وجهه هنا(فی هذا العالم)بستار من الحق لیخدع الناس أیّاما،فهناک تنکشف الحجب و لا یبقی سوی الحق.

نقرأ فی روایه عن الإمام الباقر علیه السّلام فی تفسیر وَ نَزَعْنا مِنْ کُلِّ أُمَّهٍ شَهِیداً

قوله: «و من هذه الأمه إمامها» (۲) .

و هذا الکلام إشاره إلی أنّه لا بدّ فی کل عصر و زمان من شاهد معصوم للأمه، و الحدیث آنف الذکر من قبیل بیان مصداق هذا المفهوم القرآنی.

۱- ۱) -التعبیر ب«نزعنا»التی تعنی جذب الشیء من مقرّه،هی إشاره إلی إحضار الشهود من بین کل جماعه و أمه...

۲- ۲) -تفسیر المیزان،ج ۱۶،ص ۲۰.

الآیات [سوره القصص (۲۸): الآیات ۷۶ الی ۷۸]

اشاره

إِنَّ قٰارُونَ کٰانَ مِنْ قَوْمِ مُوسیٰ فَبَغیٰ عَلَیْهِمْ وَ آتَیْنٰاهُ مِنَ اَلْکُنُوزِ مٰا إِنَّ مَفٰاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَهِ أُولِی اَلْقُوَّهِ إِذْ قٰالَ لَهُ قَوْمُهُ لاٰ تَفْرَحْ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ یُحِبُّ اَلْفَرِحِینَ (۷۶) وَ اِبْتَغِ فِیمٰا آتٰاکَ اَللّٰهُ اَلدّٰارَ اَلْآخِرَهَ وَ لاٰ تَنْسَ نَصِیبَکَ مِنَ اَلدُّنْیٰا وَ أَحْسِنْ کَمٰا أَحْسَنَ اَللّٰهُ إِلَیْکَ وَ لاٰ تَبْغِ اَلْفَسٰادَ فِی اَلْأَرْضِ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ یُحِبُّ اَلْمُفْسِدِینَ (۷۷) قٰالَ إِنَّمٰا أُوتِیتُهُ عَلیٰ عِلْمٍ عِنْدِی أَ وَ لَمْ یَعْلَمْ أَنَّ اَللّٰهَ قَدْ أَهْلَکَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ اَلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّهً وَ أَکْثَرُ جَمْعاً وَ لاٰ یُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ اَلْمُجْرِمُونَ (۷۸)

التّفسیر

اشاره

الثّری الاسرائیلی البخیل:

جاء تفصیل قصّه موسی علیه السّلام العجیبه و مواجهاته و مواقفه مع فرعون فی قسم کبیر من الآیات السابقه فی هذه السوره..و ذکرنا الأقوال فیها،و کان الکلام إلی حد ما کافیا علیها.

و فی القسم الآخر من آیات هذه السوره،وقع الکلام علی مواجهه بنی

ص: ۲۸۷

إسرائيل مع رجل ثرى منهم يدعى«قارون».

قارون هذا كان مظهرا للثراء المقرون بالكبر و الغرور و الطغيان.

و أساسا،فإنّ موسى عليه السّلام واجه فى طول حياته ثلث قوى استكباريه طاغوتيه:

۱-«فرعون»الذى كان مظهرا للقوّه«و القدره فى الحكومه».

۲-«قارون»الذى كان مظهرا للثروه و المال! ۳-«السامرى»الذى كان مظهرا للنفاق و الصناعه.

و بالرغم من أنّ أهم مواجهات موسى عليه السّلام هى مواجهته لفرعون و«حكومته» إلاّ أنّ مواجهتيه الأخيرتين لهما أهميّه كبيره أيضا،و فيهما دروس ذات عبر و محتوى كبير!.

المعروف أن«قارون»كان من أرحام موسى و أقاربه«ابن عمه أو ابن خالته»و كان عارفا بالتوراه،و كان فى بدايه أمره مع المؤمنين،إلاّ أنّ غرور الثروه جرّه إلى الكفر و دعاه إلى أن يقف بوجه موسى عليه السّلام و أماته ميته ذات عبره للجميع، حيث نقرأ شرح ذلك فى الآيات التاليه:

يقول القرآن فى شأنه أوّلا: إِنَّ قٰارُونَ كٰانَ مِنْ قَوْمِ مُوسىٰ فَبَغىٰ عَلَيْهِمْ و سبب بغيه و ظلمه إنّه كان ذا ثروه عظيمه،و لأنّه لم يكن يتمتع بإيمان قوى و شخصيه متينه فقد غرّته هذه الثروه الكبيره و جرّته إلى الانحراف و الاستكبار.

يصف القرآن ما عنده من ثروه فيقول: وَ آتَيْنٰاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مٰا إِنَّ مَفٰاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَهِ أُولِى الْقُوَّهِ .

«المفاتح»جمع«مفتح»على زنه«مكتب»معناه المكان الذى يدخّر فيه الشىء،كالصندوق الذى يحفظ فيه المال،و هو ما يسميه بعض التجار ب «القاصه».

فيكون المعنى:إنّ قارون كان ذا مال كثير و وفير من الذهب و الفضّه،بحيث

كان يصعب حمل صناديقها على الرجال الأشداء أَولِى الْقُوَّهِ .

و مع ملاحظه كلمه«عصبه»التى تعنى الجماعه المتآزره يدا بيد على الأمر المهم،يتّضح حجم الذهب و الفضه و المعادن الثمينه التى كانت عند قارون،قال بعضهم:العصبه هى من عشره رجال إلى أربعين رجلا.

و كلمه«تنوء»مشتقّه من«النوء»و معناه القيام بمشقّه و ثقل،و تستعمل فى حمل الأثقال التى لها ثقل و وزن كبير،بحيث لو حملها الإنسان لمال إلى أحد جانبيه!.

و هذا الذى بيّناه فى«المفتاح» اتفق عليه جماعه من المفسّرين.

فى حين أنّ بعضهم يرى أنّها جمع«مفتح»على زنه«منبر»و هو المفتاح الذى تفتح به الخزائن،يقولون:إن خزائن قارون كانت من الكثره إلى درجه إن مفاتيحها ينوء بحملها الرجال الأشداء.

و الذين ذهبوا إلى هذا المعنى أتعبوا أنفسهم كثيرا فى توجيهه،إذ كيف يمكن تصور عدد هذه«المفتاح»بشكل هائل حتى لا يمكن حملها إلاّ بمشقّه و عناء بالغين..و على كل حال فإنّ التّفسير الأوّل أقرب للنظر و أوضح بيانا.لأنّنا و إن سلّمنا على أن«مفتح،بكسر الميم»تعنى آله الفتح أى«المفتاح»فإنّ أهل اللغه ذكروا لهذا الوزن(مفتح)معانى أخرى منها«الخزانه»التى يجمع فيها المال، فالمعنى الأوّل أقرب للواقع و بعيد عن المبالغه.فلا ينبغى الخلط بين«المفاتح» التى تعنى الخزائن.و«المفاتيح»التى تعنى آلات الفتح،و هى جمع«مفتاح» (۱) .

فلنتجاوز هذا البحث لنرى ما قال بنوا إسرائيل لقارون،يقول القرآن فى هذا الصدد: إِذْ قٰالَ لَهُ قَوْمُهُ لاٰ تَفْرَحْ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (۲) .

ص: ۲۸۹

---

۱ - ۱) -فسّر بعضهم«المفتاح»تفسيرا آخر،و هو أنّ الإتيان بالمفتاح لحفظ الأموال و جمعها كان صعبا على الرجال الأشداء،و لكن هذا التفسير بعيد جدّا«فلا بأس بمراجعه لسان العرب لزياده الإيضاح».

۲- ۲) -كلمه«الفرحين»جمع الفرح،و تعنى من يكون مغرورا على أثر تملكه الشيء و متكبرا بطرا منتشيا من ريح النّصر.

ثمّ يقـدمون له أربع نصائـح قيّمه أخرى ذات تأثير مهم على مصـير الإنسان، بحيث تتكامل لديه حلقه خماسيه من النصائح مع ما تقدم من قولهم له:

لا تَفْرَحْ

فالنصـيحه الأولى قولهم له: وَ ابْتَغِ فِيما آتاكَ اللّهُ الـدّارَ الْآخِرَهَ و هـذا إشاره إلى أن المال و الثروه ليس أمرا سـيئا كما يتصوره بعض المتوهّمين،المهم أن تعرف فيم يستعمل المـال،و فى أى طريق ينفق،فـإذا ابتغى به الـدار الآخره فما أحسـنه!أو كان وسـيله للعب و الهوى و الظلم و التجاوز،فلا شيء أسوأ منه! و هذا هو المنطق الذى

ورد على لسان أمير المؤمنين عليه السّلام فى كلام معروف «من أبصر بها بصّرته و من أبصر إليها أعمته» (۱) .

و كـان قارون رجلا ذا قـدره على الأعمال الاجتماعيه الكبيره بسـبب أمواله الطائله،و لكن ما الفائـده منها و قـد أعماه غروره عن النظر إلى الحقائق.

و النصــيحه الثّانيه قـولهم لـه: وَ لاـ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الـدُّنْيا و الآـيه تشـير إلى مسـأله واقعيّه،و هى أنّ لكـل فرد منّا نصـيبا من الـدنيا،فالأـموال التى يصـرفها على بـدنه و ثيابه ليظهر بمظهر لائق هى أموال محـدوده،و ما زاد عليها لا تزيـد مظهره شـيئا،و على الإنسان أن لا ينسـى هذه الحقيقه!...فالإنسان...كم يستطيع أن يأكل من الطعام؟و لم يستطيع أن يلبس من الثياب؟و كم يمكن أن يحوز من المساكن و المراكب؟!و إذا مات و كم يسـتطيع أن يأخذ معه من الأكفان؟! فالباقى-إذن-رضـى أم أبى هو من نصـيب الآخرين.

و ما أجمل

قول الإمام على عليه السّلام: «يا ابن آدم ما كسبت فوق قوتك فأنت فيه خازن لغيرك» (۲) .

و هناك تفسير آخر لهذه الجمله فى الرّوايات الإسلاميه و كلمات المفسّرين،

۱- ۱) -نهج البلاغه،خطبه ۸۲.

۲- ۲) -نهج البلاغه،الكلمات القصار جمله ۱۹۲.

و یمکن التوفیق بین هذا التّفسیر و التّفسیر السابق(لأنّ استعمال اللفظ فی أکثر من معنی جائز).

إذ ورد فی تفسیر وَ لاٰ تَنْسَ نَصِیبَکَ مِنَ الدُّنْیٰا

عن الإمام علی ابن أبی طالب علیه السّلام أنّه قال: «لا تنس صحتک و قدرتک و فراغک و شبابک و نشاطک أن تطلب بها الآخره» (۱) .

و طبقا لهذا التّفسیر فالعباره المتقدمه بمثابه التنبیه لجمیع الناس،لئلا یضیعوا أوقاتهم و فرصهم فإنّها تمر مرّ السحاب.

و النصیحه الثّالثه هی وَ أَحْسِنْ کَمٰا أَحْسَنَ اللّٰهُ إِلَیْکَ .

و هذه حقیقه أخری،و هی أن الإنسان یرجو دائما نعم اللّه و إحسانه و خیره و لطفه،و ینتظر منه کل شیء.فبمثل هذه الحال کیف یمکن له التغاضی عن طلب الآخرین الصریح أو لسان حالهم..و کیف لا یلتفت إلیهم!.

و بتعبیر آخر:کما أنّ اللّه تفضل علیک و أحسن،فأحسن أنت إلی الناس.

و شبیه هذا الکلام نجده فی الآیه(۲۲)من سوره النور فی شأن العفو و الصفح،إذ تقول الآیه: وَ لْیَعْفُوا وَ لْیَصْفَحُوا أَ لاٰ تُحِبُّونَ أَنْ یَغْفِرَ اللّٰهُ لَکُمْ .

و یمکن تفسیر هذه الجمله بتعبیر آخر،و هو أنّ اللّه قد یهب الإنسان مواهب عظیمه لا یحتاج إلیها جمیعا فی حیاته الشخصیّه فقد و هبه العقل و القدره التی لا تدیر فردا واحدا فحسب،بل تکفی لإداره بلد أیضا و وهبه علما لا یستفید منه إنسان واحد فقط،بل ینتفع به مجتمع کامل.

أعطاه مالا و ثروه لتنفیذ المناهج الاجتماعیه.

فهذه المواهب الإلهیه مفهومها الضمنی أنّها لا تتعلق بک وحدک-أیّها الإنسان-بل أنت وکیل مخوّل من قبل اللّه لنقلها إلی الآخرین،أعطاک اللّه هذه المواهب لتدیر بها عباده!.

۱- ۱) -معانی الأخبار،مطابق تفسیر نور الثقلین،ج ۴،ص ۱۳۹.

و النصيحه الرابعه و الأخيره أن لا تغرنّك هذه الأموال و الامكانات الماديه فتجرّك الى الفساد. وَ لاٰ تَبْغِ الْفَسٰادَ فِی الْأَرْضِ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ .

و هذا أيضا حقيقه واقعيه أخرى،إنّ كثيرا من الأثرياء و على أثر جنون زياده المال-أحيانا-أو طلبا للاستعلاء،يفسدون فى المجتمع،فيجرّون إلى الفقر و الحرمان،و يحتكرون جميع الأشياء فى أيديهم،و يتصورون أنّ الناس عبيدهم و مماليكهم،و من يعترض عليهم فمصيره الموت،و إذا لم يستطيعوا اتهامه أو الإساءه إليه بشكل صريح،فإنّهم يجعلونه معزولا عن المجتمع بأساليبهم و طرائقهم الخاصه...

و الخلاصه:إنّهم يجرون المجتمع إلى الفساد و الانحراف.

و فى كلام جامع موجز نصل إلى أن هؤلاء الناصحين سعوا أولا إلى أن يكبحوا غرور قارون!.

ثمّ نبهوه أن الدنيا إنّما هى وسيله-لا هدف-فى مرحلتهم الثّانيه.

و فى المرحله الثّالثه أنذروه بأن ما عندك تستفيد من قسم قليل منه،و الباقى لغيرك.

و فى المرحله الرابعه أفهموه هذه الحقيقه،و هى أن لا ينسى اللّه الذى أحسن إليه فعليه أن يحسن إلى الآخرين..و إلاّ فإنّه يسلب مواهبه منك.

و فى المرحله الخامسه حذروه من أن مغبه الفساد فى الأرض الذى يقع نتيجه نسيان الأصول الأربعه آنفه الذكر.

و ليس من المعلوم بدقّه من هم الناصحون لقارون يومئذ و لكن القدر المسلم به أنّهم رجال علماء متقون،أذكياء،ذوو نجده و شهامه،عارفون للمسائل الدقيقه الغامضه!.

و لكن الاعتقاد بأنّ الناصح لقارون هو موسى عليه السّلام نفسه بعيد جدّا،لأنّ القرآن يعبّر عن من قدم النصح بصيغه الجماعه إِذْ قٰالَ لَهُ قَوْمُهُ .

و الآن لنلاحظ ما كان جواب هذا الإنسان الباغی و الظالم الإسرائیلی لجماعته الواعظین له!.

فأجابهم قارون بتلک الحاله من الغرور و التکبر الناشئه من ثروته الکبیره، و قٰالَ إِنَّمٰا أُوتِیتُهُ عَلیٰ عِلْمٍ عِنْدِی .

هذا لا یتعلق بکم،و لیس لکم حق أن ترشدونی إلی کیفیه التصرف بمالی، فقد أوجدته بعلمی و اطلاعی.

ثمّ إنّ اللّه یعرف حالی و یعلم أنّی جدیر بهذا المال الذی أعطانیه،و علمنی کیف أتصرف به،فلا حاجه إلی تدخلکم!.

و بعد هذا کله فقد تعبت و بذلت جهودا کبیره فی سبیل جمع هذا المال،فإذا کان الآخرون جدیرین بالمال،فلم لا یتعبون و یجهدون أنفسهم؟فلست مضایقا لهم،و إذا لم یکونوا جدیرین،فلیجوعوا و لیموتوا فهو أفضل لهم (۱) .

هذا المنطق العفن المفضوح طالما یردده الأثریاء الذین لا حظّ لهم من الإیمان أمام من ینصحهم.

و هذه اللطیفه جدیره بالالتفات و هی أن القرآن لم یصرّح بالعلم الذی کان عند قارون و أبقاه مبهما،و لم یذکر أی علم کان عند قارون حتی استطاع بسببه علی هذه الثروه الطائله!.

أهو علم الکیمیاء،کما فسّره بعضهم.

أم هو علم التجاره و الصناعه و الزراعه.

أم علم الإداره الخاص به،الذی استطاع بواسطته أن یجمع هذه الثروه العظیمه.

أم جمیع هذه العلوم!

۱- ۱) -جمله إِنَّمٰا أُوتِیتُهُ عَلیٰ عِلْمٍ عِنْدِی تصلح للمعانی الثلاثه المتقدمه جمیعا،کما أنّها تصلح لای واحد منها کما فسروا(فتأملوا بدقّه).

لا یبعد أن یکون مفهوم الآیه واسعا و شاملا لجمیع هذه العلوم«بالطبع بصرف النظر عن أن علم الکیمیاء علم یستطاع بواسطته قلب النحاس و أمثاله ذهبا،و هل هو خرافه أم حقیقه واقعیه»؟ و هنا یجیب القرآن علی قول قارون و أمثاله من المتکبرین الضالین،فیقول:

أَ وَ لَمْ یَعْلَمْ أَنَّ اللّٰهَ قَدْ أَهْلَکَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّهً وَ أَکْثَرُ جَمْعاً

.

أتقول: إِنَّمٰا أُوتِیتُهُ عَلیٰ عِلْمٍ عِنْدِی و نسیت من کان أکثر منک علما و أشدّ قوّه و أثری مالا،فهل استطاعوا أن یفروا من قبضه العذاب الإلهی؟! لقد عبّر أولو الألباب و الضمائر الحیّه عن المال بقولهم لقارون: فِیمٰا آتٰاکَ اللّٰهُ ،و لکن هذا الغافل غیر المؤدّب ردّ علی قولهم بأنّ ما عنده من مال فهو بواسطه علمه!! لکن اللّه سبحانه عبّر عن حقاره قوّته و قدرته أمام إرادته و مشیئته جلّ و علا بالعباره المتقدمه آنفا.

و فی ختام الآیه إنذار ذو معنی کبیر آخر لقارون،جاء فی غایه الإیجاز:

وَ لاٰ یُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ

.

فلا مجال للسؤال و الجواب،فالعذاب واقع-لا محاله-بصوره قطعیّه و مؤلمه،و هو عذاب فجائی مدمّر!.

و بعباره أخری أن العلماء من بنی إسرائیل نصحوا قارون هذا الیوم و کان لدیه مجال و الجواب،لکن بعد إتمام الحجه و نزول العذاب الإلهی،عندئذ لا مجال للتفکیر و الجواب،فإذا حلّ العذاب الالهی بساحته فهو الهلاک الحتمی.

هنا یرد سؤال حول الآیه التی تقول: وَ لاٰ یُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ أی سؤال هذا الذی نفاه اللّه أهو فی الدنیا أم فی الآخره؟! قال بعض المفسّرین:إنّ المقصود بعدم السؤال هو فی الدنیا،و قال بعضهم:

بل المقصود أنّه فی الآخره!لکن لا مانع من أن یکون عدم السؤال فی الدارین «الدنیا و الآخره».

أی لا یسألون حال نزول العـذاب فی الـدنیا،لئلا یـدافعوا عن أنفسـهم و یبرئوا ساحتهم،و یظهروا الأعذار تلوا الأعذار.و لا یسألون یوم القیامه-أیضا-لأنّ یوم القیامه لا یبقی فیه شـیء خافیا،فکل شـیء واضح،و کما یعبّر القرآن تعبیرا دقیقا فی هذا الصدد یُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِیماهُمْ . (۱)

و کذلک فإنّ الآیه-محل البحث- وَ لا یُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ منسجمه تمام الانسجام مع الآیه من سوره الرحمن إذ تقول: فَیَوْمَئِذٍ لا یُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جَانٌّ .

هنا ینقدح سؤال آخر،و هو کیف ینسجم هذا التعبیر فی القرآن مع قوله تعالی: فَوَ رَبِّکَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ . (۲)

و یمکن الإجابه علی هذا السؤال عن طریقین:

الأوّل:إنّ المواقف فی یوم القیـامه متعـدده،ففی بعضـها یقع السؤال و الجواب و فی بعض المواقف لا حاجه للسؤال،لأنّ الحجب مکشوفه،و کل شیء واضح هناک.

الثّانی:إنّ السؤال عـاده نوعان..«سؤال تحقیق»و«سؤال توبیـخ»فلیس فی یوم القیامه سؤال للتحقیق،لأنّ کل شـیء هناک مکشوف عیانا و واضح دون لبس.

و لکن یوجد هناک سؤال توبیخ و هو بنفسه نوع من العذاب النفسی للمجرمین.

و ینطبق هـذا تماما فی ما لو سأل الأب ابنه غیر المؤدب:أ لم أقـدم لک کل هـذه الخـدمات...أ هـذا جزاء ما قدمت؟!فی حین أن کلا من الأب و الابن یعرفان الحقیقه،و أن قصد الأب من سؤاله لابنه هو التوبیخ لا غیر!

ص: ۲۹۵

۱- ۱) -سوره الرحمن،الآیه ۴۱.

۲- ۲) -سوره الحجر،الآیه ۹۲.

الآیات [سوره القصص (۲۸): الآیات ۷۹ الی ۸۲]

اشاره

فَخَرَجَ عَلىٰ قَوْمِهِ فِی زِینَتِهِ قٰالَ اَلَّذِینَ یُرِیدُونَ اَلْحَیٰاهَ اَلدُّنْیٰا یٰا لَیْتَ لَنٰا مِثْلَ مٰا أُوتِیَ قٰارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِیمٍ (۷۹) وَ قٰالَ اَلَّذِینَ أُوتُوا اَلْعِلْمَ وَیْلَکُمْ ثَوٰابُ اَللّٰهِ خَیْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً وَ لاٰ یُلَقّٰاهٰا إِلاَّ اَلصّٰابِرُونَ (۸۰) فَخَسَفْنٰا بِهِ وَ بِدٰارِهِ اَلْأَرْضَ فَمٰا کٰانَ لَهُ مِنْ فِئَهٍ یَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ وَ مٰا کٰانَ مِنَ اَلْمُنْتَصِرِینَ (۸۱) وَ أَصْبَحَ اَلَّذِینَ تَمَنَّوْا مَکٰانَهُ بِالْأَمْسِ یَقُولُونَ وَیْکَأَنَّ اَللّٰهَ یَبْسُطُ اَلرِّزْقَ لِمَنْ یَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ یَقْدِرُ لَوْ لاٰ أَنْ مَنَّ اَللّٰهُ عَلَیْنٰا لَخَسَفَ بِنٰا وَیْکَأَنَّهُ لاٰ یُفْلِحُ اَلْکٰافِرُونَ (۸۲)

التّفسیر

اشاره

جنون الثّروه:

المعروف أن أصحاب الثروه یبتلون بأنواع الجنون...و واحد منها«جنون عرض الثروه و إظهارها»فهؤلاء یشعرون باللذه عند ما یعرضون ثروتهم علی الآخرین،و حین یعبرون علی مرکب غال وثیر و یمرّون بین حفاه الأقدام فیتصاعد الغبار و الاتربه لینتشر علی وجوههم،و یحقّرونهم بذلک،فحینئذ

يشعرون بالراحه النفسيه و النشوه تدغدغ قلوبهم..

و بالرغم من أن عرض الثروه هذا غالبا ما يكون سببا للبلاء عليهم،لأنّه يربى الأحقاد فى الصدور و يعبئ الحساسيّات ضده،و كثيرا ما ينهى هذا العمل الردىء حياه الإنسان،أو يزيل ثروته مع الريح!.

و لعل هذا الجنون يحمل هدفا من قبيل إغراء الطامعين و تسليم الأفراد المعاندين و لكن الأثرياء غالبا ما يقومون بهذا العمل دون هدف،لأنّه نوع من الهوى و الهوس و ليس خطه أو برنامجا معينا.

و على كل حال فإن قارون لم يكن مستثنى من هذا القانون،بل كان يعدّ مثلا بارزا له،و القرآن يتحدث عنه فى جمله موجزه فى بعض آياته فيقول: فَخَرَجَ عَلىٰ قَوْمِهِ فِی زِینَتِهِ .امام قومه من بنى إسرائيل.

و التعبير ب«فى زينته»ناطق عن هذه الحقيقه،و هى أنّه أظهر جميع قدرته و قوته ليبدى ما لديه من زينه و ثروه.

و معلوم طبعا إنّ رجلا بهذه المثابه من الثروه ما ذا يستطيع أن يفعل!؟ و ينقل فى التاريخ-فى هذا الصدد قصص كثيره-مقرونه بالأساطير أحيانا، فإنّ بعضهم يكتب أنّ قارون خرج فى استعراض كبير،و قد أركب أربعه آلاف نفر على أربعه آلاف فرس حمر«غاليه القيمه»مغطاه بالقماش الفاخر،و قد ملأها زينه من الذهب و الجواهر الأخرى،فمرّ بهذا الاستعراض على بنى إسرائيل..

و قد أثار هذا المنظر الناس،إذ رأوا أربعه آلاف من الخدم ابيض يلبسون ثيابا حمرا مع زينتهم.

و قال بعضهم:بل بلغ عدد هؤلاء«الخدم و الحشم»سبعه آلاف نفر،و ذكروا أخبارا أخرى فى هذا الصدد.

و لو فرضنا أن كل ذلك مبالغ فيه،إلاّ أنّه لا يمكن إنكار هذه الحقيقه،و هى أن قارون لديه ثروات مهمّه أظهرها فى زينته!

هنـا أصـبح النـاس طـائفتين-بحسب العاده فطائفه و هم الأكثريه-من عبـده الـدنيا-أثارهم هـذا المشـهد،فاهتزت قلوبهم و تأوهوا بالحسرات و تمنوا لو كانوا مكان قارون و لو يوما واحدا و لو ساعه واحده و حتى و لو لحظه!واحده...

فأيّه حياه عـذبه جميله هـذه الحياه التى تهب اللذات و النشاط... قٰالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيٰاةَ الدُّنْيٰا يٰا لَيْتَ لَنٰا مِثْلَ مٰا أُوتِيَ قٰارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ .

هنيئـا لقـارون و لثروته العظيمه!..و ما أعظم جلاله و عزّته..و لا نظن فى التاريـخ أحـدا أعطاه اللّه ما أعطى قارون..و ما إلى ذلك من الكلمات.

و هنـا جـاء دور الامتحـان الالـهى العظيم فمن جـانب نجـد قارون عليه أن يؤدى امتحانه فى غروره و طيشه!و من جانب آخر من بهرهم مشهده الذين أحاطوا به-من بنى إسرائيل-.

و بالطبع فإنّ العقاب الأليم هو العقاب الـذى سـيقع بعد هذا العرض المثير، و هو أن يهوى قارون من أوج العظمه إلى قعر الأرض إذ تنخسف به الأرض على حين غرّه!.

لكن أمام هـذه الطائفه التى ذكرناها آنفا طائفه أخرى من العلماء و المتقين الورعين،سـمت آفاقهم عن مثل هذه المسائل،و كانوا حاضرين حينئذ و«المشهد»يمرّ من أمامهم.

هؤلاء الرجال لا يقوّمون الشخصـيه بالذهب و القوّه،و لا يبحثون عن القيم فى الأمور الماديّه.لا تبهرهم هذه المظاهر،بل يسخرون منها و يتبسمون تبسم استهزاء و ازدراء!و يحقّرون هذه الرؤوس الفارغه.

فهؤلاء كـانوا هنـاك،و كـان لهم موقف آخر من قـارون،و كمـا يعبر عنهم القرآن وَ قٰالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوٰابُ اللّٰهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً ثمّ أردفوا مؤكّدين وَ لاٰ يُلَقّٰاهٰا إِلاَّ الصّٰابِرُونَ .

أولئك الذين لا تهزّهم زخارف الدنيا و زبارجها،و يقفون فى استقامه-

برجوله و شهامه-امام الحرمان،و لا يطأطئون رؤوسهم للأراذل و يقفون كالجبال الرواسى فى الامتحان الإلهى-امتحان الثروه و المال و الخوف و المصيبه...

و هؤلاء هم الجديرون بثواب اللّه سبحانه!.

و من المسلم به أنّه المقصود بجمله اَلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ هم علماء بنى إسرائيل،و من بينهم«يوشع»و هو من كبار رجالهم.

غير أنّ الطريف فى الأمر أن القرآن عبّر عن الطائفه الأولى بجمله اَلَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لكنّه لم يعبر عن الطائفه الثّانيه بأنّهم«الذين يريدون الحياه الاخره»بل عبر عنهم ب اَلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ فحسب،لأنّ العلم هو أساس كل شىء و جذر الإيمان و الاستقامه و العشق للثواب الإلهى و الدار الآخره..

كما أن التعبير ب اَلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ هو جواب دامغ-ضمنا-لقارون الذى يدّعى العلم،فالقرآن يريد أن يبيّن أن العلماء هم هؤلاء الذين لا يريدون الحياه الدنيا،أمّا أنت يا قارون فمغرور و طائش!.

و هكذا نرى مرّه أخرى أنّ أساس البركات و الخيرات هو العلم الحقيقى.

لقد أوصل قارون بعمله هذا طغيانه و عناده إلى الدرجه القصوى غير أن ما ورد فى التواريخ حكايه منقوله عن قارون تدل على منتهى الخسه و عدم الحياء! ننقلها هنا حسب تفصيلها!.

فقال له موسى عليه السّلام إنّ اللّه أمرنى أن آخذ الزكاه فأبى فقال:إنّ موسى يريد أن يأكل أموالكم جاءكم بالصلاه و جاءكم بأشياء فاحتملتموها فتحتملوه أن تعطوه أموالكم؟قالوا:لا نحتمل فما ترى؟فقال لهم:أرى أن أرسل إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل فنرسلها اليه فترميه بأنّه أرادها على نفسها فأرسلوا إليها فقالوا لها:

نعطيك حكمك على أن تشهدى على موسى أنّه فجر بك قالت نعم.

فجاء قارون إلى موسى عليه السّلام قال:اجمع بنى إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربّك قال:نعم،فجمعهم فقالوا له:بم أمرك ربّك؟قال:أمرنى أن تعبدوا اللّه و لا تشركوا

بـه شـيئا و أن تصـلوا الرحـم و كـذا و كـذا و قـد أمرنى فى الزانى إذا زنى و قـد أحصـن أن يرجم.قـالوا:و إن كنت أنت؟قال:نعم.قالوا:فإنّک قد زنيت،قال:أنا؟ فأرسلوا إلى المرأه فجاءت فقالوا:ما تشهدين على موسى؟فقال لها موسى عليه السّلام أنشدتک باللّه إلاّ ما صدقت.قالت:أمّا إذا نشدتنى فإنّهم دعونى و جعلوا لى جعلا على أن أقذفک بنفسى و أنا أشهد أنّک برىء و أنّک رسول اللّه.

فخرّ موسى عليه السّلام ساجدا يبكى فأوحى اللّه إليه:ما يبكيک؟قد سلطناک على الأرض فمرها فتطيعک،فرفع رأسه فقال:خذيهم فأخذتهم إلى أعقابهم فجعلوا يقولون:يا موسى يا موسى فقال:خذيهم فأخذتهم إلى أعناقهم فجعلوا يقولون:

يا موسى يا موسى فقال:خذيهم فغيّبتهم فأوحى اللّه:

«يا موسى سألک عبادى و تضرّعوا إليک فلم تجبهم فوعزّتى لو أنّهم دعونى لأجبتهم».

يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد فَخَسَفْنٰا بِهِ وَ بِدٰارِهِ الْأَرْضَ .

أجل حين يبلغ الطغيان و الغرور و تحقير المؤمنين الأبرياء و المؤامرّه ضد نبى اللّه أوجها،تتجلى قدره اللّه تعالى و تطوى حياه الطغاه...و تدمرهم تدميرا يكون عبره للآخرين.

مسأله«الخسف»هنا التى تعنى انشقاق الأرض و ابتلاع ما عليها،حدثت على مدى التاريخ عدّه مرات...إذ تتزلزل الأرض ثمّ تنشقّ و تبتلع مدينه كامله أو عمارات سكنيه داخلها،لكن هذا الخسف الذى حدث لقارون يختلف عن تلک الموارد...هذا الخسف كان طعمته قارون و خزائنه فحسب!.

يا للعجب!..ففرعون يهوى فى ماء النيل!..و قارون فى أعماق الأرض!.

الماء الذى هو سرّ الحياه و أساسها يكون مأمورا بهلاک فرعون.

و الأرض التى هى مهاد الاطمئنان و الدعه تنقلب قبرا لقارون و اتباعه!و من البديهى أنّ قارون لم يكن لوحده فى ذلک البيت فقد كان معه أعوانه و ندماءه و من أعانه على ظلمه و طغيانه،و هكذا توغلوا فى اعماق الأرض جميعا.

فَمٰا کٰانَ لَهُ مِنْ فِئَهٍ یَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللّهِ وَ مٰا کٰانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِینَ

...

فلم یخلصه أصدقاؤه،و لا الذین کانوا یحملون أمتعته و لا أمواله و لا أی أحد من عذاب اللّه،و مضی قارون و أمواله و من معه فی قعر الأرض! أمّا آخر آیه-محل البحث-فتحکی عن التبدل العجیب لأولئک الذین کانوا یتفرجون علی استعراض قارون بالأمس و یقولون:یا لیت لنا مثل ما أوتی قارون،و ما شابه ذلک!.و إذا هم الیوم یقولون:واها له،فإنّ الرزق بید اللّه وَ أَصْبَحَ الَّذِینَ تَمَنَّوْا مَکٰانَهُ بِالْأَمْسِ یَقُولُونَ وَیْکَأَنَّ اللّهَ یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ یَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ یَقْدِرُ .

لقد ثبت عندنا الیوم أن لیس لأحد شیء من عنده!فکلّ ما هو موجود فمن اللّه،فلا عطاؤه دلیل علی رضاه عن العبد،و لا منعه دلیل علی تفاهه عبده عنده!.

فاللّه تعالی یمتحن بهذه الأموال و الثروه عباده أفرادا و أقواما،و یکشف سریرتهم و نیّاتهم.

ثمّ أخذوا یفکرون فی ما لو أجیب دعاؤهم الذی کانوا یصرون علیه، و أعطاهم اللّه هذا المال،ثمّ هووا کما هوی قارون،فما ذا یکون قد نفعهم المال؟ لذلک شکروا اللّه علی هذه النعمه و قالوا: لَوْ لاٰ أَنْ مَنَّ اللّهُ عَلَیْنٰا لَخَسَفَ بِنٰا وَیْکَأَنَّهُ لاٰ یُفْلِحُ الْکٰافِرُونَ .

فالآن نری الحقیقه بأعیننا،و عاقبه الغرور و الغفله و نهایه الکفر و الشهوه!.

و نعرف أن أمثال هذه الحیاه المثیره للقلوب بمظاهرها الخداعه،ما أوحشها!و ما أسوأ عاقبتها!.

و یتّضح من الجمله الأخیره فی هذه القصّه-ضمنا-أنّ قارون المغرور مات کافرا غیر مؤمن،بالرغم من أنّه کان یعدّ عارفا بالتوراه قارئا لها،و عالما من بنی إسرائیل و من أقارب موسی.

ص:۳۰۱

بحوث

اشاره

۱-نماذج قارونیه بالأمس و الیوم!

قصّه قارون-هذا الثری المغرور-التی ذکرها القرآن فی سبع آیات بینات- بأسلوب جذّاب-تکشف الحجب عن حقاق کثیره فی حیاه الناس! هذه القصّه النّیره توضح هذه الحقیقه،و هی أن غرور الثروه و نشوتها قد ینجر بهما الإنسان-أحیانا-إلی أنواع الجنون..جنون إظهار الثروه و عرضها..

و لفت أنظار الآخرین..إلی التلذذ من تحقیر الفقراء و المساکین.

کما أن هذا الغرور و هذه النشوه و العشق المطلق للفضه و الذهب،قد تکون سببا لأنّ یجرأ الإنسان أحیانا إلی ارتکاب أقبح الذنوب و أخسها،کالإساءه إلی النّبی و مناهظه الحق و الحقیقه..و اتهام أطهر الأفراد،و استخدام الثروه لإنفاقها علی الفواحش فی سبیل الوصول إلی الغرض المطلوب.

أن الغرور و النشوه الناشئین من کثره الثروه،لا یسمحان للإنسان أن یسمع نصیحه الآخرین،و یستجیب لمن یرید له الخیر!.

و هؤلاء المغرورون الجهله یتصورون أنّهم أعلم الناس و أکثرهم اطلاعا، و فی اعتقادهم أن ثروتهم التی وقعت فی أیدیهم،و ربّما تقع عن طریق الغصب أحیانا،هی دلیل علی عقلهم و ذکائهم...و أن جمیع الناس جهله کما یظنون، و أنّهم-وحدهم-العلماء فحسب!.

و یبلغ بهم الأمر حدّا أن یظهروا قدرتهم أمام الخالق،و کأنّهم مستقلّون، و یدّعون أنّ ما وصلهم هو عن طریق ابتکارهم و ذکائهم،و استعدادهم و خلاّقیتهم و معرفتهم التی لا نظیر لها! و رأینا عاقبه هؤلاء المغرورین المنحرفین،و کیف ینتهون،و إذا کان قارون و أتباعه و ثروته جمیعا قد خسفت بهم الأرض فهووا إلی قعرها،فإنّ الآخرین یفنون بأشکال مختلفه..و أحیانا تبتلع الأرض حتی ثروتهم العظیمه بشکل

آخر..أو يبدّلون ثروتهم الكبيره بالقصور و البساتين و الأراضى الشاسعه ثمّ لا يستفيدون منها أبدا..و قد يشترون الأراضى الموات و البائره،على أمل تقسيمها صغيره لتباع كل قطعه بسعر باهض!...و هكذا تبتلع الأرض ثروتهم.

أمثال هؤلاء الأفراد من سقيمى العقول حين لا يجدون طريقا لصرف ثروتهم العظيمه يتوجهون إلى القيم الخياليه...و ينفقون أموالهم على الخزف المتكسّر على أنّه من التراث القديم كالأكواز و الأقداح الخزفيه،و الطوابع،و الأوراق النقديه المتعلقه بالسنوات القديمه،و يحافظون عليها فى مكان حريز من بيوتهم على أنّها أغلى التحف،و هى لا تستحق أن توضع إلاّ فى المزابل لو نظرنا إليها بعين البصيره و الاعتبار! أولئك الذين يحيون مثل هذه الحياه الناعمه الخياليه قد يتفق أن يرى فى مدينتهم أو فى مناطقهم-و أحيانا فى جيرانهم-من لا عهد له بالشبع،و يسهرون لياليهم على الطوى جائعين،و من العجيب أنّهم يرون هذه الحاله فلا تهتز لها ضمائرهم، و لا يتأثر لأجلها وجدانهم!.

كما يتفق لحيواناتهم أن تعيش حياه الرفاه،و تستفيد من رعايه الأطباء و الأدويه الخاصّه!فى حين أن أناسا محرومين يعيشون فى ظروف صعبه و سيئه إلى جوارهم،و ربّما يرقدون فى المستشفى،و يئنّون و لا من مصرخ لهم،و لا من علاج لمرضهم!.

جميع هذه البحوث تنطبق أحيانا على بعض الأفراد فى مجتمع ما،و قد تنطبق على دوله معينه قبال دول الدنيا كلها،أى قد نجد دوله قارونيه مستكبره أمام الدول الضعيفه،كما نلاحظ فى العصر الحاضر فى شأن الدول الاستكباريه كأمريكا و كثير من الدول الأوروبيه.

لقد هيأ هؤلاء حياه التنعّم و الرفاه-فى أرقى صورها-باستثمار أبناء العالم الثّالث و الدول الفقيره العزلاء...بحيث أنّهم يرمون فضلات طعامهم فى المزابل،

و لو قدر أن تجمع بصوره صحيحه،لأمكن عندئذ تغذيه الملايين المحرومه الجائعه من هذه المواد الغذائيه الإضافيه.

و ما نقوله من أن بعض الدول فقيره هی فی الحقيقه ليست دولا فقيره،بل هی دول منيت بسرقه خيراتها و أغير عليها...و ربّما كان لـديها أغلی المصـادر و المعـادن تحت الأرض،لكن هؤلاء المغيرين ينهبون هـذه الخيرات و يتركون أهلها علی الأرض السوداء الجرداء.

فهؤلاء القـارونيون يشيدون قواعـد قصورهم الظـالمه علی أكواخ المستضـعفين المهـدّمه..و إذا لم يتّحـد المستضـعفون يـدا بيد ليقذفوا بالمستكبرين إلی قعر الأرض كما فعل بقارون،فإنّ حاله الدنيا ستبقی هكذا.

فأولئك يشربون الخمور و يضحكون منتشين،و هؤلاء يجلسون علی بساط الفقر و الحرمان باكين.

٢-من أين جاء قارون بهذه الثروه العريضه؟

الطريف أنّنـا نقرأ فی الآيتين(٢٣)و(٢۴)من سوره المؤمن ما نسـتفيد منه بوضوح أنّ رساله موسـی عليه السّلام كانت من البـدايه لمبارزه ثلاثه أشخاص! «فرعون»،و وزيره«هامان»،و«قارون»الثری المغرور. وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسی بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ إِلی فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ قارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذّابٌ .

و نسـتفيد من النصّ القرآنی المتقدم أن قارون كان من جماعه فرعون،و كان علی خطه؛كما أنّنا نقرأ فی التواريخ أنّه كان ممثلا لفرعون فی بنی إسرائيل من جهه (١) ،و أنّه كان أمين الصندوق عند فرعون،و المسؤول علی خزائنه من جهه أخری (٢) .

١- ١) -تفسير الفخر الرازی،ج ٢۵،ص ١٣،و تفسر مجمع البيان،ج ٧،ص ٢۶۶-ذيل الآيه محل البحث...

٢- ٢) -مجمع البيان،ج ٨،ص ۵٢٠ ذيل الآيه ٢۴ من سوره المؤمن.

و من هنا تتّضح هويّه قارون..فإنّ فرعون من أجل إذلال بنى إسرائيل و سلب أموالهم اختار رجلا منافقا منهم،و أودعه أزمّه أمورهم،ليستثمر أموالهم لخدمه نظامه الجبار،و ليجعلهم حفاه عراه،و يكتسب من هذه الطريقه ثروه ضخمه منهم!.

و القرائن تشير إلى أنّ مقدارا من هذه الثروه العظيمه و كنوز الأموال بقيت بعد هلاك فرعون عند قارون،و لم يطلع موسى عليه السّلام-إلى تلك الفتره-على مكان الأموال لينفقها على اتباعه الفقراء.

و على كل حال،فسواء كانت هذه الثروه قد حصل عليها قارون فى عصر فرعون،أو حصل عليها عن طريق الإغاره على خزائنه بعد هلاكه،أو كما يقول البعض قد حصل عليها عن طريق علم الكيمياء أو التجاره...أو معرفته بأصول استثمار أموال المستضعفين.

مهما يكن الأمر فإنّ قارون آمن بموسى بعد انتصار موسى على فرعون، و بدّل وجهه بسرعه،و أصبح من قرّاء التوراه و علماء بنى إسرائيل...فى حين أنّ من البعيد أن تدخل ذره من الإيمان فى مثل قلب هذا المنافق!.

و أخيرا فحين أراد موسى عليه السّلام أن يأخذ من قارون زكاه المال،خدع به الناس،و عرفنا كيف كانت عاقبته.

٣-موقف الإسلام من الثّروه!

لا ينبغى أن نستنبط من المسائل التى ذكرناها آنفا أنّ الإسلام يقف من الثروه موقفا سلبيا،و أنّه يخالف خط الثراء،و لا ينبغى أن نتصور أنّ الإسلام يريد حياه الفقر و الفقراء،و يعدّ حياه الفقر من الكلمات المعنويه!.

بل على العكس من ذلك،فإنّ الإسلام يعد الثروه عاملا مهمّا نحو الآخره! و قد عبّر القرآن عن المال بالخير فى الآيه(١٨٠)من سوره البقره إِنْ تَرَكَ

خَیْراً أی مالا.

و نقرأ

فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام فی هذا الصدد «نعم العون الدنیا علی طلب الآخره» (۱) .

بل حتی الآیات-محل البحث-التی تـذم قارون أشدّ الذم،لأنّه اغتر بالمال، هی شاهد بلیغ علی هذا الموضوع..غایه ما فی الأمر أنّ الإسلام یقبل بالثروه التی بواسطتها تبتغی الدار الآخره،کما قال علماء بنی إسرائیل لقارون وَ ابْتَغِ فِیمٰا آتٰاکَ اللّٰهُ الدّٰارَ الْآخِرَهَ .

و الإسلام یرضی بالثروه التی نری فیها«أحسن کما أحسن اللّه إلیک»و لکن للجمیع!.

و الإسلام یوافق علی ثروه یتحقق فیه القول«لا تنس نصیبک من الدنیا» و یمدحها.

و أخیرا فإنّ الإسلام لا یطلب ثروه ینبغی بها الفساد فی الأرض و تنسی بها القیم الإنسانیه..و تکون نتیجتها الابتلاء بمسابقه جنون التکـاثر،أو أن ینفصـل الإنسـان عن ذاته و یحتقر الآـخرین،و ربّما تجرّه إلی مواجهه الأنبیاء کما فعل قارون فی مواجهته لموسـی علیه السّلام!.

یرید الإسلام الثروه لتکون وسیله لملء الفراغ الاقتصادی،و أن یستفید منها الجمیع،و لتکون ضمادا لجراح المحرومین،و للوصول بها إلی إشباع الحاجات الاجتماعیه و حلّ مشاکل المستضعفین...

فالعلاقه بین هذه الثروه و هذه الأهداف المقدّسه لیست علاقه دنیویه،أو ارتباطا بالدنیا،بل هی علاقه أخرویه.

کما نقرأ

فی حـدیث عن الإمام الصادق علیه السّـلام أن أحد أصـحابه جاءه شاکیا أمره،و قال:و اللّه إنّا لنطلب الدنیا و نحبّ أن نؤتاها.فقال علیه السّلام:«تحبّ أن تصنع بها

ص:۳۰۶

۱- ۱) -وسائل الشیعه:ج ۱۲،ص ۱۷،الحدیث ۵ من الباب ۱۶ من أبواب مقدمات التجاره.

ما ذا؟» قال:أعود بها على نفسى و عيالى،و أصل بها و أتصدق بها و أحج و أعتمر فقال الامام الصادق عليه السّلام:«ليس هذا طلب الدنيا،هذا طلب الآخره» (۱) .

و من هنا يتّضح فساد عقيده طائفتين فى هذا المجال:

طائفه من المسلمين،أو بتعبير أدق:ممن يتظاهرون بالإسلام،و بعيدون عن تعاليمه،فيعرّفون الإسلام على أنّه محام عن المستكبرين.

و طائفه من الأعداء المغرضين الذين يريدون أن يمسخوا وجه الإسلام الأصيل،و يجعلوه معاديا للثروه، و أنّه يقف الى جانب الفقراء فحسب.

و أساسا فإنّ أمّه فقيره لا تستطيع أن تعيش وحدها مرفوعه الرأس حرّه كريمه!.

فالفقر وسيله للارتباط بالاجنبى و التبعيه و الفقر أساس الخزى فى الدنيا و الآخره! و الفقر يدعو الإنسان إلى الإثم و الخطيئه.

كما نقرأ

فى حديث للإمام الصادق فى هذا الصدد «غنى يحجزك عن الظلم، خير من فقر يحملك على الإثم» (۲) .

إنّ على المجتمعات الإسلاميه أن تسعى-مهما استطاعت-نحو التقدم لتكون غنيّه غير محتاجه،و لتبلغ مرحله الاكتفاء الذاتى،و أن تقف على أقدامها و أن لا تضحّى باستقلالها و عزّتها و شرفها من أجل الفقر المذلّ الموجب للتبعيه و تعلم أن منهج الإسلام الأصيل هو هذا لا غير.

۱- ۱) -«وسائل الشيعه،ج ۱۲،ص ۱۹ الحديث الثّالث الباب السابع من أبواب مقدمات التجاره.

۲- ۲) -وسائل الشيعه،ج ۱۲،ص ۱۷،الحديث السابع الباب السادس من أبواب مقدمات التجاره.

الآيتان [سوره القصص (۲۸): الآيات ۸۳ الى ۸۴]

اشاره

تِلْكَ اَلـدّٰارُ اَلْآخِرَهُ نَجْعَلُهٰا لِلَّذِينَ لاٰ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي اَلْأَرْضِ وَ لاٰ فَسٰاداً وَ اَلْعٰاقِبَهُ لِلْمُتَّقِينَ (۸۳) مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهٰا وَ مَنْ جٰاءَ بِالسَّيِّئَهِ فَلاٰ يُجْزَى اَلَّذِينَ عَمِلُوا اَلسَّيِّئٰاتِ إِلاّٰ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۸۴)

التّفسير

اشاره

نتيجه حبّ التسلط و الفساد فى الأرض:

بعد البيان المثير لما حدث لثرى مستكبر و متسلط،و هو قارون،تبدأ الآيه الأولى من هذا المقطع ببيان استنتاج كلى لهذا الواقع و هذا الحدث،إذ تقول الآيه تِلْكَ الدّٰارُ الْآخِرَهُ نَجْعَلُهٰا لِلَّذِينَ لاٰ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الْأَرْضِ وَ لاٰ فَسٰاداً .

أجل،فهم غير مستكبرين و لا مفسدين فى الأرض و ليس هذا فحسب،بل قلوبهم مطهّره من هذه المسائل،و أرواحهم منزهه من هذه الأوساخ!فلا يريدون ذلك و لا يرغبون فيه.

و فى الحقيقه إنّ ما يكون سببا لحرمان الإنسان من مواهب الدار الآخره،هو هذان الأمران:«الرغبه فى العلو»أىّ الاستكبار و«الفساد فى الأرض»و هما

الـذنوب..لأنّ كـل ما نهى اللّه عنه فهو على خلاف نظام خلق الإنسان و تكامل وجوده حتما،فارتكاب ما نهى اللّه عنه يـدمر نظام حياه الإنسان،لذا فهو أساس الفساد فى الأرض!حتى مسأله الاستعلاء-بنفسها-هى أيضا واحده من مصاديق الفساد فى الأرض،إلاّ أن أهميته القصوى دعت إلى أن يذكر بالخصوص من بين جميع المصاديق للفساد فى الأرض!.

و قد رأينا فى قصّه«قارون»و شرح حاله أنّ السبب الأساس فى شقوته و هلاكه هو العلوّ و«الاستكبار».

و نجد فى الرّوايات الإسلاميه اهتماما بهذه المسأله حتى أنّنا نقرأ

حـديثا عن الإمـام أمير المؤمنين على عليه السّـلام يقول: «إن الرجـل ليعجبه أن يكون شـراك نعله أجود من شـراك نعل صاحبه فيدخل تحتها» (۱) .

(و هذا أيضا فرع صغير من الاستعلاء).

و من الطريف أنّ صاحب«تفسير الكشاف»يعلق بعد ذكر هذا الحديث فيقول:بعض الطامعين ينسـبون«العلوّ»فى الآيه محل البحث لفرعون بمقتضى قوله: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاٰ فِي الْأَرْضِ ، (۲) و الفساد لقارون بمقتضى قوله: تَبْغِ الْفَسٰادَ فِي الْأَرْضِ ، (۳) و يدعون بأن من لم يكن كمثل فرعون و قارون فهو من أهل الجنّه و الدار الآخره،و على هذا فهم يبعدون فرعون و قارون و أمثالهما من الجنّه فحسب،و يرون الباقين من أهل الجنّه، إلاّ أنّهم لم يلاحظوا ذيل الآيه وَ الْعٰاقِبَهُ لِلْمُتَّقِينَ بـدقه-كما لاحظها الإمام على عليه السّـلام . (۴)

و مـا ينبغى إضـافته على هـذا الكلاـم هو أن هؤلاـء الجمـاعه أخطئوا حتى فى معرفه قـارون و فرعون..لأـنّ فرعون كـان عاليا فى الأرض و كان من المفسدين

۱- ۱) -تفسير جوامع الجامع،ذيل الآيه محل البحث.

۲- ۲) -سوره القصص،الآيه ۴.

۳- ۳) -سوره القصص،الآيه ۷۷.

۴- ۴) -تفسير الفخر الرازى،ذيل الآيه محل البحث.

إِنَّهُ كٰانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ، (۱) و قارون أيضا كان مفسدا و كان عاليا بمقتضى قوله: فَخَرَجَ عَلىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ . (۲)

و نقرأ فی حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام أنّه كان يسير فی الأسواق أيام خلافته الظاهريه،فيرشد التائهين إلى الطريق و يساعد الضعفاء، و كان يمرّ على الباعه و الكسبه و يتلوا الآيه الكريمه تِلْكَ الدّٰارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهٰا لِلَّذِينَ لاٰ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لاٰ فَسٰاداً .ثمّ يضيف سلام اللّه عليه:

«نزلت هذه الآيه فی أهل العدل و التواضع من الولاه و أهل القدره من الناس» (۳) .

و معنى هذا الكلام،أنّه كما لم يجعل الخلافه و الحكومه وسيله للاستعلاء، فلا ينبغی أن تجعلوا أموالكم و قدرتكم وسيله للتسلط على الآخرين،فأنّ العاقبه لأولئك الذين لا يريدون علوا فی الأرض و لا فسادا و كما يقول القرآن فی نهايه الآيه وَ الْعٰاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ .

و«العاقبه»بمفهومها الواسع هی النتيجه الصالحه،و هی الانتصار فی هذه الدنيا، و الجنّه و نعيمها فی الدار الأخرى...و قد رأينا أنّ قارون و أتباعه إلى أين وصلوا و أيّه عاقبه تحمّلوا!مع أنّهم كانوا مقتدرين و لكن حيث كانوا غير متقين فقد ابتلوا بأسوأ العاقبه و المصير!.

و نختم كلامنا فی شأن هذه الآيه بحديث للإمام الصادق عليه السّلام و هو

أنّ الإمام الصادق حين تلا هذه الآيه أجهش بالبكاء و قال: «ذهبت و اللّه الأمانی عند هذه الآيه» (۴) .

و بعد ذكر هذه الحقيقه الواقعيه،و هی أن الدار الآخره ليست لمن يحب

ص:۳۱۰

۱- ۱) -سوره القصص،الآيه ۴.

۲- ۲) -سوره القصص،الآيه ۷۹.

۳- ۳) -نقل هذه الروايه زاذان عن أمير المؤمنين«مجمع البيان(ذيل الآيه محل البحث)».

۴- ۴) -تفسير علی بن إبراهيم ذيل الآيه محل البحث.

السلطه و المستكبرين،بل هى للمتقين المتواضعين و طلبه الحق،تأتى الآيه الثّانيه لتبيّن قانونا كليا و هو مزيج بين العداله و التفضل،و لتذكر ثواب الإحسان فتقول: مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهٰا .

و هذه هى مرحله التفضل،أى أنّ اللّه سبحانه لا يحاسب الناس كما يحاسب الإنسان نظيره بعين ضيّقه،فإذا أراد الإنسان أن يعطى أجر صاحبه فإنّه يسعى أن يعطيه بمقدار عمله،إلاّ أنّ اللّه قد يضاعف الحسنه بعشر أمثالها و قد يضاعفها بمئات الأمثال و ربّما بالآلاف،إلاّ أن أقلّ ما يتفضل اللّه به على العبد أن يجازيه عشره أضعاف حسناته،حيث يقول القرآن فى الآيه(۱۶۰)من سوره الأنعام:

مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثٰالِهٰا .

أمّا الحدّ الأكثر من ثواب اللّه و جزائه فلا يعلمه إلاّ اللّه،و قد جاءت الإشاره إلى جانب منه-و هو الإنفاق فى سبيل اللّه-فى الآيه ۲۶۱ من سوره البقره...إذ يقول سبحانه فى هذا الصدد... مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوٰالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللّٰهِ كَمَثَلِ حَبَّهٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنٰابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَهٍ مِائَهُ حَبَّهٍ وَ اللّٰهُ يُضٰاعِفُ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ اللّٰهُ وٰاسِعٌ عَلِيمٌ .

و بالطبع فإنّ مضاعفه الأجر و الثواب ليس أمرا اعتباطيا،بل له ارتباط وثيق بنقاء العمل و ميزان الإخلاص و حسن النيّه و صفاء القلب،فهذه هى مرحله التفضل الإلهى فى شأن المحسنين.

ثمّ يعقّب القرآن ليذكر جزاء المسيئين فيقول: وَ مَنْ جٰاءَ بِالسَّيِّئَهِ فَلاٰ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئٰاتِ إِلاّٰ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ .

و هذه هى مرحله العدل الإلهى،لأنّ المسىء لا يجازى إلاّ بقدر إساءته،و لا تضاف على إساءته أيه عقوبه!.

الطريف هنا عند ذكر جزاء السيئه أن القرآن يعبر عن الجزاء بالعمل نفسه إِلاّٰ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ أى إن أعمالهم التى هى طبقا لقانون بقاء الموجودات فى

عـالم الوجود،تبقى و لاـ تتغير،و تبرز فی يوم القيـامه متجسـمه دون خفـاء،فهو(يوم البروز)فی شـكل يناسب العمل،و هـذا الجزاء يرافق المسيئين و يعذبهم!.

ملاحظات

١-لم تكرر ذكر«السـيئه»فی هذه الآيه مرتين؟ من المحتمل أن يكون ذكر السيئه مرتين فی الآيه،لأن اللّه يريد أن يؤكّد على هذه المسأله،و هی أن السيئه لا جزاء لها إلّا نفسها.

٢-هل تشمل الحسنه الإيمان و التوحيد؟فإذا كان كذلك فما معنى هذه الجمله مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهٰا ؟!و هل هناك خير من الإيمان و التوحيـد؟! و فی الإجابه على هـذا السؤال نقول-بـدون شك و تردّد-إن للحسـنه معنى واسـعا فهی تشـمل المناهج الاعتقـاديه و الأـقوال و الأعمـال الخـارجيه،و مـا هـو أفضـل من الاعتقـاد بتوحيـد اللّه فهـو رضـا اللّه سـبحانه الـذی يكـون ثـوابا للمحسـنين، فنحن نقرأ فی الآيه(٧٢)من سـوره التـوبه قوله تعـالى: وَ رِضْوٰانٌ مِنَ اللّٰهِ أَكْبَرُ ! ٣-لم عبّر القرآن عن الحسـنه بصيغه الإفراد،و عن السيئات بصيغه الجمع؟! يعتقد بعض المفسّرين أنّ هذا التعبير عائد إلى كثره المسيئين و قله المحسنين (١) .

كمـا و يحتمل أيضا أن الحسـنات تتلخص فی حقيقه التوحيـد،و أنّ جميع الحسـنات تعود إلى«جـذر»واحـد و هو توحيـد اللّه،فی حين أن السيئات ترجع إلى الشرك الذی هو مصداق التشتت و التعدد و الكثره.

ص: ٣١٢

١- ١) -روح المعانی،الآلوسی ذيل الآيه.

الآيات [سوره القصص (۲۸): الآيات ۸۵ الی ۸۸]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِی فَرَضَ عَلَیْکَ اَلْقُرْآنَ لَرٰادُّکَ إِلیٰ مَعٰادٍ قُلْ رَبِّی أَعْلَمُ مَنْ جٰاءَ بِالْهُدیٰ وَ مَنْ هُوَ فِی ضَلاٰلٍ مُبِینٍ (۸۵) وَ مٰا کُنْتَ تَرْجُوا أَنْ یُلْقیٰ إِلَیْکَ اَلْکِتٰابُ إِلاّٰ رَحْمَهً مِنْ رَبِّکَ فَلاٰ تَکُونَنَّ ظَهِیراً لِلْکٰافِرِینَ (۸۶) وَ لاٰ یَصُدُّنَّکَ عَنْ آیٰاتِ اَللّٰهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَیْکَ وَ اُدْعُ إِلیٰ رَبِّکَ وَ لاٰ تَکُونَنَّ مِنَ اَلْمُشْرِکِینَ (۸۷) وَ لاٰ تَدْعُ مَعَ اَللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ کُلُّ شَیْءٍ هٰالِکٌ إِلاّٰ وَجْهَهُ لَهُ اَلْحُکْمُ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۸۸)

سبب النّزول

نقل جماعه من المفسّرین-سببا لنزول الآیه الأولی من الآیات أعلاه عن ابن عباس مضمونه ما یلی:

حین کان النّبی صلّی اللّه علیه و آله متوجها من مکّه إلی المدینه فی سفر الهجره و بلغ «الجحفه»و هی لا تبعد عن مکّه کثیرا...تـذکر و طنه«مکّه»هـذه البقعه التی هی حرم اللّه و أمنه و فیها البیت العتیق«الکعبه»التی تعلق بها قلب النّبی و روحه تعلقا لا یقبل الانفکاک..ظهرت آثار الشوق علی وجه النّبی الکریم مزیجه بالحزن

ص:۳۱۳

و التأثر،فنزل أمين الوحی جبريل علی رسول اللّه و قال:أ تشتاق الی بلدک و هو مولدک؟!فقال النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم:نعم...فقال جبرئيل عليه السّلام:فإن اللّه يقول: إِنَّ الَّذِی فَرَضَ عَلَيْکَ الْقُرْآنَ لَرٰادُّکَ إِلیٰ مَعٰادٍ (١) يعنی مکّه...

و نعلم أنّ هذا الوعد العظيم تحقق أخيرا،و دخل النّبی صلّی اللّه عليه و آله بجيشه القوی و قدرته و عظمته الکبيره مکّه ظافرا،و استسلمت مکّه و الحرم الآمن دون حرب للنّبی صلّی اللّه عليه و آله.

فعلی هذا تعدّ الآيه آنفه الذکر من الإخبار الإعجازی السابق لوقوعه،إذ أخبر القرآن عن رجوع النّبی صلّی اللّه عليه و آله إلی مکّه بصوره قطعيّه و دون أی قيد و شرط، و لم تطل المدّه حتی تحقق هذا الوعد الإلهی الکبير!.

التّفسير

اشاره

الوعد بعوده النّبی إلی حرم اللّه الآمن:

هذه الآيات التی هی آخر الآيات فی سوره القصص تخاطب نبیّ الإسلام صلّی اللّه عليه و آله و تبشره بالنصر،بعد أن جاءت الآيات الأولی لتبيّن قصّه موسی و فرعون و ما جری له مع قومه،کما أنّ هذه الآيات فيها ارشادات و تعليمات مؤکّده لرسول الإسلام صلّی اللّه عليه و آله.

قلنا:إنّ الآيه الأولی من هذه الآيات طبقا لما هو مشهور بين المفسّرين نزلت فی«الجحفه»فی مسير النّبی صلّی اللّه عليه و آله،إلی المدينه إذ کان متوجها إلی يثرب لتتحول بوجوده إلی«مدينه الرّسول»...و أن يبذر النّواه الأصيله...«لحکومه إسلاميه»فيها و يجعلها مقرّا لحکومه إلهيه واسعه،و يحقق فيها أهدافها.

لکن هذا الحنين و الشوق و التعلق بمکّه يؤلمه کثيرا،و ليس من اليسير عليه الابتعاد عن حرم اللّه الآمن.

١- ١) -راجع تفسير الميزان،تفسير القرطبی،و مجمع البيان«التّفسير الکبير»للفخر الرازی،و تفاسير غيرها.

و هنـا يشـرق فى قلبه الطـاهر نور الوحى،و يبشّـره بـالعوده إلى وطنه الـذى ألفه فيقول: إِنَّ الَّذِی فَرَضَ عَلَیْکَ الْقُرْآنَ لَرٰادُّکَ إِلیٰ مَعٰادٍ .

فلا تكترث و لا تذهب نفسك حسـرات،فاللّه الذى أعاد موسـى إلى أمّه هو الذى أرجعه أيضا إلى وطنه بعد غياب عشـر سنوات فى مدين،ليشعل مصباح التوحيد و يقيم حكومه المستضعفين و يقضى على الفراعنه و دولتهم و قوّتهم.

هو اللّه سبحانه الذى يردک إلى مكّه بكلّ قوّه و قدره،و يجعل مصباح التوحيد على يدک مشرقا فى هذه الأرض المباركه.

و هو اللّه الذى أنزل عليك القرآن،و فرض عليك إبلاغه،و أوجب عليك أحكامه.

أجل،إنّ ربّ القرآن و ربّ السماء و الأرض العظيم،يسير عليه أن يردّک إلى معادک و وطنك«مكّه».

ثمّ يضـيف القرآن فى خطـابه للنّبى صـلّى اللّه عليه و آله،أن يجيب على المخـالفين الضـالين بمـا علّمه اللّه قُلْ رَبِّی أَعْلَمُ مَنْ جٰاءَ بِالْهُدیٰ وَ مَنْ هُوَ فِی ضَلاٰلٍ مُبِینٍ .

إنّ طريق الهدايه واضح،و ضـلالهم بيّن،و هم يتعبون أنفسـهم عبثا،فاللّه يعرف ذلك جيدا،و القلوب التى تعشق الحق تعرف هذه الحقيقه أيضا.

و بـالطبع فـإنّ التّفسـير الواضـح للآيه كمـا بيّنـاه آنفـا،إلاّ أن جمعـا من المفسّـرين لـديهم احتمالات أخرى فى كلمه«معاد»..من قبيل«العوده للحياه بعـد الموت» «المحشـر»او«الموت».كما فسّـروه«بالجنّه»أو مقام«الشـفاعه الكبرى»...أو «بيت المقدس»الذى عرج النّبى منه أوّل مره،و غير هذه المعانى.

إلاّ أنّه مع الالتفات إلى محتوى مجموع هذه السوره-القصـص-و ما جاء فى قصّه موسـى و فرعون و بنى إسـرائيل،و ما سقناه من شأن نزول الآيه،فيبعد تفسير المعاد بغير العوده إلى مكّه كما يبدو!.

أضف إلى ذلك أن المعاد فى يوم القيامه لا يختصّ بالنّبى وحده،و الحال أن

الآیه تتحدث عن النّبی-هنا-و تخاطبه وحده.و وجود هذه الآیه بعد الآیه التی تتحدث عن الثواب و الجزاء فی یوم القیامه،لا دلاله فیها علی هذا المعنی،بل علی العکس من ذلک،لأنّ الآیه السابقه تتحدث عن الانتصار فی الدار الآخره، و من المناسب أن یکون الحدیث فی هذه الآیه عن الانتصار فی هذه الدنیا.

أمّا الآیه التالیه فتتحدث عن نعمه أخری من نعم اللّه العظیمه علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله فتقول: وَ مٰا کُنْتَ تَرْجُوا أَنْ یُلْقیٰ إِلَیْکَ الْکِتٰابُ إِلاّٰ رَحْمَهً مِنْ رَبِّکَ (۱) .

کان کثیر من الناس قد سمعوا بالبشاره بظهور الدین الجدید،و لعل طائفه من أهل الکتاب و غیرهم کانوا ینتظرون أن ینزل علیهم الوحی و یحمّلهم اللّه هذه المسؤولیه،و لکنّک-أیّها النّبی-لم تکن تظن أنّه سینزل علیک الوحی وَ مٰا کُنْتَ تَرْجُوا أَنْ یُلْقیٰ إِلَیْکَ الْکِتٰابُ ..إلاّ أن اللّه رآک أجدر بالأمر،و أن هذا الدین الجدید ینبغی أن ینتشر و یتسع علی یدک فی هذا العالم الکبیر!.

و بعض المفسّرین یرون هذه الآیه منسجمه مع آیات سابقه کانت تتحدث عن موسی علیه السّلام،و تخاطب النّبی-أیضا-کقوله تعالی: وَ مٰا کُنْتَ بِجٰانِبِ الْغَرْبِیِّ إِذْ قَضَیْنٰا إِلیٰ مُوسَی الْأَمْرَ .. وَ مٰا کُنْتَ ثٰاوِیاً فِی أَهْلِ مَدْیَنَ... وَ مٰا کُنْتَ بِجٰانِبِ الطُّورِ إِذْ نٰادَیْنٰا وَ لٰکِنْ رَحْمَهً مِنْ رَبِّکَ .

فعلی هذا یکون المقصود بالکتاب هنا هو قصص الأنبیاء السابقین..إلاّ أن هذا التفسیر لا منافاه فیه مع التفسیر المتقدم!بل یعدّ قسما منه فی الواقع!.

ثمّ یضیف القرآن فی خطابه للنّبی صلّی اللّه علیه و آله أن طالما کنت فی هذه النعمه فَلاٰ تَکُونَنَّ ظَهِیراً لِلْکٰافِرِینَ .

و من المسلّم به أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یکن ظهیرا للکافرین أبدا،إلاّ أن الآیه جاءت فی مقام التأکید علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و بیان المسؤولیه للآخرین،و أن

۱- ۱) -قال بعضهم:إن«إلاّ»هنا تفید الاستثناء،فاضطروا إلی أن یقولوا بحذف کلمه و التقدیر لها من عندهم و هو تحکّم...إلاّ أن البعض الآخر فسّر«إلاّ»بمعنی«لکن»و أنّها تفید الإستدراک،و هذا الوجه أقرب للنظر!...

وظیفتهم أن یتأسوا بالنّبی و لا یکون أیّ منهم ظهیرا للکافرین.

و هذا الموضوع ینسجم تماما مع الموضوع الذی قرأناه فی شأن موسی علیه السّلام، إذ قال: رَبِّ بِمٰا أَنْعَمْتَ عَلَیَّ فَلَنْ أَکُونَ ظَهِیراً لِلْمُجْرِمِینَ ..و بیّنا معناه فی شأن إعانه الظالمین فی الآیه(١٧)من سوره القصص،أمّا الآیتان اللتان تختتم بهما سوره القصص،فهما تأکید علی مسأله التوحید بتعابیر و استدلالات متعدده -و مختلفه.

التوحید الذی هو أساس جمیع المسائل الدینیه...التوحید الذی هو الأصل و هو الفرع و هو الکلّ و هو الجزء!.

و فی هاتین الآیتین أربعه أوامر من اللّه لنبیّه صلّی اللّه علیه و آله،و أربعه صفات للّه تعالی، و بها یکتمل ما ورد فی هذه السوره من أبحاث.

یقول أوّلا: وَ لاٰ یَصُدُّنَّکَ عَنْ آیٰاتِ اللّٰهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَیْکَ و بالرغم من أن النهی موجه إلی الکفار،إلاّ أن مفهوم الآیه عدم تسلیم النّبی صلّی اللّه علیه و آله أمام صدّ الکافرین،و إحباطهم و مؤامراتهم،و هذا تماما یشبه ما لو قلنا مثلا:لا ینبغی أن یوسوس لک فلان،فمعناه:لا تستسلم لوسوسته!.

و بهذا الأسلوب یأمر اللّه النّبی صلّی اللّه علیه و آله أن یقف راسخ القدم عند نزول الآیات و لا یتردد فی الأمر،و أن یزیل الموانع من قارعه الطریق مهما بلغت،و لیسر نحو هدفه مطمئنا،فإنّ اللّه حامیه و معه أبدا.

و یقول ابن عباس:و إن کان المخاطب هو النّبی صلّی اللّه علیه و آله،إلاّ أنّ المراد عموم الناس،و هو من قبیل المثل العربی المعروف«إیّاک أعنی و اسمعی یا جاره!».

و بعد هذا الخطاب الذی فیه جنبه نهی،یأتی الخطاب الثّانی و فیه سمه إثبات فیقول: وَ ادْعُ إِلیٰ رَبِّکَ ..فاللّه الذی خلقک و هو الذی ربّاک و رعاک...

و الأمر الثالث،بعد الأمر بتوحید اللّه،هو نفی جمیع أنواع الشرک و عباده الأصنام وَ لاٰ تَکُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِکِینَ ...فإن طریق التوحید واضحه بینه،و من

ساروا عليها فهم على صراط مستقيم!.

و الأمر الرّابع تأكيد آخر على نفى جميع أنواع الشرك،إذ يقول تعالى:

وَ لاٰ تَدْعُ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ

.

و هـذه الأوامر المتتابعه كل واحـد منها يؤكّد الآخر،يوضح أهميه التوحيد فى المنهج الإسـلامى،إذ بدونه يكون كل عمل زيفا و وهما.

و بعد هذه الأوامر الأربعه تأتى أوصاف أربعه للّه سبحانه،و هى جميعا تأكيد على التوحيد أيضا.

فالأوّل قوله: لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ .

و الثّانى قوله: كُلُّ شَيْءٍ هٰالِكٌ إِلاّٰ وَجْهَهُ .

و الوصف الثالث: لَهُ الْحُكْمُ و الحاكميه فى عالمى التشريع و التكوين.

و الرابع:أن معادنا إليه وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

و الأوصـاف الثلاثه الأخيره يمكن أن تكون دليلا على إثبات التوحيـد و ترك جميع أنواع عباده الأصـنام،الـذى أشـير إليه فى الوصف الأول! لأنّه طالما كنّا هالكين جميعا و هو الباقى.

و طالمـا كـان التـدبير لنظام الوجود بيـده و الحكم له! و طالما كان معادنا إليه و إليه نرجع!...فما عسـى أن يكون دور المعبودات غيره،و أى أحد يسـتحق العباده سواه!؟ و المفسّرون الكبار لديهم آراء مختلفه فى تفسـير جمله كُلُّ شَيْءٍ هٰالِكٌ إِلاّٰ وَجْهَهُ تدور حول محور كلمتى«وجه»و«هالك».

لأنّ الوجه يطلق-من حيث اللغه-على المحيّا أو ما يواجهه الإنسان من الشـخص المقابل،و لكن الوجه حين يطلق على الخالق فإنّه يعنى عندئذ ذاته المقدسه!.

و كلمه«هالك»مشتقّه من ماده«هلك»و معناه الموت و العدم،فعلى هذا

يكون معنى الجمله المتقدمه فناء جميع الموجودات عدا ذات الخالق المقدسه...

و هـذا الفناء بالنسبه للموجودات الممكنه غير منحصـر بفناء هـذا العالم و انتهائه، فالموجودات الآن فانيه قبال الـذات المقدسه،و هی تحتاج إلی فيضه لحظه بعـد لحظه،و ليس لـديها فی ذاتها أی شـیء،و كلّ ما لديها فمن اللّه! ثمّ بعد هذا كلّه فإنّ موجودات هـذا العـالم جميعهـا متغير و فی معرض التبـدل، و حتی طبقـا لفلسـفه«الحركه الجوهريه»فـذاتها هی التغيير بعينه،و نحن نعرف أن الحركه و التغيير معناهما الفناء و العوده الدائميه،فكل لحظه تموت موجودات العالم و تحيا!.

فعلی هـذا فإنّ الموجودات هالكه و فانيه الآن-أيضا-غير أن الذات التی لا طريق الفناء إليها و لا تهلك،هی الذات المقدسه! كما نعلم أنّ الفناء أو العـدم يتجلی بصوره واضـحه فی نهايه هـذا العالم،و كما يقول القرآن: كُلُّ مَنْ عَلَيْهٰا فٰانٍ وَ يَبْقىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاٰلِ وَ الْإِكْرٰامِ . (١)

و لا يخصّ الفناء ما علی الأرض،بل يشمل حتی أهل السماء وَ نُفِخَ فِی الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ . (٢)

فهذا التّفسـير منسجم مع ظاهر الآيه و الآيات الأخری فی القرآن،غير أن بعض المفسّرين ذكروا تفاسير أخری غير ما تقدم بيانه،و منها:

١-أنّ المقصود من كلمه(وجه)هو العمل الصالـح،و مفهوم هـذه الآيه يكون حينئـذ أن جميع الأعمال تمضـی مع الرياح سوی ما يكون خالصا للّه.

و قال بعضـهم:إنّ المراد بالوجه هو انتساب الأشـياء إلی اللّه،فيكون مفهوم الآيه أنّ كل شیء معدوم ذاتا إلاّ من ناحيه انتمائه إلی اللّه! و قال بعضهم:المراد بالوجه هو الدين،فيكون مفهوم الآيه أن المذاهب كلها

١- ١) -سوره الرحمن،الآيتان ٢۶ و ٢٧.

٢- ٢) -سوره الزمر،الآيه ۶٨.

باطله سوى دين اللّه.

و جمله لَهُ الْحُکْمُ هى کما فسّروها بأنّها الحاکميه التشريعيه.و هو تأکيد على التّفسير السابق!.

کما أن جمله وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فسّروها بالرجوع إلى اللّه فى أخذ الشريعه عنه!و هذا تأکيد آخر على هذا المعنى (۱) .

و هـذه التفاسـير مع ما بيّناه آنفا لا نجـد بينها منافاه فى الحقيقه!...لأنّنا حين عرفنا أن الشـىء الوحيد الذى يبقى فى هذا العالم هو الذات المقدسه للّه فحسب! فيتّضح أن ما يرتبط بذات اللّه بنحو من الأنحاء فإنه يستحق البقاء و الابديه.

فدين اللّه الصادر منه أبدىّ،و العمل الصالح الذى له أبدىّ...و القاده الإلهيّون الذين يرتبطون يتّسمون بالخلود.

و الخلاصه،کل ما هو مرتبط باللّه-و لو بنحو من الأنحاء-فهو غير فان «فلاحظوا بدقّه».

مسألتان

اشاره

۱-کيف تفنى جميع الأشياء؟!

من جمله الأسـئله التى أثيرت فى ذيل الآيه،هو أنّه إذا کان لا بدّ من فناء جميع الأشياء فى نهايه العالم،فلا محيص من أن تتلاشى الأتربه التى تکونت من أبدان الناس،فى حين أن القرآن يصـرّح مرارا بأن اللّه سـيجمع هذه الاتربه و ينشر الناس منها،و أن الناس سينشرون فى يوم القيامه من قبورهم!.

و طبقا لظاهر الآيات-أيضا-فإن الجنّه معدّه،و النّار معدّه و مهيأه من قبل،

۱- ۱) -وردت روايات متعدده فى تفسـير«نور الثّقلين»فى ذيل الآيات فسّـرت بعضها الوجه بدين اللّه،و بعضها برسل اللّه و ما هو منسوب للّه.

كما جاء التعبير عن الجنّه أَعِـدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ أو ما شابه ذلک،و هی إشاره لخلق الجنّه و أنّها مهیأه للمتقین..و قد ورد هذا التعبیر فی موضعین من آیات القرآن «الآیه ۱۲۳ من سوره آل عمران و الآیه ۲۱ من سوره الحدید».

كما ورد التعبير عن النّار ب أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ فی موضعین من القرآن أیضا«البقره الآیه ۲۴ و آل عمران الآیه ۱۳۱».

فهل ستفنی الجنّه و النار فی انتهاء العالم؟! ثمّ بعد هذا کلّه فنحن نعتقد بالحیاه البرزخیه للإنسان،و نستفید ذلک من آیات القرآن فی شأن الأرواح،فهل ستفنی تلک أیضا؟! و الجواب علی جمیع الأسئله یتّضح بما یلی:

إنّ کثیرا ما یتفق أن یکون المراد من الهلاک و العدم هو تخلخل النظام و دماره،لا تلاشیه و فنائه فلو أن عماره مثلا تهدمت بسبب الزلزله فهنا یصدق علیها الفناء و الهلاک،فی حین أنّ مواد العماره لا تزال موجوده،غیر أن نظامها قد أختل و انعدم فحسب!.

و نعرف أن فی نهایه هذا العالم ستنطفئ الشمس،و یظلم القمر،و تندک الجبال،و تموت الموجودات الحیّه،فهذا معنی هلاکها!هذا من جهه!.

و من جهه أخری فإنّ الفناء متعلق بهذه الدنیا،و ما فی هذه الدنیا...أمّا الجنّه و النّار فسواء کانتا داخل هذا العالم أو خارجه،فلیستا جزءا من هذه الدنیا لیشملهما حکم الفناء و العدم لنظامهما،فهما متعلقتان بالآخره لا بالدنیا! و من جهه ثالثه،فإنّا ذکرنا آنفا أنّ الهلاک-أو الفناء-بالنسبه للموجودات الممکنه غیر منحصر بانتهاء هذا العالم..فهی هالکه و فانیه الآن أیضا،لأنّها لا تملک شیئا فی داخل ذاتها،و کل ما عندها فمن غیرها،فهی متغیره و دائمه الحرکه،و معنی ذلک الفناء التدریجی و المرکب من الوجود و العدم! و مع بیان ما تقدم یتّضح الجواب علی الأسئله السابقه تماما!

۲-التّفسیر المنحرف لجمله وَ لاٰ تَدْعُ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهاً آخَرَ!

یستدل جماعه من الوهّابیین أحیانا علی أن مسأله«التوسل و الشفاعه» لا تنسجم مع حقیقه التوحید،بالآیه الآنفه و آیات أخری مشابهه لها.

إذ یقول أولئک:إنّ القرآن نهی عن عباده غیر اللّه بصریح العباره،کما نهی أن ندعو أسماء سوی اللّه،إذ قال: فَلاٰ تَدْعُوا مَعَ اللّٰهِ أَحَداً . (۱)

و الحال أنّ المقصود من هذه الآیات لیس هو أن لا ندعو أشخاصا آخرین، بل المقصود کما هو مستفاد من الآیه مَعَ اللّٰهِ أی أن من یعتقد أن ما کان للّه یمکن طلبه من غیر اللّه و یراه مستقلا فی إنجازه،فإنه مشرک.

و لکننا إذا اعتقدنا بأن جمیع القدرات هی خاصه باللّه،و لا نعتقد بأن أحدا معه یکون مبدأ الأثر...و نعتقد بأن للّه أولیاء یشفعون بإذنه و أمره،فنتوسل بهم إلی اللّه لیشفعوا لنا عند اللّه،فهذا هو التوحید بعینه،و هذا هو ما أشارت إلیه آیات القرآن مرارا.

تری هل کان قول إخوه یوسف لأبیهم: یٰا أَبٰانَا اسْتَغْفِرْ لَنٰا شرکا؟!(سوره یوسف الآیه ۹۷).

و هل-حین یقول القرآن: وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جٰاؤُکَ فَاسْتَغْفَرُوا اللّٰهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللّٰهَ تَوّٰاباً رَحِیماً ، (۲) یکون قول القرآن هذا دعوه نحو الشرک؟!! إنّ حقیقه الشفاعه و التوسل-أیضا-لیس شیئا سوی ما أشرنا إلیه آنفا (۳) ! ربّنا ألهم قلوبنا نور التوحید و المعرفه،لئلا نری سواک، و لا نطلب سواک،و لا نرجو سواک!

ص: ۳۲۲

۱- ۱) -سوره الجن،الآیه ۱۸.

۲- ۲) -سوره النساء،الآیه ۶۴.

۳- ۳) -لمزید التوضیح یراجع تفسیر الآیه ۳۵ المائده،و تفسیر ذیل الآیه(۴۸)من سوره البقره!

اللّهم وثّق ارتباطنا بـذاتک المقـدسه یوما بعـد یوم أرواحنا تحظی بقبس من بقاء و خلود ذاتک الخالده! اللّهم أبعد حبّ الدنیا و الاستعلاء و الفساد فی الأرض عن أرواحنا،و اجعلنا فی صفوف المتقین، وَ الْعاقِبَهُ لِلْمُتَّقِینَ .

آمین ربّ العالمین انتهاء سوره القصص

ص :۳۲۳

سوره العنكبوت

اشاره

مكيّه و عدد آياتها تسع و ستون آيه

ص: ۳۲۵

محتوى سوره العنكبوت!

المشهور بين جمع من المحققين أنّ جميع آيات هذه السوره نازله بمكّه، فيكون محتواها منسجما مع محتوى السور المكيه.

إذ ورد فيها الكلام على المبدأ و المعاد،و قيام الأنبياء السابقين العظام، و وقوفهم بوجه المشركين و عبده الأصنام و الجبابره و الظالمين،و انتصارهم و انهزام هذه الجماعه الظالمه!و كذلك تتحدث هذه السوره عن الدعوه الى الحق و الامتحان الالهى للبشر،و ذرائع الكفار فى مجالات مختلفه.

غير أنّ جماعه من المفسّرين يرون بأن إحدى عشره آيه منها نازله بالمدينه،و هى الآيات الأولى من السوره،و لعلّ ذلك-كما سنرى-ناتج عن سبب نزول بعض الآيات التى تتحدث عن الجهاد،و الإشاره إلى موضوع المنافقين،و هذا ما يناسب السور المدنيه!.

و لكن سنرى بعدئذ أنّ هذه الأمور لا تنافى كون السوره مكيّه.

و على كل حال،فتسميه السوره هذه ب«العنكبوت»مأخوذه من الآيه(۴۱) من هذه السوره،التى تشبّه عبده الأوثان من دون اللّه بالعنكبوت،التى تبنى بيتها من نسيجها،و هو أوهن البيوت!!.

و بصوره إجماليه،يمكن أن يقال:إن أبحاث هذه السوره تتلخص فى أربعه أقسام:

۱-فالقسم الأوّل من السوره يتحدث عن مسأله«الامتحان»،و موضوع

«المنافقين»،و هذان الأمران متلازمان لا يقبلان الانفكاك!!لأنّ معرفه المنافقين غير ممكنه إلّا في طوفان الامتحانات.

۲-و القسم الثّاني من هذه السوره-في الحقيقه-هو لتسليه قلب النّبي صلّى اللّه عليه و آله و المؤمنين القلّه الأوائل،عن طريق بيان جوانب من حياه الأنبياء العظام السابقين،أمثال نوح و إبراهيم و لوط و شعيب عليهم السّلام و عواقبهم!.إذ واجهوا أعداء ألدّاء أمثال نمرود و طواغيت المال البخلاء.

و قد بيّن هذا القسم من السوره كيفيه المواجهه،و عدّتها،و عاقبتها للمؤمنين لتطمئن قلوبهم،و لتكون هذه الآيات إنذارا للمشركين و عبده الأوثان،الذين لهم قلوب كالحجاره أو أشدّ قسوه،و الظالمين الذين عاصروا النّبي صلّى اللّه عليه و آله.

۳-و القسم الثّالث من هذه السوره،و هو ما ورد في نهايه السوره بوجه خاص،يتحدث عن التوحيد و دلائل اللّه في عالم خلقه،و المواجهه مع المشركين،و يدعوا الفطره و الوجدان إلى الاحتكام و القضاء الحق!.

۴-أمّا القسم الرّابع من هذه السوره،ففيه مباحث متنوعه عن عجز الأصنام المصنوعه التي تعبد من دون اللّه،و عبادها الذين مثلهم كمثل العنكبوت،و بيان عظمه القرآن،و دلائل حقانيه نبيّ الإسلام،و لجاجه المخالفين،كما تتعرض لسلسله من المسائل التربويه أمثال:الصلاه،و العمل الصالح،و الإحسان إلى الوالدين،و أسلوب مناقشه المخالفين،و ما إلى ذلك.

فضيله هذه السوره!

ورد في تفسير مجمع البيان عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله في فضيله هذه السوره ما يلي: «من قرأ سوره العنكبوت كان له عشر حسنات بعدد كل المؤمنين و المنافقين».

و لتلاوه سورتي العنكبوت و الروم في شهر رمضان في الليله الثّالثه

و العشرين منه فضيله قصوى،حتى أنّنا نقرأ فى هذا الصدد

حديثا للإمام الصادق عليه السّلام يقول: «من قرأ سوره العنكبوت و الروم فى شهر رمضان ليله ثلاث و عشرين فهو و اللّه من أهل الجنّه،لا استثنى فيه أبدا...و لا أخاف أن يكتب اللّه على فى يمينى إثما،و إن لهاتين السورتين من اللّه مكانا». (۱)

و لا شك أن محتوى هاتين السورتين الغزير،و الدروس العمليه المهمّه منها فى التوحيد،و ما إلى ذلک،كلّه كاف لأن يسوق أىّ إنسان ذى لب و فكر و عمل إلى الجنّه و الخلود فيها.

بل لو استلهمنا من بدايه سوره العنكبوت و آياتها الأولى العظه فلعلنا نكون مشمولين فى قسم الإمام الصادق عليه السّلام...تلك الآيه التى تعرض الامتحان لعامّه الناس دون استثناء ليفتضح المبطلون و الكاذبون...فكيف يمكن أن يصدّق الإنسان بهذا الامتحان العظيم و هو لم يهىء نفسه له!؟.و لم يكن من أهل التقوى و الورع!

۱- ۱) -«ثواب الأعمال»«طبقا لتفسير نور الثقلين،ج ۴،ص ۱۴۷»من الجدير بالذكر أنّنا نكتب هذا القسم من هذا التّفسير فى بدايه ليله ۲۳ من شهر رمضان لسنه ۱۴۰۳ هجريه...

الآيات [سوره العنكبوت (۲۹): الآيات ۱ الى ۳]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ الم (۱) أَ حَسِبَ اَلنّٰاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّٰا وَ هُمْ لاٰ يُفْتَنُونَ (۲) وَ لَقَدْ فَتَنَّا اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اَللّٰهُ اَلَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ اَلْكٰاذِبِينَ (۳)

سبب النّزول

طبقا لما نقل بعض المفسّرين،أنّ الآيات الإحدى عشره الأولى من بدايه سوره العنكبوت نزلت فى المدينه فى شأن المسلمين الذين كانوا فى مكّه و غير راغبين بالهجره إلى المدينه..و كانوا قد تلقوا رسائل من إخوه لهم فى المدينه جاء فيها:«إن اللّه لا يقبل إقراركم بالإيمان حتى تهاجروا إلى المدينه»فصمموا على الهجره و خرجوا من مكّه،فتبعهم جماعه من المشركين و التحموا بالقتال فقتل منهم جماعه و جرح آخرون«و ربّما سلّم بعضهم نفسه و رجعوا إلى مكّه».

و قال بعض:إنّ الآيه الثّانيه من هذه السوره فى شأن«عمار بن ياسر» و جماعه من المسلمين الأوائل،الذين آمنوا برساله النّبى صلّى اللّه عليه و آله و لاقوا صنوف التعذيب من الأعداء.

كما قال بعضهم:إنّ الآيه الثامنه نزلت فى إسلام«سعد بن أبى وقاص»! غير أنّ التدقيق فى الآيات يكشف عن أنّه لا دليل على ارتباط الآيات مع

ص: ۳۳۰

هجره أولئک،سوی أنّ الآیات تبیّن الضغوط علی المؤمنین فی ذلک الوقت من قبل أعدائهم و أحیانا من الآباء المشرکین و الأمهات المشرکات ضدّ أبنائهم المؤمنین.

فهذه الآیات تشجّع المسلمین علی الثبات و الرجوله و الاستقامه أمام أمواج الضغوط من قبل الأعداء..و إذا ورد الحدیث فیها علی الجهاد فالمراد منه-أیضا -الجهاد فی هذا المجال،لا الجهاد المسلّح الذی تقوم به الجماعه،فذلک شرّع فی المدینه.

و إذا ورد الحدیث عن المنافقین فی هذه الآیات،فلعلّه إشاره إلی المسلمین الضعاف فی إیمانهم،الذی کان یتفق وجودهم بین المسلمین فی مکّه أحیانا...

فتاره هم مع المسلمین و تاره مع المشرکین،و کانوا یمیلون مع الکفه الراجحه منهما.

و علی کل حال،فارتباط الآیات بعضها ببعض و انسجامها توجب أن تکون هذه السوره«جمیعها»مکیه،و ما ذکرناه من الرّوایات المتقدمه المتناقضه فی ما بینها،لا یمکن أن تقطع هذا الارتباط!

التّفسیر

اشاره

الامتحان الإلهی سنه خالده:

نواجه فی بدایه هذه السوره الحروف المقطعه[ألف-لام-میم]

أیضا..و قد بیّنا تفسیرها عده مرات من وجوه مختلفه (1) .

و بعد هذه الحروف المقطعه یشیر القرآن إلی واحده من أهم مسائل الحیاه البشریه،و هی مسأله الشدائد و الضغوط و الامتحان الإلهی.

۱- ۱) -یراجع بدایه تفسیر سوره البقره و بدایه سوره آل عمران و بدایه تفسیر سوره الأعراف من التّفسیر الأمثل.

فيقول أوّلا: أَ حَسِبَ النّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ . (۱)

ثمّ يذكر القرآن هذه الحقيقه-بعد الآيه المتقدمه مباشره،و هی أن الامتحان سنه الهيه دائميه،فالامتحان لا يختص بكم-أيّها المسلمين-بل هو سنه جاريه فی جميع الأمم المتقدمه،إذ يقول: وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .

و هكذا ألقينا بهم أيضا فی أفران الامتحانيه الشديده الصعبه...و وقعوا أيضا -تحت تأثير ضغوط الأعداء القساه و الجهله المعاندين..فساحه الامتحان كانت مفتوحه دائما،و اشترك فيها جماعه كثيرون.

و ينبغی أن يكون الأمر كذلك،لأنّه فی مقام الادعاء يمكن لكل أحد أن يذكر عن نفسه أنّه أشرف مجاهد و أفضل مؤمن و أكثر الناس تضحيه..فلا بدّ من معرفه قيمه هذه الادعاءات بالامتحان،و ينبغی أن تعرف النيات و السرائر إلی أی مدی تنسجم مع هذه الادعاءات.؟! أجل فَلَيَعْلَمَنَّ اللّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ .

من البديهی أنّ اللّه يعرف جميع هذه الأمور جيدا-قبل أن يخلق الإنسان- إلاّ أنّ المراد من العلم هنا هو التحقق العينی للمسائل..و وجودها الخارجی، و بتعبير آخر:ظهور الآثار و الشواهد العمليه..و معناه أنّه ينبغی أن يری علم اللّه فی هذه المجموعه عمليا فی الخارج،و أن يكون لها تحقق عينی،و أن يكشف كلّ عمّا فی نفسه و داخله...هذا هو العلم حين يطلق علی مثل هذه المسائل و ينسب إلی اللّه!.

و الدليل علی هذه المسأله واضح-أيضا-لإنّ النيّات و الصفات الباطنيه إذا لم تحقق فی عمل الإنسان و تكون عينيّه،فلا مفهوم للثواب و الجزاء و العقاب!.

و بعباره أخری:فإنّ هذا العالم مثله كمثل«المدرسه»أو«المزرعه»

ص:۳۳۲

---

۱ – ۱) -«يفتنون»مشتق من«الفتنه»و هی فی الأصل وضع الذهب فی النّار لمعرفه مقدار خلوصه،ثمّ أطلق هذا التعبير علی كل امتحان ظاهری و معنوی..«لمزيد الإيضاح يراجع تفسير الآيه(۱۹۳)من سوره البقره».

(و التشبيهات هذه وارده فى متون الأحاديث الإسلاميه)و المنهج هو أن تتفتح الاستعدادات و تربّى القابليات و تكون فعليه بعد ما كانت بالقوّه.

و ينبغى أن تنمو البذور فى هذه المدرسه و أن تطلع البراعم من تحت الأرض فتحاط بالرعايه و العنايه لتكون شجيرات صغيره،ثمّ تكون أشجارا ذوات أصول قويه و أغصان و مثمّره على تعاقب الزمن..و هذه الأمور لا تكون إلاّ بالامتحان و الاختبار.

و من هنا نعرف أن الامتحانات الإلهيه ليست لمعرفه الأفراد،بل هى من أجل تربيه الاستعدادات و رعايتها،لتتفتح و تكون بصوره أحسن.

فعلى هذا..لو أردنا نحن أن نمتحن شيئا،فهو لأجل كشف المجهول،لكنّ امتحان اللّه ليس لكشف المجهول،لأنّه أحاط بكل شيء علما...بل هو لتربيه الاستعدادات و إيصال مرتبه«القوه»إلى«الفعل» (1) .

بحث

اشاره

الامتحانات فى وجوه مختلفه:

و بالرّغم من أن بيان عموميه الامتحان لجميع الأمم و الأقوام كان له أثر كبير فعّال بالنسبه لمؤمنى مكّه،الذين كانوا يمثلون الأقليه فى ذلك العصر،و كان التفاتهم إلى هذه الحقيقه سببا فى وقوفهم بوجه الأعداء بصبر و استقامه...إلاّ أن ذلك لم يكن منحصرا فى مؤمنى مكّه،بل إن كل جماعه و طائفه لها نصيب من هذه السنه الإلهيه فهم شركاء فيها،إلاّ أن الامتحانات الإلهيه لهم تأتى بصور مختلفه.

1- 1) -لمزيد الإيضاح فى مسأله الامتحان الإلهى و جوانبها المختلفه،يراجع التّفسير الأمثل ذيل الآيه(157)من سوره البقره حيث بيّناه بتفصيل!...

فالجماعه الذين يعيشون فی محيط ملوث بالمفاسد و الوساوس تحيط بهم من كل جانب،فإن امتحانهم الكبير فی مثل هذا الجو و الظروف،هو أن لا يتأثروا بلون المحيط و أن يحفظوا أصالتهم و نقاءهم.

و الجماعه الذين يعيشون تحت ضغط الحرمان و الفقر،يرون بأنّهم لو صمموا على ترك رأس مالهم الأصيل«الإيمان»فإنّهم سرعان ما يتخلصوا من الفقر و الحرمان لكن ثمن ذلك هو فقدانهم للإيمان و التقوى و الكرامه و الحريه و الشرف،فهنا يكمن امتحانهم..

و جماعه آخرون على عكس أولئك غرقی فی اللذائذ و النعم،و الإمكانات الماديه متوفره لديهم من جميع الوجوه...ترى هل يؤدون فی مثل هذه الظروف الشكر على النعم..أم سيبقون غرقی فی اللذائذ و الغفله و حب الذات و الأنانيه...

غرقی الشهوات و الاغتراب عن المجتمع و عن أنفسهم! و جماعه منهم كالمتغربين فی عصرنا،يرون بعض الدول بعيده عن اللّه و الفضيله و الأخلاق حقّا،و لكنّها تتمتع بالتمدن المادی المذهل و الرفاه الاجتماعی.هنا تجذب هؤلاء المتغرّبين قوّه خفيه إلى سلوك هذا النوع من الحياه أو سحق جميع القيم و الأصول و الأعراف التی يعتقدون بها،و يبيعون أنفسهم أذلاء عملاء لتلك الدول،ليوفروا لهم و لمجتمعهم مثل هذه الحياه...و هذا نوع آخر من الامتحان.

المصائب،و الآلام و الهموم،و الحروب و النزاعات،و القحط و الغلاء،و ما تثيره الحكومات الأنانيه لتجذبهم إليها و تستعبدهم به و أخيرا الأمواج النفسيه القويه و الشهوات،كلّ منها وسيله للامتحان فی طريق عباد اللّه،و السائرين فی الميادين التی تتميز فيها شخصيه الأفراد و تقواهم و إيمانهم و طهارتهم و أمانتهم و حريتهم..إلخ.

و لكن لا طريق للانتصار فی هذه الامتحانات الصعبه لاجتيازها إلاّ الجدّ

السعی المستمر،و الاعتماد علی لطف اللّه سبحانه.

و من الطریف أنّنا نقرأ حدیثا عن أحد المعصومین فی أصول الکافی فی تفسیر الآیه أَ حَسِبَ النّٰاسُ أَنْ یُتْرَکُوا أَنْ یَقُولُوا آمَنّٰا وَ هُمْ لاٰ یُفْتَنُونَ یقول فیه:

«یفتنون کما یفتن الذهب،ثمّ قال یخلصون کما یخلص الذهب» (۱) .

و علی کل حال،فإن طالبی العافیه الذین یظنون أنّ إظهار الإیمان کاف بهذا المقدار لیکونوا فی صفوف المؤمنین و فی أعلی علیین فی الجنّه مع النّبیین و الصدیقین و الشهداء و الصالحین،فهم فی خطأ کبیر.

و علی حدّ تعبیر

أمیر المؤمنین علیه السّلام فی نهج البلاغه: «و الذی بعثه بالحق لتبلبلن بلبله و لتغربلن غربله،و لتساطن سوط القدر حتی یعود أسفلکم أعلاکم و أعلاکم أسفلکم» (۲) .

قال علیه السّلام: هذا الکلام و الناس جدید و عهد ببیعته،و ینتظرون ما سیفعل ببیت المال،أ یقسمه حسب الجاه و المقامات بحسب المعاییر السابقه،فیبعّض فی المال،فیعطی الکثیر لبعضهم بحسب المقام،و القلیل للبعض الآخر!..أم سیسیر معهم بالعدل المحمّدی؟

۱- ۱) -أصول الکافی،طبقا لما نقل فی تفسیر نور الثقلین،ج ۴،ص ۱۴۸.

۲- ۲) -نهج البلاغه،خطبه ۱۶.

الآیات [سوره العنکبوت (۲۹): الآیات ۴ الی ۷]

اشاره

أَمْ حَسِبَ اَلَّذِينَ يَعْمَلُونَ اَلسَّيِّئاٰتِ أَنْ يَسْبِقُونٰا سٰاءَ مٰا يَحْكُمُونَ (۴) مَنْ كٰانَ يَرْجُوا لِقٰاءَ اَللّٰهِ فَإِنَّ أَجَلَ اَللّٰهِ لَآتٍ وَ هُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْعَلِيمُ (۵) وَ مَنْ جٰاهَدَ فَإِنَّمٰا يُجٰاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اَللّٰهَ لَغَنِيٌّ عَنِ اَلْعٰالَمِينَ (۶) وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئٰاتِهِمْ وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ اَلَّذِي كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۷)

التّفسیر

اشاره

لا مهرب من سلطان اللّه:

کان الکلام فی الآیات السابقه عن امتحان المؤمنین الشامل،و الآیه الأولی من الآیات أعلاه تهدید شدید للکفار و المذنبین،لئلا یتصوروا أنّهم حین یضیّقون علی المؤمنین و یضغطون علیهم و لا یعاقبهم اللّه فورا،فإنّ اللّه غافل عنهم أو عاجز عن عذابهم،تقول الآیه هذه: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئٰاتِ أَنْ يَسْبِقُونٰا سٰاءَ مٰا يَحْكُمُونَ .

فلا ینبغی أن یغرّهم إمهال اللّه إیّاهم فهو امتحان لهم،کما أنّه فرصه للتوبه

ص :۳۳۶

و العوده إلى ساحه اللّه تعالى.

و ما ذهب إليه بعض المفسّرين من أنّ هذه الآيه هى إشاره إلى المؤمنين المذنبين،فلا يناسب هذا التّفسير سياق الآيات بأى وجه،بل جميع القرائن تدل على أنّ المقصود بالآيه هم المشركون و الكفار.

ثمّ يتحدث القرآن مرّه أخرى عن سير المؤمنين و مناهجهم،و يقدم النصح لهم،فيقول: مَنْ كٰانَ يَرْجُوا لِقٰاءَ اللّٰهِ فعليه أن يعمل ما فى وسعه على امتثال الأوامر الإلهيه و الأحكام الشرعيه،لأنّ الوقت المعيّن سيأتى حتما فَإِنَّ أَجَلَ اللّٰهِ لَآتٍ (1) .

أجل،إنّ وعد اللّه هذا لا يقبل التخلّف،هو طريق لا بدّ من اجتيازه،ثمّ إنّ اللّه سبحانه يسمع أحاديثكم،و هو مطلع على أعمالكم و نيّاتكم...لأنّه هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

و فى معنى قوله تعالى: لِقٰاءَ اللّٰهِ و ما المقصود منه؟فسّره بعض المفسّرين بملاقاه الملائكه،كما فسّره البعض بملاقاه الحساب و الجزاء..و بعض بملاقاه الحكم و أمر الحق..و آخرون بأنّه كنايه عن يوم القيامه..فى حين أنّه لا دليل على أن تفسّر هذه الآيه بهذه المعانى المجازيه.

و ينبغى القول أن«لقاء اللّه»فى يوم القيامه ليس لقاء حسيّا بل نوعا من الشهود الباطنى،لأنّ الستائر الضخمه لعالم الماده تنكشف عن عين روح الإنسان،و تبدو فى حاله الشهود للإنسان! و كما يقول العلامه الطباطبائى فى تفسير الميزان:إنّ المقصود من لقاء اللّه، هو أنّ العباد يكونون فى موقف لا يكون بينهم و بين اللّه حجاب،لأنّ طبيعه يوم القيامه هى ظهور الحقائق كما يقول القرآن: وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ

١- ١) -هذه الجمله-فى الحقيقه-فيها حذف،و التقدير«من كان يرجو لقاء اللّه فيبادر بالطاعه قبل أن يلحقه الأجل» أو«من كان يرجو لقاء اللّه و يقول آمنت باللّه فليقله مستقيما صابرا عليه فإنّ أجل اللّه لآت».

سوره النور الآيه ۲۵ (۱) .

أمّا الآيه التي تليها،فهي-في الحقيقه-تعليل لما سبق بيانه في الآيه الآنفه، إذ تقول:إن على المؤمنين الذين يرغبون في لقاء اللّه السعي بما أوتوا من قدره و قابليه من أجل ذلك فإن نتيجه كل ذلك السعي و الجهاد و تحمل الشدائد ترجع ثمارها للعامل نفسه: وَ مَنْ جٰاهَدَ فَإِنَّمٰا يُجٰاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللّٰهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعٰالَمِينَ .

إن خطه الامتحان الالهي هي الجهاد،جهاد النفس و هواها،و جهاد الأعداء الألداء،لحفظ الإيمان و التقوى و الطهاره،و نفع ذلك يعود للإنسان...و إلاّ فإنّ اللّه وجود غير متناه من جميع الوجوه،و غير مفتقر لأي شيء حتى يتم بواسطه طاعه الناس أو عبادتهم جبرانه،و لا ينقصه شيء حتى يكمله الآخرون،فكل ما عندهم فمنه،و ليس لهم شيء من أنفسهم!.

و يتّضح هنا من هذا البيان أن الجهاد لا يعني بالضروره جهاد العدوّ المسلّح، بل يحمل معناه اللغوي الذي يشمل كل أنواع السعي و الجد لحفظ الإيمان و التقوى،و تحمل أنواع الشدائد،و المواجهات«الموضعيه»للأعداء الألدّاء و الحاقدين.

و الخلاصه أنّ جميع منافع هذا الجهاد ترجع للشخص المجاهد نفسه،و هو الذي يفوز بخير الدنيا و الآخره في جهاده،و حتى إذا كان المجتمع يستفيد من بركات هذا الجهاد،فهو في مرحله أخرى بعده.

فعلى هذا،متى ما وفّق أي إنسان إلى الجهاد فنال نصيب منه،فعليه أن يشكر اللّه على هذه النعمه!.

و آخر آيه-محل البحث-توضيح لما تقدم ذكره في الآيه السابقه بشكل مبهم تحت عنوان الجهاد،فهنا يكشف القرآن حقيقه الجهاد فيقول: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئٰاتِهِمْ .

ص: ۳۳۸

۱- ۱) -بحثنا المراد من لقاء اللّه في الجزء الأوّل ذيل الآيه(۴۶)من سوره البقره فليراجع هناك أيضا.

إذن أوّل فائده كبيره لهذا الجهاد الكبير و هو الإيمان و العمل الصالح هى تكفير الذنوب و سترها على الإنسان،كما أن الثواب سيكون من نصيبهم،كما يقول القرآن فى نهايه هذه الآيه أيضا: وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِی کانُوا یَعْمَلُونَ .

کلمه«نكفّر»مشتقه من ماده«تكفير»و معناها فى الأصل التغطيه و الستر، و المقصود بتغطيه الذنوب هنا عفو اللّه و صفحه! و التعبير ب أَحْسَنَ الَّذِی کانُوا یَعْمَلُونَ مع أن اللّه يجزى على الأعمال الصالحه-حسنه كانت أم أحسن لعله إشاره إلى أنّنا نجازى جميع أعمالهم الصالحه و الحسنه بأحسن الجزاء،أى إذا كانت بعض أعمالهم أحسن و بعضها حسنا،فنحاسب الجميع بالأحسن،و هذا هو معنى تفضل اللّه سبحانه.

و فى آيات أخرى من القرآن،كالآيه(۳۸)من سوره النور وردت الإشاره إلى ذلك أيضا لِیَجْزِیَهُمُ اللّٰهُ أَحْسَنَ مٰا عَمِلُوا وَ یَزِیدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ .

ص :۳۳۹

الآیتان [سوره العنکبوت (۲۹): الآیات ۸ الی ۹]

اشاره

وَ وَصَّیْنَا اَلْإِنْسٰانَ بِوٰالِدَیْهِ حُسْناً وَ إِنْ جٰاهَدٰاکَ لِتُشْرِکَ بِی مٰا لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ فَلاٰ تُطِعْهُمٰا إِلَیَّ مَرْجِعُکُمْ فَأُنَبِّئُکُمْ بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۸) وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِی اَلصّٰالِحِینَ (۹)

سبب النّزول

وردت روایات مختلفه فی شأن نزول الآیه الآنفه الذکر،و مضمون الجمیع واحد و هی أنّ بعض الرجال الذین کانوا فی مکّه و أسلموا (۱) ،حین سمعت أمهاتهم بذلک صممن علی أن لا یتناولن طعاما و لا یشربن ماء حتی یرجع أبناؤهن عن الإسلام،و بالرغم من أن أیه واحده من هؤلاء الأمهات لم تف بقولها،و رجعت عن إضرابها عن الطعام،إلاّ أنّ الآیه المتقدمه نزلت لتوضح للجمیع أسلوب المعامله بین الأبناء و الآباء و الأمهات،فی مجال الکفر و الإیمان.

۱- ۱) -ورد فی بعض الروایات اسم(سعد بن أبی وقاص)و فی بعضها اسم(عیاش بن أبی ربیعه المخزومی).

اشاره

أفضل الوصايا بالنسبه للوالدين:

إنّ واحدا من أهم الامتحانات الإلهيه،هی مسأله«التضاد»بین خط الإیمان و التقوی و بین علاقه العاطفیه و القرابه..و القرآن فی هذا المجال-یوضح وظیفه المسلمین بجلاء! فی البدایه یتحدث عن قانون کلّی یستمد من جذور العواطف الإنسانیه وردّ الجمیل فیقول: وَ وَصَّیْنَا الْإِنْسٰانَ بِوٰالِدَیْهِ .

و بالرغم من أنّ هذا حکم تشریعی،و لکن هذه المسأله قبل أن تکون «لازما»تشریعیا،لها وجود فی فطره الإنسان بشکل قانون تکوینی.و خاصّه أن التعبیر ب«الإنسان»هنا یلفت النظر..فهذا القانون لا یختصّ بالمؤمنین،بل کلّ من کان جدیرا بأن یحمل اسم الإنسان ینبغی أن یکون عارفا بحق الأبوین...

و أن لا ینسی تکریمهما و احترامهما و الإحسان إلیهما طیله عمره..و إن کان کل ذلک لا یفی بحقوقهما!.

بعد ذلک،و من أجل أن لا یتبادر إلی الذهن أنّ العلاقه العاطفیه بالوالدین یمکن أن تکون حاکمه علی العلاقه بین الإنسان و ربّه و إیمانه،یأتی استثناء صریح-لیوضّح هذا الموضوع فی الآیه،فیقول تعالی: وَ إِنْ جٰاهَدٰاکَ لِتُشْرِکَ بِی مٰا لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ فَلاٰ تُطِعْهُمٰا .

و التعبیر ب جٰاهَدٰاکَ مفهومه بذل قصاری جهدهما و إصرارهما و منتهی سعیهما للحیلوله بین الولد و بین الإیمان باللّه.

و التعبیر ب مٰا لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ إشاره إلی عدم منطقیه الشرک،لأنّ الشرک لو کان صحیحا واقعا لکان علیه دلیل بیّن.

و بتعبیر آخر:متی ما لم یعلم الإنسان بشیء فلا ینبغی أن یتبعه فکیف إذا کان یعلم ببطلانه؟

ص: ۳۴۱

فهذا الاتباع هو اتّباع للجهل،فلو أن الوالدين أمراك باتباع الجهل فلا تطعهما.

و أساسا فإنّ التقليد الأعمى خطأ حتى و لو كان فى مورد الإيمان،فكيف إذا كان هذا التقليد للكفر و الشرك!.

و هذه الوصيه وردت-أيضا-فى سوره لقمان مع اضافه وَ صٰاحِبْهُمٰا فِي الدُّنْيٰا مَعْرُوفاً فمع عدم قبول دعوتهما للشرك،ينبغى عليك احترامهما و الإحسان إليهما و الارفاق بهما.

و لا ينبغى أن يتصور أحد أن وجوب مخالفه الأبوين فيما لو دعوا ولديهما الى الشرك دليل على جواز الاساءه لهما،فهذا يؤكّد منتهى تأكيد الإسلام على احترام الأبوين.

و بهذا-يستفاد من هذا المنطلق أصل كلى:أى إن شيئا لا يمكن أن يكون حاكما على علاقه الإنسان باللّه،لأنّها مقدمه على كل شىء،حتى على علاقته بأبويه التى هى أقرب العلائق إليه.

و

الحديث المعروف «لا طاعه لمخلوق فى معصيه الخالق» (۱) . ..الذى نقل عن أمير المؤمنين على عليه السّلام يعطينا معيارا واضحا لهذه المسائل!.

ثمّ يضيف تعالى فى نهايه الآيه إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ و أجازيكم دون غمط و نقص فى الثواب أو العقاب.

و هذه الجمله-فى الحقيقه تهديد لأولئك الذين يسيرون فى طريق الشرك، و الذين يدعون الآخرين إلى هذا الطريق..لأنّها تقول بصراحه:إنّ اللّه يرى أعمالكم و يحفظهما ثمّ يعيدها إليكم«فى معادكم».

و الآيه التى بعدها تؤكّد الحقيقه فى أولئك المؤمنين الذين يعملون الصالحات،و تكرر هذا المضمون أيضا

۱- ۱) -نهج البلاغه،الكلمات القصار-الجمله ۱۶۵.

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصّالِحِينَ

.

و أساسا فإنّ عمل الإنسان يترک فی الإنسان أثره..فالعمل الصالح یصبغ الإنسان بلونه و یدخله فی زمره«الصالحین».

كما أنّ العمل السیء یدخله فی زمره«الخاطئین و المسیئین».

و لكن ما الغایه من هذا التكرار؟! قال بعضهم:فی الآیات السابقه إشاره إلی أولئک الذین یسلكون طریق الحق،أمّا هذه الآیه فهی إشاره إلی أولئک الذین هم الأدلاء و الهداه الی طریق التوحید،لأنّ التعبیر ب«الصالحین»ورد فی كثیر من الأنبیاء،إذ كانوا یطلبون من اللّه أن یدخلهم فی الصالحین.

كما یحتمل أیضا،أنّ الكلام فی الآیات المتقدمه كان عن غفران الذنوب و تكفیر السیئات و ما یستحقه المؤمنون من الجزاء،إلاّ أنّه هنا إشاره عن مقامهم الرفیع الذی هو فی نفسه ثواب آخر!فهم فی صف الصالحین،صف الأنبیاء و الصدیقین و الشهداء،و هم جلساؤهم و رفقاؤهم فی الجنان.

ملاحظه

اشاره

الإحسان إلی الوالدین:

لیست هذه هی المرّه الأولی التی یشیر فیها القرآن إلی هذه المسأله الإنسانیه المهمّه،فقد أشار إلیها فی سوره الإسراء الآیه(۲۳)من قبل،و سترد الإشاره إلیها بعد فی سوره لقمان الآیتین(۱۴)و(۱۵)و سوره الأحقاف الآیه (۱۵)أیضا.

و فی الحقیقه إنّ الإسلام یدعو إلی احترام الوالدین فی أسمی مراتبه،حتی مع كونهما مشركین،أو عند دعوتهما إلی الشرک الذی هو أبغض الأشیاء فی نظر

الإسلام،فإنّ الإسلام يوجب احترامهما فى الوقت الذى يمنع من إطاعتهما فى قبول الشرك و الاستجابه إلى ذلك!.

و هذا فى الواقع واحد من الامتحانات الإلهيه العظيمه..التى أشير إليها فى بدايه هذه السوره،لأنّهما قد يبلغان من العمر أحيانا يصعب معه تحمّلهما..فهنا ينبغى على الأبناء أن يؤدوا امتحانهم فى مجال ردّ الإحسان و إطاعه أمر اللّه..و أن يحافظوا على والديهما بأحسن وجه!.

نقرأ

فى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله أنّ رجلا جاء إليه فقال:«يا رسول اللّه،من أبرّ؟ قال:أمّك:قلت:ثمّ من؟قال:أمّك.قلت:ثمّ من؟قال:ثمّ أمّك.قلت:ثمّ من؟قال:ثمّ أباك ثمّ الأقرب فالأقرب» (۱) .

و

فى حديث آخر-و هو وارد فى كثير من الكتب-أن النّبى صلّى اللّه عليه و آله قال: «الجنّه تحت أقدام الأمّهات» (۲) . فلا بدّ للوصول إلى الجنّه من الخضوع و التذلل فى مقابلها كتراب الأقدام.

۱- ۱) -مجمع البيان ذيل الآيات محل البحث...

۲- ۲) -المصدر السابق.

الآيات [سوره العنكبوت (۲۹): الآيات ۱۰ الی ۱۳]

اشاره

وَ مِنَ اَلنّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا بِاللّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اَللّهِ جَعَلَ فِتْنَهَ اَلنّاسِ كَعَذابِ اَللّهِ وَ لَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنّا كُنّا مَعَكُمْ أَ وَ لَيْسَ اَللّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ اَلْعالَمِينَ (۱۰) وَ لَيَعْلَمَنَّ اَللّهُ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ اَلْمُنافِقِينَ (۱۱) وَ قالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اِتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَ ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (۱۲) وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ اَلْقِيامَهِ عَمّا كانُوا يَفْتَرُونَ (۱۳)

التّفسير

اشاره

شركاء فى الانتصار أمّا فى الشدّه فلا!

حيث أنّ الآيات المتقدمه تحدثت عن المؤمنين الصالحين و المشركين بشكل صريح،ففي الآيات الأولى من هذا المقطع يقع الكلام على الفريق الثّالث -أى المنافقين-فيقول القرآن فيهم: وَ مِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا بِاللّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللّهِ جَعَلَ فِتْنَهَ النّاسِ كَعَذابِ اللّهِ فلا يصبرون على الأذى و الشدائد،

ص: ۳۴۵

و يحسبون تعذيب المشركين لهم و أذى الناس أنّه عذاب من اللّه وَ لَئِنْ جٰاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنّٰا كُنّٰا مَعَكُمْ فنحن معكم فى هذا الافتخار و الفتح.

ترى هل يظنون أن اللّه خفىّ عليه ما فى أعماق قلوبهم فلا يعرف نياتهم أَ وَ لَيْسَ اللّٰهُ بِأَعْلَمَ بِمٰا فِي صُدُورِ الْعٰالَمِينَ .

و لعل التعبير ب«آمنا»بصيغه الجمع،مع أنّ الجمله التى تليه جاءت بصيغه المفرد،هو من جهه أنّ هؤلاء المنافقين يريدون أن يقحموا أنفسهم فى صف المؤمنين،فلذلك يقولون«آمنا»أى آمنا كسائر الناس الذين آمنوا.

و التعبير ب أُوذِيَ فِي اللّٰهِ معناه أوذى فى سبيل اللّه،أى إنّهم قد يتعرض لهم العدوّ-أحيانا-و هم فى سبيل اللّه و الإيمان فيؤذيهم.

الطريف هنا أنّ القرآن يعبر عن مجازاه اللّه ب«العذاب»و عن إيذاء الناس ب«الفتنه»و هذا التعبير إشاره إلى أنّ إيذاء الناس ليس عذابا-فى حقيقه الأمر- بل هو امتحان و طريق إلى التكامل.

و بهذا فإنّ القرآن يعلمهم أن لا يقايسوا بين هذين النوعين«العذاب» و«الإيذاء»و لا ينبغى أن يتنصّلوا من«الإيمان»بحجّه أن المشركين و المخالفين يؤذيهم فإن هذا الإيذاء جزء من منهج الامتحان الكلى فى هذه الدنيا.

و هنا ينقدح سؤال و هو:أى نصر جعله اللّه حليف المسلمين و نصيبهم، ليدعى المنافقون أنّهم شركاء فى هذا النصر مع المسلمين؟! و نقول فى الجواب:إنّ الجمله الآنفه الذكر جاءت بصيغه«الشرط»و نعلم أنّ الجمله الشرطيه لا دليل فيها على وجود الشرط،بل مفهومها هو أنّه لو اتفق أن كان النصر حليفكم فى المستقبل،فإنّ هؤلاء المنافقين-ضعاف الإيمان-يرون أنفسهم شركاء فى هذا النصر! إضافه إلى كل ذلك فإنّ المسلمين فى مكّه كانت لهم انتصارات على المشركين غير عسكريه بل انتصارات فى التبليغ و«الإعلام»و نفوذ فى الأفكار

العامه و توغّل الإسلام فی طبقات المجتمع...

ثمّ بعد هذا کله فإنّ التعبیر بالإیذاء مناسب لمحیط مکّه...و إلاّ فقلّ أن اتفق مثل هذا الإیذاء فی محیط المدینه.

و قد تنوّر و اتضح-ضمنا-هذا الموضوع الدقیق،و هو أن التعبیر بالمنافق لا یختص بمن لیس فی قلبه ایمان إطلاقا و یدعی الإیمان،بل حتی الافراد من ضعاف الإیمان الذین یتراجعون عن عقیداتهم نتیجه الضغوط و التأثیر بفلان و فلان فهؤلاء أیضا یعدون من المنافقین.. و الآیه محل البحث-کما یظهر- تتحدث عن هذا النوع من المنافقین،و تصرح بأنّ اللّه مطلع علی نیّاتهم و علیم بسرائرهم.

و فی الآیه التالیه-لمزید التأکید-یضیف القرآن قائلا: وَ لَیَعْلَمَنَّ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ لَیَعْلَمَنَّ الْمُنٰافِقِینَ .

فلو تصوروا أنّهم إذا أخفوا الحقائق فإنّهم سیکونون فی منأی عن علم اللّه فهم فی خطأ کبیر جدّا.

و نکرر هنا-مرّه اخری أنّ التعبیر بالمنافقین لیس دلیلا علی أنّ هذه الآیات نزلت فی المدینه،صحیح أنّ مسأله النفاق تقع عاده بعد انتصار جماعه و الاستیلاء علی الحکومه..حیث یغیر المخالفون أقنعتهم و یعملون فی الخفاء حینئذ،إلاّ أن للنفاق-کما قلنا-معنی واسع،و یشمل حتی الأفراد ضعاف الإیمان الذین یبدّلون عقیدتهم لأدنی مکروه یصیبهم.

و الآیه الأخری بعدها تشیر إلی منطق المشرکین الخاوی و الملتوی،الذی لا یزال موجودا فی طبقات المجتمع الواسعه فتقول: وَ قٰالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِلَّذِینَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِیلَنٰا وَ لْنَحْمِلْ خَطٰایٰاکُمْ (۱) .

۱- ۱) -جمله«و لنحمل»فعل دالّ علی الأمر،و قد ولّد هذا التعبیر إشکالا عند بعض المفسّرین،و هو:هل یمکن أن

و اليوم نرى كثيرا من الخبثاء يقولون للآخرين عند دعوتهم إلى أمر:إن كان فيه ذنب فعلى رقابنا!.

فى حين أنّنا نعلم أنّه لا يمكن لأحد أن يتحمل وزر أحد،و أساسا فإنّ هذا العمل ليس معقولا و ليس منطقيا....فاللّه عادل سبحانه و لا يؤاخذ أحدا بجرم الآخر.

ثمّ بعد كل ذلك فإنّ الإنسان لا تسقط عنه المسؤوليه فى العمل بمثل هذه الكلمات،و لا يمكن له التنصّل منها...و خلافا لما يتوهمه بعض الحمقى فإنّ مثل هذه التعبيرات لا تنقص من عقابهم حتى بمقدار رأس الإبره.

و لذلك فلا يعتدّ بمثل هذا الكلام فى أيه محكمه كانت و لا يقبل من المذنب أن يقول:إن فلانا تحمّل عنّى الوزر و جعله فى رقبته!.

صحيح أن ذلك الإنسان حثه على الإجرام و دفعه إلى اقترافه،فهو شريكه، إلاّ أن هذا الاشتراك فى الجريمه لا يخفّف عنه المسؤوليه! لذلك فإنّ القرآن يقول بصراحه فى الجمله التاليه وَ مٰا هُمْ بِحٰامِلِينَ مِنْ خَطٰايٰاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكٰاذِبُونَ .

هنا ينقدح السؤال التالى..«إنّ الصدق و الكذب هما فى موارد الجمل الخبريه،فى حين أن هذه الجمله إنشائيه«و لنحمل خطاياكم»و ليس فى الجمله الإنشائيه صدق أو كذب،فلم عبّر القرآن عنهم بأنّهم«كاذبون»؟! و الجواب على هذا السؤال يتّضح من البيان الذى ذكرناه سابقا،و هو أن الجمله الأمريه هنا تتحول إلى جمله شرطيه،و مفهومها أنّه إن اتبعتمونا حملنا خطاياكم و آثامكم،و مثل هذه الجمله تقبل الصدق و الكذب (۱) .

(۱)

-يأمر الإنسان نفسه؟!ثمّ قالوا فى رد هذا الإشكال.إنّ هذا الأمر فى حكم القضيه الشرطيه أى«إن اتبعتمونا حملنا خطاياكم»-كما فى تفسير الرّازى-إلاّ أنّه فى اعتقادنا لا يمنع أن يأمر الإنسان نفسه،و الآمر و المأمور شخص واحد،إلاّ أنّه ذو اعتبارين...«فتأمل بدقّه».

۱- ۱) -لدينا طريق آخر على الجواب على هذا السؤال،لأنّنا نعتقد وجود الصدق و الكذب فى الجمله الإنشائيه أيضا،

و بعـد ذلك،و من أجل أن لا يتصور أن هؤلاء الدعاه للكفر و الشـرك و عباده الأصـنام و الظلم،لا شـىء عليهم من العقاب لهذا العمل،فإنّ القرآن يضيف فى الآيه التاليه قائلا: وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ .

و ثقل الذنب هذا...هو ثقل ذنب الإغراء و الإغواء و حث الآخرين على الذنب،و هو ثقل السّنه التى عبّر عنها

النّبى صلّى اللّه عليه و آله فقال: «من سنّ سنه سيئه فعليه وزرها و وزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزره شىء!» (1) .

المهم أنّهم شركاء فى آثام الآخرين،و إن لم ينقص من وزر الآخرين و إثمهم مقدار من رأس الإبره.

و تختتم الآيه بالقول: وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَهِ عَمّا كانُوا يَفْتَرُونَ .

و ينقـدح هنـا سؤال آخر و هو:ما المراد من هـذا الافتراء الـذى يسألون عنه؟! و لعل ذلك إشاره إلى الافتراءات التى نسـبوها إلى اللّه،و كانوا يقولون:«إن اللّه أمرنا أن نعبد الأصنام!».

أو أنّه إشاره إلى كلامهم الذى كانوا يقولون:«و لنحمل خطاياكم».

لأنّهم كـانوا يـدّعون أن مثـل تلـك الأعمال لا يترتب عليها إثم...و إن هـذا الكلام كان افتراء،و ينبغى أن يجيبوا على ما يسألون بصدده! أو أنّه يقال لهم على نحو الحقيقه و الواقع يوم القيامه:هلموا لتحملوا أثقال الآخرين،فيمتنعون من ذلك و يظهر كذبهم و افتراءهم....أو أنّ ظـاهر كلامهم كـان يعنى أن كـلّ إنسـان يمكن أن يتحمـل وزر الأخر و يكون مسئولا عنه،فى حين أن هـذا الكلام كذب و افتراء محض أيضا،و كل إنسان مسئول عن عمله!.

(1)

-و يلاحـظ هـذا فى التعـبيرات العرفيـه أيضا...لأنّ الشـخص-مثلاـ-إذا أمر بشـىء مـا فهـو دليـل على تعلقـه بـه،و حين نقـول:إنّه يكذب،فمعناه أنّه لم يطلبه«فلاحظوا بدقّه».

1- 1) -التّفسير الكبير للرازى،ج 25،ص 40.

مسألتان

اشاره

۱-السنن الحسنه و السنن السیئه:

التخطیط لعمل ما-أو لمنهج ما-فی المنطق الإسلامی له أثره..و یحمل صاحبه المسؤولیه عنه-شاء أم أبی-و یکون مشارکا للآخرین الذین یعملون بما خططه و سنّه،لأنّ أسباب العمل هی من مقدمات العمل،و نعرف أن کل شخص یکون دخیلا فی مقدمه عمل إنسان آخر فهو شریکه أیضا،فحتی لو کانت المقدمه بسیطه،إلاّ أن ذلک الشخص شریک مع ذی المقدمه.

و الشاهد علی هذا الکلام حدیث منقول عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و هو أن سائلا جاء و النّبی صلّی اللّه علیه و آله فی طائفه من صحابته فطلب العون فلم یجبه أحد،ثمّ قام الیه رجل و ناوله شیئا فقام:الآخرون و رغّبوا فی إعانته

فقال النّبی صلّی اللّه علیه و آله: «من سنّ خیرا فاستن به کان له أجره و من أجور من تبعه غیر منتقص من أجورهم شیئا،و من سنّ شرّا فاستن به کان علیه وزره و من أوزار من تبعه غیر منتقص من أوزارهم شیئا» (۱) .

و قد ورد نظیر هذا الحدیث بعبارات مختلفه فی مصادر الحدیث عند الشیعه و السنه و هو حدیث مشهور.

۲-جواب علی سؤال:

أثار بعضهم هنا هذا السؤال،و هو أنّنا نلاحظ أحیانا فی القوانین الإسلامیه أن الدیه تقع علی شخص آخر...فمثلا فی حاله قتل«الخطأ المحض»تقع الدیه علی العاقله«و المراد بالعاقله أقارب الرجل الذکور من طرف الأب...الذین تتوزع فیما بینهم دیه قتل الخطأ المحض،و یدفع کلّ منهم قسما حتی تتمّ الدیه!».

أو لیست هنا منافاه بین هذه المسأله و بین الآیات المتقدمه؟

۱- ۱) -تفسیر الدر المنثور...

و فى الجواب على هذا السؤال نقول:إنّ«ضمان العاقله»فى الحقيقه نوع من التأمين الإلزامى المتقابل بين أعضاء العشيره الواحده.

فالإسلام-من أجل أن لا يتحمل الفرد الواحد العبء الثقيل للديه-ألزم أفراد العشيره بأن يضمن بعضهم بعضا فى ديّه قتل الخطأ،و أن يقسموا المبلغ فيما بينهم فيدفع كل فرد منهم حصّه.

فقد يخطئ اليوم أحدهم،و غدا قد يرتكب هذا الخطأ شخص آخر من العشيره...«لمزيد الإيضاح نوكل المراجعه إلى الكتب الفقهيه،بحث الديات».

و على كل حال،فإنّ هذا المنهج نوع من التعاون فى سبيل حفظ المنافع المتقابله،و لا يعنى بأى وجه تحمل وزر الآخرين،خاصه و أنّ ديه قتل الخطأ ليست أصلا جريمه ذنب،بل هى تعويض عن الخساره!«فتأمل بدقّه».

الآيات [سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ١۴ الی ١٩]

اشاره

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَهٍ إِلاّٰ خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ اَلطُّوفانُ وَ هُمْ ظالِمُونَ (١۴) فَأَنْجَيْناهُ وَ أَصْحابَ اَلسَّفِينَهِ وَ جَعَلْناها آيَهً لِلْعالَمِينَ (١۵) وَ إِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ وَ اِتَّقُوهُ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١۶) إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ أَوْثاناً وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ اَلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ لاٰ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اَللّٰهِ اَلرِّزْقَ وَ اُعْبُدُوهُ وَ اُشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَ إِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مٰا عَلَى اَلرَّسُولِ إِلاَّ اَلْبَلاٰغُ اَلْمُبِينُ (١٨) أَ وَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اَللّٰهُ اَلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اَللّٰهِ يَسِيرٌ (١٩)

التّفسير

لقصتی نوح و إبراهيم:

لما كان الكلام فی البحوث السابقه عن الامتحانات العامّه فی الناس،فإنّ

ص: ٣۵٢

الكلام هنا-و فى ما بعد-يقع على الامتحانات الشديده للأنبياء،و كيف أنّهم كانوا تحت ضغط الأعداء و إيذائهم،و كيف صبروا و كانت عاقبه صبرهم النصر!ليكون هذا الكلام تسليه لقلوب أصحاب النّبى صلّى اللّه عليه و آله الذين كانوا تحت وطأه التعذيب الشديد من قبل الأعداء-من جانب-و تهديدا للأعداء لينتظروا عاقبتهم الوخيمه من جانب آخر.

تبدأ الآيات أوّلا بالكلام على أوّل نبى من أولى العزم و هو«نوح»عليه السّلام، و تتحدث عنه بعبارات موجزه،لتجمل قسما من حياته التى تناسب-كثيرا- الواقع الراهن للمسلمين-آنئذ- فتقول: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاّ خَمْسِينَ عاماً .

كان نوح مشغولا ليل نهار بالتبليغ و دعوه قومه إلى توحيد اللّه-فرادى و مجتمعين،مستفيدا من جميع الفرص فى هذه المده الطويله(أى تسعمائه و خمسين عاما)يدعوهم إلى اللّه..و لم يشعر بالتعب و النصب من هذا السعى المتتابع و لم يظهر عليه الضعف و الفتور.

و مع كل هذا الجهد الجهيد لم يؤمن به إلاّ جماعه قليله فى حدود الثمانين شخصا كما تنقل التواريخ(أى بمعدّل نفر واحد لكل اثنتى عشره سنه!).

فعلى هذا لا تظهروا الضعف و التعب فى سبيل الدعوه إلى الحق و مواجهه الانحرافات،لأنّ منهجكم أمام منهج«نوح»سهل للغايه.

لكن لاحظوا كيف كانت عاقبه قوم نوح الظالمين الألدّاء: فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَ هُمْ ظالِمُونَ .

و هكذا انطوى«طومار»حياتهم الذليله،و غرقت قصورهم و أجسادهم و آثارهم فى الطوفان و أمواجه.

و التعبير ب أَلْفَ سَنَةٍ إِلاّ خَمْسِينَ عاماً مع إمكان القول«تسعمائه و خمسين سنه»من البدايه،هو إشاره إلى عظمه المده و طول الزمان،لأنّ عدد

«الألف»و أیّ ألف؟ألف سنه!یعدّ مهما و عددا کبیرا بالنسبه لمدّه التبلیغ.

و ظاهر الآیه الآنفه أنّ هذا المقدار لم یکن هو عمر نوح علیه السّلام بتمامه(و إن ذکر ذلک فی التوراه الحدیثه،فی سفر التکوین الفصل التاسع)بل عاش بعد الطوفان فتره أخری،و طبقا لما قاله بعض المفسّرین فقد کانت الفتره هذه ثلاثمائه سنه! طبعا...هذا العمر الطویل بالقیاس إلی أعمار زماننا کثیر جدا و لا یعدّ طبیعیّا أبدا،و یمکن أن یکون میزان العمر فی ذلک العصر متفاوتا مع عصرنا هذا...و بناء علی المصادر التی وصلت إلی أیدینا فإنّ قوم نوح کانوا معمرین،و عمر نوح بینهم أیضا کان أکثر من المعتاد،و یشیر هذا الأمر ضمنا إلی هیئه ترکیب أجسامهم کانت تمکّنهم من أن یعمّروا طویلا.

إنّ دراسات العلماء فی العصر الحاضر تدلّ علی أن عمر الإنسان لیس له حد ثابت،و ما یقوله بعضهم بأنّه محدود بمائه و عشرین سنه،و أکثر أو أقل،فلا أساس له...بل یمکن أن یتغیر بحسب اختلاف الظروف.

و الیوم و بواسطه التجارب استطاع العلماء أن یضاعفوا عمر قسم من النباتات أو الموجودات الحیّه،إلی اثنی عشر ضعفا علی العمر الطبیعی،و حتی فی بعض الموارد-و لا تتعجبوا-أو صلوا هذه الفتره للنباتات أو غیرها إلی تسعمائه مرّه ضعف عمرها الطبیعی...و إذا حالفهم التوفیق فیمکنهم أن یضاعفوا عمر الإنسان،فیمکن أن یعمّر الإنسان عندئذ آلاف السنین. (1)

و ینبغی الالتفات ضمنا إلی أن کلمه«الطوفان»فی الأصل معناها کل حادثه تحیط بالإنسان،و هی مشتقّه من ماده«الطواف»،ثمّ استعمل هذا التعبیر للماء الغزیر أو السیل الشدید الذی یستوعب مساحه کبیره من الأرض و یغرقها،کما یطلق علی کل شیء کثیر و شدید و فیه حاله الاستیعاب،سواء کان ریحا أو نارا

1- 1) -لمزید التوضیح فی مسأله طول العمر،بمناسبه الأبحاث المتعلقه بطول عمر المهدی علیه السّلام،یراجع کتاب «المهدی تحول کبیر».

أو ماء،فيسمى كلّ منها طوفانا...كما قد يرد بمعنى ظلمه الليل الشديده أيضا. (۱)

الطريف أنّ القرآن يقول: وَ هُمْ ظالِمُونَ أی إنّهم حین وقوع العذاب «الطوفان»کانوا لا یزالون فی ظلمهم أیضا.

و هذا إشاره إلی أنّهم لو ترکوا تلک الأعمال، و ندموا علی ما فعلوا،و توجّهوا إلی اللّه،لما ابتلوا بمثل هذه العاقبه أبدا.

و یضیف القرآن الکریم فی الآیه الأخری فَأَنْجَیْناهُ وَ أَصْحابَ السَّفِینَهِ وَ جَعَلْناها آیَهً لِلْعالَمِینَ (۲) .

ثمّ یعقّب علی قصّه نوح و قومه التی وردت بشکل مضغوط،و یأتی بقصّه إبراهیم علیه السّلام،ثانی الأنبیاء الکبار من أولی العزم فیقول: وَ إِبْراهِیمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللّهَ وَ اتَّقُوهُ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۳) .

هنا بیّن القرآن منهجین مهمّین من مناهج الأنبیاء العملیه و الاعتقادیه،و هما الدعوه إلی توحید اللّه و التقوی-فی مکان واحد-ثمّ یختتم القول:أن لو فکرتم جیدا لکان ذلک خیرا لکم عند اتباعکم لمذهب التوحید و التقوی،إذ ینجیکم من دنیاکم الملوّثه بالذنوب و الشقاء،و تکون آخرتکم هی السعاده الأبدیّه.

ثمّ یذکر إبراهیم علیه السّلام أدله بطلان عباده الأصنام و الأوثان،و یبیّن فی تعابیر مختلفه یتضمّن کل منها دلیلا علی فساد مذهبهم و بطلانه فیقول أوّلا: إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْثاناً .

هذه الأوثان هی الأصنام الخالیه من الروح..الأصنام التی لیس لها إراده،

۱- ۱) -المفردات للراغب.

۲- ۲) -القول فی ما هو مرجع الضمیر فی«جعلناها»للمفسّرین احتمالات کثیره،فبعضهم قال:هو إشاره إلی مجموع هذه الواقعه و الحادثه،و قال بعضهم:هی نجاه نوح علیه السّلام فحسب-مع أصحابه-و أشار بعضهم إلی أن المراد من «جعلناها»هی السفینه،و ظاهر العباره المتقدمه-أیضا-تؤید هذا الاحتمال الأخیر،و حقا کانت هذه السفینه آیه من آیات اللّه فی ذلک العصر،و فی تلک الحادثه العظیمه.

۳- ۳) -الظّاهر أنّ«إبراهیم»معطوف علی کلمه«نوح»و فعله«أرسلنا»،و بعضهم عطفه علی مفعول(أنجیناه)و بعضهم جعله مفعولا لفعل محذوف تقدیره«اذکر».

و لا عقل،و هی فاقده لکل شیء،بحیث أن شکلها بنفسه هو دلیل علی بطلان عقیده«عباده الأوثان» (لاحظوا أن«الأوثان»هی جمع لکلمه«وثن»علی زنه«صنم»و معناها «الحجاره المنحوته»الموضوعه للعباده!).

ثمّ یتوسع فی حدیثه و یمضی إلی مدی أبعد فیقول:لیست هذه الأوثان بهیئتها تدل علی أنّها لا تستحق العباده فحسب،بل أنتم تعلمون بأنّکم تکذبون و تضعون اسم الآلهه علی هذه الأوثان: وَ تَخْلُقُونَ إِفْکاً .

فأی دلیل لدیکم علی هذا الکذب سوی حفنه من الأوهام و الخرافات الباطله.

و حیث أن کلمه«تخلقون»مشتقّه من الخلق،و تعنی أحیانا الصنع و الإبداع، و أحیانا تأتی بمعنی الکذب،فإنّ بعض المفسّرین ذکر تفسیرا آخر لهذه الجمله غیر ما بیّناه آنفا...و قالوا إنّ المقصود من هذا التعبیر هو أنّکم تنحتون هذه الأوثان...المعبودات الباطله المزوّره بأیدیکم،و تصنعونها(فیکون المراد من الإفک هنا هو المعبودات المزورّه)و الخلق هو النحت هنا (۱) .

ثمّ یبیّن الدلیل الثّالث و هو أن عبادتکم لهذه الأوثان إمّا لأجل المنافع المادیه،أو لعاقبتکم فی«الأخری»و کلا الهدفین باطل... و ذلک: إِنَّ الَّذِینَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ لا یَمْلِکُونَ لَکُمْ رِزْقاً .

و أنتم تعتقدون بأنّ هذه الأصنام لم تکن خلقتکم،بل الخالق هو اللّه،فالذی یتکفل بالرزق هو اللّه فَابْتَغُوا عِنْدَ اللّهِ الرِّزْقَ .

و لأنّه هو الذی یرزقکم فتوجهوا إلیه وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْکُرُوا لَهُ .

و بتعبیر آخر،فإن واحدا من أسباب العباده و بواعثها هو الإحساس بالشکر

---

۱ – ۱) –«الإفک»یطلق فی الأصل علی کل شیء مختلف عن حقیقته،و لذلک یطلق علی الکذب–خاصه الکذب الکبیر –أنّه إفک،کما تطلق هذه الکلمه علی الریاح المخالفه لاتجاهها و مسیرها فیقال«ریاح مؤتفکه».

للمنعم الحقیقی،و تعرفون أن المنعم الحقیقی هو اللّه،فالشکر و العباده یختصان- أیضا-بذاته المقدسه.

و إذ کنتم تبتغون الدار الأخری فإنّه إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ .

فالأصنام لا تصنع شیئا هنا و لا هناک!.

و بهذا الأدلّه الموجزه و الواضحه ألجم منطقهم الواهی و أفحمهم.

ثمّ یلتفت إبراهیم علیه السّلام مهدّدا لهم و مبدیا عدم اکتراثه بهم قائلا: وَ إِنْ تُکَذِّبُوا فَقَدْ کَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِکُمْ کذبوا أنبیاءهم فنالوا الخزی بتکذیبهم و العاقبه الوخیمه وَ مٰا عَلَی الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاٰغُ الْمُبِینُ سواء استجاب له قومه،أم لم یستجیبوا له دعوته و بلاغه! و المقصود بالأمم قبل أمه إبراهیم علیه السّلام،أمه نوح علیه السّلام و ما بعده من الأمم و بالطبع فإنّ ارتباط هذه الآیات یوجب أن تکون هذه الجمله من کلمات إبراهیم علیه السّلام،و هذا ما یذهب إلیه کثیر من المفسّرین عند تفسیرهم للنص،أو یحتملون ذلک!.

و الاحتمال الآخر:إنّ الخطاب فی هذه الآیه للمشرکین من أهل مکّه المعاصرین للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و جمله کَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِکُمْ فیها تتناسب أکثر مع هذا الاحتمال.

أضف إلی ذلک،فإنّ نظیر هذا التعبیر الذی ورد فی الآیه ۲۵ من سوره الزمر، و الآیه(۲۵)من سوره فاطر،هو أیضا فی شأن نبی الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و المشرکین العرب فی مکّه.و لکن-و علی أی حال-أیّا من التّفسیرین کان ذلک،فلیس هناک تفاوت فی النتیجه!.

و القرآن یترک قصّه إبراهیم هنا مؤقتا،و یکمل البحث الذی کان لدی إبراهیم فی صدد التوحید و بیان رسالته بدلیل المعاد،فیقول: أَ وَ لَمْ یَرَوْا کَیْفَ یُبْدِئُ اللّٰهُ الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ .

و المراد بـالرؤيه هنـا هى الرؤيه«القلبيه»و العلم،أى كيف لاـ يعرف هؤلاـء خلق اللّه؟فالـذى له القـدره على الإيجاد أولا قادر على إعادته أيضا،فالقدره على شىء ما هى قدره على أمثاله و أشباهه أيضا.

كما يأتى هذا الاحتمال،و هو أنّ الرؤيه هنا هى الرؤيه«البصيريّه» و المشاهده بالعين...لأنّ الإنسان يرى بعينيه كيف تحيا الأرض و تنمو النباتات، و تتولـد الـدجاجه من البيض،و الأطفال من النطف...فمن له القـدره على هذا الأمر قادر على أن يحيى الموتى من بعد أيضا.

و يضيف فى آخر الآيه على سبيل التأكيد إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ يَسِيرٌ .لأنّ تجديد الحياه قبال الإيجاد الأوّل يعدّ أمرا بسيطا.

و طبيعى أنّ هـذا التعبير ينـاسب منطق النـاس و فهمهم،و إلاّـ فإن اليسـير و العسـير لا مفهوم لهما عنـد من قـدرته غير محـدوده و المطلقه...فهذه قدراتنا التى أوجدت مثل هذا«المفهوم»،و مع الالتفات إلى إنجازها...ظهرت لدينا أمور يسيره و أخرى عسيره.

ص :۳۵۸

الآيات [سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ٢٠ الى ٢٣]

اشاره

قُلْ سِيرُوا فِي اَلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ اَلْخَلْقَ ثُمَّ اَللّٰهُ يُنْشِئُ اَلنَّشْأَهَ اَلْآخِرَهَ إِنَّ اَللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي اَلْأَرْضِ وَ لاٰ فِي اَلسَّمٰاءِ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ نَصِيرٍ (٢٢) وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيٰاتِ اَللّٰهِ وَ لِقٰائِهِ أُولٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَ أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ (٢٣)

التّفسير

اشاره

الآيسون من رحمه اللّه:

هذه الآيات تواصل البحث فى المعاد أيضا،على صوره جمل معترضه فى قصّه إبراهيم عليه السّلام.

و ليست هذه أوّل مرّه نواجه فيها مثل هذا الأسلوب...فهذه هى طريقه القرآن دائما،فعند ما يبلغ مرحله حساسه من ذكر قصّه ما،يترك بقيّه القصّه مؤقتا للاستنتاج أكثر،ثمّ يعطى النتائج اللازمه.

و على كل حال،فإنّ القرآن يدعو فى الآيه الأولى من هذا المقطع الناس إلى

«السیر فی الآفاق»فی مسأله المعاد...فی حین أن الآیه السابقه کانت السمه فیها «السیر فی الأنفس»أکثر!یقول القرآن: قُلْ سِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَانْظُرُوا کَیْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ انظروا الی أنواع الموجودات الحیه،و الأقوام و الأمم المتنوعه و المختلفه، و کیف أنّ اللّه تعالی خلقها أولا،ثمّ أن اللّه نفسه الذی أوجدها فی البدایه من العدم قادر ایضا علی إیجادها فی الآخره ثُمَّ اللّٰهُ یُنْشِئُ النَّشْأَهَ الْآخِرَهَ .

و لأنّه أثبت قدرته علی کل شیء حین خلق الخلق أولا،إذن ف إِنَّ اللّٰهَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ .

فهذه الآیه و الآیه التی قبلها-أیضا-أثبتتا بواسطه قدرته الواسعه إمکان المعاد..مع فرق أن الآیه الأولی تتحدث عن الإنسان نفسه و خلقه و ما حوله! و الآیه الثّانیه تأمر بمطالعه حالات الأمم و الموجودات الأخری،لیروا الحیاه الأولی فی صور مختلفه و ظروف متفاوته تماما،و لیطّلعوا علی عمومیّه قدره اللّه، و لیستیقنوا قدرته علی إعاده هذه الحیاه!.

کما أن إثبات التوحید یتمّ-أحیانا-عن طریق مشاهده«الآیات فی الأنفس»و أحیانا عن طریق«الآیات فی الآفاق»فکذلک یتمّ إثبات المعاد عن هذین الطریقین أیضا.

و فی عصرنا هذا یمکن أن تبیّن هذه الآیات للعلماء معنی أعمق و أدق،و هو أن یمضوا و یلاحظوا الموجودات الحیّه الأولی التی هی فی أعماق البحار علی شکل فسائل و نباتات و غیرها،و فی قلب الجبال،و بین طبقات الأرض،و یطلعوا علی جانب من أسرار بدایه الحیاه علی وجه الأرض،و یدرکوا عظمه اللّه و قدرته،و لیعلموا أنّه قادر علی إعاده الحیاه أیضا (1) .

۱- ۱) -سبق أن تعرضنا إلی بحث حول«السیر فی الأرض»و آثاره،غیر أنّ البحث الفائت کانت فیه جوانب من دروس العبره فی مجال قصص الأمم الماضیه و طغاتها.التّفسیر الأمثل ذیل الآیه(۱۳۷)سوره آل عمران،فلا بأس بمراجعتها.

هـذا و إن كلمه«النشأه»فی الأصـل،تعنی إیجـاد الشـیء و تربیته،و قـد یعبر أحیانـا عن الـدنیا بالنشأه الأولی،کما یعبر عن الأخری بالنشأه الآخره!.

و هـذه اللطیفه جـدیره بالملاـحظه،و هی أنّ فی ذیـل الآیات السابقه ورد التعبیر«إن ذلک علی اللّه یسـیر»و ورد التعبیر هنا إِنَّ اللّهَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ .

و لعل منشأ التفاوت و الاختلاف هو أن الآیه الأولی تعالج مطالعه محدوده، أمّا الثّانیه فتعالج و تبیّن مطالعه وسیعه جدّا.

ثمّ یتعرض القرآن الکریم إلی إحدی المسائل المتعلقه بالمعاد،و هی مسأله الرحمه و العذاب،فیقول: یُعَذِّبُ مَنْ یَشاءُ وَ یَرْحَمُ مَنْ یَشاءُ وَ إِلَیْهِ تُقْلَبُونَ .

و مع أنّ رحمه اللّه مقـدمه علی غضـبه،إلاّ أن الآیه هنا تبدأ أولا بذکر العذاب ثمّ الرحمه،لأنّها فی مقام التهدید،و ما یناسب مقام التهدید هو هذا الأسلوب!.

هنا ینقدح السؤال التالی:

کیف یتحدث القرآن أوّلا عن العذاب و الرحمه،ثمّ یتحدث عن معاد الناس إلیه وَ إِلَیْهِ تُقْلَبُونَ ؟فی حین أن القضـیه علی العکس من ذلک،ففی البدایه یحضـر الناس عند ساحته،ثمّ یشـملهم العذاب أو الرحمه..و ربّما کان هذا هو السـبب فی أن یعتقد بعضهم أن العذاب و الرحمه المذکورین هنا هما فی هذه الدنیا.

و نقول جوابا علی مثل هـذا السؤال:إن العذاب و الرحمه-بقرینه الآیات السابقه و اللاحقه-هما عذاب القیامه و رحمتها،و جمله وَ إِلَیْهِ تُقْلَبُونَ إشاره إلی الـدلیل علی ذلک:أی:بما أنّ معادکم إلیه و کتابکم و حسابکم لـدیه،فالعـذاب و الرحمه-أیضا-بإرادته و تحت أمره!.

و لا یبعد أن یکون العذاب و الرحمه فی هذه الآیه لهما معنی واسع،بحیث

یشمل العذاب و الرحمه فی الدارین.

کما یتّضح أنّ المراد بقول: مَنْ یَشٰاءُ هو المشیئه الإلهیه المقرونه بحکمته، أی کل من کان جدیرا و مستحقا لذلک..فإن مشیئه اللّه لیست عبثا،بل منسجمه مع الاستحقاق و الجداره!.

و جمله«تنقلبون»من ماده«القلب»و معناها فی الأصل:تغییر الشیء من صوره إلی صوره أخری،و حیث أن الإنسان فی یوم القیامه یعود إلی هیئه الموجود الحی الکامل بعد أن کان ترابا لا روح فیه،فقد ورد هذا التعبیر فی إیجاده ثانیه أیضا.

و یمکن أن یکون هذا التعبیر إشاره إلی هذه اللطیفه الدقیقه-أیضا-و هی أن الإنسان یتبدل فی الدار الأخری و یتغیّر تغیرا ینکشف باطنه به و تتجلی أسراره الخفیه،و بهذا فهی تنسجم مع الآیه(۹)من سوره الطارق یَوْمَ تُبْلَی السَّرٰائِرُ .

و إکمالا لهذا البحث الذی یبیّن أن الرحمه و العذاب هما بید اللّه و المعاد إلیه، یضیف القرآن:إذا کنتم تتصورون أنّکم تستطیعون أن تهربوا من سلطان اللّه و حکومته و لا یمسّکم عذابه،فأنتم فی خطأ کبیر...فلیس الأمر کذلک! وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِینَ فِی الْأَرْضِ وَ لاٰ فِی السَّمٰاءِ (۱) .

و إذا کنتم تتصورون أنّکم تجدون من یدافع عنکم و ینصرکم هناک،فهذا خطأ محض أیضا وَ مٰا لَکُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لاٰ نَصِیرٍ .

و فی الحقیقه،فإنّ الفرار من قبضه اللّه و عذابه،إمّا بأن تخرجوا من حکومته، و إمّا بأن تعتمدوا مع بقائکم فی حکومته علی قدره الآخرین لتدافعوا عن أنفسکم،فلا الخروج ممکن،لأنّ البلاد کلّها له و عالم الوجود کلّه ملکه الواسع،

۱- ۱) -کلمه«معجزین»مشتقّه من ماده«عجز»،و معناها فی الأصل التخلّف و التأخر عن الشیء،و لذلک تستعمل هذه الکلمه فی الضعف الباعث علی التخلف و التأخر،«المعجزه»معناه الذی یجعل الآخر عاجزا،و حیث أن الأفراد الذین یفرون من سلطان أحد و قدرته،یعجزونه عن ملاحقتهم،لذلک استعملت کلمه«معجز»فی هذا الصدد أیضا...

و لا يوجد أحد يستطيع أن يقف أمام قدرته و ينهض للدفاع عنكم.

يبقى هنا سؤالان:-

أوّلا:مع الالتفات إلى هذه الحقيقه،و هى أن مقصود الآيه هو فى الكفار و المشركين، و هم سكنه الأرض،فما معنى قوله تعالى: وَ لاٰ فِي السَّمٰاءِ و أى مفهوم له هنا؟! و ينبغى أن يقال فى الجواب،أن هذا التعبير هو نوع من التأكيد و المبالغه،أى إنكم لا تستطيعون أن تخرجوا من قدره اللّه و سلطانه فى هذه الأرض،و لا فى السماوات،إذ حتى لو فرضنا أنّكم تستطيعون أن تصعدوا فى السماء،فما زلتم تحت قدرته و سلطانه.

أو إنّه:لا تستطيعون أن تعجزوا اللّه فى مشيئته بواسطه من فى الأرض،و لا بواسطه من تعبدون فى السماوات،من أمثال الملائكه و الجن(و التّفسير الأوّل أكثر مناسبه-طبعا-) ثانيا:ما الفرق بين الولى و النصير؟! يرى العلامه«الطبرسى»فى«مجمع البيان»و قيل:إن الولى الذى يتولى المعونه بنفسه و النصير يتولى النصره تاره بنفسه بأن يأمره غيره به» (1) .

بل يمكن القول مع ملاحظه الكلمتين هاتين،أن الولى إشاره إلى من يعيّن دون طلب(من عليه الولايه)،و النصير هو المستصرخ الذى يأتى لإعانه الإنسان بعد استصراخه.

و هكذا يغلق القرآن جميع أبواب الفرار بوجه هؤلاء المجرمين..

لذلك يقول فى الآيه التى بعدها بشكل قاطع: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيٰاتِ اللّٰهِ وَ لِقٰائِهِ أُولٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي

1- 1) -مجمع البيان،ج،ص 352.

ثمّ يضيف مؤكدا: وَ أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ .

هذا«العذاب الأليم»هو لزم اليأس من رحمه اللّه.

و المراد ب«ايات اللّه»إمّا هى«الآيات التكوينيه»أى آثار عظمه اللّه فى نظام خلقه و إيجاده،و فى هذه الصوره فهى إشاره إلى مسأله التوحيد،فى حين أن كلمه«لقائه»إشاره إلى مسأله المعاد،أى إنّهم منكرون للمبدأ و للمعاد كليهما.

أو أنّ المراد من آيات اللّه هى«الآيات التشريعيه»أى هى الآيات التى أنزلها اللّه على أنبيائه،التى تتحدث عن المبدأ و عن النبوه و عن المعاد،و فى هذه الحال يكون التعبير ب«لقائه»من قبيل ذكر الخاص بعد العام.

كما يمكن أن يكون المقصود من آيات اللّه هى جميع الآيات فى عالم الوجود و التشريع.

و ينبغى ذكر هذه المسأله-أيضا-و هى أن«يئسوا»فعل ماض و الهدف منه هو الاستقبال-أى فى يوم القيامه-و العرب عاده إذا تحدثوا عن أمر مستقبلى بصوره التأكيد عبروا عنه بصيغه الماضى،للدلاله على تحققه قطعا و حتما.

ص: ۳۶۴

الآیات [سوره العنکبوت (۲۹): الآیات ۲۴ الی ۲۷]

اشاره

فَمَا کَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا اُقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اَللَّهُ مِنَ اَلنَّارِ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَاتٍ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ (۲۴) وَ قَالَ إِنَّمَا اِتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اَللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّهَ بَیْنِکُمْ فِی اَلْحَیَاهِ اَلدُّنْیَا ثُمَّ یَوْمَ اَلْقِیَامَهِ یَکْفُرُ بَعْضُکُمْ بِبَعْضٍ وَ یَلْعَنُ بَعْضُکُمْ بَعْضاً وَ مَأْوَاکُمُ اَلنَّارُ وَ مَا لَکُمْ مِنْ نَاصِرِینَ (۲۵) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَ قَالَ إِنِّی مُهَاجِرٌ إِلَی رَبِّی إِنَّهُ هُوَ اَلْعَزِیزُ اَلْحَکِیمُ (۲۶) وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ یَعْقُوبَ وَ جَعَلْنَا فِی ذُرِّیَّتِهِ اَلنُّبُوَّهَ وَ اَلْکِتَابَ وَ آتَیْنَاهُ أَجْرَهُ فِی اَلدُّنْیَا وَ إِنَّهُ فِی اَلْآخِرَهِ لَمِنَ اَلصَّالِحِینَ (۲۷)

التّفسیر

اشاره

أسلوب المستکبرین فی جوابهم لإبراهیم:

و الآن علینا أن نعرف ماذا قال هؤلاء القوم الضّالون لإبراهیم علیه السّلام ردّا علی أدلته الثّلاثه فی مجال التوحید و النّبوه و المعاد؟! إنّهم-قطعا-لم یکن لدیهم جواب منطقی و کجمیع الأقویاء المستکبرین فقد توسّلوا بقدراتهم الشیطانیه و أصدروا أمرا بقتله،حیث یصرّح بذلک القرآن الکریم فیقول: فَمَا کَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ! .

ص: ۳۶۵

و يستفاد من هذا التعبير أن جماعه كانوا يميلون إلى حرق إبراهيم بالنّار،فى حين كانت جماعه أخرى تقترح أن يقتل بالسيف أو ما شاكله! و أخيرا رجح الرأى الأوّل،لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ أشدّ حالات الإعدام هو الإحراق بالنّار.

كما و يحتمل أيضا أنّهم جميعا كانوا يفكرون فى قتله بالوسائل الطبيعيه،غير أنّهم اتفقوا أخيرا على إحراقه بالنّار،و أن يبذلوا قصارى جهدهم فى هذا الأمر.

و فى هذه الآيه الكريمه لم يرد كلام عن كيفيه إحراق إبراهيم عليه السّلام بالنّار سوى هذا المقدار الذى استكملت به الآيه الكريمه،و هو فَأَنْجاهُ اللّهُ مِنَ النّارِ .

غير أن تفصيل ما جرى عليه من الإحراق ورد فى سوره الأنبياء(الآيات ۶۸-۷۰)و قد بيّنا ذلك هناك،فلا بأس بمراجعته! و يضيف القرآن فى الختام إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

و لم تكن علامه و آيه واحده فى هذا الصدد و فى هذه الحادثه،بل علائم و آيات...فمن جانب فإنّ عدم تأثير النّار فى جسد إبراهيم بنفسه معجزه واضحه،و تبدل النّار إلى روضه و«سلام»على إبراهيم كما هو معروف معجزه أخرى،و عدم استطاعه هذه الجماعه القويه التغلب على شخص واحد-و هو أعزل من كل وسيله بحسب الظاهر-كان معجزه ثالثه أيضا.

كما أنّ عدم تأثير هذا الحادث العجيب الخارق للعاده فى أولئك المظلمه قلوبهم،آيه من آيات اللّه،إذ يسلب التوفيق من أمثال هؤلاء الأفراد المعاندين الألدّاء،بحيث لا تؤثر فيهم أعظم الآيات!.

و قد ورد فى بعض الرّوايات أنّه لما القى بإبراهيم الخليل مكتوف اليدين و الرجلين فى النّار،فإن الشىء الوحيد الذى احترق منه هو الحبل الذى كان مشدودا و موثقا به (۱) .

۱- ۱) -تفسير روح المعانى،ج ۲۰،ص ۱۳۰.

أجل،إنّ نار الجهل و جنايه المنحرفين إنّما أحرقت وسائل الأسر،فتحرر إبراهيم عليه السّلام منها...و هذه بنفسها تعدّ آيه أخرى.

و ربّما كان-لهذه الأسباب-أن عبّر القرآن عن قصّه نوح و سفينته بقوله:

جَعَلْنٰاهٰا آيَةً بصيغه الإفراد،و لكنّه عبّر هنا بقوله: لَآيٰاتٍ بصيغه الجمع!.

و على كل حال فإنّ ابراهيم عليه السّلام نجّى من النّار بصوره خارقه للعاده و بلطف اللّه سبحانه،غير أنّه لم يترك أهدافه..بل نهض بالأمر و ازداد همّه و أعطى لأهدافه حراره أكثر.

ثمّ توجه إبراهيم إلى المشركين وَ قٰالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ أَوْثٰاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا و لكن هذه المودّه و المحبّه تتلاشى فى الآخره ثُمَّ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَ مَأْوٰاكُمُ النّٰارُ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ نٰاصِرِينَ .

كيف تكون الأوثان أساسا للمودّه بين عبده الأوثان؟! هذا السؤال يمكن الإجابه عليه من عدّه طرق:

الأوّل:أن عباده الصنم أو الوثن كانت رمزا للوحده لكل قوم و لكل قبيله، لأنّ كل جماعه اختارت لنفسها وثنا،كما ذكروا فى شأن أصنام الجاهليه،إذ كان كل صنم يعود لقبيله من القبائل العربيه،فصنم«العزّى»كان لقريش،و«اللاّت» كان خاصا بثقيف،أمّا«منات»فكان خاصا بالأوس و الخزرج!.

الثّانى:أن عباده الأوثان تربط بينهم و بين أسلافهم و غالبا ما كانوا يعتذرون بمثل هذا العذر و يقولون:إنّ هذه الأوثان كان عليها السلف و نحن نتبع السلف و نمضى على دين آبائنا.

ثمّ بعد هذا كلّه فإنّ سراه (۱) الكفار كانوا يدعون أتباعهم إلى عباده الأوثان، و كان هذا الأمر بمثابه«حلقه الاتصال»بين السراه و الأتباع.

۱- ۱) -«السراه»جمع مفردها سريّ-كبير القوم.(المصحح)

و لكن هـذه العلائق و الوشائج و الارتباطات الخاويه تتقطع جميعها يوم القيامه،و كل فرد يلقى التبعه و الذنب على رقبه الآخر،و يلعنه و يتبرأ منه و من عمله،حتى المعبودات التى كـانوا يتصورون أنّهـا الوسـيله إلى اللّه،و كـانوا يقولون فى شأنها مٰا نَعْبُدُهُمْ إِلاّ لِيُقَرِّبُونٰا إِلَى اللّٰهِ زُلْفىٰ ، (۱) -تتبرأ منهم.

و كما يصوّر القرآن هذه الحاله فى سوره مريم الآيه ۸۲ يقول: كَلاّٰ سَيَكْفُرُونَ بِعِبٰادَتِهِمْ وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا .

فعلى هـذا،يكـون المراد من قوله تعـالى: يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً هو أنّهم يتـبرأ بعضـهم من بعض فى ذلك اليوم،و ما كان أساسا لعلاقه الموده الكاذبه فى الـدنيا يكون مـدعاه للعـداوه و البغضاء فى الآخره..كما يعبّر القرآن عن ذلك فى الآيه(۶۷)من سوره الزخرف فيقول: اَلْأَخِلاّٰءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ .

و يسـتفاد مـن بعض الرّوايـات أنّ هـذا الحكـم غير مختص بعبـده أوثـان،بـل هـو لجميـع أولئـك الـذين اختـاروا«إمـاما باطلا»لأنفسـهم،فـاتبعوه و تعاهـدوا معه على الموده،ففى يوم القيـامه يكونون أعـداء فيما بينهم،و يتبرأ بعضـهم من بعض و يلعن بعضهم بعضا. (۲) فى حين أنّ علاقه المحبّه بين المؤمنين قائمه على أساس التوحيـد و عباده اللّه و إطاعه أمر الحق فى هذه الدنيا و هـذه العلاـقه سـيكتب لهـا الـدوام،و فى الآـخره تكون أكثر تماسـكا..حين إنّه يسـتفاد من بعض الروايات أنّ المؤمنين يسـتغفر بعضهم لبعض و يتشفع بعضهم لبعض فى يوم القيامه..فى وقت يتبرأ فيه المشركون بعضهم من بعض و يلعن بعضهم بعضا (۳) .

و فى الآيه التى بعد تلك الآيه إشاره إلى إيمان لوط و هجره إبراهيم،إذ تقول:

ص: ۳۶۸

۱- ۱) -سوره الزمر،الآيه ۳.

۲- ۲) -أصول الكافى،طبقا لما ورد فى تفسير نور الثقلين،ج ۴،ص ۱۵۴.

۳- ۳) -كتاب الصدوق،طبقا لما ورد فى تفسير نور الثقلين،ج ۴،ص ۱۵۴.

فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ

.

«لوط»نفسه من الأنبياء العظام،و كانت له مع إبراهيم علاقه قربى«يقال إنّه كان ابن أخت ابراهيم عليه السّلام»و حيث أن اتّباع شخص عظيم-لإبراهيم-بمنزله أفراد امّه كامله فقد تحدث سبحانه-خاصه-عن إيمان«لوط»و شخصيته الكبرى المعاصره لإبراهيم عليه السّلام،ليتّضح أنّه إذ لم يؤمن الآخرون،فإنّ ذلك ليس مهمّا.

و يبدوا أنّه كانت فى أرض بابل قلوب مهيأه لقبول دعوه إبراهيم الخليل عليه السّلام، و قد التفوا حوله بعد مشاهده تلك المعجزه العظيمه،غير أنّه من المسلّم به أنّهم كانوا«أقليّه».

ثمّ تضيف الآيه عن هجره إبراهيم عليه السّلام فتقول: وَ قٰالَ إِنِّي مُهٰاجِرٌ إِلىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

و من الوضوح بمكان أنّه حين يؤدى القاده الإلهيون رسالتهم فى محيط ما، و يكون هذا المحيط ملوّثا و تحت تأثير الجبابره،بحيث لا تتقدّم دعوتهم أكثر، فينبغى أن يهاجروا إلى منطقه أخرى لتتسع دعوه اللّه فى الأرض!.

فلذلك تحرك ابراهيم عليه السّلام و زوجه ساره-بمعيّه لوط-من بابل إلى أرض الشام مهد الأنبياء و التوحيد،ليستطيع أن يكتسب جماعه هناك و يوسع دعوه التوحيد!.

من الطريف أنّ إبراهيم عليه السّلام يقول فى هذا الصدد: إِنِّي مُهٰاجِرٌ إِلىٰ رَبِّي لأنّ ذلك الطريق كان طريق اللّه،طريق رضاه،و طريق دينه و منهاجه.

و بالطبع فإنّ بعض المفسّرين احتمل أن يكون الضمير فى قوله تعالى: وَ قٰالَ إِنِّي مُهٰاجِرٌ عائد على لوط عليه السّلام،أى إنّ لوطا قال:إنّى مهاجر إلى ربّى،و ظاهر الجمله منسجم مع هذا المعنى أيضا،إلاّ أن الشواهد التاريخيه تدلّ على أن الضمير يعود على إبراهيم عليه السّلام،و كانت هجره لوط بمعيه إبراهيم.

و الشاهد على هذا الكلام قول إبراهيم عليه السّلام فى الآيه(٩٩)من سوره الصافات إِنِّی ذٰاهِبٌ إِلیٰ رَبِّی سَیَهْدِینِ . (١)

و فى آخر آيه من هذا المقطع يقع الكلام على المواهب الأربع التى منحها اللّه لإبراهيم عليه السّلام بعد الهجره العظيمه:

الموهبه الأولى:الأبناء الصالحون،من أمثال إسحاق و يعقوب،ليسرجوا مصباح الإيمان و النّبوه فى بيته و أسرته و يحافظوا عليه،إذ يقول القرآن: وَ وَهَبْنٰا لَهُ إِسْحٰاقَ وَ یَعْقُوبَ و هما نبيّان كبيران واصل كلّ منهما السير على منهاج إبراهيم عليه السّلام محطم الأصنام.

الموهبه الثّانيه: وَ جَعَلْنٰا فِی ذُرِّیَّتِهِ النُّبُوَّهَ وَ الْکِتٰابَ و لم تكن النّبوه فى إسحاق بن إبراهيم و يعقوب حفيده فحسب،بل استمر خط النّبوه فى ذريّه إبراهيم عليه السّلام و أسرته حتى نبوّه خاتم الأنبياء محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم متعاقبون من ذريه إبراهيم،نوّروا العالم بضياء التوحيد.

الموهبه الثّالثه: وَ آتَیْنٰاهُ أَجْرَهُ فِی الدُّنْیٰا فما هو هذا الأجر الذى لم يوجهه القرآن؟لعله إشاره إلى أمور مختلفه مثل الاسم الحسن،و لسان الصدق و الثناء بين جميع الأمم،لأنّ الأمم كلها تحترم ابراهيم عليه السّلام على أنّه نبى عظيم الشأن، و يفتخرون بوجوده و يسمونه«شيخ الأنبياء».

عماره أرض مكّه كانت بدعائه،و جذب قلوب الناس جميعا نحوه،لتتذكر ذكريات التجلى و الإيمان كل سنه فى مناسك الحج،كل ذلك من هذا الأجر المشار اليه فى القرآن.

الموهبه الرّابعه:هى إِنَّهُ فِی الْآخِرَهِ لَمِنَ الصّٰالِحِینَ و هكذا تشكّل هذه

١- ١) -هناك بحث مفصل فى هجره إبراهيم عليه السّلام من بابل إلى الشام فى ذيل الآيه(٧١)من سوره الأنبياء من التّفسير الأمثل،فلا بأس بمراجعته.

المواهب مجموعه كامله من المفاخر.

ملاحظتان

اشاره

۱-أكبر الفخر!...

«الـدخول فی الصالحين»بالشـكل الـذی يسـتنتج من كثير من آيات القرآن هو أوج الفخر،و قـد يحظی به انسان معين فيكون من نصيبه.و لذلک فإنّ كثيرا من الأنبياء كانوا يسألون اللّه أن يدخلهم فی زمره عباده الصالحين.

فيوسف عليه السّلام بعد وصوله إلی أبرز الانتصارات الظاهريه يسأل اللّه فيقول:

تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصّٰالِحِينَ . (۱)

و كـذلک نـبیّ اللّه سـليمان عليه السّـلام مع مـا لـديه من جـاه و حشـمه و جلالـه،يطلب من اللّه أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبٰادِكَ الصّٰالِحِينَ (۲) و شعيب عليه السّلام،ذلک النّبی العظيم،حين وقع العقد علی استئجار موسی قال له:

سَتَجِدُنِي إِنْ شٰاءَ اللّٰهُ مِنَ الصّٰالِحِينَ . (۳)

و إبراهيم عليه السّلام أيضا يطلب لنفسه من اللّه أن يكون فی زمره الصالحين رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصّٰالِحِينَ . (۴)

كما يطلب من اللّه أن يرزقه أبناء صالحين فيقول: رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصّٰالِحِينَ . (۵)

۱- ۱) -سوره يوسف،الآيه ۱۰۱.

۲- ۲) -سوره النمل،الآيه ۱۹.

۳- ۳) -سوره القصص،الآيه ۳۷.

۴- ۴) -سوره الشعراء،الآيه ۸۳.

۵- ۵) -سوره الصافات،الآيه ۱۰۰.

كما نلاحظ فى كثير من الآيات أن اللّه سبحانه حين يمدح أنبياءه العظام فى كتابه،يصفهم بأنّهم«من عباده الصالحين».

و يستفاد من مجموع هذه الآيات-بصوره جيده-أن أسمى مراحل تكامل الإنسان هو أن يكون عبدا صالحا.

ما معنى الصلاح؟!و بعباره أجلى:ما معنى أن يكون الإنسان صالحا؟! معناه:أن يكون جديرا بالاعتقاد و الإيمان،جديرا بالعمل،جديرا بالقول، جديرا بالأخلاق! أمّا ما يقابل الصالح فهو الفاسد،و نعرف أن«الفساد فى الأرض»تعبير يشمل جميع أنواع الظلم و الأعمال السيئه.

و فى القرآن الكريم يستعمل الصلاح-أحيانا-فى مقابل الفساد،و يستعمل- أحيانا-فى مقابل السيئه،و تعنى«الذنب»و ما لا يليق.

٢-مواهب إبراهيم العظيمه

قال بعض المفسّرين:إنّ فى الآيه الآنفه لطيفه دقيقه..هى أنّ اللّه بدل جميع الأمور و الأحوال التى تؤدى بإبراهيم إلى الاستياء،إلى الضدّ.

فعبده الأوثان فى بابل أرادوا إحراقه بالنّار،فتبدلت روضه و سلاما.

و أرادوه أن يبقى منفردا معزولا عن الناس،فوهب اللّه له أمّه عظيمه و جعل النّبوه فى ذراريه.

و كان بعض أقاربه ضالا و عابدا للصنم كما هى الحال فى«آزر»فأعطاه اللّه مكانه أبناء مهتدين و هادين للآخرين.

و لم يكن لإبراهيم عليه السّلام فى بدايه حياته مال و لا جاه،فوهب له اللّه مالا و جاها عظيما.

و کان إبراهیم علیه السّلام فی بدایه أمره مجهولا لا یعرفه الناس حتی أن عبده الأوثان فی بابل حین أرادوا تعریفه قالُوا سَمِعْنا فَتًی یَذْکُرُهُمْ یُقالُ لَهُ إِبْراهِیمُ .

لکن اللّه سبحانه رفع مقامه و أعلی صیته،حتی أنّه إذا ذکر قیل فی حقّه «شیخ الأنبیاء»أو«شیخ المرسلین» (۱) .

۱- ۱) -تفسیر الرازی،بشیء من التصرف.

الآيات [سوره العنكبوت (٢٩): الآيات ٢٨ الی ٣٠]

اشاره

وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ اَلْفاحِشَهَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ اَلْعالَمِينَ (٢٨) أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ اَلرِّجالَ وَ تَقْطَعُونَ اَلسَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ اَلْمُنْكَرَ فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاّ أَنْ قالُوا اِئْتِنا بِعَذابِ اَللّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ اَلصّادِقِينَ (٢٩) قالَ رَبِّ اُنْصُرْنِي عَلَى اَلْقَوْمِ اَلْمُفْسِدِينَ (٣٠)

التّفسير

اشاره

المنحرفون جنسيا:

بعد بيان جانب ممّا جرى لإبراهيم عليه السّلام يتحدث القرآن عن قسم من قصّه حياه النّبى المعاصر لإبراهيم«لوط»عليه السّلام فيقول: وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَهَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ . (١)

«الفاحشه»كما بيناها من قبل،مشتقّه من ماده«فحش»و هى فى الأصل تعنى كل فعل أو كلام سىء للغايه،و المراد بها هنا الانحراف الجنسى.(اللواط).

و يستفاد من جمله ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ بصوره جليّه أن

---

١ - ١) -يمكن أن تكون كلمه«لوطا»عطفا على كلمه(نوحا)فتكون بمنزله المفعول«لأرسلنا»و يمكن أن يكون مفعولا لفعل محذوف تقديره«و اذكر لوطا».

هذا العمل السیء و المخزی لم یسبق له-علی الأقل بشکل عام و جماعی-أن یقع فی أیه أمه أو قوم کما وقع فی قوم لوط.

ذکروا فی أحوال قوم لوط أن واحدا من عوامل تلوثهم بهذا الذنب هو أنّهم کانوا قوما بخلاء جدا،و لمّا کانت مدنهم علی قارعه الطریق التی تمرّ بها قوافل الشام،فقد کانوا یظهرون هذا العمل«الانحراف»لبعض ضیوفهم أو العابرین لینفروهم و کی لا یضیفوهم،إلاّ أنّهم تعودوا علی هذا العمل القبیح،و قویت فیهم رغبه اللواط،فسقطوا فی الوحل المخزی شیئا فشیئا.

علی کل حال،سیئون بحمل ذنوبهم و ذنوب من یعمل عملهم،دون أن ینقص من ذنوب الآخرین شیء أبدا و لیحملن أثقالهم و أثقالا مع أثقالهم!.

لأنّهم کانوا مؤسسی هذه السنه المشؤومه،و نحن نعرف أن من سنّ سنه ما فهو شریک فی عمل من یعمل بها أیضا.

لوط علیه السّلام هذا النّبی العظیم،کشف أخیرا ما فی نفسه و قال لقومه أَ إِنَّکُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجٰالَ أ فتریدون أن تقطعوا النسل وَ تَقْطَعُونَ السَّبِیلَ (۱) .

و لا ترعوون عن الأعمال المخزیه فی مجالسکم العامه وَ تَأْتُونَ فِی نٰادِیکُمُ الْمُنْکَرَ .

«النادی»مشتق من«النداء»و هو یعنی المجلس العام،کما یأتی أحیانا بمعنی مکان التنزّه،لأنّ الأفراد هناک ینادی بعضهم بعضا و ترتفع أصواتهم.

و القرآن لم یبیّن هنا بتفصیل أیه منکرات کانوا یأتونها فی مجالسهم و نوادیهم..لکنّها قطعا کانت متناسبه مع عملهم السیء المخزی..و کما ورد فی

ص:۳۷۵

۱- ۱) -یری جماعه من المفسّرین وجوها و احتمالات أخری لجمله«و تقطعون السبیل»منها ما فسّروه بقطع الطریق علی الناس فی سفرهم مع الالتفات إلی ماضیهم و تأریخهم المعروف،لأنّ القوافل تضطر أن تأخذ طریقا غیر مطروق من أجل أن تسلم من شرّ هؤلاء و لئلا تبتلی بهم،کما فسّره بعضهم بسرقه أموال المسافرین فی القافله و لکن التّفسیر الأوّل المشار إلیه فی المتن أنسب للآیه کما یبدوا للنظر،لأنّ واحدا من أسرار تحریم اللواط و فلسفته هو خطر قطع النسل کما صرحت به الرّوایات.

بعض التواريخ،فإنّهم كانوا يتسابون بكلمات الفحش و الابتذال،أو يضرب أحدهم الأخر على ظهره.أو يلعبون القمار،و أو يعبثون كالأطفال و خاصه الترامى بالحجاره الصغيره فيما بينهم أو على العابرين،و يستعملون أنواع الآلات الموسيقيه،و يكشفون عوراتهم فى مجتمعهم و يغدون عراه...إلخ (۱) .

فى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله كما تنقله«أم هانى»أنّه قال مفسرا لمعنى:

وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ

أنّهم«كانوا يخذفون من يمرّ بهم و يسخرون منه» (۲) أى يرمون من يمرّ بهم بالحجاره و يسخرون منه.

و الآن فلنلاحظ ما ذا كان جواب هؤلاء القوم الضالين المنحرفين،على كلمات النّبى لوط عليه السّلام المنطقيه.

يقول القرآن: فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاّ أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ .

أجل هكذا،كان جواب هؤلاء المفتونين فاقدى العقل و الدرايه إذ أجابوا به من منطلق السخريه و الاستهزاء إزاء دعوه لوط عليه السّلام المنطقيه و المعقوله.

كما يستفاد جيدا من هذا الجواب أنّ لوطا عليه السّلام كان قد هدّدهم بعذاب اللّه، بالإضافه إلى كلامه البيّن ذى الدليل الواضح فى ما لو استمروا بهذا العمل القبيح، إلاّ أنّهم تركوا جميع مواعظه و تمسكوا بتهديده بالعذاب،فقالوا: اِئْتِنا بِعَذابِ اللّهِ على سبيل الاستهزاء و السخريه!!...كما أشير إلى هذا الموضوع فى سوره القمر الآيه(۳۶)بقوله تعالى: وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ .

و يستشف-ضمنا-من تعبير هؤلاء القوم أنّهم كانوا يريدن أن يستنتجوا من عدم نزول العذاب على كذب لوط عليه السّلام،فى حين أن رحمه اللّه هى التى تمهلهم و تعطيهم الفرصه لمراجعه أنفسهم و إعاده النظر!

۱- ۱) -سفينه البحار،ج ۲،ص ۵۱۷.

۲- ۲) -تفسير القرطبى ذيل الآيات محل البحث.

و هنا لم يكن للوط عليه السّلام بدّ إلاّ أن يلتفت إلى اللّه بقلب حزين مهموم...و قٰالَ رَبِّ انْصُرْنِی عَلَی الْقَوْمِ الْمُفْسِدِینَ .

القوم المنحرفين،المتمادين فى الأرض فسادا،و الذين تركوا تقواهم و أخلاقهم الإنسانيه و ألقوا العفه و الطهاره خلف ظهورهم،و سحقوا العدل الاجتماعى تحت أقدامهم،و مزجوا عباده الأوثان بفساد الأخلاق و الظلم، و هددوا نسل الإنسان بالفناء و الزوال،فيا ربّ انصرنى على هؤلاء القوم المفسدين.

ملاحظه

اشاره

بلاء الانحراف الجنسى:

الانحراف الجنسى-سواء كان فى أوساط الرجال«اللواط»أم فى أوساط النساء«المساحقه»-لهو من أسوأ الانحرافات الأخلاقيه،و مصدر المفاسد الكثيره فى المجتمع.

و أساسا فإنّ طبيعه«كلّ من الرجل و المرأه»مخلوقه بشكل يمنح الهدوء و الإشباع الصحيح السالم فى العلاقه الجنسيه بين الرجل و المرأه«عن طريق الزواج المشروع»و أى نوع من الميول الجنسيه فى غير هذه الصوره هو انحراف عن طبع الإنسان الصحيح،و هو نوع من الأمراض النفسيّه الذى لو قدّر له أن يستمرّ لاشتد خطره يوما بعد يوم،و تكون نتيجته البرود الجنسى بالنسبه ما بين الرجل و المرأه،و الإشباع غير الصحيح من«الجنس المماثل»أى«اللواط» أو«السحاق».

و لهذا النوع من العلائق غير المشروعه أثر مدمّر فى جهاز البدن،بل حتى فى سلسله الأعصاب و الروح.إذ يسقط الرجل من رجولته و المرأه من أنوثتها!

بحيث أن أمثال هؤلاء الرجال و النساء المنحرفين جنسيا يبتلون بضعف جنسى شديد،و لا يستطيعون أن يكونوا آباء و أمهات صالحين لأبنائهم فى المستقبل، و ربّما كانوا غير قادرين حتى على الإنجاب بصوره كليه«بسبب هذا الانحراف».

إن المنحرفين جنسيا يغدون بالتدريج منزوين منعزلين عن المجتمع، و يحسون بالغربه فى مجتمعهم و فى أنفسهم أيضا،كما يبتلون بنفصام الشخصيه، و إذا لم يهتموا بإصلاح أنفسهم،فمن الممكن أن يبتلوا بأمراض جسميه و نفسيه مختلفه.

و لهذا السبب-و لأسباب أخلاقيه و اجتماعيه أخرى-حرّم الإسلام الانحراف الجنسى تحريما شديدا بأى شكل كان و فى أيه صوره،كما قرر للذى يقوم بهذا العمل عقابا صارما يبلغ أحيانا إلى درجه الإعدام و القتل!.

و الموضوع المهم هو أن الانفلات الاخلاقى و التميّع الجنسى و الابتذال للعالم المتمدن و الحضاره الماديه قد جرّت كثيرا من الفتيان و الفتيات إلى الانحراف الكبير.

فى البدايه يرغّبون الفتيان فى أن يلبسوا ثياب النساء و أن يظهروا بمظهر خاص،و يدعون النساء أن يلبسن ثياب الرجال،و تبدأ من هنا قضيه الانحراف الجنسى حتى تصل إلى أقبح الأعمال الوقحه فى هذا المجال،و تأخذ شكلا قانونيا بحيث يعدون هذا الأمر عاديا لا يستحق أى نوع من العقاب أو التبعه،و لا يسع القلم إلاّ أن يستحى و يخجل من وصف ذلك (۱) .

۱- ۱) -كان لنا فى صدد الانحراف الجنسى بحث مفصل فى ذيل الآيه(۸۱)سوره هود...

الآيات [سوره العنکبوت (۲۹): الآيات ۳۱ الى ۳۵]

اشاره

وَ لَمّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هٰذِهِ الْقَرْيَهِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ (۳۱) قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (۳۲) وَ لَمّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالُوا لا تَخَفْ وَ لا تَحْزَنْ إِنّا مُنَجُّوكَ وَ أَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (۳۳) إِنّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هٰذِهِ الْقَرْيَهِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (۳۴) وَ لَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَهً بَيِّنَهً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۳۵)

التّفسير

اشاره

و هذه هى عاقبه المنحرفين:

لقد أستجيب دعاء لوط أخيرا،و صدر الأمر من اللّه تعالى بالعقاب الصارم و الشديد لهؤلاء القوم المنحرفين و المفسدين،فمرّ الملائكه المأمورون بعذاب قوم لوط بالأرض التى فيها إبراهيم عليه السّلام لأداء رساله أخرى قبل أن ينزلوا العقاب بقوم لوط،و هذه الرساله التى سبقت العذاب،هى بشارتهم لإبراهيم عليه السّلام بالولد:

«بشروه بإسحاق و من وراء إسحاق يعقوب».

ص:۳۷۹

و الآيات المتقدمه تذكر أوّلا قصّه مرورهم بإبراهيم عليه السّلام فتقول: وَ لَمّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَهِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ .

و التعبير ب«هذه القريه»يدل على أن مدن قوم لوط كانت قريبه من أرض إبراهيم عليه السّلام و التعبير بالظالمين هو لأجل كونهم يظلمون أنفسهم باتخاذهم سبيل الشرك و الفساد الأخلاقى و عدم العفه،و ظلمهم الآخرين حتى شمل العابرين و القوافل التى كانت تمرّ على طريقهم.

فلمّا سمع«إبراهيم»هذا النبأ حزن على لوط النّبى العظيم و قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً .

فما عسى أن تكون عاقبته؟! إلاّ أنّهم أجابوه على الفور، قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها فلا تحزن عليه،لأننا لا نحرق«الأخضر و اليابس»معا،و خطتنا دقيقه و محسوبه تماما...ثمّ أضافوا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ .

و يستفاد من هذه الآيه جيدا أنّ أسره واحده فقط فى جميع تلك المدن و القرى كانت مؤمنه و غير مدنّسه،و قد نجاها اللّه فى ذلك الحين أيضا...كما نقرأ مثل ذلك فى الآيه(۳۶)من سوره الذاريات: فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ و مع ذلك فإنّ امرأه لوط كانت خارجه عن جماعه المؤمنين،فشملها العذاب.

و التعبير ب«الغابرين»جمع«غابر»و معناه المتخلف عن جماعته الماضين فى الطريق،فالمرأه التى كانت فى عائله النبوّه لا ينبغى لها أن تنفصل عن المؤمنين و المسلمين...غير أنّ الكفر و الشرك و عباده الأوثان-كل ذلك-دعاها إلى الانفصال!.

و يتّضح من هنا أن انحرافها كان من جهه العقيده،و لا يبعد أن يكون هذا الانحراف متأثرا بسبب محيطها...و كانت فى بدايه الأمر مؤمنه موحده،و بهذا فلن يرد أى إشكال على لوط عليه السّلام فى أنّه لم تزوّج بمثل هذه المرأه؟! و إذا كان جماعه من المؤمنين الآخرين قد آمنوا بلوط،فمن المؤكّد أنّهم كانوا قد هاجروا عن تلك الأرض المدنّسه قبل هذا الحادث،ما عدا لوطا و أهله، فإنّه كان عليه أن يبقى إلى آخر ساعه هناك،لاحتمال تأثير تبليغه و إنذاره.

هنا ينقدح هذا السؤال:ترى هل كان«إبراهيم»يحتمل أن عذاب اللّه سيشمل لوطا،فأظهر تأثره أمام الملائكه،غير أنّهم طمأنوه بنجاه لوط؟! و الجواب الواضح على هذا السؤال،و هو أن إبراهيم كان يعرف الحقيقه، و إنّما سأل ليطمئن قلبه،نظير هذا السؤال ما كان من هذا النّبى العظيم فى شأن المعاد و إحياء الموتى،إذ جسد له اللّه ذلك فى إحياء أربعه من الطير«ليطمئن قلبه».

إلّا أنّ المفسّر الكبير العلّامه الطباطبائى يعتقد أنّ المراد من سؤال إبراهيم هو أن وجود«لوط»بين هؤلاء القوم سيكون دليلا على رفع العذاب عنهم...

و يستعين بالآيات(۷۴)-(۷۶)من سوره هود على هذا المقصد،لأنّ هذه الآيات تبيّن:أنّه عليه السّلام كان يريد بقوله: إِنَّ فِيهٰا لُوطاً أن يصرف العذاب بأن فيها لوطا و إهلاك أهلها يشمله،فأجابوه بأنهم لا يخفى عليهم ذلك بل معه غيره ممن لا يشملهم العذاب و هم أهله إلّا امرأته. (۱)

لكننا نعتقد أنّ هذا الجواب من الملائكه-فى صدد نجاه لوط و أهله-يدلّ بوضوح أن الكلام فى هذه الآيات هو على لوط فحسب،و لكن آيات سوره هود تتحدث عن موضوع منفصل،و كما قلنا آنفا فإنّ إبراهيم كان ليطمئن قلبه أكثر

۱- ۱) -الميزان،ج ۱۶،ص ۱۲۴.

«فلاحظوا بدقه».

انتهی کلام الملائکه مع إبراهیم هنا،و توجهوا إلی دیار لوط علیه السّلام و قومه،یقول القرآن فی هذا الشأن: وَ لَمّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِیءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً .

و کان کلّ استیائه و عدم ارتیاحه بسبب أنّه لم یعرفهم...فقد جاؤوا إلیه بهیئه فتیان ذی وجوه ملیحه،و مجیء أمثال هؤلاء الضیوف فی مثل هذا المحیط الملوّث،ربّما کان یجرّ علی لوط الوبال،و أن یذهب ماء وجهه أمامهم،لذلک فکر ملیّا:ما عسی أن یکون ردّ فعل هؤلاء القوم الضالین الوقحین الذین لا حیاء لهم قبال هؤلاء الضیوف؟! «سیء»مشتقّه من«ساء»و معناه سوء الحال،و«الذرع»معناه «القلب»«الخلق»،فعلی هذا یکون معنی ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً أی ضاق قلبه و انزعج.

و قال بعض المفسّرین:إنّ هذه الکلمه فی الأصل تعنی«الفاصله بین أطراف البعیر أثناء السیر»و حیث أنّهم إذا وضعوا علی البعیر حملا ثقیلا قصّر خطاه و ضیّق الفاصله،عبروا بجمله«ضاق ذرعا»کنایه عن الحادثه الثقیله«الصعبه» التی لا تطاق! إلاّ أنّ الضیوف حین أدرکوا عدم ارتیاحه کشفوا عن«هویّتهم»و عرفوا أنفسهم و رفعوا عنه الحزن: وَ قالُوا لا تَخَفْ وَ لا تَحْزَنْ إِنّا مُنَجُّوکَ وَ أَهْلَکَ إِلاَّ امْرَأَتَکَ کانَتْ مِنَ الْغابِرِینَ .

و یستفاد بالطبع من الآیات التی فی سوره هود أن أولئک القوم الأراذل،حین عرفوا بوجود الضیوف عند لوط علیه السّلام أسرعوا إلیه،و کان فی نیّتهم أن یعتدوا علیهم،و حیث أن لوطا کان لا یزال غیر عارف بحقیقه الملائکه فقد کان متأثرا جدّا،و کان تاره ینصحهم و اخری یهدّدهم و مرّه یقول لهم: أَ لَیْسَ مِنْکُمْ رَجُلٌ رَشِیدٌ فیحرک ضمائرهم و تاره یقترح علیهم الزواج من بناته،و أراد أن یمنعهم

من الوصول إلی أضیافه،لکن هؤلاء المنحرفین الذین لا حیاء لهم لم یقتنعوا بأی شیء و لم یفکروا إلاّ بهدفهم المخزی.

و لکن رسل اللّه عرفوا أنفسهم للوط علیه السّلام،و أعموا أبصار هؤلاء القوم الذین أرادوا الهجوم علی الملائکه و اثلجوا قلب ذلک النّبی العظیم علیه السّلام. (۱)

و ما ینبغی الالتفات إلیه أن رسل اللّه قالوا للوط: لاٰ تَخَفْ وَ لاٰ تَحْزَنْ فما الفرق بین کلمتی«الخوف»و«الحزن»؟ ورد فی تفسیر المیزان أن الخوف یقع علی الحوادث غیر المستساغه احتمالا..أمّا الحزن فیقع فی الموارد القطعیه.

و قال بعضهم:الخوف یطلق علی الحوادث المستقبلیه،أمّا الحزن فعلی ما مضی! کما یرد هذا الاحتمال و هو أن الخوف فی المسائل الخطره،أمّا الحزن فهو فی المسائل الموجعه،و إن لم یکن فیها أی خطر!..

و هنا ینقدح هذا السؤال،و هو أنّه طبقا لآیات سوره هود فإنّ لوط و خوفه لم یکن علی نفسه،بل کان یخشی أن یضایقوا«ضیفه» (۲) غیر أن جواب الملائکه یتعلق بنجاه لوط و أهله،و هذان الأمران غیر منسجمین.

و الجواب علی هذا السؤال یستفاد إجمالا من الآیه(۸۱)من سوره هود، لأنّ القوم المنحرفین حین مدّوا أیدیهم إلی الضیوف قال الملائکه: یٰا لُوطُ إِنّٰا رُسُلُ رَبِّکَ لَنْ یَصِلُوا إِلَیْکَ أی مسألتنا سهله...و لن یصل إلیک سوء و أذی منهم أیضا،فعلی هذا کان الملائکه یرون النجاه بالنسبه لهم من المسلّم بها،و إنّما رکزوا علی البشاره للوط و أهله فحسب.

و بعد هذا،و لکی تتضح خطه عملهم فی شأن عاقبه هؤلاء القوم المنحرفین

۱- ۱) -ذکرنا تفصیل هذا الحادث فی ذیل الآیات ۷۷-۸۱ من سوره هود فلا بأس بمراجعتها.

۲- ۲) -«الضیف»یطلق علی المفرد و الجمع،و جمعه:ضیوف و أضیاف.(المصحح).

أكثر،أضافوا: إِنّٰا مُنْزِلُونَ عَلىٰ أَهْلِ هٰذِهِ الْقَرْيَهِ رِجْزاً مِنَ السَّمٰاءِ بِمٰا كٰانُوا يَفْسُقُونَ .

و المراد بـالقريه هى«سـدوم»و مـا جاورها من القرى و المـدن التى كان يسـكنها قوم لوط،و قـد أوصل بعضـهم عـدد هؤلاء إلى سبعمائه ألف نفر (۱) .

و المراد من«الرجز»هنا هو العذاب،و معناه الأصلى الاضطراب،ثمّ عبروا عن كل شىء يوجب الاضطراب بالرجز،و لذلك استعمل العرب كلمه الرجز فى كـثير مـن المعـانى كالبلايـا الشديــده،و الطـاعون أو الـبرد،و الأصــنام،و وسـاوس الشـيطان،و العــذاب الإلهى..إلخ.

و جمله بِمٰا كٰانُوا يَفْسُقُونَ هى سـبب عقـابهم الشديـد، لأنّـهم لم يطيعـوا اللّه، و التعبير بالفعـل المضـارع«يفسـقون»دليـل على استمرارهم و دوامهم على العمل القبيح!.

و هـذا التعـبير يـبيّن هـذه الحقيقه،و هى لـو أن أولئـك لم يسـتمروا على الـذنب، و كـانوا يتوبـون و يعـودون إلى طريـق الحق و التقوى،لم يبتلوا بمثل هذا العذاب و كانت ذنوبهم الماضيه مغفوره.

و هنا لم يذكر القرآن كيفيه العذاب الأليم،سوى أنّه قال: وَ لَقَدْ تَرَكْنٰا مِنْهٰا آيَهً بَيِّنَهً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

إلّا أنّ فى سوره هود الآيه(۸۲)منها،و كذلك سوره الأعراف الآيه ۸۴ منها، تفصـيلا فى بيان العذاب،و هو أنّه أصابت قراهم فى البدايه زلزله شديده فجعلت عاليها سافلها،ثمّ أمطرت عليها حجاره من السماء بحيث توارت بيوتهم و قراهم و أجسادهم تحتها!.

و التعبير ب«الآيه البينه»أى العلامه الواضـحه،هو إشاره إلى الآثار الباقيه من مـدينه«سدوم»التى كانت فى طريق قوافل أهل الحجاز طبقا«لآيات القرآن»...

ص: ۳۸۴

۱- ۱) -روح البيان،ج ۶،ص ۴۶۷.

و کـانت باقيه حتى ظهور النّبى صلّى اللّه عليه و آله.كما نقرأ فى الآيه(۷۶)من سوره الحجر وَ إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ ،و كما نقرأ فى سوره الصافات الآيتين(۱۳۷)و(۱۳۸):

وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ .

الآیات [سوره العنکبوت (۲۹): الآیات ۳۶ الی ۴۰]

اشاره

وَ إِلىٰ مَدْيَنَ أَخٰاهُمْ شُعَيْباً فَقٰالَ يٰا قَوْمِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ وَ اُرْجُوا اَلْيَوْمَ اَلْآخِرَ وَ لاٰ تَعْثَوْا فِي اَلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۳۶) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ اَلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دٰارِهِمْ جٰاثِمِينَ (۳۷) وَ عٰاداً وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسٰاكِنِهِمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ اَلشَّيْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ اَلسَّبِيلِ وَ كٰانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (۳۸) وَ قٰارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هٰامٰانَ وَ لَقَدْ جٰاءَهُمْ مُوسىٰ بِالْبَيِّنٰاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي اَلْأَرْضِ وَ مٰا كٰانُوا سٰابِقِينَ (۳۹) فَكُلاًّ أَخَذْنٰا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنٰا عَلَيْهِ حٰاصِباً وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ اَلصَّيْحَةُ وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنٰا بِهِ اَلْأَرْضَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنٰا وَ مٰا كٰانَ اَللّٰهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لٰكِنْ كٰانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۴۰)

التّفسیر

اشاره

تنوع العذاب للظالمین:

بعد بیان قصّه لوط و قومه یقع الکلام عن أقوام آخرین أمثال قوم شعیب و عاد و ثمود،و قارون و فرعون،و قد أشیر فی هذه الآیات-محل البحث-إلی کلّ

ص:۳۸۶

منهم إشاره موجزه«مكثفه»للاستنتاج و العبره! فى البدايه تقول الآيه: وَ إِلىٰ مَدْيَنَ أَخٰاهُمْ شُعَيْباً (١) .

و التعبير بكلمه«أخاهم»كما قلنا مرارا،هو إشاره إلى منتهى محبّه هؤلاء الأنبياء إلى أممهم،و إلى عدم طلبهم السلطه،و بالطبع فإنّ هؤلاء الأنبياء كانت لهم علاقه قرابه بقومهم أيضا.

و«مدين»مدينه واقعه جنوب غربى الأردن،و تدعى اليوم ب«معان»و هى فى شرق خليج العقبه،و كان شعيب عليه السّلام و قومه يقطنون فيها (٢) .

و شعيب كسائر أنبياء اللّه العظام،بدأ بالدعوه الى الاعتقاد بالمبدأ و المعاد، و هما أساس كل دين و طريقه فَقٰالَ يٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ وَ ارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ .

فالإيمان بالمبدأ يكون سببا لإحساس الإنسان بأن اللّه يراقبه مراقبه دقيقه بشكل دائم و يسجّل أعماله؛و الإيمان بالمعاد يذكر الإنسان بمحكمه عظيمه يحاسب فيها عن كل شيء و كل عمل مهما كان تافها...و من المسلم أنّ الإعتقاد بهذين الأصلين له أثره البالغ على تربيه الإنسان و إصلاحه!.

و المبدأ الثّالث هو بمثابه خطّه عمل جامعه،تحمل بين طياتها جميع الخطط الاجتماعيه،إذ قال: وَ لاٰ تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ .

و للفساد مفهوم واسع يشمل كل نقص انحراف،و تدمير،و ظلم..إلخ..و يقابله الصلاح و الإصلاح،و مفهومهما يشمل جميع الخطط البنّاءه!.

أمّا كلمه«تعثوا»فهى من ماده«عثى»و معناه إحداث الفساد أو الإفساد، غايه ما فى الأمر أن هذا التعبير كثيرا ما يستعمل فى الموارد التى تكون فيها «مفاسد أخلاقيه»،فعلى هذا يكون ذكر كلمه«مفسدين»بعدها تأكيدا على هذا

١- ١) -هذه الجمله معطوفه على جمله«و لقد أرسلنا نوحا».

٢- ٢) -ورد الكلام على مدين فى ذيل الآيه(٢٣)من سوره القصص فى هذا الجزء بإسهاب.

المفهوم.

إلاّ أنّ تلك الجماعه بدلا من أن تصغى لمواعظه و نصائحه بآذان القلوب، خالفته و لم تصغ إليه«فكذبوه».

و كان هذا التكذيب سببا فى أن تصيبهم زلزله شديده فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَهُ فَأَصْبَحُوا فِي دٰارِهِمْ جٰاثِمِينَ أى مكبوبين على وجوههم ميتين.

و«الجاثم»مشتق من«جثم»على زنه«سهم»و معناه الجلوس على الركبه و التوقف فى مكان ما..و لا يبعد أن يكونوا نائمين عند وقوع هذه الزلزله الشديده..فهذا التعبير إشاره إلى أنّهم عند وقوع هذه الحادثه نهضوا و جثوا على الركب،إلاّ أنّ الحادثه لم تمهلهم حيث انهارت الجدران عليهم و نزلت عليهم الصاعقه التى تزامنت معها فماتوا (۱) .

أمّا الآيه التى بعده فتتحدث عن«عاد»و«ثمود»قومى(هود و صالح)،دون أن تذكر ما قاله نبيّاهما لهما،و ما ردّ عليهما قومهما المعاندون،لأنّهما مذكوران فى آيات عديده من القرآن،و هما أى قوم هود و قوم صالح معروفان،فلذلك، تقول الآيه: وَ عٰاداً وَ ثَمُودَ (۲) .

ثمّ تضيف الآيه وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسٰاكِنِهِمْ المتهدمه و التى هى على طريقكم فى منطقه الحجر و اليمن.

فأنتم فى كل سنه تمرون فى أسفاركم للتجاره بأرض«الحجر»التى تقع شمال جزيره العرب،و بالأحقاف التى تقع قريبا من اليمن و جنوبها،و ترون آثار المساكن المتهدمه و بقاياها من عاد و ثمود،فعلام لا تعتبرون؟! ثمّ تشير الآيه إلى السبب الأصلى لشقائهم و سوء حظّهم،إذ تقول:

۱- ۱) -بيان هذه الحادثه المؤلمه فصلناه فى تفسير«سوره هود»ذيل الآيات فى شرح قصه«شعيب و قومه».

۲- ۲) -«و عادا و ثمودا»مفعولان لفعل مقدر و هو«أهلكنا»و هو يستفاد من الآيه السابقه.و قال بعضهم:فعلهما المحذوف تقديره«اذكر».

وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ

.

و كانت فطرتهم على فطره اللّه و تقواه،و لم يأل الأنبياء جهـدا فى هـدايتهم، و بـذلوا قـدرا كافيا من النصح و الإرشاد لهم،لكنّهم حادوا وَ كٰانُوا مُسْتَبْصِرِينَ .

قال بعض المفسّرين:إنّ جمله وَ كٰانُوا مُسْتَبْصِرِينَ تعنى أنّهم كانوا ذوى أعين بصيره،و عقل كاف.

و قال بعضهم:إنها تعنى أنّهم كانوا على الفطره السليمه.

كما قال آخرون:إنّها تعنى هدايه الأنبياء لهم.

و لا-يمنع اجتمـاع جميع هـذه المعـانى فى الآيه الكريمه،فهى إشاره إلى أنّهم لم يكونوا جاهلين قاصـرين،بل كانوا يعرفون الحق جيدا من قبل،و كانت ضمائرهم حيه و لديهم العقل الكافى،و أتمّ الأنبياء عليهم الحجّه البالغه،و لكن...

مع كل ما تقـدم...من نـداء العقل و الضـمير،و دعوه الأنبياء،فقـد انحرفوا عن السبيل و وسوس لهم الشـيطان،و يوما بعد يوم يرون أعمـالهم القبيحه حسـنه،و بلغوا مرحله لا-سبيـل لهم إلى الرجوع منهـا،فأحرق قانون الخلق و الإيجاد هـذه العيـدان اليابسه..و هى جديره بذلك! و الآيه الأخرى تذكر أسـماء ثلاثه من الجبابره الذين كان كل واحد منهم بارزا للقدره الشـيطانيه،فتقول: وَ قٰارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هٰامٰانَ (۱) .

فقارون كان مظهر الثروه المقرونه بالغرور و عباده«الذات»و الأنانيه و الغفله.

و فرعون كان مظهر القدره الاستكباريه المقرونه بالشيطنه.

و أمّا هامان،فهو مثل لمن يعين الظالمين المستكبرين!.

ثمّ يضـيف القرآن وَ لَقَدْ جٰاءَهُمْ مُوسىٰ بِالْبَيِّنٰاتِ و الـدلائل فَاسْتَكْبَرُوا فِی الْأَرْضِ فاعتمـد قارون على ثروته و خزائنه و علمه،و اعتمد فرعون و هامان على جيشهما و على القدره العسكريه،و على قوه إعلامهم و تضليلهم لطبقات

۱- ۱) -هذه الكلمات الثلاث مفاعيل للفعل المقدر«أهلكنا»أو كما قال البعض:هى مفاعيل لفعل تقديره«اذكر»!

الناس المغفّلين الجهله.

لکن..برغم کل ذلک لم یفلحوا وَ مٰا کٰانُوا سٰابِقِینَ .

فأمر اللّه الأرض التی هی مهد الاطمئنان و الدعه بابتلاع قارون.

و أمر الماء الذی هو مصدر الحیاه بابتلاع فرعون و هامان.

و عبأ جنود السماوات و الأرض لإهلاکهم جمیعا،بل ما کان مصدر حیاتهم أمر اللّه أن یکون هو نفسه سببا لفنائهم (۱) .

کلمه«سابقین»تعنی من یتقدم و یکون أمام الآخرین، فمفهوم قوله تعالی:

وَ مٰا کٰانُوا سٰابِقِینَ

أی إنّهم لم یستطیعوا أن یهربوا من سلطان اللّه برغم ما کان عندهم من إمکانات،بل أهلکهم اللّه فی اللحظه التی أراد،و أرسلهم إلی دیار الفناء و الذله و الخزی.

کما یذکر فی الآیه التی بعدها فَکُلاًّ أَخَذْنٰا بِذَنْبِهِ .

و حیث أنّ القرآن ذکر«الطوائف الأربع»فی الآیتین المتقدمتین،و لم یبیّن عذابهم،و هم:

۱-قوم هود«عاد».

۲-و ثمود«قوم صالح».

۳-قارون.

۴-فرعون و هامان.

فإنه یذکر فی هذه الآیه بحسب الترتیب أنواع عذابهم.فیقول: فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنٰا عَلَیْهِ حٰاصِباً .

و«الحاصب»معناه الاعصار الذی یحمل حصی کثیره معه،و«الحصباء» «الحصی الصغیره».

ص: ۳۹۰

۱- ۱) -شرح قصّه حیاه قارون فی الآیات السبع ۷۶-۸۲ سوره القصص،و هلاک فرعون و جماعته فی تفسیر سوره القصص،کما ورد فی سوره الأعراف أیضا.

و المقصود ب«منهم»هنا هم«عاد»قوم هود،و حسب ما جاء فی بعض السور كالذاريات و الحاقه و القمر،أصابهم اعصار شديد مهلك خلال ثمانيه أيّام و سبع ليال فدمرهم تدميرا.

يقول القرآن: سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَ ثَمانِيَهَ أَيّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَهٍ فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَهٍ «الحاقه».

وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَهُ

و قلنا:إن الصيحه السماويه التی هی نتيجه الصاعقه التی تقترن مع الزلزله فی زمان الوقوع،و هذا هو العذاب الذی عذب اللّه به ثمود«قوم هود»كما عذب آخرين...و يقول القرآن فی الآيه(۶۷)من سوره هود فی شأن ثمود وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَهُ فَأَصْبَحُوا فِی دِيارِهِمْ جاثِمِينَ .

وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ

.و هذا هو عقاب قارون الثری المغرور المستكبر من بنی إسرائيل،و قد أشير إليه فی الآيه(۸۱)من سوره القصص.

وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا

و نعرف أنّ هذا الكلام إشاره إلی عقاب فرعون و هامان و جنودهما،و قد ذكرت هذه القصّه فی سور متعدده من القرآن الكريم.

و علی كل حال،فمع الالتفات لهذا البيان فإن أنواع العذاب الأربعه ذكرت هنا للطوائف الأربع المذكورين فی الآيتين المتقدمتين.حيث اشارتا إلی ضلالهم و انحرافهم و ذنوبهم دون أن تذكرا عقابهم.

و لكن من البعيد أن تشمل هذه الأنواع الأربعه من العذاب الوارده فی هذه الآيه أقواما آخرين،كما يقول بعض المفسّرين.«كالغرق لقوم نوح،و إمطار الحجاره و الحصباء علی قوم لوط»لأنّ عقابهم مذكور هناك و فی موارد ذكرهم و لا حاجه للتكرار هنا،و أمّا عقاب الفئات الأربع فلم يذكر فی هذه السلسله من الآيات،و لذا بينه اللّه سبحانه فی الآيتين الأخيرتين.

و يبيّن فی ختام الآيه التأكيد علی هذه الحقيقه،و هی أنّ ما أصابهم هو بسبب أعمالهم،و هم زرعوا فحصدوا وَ ما كانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ

يَظْلِمُونَ

.

أجل،إنّ عقاب هذه الدنيا و الآخره هو تجسيد أعمالهم،حيث يغلقون جميع طرق الإصلاح فى وجوههم.فاللّه أكثر عدلا و أسمى من أن يظلم الإنسان أدنى ظلم!.

و هذه الآيه-كسائر كثير من آيات القرآن-تثبت أصل الحريه فى الإراده و الإختيار عند الإنسان،و تقرر أن التصميم فى كل مكان يصدر من الإنسان نفسه.و قد خلقه اللّه حرّا و يريده حرّا..فعلى هذا يبطل اعتقاد أتباع مذهب «الجبر»الذين لهم وجود بين المسلمين-مع الأسف-بهذا المنطق القوى للقرآن الكريم.

الآيات [سوره العنكبوت (۲۹): الآيات ۴۱ الى ۴۴]

اشاره

مَثَلُ اَلَّذِينَ اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ أَوْلِيٰاءَ كَمَثَلِ اَلْعَنْكَبُوتِ اِتَّخَذَتْ بَيْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ اَلْبُيُوتِ لَبَيْتُ اَلْعَنْكَبُوتِ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ (۴۱) إِنَّ اَللّٰهَ يَعْلَمُ مٰا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (۴۲) وَ تِلْكَ اَلْأَمْثٰالُ نَضْرِبُهٰا لِلنّٰاسِ وَ مٰا يَعْقِلُهٰا إِلاَّ اَلْعٰالِمُونَ (۴۳) خَلَقَ اَللّٰهُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (۴۴)

التّفسير

اشاره

دعامه واهيه كبيت العنكبوت:

بيّنت الآيات السابقه ما آل إليه المشركون و المفسدون الظلمه و الأنانيون من مصير وخيم و عاقبه سوداء و عذاب أليم...و بهذه المناسبه،ففى الآيات التى بين أيدينا،يبيّن القرآن الكريم مثالا-بليغا و مؤثرا يعبدون غير اللّه و يتخذون من دونه أولياء!و كلما أمعنا النظر فى هذا المثال و فكرنا فيه مليّا انقدحت فى أذهاننا منه لطائف دقيقه،يقول تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ أَوْلِيٰاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ .

كم هو بديع هذا المثال و طريف،و كم هو بليغ و دقيق هذا التشبيه!.

تـأمّلوا بـدقّه...إنّ كـل حيـوان-و كـل حشـره-له بيت أو وكر و مـا أشـبه ذلـك، لكن ليس فى هـذه الـبيوت بيت أوهن من بيت العنكبوت!فكـل بيت-عـاده- يحتوى على سـقف و بـاب و جـدار،و هو يحفـظ صـاحبه من الحوادث،و يكون مكانا أمينا لإيـداع الأطعمه و الأشـياء الأخرى و حفظها...فبعض البيوت لا سقف لها إلّا أنّها على الأقل لها جدار،كما أنّ هناك بيوتا لا جدار لها إلّا أن لها سقفا.

لكن بيت العنكبوت المنسوج من خيوط دقيقه واهيه،ليس له سـقف و لا جـدار و لا ساحه و لا باحه و لا باب،هـذا من جانب...و من جانب آخر فإنّ مواد بنائه واهيه جدّا و سرعان ما تتلاشى إزاء أيه حادثه بسيطه،فهى لا تقدر على المقاومه.

فلو هبّ نسيم عليل لتمزق هذا النسيج.

و لو سقطت عليه قطرات المطر لتلاشى و تلف.

و لو لامسته شعله خفيفه لاحرقته.

و حتى لو تراكم عليه الغبار لتركه أشلاء ممزقه معلقه.

فآلهه هؤلاء الجماعه و معبوداتهم«الكاذبه»كمثل هذا البيت لا تنفع و لا تضر و لا تحلّ مشكله،و لا تكون ملجأ لأحد فى المحنه و الشدّه!.

صحيـح..إن هـذا البيت للعنكبوت-مع ما لها من أرجل طويله-هو محل استراحتها،و شـرك لاصـطياد الحشـرات و الحصول على الغذاء إلّا أن هذا البيت- بالقياس إلى البيوت الأخرى للحيوانات و الحشرات-فى منتهى الوهن و الانهيار!.

فمن يعتمد على غير اللّه و يتخذ من دونه وليا،فقد اعتمد على بيت العنكبوت!!.

و الذين اختاروا سوى اللّه،اعتمدوا على بيوت العناكب،كعرش فرعون و تاجه،و الأموال المتراكمه عند قارون،و قصور الملوك و خزائنهم،جميع هذه

الأمور المذكوره كمثل بيت العنكبوت!.

فهی لا تدوم،و لا يمكن الاعتماد عليها،و لا أساس لها حتى تكون راسخه أمام طوفان الحوادث.

و التاريخ يدل على أنّه لا يمكن الاعتماد على أیّ من هذه الأمور حقّا.

أمّا الذين اعتمدوا على اللّه و توكلوا عليه،فقد اعتمدوا على سدّ حصين منيع.

و الجدير بالذكر،أنّ بيت العنكبوت و نسيج خيوطه المضروب به المثل،هو نفسه من عجائب الخلق،و التدقيق فيه يعرف الإنسان على عظمه الخالق أكثر.، فخيوط العنكبوت«مصنوعه»و منسوجه من مائع لزج،هذا المائع مستقر فی حفر دقيقه و صغيره كرأس الإبره تحت بطن العنكبوت،و لهذا المائع خصوصيه أو تركيب خاص هو أنّه متى ما لامس الهواء جهد و تصلّب.

و العنكبوت تخرج هذا المائع بواسطه آليات خاصه و تصنع خيوطها منه.

يقال:إن كلّ عنكبوت يمكن لها أن تصنع من هذا المائع القليل جدّا ما مقداره خمسمائه متر من خيطها المفتول!.

و قال بعضهم:إنّ الوهن فی هذه الخيوط منشؤه دقتها القصوى،و لولا هذه الدقه فإنها أقوى من الفولاذ«لو قدر أن تفتل بحجم الخيط الفولاذی».

العجيب أنّ هذه الخيط تنسج أحيانا من أربع جدائل كل جديله هی أيضا منسوجه أو مصنوعه من ألف جديله!و كل جديله تخرج من ثقب صغير جدّا فی بدن العنكبوت،ففكروا الآن فی هذه الخيوط التی تتكون منها هذه الجديله كم هی ناعمه و دقيقه و ظريفه؟! و إضافه إلى العجائب الكامنه فی بناء بيت العنكبوت و نسجه،فإنّ شكل بنائه و هندسته طريف أيضا،فلو دققنا النظر فی بيوت العنكبوت لرأينا منظرا طريفا مثل الشمس و أشعتها مستقره على قواعد هذا«البناء النسيجی»،و بالطبع فإن هذا البيت مناسب للعنكبوت و كاف،و لكنّه فی المجموع لا يمكن تصور بيت

أوهن منه،و هكذا بالنسبه إلى آلهه الضالين و معبوديهم،إذ تركوا عباده اللّه و التجأوا إلى الأصنام و الأحجار و الأوثان!!.

و مع الالتفات إلى أن العناكب ليست نوعا واحدا،بل-كما يدعى بعض العلماء-عرف منها حتى الآن عشرون ألف نوع،و كل نوع له خصوصياته التى تبين عظمه الخالق و قدرته فى خلق هذا الموجود الصغير بوضوح و جلاء.

التعبير ب«الأولياء»جمع ولى مكان التعبير بالأصنام،ربّما كان إشاره ضمنيه إلى هذه اللطيفه،و هى أنّه ليس الحكم مختصا بالأصنام و الآلهه المزعومه،بل حتى الأئمه و القاده الارضيين مشمولون بهذا الحكم أيضا.

و جمله لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ تتعلق بالأصنام و المعبودين من دون اللّه و لا ترتبط بوهن بيت العنكبوت...لأنّ وهن بيت العنكبوت معلوم عند الجميع، فعلى هذا يكون مفهوم الجمله كالتالى:لو كانوا يعلمون وهن المعبودين من دون اللّه و ما ركنوا إليه من دونه و اختاروه،لعلموا أنّهم فى الوهن و الضعف كما هى الحال فى بيت العنكبوت من الوهن!.

أمّا الآيه التاليه ففيها تهديد لهؤلاء المشركين الغفله الجهله..إذ تقول: إِنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ مٰا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ! و لا يخفى على اللّه شركهم الظاهر و لا شركهم الخفى وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ على الإطلاق! و إذا أمهلهم،فليس بسبب العجز و الضعف،أو عدم العلم،أو أن قدرته محدوده،بل كل ذلك من حكمته التى توجب أن يمنحوا الفرصه الكافيه لتتم الحجه البالغه للّه عليهم،فيهتدى من هو جدير بالهدى!.

قال بعض المفسّرين:إن هذه الجمله إشاره إلى حجج المشركين و إلى ادّعائهم أنّهم فى عبادتهم للأصنام لا يريدون بها الأصنام ذاتها،بل إنّ الأصنام عندهم مطهر و رمز للنجوم السماويه و الأنبياء و الملائكه،فهم-كما يزعمون- يسجدون لأولئك لا للأصنام و خيرهم و شرهم و نفعهم و ضررهم بيدها أيضا.

فالقرآن يبيّن أن اللّه يعلم الأشياء التى تدعونها-كائنا من كان، و أى شىء كان-فكل أولئك المعبودين إزاء قدرته كمثل بيت العنكبوت،و لا يملكون لأنفسهم شيئا كى يعطوه لكم.، و الآيه الثّالثه-من الآيات محل البحث-لعلها تشير إلى ما استشكله أعداء الإسلام على النّبى صلّى اللّه عليه و آله فى هذه الأمثله التى ضربها اللّه،و كانوا يقولون:اللّه الذى خلق السماوات و الأرض كيف يضرب الأمثال بالعنكبوت و الذباب و الحشرات و ما شاكلها؟ فيردّ القرآن بقوله: وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنّاسِ وَ ما يَعْقِلُها إِلاَّ الْعالِمُونَ .

إنّ أهميّه المثال و ظرافته لا تكمن فى كبره و صغره،بل تظهر أهميته فى انطباق المثال على المقصود،فقد يكون صغر الشىء الممثل به أكبر نقطه فى قوته.

قالوا فى ضرب الأمثال:ينبغى عند الكلام عن الأشياء الضعيفه و التى فيها وهن أن يمثل لها فى ما لو اعتمد عليها ببيت العنكبوت،فهو أحسن شىء ينتخب لهذا الوهن و عدم الثبات،فهذا المثال هو الفصاحه بعينها و البلاغه ذاتها،و لذا قيل:

إنّه لا يعلم دقائق أمثله القرآن و لا يدركها إلاّ العلماء!.

و فى آخر آيه-من الآيات محل البحث-يضيف القرآن الكريم: خَلَقَ اللّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَهً لِلْمُؤْمِنِينَ .ليس فى عمل اللّه باطل أو عبث...فإذا التشبيه بالعنكبوت و بيته الخاوى هو أمر محسوب بدقّه.و إذا ما اختار موجودا صغيرا للتمثيل به فهو لبيان الحقّ،و إلاّ فهو خالق أعظم المجرّات و المنظومات الشمسيّه و غيرها.

و من الطريف-هنا-أن نهايه هذه الآيات تنتهى بالعلم و الإيمان،ففى مكان يقول القرآن: لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ و فى مكان آخر يقول: وَ ما يَعْقِلُها إِلاَّ الْعالِمُونَ و فى الآيه التى نحن فى صددها يقول: إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَهً لِلْمُؤْمِنِينَ .

و هی إشاره إلی أن وجه الحق مشرق جلی دائما و لکنّه یثمر فی الموارد المستعده...فی قلب مطّلع باحث،و عقل یقظ مذعن للحق...و إذا کان هؤلاء الذین عمیت قلوبهم لا یرون جمال الحق،فلیس ذلک لخفائه،بل لعماهم! و ضلالهم!.

ص :۳۹۸

الآیه [سوره العنکبوت (۲۹): آیه ۴۵]

اشاره

اُتْلُ مٰا أُوحِیَ إِلَیْکَ مِنَ اَلْکِتٰابِ وَ أَقِمِ اَلصَّلاٰهَ إِنَّ اَلصَّلاٰهَ تَنْهیٰ عَنِ اَلْفَحْشٰاءِ وَ اَلْمُنْکَرِ وَ لَذِکْرُ اَللّٰهِ أَکْبَرُ وَ اَللّٰهُ یَعْلَمُ مٰا تَصْنَعُونَ (۴۵)

التّفسیر

اشاره

إن الصلاه تنهی عن الفحشاء و المنکر:

بعد الفراغ من بیان أقسام مختلفه من قصص الأمم السابقه و أنبیائهم العظام و ما عاملهم به قومهم من معامله سیئه مذمومه،و بیان نهایه هؤلاء الظالمین الالیمه،یتوجه الخطاب-علی سبیل تسلیه الخاطر،و تقویه الروحیه،و إراءه الخط الکلّی أو الخطوط العامه-للنبیّ صلّی اللّه علیه و آله و یأمره بما ینبغی علیه أن یفعل.

فیبدأ أوّلا بقوله: اُتْلُ مٰا أُوحِیَ إِلَیْکَ مِنَ الْکِتٰابِ ...أی اقرأ هذه الآیات فسوف تجد فیها ما تبتغیه و تطلبه من العلم و الحکمه و النصح،و معیار معرفه الحق من الباطل،و سبل تنویر القلب و الروح،و مسیر حرکه کل طائفه،أو مجموعه و اتجاهها!.

اقرأ..و امض علی نهجها فی حیاتک،اقرأها و استلهم منها...اقرأها و نوّر قلبک بتلاوتها.

و بعد بیان هذا الأمر الذی یحمل-فی الحقیقه-طابعا تعلیمیا،یأتی الأمر

الثّانى الذى هو محور أصيل للتربيه فيقول تعالى: وَ أَقِمِ الصَّلاٰهَ.. .

ثمّ يبيّن فلسفه الصلاه الكبرى فيقول: إِنَّ الصَّلاٰهَ تَنْهىٰ عَنِ الْفَحْشٰاءِ وَ الْمُنْكَرِ (۱) .

طبيعه الصلاه-حيث أنّها تذكر بأقوى رادع للنفس،و هو الاعتقاد بالمبدأ و المعاد-فإنّها تردع عن الفحشاء و المنكر،فالإنسان الذى يقف للصلاه،و يكبّر، يرى اللّه أعلى من كل شىء و أسمى من كل شىء،و يتذكر نعمه فيحمده و يشكره، و يثنى عليه و ينعته بأنّه رحمان رحيم،و يذكر يوم الجزاء«يوم الدين»و يعترف بالعبوديه له،و يطلب منه العون،و يستهديه الصراط المستقيم،و يتعوذ به من طريق المغضوب عليهم،و يلتجئ إليه(مضمون سوره الحمد).

فلا شك أنّ قلب مثل هذا الإنسان و روحه سوف تدبّ فيها حركه نحو الحقّ، و اندفاع نحو الطهاره،و نهوض نحو التقوى.

يركع للّه..و يضع جبهته على الأرض ساجدا لحضرته،و يغرق فى عظمته، و ينسى أنانيته و ذاتيّاته جميعا.

و يشهد بوحدانيته و برساله النّبى صلّى اللّه عليه و آله.

و يصلى و يسلم على نبيّه،و يرفع يديه متضرعا بالدعاء ليجعله فى زمره عباده الصالحين.

جميع هذه الأمور تمنح وجوده موجا من المعنويه،و تكون سدا منيعا بوجه الذنوب.

و يتكرر هذا العمل عده مرّات«ليل نهار»فحين ينهض صباحا يقف بين يدى ربّه و خالقه ليناجيه...

۱- ۱) -بيّنا الفرق بين الفحشاء و المنكر فى تفسير الآيه(۹۰)من سوره النحل فى عباره موجزه،و قلنا:إنّه يمكن التفريق بينهما بأن الفحشاء هى إشاره للذنوب الكبيره الخفيه،و أمّا المنكر فهو الذنوب الكبيره الظاهره،أو أن الفحشاء هى الذنوب التى تنتج بغلبه القوى الشهوانيه،و المنكر من أثر القوى الغضبيه.

و عند منتصف النهار و بينما هو غارق فی حیاته المادیه یفاجأ بصوت تکبیر المؤذن،فیقطع عمله و یسرع إلی حضرته،بل فی آخر النهار بدایه اللیل أیضا و قبل أن یدلف إلی فراش الدعه و الراحه،یدعوه و یطلب منه حاجته،و یجعل قلبه مرکز أنواره.

و بغض النظر عن کل ما تقدم فإنّ الإنسان حین یتهیأ لمقدمات الصلاه،یطهّر بدنه و یبعد عنه مسائل الحرام و الغصب،و یتجه إلی الحبیب،فکلّ هذه الأمور لها تأثیر رادع لنوازع الفحشاء و المنکر.

غایه ما فی الأمر أنّ کل صلاه-بحسب شروط الکمال و روح العباده لها- أثر رادع ناه عن الفحشاء و المنکر،فتاره تنهی نهیا کلیّا و أخری جزئیا..

و محدودا.

و لا یمکن لأحد أن یصلی و لا تدع الصلاه فیه أثرا حتی لو کانت الصلاه صوریه،و حتی لو کان ملوّثا بالذنب!و بالطبع فإنّ مثل هذه الصلاه قلیله الفائده و مثل هؤلاء الأفراد لو لم یصلّوا صلاه کهذه لکانوا أسوأ ممّا هم علیه.

و لنوضّح أکثر فنقول:النهی عن الفحشاء و المنکر له سلسله درجات و مراتب کثیره،و کل صلاه مع رعایه الشروط لها نسبه من هذه الدرجات.

و ممّا بیّناه آنفا یتّضح أن تخبط بعض المفسّرین فی تفسیر هذه الآیه، و انتخاب تفسیرات غیر مناسبه لا وجه له!و ربّما فسّروها بتفسیر غیر مناسب، لأنّهم رأوا بعض الناس یصلون و یرتکبون الذنوب،ففسّروا الآیه فی معناها المطلق دون سلسله المراتب،و أخذوا یشکّون و یترددون،فاختاروا طرقا أخری فی تفسیر الآیه.

فمنها ما قاله بعضهم:من أنّ الصلاه تنهی عن الفحشاء و المنکر ما دام الإنسان مشغولا بها.و هذا کلام عجیب،إذ لا تتمیز الصلاه بهذا وحدها،فکثیر من الأعمال علی هذه الشاکله.

و قال بعضهم:إنّ أعمال الصلاه و أذكارها بمثابه عبارات و جمل،كل جمله تنهى الإنسان عن الفحشاء و المنكر،فمثلا كل من التكبير و التهليل و التسبيح..كلّ منها يقول للإنسان:لا تذنب و لكن هل أنّ هذا الإنسان يصغى لهذا النهى أم لا...

فهذا أمر آخر.

و لكن من ذهب الى هذا التّفسير،غفل عن هذه الحقيقه،و هى أن النهى هنا ليس نهيا تشريعيا فحسب،بل هو نهى تكوينى،فظاهر الآيه أنّ الصلاه لها أثر ناه، و التّفسير الأصيل هو ما قدمناه ذكره و بيانه آنفا.

و بالطبع فلا مانع من القول أنّ الصلاه تنهى عن الفحشاء و المنكر نهيا تكوينيا و نهيا تشريعيا أيضا.

«أحاديث»ينبغى الالتفات إليها

۱-

فى حديث عن النّبى الأكرم محمّد صلّى اللّه عليه و آله ورد أنّه قال: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء و المنكر لم يزدد من اللّه إلّا بعدا». (۱)

۲-و

فى حديث آخر عنه صلّى اللّه عليه و آله أيضا: «لا صلاه لمن لم يطع الصلاه،و طاعه الصلاه أن ينتهى عن الفحشاء و المنكر» . (۲)

۳-كما نقرأ

فى حديث ثالث عنه صلّى اللّه عليه و آله أنّ شابا من الأنصار أدّى الصلاه معه، و لكنّه كان ملوثا بالذنوب القبيحه،فأخبروا النّبى صلّى اللّه عليه و آله فقال:«إن صلاته تنهاه يوما» (۳) .

۴-هذا الأثر للصلاه له أهميه قصوى إلى درجه أنّنا نجده فى الرّوايات الإسلاميه معيارا لقبول الصلاه و عدمها،إذ

ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال:

۱- ۱) -مجمع البيان ذيل الآيه مح البحث«و الحديث الثّانى يشعر بالنهى التشريعى».

۲- ۲) -المصدر السابق.

۳- ۳) -المصدر السابق.

«من أحبّ أن يعلم أقبلت صلاته أم لم تقبل،فلينظر هل منعت صلاته عن الفحشاء و المنكر؟!فبقدر ما منعته قبلت منه!» (۱) .

و يقول القرآن تعقيبا على ما ذكره و من شأن الصلاه وَ لَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ .

و ظاهر الجمله هو بيان غايه و حكمه أخرى فى الصلاه،أى أن أثرا آخر من آثار الصلاه و بركاتها أهم من كونها تنهى عن الفحشاء و المنكر هو تذكير الإنسان بربّه،هذا الذكر هو أساس السعاده و الخير،بل العامل الأصلى للنهى عن الفحشاء و المنكر أيضا هو ذكر اللّه،و كونه أكبر لأنّه العلّه و الأساس للصلاه!.

و أساسا...فإنّ ذكر اللّه فيه حياه القلوب و دعتها،و لا شيء يبلغ مبلغه أَلاٰ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (۲) .

و لا ريب أنّ روح العباده بجميع أقسامها-صلاه كانت أم غيرها-هو ذكر اللّه،فأذكار الصلاه،و أفعالها و مقدماتها،جميعها فى الواقع تحيى ذكر اللّه فى قلب الإنسان.! و ممّا يلفت النظر أن فى الآيه(۱۴)من سوره طه إشاره إلى هذه الحكمه الأساسيه من الصلاه،إذ نلاحظ فيها الخطاب لموسى قائلا: وَ أَقِمِ الصَّلاٰهَ لِذِكْرِی .

إلاّ أنّ المفسّرين الكبار ذكروا للجمله المتقدمه تفسيرات أخرى،و قد ورد فى الرّوايات الإسلاميه إشاره إليها أيضا...من ضمنها:إنّ المراد من الجمله المتقدمه،أن ذكر اللّه لكم برحمته أكبر من ذكركم للّه بطاعته (۳) .

و منها:إنّ ذكر اللّه أكبر من الصلاه و أعلى،لأنّ روح كل عباده«ذكر اللّه».

و هذا التّفاسير التى ورد بعضها فى الرّوايات الإسلاميه،ربّما كانت إشاره إلى

۱- ۱) -المصدر السابق.

۲- ۲) -الرعد،الآيه ۲۸.

۳- ۳) -على ضوء هذا التّفسير يكون لفظ الجلاله«اللّه»فاعلا فى المعنى،و على التّفسير السابق يكون مفعولا.

بطون الآيه،و إلاّ ـ فإنّ ظاهرها منسجم مع المعنى الأوّل،لأنّه فى أغلب الموارد التى يرد التعبير فيها ب«ذكر اللّه»أو«ذكروا اللّه»أو«اذكروا اللّه»...إلخ،يقصد بها ذكر الناس للّه! و الآيه المذكوره آنفا،يتداعى لها هذا المعنى،إلاّ أنّ ذكر اللّه لعباده يمكن أن يكون نتيجه مباشره لذكر العباد للّه،و بهذا يرتفع التضاد بين المعنيين.

فى حديث عن معاذ بن جبل أنّه قال:لا شىء من أعمال ابن آدم لنجاته من عذاب اللّه أكبر من ذكر اللّه،فسألوه:حتى الجهاد فى سبيل اللّه؟!فقال:أجل،فاللّه يقول: وَ لَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ .

و الظاهر أنّ«معاذ بن جبل»سمع هذا الكلام من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله:لأنّه نفسه ينقل إنّه سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:أىّ الأعمال أفضل؟

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أن تموت و لسانك رطب من ذكر اللّه».

و حيث أنّ نيّات الناس،و ميزان حضور القلب منهم فى الصلاه و سائر العبادات،كل ذلك متفاوت جدّا،فإنّ الآيه تختتم بالقول: وَ اللّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ .

أى يعلم ما تصنعون من أعمال فى الخفاء أو العلن،و النيّات التى فى قلوبكم أو الكلمات التى تجرى على ألسنتكم!.

بحث

اشاره

تأثير الصلاه فى تربيه الفرد و المجتمع:

بالرغم من أن فائده الصلاه لا تخفى على أحد،لكن التدقيق فى متون الروايات الإسلاميه يدلنا على لطائف و دقائق أكثر فى هذا المجال!.

۱-إنّ روح الصلاه و أساسها و هدفها و مقدمتها و نتيجتها...و أخيرا حكمتها

و فلسفتها (۱) ،هی ذکر اللّه،کما بیّنت فی الآیه علی أنّها أکبر النتائج.

و بـالطبع فـإنّ الـذکر المراد هنـا،هو الـذکر الـذی یکون مقـدمه للفکر،و الفکر الـذی یکون باعثا علی العمل،کما ورد عن الإمام الصادق علیه السّلام فی تفسیر جمله وَ لَذِکْرُ اللّهِ أَکْبَرُ قال:«ذکر اللّه عنـد ما أحلّ و حرّم»أی علی أن یتـذکر اللّه فیتبع الحلال و یغضی أجفانه عن الحرام«بحار الأنوار،ج ۸۲،ص ۲۰۰».

۲-إنّ الصـلاه وسیله لغسل الذنوب و التطهر منها،و ذریعه إلی مغفره اللّه،لأنّ الصلاه-کیف ما کانت-تدعوا الإنسان إلی التوبه و إصلاح الماضی،و لذلک فإننا نقرأ فی حدیث عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله إذ سأل بعض أصحابه:

«لـو کـان علی بـاب دار أحـدکم نهر و اغتسـل فی کـل یـوم منـه خمس مرات أ کـان یبقی فی جسـده مـن الـدرن شـیء؟!قلت لا،قال:فإنّ مثل الصلاه کمثل النهر الجاری کلما صلّی کفرت ما بینهما من الذنوب» (۲) .

و علی هـذا فـإنّ الجراح التی تخلفها الـذنوب فی روح الإنسان،و تکون غشاوه علی قلبه،تلتئم بضـماد الصـلاه و ینجلی بها صـدأ القلوب! ۳-إنّ الصـلوات سـدّ أمـام الـذنوب المقبله،لأنّ الصـلاه تقوی روح الإیمان فی الإنسان،و تربّی شـجیره التقوی فی قلب الإنسان،و نحن نعرف أن الإیمان و التقوی هما أقوی سدّ أمام الذنوب،و هذا هو ما بیّنته الآیه المتقدمه عنوان «النهی عن الفحشاء و المنکر»،و مـا نقرؤه فی أحـادیث متعـدده من أن أفرادا کانوا مـذنبین،فـذکر حالهم لأئمّه الإسـلام فقالوا:لا تکترثوا فإنّ الصـلاه تصلح شأنهم...

و قد أصلحتهم.

۴-إن الصـلاه توقـظ الإنسـان من الغفله،و أعظم مصـیبه علی السائرین فی طریق الحقّ أن ینسوا الهـدف من إیجادهم و خلقهم،و یغرقوا فی الحیاه المادیه

ص :۴۰۵

۱- ۱) -«الفلسفه»کلمه یونانیه معناها«الحکمه»فهی لیست عربیه لکنّها شاعت فی العربیه أیضا.

۲- ۲) -وسائل الشیعه،ج ۳،ص ۷(الباب الثّانی من أبواب أعداد الفرائض الحدیث ۳).

و لذائذها العابره! إلّا أنّ الصلاه بما أنّها تؤدى فى أوقات مختلفه،و فى كل يوم و ليله خمس مرات،فإنّها تخطر الإنسان و تنذره،و تبيّن له الهدف من خلقه،و تنبهه إلى مكانته و موقعه فى العالم بشكل رتيب،و هذه نعمه كبرى للإنسان بحيث أنّها فى كل يوم و ليله تحثه و تقول له:كن يقظا.

۵-إنّ الصلاه تحطّم الأنانيه و الكبر،لأنّ الإنسان فى كلّ يوم و ليله يصلى سبع عشره ركعه،و فى كل ركعه يضع جبهته على التراب تواضعا للّه،و يرى نفسه ذره صغيره أمام عظمه الخالق،بل يرى نفسه صفرا بالنسبه إلى ما لا نهايه له!.

و لأمير المؤمنين على عليه السّلام كلام معروف تتجسد فيه،فلسفه العبادات الإسلاميه بعد الإيمان باللّه،فبيّن أوّل العبادات و هى الصلاه مقرونه بهذا الهدف إذ

قال: «فرض اللّه الإيمان تطهيرا من الشرك،و الصلاه تنزيها عن الكبر» (۱) .

۶-الصلاه وسيله لتربيه الفضائل الخلقيه و التكامل المعنوى للإنسان،لأنّها تخرج الإنسان عن العالم المحدود و تدعوه إلى ملكوت السماوات،و تجعله مشاركا للملائكه بصوته و دعائه و ابتهاله،فيرى نفسه غير محتاج إلى واسطه إلى اللّه أو أن هناك«حاجبا»يمنعه...فيتحدث مع ربّه و يناجيه!.

إن تكرار هذا العمل فى اليوم و الليله-و بالاعتماد على صفات اللّه الرحمن الرحيم العظيم،خاصه بالاستعانه بسور القرآن المختلفه بعد سوره الحمد التى هى خير محفّز للصالحات،و الطهاره-له الأثر فى تربيه الفضائل الخلقيه فى وجود الإنسان! لذلك نقرأ فى تعبير الإمام على أمير المؤمنين عليه السّلام عن حكمتها

قوله: «الصلاه قربان كل تقىّ!» (۲) .

۱- ۱) -نهج البلاغه،الكلمات القصار ۲۵۲.

۲- ۲) -نهج البلاغه،الكلمات القصار،الجمله ۱۳۶.

۷-إن الصلاه تعطی القیمه و الروح لسائر أعمال الإنسان؛لأنّ الصلاه توقظ فی الإنسان روح الإخلاص...فهی مجموعه من النیه الخالصه و الکلام الطاهر «الطیب»و الأعمال الخالصه...و تکرار هذه المجموعه فی الیوم و اللیله ینثر فی روح الإنسان بذور سائر الأعمال الصالحه و یقوّی فیه روح الإخلاص.

لذلک فإنّنا نقرأ فی بعض ما

روی عن أمیر المؤمنین علیه السّلام فی ضمن وصایاه المعروفه بعد أن ضربه ابن ملجم بالسیف ففلق هامته،أنّه قال:«اللّه اللّه فی صلاتکم فإنها عمود دینکم» (۱) .

و نعرف أنّ عمود الخیمه إذا انکسر أو هوی،فلا أثر للأوتاد و الطنب مهما کانت محکمه...فکذلک ارتباط عباد اللّه به عن طریق الصلاه،فلو ذهبت لم یبق لأی عمل آخر أثر.

و نقرأ

عن الإمام الصادق علیه السّلام قوله: «أوّل ما یحاسب به العبد الصلاه،فإن قبلت قبل سائر عمله،و إن ردّت ردّ سائر عمله!».

و لعل الدلیل علی هذا الحدیث هو أن الصلاه رمز للعلاقه و الارتباط بین الخالق و المخلوق!فإذا ما أدّیت بشکل صحیح،و کان فیها قصد القربه و الإخلاص«حیّا»کان وسیله القبول لسائر الأعمال،و إلاّ فإنّ بقیه أعماله تکون مشوبه و ملوّثه و ساقطه من درجه الاعتبار.

۸-إنّ الصلاه-بقطع النظر-عن محتواها،و مع الالتفات إلی شرائط صحتها، فإنّها تدعوا إلی تطهیر الحیاه!لأنّنا نعلم أن مکان المصلی،و لباس المصلی، و بساطه الذی یصلی علیه،و الماء الذی یتوضأ به أو یغتسل منه،و المکان الذی یتطهر فیه«وضوء أو غسلا»ینبغی أن یکون طاهرا من کل أنواع الغصب و التجاوز علی حقوق الآخرین.فإنّ من کان ملوّثا بالظلم و الغصب و البخس فی المیزان و البیع و آکلا للرشوه و یکتسب أمواله من الحرام...کیف یمکن له أن یهیء

۱- ۱) -نهج البلاغه،و من کتاب له«وصیه له»۴۷.

مقدمات الصلاه!؟فعلى هذا فإنّ تكرار الصلاه خمس مرات فى اليوم و الليله- هو نفسه-دعوه إلى رعايه حقوق الآخرين! ۹-إنّ للصلاه-بالإضافه إلى شرائط صحتها-شرائط لقبولها،أو بتعبير آخر:

شرائط لكمالها،و رعايتها-أيضا-عامل مؤثر و مهم لترك كثير من الذنوب!.

و قد ورد فى كتب الفقه و مصادر الحديث روايات كثيره تحت عنوان موانع قبول الصلاه،و منها«شرب الخمر»إذ

جاء فى بعض الرّوايات: لا تقبل صلاه شارب الخمر أربعين يوما إلّا أن يتوب (۱) .

كما نقرأ فى روايات متعدده أنّ من جمله«من لا تقبل صلاته«الإمام الظالم» (۲) .

كما صرّح فى بعض الرّوايات بأنّ الصلاه لا تقبل من«مانع الزكاه».

كما أنّ هناك بعض الرّوايات تقول:«إنّ الصلاه لا تقبل ممن يأكل السحت و الحرام،و لا ممن يأخذه العجب و الغرور»و هكذا تتّضح الحكمه و الفائده الكبيره من وجود هذه الشروط.

۱۰-إنّ الصلاه تقوى فى الإنسان روح الانضباط و الالتزام،لأنّها ينبغى أن تؤدى فى أوقات معينه،لأنّ تأخيرها عن وقتها أو تقديمها عليه موجب لبطلانها.

و كذلك الآداب و الأحكام الأخرى فى موارد النيه و القيام و الركوع و السجود و ما شابهها،إذ أن رعايتها تجعل الاستجابه للالتزام فى مناهج الحياه ممكنا و سهلا.

كل هذه من فوائد الصلاه-بغض النظر عن صلاه الجماعه-و إذا أضفنا إليها خصوصيه الجماعه،حيث أنّ روح الصلاه هى الجماعه،ففيها بركات لا تحصى و لا تعدّ،و لا مجال هنا لشرحها و بيانها،مضافا الى أن الجميع يدرك خيراتها و فوائدها على الإجمال.

۱- ۱) -بحار الأنوار،ج ۸۴ص ۳۱۷ و ۳۲۰.

۲- ۲) -بحار الأنوار،ج ۸۴ ص ۳۱۸.

و نختم كلامنا فى مجال حكمه الصلاه و فلسفتها و أسرارها بحديث جامع منقول عن الإمام الرضا عليه السّلام إذ سئل عنها فأجاب بما يلى:

«إن عله الصلاه أنّها إقرار بالربوبيه للّه عزّ و جلّ،و خلع الأنداد،و قيام بين يدى الجبار جل جلاله بالذل و المسكنه و الخضوع و الاعتراف،و الطلب للإقاله من سالف الذنوب،و وضع الوجه على الأرض كل يوم إعظاما للّه عزّ و جلّ و أن يكون ذاكرا غير ناس و لا بطر، و يكون خاشعا متذللا،راغبا طالبا للزياده فى الدين و الدنيا مع ما فيه من الإيجاب و المداومه على ذكر اللّه عزّ و جلّ بالليل و النهار،لئلا ينسى العبد سيده و مديره و خالقه فيبطر و يطغى،و يكون فى ذكره لربّه و قيامه بين يديه زاجرا له عن المعاصى و مانعا له عن أنواع الفساد». (۱)

ص :۴۰۹

۱- ۱) -وسائل الشيعه،ج ۳،ص ۴.

بدایه الجزء الحادی و العشرون من القرآن الکریم و یبدأ من بدایه الآیه ست و أربعون سوره العنکبوت

ص :۴۱۱

الآيات [سوره العنكبوت (۲۹): الآيات ۴۶ الى ۴۹]

اشاره

وَ لاٰ تُجٰادِلُوا أَهْلَ اَلْكِتٰابِ إِلاّٰ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ اَلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَ قُولُوا آمَنّٰا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنٰا وَ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ إِلٰهُنٰا وَ إِلٰهُكُمْ وٰاحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (۴۶) وَ كَذٰلِكَ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ اَلْكِتٰابَ فَالَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ اَلْكِتٰابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مِنْ هٰؤُلاٰءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مٰا يَجْحَدُ بِآيٰاتِنٰا إِلاَّ اَلْكٰافِرُونَ (۴۷) وَ مٰا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتٰابٍ وَ لاٰ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَرْتٰابَ اَلْمُبْطِلُونَ (۴۸) بَلْ هُوَ آيٰاتٌ بَيِّنٰاتٌ فِي صُدُورِ اَلَّذِينَ أُوتُوا اَلْعِلْمَ وَ مٰا يَجْحَدُ بِآيٰاتِنٰا إِلاَّ اَلظّٰالِمُونَ (۴۹)

التّفسير

اشاره

اتّبعوا أحسن الأساليب فى البحث و الجدال:

كان أكثر الكلام فى الآيات المتقدمه فى كيفيه التعامل مع المشركين المعاندين و كان مقتضى الحال أن يكون الكلام شديد اللهجه حادّا،و أن يعدّ ما يعبدون من دون اللّه أوهى من بيت العنكبوت،أمّا فى هذه الآيات-محل البحث- فيقع الكلام فى شأن مجادله أهل الكتاب الذين ينبغى أن يكون الكلام معهم لطيفا،إذ أنّهم-على الأقل-قد سمعوا قسما ممّا جاء به الأنبياء و الكتب

السماويه،و لديهم استعداد أكثر للتعامل المنطقى،إذ ينبغى أن يكلم كل شخص بمقدار علمه و عقله و أخلاقه.

فيقول القرآن فى هذا الصدد: لاٰ تُجٰادِلُوا أَهْلَ الْكِتٰابِ إِلاّٰ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ (۱) .

«تجادلوا»مشتق من«جدال»و معناه فى الأصل فتل الحبل و إحكامه،كما تستعمل هذه المفرده فى البناء المحكم و ما أشبهه،و حين يتناقش اثنان فى بحث معين فكل واحد منهما-فى الحقيقه-يريد أن يلوى صاحبه عن عقيدته و فكرته..لذا فقد سمّى هذا النقاش جدالا.كما يرد هذا التعبير فى النزاع أيضا، و على كل حال فإنّه المراد من قوله وَ لاٰ تُجٰادِلُوا المناقشات المنطقيه.

و التعبير ب بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ تعبير جامع يشمل الأساليب و الطرق الصحيحه و المناسبه للتباحث أجمع،سواء كان ذلك فى الألفاظ أو المحتوى، و سواء كان فى طريقه الكلام،أو الحركات و الإشارات المصاحبه له.

فعلى هذا يكون مفهوم الجمله المتقدمه:إنّ ألفاظكم ينبغى أن تكون بطريقه مؤدبه،و الكلام ذا مودّه،و المحتوى مستدلا،و صوتكم هادئا غير خشن،و لا متجاوزا لحدود الأخلاق أو لهتك الحرمه،و كذلك بالنسبه لحركات الأيدى و العيون و الحواجب التى تكمل البيان،ينبغى أن تكون هذه الحركات ضمن هذه الطريقه المؤدبه...و كم هو جميل هذا التعبير القرآنى،إذ أوجز عالما من المعانى الدقيقه فى جمله قصيره.

كل هذه الأمور لأجل أن الهدف من وراء النقاش و البحث ليس هو طلب التفوق و دحر الطرف الآخر،بل الهدف أن يكون الكلام حتى ينفذ فى القلب و فى أعماق الطرف الآخر...و خير السبل للوصول إلى هذا الهدف هو هذا الأسلوب القرآنى.

۱- ۱) -«التى»هنا صفه لموصوف محذوف تقديره الطريقه أو ما شاكلها...

و كثيرا ما يتفق أنّه لو استطاع الإنسان أن يبيّن قول الحق بصوره يراه الطرف الآخر متطابقا لفكره و رأيه،فسرعان ما ينعطف إليه و ينسجم معه،لأنّ الإنسان ذو علاقه بفكره كعلاقته بأبنائه.

و هكذا فإنّ القرآن الكريم يثير الكثير من المسائل على صوره«السؤال و الاستفهام»لينتزع جوابه من داخل فكر المخاطب فيراه منه! و بالطبع فإنّ لكل قانون استثناء،و منها هذا القانون أو الأصل الكلى فى البحث و المجادله الإسلاميه،فقد يعدّ فى بعض الموارد ضعفا،أو يكون الطرف الآخر مغرورا الى درجه أن هذا التعامل الإنسانى يزيده جرأه و عدوانا و تكبرا، لذلك فإنّ القرآن يضيف مستثنيا: إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ .

و هم الذين ظلموا أنفسهم و ظلموا الآخرين،و كتموا كثيرا من الآيات،لئلا يطلع الناس على أوصاف النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله.

الظالمون الذين جعلوا أوامر اللّه التى لا تنسجم مع منافعهم الشخصيه تحت أقدامهم.

الظالمون الذين آمنوا بالخرافات فكانوا كالمشركين فى عقيدتهم إذ قالوا:

إن المسيح ابن اللّه،أو العزير ابن اللّه.

و أخيرا فهم أولئك الذين ظلموا و تذرعوا بالسيف و القوّه بدلا من البحث المنطقى،و توسّلوا بالشيطنه و التآمر على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و على الإسلام.

و يختتم الآيه بمصداق بارز من«المجادله بالتى هى أحسن»و يمكنه أن يكون قدوه لأى بحث؛فيقول القرآن الكريم: وَ قُولُوا آمَنّا بِالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ إِلهُنا وَ إِلهُكُمْ واحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .

كم هو جميل هذا التعبير!و كم هو رائع هذا النغم و اللهجه!لهجه الوحده و الإيمان بكل ما أنزل اللّه الواحد،و حذف جميع العصبيّات،و نحن و أنتم جميعا موحدون للّه مسلمون له.

و هـذا مثل واحـد من المجادله بالتی هی أحسن التی ینجذب إلیها کل من یسـمعها،و یدلّ علی أن الإنسان یجب أن یکون بعیدا عن التحزب أو طلب التفرقه،فنداء الإسلام هو نداء الوحده و التسلیم لکل کلام حق.

و أمثله هذا البحث کثیره فی القرآن،و من ضمنها ما أشار إلیه

الإمام الصـادق علیه السّـلام إذ قـال: «أمّـا الجـدال بـالتی هی أحسن فهو ما أمر اللّه تعالی نبیّه أن یجادل به من جحـد البعث بعد الموت و إحیـاءه له،فقـال اللّه حاکیـا عنه:قـل(یـا محمّـد)» یُحْیِیهَا الَّذِی أَنْشَأَهٰا أَوَّلَ مَرَّهٍ وَ هُوَ بِکُلِّ خَلْقٍ عَلِیمٌ الَّذِی جَعَلَ لَکُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نٰاراً فَإِذٰا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (1) .

و الآیه الأخری تؤکّد علی الأصول الأربعه التی سبق ذکرها فی الآیه المتقدمه،فتقول: وَ کَذٰلِکَ أَنْزَلْنٰا إِلَیْکَ الْکِتٰابَ أی القرآن.

أجل...نزل هذا القرآن علی أساس توحید المعبود،و توحید دعوه جمیع الأنبیاء إلی الحق،و التسلیم دون قید أو شـرط لأمر اللّه؛و المجادله بالتی هی أحسن!.

قال بعض المفسّـرین:إنّ المراد من جمله وَ کَذٰلِکَ أَنْزَلْنٰا إِلَیْکَ الْکِتٰابَ هو تشبیه نزول القرآن علی النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله أی کما أنزلنا کتبا من السماء علی الأنبیاء الماضین،فکذلک أنزلنا إلیک الکتاب!.

إلاّ أنّ التّفسیر السابق یبدو أکثر دقّه،و إن کان الجمع بین التّفسیرین ممکنا أیضا.

ثمّ یضـیف القرآن الکریم: فَالَّذِینَ آتَیْنٰاهُمُ الْکِتٰابَ یُؤْمِنُونَ بِهِ و یعتقـدون بصـدقه..إذ أنّهم وجـدوا علائمه فی کتبهم،کمـا أن محتواه من حیث الأصول العامّه و الکلیه منسجم مع کتبهم!.

و من المعلوم أن جمیع أهل الکتاب(الیهود و النصاری)لم یؤمنوا بنبوّه

1- 1) -تفسیر نور الثقلین،ج 4،ص 163.

محمّد صلّى اللّه عليه و آله«نبى الإسلام» فتكون هذه الجمله فى خصوص تلك الجماعه المؤمنه منهم،و التى تبتغى الحق دون تعصب،فتكون جديره أن يطلق عليها«أهل الكتاب».

و يضيف القرآن بعدئذ: وَ مِنْ هٰؤُلاٰءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ (۱) أى أهل مكّه و المشركون العرب.

ثمّ يقول القرآن فى كفر الطائفتين من اليهود و النصارى وَ مٰا يَجْحَدُ بِآيٰاتِنٰا إِلاَّ الْكٰافِرُونَ .

و مع الالتفات إلى أنّ مفهوم الجحود،هو أن يعتقد الإنسان بشىء بقلبه و ينكره بلسانه،فإنّ مفهوم الجمله المتقدمه أن الكفار يعترفون فى قلوبهم بعظمه هذه الآيات،و يرون علامات الصدق عليها،و منهج النّبى و طريقته و حياته النقيه، و أن أتباعه هم المخلصون،و يعدّون كل ذلك دليلا على أصالته،إلاّ أنّهم ينكرون ذلك عنادا و تعصبا،و تقليدا أعمى لأسلافهم و لآبائهم،و لحفظ منافعهم الشخصيه.

و على هذا فإنّ القرآن يحدد مواقف الأمم المختلفه إزاء هذا الكتاب و يصنفهم إلى قسمين:

فقسم هم أهل الإيمان،سواء من علماء اليهود و النصارى،أو المؤمنين بصدق،أو المشركين العطاشى إلى الحقّ الذين عرفوا الحق فتعلقت قلوبهم به.

و قسم آخر هم المنكرون المعاندون،الذين رأوا الحق إلاّ أنّهم أنكروه و أخفوا أنفسهم عنه كالخفاش،لأنّ ظلمه الكفر كانت جزءا من نسيج وجودهم، فهم يستوحشون من نور الإيمان.

۱- ۱) -قال بعض المفسّرين:إنّ جمله«الذين آتيناهم الكتاب»إشاره إلى المسلمين،و جمله «مِنْ هٰؤُلاٰءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ» إشاره إلى أهل الكتاب،إلاّ أنّ هذا التّفسر بعيد-كما يبدو-جدّا لأنّ التعبير ب فَالَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ الْكِتٰابَ و ما شابهه لم يأت فى القرآن-بحسب الظاهر-إلاّ فى خصوص اليهود و النصارى.

و ممّا ینبغی الالتفات إلیه أنّ هذا القسم-أو هذا الطائفه-کانوا کفره من قبل، و لکن التأکید علی کفرهم ممکن أیضا،و ذلک لأنّهم لم تتمّ الحجّه علیهم من قبل، و لکنّهم بعد أن تمّت علیهم الحجّه،فقد أصبحوا کافرین کفرا حقیقتا،و حادوا بعلمهم و اطلاعهم عن الصراط المستقیم،و خطوا فی دروب الضلال!.

ثمّ یضیف القرآن مشیرا إلی علامه أخری من علائم حقانیه دعوه النّبی صلّی اللّه علیه و آله الجلیه و الواضحه،و هی تأکید علی محتوی الآیه السابقه،فیقول: وَ مٰا کُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ کِتٰابٍ وَ لاٰ تَخُطُّهُ بِیَمِینِکَ إِذاً لاَرْتٰابَ الْمُبْطِلُونَ و قالوا إنّ ما جاءنا به هذا النّبی هو حصیله مطالعاته لکتب الماضین.

و معنی هذه الآیه أنّک لم تذهب إلی مدرسه قط،و لم تکتب من قبل کتابا قط، لکنّک باشاره من وحی السماء أصبحت تعرف المسائل أفضل من مائه مدرس!.

کیف یمکن أن یصدق أن شخصا لم یقرأ کتابا و لم یر أستاذا و لا مدرسه،أن یأتی بکتاب یتحدی به جمیع البشر أن یأتوا بمثله،فیعجز جمیعهم عن الإتیان بما طلب.

أ لیس هذا دلیلا علی أن قوّتک تستمدّ من قوه الخالق غیر المحدوده،و أن کتابک وحی السماء ألقاه اللّه إلیک؟! و ینبغی الإشاره إلی أنّه لو سأل سائل:من أین نعرف أن النّبی صلّی اللّه علیه و آله لم یذهب إلی مدرسه قط؟!.

فنجیب أنّه صلّی اللّه علیه و آله قد عاش فی بیئه المثقفون و المتعلمون فیها معدودون و محدودون...حتی قیل أن لیس فی مکّه أکثر من سبعه عشر رجلا یجیدون القراءه و الکتابه،ففی مثل هذا المحیط و هذه البیئه،لو قدّر لأحد أن یمضی إلی المدرسه فیتعلم القراءه و الکتابه،فمن المستحیل أن یکون مجهولا،بل یکون معروفا فی کل مکان.کما یعرف الناس أستاذه و درسه أیضا.

فکیف یمکن لمثل هذا الشخص أن یدعی أنّه نبیّ صادق و مع ذلک یکذب

هذه الکذبه المفضوحه و المکشوفه؟خاصه أن هذه الآیات نزلت فی مکّه،مهد نشأه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و کذلک فی قبال الأعداء الألدّاء الذین لا تخفی علیهم أقل نقطه ضعف!!.

و فی الآیه التالیه علامه أخری أیضا علی حقانیه القرآن،إذ تقول: بَلْ هُوَ آیاتٌ بَیِّناتٌ فِی صُدُورِ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ .

و التعبیر ب«الآیات البینات»کاشف عن هذه الحقیقه و هی أن دلائل حقانیه القرآن تتجلی بنفسها عیانا،و تشرق فی أرجائه،فدلیلها معها.

و فی الحقیقه،إنّها مثل الآیات التکوینیه التی تجعل الإنسان یذعن بحقیقتها عند مطالعتها دون حاجه إلی شیء آخر،هذه الآیات التشریعیه-أیضا-من حیث ظاهرها و محتواها کذلک،إذ هی دلیل علی صدقها.

ثمّ بعد هذا کلّه،فإنّ أتباع هذه الآیات و طلابها المشدوده قلوبهم إلیها هم أولوا العلم و الاطلاع،بالرغم من أن أیدیهم خالیه و أرجلهم حافیه!.

و بتعبیر أوضح:إنّ واحدا من طرق معرفه أصاله مذهب ما دراسه حال المؤمنین به،فإذا کان الجهال المحتالون قد التفوا حول الشخص،فهو أیضا من نسیجهم،و لکن إذا کان من التفّ حول الشخص هم الذین امتلأت صدورهم بأسرار العلوم و هم أوفیاء له،فیکون هذا الأمر دلیلا علی حقانیه ذلک الشخص، و نحن نری أن جماعه من علماء أهل الکتاب،و رجالا متقین أمثال أبی ذر و سلمان و المقداد و عمار بن یاسر،و شخصیه کبیره کعلی بن أبی طالب علیه السّلام،هم حماه هذا المبدأ.

و فی روایات کثیره منقوله عن أهل البیت علیهم السّلام،إنّ المراد بالذین أوتوا العلم هم الأئمّه من أهل البیت علیهم السّلام و طبعا...فلیس هذا المعنی منحصرا فیهم،بل هم المصداق الجلی لهذه الآیه (1) .

1- 1) -هذه الرّوایات وردت فی تفسیر البرهان الجزء الثالث،ص 254 فما بعد بشکل مفصل.

و إذا ما لاحظنا أن بعض الرّوايات تصرّح أنّ المراد من هذه العباره المتقدمه هم الأئمّه عليهم السّلام،فإنّ ذلك فى الحقيقه إشاره إلى المرحله الكامله لعلم القرآن الذى عندهم،و لا يمنع أن يكون للعلماء...بل لعامّه الناس الذين لهم نصيب من الفهم، أن يحظوا بقسط من علوم القرآن أيضا.

كما أنّ هذه الآيه تدلّ ضمنا على أن العلم ليس منحصرا بالكتاب،أو بما يلقيه الأستاذ على تلاميذه...لأنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله-طبقا لصريح الآيات المتقدمه-لم يدرس فى مدرسه و لم يكتب من قبل كتابا...إلاّ أنّه كان خير مصداق للذين «أوتوا العلم».

فإذا فما وراء العلم«الرسمى»الذى نعهده،علم أوسع و أعظم،و هو علم يأتى من قبل اللّه تعالى على شكل نور يقذف فى قلب الإنسان،كما ورد فى الحديث«العلم نور يقذفه اللّه فى قلب من يشاء».و هذا هو جوهر العلم،أمّا ما سواه فهو الصدف و القشر! و تختتم الآيه بقوله تعالى: وَ مٰا يَجْحَدُ بِآيٰاتِنٰا إِلاَّ الظّٰالِمُونَ ...لأنّ دليلها واضح،فالنّبى الأمّىّ الذى لم يقرأ و لم يكتب،هو الذى جاء بها...و العلماء المطلعون هم المؤمنون بها.

ثمّ بعد هذا كلّه،فإنّ الآيات نفسها مجموعه من الآيات البينات«كلمات ذوات محتوى جلى مشرق».

و قد وردت علائمها فى الكتب المتقدمه.

و مع كل هذا ترى هل ينكر هذه الآيات إلاّ الذين ظلموا أنفسهم و ظلموا مجتمعهم«و نكرر أن التعبير ب«بالجحد»يكون فى مورد ما لو أن الإنسان يعتقد بالشىء و ينكره على خلاف ما يعلمه»!.

بحوث

اشاره

۱-الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم..الأمی

صحیح أن القراءه و الکتابه تعدّان-لکل إنسان-کمالا..إلاّ أنّه یتفق أحیانا- و فی ظروف معینه-أن یکون من الکمال فی عدم القراءه و الکتابه...و یصدق هذا الموضوع فی شأن الأنبیاء،و خاصه فی نبوّه خاتم الأنبیاء«محمّد»صلّی اللّه علیه و آله.

إذ یمکن أن یوجد عالم قدیر و فیلسوف مطّلع،فیدّعی النبوّه و یظهر کتابا عنده علی أنّه من السماء،ففی مثل هذه الظروف قد تثار الشکوک و الاحتمالات أو الوساوس فی أنّ هذا الکتاب-أو هذا الدین-هو من عنده لا من السماء!.

إلاّ أنّنا إذا رأینا إنسانا ینهض من بین أمّه متخلفه،و لم یتعلم علی ید أی أستاذ،و لم یقرأ کتابا و لم یکتب ورقه-فیأتی بکتاب عظیم عظمه عالم الوجود، بمحتوی عال جدا...فهنا یمکن معرفه أن هذا الکتاب لیس من نسج فکره و عقله،بل هو وحی السماء و تعلیم إلهی،و یدرک هذا بصوره جیده!.

کما أنّ هناک تأکیدا علی أمیه النّبی صلّی اللّه علیه و آله فی آیات القرآن الأخری،و کما أشرنا آنفا فی الآیه(۱۵۷)من سوره الأعراف إلی أن هناک ثلاثه تفاسیر لمعنی «الأمیّ»،و أوضحها و أحسنها هو أنّه من لا یقرأ و لا یکتب.

و لم یکن فی محیط الحجاز و بیئته-أساسا-درس لیقرأ النّبی صلّی اللّه علیه و آله،و لا معلم لیحضر عنده و یستفید منه،و قلنا:إنّ عدد المثقفین الذین کانوا یقرءون و یکتبون فی مکّه لم یتجاوز سبعه عشر نفرا فحسب،و یقال أن من النساء کانت امرأه واحده تجید القراءه و الکتابه (۱) .

و طبیعی فی مثل هذا المحیط الذی تندر فیه أدنی مرحله للعلم و هی القراءه و الکتابه،لا یوجد شخص یعرف القراءه و الکتابه و لا یعرف عنه الناس شیئا...

و إذا ظهر مدع و قال-بضرس قاطع-إنّنی لم أقرأ و لم أکتب،لم ینکر علیه أحد

۱- ۱) -فتوح البلدان للبلاذری طبع مصر،ص ۴۵۹.

دعاءه،فيكون عدم الإنكار دليلا جليّا على صدق مدّعاه،و على كل حال فإنّ هذه الكيفيه الخاصه للنّبى صلّى اللّه عليه و آله التى نوهت عنها الآيات المتقدمه،إنّما هى لإكمال إعجاز القرآن،و لقطع السبيل أمام حجج المتذرعين بالأباطيل الواهيه،و فيها تأثير بالغ و نافع جدّا.

أجل،إنّه عالم منقطع النظير،لكنّه لم يدرس فى مدرسه،بل تعلّم من وحى السماء!.

تبقى هناك ذريعه واحده يحتج بها المتذرعون،و هى أنّ النّبى سافر إلى الشام مرّه أو مرتين«لفتره وجيزه و لغرض التجاره»..قبل نبوته،فيقولون:ربّما اتصل فى بعض هاتين السفرتين بعلماء أهل الكتاب و تعلّم منهم هذه المسائل!.

و الدليل على ضعف هذا الادّعاء منطو فى نفسه،فكيف يمكن أن يسمع إنسان جميع هذه الدروس و تواريخ الأنبياء و الأحكام و المعارف الجليله،و هو لم يمض إلى مدرسه و لم يقرأ شيئا،فيحفظ كل ذلک بهذه السرعه،و يودعه فى ذهنه، ثمّ يبيّنه و يفصله خلال مدّه ثلاث و عشرين سنه؟!و أن يبدى موقفا مناسبا للحوادث غير المتوقعه و التى لم يسبق لها مثيل.

و هذا يشبه تماما أن نقول مثلا:إنّ فلانا تعلم قائمه العلوم و الفنون الطبيه كلّها فى عدّه أيّام،و أنّه كان مشرفا على معالجه المرضى فى المستشفى الفلانى، و مستشارا للأطباء،هذا كلام أقرب إلى المزاح و الهزل منه إلى الجد.

و ينبغى الالتفات إلى هذه المسأله،هى أن النّبى صلّى اللّه عليه و آله بعد أن بلغ مرحله النبوّه، يحتمل أن يكون قادرا على القراءه و الكتابه،حينئذ و ذلک بواسطه التعليم الالهى و إن لم يرد فى التواريخ أنّه استفاد من هذه الطريقه!و لم يقرأ شيئا بنفسه أو يكتب شيئا بيده،و لعل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تجنب كل ذلک فى طول عمره لئلا يتذرع المتذرعون فيثيروا الشكوک بنبوّته!الشىء الوحيد الذى جاء فى كتب التأريخ أن النّبى صلّى اللّه عليه و آله كتبه بنفسه،هو صلح الحديبيه الذى جاء فى مسند أحمد أن«النّبى أمسک القلم

بیده و کتب معاهده الصلح» (۱) .

إلاّـ أنّ جماعه من علماء الإسـلام أنکروا هـذا الحـدیث،و قالوا:إنّ هـذا مخالف لصـریح الآیات،و إن اعتقـد البعض بأنّه لیس فی الآیـات صـراحه،لأـنّ الآیـات ناظره لحال النّبی قبل بعثته،فما یمنع أن یکتب النّبی علی وجه الاسـتثناء بعـد أن نال مقام النبوّه..فی مورد واحد..و یکون ذلک بنفسه معجزه أخری من معاجزه!.

إلاّ أن الاعتماد فی مثل هـذه المسأله علی خبر الواحـد مجانب للحزم و الاحتیاط،و مخالف لما ثبتت فی علم الأصول حتی لو قلنا أنّ هذا الخبر لا اشکال فیه. (۲)

۲-طریق النفوذ فی الآخرین

لاـ یکفی الاسـتدلال القوی المتین للنفوذ إلی قلوب الآـخرین و اکتسـابهم بالکلاـم الحق،فانّ أسـلوب التعامل مع الطرف الآخر و طریقه البحث و المناظره تترک أعمق الأثر فی هـذه المرحله..فکثیرا ما یتفق أن یوجد أناس مطّلعون و لهم ید طولی فی البحوث العلمیه الـدقیقه،إلاّـ أنّهم قلّمـا یوفقون للنفوذ إلی قلوب الآـخرین،بسـبب عـدم معرفتهم بکیفیه المجادله بالتی هی أحسن،و عـدم معرفتهم بالبحوث البنّاءه!.

و بتعبیر آخر فإنّ النفوذ الی مرحله الوعی-فی المخاطب-غیر کاف وحـده، بل ینبغی الدخول إلی مرحله عدم الوعی الذی یمثل القسم الأکبر لروح الإنسان أیضا.

و یستفاد من مطالعه أحوال الأنبیاء،و لا سیما حال النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و أئمّه الهدی علیهم السّلام-بصوره جیده أن هؤلاء العظام سلکوا أحسن سبل الأخلاق

۱- ۱) -مسند أحمد،ج ۴،ص ۲۹۸.

۲- ۲) -ورد فی صدد«النّبی الأمی»شرح مفصل آخر ذیل الآیه(۱۵۷)من سوره الأعراف.

الاجتماعیه و أسس المعارف النفسیه و الإنسانیه،لأجل تحقیق أهدافهم التبلیغیه و التربویه!.

و کانت طریقه تعاملهم مع الناس أن یکتسبوهم إلیهم بشکل سریع فینجذبوا إلیهم،و إن کان بعض الناس یمیل إلی أن یضفی علی مثل هذه الأمور ثوب الإعجاز دائما،إلاّ أنّه لیس کذلک،فلو اتبعنا سنتهم و طریقتهم لاستطعنا بسرعه أن نترک فی الناس عظیم الأثر،و أن ننفذ إلی أعماق قلوبهم.

و القرآن یخاطب نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و آله بصراحه فیقول: وَ لَوْ کُنْتَ فَظًّا غَلِیظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِکَ (۱) أو کثیرا ما یری أنّ بعضهم بعد ساعات من الجدال و المناظره،لا أنه لا یحصل علی تقدم فی مناقشاته فحسب،بل علی العکس یجعل الطرف الآخر متعصبا و متشددا فی عقیدته الباطله بصوره أکثر... و ذلک دلیل علی أنّه لم یتبع أسلوب المجادله بالتی هی أحسن.

فالخشونه فی البحث،و طلب الاستعلاء،و تحقیر الطرف المقابل،و إظهار التکبر و الغرور،و عدم احترام أفکار الآخرین،و عدم الجدیه فی المناقشات و البحوث،کلها من الأمور التی تبعث علی انهزام الإنسان فی بحثه،و عدم انتصاره علی الطرف الآخر.لذلک فإنّنا نری فی مباحث الأخلاق الإسلامیه بحثا تحت عنوان«تحریم الجدال و المراء»و المراد منه الأبحاث التی لا یطلب من ورائها الحق،بل المراد منها الاستعلاء و إبراز العضلات لا غیر!.

و تحریم الجدال و المراء-بالإضافه إلی الجوانب المعنویه و الأخلاقیه-إنّما هو لأنّه لا یحصل من ورائهما علی نتیجه فکریه ملحوظه.

و الجدال و المراء فی حرمتهما متقاربان،إلاّ أن العلماء من المسلمین جعلوا فرقا بین کلّ منهما...«فالمراء»معناه إظهار الفضل و الکمال،«و الجدال»یراد منه تحقیر الطرف المقابل!.

ص: ۴۲۴

۱- ۱) -آل عمران-الآیه ۱۵۹.

و قالوا:إنّ الجدال هی المراحل الهجومیه الأولی فی البحث...و أمّا المراء فیراد منه الصدّ الدفاعی فی الکلام.

کما أنّ هناک قولا بأن الجدال فی المسائل العلمیه،أمّا المراء فهو فی الأعم منها«و بالطبع فإنه لا تضادّ بین هذه التفاسیر جمیعا».

و علی کل حال،فإنّ الجدال أو البحث مع الآخرین،تاره یقع بالتی هی أحسن،و ذلک ما بیّناه بالشرائط المتقدمه آنفا،و ینبغی رعایتها بدقّه.و تاره یکون بغیر الأحسن،و ذلک فی ما لو أهملت الأمور التی ذکرناها فی مستهل کلامنا علی الجدال،و جعلت فی طیّ النسیان.

و نختتم هذا الکلام بعده روایات بلیغه و نافعه لنتعلم منها:

ففی حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله أنّه قال: «لا یستکمل عبد حقیقه الإیمان حتی یدع المراء و إن کان محقا» (۱) .

و نقرأ

فی حدیث آخر أن سلیمان النّبی علیه السّلام قال لولده«یا بنی إیّاک و المراء، فإنّه لیست فیه منفعه،و هو یهیج بین الأخوان العداوه» (۲) .

۳-الکافرون و الظالمون

نواجه فی الآیات المتقدمه آنفا هذا التعبیر وَ مٰا یَجْحَدُ بِآیٰاتِنٰا إِلاَّ الْکٰافِرُونَ و مرّه أخری نواجه المضمون ذاته مع شیء من التفاوت فبدلا من کلمه«الکافرون»جاءت کلمه«الظالمون» وَ مٰا یَجْحَدُ بِآیٰاتِنٰا إِلاَّ الظّٰالِمُونَ .

و الموازنه بین التعبیرین تدلّ علی أن المسأله لیست من قبیل التکرار،بل هی لبیان موضوعین،أحدهما یشیر إلی جانب عقائدی«الکافرون»و الآخر یشیر إلی جانب عملی«الظالمون».

۱- ۱) -سفینه البحار ماده مرأ.

۲- ۲) -إحیاء العلوم.

فالآیه الأولی تقول:إنّ الـذین اختاروا الشـرک و الکفر بأحکامهم المسبّقه الباطله و تقلیـدهم الأعمی لأسـلافهم،لا یرون آیه من آیـات اللّه إلاّ ـ أنکروها و إن تقبلتها عقولهم»! أمّا التعبیر الثّانی فیقول:إنّ الـذین اختاروا بظلمهم أنفسـهم و مجتمعهم طریقا یرون فیه منـافعهم الشخصـیه،و عزمـوا علی الاسـتمرار فی هـذه الطریـق،لا ـ یـذعنون لآیاتنا.لأـنّ آیاتنـا کمـا أنّهـا لا ـ تنسـجم مع خطهم الفکری،فهی لا تنسجم مع خطهم العملی أیضا.

ص: ۴۲۶

الآیات [سوره العنکبوت (۲۹): الآیات ۵۰ الی ۵۵]

اشاره

وَ قٰالُوا لَوْ لاٰ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيٰاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا اَلْآيٰاتُ عِنْدَ اَللّٰهِ وَ إِنَّمٰا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۵۰) أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنّٰا أَنْزَلْنٰا عَلَيْكَ اَلْكِتٰابَ يُتْلىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۵۱) قُلْ كَفىٰ بِاللّٰهِ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا بِالْبٰاطِلِ وَ كَفَرُوا بِاللّٰهِ أُولٰئِكَ هُمُ اَلْخٰاسِرُونَ (۵۲) وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذٰابِ وَ لَوْ لاٰ أَجَلٌ مُسَمًّى لَجٰاءَهُمُ اَلْعَذٰابُ وَ لَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ (۵۳) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذٰابِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكٰافِرِينَ (۵۴) يَوْمَ يَغْشٰاهُمُ اَلْعَذٰابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ يَقُولُ ذُوقُوا مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۵۵)

التّفسیر

اشاره

أ لیس القرآن کافیا فی إعجازه؟!

الأشـخاص الذین لم یذعنوا و یسـلّموا للبیان الاستدلالی و المنطقی الذی جاء به القرآن بسبب عنادهم و إصرارهم علی الباطل،و لم یقبلوا بکتاب کالقرآن

ص: ۴۲۷

الذی جاء به إنسان أمی کالنّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله دلیلا جلیّا علی حقانیه دعوته...

تذرعوا بحجّه أخری علی سبیل الاستهزاء و السخریه،و هی أنّه لم لا تأت-یا محمّد-بمعجزه من المعاجز التی جاء بها موسی و عیسی وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیاتٌ مِنْ رَبِّهِ .

و لم لم یکن لدیه مثل عصی موسی و یده البیضاء و نفخه المسیح؟! و لم لا یهلک أعداءه بمعاجزه،کما فعل موسی و شعیب و هود و نوح بأممهم المعاندین؟!.

أو کما یعبر علی لسانهم القرآن فی الآیات ۹۰-۹۳ من سوره الإسراء وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَکَ حَتّی تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ یَنْبُوعاً، أَوْ تَکُونَ لَکَ جَنَّهٌ مِنْ نَخِیلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِیراً، أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ کَما زَعَمْتَ عَلَیْنا کِسَفاً أَوْ تَأْتِیَ بِاللّهِ وَ الْمَلائِکَهِ قَبِیلاً، أَوْ یَکُونَ لَکَ بَیْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقی فِی السَّماءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِیِّکَ حَتّی تُنَزِّلَ عَلَیْنا کِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّی هَلْ کُنْتُ إِلاّ بَشَراً رَسُولاً .

و من دون شک فإنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله کانت لدیه معاجز غیر القرآن الکریم،کما أن التواریخ تصرح بذلک أیضا...إلاّ أن أولئک لم یکن قصدهم من وراء کلامهم الحصول علی معجزه،بل کان قصدهم-من جهه-أن لا یعتبروا القرآن شیئا مهما و کتابا إعجازیا،و من جهه أخری کانوا یریدون معجزات مقترحه«و المراد من المعجزات المقترحه هو أن یأتی النّبی صلّی اللّه علیه و آله طبقا لرغبات هذا و ذاک بمعاجز خارقه للعاده یقترحونها علیه،فمثلا یرید منه بعضهم أن یفجّر له الأرض ینابیع من الماء الزلال،و یرید الآخر منه أن یقلب له الجبال التی فی مکّه ذهبا،و یتذرع الثّالث بأن هذا لا یکفی أیضا بل ینبغی أن یصعد إلی السماء،و هکذا یجعلون المعجزه علی شکل ألعوبه لا قیمه لها،و آخر الأمر..و بعد رؤیه کل هذه الأمور یتهمونه بأنه ساحر».

ص:۴۲۸

لذلک فإن القرآن یقول فی الآیه(۱۱۱)من سوره الأنعام وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَیْهِمُ الْمَلائِکَهَ وَ کَلَّمَهُمُ الْمَوْتی وَ حَشَرْنا عَلَیْهِمْ کُلَّ شَیْءٍ قُبُلاً ما کانُوا لِیُؤْمِنُوا .

و علی کل حال فإنّ القرآن،للرد علی ذرائع هؤلاء المحتالین ذوی الحجج الواهیه،یدخل من طریقین:

فیقول أوّلا-فی خطابه لنبیه قُلْ إِنَّمَا الْآیاتُ عِنْدَ اللّهِ أی قل لأولئک المعاندین أن اللّه یدری أیه معجزه تناسب أی زمان و أی قوم،و هو یعلم أی الأفراد هم أتباع الحق،و ینبغی أن یریهم المعاجز الخارقه للعاده،و أی الأفراد المتذرعون و أتباع هوی النفس؟! ثمّ یضیف القرآن معقبا أن قل وَ إِنَّما أَنَا نَذِیرٌ مُبِینٌ ...فمسؤولیتی الإنذار-فحسب-و الإبلاغ و بیان کلام اللّه،أمّا المعاجز و الأمور الخارقه للعاده فهی بأمر اللّه.

و الجواب الآخر هو قوله تعالی: أَ وَ لَمْ یَکْفِهِمْ أَنّا أَنْزَلْنا عَلَیْکَ الْکِتابَ یُتْلی عَلَیْهِمْ .

فهم یطلبون معاجز مادیه«جسمانیه»،و القرآن بحد ذاته أعظم معجزه معنویه..

و هم یریدون معجزه عابره لا-تمکث طویلا-فی حین أن القرآن معجزه خالده تتلی آیاته لیل نهار علیهم و علی الأجیال من بعدهم.

تری هل یعقل أن یأتی إنسان أمی و حتی لو کان یقرأ و یکتب فرضا بکتاب بهذا المحتوی العظیم و الجاذبیه العجیبه،التی هی فوق قدره الإنسان و البشر،ثمّ یدعوا أهل العلم متحدیا لهم للإتیان بمثله فیعجزون عن الإتیان بمثله؟! فلو کانوا حقا طلاب معجزه،فقد آتیناهم بنزول القرآن أکثر ممّا طلبوه إلاّ أنّهم لم یکونوا طلاب معجزه،بل هم متذرعون بالأباطیل!.

و ینبغی الالتفات إلی أن التعبیر أَ وَ لَمْ یَکْفِهِمْ إنّما یستعمل-غالبا-فی

موارد یکون الإنسان قد أدّی عملا ـ فوق ما ینتظره الطرف الآخر،و هو غافل عنه أو یتغافل عنه،کأن یقول مثلا:لم أحصل علی الخدمه الفلانیّه،فی حین أن الخدمه التی قدمت إلیه-کما فی هذه الحال-أکبر خدمه،إلاّ أنّه لا یعتبرها شیئا، و نقول له:أو لم یکفک ما قدمناه؟! ثمّ بعد هذا کله ینبغی أن تکون المعجزه منسجمه مع ظروف«الزمان و المکان و کیفیه دعوه النّبی»فالنّبی الذی یدعوا إلی مبدأ خالد،ینبغی أن تکون معجزته خالده أیضا.

و النّبی الذی تستوعب دعوته العالم و تستوعب القرون و الأعصار المقبله، لا ـ بدّ له من أن یأتی بمعجزه نیّره«روحیه و عقلانیه»لیجلب إلیه أفکار جمیع العلماء و المفکرین،و من المسلّم به أن مثل هذا الهدف یتناسب مع القرآن،لا عصی موسی و لا یده البیضاء.

و فی نهایه الآیه یضیف القرآن للتأکید و التوضیح بصوره أجلی،فیقول: إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَرَحْمَةً وَ ذِکْریٰ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ .

«ذلک»هنا إشاره إلی الکتاب المنزل من السماء،و هو القرآن.

أجل،إن القرآن رحمه«وسیله»للذکری و التذکر أیضا،فهو للمؤمنین الذین فتحوا قلوبهم بوجه الحقیقه،و الذین یبتغون النور و الطریق السویّ هو لهم رحمه إلهیه یحسونها بکل وجودهم،و یشعرون بالاطمئنان و الدعه عنده..و کلّما قرءوا آیاته تذکروا،فهی لهم ذکری و أیه ذکری؟! و لعل الفرق بین«الرحمه»و«الذکری»أنّ القرآن لیس معجزه و ذکری فحسب،بل هو إضافه إلی کل ذلک یحتوی علی القوانین التی تمنح الرحمه و المناهج التربویه و الإنسانیه.

فمثلا کانت عصی موسی معجزه فحسب،إلاّ أنّها لم یکن لها أثر فی حیاه الناس الیومیه،غیر أن القرآن معجزه، هو فی الوقت ذاته منهج کامل الحیاه و رحمه أیضا.

ص:۴۳۰

أيضا.

و لمّا كان كل مدع بحاجه إلى الشاهد،فالقرآن يبيّن فى الآيه الأخرى أن خير شاهد هو اللّه قُلْ كَفىٰ بِاللّٰهِ بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ شَهِيداً .

و بديهى أنّه كلّما كان اطلاع الشاهد و شهادته أكثر،فإنّ قيمه الشهاده تكون أهم،لذلك يضيف القرآن بعدئذ قائلا: يَعْلَمُ مٰا فِى السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ .

و الآن لنعرف كيف شهد اللّه على حقانيه نبيّه صلّى اللّه عليه و آله؟! يحتمل أن تكون هذه الشهاده شهاده عمليه،لأنّه حين يؤتى اللّه نبيّه معجزه كبرى كالقرآن،فقد وقع على سند حقانيته و أمضاه.

ترى هل يمكن أن يأتى اللّه الحكيم العادل بمعجزه على يد كذّاب،و العياذ باللّه!فعلى هذا كانت طريقه إعطاء المعجزه لشخص النّبى صلّى اللّه عليه و آله-بنفسها-أعظم شهاده على نبوته من قبل اللّه.

و إضافه للشهاده العمليه المتقدمه،نقرأ فى آيات كثيره من القرآن شهاده قوليه فى نبوه النّبى صلّى اللّه عليه و آله،كما فى الآيه(۴۰)من سوره الأحزاب مٰا كٰانَ مُحَمَّدٌ أَبٰا أَحَدٍ مِنْ رِجٰالِكُمْ وَ لٰكِنْ رَسُولَ اللّٰهِ وَ خٰاتَمَ النَّبِيِّينَ ،و فى الآيه(۲۹)من سوره الفتح أيضا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّٰهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدّٰاءُ عَلَى الْكُفّٰارِ رُحَمٰاءُ بَيْنَهُمْ قال بعض المفسّرين:إنّ هذه الآيه كانت جوابا على ما قاله بعض رؤوساء اليهود من أهل المدينه،أمثال«كعب بن الأشرف»و أتباعه،إذ قالوا:يا محمّد،من يشهد على أنّك مرسل من قبل اللّه،فنزلت هذه الآيه قُلْ كَفىٰ بِاللّٰهِ بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ شَهِيداً ! كما يمكن أن تفسّر الآيه المتقدمه بتفسير آخر و بيان ثان،و ذلك أنّ المراد من شهاده اللّه فى الآيه هى ما سبق من الوعد و الذكر فى كتب اللّه السابقه «كالتّوراه و الإنجيل»و يعلم بذلك علماء أهل الكتاب بصوره جيده!.

و فى الوقت ذاته لا منافاه بين التّفسيرات الثلاثه الآنفه الذكر،و من الممكن

أن تجتمع هذه التفاسير فی معنی الآیه أیضا.

و تختتم الآیه بنحو من الوعید و التهدید لأولئک الکفار باللّه،فیقول: وَ الَّذِینَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَ کَفَرُوا بِاللّهِ أُولئِکَ هُمُ الْخاسِرُونَ .

و أی خسران أعظم من أن یعطی الإنسان جمیع وجوده فی سبیل لا شیء؟! کما فعله المشرکون،فقد أعطوا قلوبهم و أرواحهم للأوثان و الأصنام..و وظّفوا جمیع قواهم الجسمانیه و الإمکانات الاجتماعیه و الفردیه فی سبیل الإعلام و التبلیغ لمذهبهم الوثنی و أهملوا ذکر اللّه،فلم یعد علیهم هذا إلاّ بالضرر و الخسران!.

و غالبا ما یشیر القرآن إلی هذا الخسران فی آیاته،و فی بعض الآیات یرد التعبیر بکلمه«أخسر»و هی إشاره إلی أنّه لیس فوق هذا الخسران من خساره و لا أعظم منه!..(راجع آیات السور«هود ۲۲ و النمل ۵ و الکهف ۱۰۳»).

و المثل الأهمّ هو أنّه قد یتفق للإنسان أحیانا أن یتضرر فی معاملته و یخسر رأس ماله و یغلب علی أمره،و قد تتسع هذه الدائره أحیانا فیقل کاهله بالدیون، و هذه الحاله أسوأ الحالات و المشرکون هم فی مثل هذه الحاله،بل قد یکونون سببا لضلال الآخرین و خسرانهم،و کما یصطلح علیه:«الفشل سلسله متصله» (۱) .

فی الآیات المتقدمه عرض قسمان من ذرائع الکفار قبال دعوه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و قد أجیب عنهما:

الأوّل:کان قولهم:لم لا یأتی بمعجزه؟! فأجاب القرآن:إن هذا الکتاب المنزل من السماء هو أعظم معجزه.

و الثّانی:سؤالهم:من الشاهد علی صدق دعواک و حقانیه النبوه عندک؟ فأجاب القرآن:کفی باللّه شهیدا بینی و بینکم یعلم ما فی السماوات

۱- ۱) -لنا فی هذا الصدد بحث مفصل بیناه فی ذیل الآیه(۱۰۳)من سوره الکهف.

و الأرض.

أمّا فى الآيه التاليه فإشاره إلى الـذريعه الثّالثه إذ تقول: وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ إذ يقولون:لو كان عذاب اللّه حقا على الكافرين فلم لا يأتينا!؟ فيجيب القرآن على هذه الذريعه بثلاثه أجوبه.

الأوّل: وَ لَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ .

و هذا الزمان المعين«الأجل»إنّما هو لهدف أصـلى،للارعواء عن باطلهم و تيقظهم،أو إتمام الحجه عليهم،فاللّه لا يستعجل أبدا فى أمره،لأنّ العجله خلاف حكمته.

و الثّانى:إن أولئك الذين يتذرعون بهذا القول ما يدريهم لعل العذاب يأخذهم على حين غره من أنفسهم وَ لَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۱) .

و بالرغم من أن موعد العذاب-فى الواقع-معين و مقرّر إلاّ أن المصلحه تقتضى ألاّ يطّلعوا عليه،و أن يأتيهم دون مقدمات،لأنّه لو عرف وقته لكان باعثا على تجرؤ الكفار و المـذنبين و جسارتهم..و كانوا يواصـلون الذنب و الكفر إلى آخر لحظه..و حين يأزف الوعد بالعذاب فإنهم سيتجهون بالتوبه-جميعا-الى اللّه و ينيبون إليه.

و الحكمه التربويه لمثـل هـذا العقاب تقتضـى أن يكتم موعـده،لتكون كل لحظه ذات أثر بنفسـها،و يكون الخوف و الاستيحاش منهـا عاملاـ على الردع، و يتّضـح ممّـا قلنـاه-ضـمنا-أنّ المراد من جمله وَ هُمْ لاـ يَشْـعُرُونَ لا تعنى أنّهم لا يـدركون أصل وجود العـذاب.و إلاّـ فـإنّ فلسـفه العـذاب و الحكمه منه لاـ يكون لهـا أثر،بل المراد أنّهم لا يعرفون اللحظه التى ينزل فيها العـذاب و لا مقدماته،و بتعبير آخر:إنّ العذاب ينزل عليهم كالصاعقه و هم غافلون.

و يظهر من آيات متعدده من القرآن أن التذرع بالحجج الواهيه لم يكن

۱- ۱) -«البغته»مشتقه من«البغت»على زنه«وقت»و معناه التحقق المفاجئ و غير المنتظر لأمر.

منحصرا بأهل مكّه،بل كثير من الأمم السابقين يلتجئون إلى مثل هذه الذريعه، و يصرون على تعجيل العقوبه و العذاب!.

و أخيرا فإنّ الجواب القرآنى الثّالث يتبيّن فى الآيه إذ يقول: يَسْتَعْجِلُونَکَ بِالْعَذٰابِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَهٌ بِالْكٰافِرِينَ .

فإذا تأخر عنهم عذاب الدنيا،فإن عذاب الآخره واقع لا محاله،و محيط بهم تماما و سيصيبهم حتما بحيث أنّ القرآن يذكره بصوره أمر فعليّ(و كأن جهنّم الآن محيطه بهم).

و يوجد تفسير آخر أكثر دقّه لهذه الآيه،و هو أنّ جهنم محيطه،الآن فعلا بالكافرين،من جهتين-بالمعنى الواقعى للكلمه.

الجهه الأولى:إنّها جهنم الدنيا،إذ هم على أثر شركهم و تلوثهم بالذنب يحترقون بجهنم التى أعدّوها لأنفسهم،جهنم الحرب و سفك الدماء،جهنم النزاع و الشقاق و الاختلافات، جهنم القلق و الفزع،جهنم الظلم،و جهنم الهوى و الهوس و العناد.

و الجهه الثّانيه:طبقا لظاهر الآيات فى القرآن فإنّ جهنم موجوده فعلا،و كما تقدم سابقا فإنّ جهنّم موجوده فى باطن الدنيا،و بهذا فهى محيطه بهم على نحو الحقيقه..و فى سوره التكاثر إشاره لها أيضا كَلاّٰ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهٰا عَيْنَ الْيَقِينِ الآيات ۵-۷ من سوره التكاثر (۱) .

ثمّ يضيف القرآن يَوْمَ يَغْشٰاهُمُ الْعَذٰابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ يَقُولُ ذُوقُوا مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲) .

يمكن أن تكون هذه الآيه توضيحا لإحاطه عذاب جهنّم فى يوم القيامه بالكفار،و يمكن أن تكون بيانا مستقلا لذلك العذاب الأليم لهم الذى يحيط بهم

۱- ۱) -لمزيد الإيضاح يراجع-فى هذا الصدد تفسير الآيه(۱۲۳)من سوره آل عمران.

۲- ۲) -يرى بعض المفسّرين أن كلمه«يوم»متعلقه بفعل محذوف مقدر،و قال بعضهم:هو متعلق ب«محيطه».

اليوم على أثر أعمالهم،و فى غد يتجلى هذا العذاب بوضوح و يكون محسوسا ظاهرا.

و على كل حال فذكره لإحاطه العذاب مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ و عدم ذكره لبقيه الجهات-فى الحقيقه-هو لوضوح المطلب،و إضافه إلى ذلك فإن نار العذاب إذا امتدت ألسنتها من تحت الأرجل و نزلت على الرؤوس،فإنها تحيط بجميع البدن أيضا و تغشى جميع أطرافه و جوانبه.

و أساسا فإنّ هذا التعبير مستعمل فى اللغه العربيه،إذ يقال مثلا:إن فلانا غارق من قرنه إلى قدمه فى مستنقع الفسق و عدم العفه،أي إن جميع وجوده غارق فى هذا الذنب،و بهذا يرتفع الإشكال عند المفسّرين فى ذكر القرآن للجهه العليا«من فوقهم»و الجهه السفلى«من تحتهم»و السكوت عن الجهات الأربع الأخرى،و يتّضح المراد منه بالتقرير الذى بيّناه! أمّا جمله ذُوقُوا مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ التى يظهر أن قائلها هو اللّه تعالى،فهى بالإضافه إلى أنّها نوع من العقوبه النفسيه لمثل هؤلاء الأشخاص،فهى كاشفه عن هذه الحقيقه،و هى أن عذاب اللّه ليس إلّا انعكاسا للأعمال التى يقوم بها الإنسان نفسه فى النشأه الآخره!.

ملاحظات

اشاره

۱-دلائل إعجاز القرآن:

لا شك أنّ القرآن أعظم معجزه للإسلام...معجزه بليغه،خالده و باقيه، مناسبه لكل عصر و زمان و لجميع الطبقات الاجتماعيه،و قد ذكرنا بحثا مفصلا عن إعجاز القرآن فى ذيل الآيه ۲۳ من سوره البقره،و لا حاجه إلى إعادته هنا.

۲-التشبث بالحيل لإنكار المعجزات:

يصرّ بعض العلماء المتأثرين بالغرب-الذين يميلون إلى أن لا يعتدّوا بظواهر الأنبياء الخارقه للعاده-أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله ليس له معجزه غير القرآن،و ربّما يرون القرآن ليس معجزا،فى حين أنّ مثل هذا الكلام مخالف لآيات القرآن، و للرّوايات المتواتره،و للتأريخ الإسلامى أيضا.

«و قد بيّنا تفصيل هذا الكلام فى ذيل الآيات ۹۰-۹۳ من سوره الإسراء».

۳-المعجزات الاقتراحيّه:

كانت أساليب المخالفين للأنبياء دائما هى اقتراحهم المعجزات التى يرتؤونها،و كانوا بعملهم هذا يحاولون أن يحطّوا من قيمه المعجزات و عظمتها و يجروها إلى الابتذال من جهه،و أن تكون فى أيديهم ذريعه إلى عدم قبول دعوه الأنبياء من جهه أخرى،لكن الأنبياء لم يستسلموا لهذه المؤامرات أبدا..و كما رأينا فى إجابتهم آنفا،فإن المعجزه ليست باختيارهم لتكون مطابقه«لميلكم و هوسكم»كل يوم و كل ساعه نأتى بمعجزه كما تريدون...بل المعاجز هى بأمر اللّه فحسب،و هى خارجه عن أمرنا.

«و قد ذكرنا شرحا حول المعجزه الاقتراحيه فى ذيل الآيه ۲۰ من سوره يونس».

الآيات [سوره العنكبوت (۲۹): الآيات ۵۶ الی ۶۰]

اشاره

يا عِبادِیَ اَلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِی واسِعَهٌ فَإِيّایَ فَاعْبُدُونِ (۵۶) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَهُ اَلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ (۵۷) وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ اَلْجَنَّهِ غُرَفاً تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نِعْمَ أَجْرُ اَلْعامِلِينَ (۵۸) اَلَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلی رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (۵۹) وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّهٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اَللّهُ يَرْزُقُها وَ إِيّاكُمْ وَ هُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْعَلِيمُ (۶۰)

سبب النّزول

يعتقد كثير من المفسّرين أنّ الآيه-من هذا المقطع-نزلت فی شأن المؤمنين الذين كانوا تحت ضغط الكفار الشديد،حتی أنّهم لم يستطيعوا أن يؤدوا وظائفهم الإسلاميه،فجاءت هذه الآيه لتأمرهم بالهجره من هذه الأرض.

كما يعتقد بعض المفسّرين أيضا أنّ الآيه وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّهٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا و هی الآيه الأخيره-من المقطع محل البحث نزلت فی شأن بعض المؤمنين الذين كانوا يتعرضون لأذی أعدائهم فی مكّه!و كانوا يقولون لو هاجرنا إلی المدينه فليست لدينا دار و لا أرض،من يطعمنا و يسقينا هناك؟فنزلت الآيه وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّهٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللّهُ يَرْزُقُها وَ إِيّاكُمْ... .

التّفسير

اشاره

لا بدّ من الهجره:

حيث أنّ الآيات السابقه كانت تتحدث عن مواقف المشركين المختلفه من الإسلام و المسلمين،ففى الآيات محل البحث يقع الكلام عن حال المسلمين و مسئولياتهم قبال المشاكل المختلفه،أى مشاكل أذى الكفار و ضغوطهم و قلّه عدد المسلمين و ما إلى ذلك،فتقول الآيه الأولى: يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيّايَ فَاعْبُدُونِ .

و بديهى أنّ هذا ليس قانونا خاصا بمؤمنى أهل مكّه،و لا يحدد سبب النّزول مفهوم الآيه الواسع المنسجم مع الآيات الأخرى...فعلى هذا لو سلب الإنسان حريته فى أى عصر أو زمان و مكان بشكل كامل،فإنّ بقاءه هناك لا يجلب عليه إلّا الذل«و الخسران و الضرر»و الابتعاد عن أداء المناسک الإلهيه،فوظيفه الإنسان المسلم عندئذ الهجره إلى منطقه«حرّه»يستطيع أن يؤدى فيها وظائفه الإسلاميه بحريه تامّه أو حريه نسبيه.

و بتعبير آخر:إنّ الهدف من خلق الإنسان أن يكون عبدا للّه،عبوديه هى فى الواقع سبب للحريه و الكرامه و الإنتصار فى جميع الجهات...و جمله فَإِيّايَ فَاعْبُدُونِ إشاره إلى هذا المعنى،كما ورد هذا التعبير فى الآيه(۵۶)من سوره الذاريات وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ .

فمتى ما أصبح هذا الهدف الأساسى و النهائى مستحيلا،فلا سبيل عندئذ إلّا الهجره،فأرض اللّه واسعه،و ينبغى أن يهاجر الفرد نحو منطقه أخرى،و لا يكون أسيرا لمفاهيم«القبليه و القوميه و الوطنيه و البيت و الأهل»فى مثل هذه الموارد، و لا يذل الإنسان نفسه من أجلها،فإنّ احترام هذه الأمور هو فيما لو كان الهدف الأصلى قائما غير مخاطر به،أمّا إذا أصبح الهدف الأصلى«عباده اللّه»مخاطرا به فلا سبيل إلّا الهجره!

و فی مثل هذه الموارد

یقول الإمام أمیر المؤمنین علی علیه السّلام: «لیس بلد بأحق بک من بلدک،خیر البلاد ما حملک» (۱) .

صحیح أنّ حب الوطن و العلاقه بمسقط الرأس جزء من طبیعه کل إنسان، و لکن قد یتفق أن تحدث فی حیاه الإنسان مسائل أهم من تلک الأمور،فتجعلها تحت شعاعها و تکون أولی منها.

و فی مجال موقف الإسلام و نظرته من مسأله الهجره و الرّوایات الوارده فی هذا الصدد،کان لنا بحث مفصل فی ذیل الآیه(۱۰۰)من سوره النساء.

و التعبیر ب یا عِبادِیَ هو أکثر التعابیر رأفه و حبّا للناس من قبل خالقهم.

و تاج للفخر أعلی حتی من مقام الرساله و الخلافه،کما نذکر ذلک فی التشهد حیث نقدم العبودیه علی الرساله دائما«أشهد أن محمّدا عبده و رسوله».

من الطریف أنّه حین خلق اللّه آدم لقبه ب«خلیفه اللّه»،و هو فخر لآدم،إلاّ أن الشیطان لم ییأس من التسویل و الوسوسه له،فکان ما کان،و لکن حین بوأه مقام العبودیه أذعن الشیطان له و یئس من إغوائه و قال: فَبِعِزَّتِکَ لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ إِلاّ عِبادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِینَ . (۲)

و اللّه سبحانه ضمن هذا الأمر فقال: إِنَّ عِبادِی لَیْسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُلْطانٌ . (۳)

و یتّضح ممّا ذکرناه-بصوره جیده-أنّ المراد بالعباد لیس جمیع الناس-فی الآیه محل البحث-بل هم المؤمنون منهم فحسب،و جمله اَلَّذِینَ آمَنُوا جاءت للتأکید و التوضیح (۴) .

و حیث أنّ البعض بقوا فی دیار الشرک،و لم یرغبوا بالهجره بذریعه أنّهم

۱- ۱) -الکلمات القصار،رقم ۴۴۲.

۲- ۲) -سوره ص الآیتان ۸۲،۸۳.

۳- ۳) -سوره الحجر،الآیه ۴۲.

۴- ۴) -جمله«فإیای فاعبدون»عطف علی جزاء جمله الشرط المحذوف و التقدیر«إن ضاقت بکم الأرض فهاجروا منها إلی غیرها و إیّای فاعبدون».

یخشون الخروج من دیارهم و یخافون أن یحدق بهم الموت بسبب الأعداء أو الجوع أو العوامل الأخری التی تهددهم...إضافه إلی فراق الأحبّه و المتعلقین و الأبناء و الأصدقاء،فإنّ القرآن یردّهم بجواب جامع قائلا: کُلُّ نَفْسٍ ذٰائِقَهُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَیْنٰا تُرْجَعُونَ .

فهذه الدنیا لیست بدار بقاء لأی أحد،فبعض یمضی عاجلا،و بعض یتأخر، و لا بدّ أن یذهبوا جمیعا،و علی کل حال ففراق الأحبه و الأبناء و الأقارب لا بدّ أن یقع و یتحقق،فعلام یبقی الإنسان فی دیار الشرک من أجل المسائل العابره..و أن یحمل عبء الذل و الأسر علی کاهله،أکلّ ذلک من أجل أن یبقی بضعه أیّام أو أکثر؟! ثمّ بعد هذا کلّه ینبغی أن تخافوا أن یدرککم الموت فی دیار الکفر و الشرک قبل أن تبلغوا دار الإسلام،فما أشد ألم مثل هذا الموت و ما أتعسه! ثم لا تظنوا أن الموت نهایه کل شیء،فالموت بدایه لحیاه الإنسان الأصلیه، لأنّکم جمیعا إِلَیْنٰا تُرْجَعُونَ ..إلی اللّه العظیم،و إلی نعمه التی لا حدّ لها و لا انتهاء لأمدها.

و الآیه التالیه تبیّن جانبا من هذه النعم فتقول: وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّهِ غُرَفاً تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ (1) .

فهم فی قصور تحیط بها أشجار الجنّه من کلّ جانب،الأنهار المختلفه التی لکلّ منها طعمه و لونه،طبقا لآیات القرآن الاخر،و هی ما بین الأشجار و تحت تلک القصور جاریه أبدا..(لاحظوا أن«غرف»جمع غرفه،و معناها البناء المرتفع المشرف علی أطرافه).

و الامتیاز الآخر لغرف الجنّه أنّها لیست کغرف الدنیا و قصورها و منازلها التی ما أن یضع الإنسان فیها قدمه حتی یسمع نداء«الرحیل»،فغرف الجنّه دائمه

ص:۴۴۰

۱- ۱) -«لنبوئنهم»من ماده«تبوئه»علی زنه«تذکره»معناها إعطاء السکنی للإقامه و البقاء الدائم.

خالِدِينَ فِيها

.

و يضيف القرآن معقبا فى ختام الآيه نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ .

و بموازنه بسيطه بين ما ذكر آنفا فى شأن الكفّار و المذنبين فى الآيات السابقه،و ما ورد فى هذه الآيه،تتّضح عظمه ثواب المؤمنين.

فالكفّار غارقون فى نار جهنّم من قرنهم إلى قدمهم،و يقال لهم على سبيل التوبيخ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

أمّا المؤمنون فهم مقيمون فى نعيم الجنّه و تحيط بهم رحمه اللّه من كلّ جانب،و بدلا من كلمات التوبيخ يكلمون بكلام طيب ملؤه المحبّه و اللطف الإلهى الكريم،أجل يقال لهم: نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ .

و بديهى أنّ المراد بالعاملين هنا مع قرائن الجمل السابقه،هم الذين يعملون الصالحات المقرونه بإيمانهم،و إن كانت كلمه العاملين مطلقه.

و

فى حديث عن نبىّ الإسلام العظيم صلّى اللّه عليه و آله يصف الجنّه فيقول: «إنّ فى الجنّه لغرفا يرى ظهورها من بطونها و بطونها من ظهورها»فنهض بعض أصحابه فقال:

يا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله لمن هذه الغرف؟فقال صلّى اللّه عليه و آله:«هى لمن أطاب الكلام،و أطعم الطعام،و صلى لله بالليل و الناس نيام» (۱) .

و الآيه التاليه تصف أهمّ ما يتحلّى به المؤمنون العاملون فتقول: اَلَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .

إذ يبتعدون عن الزوجه و الأولاد و الأهل و البيت و الأحباب و الأصدقاء و كل شيء عزيز عليهم،لكنّهم يصبرون برغم الفراق يذوقون مراره الغربه و التهجير عن أوطانهم و يصبرون،و تتلقى أنفسهم العذاب و الأذى من أعدائهم من أجل حفظ إيمانهم،و يواجهون الصعاب فى جهادهم الأكبر«جهادهم مع النفس» و جهادهم أعداءهم بشدّه،و يتحملون أنواع المشاكل فيصبرون!

۱- ۱) -تفسير القرطبى ذيل الآيات محل البحث،ج ۷،ص ۵۰۷۵.

أجل،هذا الصبر و هذه الاستقامه هما رمز انتصارهم و عامل فخرهم الكبير، و بدونه لا يتحقق عمل إيجابى فى الحياه.

ثمّ بعد هذا كلّه،فهم لا يعتمدون على أموالهم و لا على أصدقائهم،بل يعتمدون على اللّه و يتوكلون على ذاته المقدسه،و إذ ابتغى ألف عدو هلاكهم تمثلوا قائلين:«امتحانك رحمه فلا أكترث بالأعداء».

و إذ أمعنا النظر و فكّرنا جيدا رأينا أن الصبر و التوكل هما أساس جميع الفضائل الإنسانيه،فالصبر هو عامل الاستقامه أمام العوائق و المشاكل،و التوكل هو الهدف و الباعث على الحركه فى هذا الطريق المديد الملتوى.

و فى الحقيقه ينبغى الاستمداد من هاتين الفضيلتين(الصبر و التوكل) للأعمال الصالحه،إذ بدونهما لا يمكن أن تؤدى الأعمال الصالحه بالمقياس الواسع (۱) .

و فى آخر آيه-من الآيات محل البحث-جواب لأولئك الذين كان لسان حالهم أو لسان مقالهم يقول إذا خرجنا عن ديارنا و أهلينا،فمن سيطعمنا و يرزقنا؟يخاطبهم القرآن أن لا تحزنوا على الرزق و لا تحملوا ثقل الذله و الأسر، فالرازق هو اللّه،لا لكم فحسب بل وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّهٍ لاٰ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللّٰهُ يَرْزُقُهٰا وَ إِيّٰاكُمْ .

قليل من الدواب و الحيوانات و الحشرات-و كذلك الإنسان-يأتى برزقه من الصحراء و الشجر إلى وكره و مسكنه كالنحل-التى تنتج العسل-و النمل، و غالبا ما تكون الحيوانات بمثابه«طائر اليوم»أى كل يوم عليها أن تمضى لرزقها و تبحث عنه من جديد.و هكذا فإنّ ملايين الملايين من الحيوانات التى من حولنا،فى النقاط القريبه و البعيده،و فى الصحارى و أعماق البحار و أعالى

۱- ۱) -تحدثنا عن حقيقه التوكل و حكمته و فلسفته بإسهاب فى ذيل الآيه(۱۲)سوره إبراهيم،و عن حقيقه الصبر لدى تفسير الآيه(۱۲)من سوره إبراهيم و الآيه(۲۴)من سوره الرعد و الآيه(۲۶)من سوره الأعراف.

الجبال و الأماكن الأخرى،فإنّها كلّها تقتات من مائده اللّه السرمديه.

و أنت أيّها الإنسان أقوى من تلك الحيوانات و أذكى فى جلب الرزق،فلم كلّ هذا الخوف من انقطاع الرزق؟! و لم الركون إلى حياه الـذل و الاستكانه و الفجور؟! و لم تظل سادرا تحت وطأه الظلم و القهر و الهوان و الـذل؟! اخرج أنت أيضا من داخل هذه الدائره المظلمه،و اجلس على مائده خالقك الواسعه و لا تفكر بالرزق!.

فأنت يوم كنت جنينا محبوسا فى بطن أمّك،و لا تصل إليك أيه يد حتى من أبيك و أمك الرؤوم،لم ينسك اللّه الذى خلقك،و هيأ ما كنت تحتاج إليه لك بكل دقّه،فكيف و أنت اليوم كائن قوى و رشيد؟! و حيث أن إيصال الرزق للمحتاجين هو فرع علمه تعالى بحاجاتهم،فالقرآن يؤكّد فى نهايه الآيه قائلا: وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

يسمع كلامكم كلّه،و يعرف لسان حالكم،و لسان حال جميع الدواب،و هو خبير بحاجات الجميع،و لا يخفى على علمه الذى لا حد له شىء أبدا.

الآيات [سوره العنكبوت (۲۹): الآيات ۶۱ الی ۶۶]

اشاره

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ سَخَّرَ اَلشَّمْسَ وَ اَلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اَللّهُ فَأَنّى يُؤْفَكُونَ (۶۱) اَللّهُ يَبْسُطُ اَلرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اَللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۶۲) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ اَلسَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ اَلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اَللّهُ قُلِ اَلْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (۶۳) وَ ما هذِهِ اَلْحَياةُ اَلدُّنْيا إِلاّ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ اَلدّارَ اَلْآخِرَةَ لَهِيَ اَلْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (۶۴) فَإِذا رَكِبُوا فِي اَلْفُلْكِ دَعَوُا اَللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ اَلدِّينَ فَلَمّا نَجّاهُمْ إِلَى اَلْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ (۶۵) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَ لِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۶۶)

التّفسير

اشاره

الإقرار بالتوحيد فی الباطن و الشرک فی الظاهر:

كـان الحـديث فی الآيـات السابقه موجّها إلی المشـركين الـذين أدركوا حقانيه الإسـلام،إلاّ أنّهم لم يكونوا مسـتعدين للإيمان و الهجره،خوفا من انقطاع الرزق عليهم.

أمّا فى هذه الآيات،فالحديث موجه للنّبى صلّى اللّه عليه و آله،و فى الواقع لجميع المؤمنين، و هو يبيّن دلائل التوحيد عن طرق«الخلقه»،و«الربوبيّه»،و«الفطره»،أى عن ثلاث طرائق متفاوته،و يريهم أن مصيرهم و عاقبه أمرهم بيد اللّه الذى يجدون آثاره فى الآفاق و فى أنفسهم،لا بأيدى الأصنام و الأوثان التى لا تضر و لا تنفع.

فتبدأ الآيه الأولى من هذه الآيات محل البحث-مشيره إلى خلق السماوات و الأرض و تستعين باعتقاداتهم الباطنيه...فتقول: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ ! لأنّ من المسلم به أنّه لا عبده الأصنام و لا غيرهم و لا أى أحد آخر يقول:إنّ خالق السماوات و الأرض و مسخر الشمس و القمر حفنه من الأحجار و الخشب المصنوعه بيد الإنسان.

و بتعبير آخر:لا يشك فى«توحيد الخالق»حتى عبده الأصنام حيث كانوا مشركين فى عباده الخالق،و كانوا يقولون:إنّما نعبد أوثانا ليقربونا إلى اللّه زلفى، فهم الوسطاء بيننا و بين اللّه،كما نقرأ فى الآيه(١٨)من سوره يونس وَ يَقُولُونَ هٰؤُلاٰءِ شُفَعٰاؤُنٰا عِنْدَ اللّٰهِ ..فنحن غير جديرين أن نرتبط باللّه مباشره،بل ينبغى أن نرتبط به عن طريق الأصنام مٰا نَعْبُدُهُمْ إِلاّٰ لِيُقَرِّبُونٰا إِلَى اللّٰهِ زُلْفىٰ . (١)

و هم غافلون عن أنّه لا تفصل بين الخالق و المخلوق أيه فاصله،و هو أقرب إلينا من حبل الوريد،زد على ذلك:إذا كان الإنسان-الذى هو بمثابه الدرّه اليتيمه فى تاج الموجودات-لا يستطيع أن يرتبط باللّه مباشره،فأى شىء يكون واسطه الإنسان إلى اللّه؟! و على كلّ حال،فإنّ الآيه بعد ذكر هذا الدليل الواضح تتساءل: فَأَنّٰى يُؤْفَكُونَ أى مع هذا المال كيف يعرضون عن عباده خالقهم و يستبدلونها بعباده مجموعه من الأحجار و الأخشاب؟!

١- ١) -الزمر،الآيه ٣.

كلمه«يؤفكون»مشتقّه من«إفک»على زنه«فكر»و معناها إعاده الشىء من صورته الواقعيه و الحقيقيه،و بهذه المناسبه تطلق الكلمه على الكذب و على الرياح المخالفه«للاتجاه»أيضا.

و التعبير ب«يؤفكون»بصيغه المجهول إشاره إلى أنّهم لا قدره لهم على التصميم،فكأنّهم منجذبون إلى عباده الأوثان دون إراده.

و المراد من تسخير الشمس و القمر النظم التى أقرها اللّه تعالى،و جعل الشمس و القمر فى دائره هذه النظم فى خدمه الإنسان،و منافعه.

ثمّ يضيف القرآن تأكيدا لهذا المعنى،و هو أن اللّه خالق الخلق و رازقهم، فيقول: اَللّٰهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ ...فمفتاح الرزق بيده لا بيد الناس و لا بيد الأصنام.

و ما ورد بيانه فى الآيات السابقه من أنّ المؤمنين حقّا هم وحدهم يتوكلون عليه،فلأجل هذا المعنى،و هو أن شىء بيده و بأمره،فعلام يخشون من إظهار الإيمان،و يرون حياتهم فى خطر من جهه الأعداء.

و إذا كانوا يتصورون أنّ اللّه قادر،إلاّ أنّه غير مطّلع على حالهم،فهذا خطأ كبير ل إِنَّ اللّٰهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

ترى هل يمكن لخالق مدبر يصل فيضه لحظه بعد أخرى لموجوداته،و فى الوقت ذاته يكون جاهلا بحالها؟.

و فى المرحله الثّانيه يقع الكلام عن«التوحيد الربوبى»و نزول مصدر الأرزاق من قبله عليهم،فيقول: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَحْيٰا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهٰا لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ .

فهذا هو ما يعتقده عبده الأصنام فى الباطن،و لا يتأبون من الاعتراف على ألسنتهم!فهم يعرفون أن الخالق هو اللّه،و أنّه ربّ العالم و مدبره.

ثمّ يضيف القرآن مخاطبا نبيّه قُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ .فالحمد و الثناء لمن أنعم

جمیع النعم،إذ لمّا کان الماء الذی هو مصدر الحیاه لجمیع الحیوانات من رزق اللّه فیکون واضحا أن الأرزاق جمیعها صادره من قبله أیضا.

قل الحمد للّه«و اشکره»،لأنّهم یعترفون بهذه الحقائق.

و قل الحمد للّه،فمنطقنا قوی متین حیّ إلی درجه لا یستطیع أی أحد إبطاله أو تفنیده.و حیث أنّ أقوال المشرکین من جهه،و أعمالهم و أفعالهم و کلماتهم من جهه أخری،یناقض بعضها بعضا،فإنّ الآیه تختتم بإضافه الجمله التالیه بَلْ أَکْثَرُهُمْ لاٰ یَعْقِلُونَ .

و إلاّ فکیف یمکن للإنسان العاقل أن یتناقض فی کلماته،فتاره یری أن الخالق و الرازق و المدبّر للعالم هو اللّه،و تاره یسجد للأوثان التی لا تأثیر لها بالنسبه لعواقب الناس!.فمن جهه یعتقدون بتوحید الخالق و الرب،و من جهه أخری یظهرون الشرک فی العباده.

و من الطریف أنّ الآیه لا تقول:«أکثرهم لا عقل لهم»بل تقول: لاٰ یَعْقِلُونَ و معناها أنّهم لدیهم العقول،إلاّ أنّهم لا یستوعبون و لا یتعقلون! و من أجل أن یحوّل القرآن أفکارهم من أفق هذه الحیاه المحدوده إلی عالم أوسع من خلال منظار العقل،فإنّه یبیّن فی الآیه التالیه کیفیه الحیاه الدنیا قیاسا إلی الحیاه الأخری الخالده،فی عباره موجزه و ملیئه بالمعانی،فیقول: وَ مٰا هٰذِهِ الْحَیٰاهُ الدُّنْیٰا إِلاّٰ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدّٰارَ الْآخِرَهَ لَهِیَ الْحَیَوٰانُ لَوْ کٰانُوا یَعْلَمُونَ .

کم هو تعبیر بلیغ و بدیع!لأنّ«اللهو»معناه الانشغال..أو کل عمل یصرف الإنسان إلیه و یشغله عن مسائل الحیاه الأساسیه.

أمّا«اللعب»فیطلق علی الأعمال التی فیها نوع من النظم الخیالی،و الهدف الخیالی أیضا،ففی اللعب یکون أحد اللاعبین ملکا،و الآخر وزیرا،و الثّالث قائدا للجیش،و الرابع-السارق أو«الحرامی»،و الخامس یمثل القافله و هکذا، و بعد انتهاء اللعب المؤقت یعود کل شیء إلی مکانته،و کأن المسأله لا تعدوا

طیفا..أو خیالا..فلا أثر و لا خبر.

فالقرآن فی هـذا الصدد یشـرح حال الدنیا و حال الآخره،مبینا أن الحیاه الدنیا هی نوع من الانشـغال و اللعب یجتمع الناس فیها و ینشدّون إلی تصورات قلوبهم و أنفسهم،و بعد أیّام یتفرقون و یختفون تحت التراب،ثمّ یطوی کل شیء و یغدو فی سله النسیان.

أمّـا الحیاه الحقیقیه التی لا فناء بعـدها،و لا ألم فیها،و لا قلق و لا خوف و لا تضاد و لا تزاحم،فهی الحیاه الآخره فحسب...لو کان الإنسان یعرف ذلک، و کان أهلا للتـدقیق و التحقیق! أمّا الـذین تعلقت قلوبهم بهـذه الحیاه،و فتنوا برزقها و زخرفها و زبرجها، و یأنسون بها،فهم أطفال لا غیر و إن امتدت أعمارهم سنین طویله.

و ینبغی الالتفات إلی أنّ المراد من«الحیوان»علی زنه«خفقان»هو الحیاه، فهذه الکلمه تحمل معنی مصدریا (۱) ..

و هذا التعبیر وَ إِنَّ الدّٰارَ الْآخِرَهَ لَهِیَ الْحَیَوٰانُ إشاره إلی أن الحیاه الحقیقیه هی فی الأخری،لا فی هذه الدار الدنیا-فکأنّ الحیاه فی الأخری تفور من جمیع أبعادها،و لا شیء هناک إلّا الحیاه.

و بـدیهی أن القرآن لا یریـد أن ینسـی و ینفی مواهب اللّه فی هـذه الـدار الـدنیا، بل یرید أن یجسد قیمه هذه الدنیا بالقیاس إلی الأخری قیاسا صریحا و واضحا...

و إضـافه إلی کل ذلک فإنّه ینـذر الإنسان لئلا یکون أسیرا لهـذه المواهب،بل ینبغی أن یکون أمیرا علیها،و لا یؤثرها علی القیم الأصیله أبدا.

و فی المرحله الثّالثه...یتجه القرآن نحـو الفطره و الجبلّه الإنسـانیه،و نحـو تجلّی نور التوحیـد فی أشـدّ الأزمـات فی أعمـاق روح الإنسـان،و ضـمن مثـال بـدیع جـدّا و بلیغ فیقول: فَإِذٰا رَکِبُوا فِی الْفُلْکِ دَعَوُا اللّٰهَ مُخْلِصِینَ لَهُ الـدِّینَ فَلَمّٰا نَجّٰاهُمْ إِلَی الْبَرِّ إِذٰا هُمْ یُشْرِکُونَ .

ص: ۴۴۸

۱- ۱) -أصل الکلمه مشتق من«حیی»و مصدرها«حییان»ثم أبدلت الیاء الثانیه واوا فصارت حیوان.

أجل،إنّ الشدائد و الأزمات هی التی تهیء الارضیه لتفتح الاجتماعیه «الفطره»الإنسانیه،لأنّ نور التوحید مخفی فی أرواح الناس جمیعا،إلّا أن الآداب و المسائل الخرافیه و التربیه الخاطئه و التلقینات السیئه تلقی علیه ظلالا و أستارا،و لکن حین تحدق بالإنسان الشدائد و تحیط به دوّامات المشاکل، و یری یده قاصره عن الأسباب الظاهریه،یتجه بدون اختیاره إلی عالم ما وراء الطبیعه،و یخلص قلبه من کل نوع من أنواع الشرک و الکفر،و ینصهر فی تنور الحوادث،و یکون مصداقا لقوله تعالی: مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ .

و ملخص الکلام:إنّه توجد فی داخل قلب الإنسان دائما نقطه نورانیه،و هی خطّ ارتباطه بما وراء عالم الطبیعه،و أقرب طریق إلی اللّه.

إلّا أنّ التعلیمات الخاطئه و الغفله و الغرور-و خاصه عند السلامه و وفور النعمه-تلقی علیها أستارا،غیر أن طوفان الحوادث یزیل هذه الأستار،و تتجلی نقطه النور آنذاک.

و علی هذا،فإنّ أئمّه المسلمین العظام کانوا یرشدون المترددین فی مسأله «معرفه اللّه»و یغرقون فی الشک و الحیره..بهذا الأمر.

و قصّه الرجل المتحیّر المبتلی بالشک فی معرفه اللّه،و الذی أرشده الإمام الصادق علیه السّلام عن طریق الفطره و الوجدان،سمعناها جمیعا إذ

قال:یا ابن رسول اللّه، دلّنی علی اللّه ما هو؟!فقد أکثر علی المجادلون و حیّرونی! فقال له الإمام علیه السّلام:«یا عبد اللّه،هل رکبت سفینه قطّ؟ قال:نعم.

قال:فهل کسر بک حیث لا سفینه تنجیک و لا سباحه تغنیک؟! قال:نعم! قال:فهل تعلّق قلبک هنالک أن شیئا من الأشیاء قادر علی أن یخلصک من

ورطتک؟! قال:نعم.

قال الصادق علیه السّلام:فذلک الشیء هو اللّه القادر علی الإنجاء حیث لا منجی، و علی الإغاثه حیث لا مغیث». (۱)

و فی آخر آیه-من الآیات محل البحث-و بعد ذکر جمیع هذه الدلائل علی التوحید و عباده اللّه،یواجه القرآن المشرکین و الکفار بتهدید شدید فیقول:إن هؤلاء أنکروا آیاتنا و کفروا بما رزقناهم من النعم فلیتمتعوا بها أیّاما قلائل:

لِیَکْفُرُوا بِما آتَیْناهُمْ وَ لِیَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ

عاقبه کفرهم و شرکهم إلی أین ستبلغ بهم؟ و أی ابتلاء و مصیر مشؤوم سیقعون فیه؟! و بالرغم من أنّ ظاهر الآیه هنا هو الأمر بالکفر و إنکار آیات اللّه...إلاّ أن من البدیهی أنّ المراد منه التهدید...و هذا تماما ینطبق مثلا علی ما لو قلنا لمذنب جان:افعل ما بدا لک من إجرام،إلاّ أنّک سرعان ما تذوق مراره عملک؟ ففی مثل هذه العبارات،و إن استعملت صیغه الأمر فیها،إلاّ أنّ الهدف من ورائها هو التهدید و لیس الطلب.

و الطریف أن جمله فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ جاءت بصوره مطلقه،فهی لا تقول:

أی شیء یعلمون...بل تقول:سیعلمون عاجلا،هذا هو معنی فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ .

إطلاق الکلام هذا لیکون مفهومه واسعا و لا یتحدد ذهن السامع بأی شیء فنتیجه الأعمال السیئه هی عذاب اللّه،الافتضاح فی الدارین،و کل أنواع الشقاء و سوء العاقبه!.

۱- ۱) -بحار الأنوار،ج ۳،ص ۴۱»الطبعه الجدیده.

ملاحظه

اشاره

الشدائد و اشراق القطره:

سنتحدث بإذن اللّه فی ذیل الآیه الثلاثین من سوره الروم حول«فطریّه» أصل التوحید و معرفه اللّه بشکل مفصّل،و ما یلزم ذکره هنا هو أنّ القرآن المجید یتحدث فی آیات کثیره عن المشاکل و الصعاب علی أنّها باعثه علی ظهور الفطره الإنسانیه و بروزها«فالمشاکل و الصعاب وسیله لاشراق الفطره».

یقول القرآن فی بعض آیاته: وَ مٰا بِکُمْ مِنْ نِعْمَهٍ فَمِنَ اللّٰهِ ثُمَّ إِذٰا مَسَّکُمُ الضُّرُّ فَإِلَیْهِ تَجْئَرُونَ ثُمَّ إِذٰا کَشَفَ الضُّرَّ عَنْکُمْ إِذٰا فَرِیقٌ مِنْکُمْ بِرَبِّهِمْ یُشْرِکُونَ . (۱)

و یأتی هذا المعنی فی سوره یونس،و لکن بأسلوب آخر،إذ یقول القرآن إِذٰا مَسَّ الْإِنْسٰانَ الضُّرُّ دَعٰانٰا لِجَنْبِهِ أَوْ قٰاعِداً أَوْ قٰائِماً فَلَمّٰا کَشَفْنٰا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ کَأَنْ لَمْ یَدْعُنٰا إِلیٰ ضُرٍّ مَسَّهُ (۲) کما ورد هذا المعنی فی سوره الروم الآیه(۳۲) و سوره الزمر الآیه(۴۹)و سوره الإسراء الآیات(۶۷)-(۶۹)بعبارات أخری و إشارات ملیئه بالمعانی.

و فی الآیات-محل البحث-قرأنا أیضا أن المشرکین فی الحالات العادیه یتجهون إلی الأصنام،و لکن إذا سافروا فی البحر و أحاطت بهم الأمواج و الطوفان،و أضحت سفینتهم کالقشه فی وسط الأمواج المتلاطمه تتقاذفها هنا و هنا،و انقطعت بهم السبل تتنور قلوبهم بنور التوحید و یلقون جانبا جمیع المعبودات المصنوعه،و یخلصون قلوبهم کاملا-لکن خلوصا إجباریا لا قیمه له - فما أن یهدأ الطوفان و تتلاشی الأمواج و تعود الحاله الاعتیادیه،حتی تنزل الأسدال علی الفطره و تظهر أشواک الشرک و الوثنیه علی هذه«الورده».

۱- ۱) -النحل،الآیتان ۵۳-۵۴»

۲- ۲) -یونس،الآیه ۱۲.

قد يقال:إنّ هذه الحاله من التوجه تحصل على أثر التلقين و الرسوبات الفكريه من الثقافه الاجتماعيه و أفكار المحيط.

و يمكن قبول مثل هـذا الكلام فيما إذا كانت هـذه المسأله تحـدث خاصّه فى موارد المتدينين أو الذين نشؤوا فى محيط دينى،و لكن مع الالتفات إلى أن هـذه الحاله تظهر حتى عنـد أشد المنكرين للّه،و فى المجتمعات غير المذهبيه،فيتّضح حينئذ أن جذرها كامن فى الضمير(غير الواعى)للإنسان،و فى داخل فطرته و جبلّته!.

الآيات [سوره العنكبوت (۲۹): الآيات ۶۷ الی ۶۹]

اشاره

أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنّٰا جَعَلْنٰا حَرَماً آمِناً وَ يُتَخَطَّفُ اَلنّٰاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَ فَبِالْبٰاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَهِ اَللّٰهِ يَكْفُرُونَ (۶۷) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اِفْتَرىٰ عَلَى اَللّٰهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَهُ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكٰافِرِينَ (۶۸) وَ اَلَّذِينَ جٰاهَدُوا فِينٰا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنٰا وَ إِنَّ اَللّٰهَ لَمَعَ اَلْمُحْسِنِينَ (۶۹)

سبب النّزول

نقل فی تفسیر«الدر المنثور»عن ابن عباس-ذیل الآیه محل البحث- أن جماعه من المشرکین قالوا:یا محمّد ما یمنعنا أن ندخل فی دینک إلاّ مخافه أن یتخطفنا الناس لقلّتنا و العرب أکثر منّا فمتی بلغهم أنا قد دخلنا فی دینک اختطفنا فکنّا أکله رأس،فانزل اللّه: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنّٰا جَعَلْنٰا حَرَماً و کانت جوابا لهم.

التّفسیر

أشارت الآیات-التی سبق ذکرها-إلی بعض الحجج الواهیه للمشرکین، و هی أنّنا نخاف علی حیاتنا إذا أظهرنا الإیمان ثمّ هاجرنا معک یا رسول اللّه،و قد ردّ علیها القرآن بطرق مختلفه.

و فی الآیات-محل البحث-یردّ القرآن علیهم بطریق آخر فیقول: أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنّٰا جَعَلْنٰا حَرَماً آمِناً أی أرض مکّه المکرمه.

فی حین أن العرب کانوا یعیشون فی حاله غیر آمنه خارج مکّه،و کانت قبائلهم مشغوله بالنهب و السلب و الغارات،إلاّ أن هذه الأرض باقیه علی أمنها وَ یُتَخَطَّفُ النّٰاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ .

فاللّه المقتدر علی أن یجعل فی هذا البحر المتلاطم و الطوفان المحدق بأرض الحجاز«من الفتن»حرم مکّه کالجزیره الهادئه الآمنه وسط البحر.کیف لا یمکنه أن یحفظهم من أعدائهم؟!و کیف یخافون الناس الضعاف قبال قدره اللّه العظیمه جلّ و علا؟ أَ فَبِالْبٰاطِلِ یُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَهِ اللّٰهِ یَکْفُرُونَ .

و ملخص الکلام،إنّ اللّه القادر علی أن یجعل فی أرض مضطربه فی وسط جماعه من الناس أنصاف وحشیین منطقه صغیره آمنه،فکیف لا یقدر علی حفظ جماعه المؤمنین القلائل بین جماعات کثیره من الکفار.

و بعد ذکر هذا الدلیل الواضح ینتهی القرآن الی هذه النتیجه فی الآیه التالیه وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَریٰ عَلَی اللّٰهِ کَذِباً أَوْ کَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَهُ .

لقد قدمنا دلائل واضحه لکم علی أنّه لا شیء أحق بالعباده و أحری بها من اللّه،لکنّکم کذبتم علی اللّه،و صنعتم له شرکاء بأیدیکم،و تدعون أن هذا هو منهج إلهی.

و من جهه أخری،فإنّ القرآن الذی أنزلناه علیکم فیه دلائل الحق لائحه واضحه،إلاّ أنّکم لم تکترثوا به،و ألقیتموه وراءکم ظهریا!فهل یتصور ظلم أشدّ من هذا؟!لقد ظلمتم أنفسکم و ظلمتم الناس جمیعا،لأنّ الشرک ظلم عظیم.

و بتعبیر آخر:هل الظلم بمعناه الوسیع إلاّ الانحراف و إخراج الشیء عن محلّه الجدیر به،و هل یری أسوأ من أن یعدّ الإنسان حفنه من الأحجار المصنوعه التی لا قیمه لها أو الخشب المصنوع شرکاء للخالق سبحانه الذی

خلق السماوات و الأرض.

إضافه إلى ذلك فإنّ الشرك مصدر جميع المفاسد الاجتماعيه،و فى الواقع إن المظالم الأخرى تسترفد منه،عباده الهوى،عباده المقام،عباده الدنيا،كل منها نوع من الشرك.

و لكن اعلموا أنّ عاقبه الشؤم و الخزى للمشركين أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ .

من الجدير ذكره أنّ فى القرآن الكريم ۱۵ موردا عبّر فيها القرآن عن بعض الأفراد بأنّهم الأظلم،و جميع هذه الموارد بدأت بجمله استفهاميه وَ مَنْ أَظْلَمُ طبعا الاستفهام هنا استنكارى.

و التدقيق فى هذه الآيات يدل على أنّ الآيات المذكوره و إن عالجت مسائل متنوعه،إلاّ أنّها جميعا تعود إلى الشرك،فعلى هذا لا تضاد بينها أبدا.«لمزيد الإيضاح يراجع تفسير الآيه(۲۱)من سوره الأنعام».

و آخر آيه-من الآيات محل البحث-و هى فى الوقت ذاته آخر آيه سوره العنكبوت،تبيّن واقعا مهما،و هى عصاره جميع هذه السوره،و تنسجم مع بدايتها،، تقول الآيه..بالرغم من أن المشاكل المتعدده تحيط بطريق المسير إلى اللّه، من قبيل مشكله معرفه الحق،و مشكله وساوس الشياطين من الإنس و الجن، و مشكله عناد الأعداء الألداء الظالمين الذين لا يرحمون،و مشكله الانحرافات الاحتماليه،لكن هنا حقيقه ثابته،و هى أن اللّه يمنحكم القوّه و الاطمئنان قبال المشاكل و يدافع عنكم،تقول الآيه: وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ .

و فى معنى«الجهاد»هنا و المراد منه احتمالات متعدده.أ هو جهاد الأعداء؟ أم جهاد النفس؟أم الجهاد فى سبيل معرفه اللّه عن الطرق العلميه؟

للمفسّرين آراء فی هذا المجال.

و کذلک فی معنی«فینا»الذی ورد تعبیره فی الآیه،هل المراد منه فی سبیل اللّه؟!أم فی سبیل الجهاد للنفس،أم فی سبیل العباده،أم مواجهه الأعداء؟ و لکن من الواضح أنّ التعبیر بالجهاد له معنی واسع مطلق،و مثله التعبیر بکلمه«فینا»فالتعبیر یشمل کل سعی و جهاد فی سبیل اللّه و من أجله،و للوصول إلی الأهداف الإلهیه،کل ذلک یصدق علیه جَاهَدُوا فِینَا سواء کان فی سبیل کسب المعرفه!أو جهاد النفس،أو مواجهه الأعداء،أو الصبر علی الطاعه،أو الصبر علی المعصیه،أو فی إعانه الضعفاء،أو فی الإقدام علی أی عمل حسن و صالح! و یتّضح ممّا قلناه ضمنا أنّ المراد ب«السبل»الطرق المتعدده التی تنتهی إلی اللّه،سبیل جهاد النفس،سبیل جهاد الأعداء،سبیل العلم و الثقافه.و الخلاصه،فإن الجهاد فی کل طریق من هذه الطرق و السبل سبب لهدایه المسیر المنتهی إلی اللّه.

و هذا وعد وعده اللّه لجمیع المجاهدین فی سبیله،و أکده بأنواع التأکیدات ک«لام التأکید و النون الثقیله»و جعل التوفیق و الإنتصار و الرقی فی محور شیئین هما«الجهاد»و«خلوص النیه».

و یعتقد جماعه من الفلاسفه أنّ التفکر و المطالعه لا یوجدان العلم،بل یهیئان روح الإنسان لقبول صور المعقولات،و حین تتهیأ الروح الإنسانیه للقبول یتنزّل «الفیض»من قبل الخالق المتعال و واهب الصور بالعلم و«الحکمه».

فعلی هذا ینبغی علی الإنسان أن یجاهد فی هذا الطریق،إلاّ أن الهدایه بید اللّه تعالی.

و ما

ورد فی الحدیث أنّه «لیس العلم بکثره التعلم و التعلیم،بل هو نور یقذفه اللّه فی قلب من یشاء» ،فلعله إشاره إلی هذا المعنی أیضا.

ملاحظتان

اشاره

۱-الجهاد و الإخلاص

يستفاد من الآيه المتقدمه بصوره جيده أنّنا إذا أصبنا بأى نوع من الهزيمه عدم الموفقيه،فسبب ذلك و علته أحد أمرين:إمّا أنا قصّرنا فى جهادنا،أو لم يكن لدينا إخلاص فى العمل،و إذا اجتمع الجهاد و الإخلاص-فبناء على وعد اللّه- فإن النصر و الهدايه حتميّان.

و لو فكّرنا جيدا لاستطعنا أن نعزو جميع المشاكل و المصائب فى المجتمع الإسلامى الى التقاعد عن الجهاد و عدم الإخلاص،فهما مصدرها.

فلم تأخر المسلمون،الذين كانوا متقدمين بالأمس!؟ و لم يمدون يد الحاجه إلى الأجانب فى كل شىء،حتى فى الثقافه و القوانين،و حتى نظمهم الخاصه.

و لم يعتمدون على غيرهم من أجل حفظ أنفسهم من التيارات السياسيه و الهجومات العسكريه.

لم كان الآخرون جالسين يوما على مائده المسلمين التى كان خوانها مبسوطا بالعلم و الثقافه و المعرفه،و اليوم أصبح المسلمون جالسين على مائده الآخرين؟!! و أخيرا،لم نرى المسلمين أسرى فى قبضه الآخرين،و أراضيهم مغصوبه من قبل الظالمين؟ الإجابه على جميع هذه الأسئله منحصره فى سبب واحد،هو«نسيانهم الجهاد»أو«عدم الخلوص فى النيه».

أجل،لقد أهملوا الجهاد فى الميادين العلميه و الثقافيه و السياسيه و الاقتصاديه و العسكريه،و تغلّب عليهم حب النفس و عشق الدنيا او طلب الراحه و النظره الضيقه و الأغراض الشخصيّه،حتى أصبح قتلاهم على أيديهم

أكثر من قتلاهم على أيدى أعدائهم!.

إنّ استغراب بعض المسلمين الذى انبهروا بحضاره الغرب الرأسمالى أو الشرق الاشتراكى،و عماله بعض الرؤساء و الزعماء،و يأس و انزواء العلماء و المفكرين كل ذلك سلبهم التوفيق الى الجهاد،و كذلك حرمهم من الإخلاص.

و متى ما ظهر قليل من الإخلاص بين صفوفنا،و تحرك مجاهدونا حركه ذاتيه،فإن النصر يكون حليفنا واحدا بعد الآخر...و تتقطع غلال الأسر...و يتبدل اليأس إلى أمل مشرق،و سوء الحظ الى حسن الحظ،و الذله إلى العزه و رفعه الرأس،كما تتبدل الفرقه و الشتات إلى الوحده و الانسجام.

و ما أعظم ما قاله القرآن!و ما أبلغ إلهامه!إذ جمع فى جمله واحده الداء و الدواء معا.

أجل إن الذين يجاهدون فى سبيل اللّه تشملهم هدايته،و من البديهى أنّه مع هدايه اللّه،فلا ضلال و لا خسران،و لا انهزام.

و إذا لاحظنا أن الآيه مفسره فى بعض روايات أهل البيت عليهم السّلام بآل محمّد صلّى اللّه عليه و آله و أتباعهم،فهى مصداق كامل لذلك«التّفسير»لأنّهم كانوا السابقين و المتقدمين فى طريق الجهاد،و ليس فى الآيه دليل على تحديد مفهومها أبدا.

و على كل حال،فإنّ كل إنسان يلمس هذه الحقيقه القرآنيه..فى سعيه و اجتهاده،حيث يجد الأبواب مفتوحه عند ما يعمل للّه و فى سبيل اللّه،و تنتهى مشاكله السهله و الصعبه و تضحى بسيطه متحمله.

٢-الناس ثلاثه أصناف:

فصنف لجوج معاند لا تنفعه أيه هدايه.

و صنف مجد دؤوب مخلص،و هذا الصنف يصل إلى الحق.

و صنف ثالث أعلى من الصنف الثانى،فهذا الصنف ليس بعيدا حتى يقترب

من الحق،و لا منفصلا عنه حتى يتصل به،لأنّه معه أبدا.

فالآيه المتقدمه وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ إشاره إلى الصنف الأوّل.

و جمله وَ الَّذِينَ جٰاهَدُوا فِينٰا إشاره إلى الصنف الثّانى.

و جمله إِنَّ اللّٰهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ إشاره إلى الصنف الثّالث.

و يستفاد-ضمنا-من هذا التعبير أن مقام«المحسنين»أسمى من مقام «المجاهدين»،لأنّ المحسنين إضافه إلى جهادهم فى سبيل اللّه لنجاه أنفسهم، فهم مؤثرون غيرهم على أنفسهم،و يحسنون إلى الآخرين،و يسعون لإعانتهم.

ربّنا وفقنا توفيقا ترحمنا به،فلا نكفّ أيدينا عن الجد و الاجتهاد.

إلهنا..ارزقنا الإخلاص حتى لا نفكر فى سواك،و لا نخطوا لغيرك.

إلهنا..ارفع درجاتنا حتى نعلو على مقام المجاهدين و ننال درجه المحسنين،و ارزقنا هدايتك فى جميع أعمارنا.

آمين يا ربّ العالمين انتهاء سوره العنكبوت

ص :۴۵۹

سوره الروم

اشاره

مکیّه و عدد آیاتها ستون آیه

ص :۴۶۱

محتوى سوره الروم:

حيث أنّ هـذه السوره جميعهـا نزلت بمكّه-كمـا هو المشـهور-فإنّ محتوى السور المكيه،و روحها باد عليها...أى إنّها تبحث قبل كل شـيء عن المبدأ و المعاد،لأنّ فتره مكّه هى فتره تعلم الإعتقادات الإسلاميه الأصليه الأساسيه، كالتوحيد و مواجهه الشرك و التوجه ليوم المعاد و محكمه العدل الإلهى و البعث و النشور..إلخ...كما تثار خلال هذه المباحث مسائل أخرى ترتبط بها.

و يمكن تلخيص مضامين هذه السوره فى سبعه أقسام:

۱-التنبؤ بانتصار الروم على الفرس فى معركه تحدث فى المسـتقبل،و ذلك لما جرى من الحديث بين المسلمين و المشركين فى هذا الصدد،و سيأتى تفصيل ذلك فى الصفحات المقبله بإذن اللّه.

۲-جانب من طريقه التفكير عند غير المؤمنين و كيفيه أحوالهم،ثمّ التهديدات لهم بالعذاب و الجزاء(الإلهى)فى يوم القيامه.

۳-قسم مهم من آيـات«عظمه اللّه»فى الأرض و السـماء،و فى وجود الإنسان،من قبيل خروج الحى من الميت،و خروج الميت من الحىّ..و خلق الإنسـان من تراب،و نظـام الزوجيه بالنسـبه للناس،و علاقه الموده بين كل من الزوجين،خلق السـماوات و الأرض و اختلاف الألسن،نعمه النوم فى الليل

و الحركه فی النهار،و ظهور البرق و الرعد و الغيث و حياه الأرض بعد موتها، و تدبير اللّه لأمر السماء و الأرض.

۴-الكلام عن التوحيد«الفطری»بعد بيان دلائله فی الآفاق و فی الأنفس لمعرفه اللّه سبحانه.

۵-العوده إلى شرح أحوال غير المؤمنين و المذنبين و تفصيل حالاتهم، و ظهور الفساد فی الأرض نتيجه لآثامهم و ذنوبهم.

۶-إشاره إلى مسأله التملك،و حق ذوی القربی،و ذم الربا.

۷-العوده-مرّه أخری-إلى دلائل التوحيد،و آيات اللّه و آثاره،و المسائل المتعلقه بالمعاد.

و بشكل عام فإنّ فی هذه السوره-كباقی سور القرآن الأخری مسائل استدلاليه و عاطفيه و خطابيه ممزوجه مزجا..حتی غدت«مزيجا»كاملا لهدايه النفوس و تربيتها.

فضيله سوره الروم:

ورد فی حديث للإمام الصادق عليه السّلام كما أشرنا إليه من قبل،فی فضيله هذه السوره و سوره العنكبوت ما يلی:«من قرأ سوره العنكبوت و الروم فی شهر رمضان ليله ثلاث و عشرين فهو و اللّه-(يا أبا محمّد)-من أهل الجنّه لا أستثنی فيه أبدا،و لا أخاف أن يكتب اللّه علی فی يمينی إثما،و إن لهاتين السورتين من اللّه مكانا» (۱) .

و

فی حديث آخر عن النّبی صلّى اللّه عليه و آله ورد ما يلی «من قرأها كان له من الأجر عشر

۱- ۱) -ثواب الأعمال للصدوق،طبقا لنقل تفسير نور الثقلين،ج ۴،ص ۱۶۴.

حسنات بعدد كل ملك سبح اللّه بين السماء و الأرض،و أدرك ما ضيع في يومه و ليلته» (۱) .

و من البـديهى أن من جعـل محتوى هـذه السوره التى هى درس عام للتوحيـد و محكمه القيامه الكبرى،فى روحه و قلبه،و راقب اللّه فى كل لحظه،و اعتقد بيوم الجزاء حقا،فإن تقوى اللّه تملأ قلبه حتى يكون حقيقا بهذا الأجر و الثواب.

۱- ۱) -مجمع البيان،بدايه سوره الروم.

الآيات [سوره الروم (۳۰): الآيات ۱ الی ۷]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ الم (۱) غُلِبَتِ اَلرُّومُ (۲) فِي أَدْنَى اَلْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (۳) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلّٰهِ اَلْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ اَلْمُؤْمِنُونَ (۴) بِنَصْرِ اَللّٰهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشٰاءُ وَ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلرَّحِيمُ (۵) وَعْدَ اَللّٰهِ لاٰ يُخْلِفُ اَللّٰهُ وَعْدَهُ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ اَلنّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ (۶) يَعْلَمُونَ ظٰاهِراً مِنَ اَلْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا وَ هُمْ عَنِ اَلْآخِرَةِ هُمْ غٰافِلُونَ (۷)

سبب النّزول

يتفق المفسّرون الكبار على أن الآيات الأولى من هذه السوره نزلت فى أعقاب الحرب التى دارت بين الروم و الفرس،و انتصر الفرس على الروم،و كان النّبى حينئذ فى مكّه،و المؤمنون يمثلون الأقليه.

فاعتبر المشركون هذا الإنتصار للفرس فألا حسنا،و عدّوه دليلا على حقانيه المشركين و«الشرك»،و قالوا:إن الفرس مجوس مشركون،و أمّا الروم فهم مسيحيون«نصارى»و من أهل الكتاب..فكما أن الفرس غلبوا«الروم»فإن

الغلبه النهائیه للشرک أیضا،و ستنطوی صفحه الإسلام بسرعه و یکون النصر حلیفنا.

و بالرغم من أن مثل هـذا الاسـتنتاج عار من أی أساس،إلاّ أنّه لم یکن خالیا من التأثیر فی ذلک الجوّ و المحیط للتبلیغ بین الناس الجهله،لذلک کان هذا الأمر عسیرا علی المسلمین.

فنزلت الآیات الآنفه و قالت بشـکل قاطع:لئن غلب الفرس الروم لیأتینّ النصـر و الغلبه للروم خلال فتره قصیره.و قد حدّدت الفتره لانتصار الروم علی الفرس فی بِضْعِ سِنِینَ .

و هـذا الکلام السـابق لأوانه،هو من جهه دلیـل علی إعجـاز القرآن،هـذا الکتـاب السـماوی الـذی یسـتند علمه إلی الخـالق غیر المحـدود،و من جهه أخری کان فألا حسـنا للمسـلمین فی مقابل فأل المشـرکین،حتی أن بعض المسـلمین عقـدوا مع المشـرکین رهانا علی هذه المسأله المهمّه،و لم یکن فی ذلک الحین قد نزل الحکم بتحریم مثل هذا الشرط (۱) .

التّفسیر

اشاره

تنبؤ عجیب!

هذه السوره ضمن مجموع تسع و عشرین سوره تبدأ بالحروف المقطعه الم .

و قد بحثنا مرارا فی تفسیر هذه الحروف المقطعه«و خاصه فی بدایه سوره البقره و آل عمران و الأعراف».

۱- ۱) -جاء سـبب النّزول هذا فی کتب التفاسیر المختلفه بشیء من الاختلاف البسیط فی التعابیر،فراجع مجمع البیان و المیزان و نور الثقلین و تفسیر الفخر الرازی و أبو الفتوح الرازی،و تفسیر الآلوسی و فی ظلال القرآن و التفاسیر الأخری.

و الفارق الوحيد الذى نلاحظه هنا عن بقيه السور،و يلفت النظر،هو أنّه خلافا لكثير من السور التى تبدأ بالحروف المقطعه،التى يأتى الحديث بعدها على عظمه القرآن الكريم،بل بحثا عن اندحار الروم و انتصارهم فى المستقبل، و لكن مع التدقيق يتّضح أن هذا البحث يتحدث عن عظمه القرآن الكريم أيضا...

لأنّ هذا الخبر الغيبى المرتبط بالمستقبل هو من دلائل إعجاز القرآن،و عظمه هذا الكتاب السماوى!.

يقول القرآن بعد الحروف المقطعه غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ و هم قريب منكم يا أهل مكّه،إذ أنّهم فى شمال جزيره العرب،فى أراضى الشام فى منطقه بين«بصرى»و«أذرعات».

و من هنا يعلم بأنّ المراد من الروم هنا هم الروم الشرقيون،لا الروم الغربيون.

و يرى بعض المفسّرين كالشيخ الطوسى فى تفسير«التبيان»-أن من المحتمل أن يكون المراد بأدنى الأرض المكان القريب من بلاد فارس،أى إن المعركه وقعت فى أقرب نقطه بين الفرس و الروم. (۱)

و صحيح أن التّفسير الأوّل معه الألف و اللام للعهد-فى«الأرض»مناسب أكثر،و لكن و من جهات متعدده-كما سنذكرها-يبدوا أن التّفسير الثّانى أصحّ من الأول! و يوجد هنا تفسير ثالث،و لعلّه لا يختلف من حيث النتيجه مع التّفسير الثانى،هو أنّ المراد من هذه الأرض-هى أرض الروم،أى إنّهم غلبوا فى أقرب حدودهم مع بلاد فارس،و هذا يشير إلى أهميه هذا الاندحار و عمقه،لأنّ الاندحار فى المناطق البعيده و الحدود المترامية البعد ليس له أهميه بالغه،بل المهم أن تندحر دوله فى أقرب نقاطها من حدودها مع العدو،إذ هى فيها أقوى و أشدّ من غيرها.

۱- ۱) -تفسير التبيان،ج ۸،ص ۲۰۶.

فعلى هذا سيكون ذكر جمله فِي أَدْنَى الْأَرْضِ إشاره إلى أهميه هذا الانحدار.

و بالطبع فإن التنبؤ عن انتصار البلد المغلوب خلال بضع سنين فى المستقبل، له أهميه أكبر،إذ لا يمكن التوقع له إلاّ عن طريق الإعجاز.

ثمّ يضيف القرآن: وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ و هم أىّ الروم.و مع أن جمله«سيغلبون»كافيه لبيان المقصود،و لكن جاء التعبير مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ بشكل خاص لتتّضح أهميه هذا الإنتصار أكثر،لأنّه لا ينتظر أن تغلب جماعه مغلوبه و فى أقرب حدودها و أقواها فى ظرف قصير،لكن القرآن يخبر بصراحه عن هذه الحادثه غير المتوقعه.

ثمّ يبيّن الفتره القصيره من هذه السنين بهذا التعبير فِي بِضْعِ سِنِينَ (۱) و المعلوم أن«بضع»ما يكون أقله الثلاث و أكثره التسع.

و إذا أخبر اللّه عن المستقبل،فلأنّه لِلّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ .

و بديهىّ أن كون الأشياء جميعها بيد اللّه-و بأمره و إرادته-لا يمنع من اختيارنا فى الإراده و حريتنا و سعينا و جهادنا فى مسير الأهداف المنظوره.

و بتعبير آخر:إن هذه العباره لا تريد سلب الإختيار من الآخرين،بل تريد أن توضح هذه اللطيفه،و هى أن القادر بالذات و المالك على الإطلاق هو اللّه،و كل من لديه شىء فهو منه!.

ثمّ يضيف القرآن،أنّه إذا فرح المشركون اليوم بانتصار الفرس على الروم فإنه ستغلب الروم وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ .

أجل،يفرحون بِنَصْرِ اللّهِ...يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .

و لكن ما المراد من فرح المؤمنون؟!

ص: ۴۶۹

۱- ۱) -توجد احتمالات كثيره فى معنى«بضع»فقيل:إنّها تتراوح بين ثلاث و عشر،أو أنّها تتراوح بين واحده و تسع، و قيل:أقلّها ست و أكثرها تسع.إلاّ أن ما ذكرناه فى المتن هو المشهور.

قال جماعه:المراد منه فرحهم بانتصار الروم،و إن كانوا فی صفوف الكفار أيضا،إلاّ أنّهم لكونهم لديهم كتاب سماوی فانتصارهم على المجوس يعدّ مرحله من انتصار«التوحيد»على«الشرك».

و أضاف آخرون:إن المؤمنين إنّما فرحوا لأنّهم تفألوا من هذه الحادثه فألا حسنا،و جعلوها دليلا على انتصارهم على المشركين.

أو أن فرحهم كان لأنّ عظمه القرآن و صدق كلامه المسبق القاطع-بنفسه-انتصار معنوی للمسلمين و ظهر فی ذلك اليوم.

و لا يبعد هذا الاحتمال و هو أن انتصار الروم كان مقارنا مع بعض انتصارات المسلمين على المشركين،و خاصه أن بعض المفسّرين أشار إلى أن هذا الإنتصار كان مقارنا لانتصار بدر أو مقارنا لصلح الحديبيه.و هو بنفسه يعدّ انتصارا كبيرا، و خاصه إن التعبير بنصر اللّه أيضا يناسب هذا المعنى.

و الخلاصه:إنّ المسلمين«المؤمنين»فرحوا فی ذلك اليوم لجهات متعدده:

١-من انتصار أهل الكتاب على المجوس،لأنّه ساحه لانتصار الموحدين على المشركين.

٢-من الإنتصار المعنوی لظهور إعجاز القرآن.

٣-و من الإنتصار المقارن لذلك الإنتصار،و يحتمل أن يكون صلح الحديبيه،أو بعض فتوحات المسلمين الأخر!.

و لزياده التأكيد يضيف أيضا وَعْدَ اللّهِ (١) لاٰ يُخْلِفُ اللّٰهُ وَعْدَهُ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ و السبب فی عدم علم الناس،هو عدم معرفتهم باللّه و قدرته، فهم لم يعرفوا اللّه حق معرفته،فهم لا يعلمون هذه الحقيقه،و هی أن اللّه محال عليه أن يتخلف عن وعده،لأنّ التخلف عن الوعد إمّا للجهل،أو لأنّ الأمر كان مكتوما

١- ١) -نصب«وعد اللّه»على أنّه مفعول مطلق و عامله محذوف،و يعلم من الجمله التی قبله أی«سيغلبون»التی هی مصداق الوعد الإلهی،و يكون تقديره:وعد اللّه ذلك وعدا!.

ثمّ اتضح و صار سببا لتغيير العقيده،أو للضعف و عدم القدره،إذ لم يرجع الذى وعد عن عقيدته لكنّه غير قادر،لكن اللّه لا يتخلف عن الوعد،لأنّه يعرف عواقب الأمور،و قدرته فوق كل شیء.

ثمّ يضيف القرآن معقبا: يَعْلَمُونَ ظٰاهِراً مِنَ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غٰافِلُونَ .

إنّهم لا يعلمون إلاّ الحياه الدنيا فحسب،بل يعلمون الظاهر منها و يقنعون به! فكلّ ما تمثله نظراتهم و نصيبهم من هذه الحياه هو اللهو و اللذه العابره و النوم و الخيال...و ما ينطوى فى هذا الأدران السطحى للحياه من الغفله و الغرور،غير خاف على أحد.

و لو كانوا يعلمون باطن الحياه و واقعها فى هذه الدنيا،لكان ذلك كافيا لمعرفه الآخره!لأنّ التدقيق فى هذه الحياه العابره،يكشف أنّها حلقه من سلسله طويله و مرحله من مسير مديد كبير،كما أن التدقيق فى مرحله تكوين الجنين يكشف عن أن الهدف النهائى ليس هو هذه المرحله من حياه الجنين فحسب!بل هى مقدمه لحياه أوسع!.

أجل،هم يعلمون ظاهرا من الحياه الدنيا فحسب،و لكنّهم غافلون عن مكنونها و محتواها و مفاهيمها!.

و من الطريف هنا أن تكرار الضمير«هم»يشير إلى هذه الحقيقه،و هى أن عله هذه الغفله و سرّها تعود إليهم«فهم الغفله و هم الجهله»و هذا يشبه تماما قول القائل لك مثلا:لقد أغفلتنى عن هذا الأمر،فتجيبه:أنت كنت غافلا عن هذا الأمر، أى إن سبب الغفله يعود إلى نفسك أنت!.

بحوث

اشاره

۱-إعجاز القرآن من جهه«علم الغيب»

إن واحدا من طرق إثبات إعجاز القرآن،هو الإخبار بالمغيبات،و مثله الواضح فى هذه الآيات-محل البحث-ففى عدّه آيات يخبر بأنواع التأكيدات عن انتصار كبير لجيش منهزم بعد بضع سنين..و يعدّ ذلك وعدا إلهيّا غير مكذوب و لا يتخلف أبدا.

فمن جهه يتحدث مخبرا عن أصل الإنتصار و الغلب وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ .

و من جهه يتحدث عن خبر لانتصار آخر للمسلمين على الكفار مقترنا لزمان الإنتصار الذى يتحقق للروم وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللّٰهِ .

و من جهه ثالثه يصرّح أنّ هذا الأمر سيقع خلال عدّه سنوات فِي بِضْعِ سِنِينَ .

و من جهه رابعه يسجّل قطعيه هذا الوعد الإلهى بتأكيدين بالوعد وَعْدَ اللّٰهِ لاٰ يُخْلِفُ اللّٰهُ وَعْدَهُ .

و يحدثنا التأريخ أنّه لم تمض تسع سنوات حتى تحققت هاتان الحادثتان...

فقد انتصر الروم فى حربهم الجديده على الفرس،و اقترن زمان هذا الإنتصار ب«صلح الحديبيه»و طبقا لروايه أخرى أنّه كان مقارنا لمعركه بدر،إذ حقق المسلمون انتصارا ملحوظا على الكفار.

و الآن ينقدح هذا السؤال،و هو:هل يستطيع إنسان أن يخبر بعلم عادى بسيط،عن مثل هذه الحادثه المهمه بضرس قاطع؟..حتى لو فرضنا أن الأمر كان مع تكهّن سياسى-و لم يكن-فينبغى أن يذكر هذا الأمر بقيد«الاحتياط» و الاحتمال،لا بمثل هذه الصراحه و القطع،إذ لو ظهر خلافه لكان أحسن دليل

و سند على إبطال دعوى النبوه بيد الأعداء!.

و الحقيقه هى أنّ مسائل من قبيل توقّع انتصار دوله كبيره كالروم،أو مسأله المباهله،تدل بصوره جيده على أنّ نبيّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله كان قلبه متعلقا بمكان آخر، و كان له سند قوى،و إلّا فلا يمكن لأى أحد-فى مثل هذه الظروف-أن يجرأ على مثل هذا الأمر!.

و خاصه،إنّ مطالعه سيره النّبى صلّى اللّه عليه و آله تكشف أنّه لم يكن إنسانا يتصيد بالماء العكر،بل كانت أعماله محسوبه...فمثل هذا الادعاء من مثل هذا الشخص يدل على أنّه كان يعتمد على ما وراء الطبيعه،و على وحى اللّه و علمه المطلق.

و سنتحدث عن تطبيق هذا التنبؤ التاريخى فى القريب العاجل إن شاء اللّه.

٢-السطحيّون«أصحاب الظاهر»

تختلف نظره الإنسان المؤمن الإلهى أساسا مع نظره الفرد المادى المشرك، اختلافا كبيرا.

فالأوّل طبقا لعقيده التوحيد-يرى أن العالم مخلوق لربّ عليم حكيم، و جميع أفعاله وفق حساب و خطه مدروسه،و على هذا فهو يعتقد أن العالم مجموعه أسرار و رموز دقيقه،و لا شىء فى هذا العالم بسيط و اعتيادى،و جميع كلمات هذا الكتاب«التكوينى»ذات محتوى و معنى كبير.

هذه النظره التوحيديه تقول لصاحبها:لا تمرّ على أيه حادثه و أى موضوع ببساطه،إذ يمكن أن يكون أبسط المسائل أعقدها..فهو ينظر دائما إلى عمق هذا العالم و لا يقنع بظواهره،قرأ الدرس فى مدرسه التوحيد،و يرى للعالم هدفا كبيرا،و ما من شىء إلّا يراه فى دائره هذا الهدف غير خارج عنها.

فى حين أن الإنسان المادى غير المؤمن يعدّ الدنيا مجموعه من الحوادث

العمی و الصمّ التی لا هدف لها،و لا یفکر بغیر ظاهرها،و لا یری لها باطنا و عمقا أساسا.

تری هـل یعقـل أن یکون لکتـاب رسم طفـل علی صـفحاته خطوطا عشوائیه، أهمیه تـذکر؟!و کما یقول بعض العلماء الکبار فی علوم الطبیعه:إن جمیع علماء البشـر من أیه فئه کانوا و أیه طبقه،حین نهضوا للتفکیر فی نظام هـذا العالم،کانوا ینطلقون من تفکیر دینی«فتأملوا بدقّه».

«انشتاین»العالم المعاصر یقول:من الصعب العثور بین المفکرین فی العالم شخص لا یحس بدین خاص...و هذا الدین یختلف مع دین الإنسان العامی،إنّه یـدعو هـذا العالم إلی التحیّر من هـذا النظام العجیب و الـدقیق للکائنات،إذ تکشف عن وجهها أسـرارا لا تقاس مع جمیع تلک الجهود و الأفکار المنظمه للبشر (۱) !.

و یقول فی مکان آخر:إن الشیء الذی دعا العلماء و المفکرین و المکتشفین- فی جمیع القرون و الأعصار-أن یفکروا فی أسرار العالم الدقیقه،هو اعتقادهم الدینی.

و مـن جهـه أخری کیـف یمکن أن یسـاوی بین من یعتـبر هـذه الـدنیا مرحله نهـائیه و هـدفا أصـلیّا،و من یعـدّها مزرعه و میـدانا للامتحان للحیاه الخالده التی تعقب هذه الحیاه الدنیا،فالأوّل لا یری أکثر من ظاهر هذه الحیاه،و الآخر یفکر فی أعماقها!.

و هذا الاختلاف فی النظر یؤثر فی حیاتهم بأجمعها،فالذی یعیش حیاه سـطحیه و ظاهریه یعتبر الإنفاق سببا للخسران و الضرر،فی حین أن هذا «الموحد»یعدّها تجاره رابحه لن تبور.

و ذلک المادی یعتبر«أکل الربا»سببا للزیاده و وفره المال.و أمّا الموحد

۱- ۱) -نقلا عن کتاب«الدنیا التی أراها».

فیعده وبالا و شقاء و ضررا.

و ذلک یعتبر الجهاد ضنی و شقاء و یعتبر الشهاده فناء و انعداما،و أمّا الموحد فیعد الجهاد رمزا للرفعه،و الشهاده حیاه خالده! أجل،إن غیر المؤمنین لا یعرفون إلاّ الظواهر من الدنیا،و هم فی غفله عن الحیاه الأخری یَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَیاهِ الدُّنْیا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَهِ هُمْ غافِلُونَ .

۳-المطابقه التاریخیه

لکی نعرف المقطع التاریخی الذی حدثت فیه المعارک بین الروم و الفرس، یکفی أن نعرف فی ذلک التاریخ أن حربا طویله حدثت فی عهد«خسرو پرویز» ملک الفرس مع الروم استمرت زهاء أربع و عشرین سنه،حیث دامت من سنه «۶۰۴ میلادیه إلی سنه ۶۲۸».

و فی حدود سنه ۶۱۶ میلادیه هجم قائدان عسکریان فی الجیش الفارسی هما:(شهر براز»و(شاهین)علی الحدود الشرقیه للروم،فهزما الروم هزیمه نکراء،و سیطرأ علی منطقه الشامات و مصر و آسیا الصغری،فواجهت الروم الشرقیه بسبب هذه الهزیمه حاله الانقراض تقریبا،و استولی الفرس علی جمیع ما کان تحت ید الروم من آسیا و مصر.

و کان ذلک فی حدود السنه السابعه للبعثه! غیر أنّ ملک الروم«هرقل»بدأ هجومه علی بلاد فارس سنه ۶۲۲ میلادیه و ألحق هزائم متتابعه بالجیش الفارسی،و استمرت هذه المعارک حتی سنه ۶۲۸ لصالح الروم،و غلب خسرو پرویز،و انکسر انکسارا مریرا،فخلعه الفرس عن السلطنه و أجلسوا مکانه ابنه«شیرویه».

و بملاحظه أنّ مولد النّبی صلّی اللّه علیه و آله کان سنه ۵۷۱ میلادیه و کانت بعثته سنه ۶۱۰ میلادیه،فإن هزیمه الروم وقعت فی السنه السابعه للبعثه،و کان انتصارهم بین

سنتی خمس و ست للهجره النبویه،و من المعلوم أن السنه الخامسه حدثت فیها معرکه الخندق،و تم فی السنه السادسه صلح الحدیبیه،و بطبیعه الحال فإن تنقّل الأخبار عن حرب فارس و الروم إلی منطقه الحجاز و مکّه کانت تستوعب عاده فتره من الزمان،و بهذا ینطبق هذا الخبر القرآنی علی هذه الفتره التاریخیه بوضوح«فلاحظوا بدقه».

ص: ۴۷۶

الآیات [سوره الروم (۳۰): الآیات ۸ الی ۱۰]

اشاره

أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مٰا خَلَقَ اَللّٰهُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ اَلنّٰاسِ بِلِقٰاءِ رَبِّهِمْ لَكٰافِرُونَ (۸) أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي اَلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كٰانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَثٰارُوا اَلْأَرْضَ وَ عَمَرُوهٰا أَكْثَرَ مِمّٰا عَمَرُوهٰا وَ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ فَمٰا كٰانَ اَللّٰهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لٰكِنْ كٰانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۹) ثُمَّ كٰانَ عٰاقِبَةَ اَلَّذِينَ أَسٰاؤُا اَلسُّواىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيٰاتِ اَللّٰهِ وَ كٰانُوا بِهٰا يَسْتَهْزِؤُنَ (۱۰)

التّفسیر

اشاره

عاقبه المسیئین:

کان الکلام فی آخر آیه من البحث السابق عن السطحیین و أصحاب الظاهر، حیث کان أفق فکرهم لا یتجاوز حدود الدنیا و العالم المادی..و کانوا جاهلین بما وراء الطبیعه و یوم القیامه.

أمّا فی هذه الآیات-محل البحث-و الآیات المقبله،فیقع الکلام علی مطالب متنوعه حول المبدأ و المعاد،فتبدأ هذه الآیات أولا علی صوره استفهام

فتقول: أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِی أَنْفُسِهِمْ مٰا خَلَقَ اللّٰهُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى .

أی:لو أنّهم فكروا جيدا و رجعوا إلى عقلهم فی الحكم و وجدانهم،لكانوا يطلعون جيدا على هذين الأمرين:

أوّلا:إنّ العالم خلق على أساس الحق،و تحكمه أنظمه هی دليل على أنّ الخالق لهذا العالم ذو علم مطلق و قدره كامله.

و ثانيا:هذا العالم يمضی إلى الزوال،و حيث أن الخالق الحكيم لا يمكن أن يخلقه عبثا،فيدل ذلک على وجود عالم آخر هو الدار الباقيه بعد هذه الدنيا،و إلاّ فلا مفهوم لخلق هذا العالم،و هذا الخلق الطويل العريض لا يعقل أن يكون من أجل أيّام معدودات فی الحياه الدنيا،و بذلک يذعنون بوجود الآخره!.

فعلى هذا يكون التدقيق فی نظم هذا العالم و حقانيته دليلا على وجود المبدأ،و التدقيق فی أن هناک«أجلا مسمى»دليل على المعاد«فلاحظوا بدقه».

لذلک يضيف القرآن فی نهايه الآيه قائلا: وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النّٰاسِ بِلِقٰاءِ رَبِّهِمْ لَكٰافِرُونَ فينكرون لقاء اللّه.

أو إنّهم ينكرون المعاد أصلا،كما نقلنا عن قول المشركين مرارا فی آيات القرآن،إذ كانوا يقولون: أَ إِذٰا مِتْنٰا وَ كُنّٰا تُرٰاباً ذٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ إِنْ هٰذٰا إِلاَّ اخْتِلاٰقٌ إِنَّ هٰذٰا لَشَيْءٌ عُجٰابٌ .إنّ هذا..إنّ هذا..إلخ..و بتعابير مختلفه «كما ورد فی سوره الرعد الآيه(۵)،و سوره المؤمنون الآيه(۳۵)،و سوره النمل الآيه(۶۷)،و سوره ق الآيه(۳)و فی غيرها من السور».

أو إنّهم لا ينكرون بلسانهم،لكن أعمالهم«ملوثه»و مخزيه تدل على أنّهم غير معتقدين بالمعاد،إذ لو كانوا يعتقدون بالمعاد لم يكونوا فاسدين أو مفسدين!.

و التعبير ب فِی أَنْفُسِهِمْ لا يعنی أن يطالعوا فی أسرار وجودهم،كما يدّعی الفخر الرازی فی تفسيره،بل المراد منه أن يفكروا فی داخل أنفسهم عن طريق

العقل و الوجدان بخلق السماوات و الأرض.

و التعبير بِالْحَقِّ له معنيان:الأوّل:أنّ الخلق كان توأما مع الحق و القانون و النظم،و الآخر:أن الهدف من الخلق كان بالحق،و لا منافاه بين هذين التّفسيرين طبعا (١) .

و التعبير بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كما قلنا مرارا،هو إشاره إلى يوم القيامه و النشور، حيث تنكشف الحجب،و الإنسان يعرف عظمه اللّه بالشهود الباطنيين.

و حيث أنّ التعبير ب أَجَلٍ مُسَمًّى كاشف عن أن هذه الحياه على كل حال لا تدوم،و هذا إنذار لجميع عبده الدنيا،فإنّ القرآن يضيف فى الآيه التاليه قائلا:

أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَثارُوا الْأَرْضَ وَ عَمَرُوها أَكْثَرَ مِمّا عَمَرُوها وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ

أى بالدلائل الواضحات...إلّا أنّهم أهملوا ذلك،و لووا رؤوسهم،و لم يستسلموا للحق،فابتلوا بعقاب اللّه الأليم! وَ ما كانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

فى الواقع إنّ القرآن يشير إلى أمم كانت لهم-فى نظر مشركى مكّه-عظمه ملحوظه من حيث القدره و القوّه الجسميه و الثروه الماليه،و كان مصيرهم الأليم يمثل درسا من العبره لهؤلاء المشركين.

و يمكن أن تكون جمله أَثارُوا الْأَرْضَ إشاره إلى حرث الأرض للزراعه و التشجير،أو حفر الأنهار،أو تأسيس العمارات على الأرض،أو جميع هذه الأمور،لأنّ جمله أَثارُوا الْأَرْضَ لها مفهوم واسع يشمل جميع هذه الأمور التى هى مقدمه للعماره و البناء . (٢)

ص:۴۷۹

١- ١) -فى صوره ما لو قلنا بالتّفسير الأوّل،فإن«الباء»فى كلمه«بالحق»للمصاحبه،و فى التّفسير الثّانى تكون الباء بمعنى اللام،أى للحق.

٢- ٢) -«آثار»مأخوذه من ماده(ثور)على زنه(غور)و معناها التفريق و النشر،و إنّما سمى الثور ثورا لأنّه يثير الأرض و يفرّقها.

و حيث كانت أكبر قدره-فى ذلك العصر-تعنى التقدم فى الزراعه و الرقى الملحوظ من حيث البناء و العمارات،فإنّه يتّضح رفعه الأمم السالفه و علوهم على مشركى مكّه الذين كانت قدرتهم فى هذه المجالات محدوده جدّا.

إلاّ أنّ أولئك مع كل قدراتهم حين أنكروا آيات اللّه و كذبوا الأنبياء،لم يستطيعوا الفرار من مخالب العقاب،فكيف تستطيعون الفرار من عذاب اللّه؟! و هذا العقاب و الجزاء الأليم هو نتيجه أعمالهم المهلكه أنفسهم،إذ ظلموا أنفسهم،و لا يظلم ربّك أحدا.

أمّا آخر آيه من الآيات محل البحث،فتبيّن آخر مرحله من كفرهم فتقول:

ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُا السُّوایٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللّٰهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُنَ

.

أجل،إنّ الذنب أو الإثم يقع على روح الإنسان كالمرض الخبيث،فيأكل إيمانه و يعدمه،و يبلغ الأمر حدّا يكذب الإنسان فيه آيات اللّه،و أبعد من ذلك أيضا إذ يحمل الذنب صاحبه على الاستهزاء بالأنبياء،و السخريه بآيات اللّه، و يبلغ مرحله لا ينفع معها وعظ و نصيحه أبدا،و لا تؤثر فيه أيه حكمه و أيّه آيه، و لا يبقى طريق سوى أسواط عذاب اللّه المؤلمه له.

إنّ نظره واحده فى صفحات تاريخ كثير من الجناه و البغاه تكشف أنّهم لم يكونوا هكذا فى بدايه الأمر،إذ كان لديهم على الأقل نور إيمان ضعيف يشع فى قلوبهم،و لكن ارتكابهم للذنوب المتتابعه سبّب يوما بعد آخر أن ينفصلوا عن الإيمان و التقوى،و أن يبلغوا آخر الأمر إلى المرحله النهائيه من الكفر.

و نلاحظ فى خطبه العقيله زينب عليها السّلام أمام يزيد بن معاويه فى الشام،النتيجه ذاتها التى أشرنا إليها آنفا...لأنّها حين رأت يزيد يسخر بكل شىء و يتكلم بكلمات الكفر و أنشد أشعارا من ضمنها:

ليت أشياخى ببدر شهدوا

و هذه الكلمات تكشف عن عدم إيمانه بأساس الإسلام،فحمدت زينب اللّه تعالى و صلّت و سلّمت على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و

ص: ۴۸۰

ليت أشياخى ببدر شهدوا

و هذه الكلمات تكشف عن عدم إيمانه بأساس الإسلام،فحمدت زينب اللّه تعالى و صلّت و سلّمت على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و

قالت:

«صدق اللّه،كذلك يقول: ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللّهِ وَ كانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ ».

أى إذا أنكرت الإسلام و الإيمان هذا اليوم بأشعارك المشوبه بالكفر،و تقول لأسلافك المشركين الذين قتلوا على أيدى المسلمين فى معركه بدر:ليتكم تشهدون انتقامى من بنى هاشم،فلا مجال للتعجب،فذلك ما قاله اللّه سبحانه: ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللّهِ وَ كانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ ..

و قد ذكرت فى هذا الصدد مطالب كثيره.

و لمزيد من الإيضاح يراجع الجزء الخامس و الأربعون من بحار الأنوار الصفحه ۱۵۷. (۱)

ص :

---

۱ – ۱) –طبقا لما ذكرنا فى التّفسير تكون كلمه«السوءى»مفعولا لأساءوا و جمله أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللّهِ مكان اسم كان و خبرها«عاقبه الذين». و يذكر العلاّمه الطباطبائى ذلك فى الميزان بصوره احتمال،و إن لم ينتخبه هو نفسه،و يرى«أبو البقاء»فى كتاب «إملاء ما منّ به الرحمن»الصفحه ۱۸۵ الجزء الثانى،أنّه واحد من احتمالين مقبولين. إلاّ أن أغلب المفسّرين كالطبرسى و صاحب الميزان،و الفخر الرازى،و الآلوسى،و أبو الفتوح الرازى و القرطبى و سيد قطب فى ظلاله،و الطوسى فى تبيانه»يقوّون احتمالا آخر فى تفسير الآيه..و هو أن كلمه«السوءى»اسم كان، و جمله«إن كذبوا»فى مقام التعليل. و طبقا لهذا التّفسير يكون معنى الآيه:و أخيرا فإن عاقبه أعمال المسيئين كانت السوء،لأنّهم كذبوا بآياتنا.و هذا المعنى شبيه بقوله تعالى: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنىٰ . إلاّ أن الأنصاف أن هذا التفسير خلاف ما يستظهر من الآيه،و انتخاب المفسّرين لهذا الرأى و التفسير لا يصرفنا عما هو منسجم مع الآيه،و خاصه أنّهم اضطروا إلى أن يقدروا اللام فى جمله«أن كذبوا»و التقدير خلاف الظاهر «فلاحظوا بدقه».

الآیات [سوره الروم (۳۰): الآیات ۱۱ الی ۱۶]

اشاره

اَللّٰهُ یَبْدَؤُا اَلْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ ثُمَّ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۱۱) وَ یَوْمَ تَقُومُ اَلسّٰاعَهُ یُبْلِسُ اَلْمُجْرِمُونَ (۱۲) وَ لَمْ یَکُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَکٰائِهِمْ شُفَعٰاءُ وَ کٰانُوا بِشُرَکٰائِهِمْ کٰافِرِینَ (۱۳) وَ یَوْمَ تَقُومُ اَلسّٰاعَهُ یَوْمَئِذٍ یَتَفَرَّقُونَ (۱۴) فَأَمَّا اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ فَهُمْ فِی رَوْضَهٍ یُحْبَرُونَ (۱۵) وَ أَمَّا اَلَّذِینَ کَفَرُوا وَ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا وَ لِقٰاءِ اَلْآخِرَهِ فَأُولٰئِکَ فِی اَلْعَذٰابِ مُحْضَرُونَ (۱۶)

التّفسیر

اشاره

مصیر المجرمین و مآلهم یوم القیامه!

کان الکلام فی الآیات المتقدمه عن الذین یکذّبون و یستهزءون بآیات اللّه، و فی الآیات-محل البحث-تستکمل البحوث السابقه عن المعاد،مع بیان جوانب منه،و مآل المجرمین فی القیامه! فتبدأ الآیات بالقول: اَللّٰهُ یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ ثُمَّ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ و یبیّن فی هذه الآیه استدلال قصیر موجز،و ذو معنی کبیر،علی مسأله المعاد.و قد ورد هذا المعنی بعباره أخری فی بعض آیات القرآن الأخری و منها قُلْ یُحْیِیهَا الَّذِی أَنْشَأَهٰا أَوَّلَ مَرَّهٍ وَ هُوَ بِکُلِّ خَلْقٍ عَلِیمٌ الَّذِی جَعَلَ لَکُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نٰاراً

فَإِذٰا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ أَ وَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِقٰادِرٍ عَلىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلىٰ وَ هُوَ الْخَلاّٰقُ الْعَلِيمُ

(۱)

و جمله ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ إشاره إلى أنّه بعد النشور و القيامه يعود الجميع إلى محكمه اللّه،و الأسمى من ذلك أن المؤمنين يمضون فى تكاملهم نحو ذات اللّه المقدسه إلى ما لا نهايه..

و الآيه الأخرى تجسد حاله المجرمين يوم القيامه يَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ .

«يبلس»مأخوذ من ماده«إبلاس»و تعنى فى الأصل الغم و الحزن المترتبان على أثر شده اليأس و القنوط.

و بديهى أنّه إذا يئس الإنسان من شىء غير ضرورى،فهذا اليأس غير مهم، لكن الحزن و الغم يكشف فى هذه الموارد عن أمور ضروريه مأيوس منها،لذلك يرى بعض المفسّرين أنّ«الضروره»جزء من«الإبلاس»و إنّما سمّى«إبليس» بهذا الاسم،فلأنّه أبلس من رحمه اللّه و استولى عليه الهم.

و على كل حال فيحق للمجرمين أى ييأسوا و يبلسوا فى ذلك اليوم،إذ ليس لديهم إيمان و عمل صالح فيشفع لهم فى عرصات المحشر،و لا صديق حميم،و لا مجال للرجوع إلى الدنيا و تدارك ما مضى!.

لذلك يضيف القرآن فى الآيه التاليه قائلا: وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكٰائِهِمْ شُفَعٰاءُ .

فتلك الأصنام و المعبودات المصنوعه التى كانوا يتذرعون بها عند ما يسألون:من تعبدون؟فيقولون: هٰؤُلاٰءِ شُفَعٰاؤُنٰا عِنْدَ اللّٰهِ (۲) ،سيتّضح لهم جيدا حينئذ أنّه لا قيمه لها و لا تنفعهم أبدا..فلذلك يكفرون بهذا المعبودات من دون اللّه

۱- ۱) -سوره يس،۷۹-۸۱.

۲- ۲) -سوره يونس،الآيه ۱۸.

و يبرأون منها وَ كٰانُوا بِشُرَكٰائِهِمْ كٰافِرِينَ .

و لم لا يكفرون بهـذه الأصـنام؟و هم يرونها ساكنه عن الـدفاع عنهم بل كما يعبّر القرآن تقوم بتكـذيبهم و تقول:يا رب مٰا كٰانُوا إِيّٰانٰا يَعْبُدُونَ (۱) بـل كـانوا يعبـدون هوى أنفسـهم؟! و أكثر من هـذا،فقـد عبر القرآن عن هـذا المعبودات فى الآيه(۶)من سوره الأحقاف أنّها ستكون معاديه لهم و كافره بهم وَ إِذٰا حُشِرَ النّٰاسُ كٰانُوا لَهُمْ أَعْدٰاءً وَ كٰانُوا بِعِبٰادَتِهِمْ كٰافِرِينَ .

ثمّ يشير القرآن إلى الجماعات المختلفه من الناس فى يوم القيامه،فيقول:

وَ يَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَهُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ فَهُمْ فِى رَوْضَهٍ يُحْبَرُونَ

.

كلمه«يحبرون»مأخوذه من ماده«حبر»على زنه«قشر»و معناها الأثر الرائق الرائع،كما يطلق هذا التعبير على حاله السرور و الفرح التى يظهر أثرها على الوجه أيضا،و حيث أن قلوب أهل الجنّه فى غايه السرور و الفرح بحيث أن آثارها تظهر فى وجودهم قاطبه،فقد استعمل هذا التعبير لهذه الحاله أيضا.

و«الروضـه»معناهـا المكـان الـذى تكـثر فيـه الأشـجار و المـاء،و لـذلك تطلـق هـذه الكلمـه على البسـاتين النضـره بأشـجارها و اخضـرارها..و قـد جاءت هـذه الكلمه هنا بصـيغه التنكير لغرض التعظيم و المبالغه،أى إنّهم فى أفضل الجنان و أعلاها التى تبعث السرور،فهم منعمون،بل غارقون فى نعيم الجنّه.

وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا وَ لِقٰاءِ الْآخِرَهِ فَأُولٰئِكَ فِى الْعَذٰابِ مُحْضَرُونَ

.

الطريف هنا أنّه فى شأن أهل الجنّه اسـتعملت كلمه«يحبرون»و تدلّ على منتهى الرضا من جميع الجوانب لدى أهل الجنّه..و لكن استعملت كلمه «محضرون»فى أهل النّار،و هى دليل على منتهى الكراهه و عدم الرضا لما

۱- ۱) -سوره القصص،الآيه ۶۳.

يتلقونه و يستقبلونه،لأنّ الإحضار يطلق فی موارد تكون علی خلاف الرغبات الباطنيّه للإنسان.

اللطيفه الأخری أن أهل الجنّه ذكروا بقيد الإيمان و العمل الصالح،و لكن أهل النّار اكتفی من ذكرهم بعدم الإيمان«إنكار المبدأ و المعاد».و هی إشاره أن ورود الجنّه-لا بـد له من الإيمان و العمل الصالـح-فلا يكفی الإيمان وحده،و لكن يكفی لدخول النّار عدم الإيمان-و إن لم يصدر من ذلك«الكافر»ذنب-لأنّ الكفر نفسه أعظم ذنب!.

ملاحظه

اشاره

لم كان أحد أسماء القيامه«الساعه»؟!

ينبغی الالتفـات إلی هـذه المسأله الـدقيقه...و هی أنّه فی كثير من آيات القرآن،و من ضـمنها الآيتان من الآيات محل البحث،عبر عن قيـام«القيـامه» بقيام«الساعه»و ذلک لأنّ«الساعه»فی الأصل جزء من الزمان،أو لحظات عابره،و حيث أنّه من جهه تكون القيامه بصوره مفاجئه و كالبرق الخاطف،و من جهه أخری بمقتضـی أن اللّه سـريع الحساب فإنه ينهی حساب عباده بسرعه،فقد استعمل هذا التعبير فی شأن يوم القيامه ليفكر الناس بيوم القيامه و يكونوا علی «أهبه الاستعداد».

يقول«ابن منظور»فی«لسـان العرب»اسم للوقت الـذی تصـعق فيه العبـاد و الوقت الـذی يبعثون فيه و تقوم فيه القيامه،سـمّيت ساعه لأنّها تفاجئ الناس فی ساعه فيموت الخلق كلّهم عند الصيحه الاولی التی ذكرها اللّه عزّ و جلّ فقال:

إِنْ كٰانَتْ إِلاّٰ صَيْحَةً وٰاحِدَةً فَإِذٰا هُمْ خٰامِدُونَ

(۱)

..و أشار إلی الثّانيه بقوله:

۱- ۱) -سوره يس،الآيه ۲۹-و ما بعدها...

إِنْ كٰانَتْ إِلاّٰ صَيْحَةً وٰاحِدَةً

فَإِذٰا هُمْ مِنَ الْأَجْدٰاثِ إِلىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ

(۱)

.

و ينقل«الزبيدى»فى«تاج العروس»عن بعضهم أن الساعه ثلاث «ساعات»:

فساعه كبرى:و هى يوم القيامه،و إحياء الموتى للحساب.

و ساعه وسطى:و هى يوم الموت الفجائى لأهل زمان واحد«بالعذاب و العقوبه الإلهيه للاستيصال».

و ساعه صغرى:و هى يوم الموت الطبيعى لكل إنسان.

۱- ۱) -المصدر السابق.

الآيات [سوره الروم (۳۰): الآيات ۱۷ الی ۱۹]

اشاره

فَسُبْحانَ اَللّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ (۱۷) وَ لَهُ اَلْحَمْدُ فِی اَلسَّماوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ (۱۸) يُخْرِجُ اَلْحَيَّ مِنَ اَلْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ اَلْمَيِّتَ مِنَ اَلْحَيِّ وَ يُحْيِ اَلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ كَذٰلِكَ تُخْرَجُونَ (۱۹)

التّفسير

اشاره

التسبيح و الحمد فی جميع الأحوال للّه!

بعد الأبحاث الكثيره التی وردت فی الآيات السابقه فی شأن المبدأ و المعاد، و قسم من ثواب المؤمنين،و جزاء المشركين و عقابهم...ففی الآيات محل البحث يذكر التسبيح و الحمد و التقديس و التنزيه للّه من جميع أنواع الشرك و النقص و العيب،إذ تقول الآيه: فَسُبْحانَ اللّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِی السَّماوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ .

و علی هذا فقد ورد فی هاتين الآيتين ذكر لأربع أوقات لتسبيح اللّه:

۱-بدايه الليل حِينَ تُمْسُونَ .

۲-و طلوع الفجر حِينَ تُصْبِحُونَ .

۳-و عصرا عَشِيًّا .

۴-و عند الزوال-فی الظهر- حِینَ تُظْهِرُونَ (۱) .

أمّا«الحمد»من حیث المکان فهو عام و شامل لجمیع السماوات و الأرض.

و ذکر هذه الأوقات الأربعه فی الآیات المتقدمه لعله کنایه عن الدوام و الاستمرار فی التسبیح،«أی کل وقت و کل زمان».

کما احتمل بعض المفسّرین أنّ المراد من هذه الأوقات الأربعه الإشاره إلی أوقات الصلاه،إلّا أنّهم لم یجیبوا علی هذا السؤال،و هو:لم ذکر فی القرآن أربعه أوقات بدلا من خمسه أوقات؟«و لم یرد الکلام علی صلاه العشاء»! و لکن یمکن الجواب علی هذا السؤال بأن وقت صلاه المغرب مقارب لوقت صلاه العشاء نسبیا،و الفاصله بینهما حدود الساعه إلی الساعه و النصف، فجاءت الصلاتان فی مکان واحد،غیر أنّ الفاصله بین الظهر و العصر أطول نسبیا،حیث تطول أکثر من ساعتین.

لکننا لو أخذنا التسبیح و الحمد بمفهومهما الوسیع فی الآیه، لوجدنا أنّهما لا یتحدّدان بالصلوات الخمس،و إن کانت هذه الصلوات من مصادیقهما الواضحه.

و ینبغی أن نذکر هذه المسأله«اللطیفه»و هی:إن کلا من جملتی فَسُبْحانَ اللّهِ و لَهُ الْحَمْدُ یمکن أن تکونا إنشاء لتسبیح اللّه و حمده من قبل اللّه سبحانه، کما قال فی الآیه(۱۴)من سوره المؤمنون فَتَبارَکَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِینَ .

و یمکن أن یکون هذا الحمد و التسبیح بمعنی الأمر،أی«سبّحوه و احمدوا له».

و هذا التّفسیر یبدو أقرب للنظر،إذ الآیات المتقدمه هی بمثابه دستور لجمیع العباد لمحو آثار الشرک و الذنب من الروح و القلب کل صباح و مساء و کل ظهر و عصر،فسبحوا اللّه و احمدوا له فی الصلاه و فی غیر الصلاه.

و نقرأ

حدیثا عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله یقول فیه: «من قال حین یمسی ثلاث مرات

۱- ۱) -یرجی ملاحظه أن«عشیا»و«حین تظهرون»قد عطفتا علی«حین تمسون»و یرجع الجمیع للتسبیح...

فسبحان اللّه حين تمسون و حين تصبحون(الآيات الثلاث إلى..تخرجون)أدرك ما فاته فى يومه،و إن قالها حين يمسى أدرك ما فاته ليلته» (١) .

و فى الآيه التاليه عوده إلى المعاد،و يرد القرآن المنكرين له عن طريق آخر، فيقول: يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا وَ كَذٰلِكَ تُخْرَجُونَ .

أى إنّ ميدان«المعاد»و ميدان«نهايه الدنيا»المتمثّل أحدهما بخروج «الحى من الميت»و الآخر«خروج الميت من الحى»يتكرران أمام أعينكم، فلا مجال للتعجب من أن تحيا الكائنات جميعا،و يعود الناس فى يوم القيامه إلى الحياه مرّه أخرى! أمّا التعبير ب«يخرج الحى من الميت»المستعمل للأراضى الموات،فقد ذكره القرآن مرارا فى مسأله المعاد و واضح أنّ الأرض تبدوا ميته فى فصل الشتاء،فلا خضره و لا أزهار تضحك و لا براعم تتفتح،و لكن فى فصل الربيع مع سقوط الغيث و اعتدال الهواء،تدبّ الحركه فى الأرض،و تنمو الخضره فى كل مكان،و تتبسّم الأزهار و تنمو البراعم على الأغصان و هذا ميدان المعاد الذى نراه فى هذه الدنيا.

و أمّا مسأله«إخراج الميت من الحىّ»فهى ليست شيئا خافيا و لا مستترا، فدائما تموت الأشجار على الأرض و تتبدل إلى أخشاب،و يفقد الإنسان و الحيوان حياتهما،و يتبدل كل منهما إلى جسد هامد لا روح فيه.

و أمّا ما يتعلق ب«إخراج الحىّ من الميت»ففسّره بعضهم بخروج الإنسان و الحيوان من النطفه،و قال بعضهم:بل المراد منه تولد المؤمن من الكافر،و قال بعضهم:المراد منه تيقظ النائمين و الراقدين.

و الظاهر أنّه ليس أيّا من هذه المعانى هو المعنى الأصلى،لأنّ النطفه بنفسها

١- ١) -تفسير نور الثقلين،ج ۴،ص ١٧٢.

موجود حی،و مسأله«الکفر و الإیمان»هی من بطون الآیه،لا من ظواهر الآیه، و أمّا موضوع التیقظ و النوم فهو أمر مجازی،إذ لیس النوم و التیقظ موتا و حیاه حقیقیین.

إنّما ظاهر الآیه هو أنّ اللّه یخرج الموجودات الحیه دائما من الموجودات المیته،و یبدل الموجودات الهامده التی لا روح فیها إلی موجودات حیّه.

و بالرغم من أنّه من المسلّم به-فی العصر الحاضر علی الأقل-أنّه لم یر فی المختبرات و المشاهدات الیومیّه أن موجودا حیّا یتولد من موجود میّت، بل تتولد الموجودات الحیه دائما من البیوض أو البذور أو نطف الموجودات الحیه الأخری،غیر أن الثابت علمیا و المسلّم به أنّه کانت الأرض فی البدایه قطعه ملتهبه من النّار،و لم یوجد علیها أی موجود حی،ثمّ وفقا لظروف خاصه لم یکتشفها العلم-حتی الآن-بصوره دقیقه،تولدت الموجودات الحیه من مواد لا روح فیها بقفزه کبیره..لکن هذا الموضوع و فی الظروف الفعلیه للکره الأرضیه.

و حیث أنّ العلم البشری لم یتوصل إلیه،فلم یشاهد هذا الموضوع(و بالطبع یحتمل أن تتحقق هذه القفزه الکبری فی أعماق البحار و المحیطات فی بعض الظروف الحالیه).

لکن الذی نلمسه و ندرکه،هو أنّ الموجودات المیته دائما تکون جزءا من الموجودات الحیه و تکسی ثوب الحیاه!فالماء و الطعام اللذان نتناولهما لیسا من الموجودات الحیه،لکنّهما حین یکونان فی البدن و یصیران جزءا منه یتحولان إلی موجود حیّ و تضاف کریات جدیده و خلایا جدیده إلی کریات البدن و خلایاه،کما یتبدل الطفل الرضیع عن هذا الطریق إلی شاب قوی متین.

أ لیس هذا إخراج الحیاه من قلب الموت،أو«الحی من المیت»؟! فعلی هذا یمکن القول بأن فی نظام الطبیعه دائما یخرج الحی من المیت و یخرج المیت من الحی،و بهذا الدلیل فإنّ اللّه الذی خلق الطبیعه قادر علی إحیاء

الموتی فی العالم الآخر.

و بالطبع فإنّ الآیه الآنفه من جهه البعد المعنوی لها تفاسیر أخر..منها تولد المؤمن من الکافر،و تولد الکافر من المؤمن،و العالم من الجاهل،و الجاهل من العالم،و الصالح من المفسد،و المفسد من الصالح،کما أشیر إلی کل ذلک فی الروایات الإسلامیه أیضا.

و یمکن أن تکون هذه المعانی من بطون الآیه،لأنّنا نعرف أنّ آیات القرآن لها ظاهر و باطن،کما یمکن أن یکون للموت و الحیاه معنی جامع واسع یشمل الجانب المادی و الجانب المعنوی.

هذا و

قد جاء فی روایه عن الإمام موسی بن جعفر علیه السّلام فی تفسیر الآیه یُحْیِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا ما یلی:«لیس یحییها بالقطر،و لکن یبعث اللّه رجالا فیحیون العدل،فتحیی الأرض لإحیاء العدل و لإقامه العدل فیه أنفع فی الأرض من القطر أربعین صباحا» (1) .

و واضح أنّ مراد الإمام علیه السّلام أن معنی الآیه لا ینحصر بنزول الغیث،و لا ینبغی تفسیر الآیه بالغیث فحسب،لأنّ الإحیاء المعنوی للأرض بالعدل أهم من إحیائها بالغیث عند نزوله.

۱- ۱) -نقلا عن کتاب الکافی و طبقا لتفسیر نور الثقلین،ج ۴،ص ۱۷۳.

الآیات [سوره الروم (۳۰): الآیات ۲۰ الی ۲۲]

اشاره

وَ مِنْ آیاتِهِ أَنْ خَلَقَکُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (۲۰) وَ مِنْ آیاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَکُمْ مِنْ أَنْفُسِکُمْ أَزْواجاً لِتَسْکُنُوا إِلَیْها وَ جَعَلَ بَیْنَکُمْ مَوَدَّهً وَ رَحْمَهً إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ (۲۱) وَ مِنْ آیاتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافُ أَلْسِنَتِکُمْ وَ أَلْوانِکُمْ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِلْعالِمِینَ (۲۲)

التّفسیر

اشاره

آیات اللّه فی الآفاق و فی الأنفس:

تحدثت هذه الآیات-و بعض الآیات الأخر التی تلیها-عن طرائف و لطائف من دلائل التوحید،و آیات اللّه و آثاره فی نظام عالم الوجود،و هی تکمل البحوث السابقه، و یمکن القول بأن القسم المهم بشکل عام من آیات التوحید فی القرآن تمثله هذه الآیات! هذه الآیات التی تبدأ جمیعها بقوله تعالی: وَ مِنْ آیاتِهِ و لها وقع خاص و لحن بلیغ جاذب و تعبیرات مؤثره و عمیقه،مجموعه من سبع آیات،ست منها متتابعات،و واحده منفصله«و هی الآیه السادسه و الأربعون».

هذه الآيات مقسمه تقسيما طريفا من حيث«آيات الآفاق»و«آيات الأنفس»إذ تتحدث ثلاث منها عن آيات الأنفس(دلائل الخالق فى وجود الإنسان نفسه)و ثلاث منها عن آيات الآفاق(دلائل الخالق خارج وجود الإنسان)و واحده من هذه الآيات تتحدث عن الآيات فى الأنفس و فى الآفاق معا.

و ممّا ينبغى الالتفات إليه أنّ الآيات التى تبدأ بهذه العباره: وَ مِنْ آيٰاتِهِ مجموعها إحدى عشره آيه فحسب،فى سائر سور القرآن،سبع منها فى هذه السوره،و اثنتان فى سوره فصلت هما«الآيه ۳۷ و الآيه ۳۹»و آيتان أخريان فى سوره الشورى هما الآيه ۲۹ و الآيه ۳۲-و مجموعها كما ذكرنا آنفا إحدى عشره لا غير.و هى تشكل دوره متكامله فى التوحيد.

و يجدر التنبيه-قبل الدخول إلى تفسير هذه الآيات-على هذه«اللطيفه» و هى أن ما أشار إليه القرآن فى هذه الآيات،و إن كانت تبدو للنظر محسوسه و ملموسه،يمكن أن يدركها عامّه الناس،إلاّ أنّه مع تطور العلم و تقدمه تبدو للبشر لطائف جديده فى هذا المجال،و تتّضح للعلماء أمور ذات أهميه كبرى، و سنشير إلى قسم منها خلال تفسيرنا لهذه الآيات إن شاء اللّه.

و يتحدث القرآن هنا أوّلا-عن خلقه الإنسان التى تعد أوّل موهبه إلهيه له، و أهمهما أيضا،فيقول: وَ مِنْ آيٰاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ إِذٰا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ! فى هذه الآيه إشاره دليلين من أدله عظمه اللّه.

الأوّل:خلق الإنسان من التراب،و ربّما كان إشاره إلى الخلق الأوّل للإنسان،أى آدم عليه السّلام،أو خلق جميع الناس من التراب،لأنّ المواد الغذائيه التى تشكل وجود الإنسان،جميعها من التراب بشكل مباشره أو غير مباشر! الثّانى:كثره النسل«الآدمى»و انتشار أبناء«آدم»على سطح المعموره،فلو

لم تخلق خصوصيه التناسل فى آدم،لانطوى نسله من الوجود بسرعه!.

ترى أين التراب و أين الإنسان بهذا الهندام و الرشاقه؟! فلو وضعنا خلايا و أستار العين التى هى أدق من ورق الزهور و ألطف و أكثر حساسيه،و كذلك الخلايا الدقيقه للدماغ و المخ إلى جانب التراب و قارناهما بالقياس إلى بعضهما البعض،نعرف حينئذ كم لخالق العالم من قدره عجيبه، بحيث أوجد من ماده كدره سوداء لا قيمه لها هذه الأجهزه الظريفه و الدقيقه القيّمه.

فالتراب ليس فيه نور،و لا حراره،و لا جمال،و لا طراوه،و لا حس،و لا حركه و مع ذلك فقد أضحى عجينه الإنسان و لها جميع هذه الصفات،فالذى أوجد من هذا الموجود الميت التافه موجودا حيّا عجيبا،لحقيق بكل حمد و ثناء على هذه القدره الباهره و العلم المطلق فَتَبٰارَكَ اللّٰهُ أَحْسَنُ الْخٰالِقِينَ .

و الآيه محل البحث تبيّن ضمنا هذه الحقيقه،و هى أنّه لا تفاوت بين بنى الإنسان،و يعود جذرهم إلى شيء واحد،و أصل واحده و هو التراب و بالطبع فنهايتهم إلى ذلك التراب أيضا.

و ممّا ينبغى الالتفات إليه،أن كلمه«إذا»تستعمل فى لغه العرب فى الموارد الفجائيه و لعل هذا التعبير هنا إشاره إلى أنّ اللّه له القدره البالغه على أن يخلق مثل آدم أعدادا هائله بحيث ينتشر نسلها فى فتره قصيره-فجأه-و يملأ سطح الأرض..و يكون مجتمعا إنسانيّا كاملا.

و الآيه الثّانيه من الآيات محل البحث تتحدث أيضا عن قسم آخر من الآيات فى الأنفس،التى تمثل مرحله ما بعد خلق الإنسان،فتقول: وَ مِنْ آيٰاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهٰا .أى من جنسكم و الغايه هى السكينه الروحيه و الهدوء النفسى و حيث أن استمرار العلاقه بين الزوجين خاصه،و بين جميع الناس عامه،

يحتاج إلى جذب قلبى و روحانى،فإنّ الآيه تعقب على ذلك مضيفه وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً .

و لمزيد التأكيد تختتم الآيه بالقول: إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

الطريف هنا أن القرآن-فى هذه الآيه-جعل الهدف من الزواج الاطمئنان و السكن،و أبان مسائل كثيره فى تعبير غزير المعنى«لتسكنوا»كما ورد نظير هذا التعبير فى سوره الأعراف الآيه ۱۸۹.

و الحقّ أن وجود الأزواج مع هذه الخصائص للناس التى تعتبر أساس الاطمئنان فى الحياه،هو أحد مواهب اللّه العظيمه.

و هذا السكن أو الاطمئنان ينشأ من أن هذين الجنسين يكمل بعضهما بعضا، و كل منهما أساس النشاط و النماء لصاحبه،بحيث يعد كل منهما ناقصا بغير صاحبه،فمن الطبيعى أن تكون بين الزوجين مثل هذه الجاذبيّه القويه.

و من هنا يمكن الاستنتاج بأنّ الذين يهملون هذه السنه الإلهيه وجودهم ناقص،لأنّ مرحله تكامليه منهم متوقفه،(إلاّ أن توجب الظروف الخاصه و الضروره فى بقائهم عزّابا).

و على كل حال،فإنّ هذا الاطمئنان أو السكن يكون من عدّه جهات «جسميا و روحيّا و فرديا و اجتماعيّا».

و لا يمكن إنكار الأمراض التى تصيب الجسم فى حاله عدم الزواج،و كذلك عدم التعادل الروحى و الاضطراب النفسى عند غير المتزوجين.

ثمّ أنّ الأفراد العزّاب لا يحسّون بالمسؤوليه-من الناحيه الاجتماعيه- كثيرا..و لذلك فإن الانتحار تزداد بين أمثال هؤلاء أكثر..كما تصدر منهم جرائم مهوله أكثر من سواهم أيضا.

و حين يخطو الإنسان من مرحله العزوبه الى مرحله الحياه الأسريه يجد فى نفسه شخصيه جديده،و يحس بالمسؤوليه أكثر،،و هذا السكن و الاطمئنان فى

ظل الزواج.

و أمّا مسأله«الموده و الرحمه»فهما فی الحقیقه«ملاط»البناء فی المجتمع الإنسانی،لأنّ المجتمع یتکون من افراد متفرقین کما أن البناء العظیم یتألف من عدد من الطابوق و«الآجر»أو الأحجار.فلو أن هؤلاء الأفراد المتفرقین اجتمعوا،أو أن تلک الأجزاء المتناثره وصلت بعضها ببعض،لنشأ من ذلک المجتمع أو البناء حینئذ.

فالذی خلق الإنسان للحیاه الاجتماعیه جعل فی قلبه و روحه هذه الرابطه الضروریه.

و الفرق بین«الموده»و«الرحمه»قد یعود إلی الجهات التالیه:

۱-الموده هی الباعثه علی الارتباط فی بدایه الأمر بین الزوجین،و لکن فی النهایه،و حین یضعف أحد الزوجین فلا یکون قادرا علی الخدمه،تأخذ الرحمه مکان الموده و تحلّ محلها.

۲-الموده تکون بین الکبار الذین یمکن تقدیم الخدمه لهم،أمّا الأطفال و الصبیان الصغار،فإنهم یتربون فی ظلّ الرحمه.

۳-الموّده،غالبا ما یکون فیها«تقابل بین الطرفین»،فهی بمثابه الفعل ورد الفعل،غیر أنّ الرحمه من جانب واحد لدیه إیثار و عطف،لأنّه قد لا یحتاج إلی الخدمات المتقابله أحیانا،فأساس بقاء المجتمع هو«الموده»و لکن قد یحتاج إلی الخدمات بلا عوض،فهو الإیثار و الرحمه.

و بالطبع فإنّ الآیه تبیّن الموده و الرحمه بین الزوجین،و لکن یحتمل أن یکون التعبیر«بینکم»إشاره إلی جمیع الناس..و الزوجان مصداق بارز من مصادیق هذا التعبیر،لأنّه لیست الحیاه العائلیه وحدها لا تستقیم إلاّ بهذین الأصلین(الموّده و الرحمه)بل جمیع المجتمع الإنسانی قائم علی هذین الأصلین و زوالهما من المجتمع-و حتی نقصانهما یؤدی الی أنواع الارباک و الشقاء

و الاضطراب الاجتماعی.

أمّا آخر آیه-من هذه الآیات محل البحث-فهی مزیج من آیات الآفاق و آیات الأنفس،فتبدأ بالإشاره إلی خلق السماء و الأرض،فتقول: وَ مِنْ آیٰاتِهِ خَلْقُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ .

السماوات بجمیع ما فیها من کرات،و بجمیع ما فیها من منظومات و مجرّات، السماوات التی مهما حلّق فیها الفکر عجز عن إدراک عظمتها و مطالعتها..و کلّما تقدم علم الإنسان تتجلی له نقاط جدیده من عظمتها.

کان الإنسان یری الکواکب فی السماء بهذا العدد الذی تراه العین(و قد أحصی العلماء الکواکب التی تری بالعین المجرّده،فوجدوها تتراوح بین خمسه آلاف إلی سته آلاف کوکب).

و لکن کلما تقدم العلم فی صناعه المجهر و التلسکوب،فإنّ عظمه و کثره الکواکب تزداد أکثر...إلی درجه بلغ الإعتقاد الیوم أن مجرتنا لوحدها من بین مجامیع المجرات فی السماء تحتوی علی أکثر من مائه ملیون کوکب و تعد الشمس علی عظمتها المذهله واحده من النجوم المتوسطه،و لا یعلم عدد المجرات و لا یحصیها إلاّ اللّه،إذ هو وحده یعلم کم من کوکب و نجمه فی هذا المجرات! و کذلک کلما تقدم العلم الطبیعی و الجیولوجیا،و علم النبات و العلوم البیلوجیه«و الحیوانیه»و علم التشریح و الفیزیاء،و العلوم النفسیه و غیرها، فستتضح عجائب فی خلق الأرض کانت خافیه،کل واحده تعدّ آیه من آیات اللّه.

ثمّ ینتقل القرآن إلی آیه من آیات الأنفس الکبیره فیقول: وَ اخْتِلاٰفُ أَلْسِنَتِکُمْ وَ أَلْوٰانِکُمْ .

و بلا شک فإنّ الحیاه الاجتماعیه للبشر،لا تقوم بغیر معرفه و تشخیص الأفراد و الأشخاص،إذ لو کان الناس جمیعا فی یوم ما علی صوره واحده و لباس

واحد،فإن أسلوب حياتهم يضطرب فی ذلک اليوم،إذ لا يعرف الأب و الابن و الزوج من الغرباء،و لا يميز المجرم من البریء،و لا الدائن من المدين،و لا الآمر من المأمور،و لا الرئيس من المرؤوس،و لا الضيف من المضيف و لا العدوّ من الصديق،و أی ارباک عجيب کان سيحدث لو کانوا علی هذه الشاکله!

و علی سبيل الاتفاق قد تحدث هذه المسأله بين الإخوه التوائم،أو الشقيقين التوأمين المتشابهين من جميع الوجوه،و کم تحدث من المشاکل بين الناس و بينهم،و قد سمعنا ذات مرّه أن امرأه کان لديها توأمان متشابهان تماما،و کان أحدهما مريضا،فأعطت الدواء لمعافی دون السقيم!!.

لذلک خلق اللّه الأصوات و الألون لتنظيم المجتمع البشری، علی حد تعبير «الرازی»فی تفسيره فی ذيل الآيه محل البحث:إن معرفه الإنسان للإنسان تحصل إمّا عن طريق العين أو الأذن،فخلق اللّه الألوان و الصور و الأشکال المختلفه لتعرفها العين و تشخصها،و أوجد اختلاف الأصوات لتشخصها الأذن، حتی أنّه لا يمکن العثور فی جميع العالم علی إنسانين متشابهين فی الوجه و الصوت معا،أی إن وجه الإنسان الذی هو عضو صغير،و صوته الذی هو موضوع بسيط،بقدره اللّه جاءا علی مليارات الأشکال و الأصوات المختلفه،و ما ذلک الاختلاف إلّا من آيات عظمه اللّه.

کما يحتمل أن المراد باختلاف الألسنه کما أشار إليه کبار المفسّرين هو اختلاف اللغات،من قبيل العربيه و الفارسيه و اللغات الأخری.

و لکن يمکن أن يستفاد من کلمه«اختلاف»معنی واسع بحيث يشمل هذا التّفسير و ما قبله،و أی تفسير آخر،فهذا التنوع فی الخلقه شاهد علی عظمه الخالق و قدرته.

يقول«فريد وجدی»فی دائره معارفه،نقلا عن قول«نيوتن»العالم الغربی المعروف(لا تشکوا فی الخالق،فإنه ممّا لا يعقل أن تکون الضروره وحدها هی

قائده الوجود،لأنّ ضروره عمياء متجانسه فی کل مکان و فی کل زمان لا یتصور أن یصدر منها هذا التنوع فی الکائنات،و لا هذا الوجود کله بما فیه من ترتیب أجزائه و تناسبها،مع تغیرات الأزمنه و الأمکنه،بل إن کل هذا لا یعقل أن یصدر إلاّ من کائن أزلی له حکمه و إراده) (۱) .

و یقول القرآن فی نهایه الآیه الآنفه الذکر إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیٰاتٍ لِلْعٰالِمِینَ .

فالعلماء یعرفون هذه الأسرار قبل کل أحد.

ص: ۴۹۹

۱- ۱) -دائره المعارف،محمّد فرید وجدی،ج ۱ ص ۴۹۶(ماده اله).

الآيات [سوره الروم (۳۰): الآيات ۲۳ الی ۲۵]

اشاره

وَ مِنْ آیاتِهِ مَنامُکُمْ بِاللَّیْلِ وَ اَلنَّهارِ وَ اِبْتِغاؤُکُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَسْمَعُونَ (۲۳) وَ مِنْ آیاتِهِ یُرِیکُمُ اَلْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ یُنَزِّلُ مِنَ اَلسَّماءِ ماءً فَیُحْیِی بِهِ اَلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ (۲۴) وَ مِنْ آیاتِهِ أَنْ تَقُومَ اَلسَّماءُ وَ اَلْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذا دَعاکُمْ دَعْوَةً مِنَ اَلْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (۲۵)

التّفسیر

اشاره

آیات عظمته-مرّه أخری:

تعقیبا علی الأبحاث السابقه حول آیات اللّه فی الآفاق و فی الأنفس، تتحدث هذه الآیات-محل البحث-حول قسم آخر من هذه الآیات العظیمه.

فتتحدث فی البدایه عن ظاهره«النوم»علی أنّها ظاهره مهمه من ظواهر الخلق و مثل بارز من نظام الحکیم الخالق،فتقول: وَ مِنْ آیاتِهِ مَنامُکُمْ بِاللَّیْلِ وَ النَّهارِ وَ ابْتِغاؤُکُمْ مِنْ فَضْلِهِ .

و تختتم الآیه بإثاره العبره بالقول: إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَسْمَعُونَ .

و هذه الحقیقه غیر خافیه علی أحد،هی أن جمیع«الموجودات الحیه»

تحتاج إلى الراحه و الدعه،و ذلك لتجديد قوتها و تهيئه الاستعداد اللازم لإدامه العمل و الفعاليه،الراحه التى لا بدّ منها حتى لأولئك الأفراد الحريصين و الجادّين.

فأى شيء يتصور أحسن من النوم للوصول إلى هذا الهدف،و هو يأتيه بشكل إلزامى،و يدعوه إلى تعطيل نشاطه الجسمانى،و قسم مهم من نشاطه الفكرى و الذهنى،بينما تستمر أجهزه خاصه فى العمل فى جسم الإنسان كالقلب الرئه و بعض النشاط الذهنى،و ما إلى ذلك ممّا يستلزمه استمرار الحياه فى الإنسان فحسب،أمّا البقيه فتهدأ و تتعطل عن العمل.

هذه الموهبه العظيمه تؤدى الى أن يحصل جسم الإنسان و روحه على الراحه اللازمه،فيرتفع التعب بطرو النوم الذى بمثابه وقفه لعمل البدن،و نوع من التعطيل له. و يجد الإنسان على أثرها قوه و نشاطا جديدا فى حياته.

و من المسلّم به أنّه لولا النوم لتصدّعت روح الإنسان و ذبل جسمه و انهار بسرعه،و لعجل عليه العجز و الشيخوخه...و بهذا فإن النوم المناسب و الهادىء مدعاه للسلامه و طول العمر،و دوام«الشباب»و نشاطه.

و ممّا يجدر التنبيه عليه أوّلا:أنّ النوم ورد قبل عباره اِبْتِغٰاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ التى تعنى السعى وراء الرزق،و هذا التعبير هو إشاره إلى أن النوم أساس السعى لأنّه-من دون النوم الكافى-يصعب الابتغاء من فضل اللّه.

ثانيا:صحيح أنّ النوم يقع فى الليل،و الابتغاء من فضل اللّه فى النهار،إلاّ أنّه ليس صعبا على الإنسان أن يغيّر هذا المنهج إذا اقتضت الضروره.بل اللّه خلق الإنسان بصوره يستطيع معها تغيير منهجيه النوم،و يجعلها وفقا للضرورات و الحاجات،فكأنّ التعبير مَنٰامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ إشاره إلى هذه«اللطيفه» الدقيقه.

و لا شك أنّ المنهج الأصل للنوم متعلق بالليل،و لأنّ الليل هادئ بسبب الظلمه،فله أولويه خاصه فى هذا المورد.

ص:۵۰۱

و لكن قد يتفق للإنسان و لظروف خاصه يكون مجبرا على السفر ليلا و أن يستريح نهارا...فلو كان منهج تنظيم النوم خارجا عن اختيار الإنسان فسيواجه العديد من الصعوبات حتما.

و أهميه هذا الموضوع،خاصه فى عصرنا الذى تضطر فيه بعض المؤسسات الصناعيه و الطبيه و العلاجيه أن تعمل ليل نهار،و لا يمكن لها أن تعطل منهجها بحيث يتناوب عمالها فى ثلاث مراحل للعمل فيها،هذه الأهميه فى هذا العصر أجلى منه فى أى عصر مضى! و حاجه جسم الإنسان و روحه إلى النوم كثيره إلى درجه لا يستطيع الفرد أن يتحمل السهر المتواصل أكثر من يومين أو ثلاثه.

و لذلك فإنّ المنع من النوم يعتبر من أشد أنواع التعذيب الذى يمارسه الطغاه و الجبابره مع سجنائهم.

و كذلك يعدّ النوم واحدا من الطرق العلاجيه لكثير من الأمراض،حيث يوصى الأطباء المريض بأن يغطّ فى نوم عميق فتزداد بذلك قوّه المريض و مناعته.

و بالطبع لا يمكن لأحد أن يحدد مقدارا معينا للنوم على أنّه«مقدار النوم اللازم»لعموم الناس لأنّ ذلك يرتبط بسنّ الأشخاص و وضعهم و مزاجهم و كيفيه البناء الفيسيولوجى و السيكلوجى«الجسيمى و الروحى»،بل المهم النوم الكافى بمقدار يحسّ الإنسان بعده بأنّه شبع منه...كما هى الحال بالنسبه للشبع من الغذاء و الماء تماما.

و ينبغى الالتفات إلى هذه المسأله،و هى أنّه بالإضافه إلى«طول»زمان النوم،فلعمقه خصوصيه و أهميه أخرى أيضا...فرب ساعه ينام فيها الإنسان نوما عميقا تسد عن عدد من الساعات التى ينامها نوما سطحيا فى إعاده بناء روح الإنسان و جسمه.

ص :۵۰۲

و بـالطبع،فحيث لاـ يمكن النوم العميق،فالنعـاس أيضا من النعم الإلهيه،كما أشارت إليه الآيه الحاديه عشـره من سوره الأنفال فى شأن المجاهدين يوم بدر إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعٰاسَ أَمَنَةً مِنْهُ لأنّه لا يمكن النوم العميق فى ميدان الحرب، و ليس مفيدا-أيضا-و لا نافعا.

و على كل حال فإن نعمه النوم و الهدوء و الاطمئنان الناشئ منه،و ما يحصل عليه الإنسان من قوه و نشاط بعد النوم،هى من النعم التى لا يمكن وصفها بأى بيان!.

و الآـيه التى تلتها،و التى تبيّن خامس آيه من آيات عظمه اللّه،تتجه أيضا إلى «الآيات فى الآفاق»و تتحـدث عن البرق و الرعـد و الغيث و حياه الأرض بعد موتها فتقول: وَ مِنْ آيٰاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً .

«الخوف»ممّا يخطر على البال من احتمال نزول الصاعقه مع البرق فتحرق كل شىء تقع عليه و تحيله رمادا.

«و الطمع»من جهه نزول الغيث الذى ينزل بعد البرق و الرعد على هيئه قطر أو مزنه.

و على هذا فإنّ البرق السماوى مقدمه لنزول الغيث(بالإضافه إلى فوائد البرق المختلفه المهمه و التى كشف العلم عنها أخيرا و قد تحدثنا عنه فى بدايه سوره الرعد» (١) .

ثمّ يضيف القرآن معقبا يُنَزِّلُ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا .

الأـرض الميته التى لاـ يؤمـل فيهـا الحياه و النبات،تهتز بنزول الغيث الـذى يمنحها الحياه،فتحيا و تظهر آثار الحياه عليها على هيئه الأزهار و النباتات، بحيث لا تصدق أحيانا أنّها الأرض الميته سابقا.

١- ١) -راجع تفسير«سوره الرعد»الآيات الأولى منها.

و يؤكّد القرآن فى نهايه هذه الآيه مضيفا: إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ و يفهمون أن وراء هذه الخطه المدروسه يدا قادره تقودها و تهديها،و لا يمكن أن تكون المسأله وليده الصدفه و الضروره العمياء الصّماء أبدا.

و فى آخر آيه من الآيات محل البحث،يقع الكلام عن آيه أخرى من الآيات الآفاقيه،و ذلك عن تدبير نظام السماء و الأرض و بقائهما و دوامهما،إذ تقول:

وَ مِنْ آيٰاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمٰاءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ

.

أى إنّ خلق السماوات-المشار إليه فى الآيات السابقه-ليس آيه وحده فحسب،بل بقاؤها و دوام نظامها أيضا آيه أخرى،فهذه الأجرام العظيمه فى دورانها المنظّم حول نفسها تحتاج إلى أمور كثيره،و أهمّها المحاسبه المعقده للقوّه الجاذبه و الدافعه! إنّ الخالق الكبير جعل هذا التعادل دقيقا،بحيث لا يعترض الأجرام أدنى انحراف فى مسيرها و دورانها حول نفسها إلى ملايين السنين.

و بتعبير آخر:إنّ الآيه السابقه كانت إشاره إلى«توحيد الخلق»و أمّا هذه الآيه فهى إشاره إلى«توحيد الربوبيه و التدبير».

و التعبير بقيام السماء و الأرض،تعبير لطيف مأخوذ من حالات الإنسان،لأنّ أحسن حالات الإنسان لأجل استدامه نشاطه هى حاله قيامه،إذ يستطيع فيها أداء جميع حوائجه،و تكون له السيطره و التسلط الكامل على أطرافه.

و التعبير ب«أمره»هنا إشاره إلى منتهى قدره اللّه،إذ يكفى أمر واحد من قبله لاستمرار الحياه،و نظم هذا العالم الوسيع.

و فى نهايه الآيه و بالاستفاده من عامل التوحيد لإثبات المعاد،ينقل القرآن البحث إلى هذه المسأله فيقول: ثُمَّ إِذٰا دَعٰاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذٰا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ .

و لقد رأينا-مرارا-فى آيات القرآن أن اللّه سبحانه يستدل على المعاد

بآيات قدرته فی السماء و الأرض،و الآیه محل البحث واحده من تلک الآیات.

و التعبیر ب«دعاکم»اشاره إلی أنّه کما أنّ أمرا واحدا منه کاف للتدبیر و لنظم العالم،فإنّ دعوه واحده منه کافیه لأن تبعثکم من رقدتکم و تنشرکم من قبورکم لیوم القیامه،و خاصه إذا لاحظنا جمله إِذٰا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ فإنّ کلمه«إذا»تبین بوضوح مؤدی هذه الجمله،حیث أنّها«فجائیه»کما یصطلح علیها أهل النحو و اللغه،و معناها:إذا دعاکم اللّه تخرجون بشکل سریع و فجائی.

و التعبیر ب دَعْوَهً مِنَ الْأَرْضِ دلیل واضح علی المعاد الجسمانی،إذ یثب الإنسان فی یوم القیامه من هذه الأرض«فلاحظوا بدقّه».

بحوث

اشاره

١-دوره دروس کامله لمعرفه اللّه

تناولت الآیات الست المتقدمه بحوثا مختلفه فی معرفه اللّه،و هی بمجموعها تمثل حلقات متصله و دوره کامله طریفه،بدءا بخلق السماء إلی خلق البشر من التراب،و من رباط الحب فی الأسره،إلی النوم الذی یمنح الدعه و الاطمئنان فی اللیل و النهار،و من تدبیر النظام و العالم متدرجا،إلی البرق و الغیث و اختلاف الألسنه و الألوان...فهی مجموعه مناسبه من آیات الآفاق و آیات الأنفس!.

الطریف هنا أن کلّ آیه من الآیات الست یذکر فیها قسمان من دلائل التوحید،لیهیّئ الأوّل الأرضیه المناسبه،و الآخر للتحکیم و التأکید،و هذا یشبه تماما الإتیان بشاهدین عدلین لإثبات المدّعی،فیکون المجموع اثنی عشر شاهدا صادقا علی قدره اللّه الحق،التی لا نهایه و لا أمد لها.

ص:۵۰۵

۲-من هم المستلهمون من هذه الآيات

ورد فی أربـــع آیـــات مـــن هـــذه الآیـــات الســـت التأکیـــد علی أن فی هـــذه الأمـــور دلائـــل واضحه«للعالمین،المتفکرین،السمیعین،العاقلین»إلّا أنّ هذا التأکید لم یرد فی الآیه الأولی،و لا الآیه الأخیره.

و یوضح الفخر الرازی فی هذا المجال فیقول:لعل عدم ذکر ذلک،فی الآیه الأولی لأنّ الآیه الأولی و الثّانیه جاءتا متصلتین فی سیاق واحد،و کلتاهما من الآیات التی تتحدث فی الأنفس.

و أمّا فی الآیه الأخیره فإنّ الأمر واضح إلی درجه لا یحتاج بعدها إلی مزید إیضاح،و لا تأکید علی التعقل و التفکر (۱) ! الطریف هنا أن الحدیث عن التفکر ورد قبل الحدیث و الکلام عن«العلم» لأنّ التفکر مقدمه و قاعده للعلم،ثمّ یأتی الکلام علی من یسمع،لأنّ الإنسان یستعد للاستماع و تقبل الحق،إذا کان فی صدد العلم و الاطلاع،کما یقول القرآن فی هذا المجال: فَبَشِّرْ عِبٰادِ الَّذِینَ یَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَیَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ (۲) و فی آخر مرحله کان الکلام عن العقل،لأنّ أولئک کانوا یسمعون،فلا بدّ أن یبلغوا مرحله العقل الکامل! کما ینبغی الالتفات إلی هذه اللطیفه،هی أنّه وقع الکلام فی ذیل الآیه الأولی عن خلق الإنسان و انتشار نسله فی الأرض ثُمَّ إِذٰا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ .

و وقع الکلام فی آخر آیه أیضا عن خروج الناس و نشورهم فی یوم القیامه إِذٰا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ .

فالآیه الأولی لبدایه الخلق،و الأخیره للنهایه.

ص: ۵۰۶

۱- ۱) -التفسیر الکبیر الفخر الرازی-ذیل الآیات محل البحث.

۲- ۲) -الزمر،الآیه ۱۸.

۳-عجائب عالم النوم

بـالرغم من جميع الأبحـاث التى كتبهـا العلمـاء حول النوم و خصـائصه، يبـدو أن زوايا هـذا العالم لم تنكشف جميعها،و لم يرفع النقـاب عن أسـراره و حقائقه الغامضه! فما زال البحث يـدور بين العلماء:أى فعل و انفعال يكون فى البـدن بحيث يتوقف-خلال لحظه مفـاجئه-قسم من نشاطـات المـخ و البـدن،و يظهر تحول فى عـامّه الروح و الجسـد؟! قال بعضـهم:إنّ العامل الأصـلى للنوم هو«عامـل فيزياوى»و يعتقـدون أن انتقال الـدم من المـخ إلى أجزاء البـدن الأخرى،يوجـد هـذه الظاهره،و لأجل إثبات معتقـدهم عمـدوا إلى صـنع سـرير للنوم على شـكل خـاص يـدعى«سـرير النوم المعيارى»يبيّن كيفيه انتقال الـدم من المـخ إلى سائر أعضاء البدن!.

و قال جماعه:إنّ العامل الأصـلى للنوم هو«عامل كيمياوى»و يعتقدون أن الإنسان فى حاله السعى و العمل تزداد فيه السموم بحيث تؤدى الى تعطيل قسم من المخ عن عمله،فينام الإنسان على أثر ذلك،و حين تتلاشـى السـموم و تسـيطر عليها كريات الدم يتيقظ الإنسان مرّه أخرى! و قال جماعه آخرون:إنّ العامل الأصـلى للنوم هو«عامل عصبى» و يعتقدون أن للنشاط العصبى خصوصيه فى المخ لها حكم وقود السياره،فعند ما تتعب ينطفئ المخ و يتوقف عن العمل مؤقتا.

و لكن هناك أسـئله و نقاط مبهمه حول جميع هـذه النظريات،لم نحصل إلى الآن على جواب واضح لها،و ما يزال النوم محتفظا بوجهه الملىء بالأسرار.

من عجـائب عالم النوم ما أماط العلماء النقاب عنه أخيرا،و هو حين يتعطل قسم كبير من المـخ عن العمل تبقى بعض خلاياه التى ينبغى أن تسمى ب«الخلايا الحارسه»متيقظه و لا تنسى الوصايا التى يوصيها الإنسان قبل النوم عند ساعه

التيقظ... و عند الحاجه توقظ هذه الخلايا جميع المخ و يتحرك نحو العمل مرّه أخرى! فمثلا:الأم المرضعه المتعبه حين تنام الليل و إلى جنبها رضيعها فى المهد، يوصى عقلها الباطنى الخلايا الحارسه التى تربط بين الروح و الجسم،أنّه متى ما سمعت أقل صوت لطفلى فأيقظينى،و لكن لا يهمنى أى صوت آخر،فقد لا تتيقظ المرأه من صوت الرعد المهول،و لكنّها تتيقظ لأقل صوت من ولدها الرضيع،فهذه المهمّه هى وظيفه الخلايا الحارسه.

و نحن أيضا جرّبنا هذا الموضوع كثيرا،فمتى ما كان لدينا تصميم أن نستيقظ مبكرين أو فى منتصف الليل لنسافر أو لأداء مهمّه،و نحدث أنفسنا بذلك،فإننا غالبا ما نستيقظ فى الوقت المطلوب،فى حين أن من الممكن أن نغرق فى النوم لساعات طوال فى غير هذه الحاله! و الخلاصه،حيث أنّ النوم هو من الظواهر الروحيه،و للروح عالم ملىء بالأسرار،فليس عجيبا أن تبقى كثير من زوايا هذه المسأله غامضه...و لكن كلما سبرنا غور هذا العالم نتعرف على عظمه خالق هذه الظاهره.

هذا عن ظاهره النوم،و أمّا عن الرؤيا و الأحلام،فقد بحثنا عنه بحوثا كثيره، و لا بأس بمراجعه تفسير سوره يوسف عليه السّلام.

۴-علاقه الحب بين الزوجين

بالرّغم من أنّ العلاقه أو الارتباط بين الإنسان و أبيه و أمه و إخوته هى علاقه نسبيه،تمتد جذورها العميقه بالقرابه.و العلاقه بين الزوجين علاقه قانونيه.

و«معاقده بينهما»لكن كثيرا ما تتغلب هذه العلاقه حتى على علاقه الإنسان بأبيه و أمه،و فى الحقيقه هذا هو ما أشارت إليه الآيات الآنفه بالتعبير وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً .

و نقرأ حـديثا عـن الرّسـول الأعظم صـلّى اللّـه عليـه و آله أنّه أخـبر ابنه جحش باستشـهاد خالهـا حمزه،فقـالت:إنـا للّه و إنـا إليه راجعون.فأخبرها باستشهاد أخيها فقالت مرّه أخرى:«إنا للّه و إنا إليه راجعون»(و طلبت له الأجر و الثواب من اللّه).

و لكن حين أخبرها باستشهاد زوجها،وضعت يدها على رأسها و صرخت،

فقال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «ما يعدل الزوج عند المرأه شيء» (۱) .

۱- ۱) -تفسير نور الثقلين،ج ۴،ص ۱۷۴.

الآیات [سوره الروم (۳۰): الآیات ۲۶ الی ۲۹]

اشاره

وَ لَهُ مَنْ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ کُلٌّ لَهُ قٰانِتُونَ (۲۶) وَ هُوَ اَلَّذِی یَبْدَؤُا اَلْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَیْهِ وَ لَهُ اَلْمَثَلُ اَلْأَعْلیٰ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ هُوَ اَلْعَزِیزُ اَلْحَکِیمُ (۲۷) ضَرَبَ لَکُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِکُمْ هَلْ لَکُمْ مِنْ مٰا مَلَکَتْ أَیْمٰانُکُمْ مِنْ شُرَکٰاءَ فِی مٰا رَزَقْنٰاکُمْ فَأَنْتُمْ فِیهِ سَوٰاءٌ تَخٰافُونَهُمْ کَخِیفَتِکُمْ أَنْفُسَکُمْ کَذٰلِکَ نُفَصِّلُ اَلْآیٰاتِ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ (۲۸) بَلِ اِتَّبَعَ اَلَّذِینَ ظَلَمُوا أَهْوٰاءَهُمْ بِغَیْرِ عِلْمٍ فَمَنْ یَهْدِی مَنْ أَضَلَّ اَللّٰهُ وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِینَ (۲۹)

التّفسیر

اشاره

المالکیه للّه وحده:

کانت الآیات المتقدمه تتحدث حول توحید الخالق،و توحید الرّب،أمّا الآیه الأولی من هذه الآیات محل البحث فتتحدث عن فرع آخر من فروع التوحید،و هو توحید الملک فتقول: وَ لَهُ مَنْ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ .

و لأنّهم ملک یده ف کُلٌّ لَهُ قٰانِتُونَ و خاضعون.

و واضح أنّ المراد من المالکیه و خضوع المخلوقات و قنوتها،الملک

و القنوت التکوینیان...أی إن زمام أمر الجمیع من جهه القوانین التکوینیه کلّه فی یده،و هم مستسلمون لقانون عالم التکوین وفق مشیئه اللّه،شاؤوا أم أبوا.

حتی العتاه الطغاه الألدّاء و المتمردون علی القانون و الجبابره،هم مضطرون أیضا أن یحنوا رؤوسهم لأمر اللّه فی القوانین التکوینیه.

و الدلیل علی هذه«المالکیه»هو الخالقیه و الربوبیه،فإنّ من خلق الموجودات فی البدایه و تکفلها بالتدبیر،فمن المسلم أنّه هو المالک الأصلی لها لا سواه! و بما أنّ جمیع موجودات الدنیا سواسیه فی هذا الأمر، فمن الواضح أن لا یکون معه أی شریک فی الملک حتی الأوثان و المعبودات المصطنعه التی یتصورها المشرکون أنّها أربابهم،هی أیضا مملوکه لمالک«الملک»و الملوک، و هی طوع أمره.

و ینبغی الالتفات-ضمنا-إلی أنّ کلمه«قانت»تعنی-کما یقول الراغب فی مفرداته-فی الأصل:الطاعه الملازمه للخضوع! و نقرأ حدیثا

عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله أنّه قال «کل قنوت فی القرآن فهو طاعه».

غایه ما فی الأمر،تاره تأتی هذه الطاعه«تکوینیه»و أخری«تشریعیه».

و ما ذهب إلیه بعض المفسّرین من أنّ کلمه«قانتون»معناها هنا«قائمون بالشهاده علی وحدانیته» (1) فهو فی الحقیقه بیان لأحد مصادیق الطاعه،لأنّ الشهاده علی وحدانیه اللّه نوع من الطاعات.

و حیث أنّ المسائل المرتبطه بالمبدأ و المعاد هی کالنسیج الواحد فی انسجامها فی سلسله الآیات الآنفه،و التی ستأتی فی ما بعد،ففی الآیه التالیه یعود القرآن إلی موضوع المعاد،فیقول: وَ هُوَ الَّذِی یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَیْهِ

1- 1) -نقل«الآلوسی»فی تفسیره«روح المعانی»ذیل الآیه محل البحث هذا الکلام عن بعض المفسرین المتقدمین.

(۱)

.

إنّ القرآن يثبت فى هذه الآيه-بأوجز الاستدلال-مسأله إمكان المعاد، إذ يقول لهم:إنكم تعتقدون أن بدايه الخلق من قبل اللّه،فعوده الخلق مرّه أخرى أيسر و أهون من بدايه الخلق!.

و الدليل على أن عوده الخلق أهون من البدايه،هو أنّه فى البدايه لم يكن شىء و لكن اللّه هو الذى أبدعه،و فى الإعاده توجد المواد الأصليه على الأقل، فبعضها فى طيّات التراب،و بعضها متناثر فى الفضاء،و إنّما تحتاج إلى نظم و إلى إعطائها صورتها الأولى فحسب،فهى أهون! و لكن من الضرورى أن نلتفت إلى هذه«اللطيفه»،و هى أنّ التعبير بالهيّن و الصعب،هو من خلال نافذتنا الفكريه،و أمّا بالنسبه للقادر المطلق فلا فرق عنده بين«الصعب و السهل».

و أساسا فإنّ«الصعب و السهل»يصدقان مفهوما فى مكان يكون الكلام عن قدره محدوده،كأن يستطيع أحد أن يؤدى عملا بصوره جيده،و الآخره لا يؤديه بصوره جيده،بل بمشقّه،أمّا حين يكون الكلام على قدره لا حدّ لها،فلا معنى للصعب و الهيّن هناك! و بتعبير آخر:إنّ حمل«أعظم الجبال»على الأرض بالنسبه إلى اللّه و حمل أخف الأشياء عليها عنده سواء،لقدرته التى لا يعظم عليها شىء.

و ربّما كان لهذا السبب أن عقّب القرآن فى ذيل الآيه مباشره بالقول: وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلىٰ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ .

لأننا لو تصورنا أى وصف كمالى لأى موجود فى السماء و الأرض،من علم

ص:۵۱۲

۱- ۱) -ينقل«الفخر الرازى»عن«الزمخشرى»فى تفسير الكشّاف أن اللّه قال فى شأن ولاده عيسى عليه السّلام دون أب «هو على هين»و لأنّ كلمه«علىّ»مقدمه،فهى دليل على الحصر،أى إن هذا العمل سهل على فحسب لا على سواى، أمّا فى هذه الآيه محل البحث فقد قال:سبحانه: وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ فلا يستفاد منها الحصر،و هى إشاره إلى أن كل من يستطيع أن يؤدى عملا فى البدايه فهو قادر على إعادته أيضا«فلاحظوا بدقه».

و قدره و ملك و عظمه و جود و كرم،فمصداقه الأتم و الأكمل هو عند اللّه،لأنّ الجميع لديهم المحدود من الصفات،إلاّ هو وحده فإنّ لديه الأوصاف غير المحدوده،و الجميع لديهم أوصاف عارضه،أمّا أوصاف اللّه فذاتيه،و هو مصدر الكمالات و أساسها.

حتى الألفاظ التى تجرى على ألسنتنا لبيان مقاصدنا يوميّا..لا يمكن أن تكون مبينه لأوصافه...كما هو فى تعبير«أهون»الذى نجده مثلا عندنا.

و الجمله الآنفه هى كالآيه(١٨٠)فى سوره الأعراف،إذ ورد فيها وَ لِلّٰهِ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنىٰ فَادْعُوهُ بِهٰا و الآيه(١١)فى سوره الشورى إذ يقول: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .

و تنتهى الآيه-بما هو ضرب من التأكيد أو الدليل،إذ يقول سبحانه: وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

هو عزيز لا يقهر،إلاّ أنّه و فى منتهى قدرته غير المحدوده لا يصدر منه فعل غير دقيق،فكل أفعاله وفق حكمته.

و بعد بيان قسم آخر من دلائل التوحيد و المعاد فى الآيات المتقدمه،يتناول القرآن موضوع«نفى الشرك»فى مثال بيّن فيقول: ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ .

هذا المثال هو لو كان لديكم-أيّها المشركون-عبيد و مماليك ف هَلْ لَكُمْ مِنْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُكُمْ مِنْ شُرَكٰاءَ فِي مٰا رَزَقْنٰاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوٰاءٌ تَخٰافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ أى أن عبيدكم هؤلاء يشاركونكم فى أموالكم و فى ما رزقناكم.بحيث تكونون أنتم و عبيدكم سواء فى مالكيه هذه الأموال و النعم و تخافون أن يتصرفوا فى هذه الأموال بشكل مستقل كما هو الحاله فى تصرف شركاءكم الأحرار فيها أو فى الميراث مثلا...فأنتم غير مستعدين لأن يتصرفوا فى أموالكم.

فلو کان لکم عبید و ملک یمین«و هو ملک مجازی»لما رضیتم بمثل هذا الفعل منهم،فکیف تتصورون المخلوقات التی هی ملک حقیقی للّه شرکاءه!أو تزعمون أن بعض الأنبیاء کالمسیح أو ملائکه اللّه أو بعض المخلوقات الأخری کالجن أو الأصنام الحجریه و الخشبیّه شرکاءه،ألا ساء ما تحکمون!! المملوکات المجازیه التی یمکن أن تتحرر و تنعتق بسرعه،و تکون فی صفوفکم و من أمثالکم«کما جری ذلک فی الإسلام»-لا تکون حاله کونها مملوکه-فی صف مالکها،و لیس لها حق التدخل فی منطقه نفوذه،فکیف تجعلون العبید الحقیقیین أو المملوکات الحقیقیه شرکاء اللّه،فی حین أنّهم متعلقون باللّه ذاتا و وجودا،و لا یمکن أن یسلب هذا التعلق باللّه و الارتباط به منهم،و کل ما عندکم فمن عنده،و ما أنتم بشیء من دونه!

قال بعض المفسّرین:إنّ هذه الآیه ناظره لما قاله المشرکون من قریش،عند التلبیه فی مناسک الحج،إذ کانوا یقولون عند التلبیه...«لبیک،اللّهم لا شریک لک، إلاّ شریکا هو لک،تملکه و ما ملک»...هکذا کان محتوی تلبیه المشرکین (1) .

و بدیهی أن شأن نزول هذه الآیات شأن سائر الآیات فی نزولها،إذ لا یحدد معنی الآیه،کما هی فی الوقت ذاته جواب لجمیع المشرکین،هی مستقاه من حیاتهم أنفسهم التی تدور حول الرق و المملوکین،و تحتج علیهم احتجاجا متینا.

و التعبیر ب مٰا رَزَقْنٰاکُمْ یشیر إلی هذه اللطیفه،و هی أنّکم لستم المالکین الحقیقیین لهؤلاء العبید و الممالیک،و لا المالکین الواقعیین للمال،لأنّ کل ذلک للّه وحده،و لکنّکم غیر مستعدین لأن تخوّلوا ممالیککم المجازیین بالتصرف فی أموالکم المجازیه و تعدّوهم شرکاءکم،فی حین أنّه لا یستلزم محالا و لا مشکله من الناحیه التکوینیه لأنّ الکلام یدور مدار الاعتباریّات.

غیر أن التفاوت بین اللّه و مخلوقاته تفاوت تکوینی و لا یتغیّر،و جعل هذه

1- 1) -تفسیر المیزان و تفسیر مجمع البیان و تفسیر نور الثقلین ذیل الآیه محل البحث.

المخلوقات شريكه للّه من سابع المستحيلات.

و من جهه أخرى فإنّ عباده أحد الموجودات،إمّا لعظمته،أو لأنّه ينفع و يضر الإنسان،إلاّ أن هذه المعبودات لا تنفع و لا تضر (١)

.

و يعقب القرآن فى ختام الآيه للتأكيد و الدقه على مضمون السؤال،فيقول:

كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيٰاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

.

أجل،نذكر لكم الحقائق من الأمثله الواضحه فى حياتكم لتفكروا فيها، و لكيلا تنسبوا للّه-على الأقل-ما لا ترضون أن تنسبوه لأنفسكم!.

غير أنّ هذه الآيات البينات و هذه الأمثله الواضحه هى لأولى الألباب،لا للظالمين عبده الهوى الجهله الذين قلوبهم أسدال الجهل،و استوعبت آفاقهم الخرافات و العصبيات،لذلك يضيف القرآن فى الآيه التاليه قائلا: بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوٰاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ .

و لذلك فإنّ اللّه خلّى بينهم و بين أنفسهم بسبب أعمالهم السيئه،فتاهوا فى وادى الضلاله فَمَنْ يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللّٰهُ ؟! و التعبير ب«ظلموا»مكان«أشركوا»إشاره إلى أن الشرك بعد أعظم الظلم:

فهو ظلم للخالق،إذ جعله مخلوقه إلى جانبه و أشركه معه(و نعرف أن الظلم أن تضع الشىء فى غير موضعه).

و ظلم للخلق،إذ منعوهم عن طريق الخير و السعاده«طريق التوحيد».

و ظلم لأنفسهم،لأنّهم أطلقوا جميع وجودهم و كيانهم للريح،و ظلوا فى مفازه عمياء!و بيداء قفراء.

و هذا التعبير-ضمنا-مقدمه للجمله التاليه،و هو إنّما أضلهم اللّه عن طريق

١- ١) -فسّر بعض المفسّرين جمله«تخافونهم كخيفتكم أنفسكم»بهذه المناسبه تفسيرا آخر،حاصله أنّ هؤلاء المعبودين ليست لديهم القدره حتى تخافوهم كما تخافون من بعضكم،فكيف إذا كان الخوف أكثر!«إلاّ أن التّفسير الذى ذكرناه فى البدايه يبدو أقرب للنظر».

الحق فبظلمهم،كما جاء مثل هذا التعبير فی سوره إبراهیم الآیه(۲۷) وَ یُضِلُّ اللّٰهُ الظّٰالِمِینَ .

و لا شک أن من یترکهم اللّه و یخلّی بینهم و بین أنفسهم ف مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِینَ .

و بهـذا یوضـح القرآن عـاقبه هـذه الجمـاعه المشؤومه،و لم لا تکون کـذلک؟! و هم یرتکبون«أعظم الـذنوب و أعظم الظلم»،إذ عطلوا عقولهم و أفکارهم عن العمل،و ترکوا شمس العلم خلف ظهورهم،و توجهوا إلی ظلمه الجهل و الهوی.

فمن الطبیعی أن یسلب اللّه منهم التوفیق،و یترکهم فی ظلماتهم،و ما لهم من ناصرین و لا معینین!.

ص :۵۱۶

الآیات [سوره الروم (۳۰): الآیات ۳۰ الی ۳۲]

اشاره

فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ حَنِیفاً فِطْرَتَ اَللّهِ اَلَّتِی فَطَرَ اَلنّاسَ عَلَیْها لا تَبْدِیلَ لِخَلْقِ اَللّهِ ذلِکَ اَلدِّینُ اَلْقَیِّمُ وَ لکِنَّ أَکْثَرَ اَلنّاسِ لا یَعْلَمُونَ (۳۰) مُنِیبِینَ إِلَیْهِ وَ اِتَّقُوهُ وَ أَقِیمُوا اَلصَّلاهَ وَ لا تَکُونُوا مِنَ اَلْمُشْرِکِینَ (۳۱) مِنَ اَلَّذِینَ فَرَّقُوا دِینَهُمْ وَ کانُوا شِیَعاً کُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَیْهِمْ فَرِحُونَ (۳۲)

التّفسیر

کان لدینا حتی الآن أبحاث کثیره حول التوحید و معرفه اللّه،عن طریق مشاهده نظام الخلق،و الاستفاده منه لإثبات مبدأ العلم و القدره فی ما وراء عالم الطبیعه،بالاستفاده من آیات التوحید فی هذه السوره! و تعقیبا علی الآیات الآنفه الذکر،فإن الآیه الأولی من هذه الآیات محل البحث-تتحدث عن التوحید الفطری،أی الاستدلال علی التوحید عن طریق المشاهده الباطنیه و الدرک الضروری و الوجدانی،إذ یقول القرآن فی هذا الصدد:

فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ حَنِیفاً

لأنّها فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِی فَطَرَ النّاسَ عَلَیْها لا تَبْدِیلَ لِخَلْقِ اللّهِ ذلِکَ الدِّینُ الْقَیِّمُ وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النّاسِ لا یَعْلَمُونَ .

«الوجه»معناه معروف،و هو مقدم الرأس.و المراد به هنا الوجه الباطنی،

ص :۵۱۷

و وجه القلب و الروح فعلى هـذا ليس المراد هنـا من الـوجه أو المحيّـا وحـده،بـل التوجه بجميع الوجود،لأنّ الوجه أهم أعضـاء البدن! و كلمه«أقم»مشتقه من الإقامه،و معناه الاستقامه و الوقوف بثبات(على قدم راسخه)...

و كلمه«حنيف»مشـتقه من«حنف»،و معناهـا الميـل من الباطل نحو الحق، و من الاعوجاج نحو الإسـتواء و الاسـتقامه،على العكس من«جنف»على وزن «حنف»أيضا،و معناها الميل من الإستواء إلى الضلاله و الاعوجاج.

فمعنى الدين الحنيف هو الدين المائل نحو العدل و الإستواء عن كل انحراف و باطل و خرافه و ضلال.

فيكون معنى هـذه الجمله بمجموعها،أن وجّه نفسك دائما نحو مبـدأ و مذهب خال من أى أنواع الاعوجاج و الانحراف،و ذلك هو مبدأ الإسلام و دين اللّه الخالص و الطاهر (۱) .

إنّ الآيه المتقدمه تؤكّد على أن الدين الحنيف الخالص الخالى من كل أنواع الشـرك،هو الدين الذى ألهمه اللّه سبحانه فى كل فطره،الفطره الخالده التى لا تتغير،و إن كان كثير من الناس غير ملتفت لهذه الحقيقه.

و الآيه المتقدمه تبين عده حقائق:

۱-إنّ معرفه اللّه-ليست وحدها-بل الدين و الإعتقاد بشـكل كلى و فى جميع أبعاده هو أمر فطرى،و ينبغى أن يكون كذلك،لأنّ الدراسات التوحيديه تؤكّد أن بين جهاز التكوين و التشريع انسجاما لازما،فما ورد فى الشرع لا بدّ أن يكون له جذر فى الفطره،و ما هو فى التكوين و فطره الإنسان متناغم مع قوانين الشرع!

۱- ۱) -الألف و اللام فى كلمه«الـدين»هما للعهـد،و هما هنا إشاره إلى الـدين الذى أمر النّبى صـلّى اللّه عليه و آله أن يبلغه،أى دين «الإسلام».

و بتعبير آخر:إنّ التكوين و التشريع عضدان قويان يعملان بانسجام فى المجالات كافه،فلا يمكن أن يدعو الشرع إلى شىء ليس له أساس و لا جذر فى أعماق فطره الإنسان،و لا يمكن أن يكون شىء فى أعماق وجود الإنسان مخالف للشرع! و بدون شك فإنّ الشرع يعين حدودا و قيودا لقياده الفطره لئلاـ تقع فى مسار منحرف،إلّا أنّه لا يعارض أصل مشيئه الفطره،بل يهديها من الطريق المشروع، و إلّا فسيقع التضاد بين التشريع و التكوين،و هذا لا ينسجم مع أساس التوحيد.

و بعباره أخرى:إنّ اللّه لا يفعل أعمالا متناقضه أبدا،بحيث يقول أمره التكوينى:افعل!و يقول أمره التشريعى:لا تفعل.

٢-إنّ الدين له وجود نقى خالص من كل شائبه داخل نفس الإنسان،أمّا الانحرافات فأمر عارض،و وظيفه الأنبياء إذن إزاله هذه الأمور العارضه،و فسح المجال لفطره الإنسان فى الإشراق.

٣-إنّ جمله لاٰ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّٰهِ و بعدها جمله ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ تأكيدان آخران على مسأله كون الدين فطريا،و عدم إمكان تغيير هذه الفطره!...

و إن كان كثير من الناس لا يدركون هذه الحقيقه بسبب عدم رشدهم كما ينبغى! و ينبغى الالتفات إلى هذه اللطيفه،و هى أن الفطره فى الأصل من ماده«فطر» على زنه«بذر»و معناها شق الشىء من الطول،و هنا معناها الخلقه،فكأن ستار العدم ينشق عند خلق الموجودات و يبرز كل شىء منها.

و على كل حال فمنذ أن وضع الإنسان قدمه فى عالم الوجود،كان هذا النور متوقدا فى داخله،من أوّل يوم و من ذلك الحين! و الرّوايات المتعدده التى وردت فى تفسير الآيه تؤيد ما ذكرناه آنفا، و سنتحدث عن ذلك لاحقا إن شاء اللّه،بالإضافه إلى الأبحاث الأخرى فى مجال كون التوحيد فطريا.

ص :٥١٩

و يضيف القرآن فى الآيه التاليه:ينبغى أن يكون التفاتكم للدين الحنيف و الفطرى حاله كونكم مُنِيبِينَ إِلَيْهِ فأصلكم و أساسكم على التوحيد،و ينبغى أن تعودوا إليه أيضا.

و كلمه«منيبين»من ماده«إنابه»و هى فى الأصل تعنى الرجوع المكرر، و تعنى هنا الرجوع نحو اللّه و العوده نحو الفطره(التوحيديه) و معناها متى ما حصل عامل يحرف الإنسان عقيدته و عن أصل التوحيد فينبغى أن يعود إليه..

و مهما تكرر هذا الأمر فلا مانع من ذلك الى أن تغدو أسس الفطره متينه و راسخه، و تغدو الموانع و الدوافع خاويه و يقف الإنسان بصوره مستديمه فى جبهه التوحيد،و يكون مصداقا للآيه فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً .

و ممّا ينبغى الالتفات إليه أن أقم وجهك جاءت بصيغه الإفراد،و كلمه «منيبين»جاءت بصيغه الجمع،و هذا يدل على أنّه و إن كان الأمر الأوّل مخاطبا به النّبى صلّى اللّه عليه و آله إلاّ أن الخطاب-فى الحقيقه-لعموم المؤمنين و جميع المسلمين.

و يعقب على الأمر بالإنابه و العوده إليه،بالأمر بالتقوى،و هى كلمه تجمع معانى أوامر اللّه و نواهيه،إذ يقول: وَ اتَّقُوهُ أى اتقوا مخالفه أوامره!.

ثمّ يؤكّد القرآن على موضوع الصلاه من بين جميع الأوامر فيقول: وَ أَقِيمُوا الصَّلاٰهَ .

لأنّ الصلاه فى جميع أبعادها،هى أهم منهج لمواجهه الشرك،و أشد الوسائل تأثيرا فى تقويه أسس التوحيد و الإيمان باللّه سبحانه.

كما أنّه يؤكّد فى نهيه عن«الشرك»من بين جميع النواهى فيقول:

وَ لاٰ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ

.

لأنّ الشرك أعظم الذنوب و أكبر الكبائر،إذ يمكن أن يغفر اللّه جميع الذنوب إلاّ الشرك باللّه،فإنّه لا يغفره.كما نقرأ فى الآيه(۴۸)من سوره النساء إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشٰاءُ .

و واضح أن الأوامر الأربعه الوارده فی هذه الآیه،هی تأکید علی مسأله التوحید و آثاره العملیه،فالمسأله أعمّ من التوبه و العوده إلیه تعالی و إلی تقواه و إقامه الصلوه و عدم الشرک به.

و فی آخر آیه-من الآیات محل البحث-یبیّن القرآن واحدا من آثار الشرک و علائمه فی عباره موجزه ذات معنی کبیر،فیقول:لا تکونوا من المشرکین الذین انقسموا فی دینهم علی فرق و احزاب کثیره: مِنَ الَّذِینَ فَرَّقُوا دِینَهُمْ وَ کانُوا شِیَعاً .

و العجیب فی الأمر أنّهم علی تضادّهم و اختلافهم فإنّ کُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَیْهِمْ فَرِحُونَ .

أجل،إن واحده من علائم الشرک هی التفرقه،لأنّ المعبودات المختلفه هی منشأ الأسالیب المتفاوته و هی أساس الانفصال و التفرق،خاصه و أنّ الشرک هو توأم عاده لهوی النفس و التعصّب و الکبر و الأنانیه و عباده الذات،أو متولد عنها، لذلک لا یمکن أن تتحقق الوحده و الاتحاد إلاّ فی ظل عباده اللّه،و العقل و التواضع و الإیثار!.

فعلی هذا،حیثما وجدنا تفرقه و اختلافا فینبغی أن نعرف أن نوعا من الشرک حاکم هناک،و یمکن أن نستنتج من هذا الموضوع أن نتیجه الشرک هی تفرق الصفوف،و التضاد،و هدر القوی،و أخیرا الضعف و عدم القدره.

و أمّا مسأله کُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَیْهِمْ فَرِحُونَ فهی واضحه و دلیلها بیّن،حین یعتقدون أن ما لدیهم حق،لأنّ الهوی یزیّن للنفس عملها فی نظر الإنسان و هذا التزیین نتیجته التعلق أکثر فأکثر،و الفرح بالطریق الذی اختارته النفس،و إن کان هذا الطریق یؤدی إلی الضلال و الانحراف.

إنّ عباده الهوی لا تسمح للإنسان أن یری وجه الحقیقه کما هو،و لا یمکنه أن یقضی قضاء صحیحا خالیا من الحبّ و الحقد.

يقول القرآن المجيد فى الآيه(۸)من سوره فاطر: فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ..كالذى يمضى فى طريق الحق،و يرى الحقائق كما هى،و يعرفها حق المعرفه؟!

بحثان

اشاره

۱-التوحيد باعث داخلى قوى:

كما أنّ الدلائل العقليه و المنطقيه توجّه الإنسان،فإنّ فى داخله دوافع و موانع أيضا..بحيث تعين له الجهه«أحيانا»من حيث يدرى أو لا يدرى! و فلسفه وجودها فى داخل الإنسان،هى أنّ الإنسان لا يستطيع-دائما-أن ينتظر إيعاز العقل و المنطق،لأنّ هذا العمل قد يعطل الأهداف«الحياتيه»بعض الأحيان.

فمثلا لو أراد الإنسان أن يستلهم من منطق«لزوم بدل ما يتحلل»ضروره تناول الطعام..أو«لزوم استمرار النسل عن طريق التوالد و التناسل»ضروره الممارسه الجنسيه،و أن يعمل و يتحرك وفق المنطق فى كل ذلك،لكان ينبغى أن ينقرض الإنسان-قبل هذا الزمان بكثير-إلاّ أن الغريزه الجنسيه من جهه و جاذبيتها،و الاشتهاء للطعام من جهه أخرى،يجرانه نحو هذا الهدف شاء أم أبى.

و كلما كانت الأهداف حياتيه أكثر و عموميه،كانت هذه«الدوافع»أشد و أقوى أيضا.

لكن ينبغى الالتفات إلى أن هذه الدوافع على نحوين:

فبعضها باطنيه(غير واعيه)لا تحتاج إلى وساطه العقل و الشعور،كما ينجذب الحيوان نحو الطعام و الجنس دون الحاجه إلى التفكير.

و قد يكون تأثير الدوافع عن طريق الوعى،أى إن هذه الدوافع الداخليه

تترك أثرها فى العقل و التفكير و تـدفعه إلى انتخاب الطريق! و عاده يطلق على النوع الأوّل من هذه الدوافع«الغريزه»و على النوع الثّانى «الفطره»(فلاحظوا بدقّه).

عباده اللّه و الاتجاه نحوه لهما مكانه فى نفوس جميع الناس،و هو ما يصطلح عليه ب«الفطره».

و يمكن أن يعدّ بعض النـاس هـذا الكلام ادعـاء محضـا،يـدّعيه المؤمنون،إلاّ أن لـدينا دلائـل و شواهـد مختلفه توضـح بجلاء كون«الميل إلى اللّه»فطريا،بل تؤكّد هذا الميل فى جميع اصول الدين و أبعاده:

١-إنّ دوام الإعتقـاد الـدينى و الإيمـان بـاللّه على امتـداد التاريـخ البشـرى بنفسه دليـل على الفطره!لأنّه إذا كان ذلك على سبيل العاده،لما كانت له جنبه عموميه و لا جنبه دائميه،فهذا العموم و هذا الدوام دليل على فطريه الحاله.

يقول المؤرخون الكبـار:لم ير فى المجتمعـات الإنسـانيه فى أعماق التاريـخ البشـرى،و فى عصـر ما قبل التاريـخ أن أقواما بشـريه عاشت بلا دين إلاّ بشكل استثنائى.

و يقول«ويل دورانت»المؤرخ المعاصر:

«إذا عرّفنـا الـدين على أنّه عبـاده القوى التى هى أسـمى من الطبيعه،فينبغى أن نأخـذ بنظر الإعتبار هـذه المسأله الـدقيقه،و هى أن بعض الأمم البدائيه لم يكن لها أى دين ظاهرا»ثمّ يضيـف بعد ذكر أمثله لهذا الموضوع:فما ذكر من الأمثله هو فى عداد الحالات النادره،و الرأى القائل:التدين يشمل عموم أفراد البشر،يوافق الحقيقه»! ثمّ يضيف قائلا:«تعدّ هذه القضيه فى نظر الفيلسوف واحده من القضايـا الأساسـيه فى التاريـخ و الـدراسات النفسـيّه،فهـو لا يقنـع بهـذه المسـأله:إنّ جميع الأديـان محشوّه بالباطـل و اللغو و الخرافات،بل هو ملتفت إلى هذه المسأله،و هى

أن الدين منذ قديم الأيّام كان مرافقا للتاريخ البشرى» (۱) .

و يختتم كلامه بهذا الاستفهام الكبير معنى و مغزى«ترى أين هو مصدر التقوى التى لا يخلوا القلب منها بأى وجه»؟! و هذا المؤرخ نفسه يقول فى تحقيقاته حول وجود الدين فى فترات ما قبل التاريخ«و إذا لم نتصور للدين جذورا فى فترات ما قبل التاريخ،فلا يمكن أن نعرفها فى الفتره التاريخيه كما هى عليه» (۲) .

و التنقيبات عن إنسان ما قبل التاريخ التى تمت عن طريق الحفر،تؤيد هذا الموضوع أيضا،كما يصرح بذلك العالم الاجتماعى«ساموئيل كنيج»فى كتابه «دراسه المجتمع»:إن الأسلاف الماضين للإنسان المعاصر«ممن ينتمون إلى إنسان نئاندرتال»كان لديهم دين حتما،و يستدلّ بعدئذ لإثبات هذا الموضوع بالآثار التى عثر عليها عن طريق التنقيب و الحفر،و منها أنّهم كانوا يدفنون موتاهم بكيفيه خاصه،و يدفنون معهم أشياء تدل على اعتقادهم بيوم القيامه». (۳)

و على كل حال،فإنّ فصل الدين عن التاريخ البشرى لا يمكن أن يقبله أى محقق و باحث.

۲-إنّ المشاهدات عيانا فى العالم المعاصر تكشف أنّه مع جميع ما بذل الطغاه و المستبدون-و أنظمتهم الجائره من جهود و سعى لمحو الدين و آثاره و عن طرق مختلفه-لم يستطيعوا أن يستأصلوا الدين و جذوره من أعماق هذه المجتمعات.

و نعرف جيدا أنّ الحزب الشيوعى الحاكم فى الاتحاد السوفياتى،و منذ أكثر من ستين سنه،و بوسائل الإعلام و«الدعايات»المختلفه،حاول أن يغسل

۱- ۱) -تاريخ التمدن،ج ۱،ص ۸۷-۸۹.

۲- ۲) -تاريخ التمدن،ج ۱،ص ۱۵۶.

۳- ۳) -دراسه المجتمع،ص ۱۹۲ أصله بالفارسيه و عنوانه جامعه شناسى.

الأذهان و العقول و القلوب من الإعتقادات الدينيه مستعينا بالخلايا التنظيميه الجماعيه،إلاّ أنّ الأخبار التى تسربت و تهربت من ذلك المحيط المغلق،و ما نقرؤه فى الصحف و الجرائد،تكشف أنّهم«أى الحزب الحاكم فى روسيا»مضافا الى عدم تحقيقهم هدفهم بالرغم من تشددهم فى وسائل الإعلام،فإنّه تبدو هذه الأيّام حاله من التطلع المتزايد الى المسائل الدينيه فى بعض الدول الاشتراكيه و جمهوريات روسيا ممّا أقلق قاده النظام،و هذا يدل على أنّه لو رفعوا الضغوط و لو يوما واحدا،لعاد الدين إلى مكانه بسرعه فائقه،و هذا بنفسه شاهد آخر على فطريه الدافع الدينى أيضا.

۳-الكشوفات الأخيره من قبل النفسانيين و علماء النفس فى مجال أبعاد الروح الإنسانيه،شاهد آخر على هذا المدعى،إذ أنّهم يقولون:«إنّ التحقيقات فى المجالات النفسيّه تشير إلى بعد أصيل هو«البعد الدينى»أو بتعبير آخر«بعد قدسى»أو«ربانى»و ربّما عدّوا هذا البعد أساسا للأبعاد الثلاثه الأخرى و هى «البعد العلمى»،و«البعد الجمالى»،و«البعد الخيّر».

إذ يدّعون بأن البواعث الأساسيه للروح البشريه هى هذه:

۱-دافع البحث عن الحقيقه(الشعور العلمى)و هو مصدر أنواع العلوم، و الأهداف التحقيقيه المستمره،و المتابعات فى معرفه عالم الوجود! ۲-حس«الإحسان و العمل الصالح»الذى يجذب الإنسان نحو المفاهيم الأخلاقيه كالتضحيه و الإيثار و العدل و الشهامه و أمثالها.حتى أنّه لو كان الإنسان غير واجد لهذه الصفات،فإنّه يعشق من تتوفر فيهم هذه الصفات،و هذا يدل على أن العشق للعمل الصالح و الإحسان كامن فى جذور النفس.

۳-الحس«الجمالى»:و هو يجذب الإنسان نحو الفن الأصيل و الأدب و المسائل الذوقيه،و ربّما أصبح مصدر التحول فى حياه الفرد أو المجتمع أحيانا.

۴-الحس«الدينى»،أى الإيمان بمبدإ عال و عبادته و اتّباعه.

و نقرأ فی مقاله کتبها«کوونتایم»فی هذا المجال ما یلی:

«إنّ معرفه النفس بالبحث داخل النفس البشریه غیر الواعیه-التی بوشر بها بواسطه فروید«فی البدایه»استمرّت بالاستعانه ب«آدلر»و«یونک»-فی أعماق روح الإنسان وصلت إلی عالم جدید من القوی المستوره،و أنحاء الدرک و المعرفه وراء العقل،و یمکن أن یکون الحسّ الدینی مفتاحا من مفاتیح حل هذه الأحجیه.

و بالرغم من أنّنا بعیدون للآن عن اتفاق الآراء،إلاّ أنّه و مع هذه الحال فما یزال«مسیر فکری»فی ازدیاد یوما بعد یوم،إذ یعتقد کثیر من المفکرین بالتعریف الذی نورده ذیلا:

«إنّ الحس الدینی واحد من العناصر الأولیه الثابته و الطبیعیه لروح الإنسان، و هو أکثرها أصاله و ماهویّه،و لا یمکن مطابقته لأی من الأحاسیس و الدوافع الأخری،حیث یمدّ جذوره الی أعماق اللاوعی و یعدّ«المفهوم الدینی»أو بتعبیر أصح«المفهوم المقدس»بالنسبه لمفاهیم الجمال و الإحسان و الحقیقه،مقوله رابعه،و لها أصاله المفاهیم الثلاثه ذاتها و استقلالها أیضا (1) .

کما نقرأ فی المقاله المترجمه المقتبسه عن المحقق«تان کی دو-کنتن»ما یلی«کما أن من مزایا العصر الحاضر-فی عالم الطبیعه-هو اکتشاف البعد الرابع، الذی أطلق علیه اسم«بعد»الزمان مضافا الی الأبعاد الثّلاثه للجسم،و هو فی الوقت ذاته جامع لها،فکذلک اکتشفت فی هذا العصر المقوله الرابعه«المقدسه» أو المقوله الإلهیه«الربانیه»بموازاه المفاهیم الثلاثه«الجمال،الإحسان،طلب الحقیقه»و هی البعد الرّابع لروح الإنسان،ففی هذا المقام أیضا فان هذا البعد الرّابع الروحی منفصل عن الأبعاد الثلاثه الأخری،و ربّما کان هذا البعد منشأ

۱- ۱) -یراجع کتاب الحسّ المذهبی أو البعد الرّابع ترجمه مهندس بیانی(للکاتب کوونتایم).

ولاده الأبعاد الثلاثه الأخرى» (۱) .

۴-إن التجاء الإنسان فى الشدائد و المحن إلى قوه خفيه وراء الطبيعه، و طلب حل المشاكل و الأزمات من قبل هذه القوه،لهو أيضا شاهد آخر على أصاله هذا الدافع الباطنى و الإلهام الفطرى،و يمكن-بضمها إلى مجموع الشواهد التى ذكرناها آنفا-أن توقفنا على مثل هذا الدافع الباطنى فى داخلنا نحو اللّه سبحانه.

و بالطبع فمن الممكن أن يعدّ بعضهم هذا التوجه من آثار التلقينات أو الإعلام الدينى فى المحيط الاجتماعى المتدين! إلاّ أن عموميه هذه الظواهر فى جميع الناس،حتى فى أولئك الذين لا علاقه لهم بالمسائل الدينيه عاده،تدلّ على أن لها جذرا أعمق من هذه الفرضيه.

۵-و فى حياه الإنسان حوادث و ظواهر لا يمكن تفسيرها إلاّ عن طريق أصاله الحسّ الدينى...فكثير من الناس نجدهم قد ضحوا بجميع ما لديهم من الإمكانات الماديه،و لا يزالون يضحون أيضا،و يصبّون كل ما عندهم مع ما لديهم من سوابق تحت قدم الدين،و ربّما قدّموا أنفسهم فى سبيله أيضا.

الشهداء الذين شربوا كأس الشهاده-من أجل تقدم الأهداف الإلهيه و تحقّقها-بشوق و عشق بالغين،بحيث نرى أمثالهم فى تاريخ جهاد الإسلام الطويل،بل فى تأريخ الأمم الأخرى أيضا، يكشفون عن هذه الحقيقه،و هى أن الحس الدينى له جذر عميق فى روح الإنسان.

لكن قد يرد على هذا الكلام إشكال،و هو أنّ أفرادا-كالشيوعيين مثلا-لهم موقع إلحاديّ-ضد الأيدلوجيه و الدين-و لا يكتمون موقعهم هذا أبدا..كما أن لهم مواقف تضحويه فى سبيل حفظ فكرتهم و اعتقادهم! إلاّ أنّ هذا الإشكال ينحل تماما بملاحظه هذه المسأله،و هى أنّه حتى

۱- ۱) -المصدر نفسه الطبعه الثّانيه،ص ۳۹.

الشیوعیون الـذین ینفون الـدین کلیّا-بحسب الظاهر-و یعتقـدون أن الدین مرتبط بالتأریخ القدیم،و لا یمکن أن یکون له مکان فی المجتمعات الشیوعیه..أجل،إن هؤلاء أنفسهم قد قبلوا بالدین بشکل آخر عن طریق العقل الباطنی«و اللاوعی».

فهم یقدّسون زعماءهم و قادتهم بالنظره التی ینظرها المصـریون القدماء أوثانهم،و صـفوفهم الطویله عند جسد«لینین»لزیارته هی شاهد آخر علی هذا الموضوع أیضا.

و هم عاده یعتبرون الأصول المارکسیه کوحی السـماء لا تقبل النقـد و الخـدش،فهی مقـدّسه عندهم،و یتصورون أن مارکس و لینین و انجلس کـالمعصومین من الأخطـاء و السـهو،و یعـدون مراجعه العقل لاتخاذ موقف جدیـد من هـذه الأصول ذنبا لا یغتفر أبدا..و یخاطبون مخالفیهم بتعبیرنا الدینی علی أنّهم«مرتدون»و علی هذا فهم یعتقدون بکثیر من المفاهیم و المسائل الدینیه، غایه ما فی الأمر هو أن تفکیر هم نوع من الفکر الدینی فی شکل منحرف!

۲-فطره التوحید فی الأحادیث الإسلامیه

موضوع«معرفه اللّه الفطریه»لم یختص به القرآن الکریم فحسب،بل هو وارد فی الأحادیث الإسلامیه بشکل یسترعی الانتباه،حیث أن بعضها یؤکّد علی التوحید بالفطره،و بعضها یؤکّد علی المعرفه،و قسم یتناول الفطره«علی الإسلام»و أخیرا فإن قسما منها تناول عنوان الولایه أیضا.

ففی حدیث معتبر یرویه المحدث الکبیر الشیخ الکلینی فی أصول الکافی، و هو ما نقله

عن هشـام بن سـالم،قـال: سألت الإمام الصادق علیه السّـلام:ما المراد من قوله تعالی: فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِی فَطَرَ النّاسَ عَلَیْها ...فقال«هی التوحید» (۱) .

کما

ورد فی الکافی نفسه نقلا عن بعض أصحاب الإمام الصادق علیه السّلام أیضا

۱- ۱) -أصول الکافی،ج ۲،ص ۱۰،باب«فطره الخلق علی التوحید».

حین سأله عن تفسیر الآیه المتقدمه فقال الإمام علیه السّلام«هی الإسلام» (۱) .

کما نقرأ حدیثا متشابها لما سبق-

عن الإمام الباقر علیه السّلام جوابا لزراره أحد أصحابه العلماء حین سأله عن تفسیر الآیه فقال علیه السّلام «فطرهم علی المعرفه به» (۲) .

و

الحدیث المنقول عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله «کل مولود یولد علی الفطره حتی لیکون أبواه هما اللذان یهودانه و ینصرانه» یؤکّد هذا المضمون أیضا (۳) .

و أخیرا فإننا نقرأ

فی أصول الکافی حدیثا عن الإمام الصادق علیه السّلام أیضا فی تفسیر الآیه قال: «هی الولایه» (۴) .

و

قد ورد فی الخطبه الأولی لنهج البلاغه عن أمیر المؤمنین علیه السّلام حدیث موجز العباره غزیر المعنی،إذ یقول علیه السّلام «فبعث فیهم رسوله،و واتر إلیهم أنبیاءه لیستأدوهم میثاق فطرته،و یذکروهم منسی نعمته،و یحتجوا علیهم بالتبلیغ، و یثیروا لهم دفائن العقول».

و طبقا للرّوایات المتقدمه،فلیست معرفه اللّه هی الفطریه فحسب،بل مجموع الإسلام بشکل موجز«مضغوط»کامن فی داخل الفطره الإنسانیه بدءا من التوحید و انتهاء بالقاده الإلهیین و خلفائهم الصادقین،و کذلک فروع الأحکام أیضا.

فعلی هذا،و طبقا للتعبیر الوارد فی نهج البلاغه،فإن عمل الأنبیاء هو رعایه الفطره حتی تفتح،و تذکر الناس نعم اللّه المنسیه،و من جمله هذه النعم الفطره علی التوحید،و استخراج کنوز المعرفه الدفینه فی روح الإنسان و أفکاره! و ممّا یسترعی الانتباه أن القرآن الکریم-فی آیات متعدده-یتخذ من الشدائد و المشاکل و الحوادث المؤلمه التی یمر بها الإنسان فی حیاته مناخا

۱- ۱) -المصدر السابق.

۲- ۲) -المصدر السابق.

۳- ۳) -تفسیر«جمع الجوامع»للمرحوم الطبرسی ذیل الآیه محل البحث.

۴- ۴) -تفسیر نور الثقلین،ج ۴،ص ۱۸۴.

ملائما للحس الـدينى،إذ يقول فى واحده من هذه الآيات: فَإِذٰا رَكِبُوا فِی الْفُلْكِ دَعَوُا اللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمّٰا نَجّٰاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذٰا هُمْ يُشْرِكُونَ (١) .

و سنتحدث بإذن اللّه فى هذا المجال ذيل الآيات المقبله التى تشبه الآيات من سوره العنكبوت أيضا.

١- ١) -العنكبوت،الآيه ۶۵.

الآیات [سوره الروم (۳۰): الآیات ۳۳ الی ۳۶]

اشاره

وَ إِذٰا مَسَّ اَلنّٰاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذٰا أَذٰاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذٰا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (۳۳) لِيَكْفُرُوا بِمٰا آتَيْنٰاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۳۴) أَمْ أَنْزَلْنٰا عَلَيْهِمْ سُلْطٰاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمٰا كٰانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (۳۵) وَ إِذٰا أَذَقْنَا اَلنّٰاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهٰا وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذٰا هُمْ يَقْنَطُونَ (۳۶)

التّفسیر

إنّ الآیه الأولی من المقطع الذی بین أیدینا،هی فی الحقیقه استدلال و تأکید علی البحث السابق فی مجال کون التوحید فطریا،و تفتح هذا النور الإلهی عند الشدائد و الصعاب!إذ تقول الآیه: وَ إِذٰا مَسَّ النّٰاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ .

إلاّ أنّهم الی درجه من السطحیه و الغباء التعصب و التقلید الأعمی لأسلافهم المشرکین،بحیث أنّه بمجرّد انتهاء المشکله و هبوب نسیم الرحمه الالهیه.. ثُمَّ إِذٰا أَذٰاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذٰا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ .

و التعبیر ب مَسَّ النّٰاسَ ضُرٌّ إشاره إلی اصابتهم بقلیل من الضرر...کما أنّ التعبیر أَذٰاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إشاره إلی بلوغ شیء من النعمه،لأنّ التعبیر ب«مسّ»

أو«ذاق»فی مثل هذه الموارد یطلق علی الأمور القلیله و الجزئیه،و خاصّه باستعمال کلمتی«ضر»و«رحمه»نکرتین.

أی إنّ طائفه تبلغ بهم الحال إلی أن یفزعوا إلی اللّه عند حدوث أقل مشکله لهم،و تنکشف الحجب عن فطرتهم التوحیدیه،و لکن إذا رأوا نعمه و لو بأقل ما یتصوّر،فإنّهم یغفلون عن واقعهم کلیّا،و ینسون کل شیء! و بالطبع ففی الحاله الأولی یبیّن القرآن أنّ الناس یفزعون جمیعا إلی اللّه عند الضر و الشدائد،لأنّ فطره التوحید موجوده فی الجمیع.

و لکن فی الحاله الثّانیه یتحدث القرآن عن جماعه تسلک طریق الشرک فحسب، لأنّ طائفه من عباد اللّه یذکرون اللّه فی الشدائد و فی الرخاء و فی السراء و الضراء.فلا تنسیهم المتغیّرات ذکر اللّه أبدا.

و التعبیر ب مُنِیبِینَ إِلَیْهِ -کما رأینا فی مفهوم الإنابه سابقا-من ماده «النوب»و تعنی العوده ثانیه إلی الشیء،هذا التعبیر إشاره لطیفه للمعنی التالی، و هو أنّ الأساس فی الفطره هو توحید اللّه و عبادته،و الشرک أمر عارض،حیث متی ما یئسوا منه فهم یعودون نحو الإیمان و التوحید،شاؤوا أم أبوا!.

و الطریف هنا أنّ«الرحمه»فی الآیه مسنده إلی«اللّه»،فهو سبحانه مصدر الرحمه للعباد،سواء بطریق مباشر أو غیر مباشر إلاّ أن الضرّ لم یسند إلیه سبحانه، لأنّ کثیرا من الابتلاءات و المشاکل التی تحوطنا هی من نتائج أعمالنا و ذنوبنا.

و کلمه«ربّهم»التی تکررت فی الآیه تکررت فی الآیه مرّتین،تؤکّد علی أنّ الإنسان یحسّ بالتدبیر الإلهی و ربوبیه اللّه علی وجوده ما لم تؤثر علیه التعلیمات الخاطئه فتسوقه نحو الشرک و الضلال.

و ینبغی ذکر هذه المسأله الدقیقه،و هی أنّ الضمیر فی کلمه«منه»یعود إلی اللّه،و هذا تأکید علی أن جمیع النعم من اللّه سبحانه.و قد اختار کثیر من المفسّرین هذا المعنی أمثال«الطباطبائی»فی المیزان،و«الطوسی»فی التبیان،و«أبو

الفتوح الرازی»فی تفسیره و غیرهم،و إن ذهب غیرهم کالفخر الرازی الی إن الضمیر فی کلمه«منه»یعود علی الضرّ،و فسّروا الآیه هکذا«حین یذیق اللّه عباده بعد الضرّ رحمه.إذا فریق منهم یشرکون باللّه».(فیکون معنی«من»هنا البدلیه).إلاّ أنّه من الواضح أن التّفسیر الأوّل أکثر انسجاما مع ظاهر الآیه! أمّا الآیه الأخری فجاءت بعنوان التهدید لأولئک المشرکین،الذین ینسون ربّهم عند نیل النعم،إذ تقول:اترکهم لِیَکْفُرُوا بِمٰا آتَیْنٰاهُمْ و لیفعلوا ما استطاعوا إلی ذلک سبیلا!ثمّ یخاطب المشرکین بأن یتمتعوا بهذه النعم و المواهب الدنیویه الفانیه.و سوف یرون العاقبه السیئه لذلک: فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۱) و بالرغم من أنّ المخاطبین بالآیه هم المشرکون،إلاّ أنّه لا یبعد أن یکون لها مفهوم واسع بحیث یشمل جمیع الذین ینسون اللّه عند إقبال النعم،و ینشغلون بالتمتع بهذه النعم فحسب،دون أن یذکروا واهب النعم.

و بدیهی أن صیغه الأمر استعملت هنا للتهدید!

و القرآن فی الآیه الأخری یصوغ الکلام فی صیغه الاستفهام المقرون بالتوبیخ فیقول: أَمْ أَنْزَلْنٰا عَلَیْهِمْ سُلْطٰاناً فَهُوَ یَتَکَلَّمُ بِمٰا کٰانُوا بِهِ یُشْرِکُونَ .

«أم»هنا للاستفهام،و یحمل الاستفهام هنا غرضا استنکاریا و توبیخا... أی إن سلوک هذا الطریق و الخطه یجب أن یکون إمّا لنداء الفطره،أو بحکم العقل،أو بأمر اللّه،لکن حین یصرخ الوجدان و الفطره فی الشدائد و الملمات بالتوحید....

فإن العقل یقول أیضا:ینبغی التوجه نحو واهب النعم.

یبقی أن حکم اللّه فی هذه الآیه هو فی مورد النفی،أی:لم یؤمروا من قبل اللّه بمثل هذا الأمر،فعلی هذا فإن هؤلاء فی اعتقادهم هذا لم یستندوا إلی أی أصل

۱- ۱) -إنّ«اللام»فی جمله«لیکفروا»هی لام الأمر،و هذا الأمر للتهدید،و کذلک جمله«تمتعوا»إذ هی للتهدید أیضا. و إن کانت الأولی جاءت بصیغه«الغائب»و الثّانیه بصیغه«الخطاب»...فکأنّما افترض فی الحاله الأولی أنّهم غیّاب ثمّ من أجل التشدّد بالتهدید جعلهم مواجهین للتهدید و الخطاب،إلاّ أنّ بعض المفسّرین عدّوا«اللام»للعاقبه،أی کان عاقبه أمرهم الکفر بنعم اللّه،إلاّ أن المعنی الأوّل أکثر انسجاما مع ظاهر الآیه.

مقبول!.

و«السلطان»معناه ما يدل على السلطه و ينتهى إلى الإنتصار عاده،و معناه هنا هو الدليل المحكم المقنع.

و التعبير ب«يتكلم»هو نوع من التعبير المجازى،إذ ترانا نعبر عند وضوح الدليل قائلين«كأن هذا الدليل يتكلم مع الإنسان»! و احتمل بعض المفسّرين أن المراد بالسلطان هنا هو أحد الملائكه المقتدرين،فيكون استعمال«يتكلم»هنا على نحو الحقيقه،أى لم نرسل عليهم ملكا يتكلم بالشرك فيتبعوه!.

إلاّ أنّ التّفسير الأوّل أوضح كما يبدو! أمّا آخر آيه من الآيات محل البحث،فهى ترسم طريقه تفكير و روحيه هؤلاء الجهله الأغبياء الذين يقنطون و يحزنون لأقل مصيبه،فتقول: وَ إِذا أَذَقْنَا النّاسَ رَحْمَهً فَرِحُوا بِها وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَهٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ .

فى حين أنّ المؤمنين الصادقين هم الذين لا يغفلون عن ذكر اللّه عند النعم، و لا يقنطون عند الشدائد و المصيبه،إذ هم يشكرون اللّه على نعمه،و يرون المصيبه امتحانا و اختبارا،أو يعدونها نتيجه أعمالهم،فيصبرون و يتّجهون إلى اللّه تعالى.

فالمشركون يعيشون دائما بين«الغرور»و«اليأس»،أمّا المؤمنون فهم بين «الشكر»و«الصبر».

و يستفاد ضمنا من هذه الآيه بصوره جيده أنّ قسما من المصائب و الابتلاءات التى تحل بالإنسان هى-على الأقل-نتيجه أعماله و ذنوبه،فاللّه يريد أن ينبههم و يطهرهم و يلفتهم إليه.

و ينبغى الالتفات الى أنّ جمله فَرِحُوا بِها ليس المراد منها هنا السرور بالنعمه فحسب،بل السرور المقرون بالغرور و نوع من السكر و النشوه،و هى الحاله التى يكون عليها الأراذل عند ما تتهيأ لهم وسائل العيش و الحياه،و إلاّ فإن

السرور المقرون بالشكر و التوجه نحو اللّه ليس أمرا سيئا،بل هو مأمور به قُلْ بِفَضْلِ اللّٰهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا (۱) .

و التعبير بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ الذى ينسب المعاصى إلى الأيدى،هو لأنّ أكثر الذنوب و الأعمال يكون على يد الإنسان،و إن كانت هناك ذنوب يكتسبها القلب أو البصر أو السمع،إلاّ أن كثره الأعمال التى تصدر عن اليد استدعى هذا التعبير.

و هنا ينقدح هذا السؤال،و هو:أ لا تخالف هذه الآيه،الآيه الثّالثه و الثلاثين «ما قبل آيتين»لأنّ الكلام فى هذه الآيه عن يأسهم عند المصائب،فى حين أن الآيه السابقه تتحدث عن توجههم إلى اللّه عند بروز المشاكل و الشدائد.

و الخلاصه،إن واحده من الآيتين تتحدث عن«الرجاء»و الأخرى عن«اليأس»؟ لكن مع الالتفات إلى مسأله دقيقه يتّضح جواب هذا السؤال،و ذلك أن الآيه المتقدمه كان الكلام فيها عن«الضر»أى الحوادث الضاره كالطوفان و الزلزله و الشدائد الأخرى التى تصيب عامه الناس«الموحدين منهم و المشركين».

فيتذكرون اللّه فى هذه الحال،و هذا واحد من دلائل الفطره على التوحيد.

أمّا فى الآيه محل البحث فالكلام على نتائج المعاصى و اليأس الناشئ منها،لأنّ بعض الأفراد إذا عملوا صالحا أصبحوا مغرورين و حسبوا أنفسهم مصونين من عذاب اللّه،و حين يعملون السيئات و تحلّ بهم العقوبه فيغم وجودهم اليأس من رحمه اللّه،فكلتا الحالين«العجب و الغرور»و«اليأس و القنوط من رحمه اللّه»مذمومتان! فعلى هذا تكون كلّ آيه من الآيتين قد تناولت موضوعا منفصلا عن الآخر.

۱- ۱) -يونس،الآيه ۵۸.

الآيات [سوره الروم (۳۰): الآيات ۳۷ الی ۴۰]

اشاره

أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اَللّٰهَ يَبْسُطُ اَلرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۳۷) فَآتِ ذَا اَلْقُرْبىٰ حَقَّهُ وَ اَلْمِسْكِينَ وَ اِبْنَ اَلسَّبِيلِ ذٰلِکَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اَللّٰهِ وَ أُولٰئِکَ هُمُ اَلْمُفْلِحُونَ (۳۸) وَ مٰا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِی أَمْوٰالِ اَلنّٰاسِ فَلاٰ يَرْبُوا عِنْدَ اَللّٰهِ وَ مٰا آتَيْتُمْ مِنْ زَكٰاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اَللّٰهِ فَأُولٰئِکَ هُمُ اَلْمُضْعِفُونَ (۳۹) اَللّٰهُ اَلَّذِی خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكٰائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذٰلِكُمْ مِنْ شَیْءٍ سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ (۴۰)

التّفسير

الآیه الأولی من الآیات محل البحث-تتحدث عن التوحید و الربوبیّه أیضا، و انسجاما مع سیاق الآیات السابقه التی کانت تتحدث عن غرور بعض الناس المادیین عند إقبال النعمه علیهم،و یأسهم و قنوطهم عند مواجهتهم الشدائد و البلاء،فإنّها تقول: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللّٰهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يَقْدِرُ .

فلا ینبغی أن یکون إقبال النعم مدعاه للغرور و نسیان اللّه و الطغیان،و لا إدبارها سببا للیأس و القنوط،لأنّ سعه الرزق و ضیقه بید اللّه،فتاره یری المصلحه

ص:۵۳۶

للعبد فی الحاله الأولی«سعه الرزق»،و تاره یراها فی الثّانیه،أی«الضیق».

و صحیح أنّ العالم هو عالم الأسباب،فمن جدّ و جد،و من سعی قاوم الصعاب ینل فائده أکثر و یربح عاده،و أمّا أولئک الکسالی فلا ینالون إلاّ قلیلا...

لکن هـذه القاعـده فی الوقت ذاته لیست دائمیه و لا کلیه،إذ یتفق أن نری أناسا جـدیرین و جادّین یرکضون من هنا و هناک،إلاّ أنّهم لا یصلون إلی نتیجه یبلغون هدفهم،و علی العکس منهم قد نشاهد أناسا لا یسعون و لا یجدّون و تتفتح علیهم أبواب الرزق من کل حدب و صوب.

و هذه الاستثناءات کأنّها لبیان أنّ اللّه بالرغم من جمیع ما جعل للأسباب من تأثیر،لا ینبغی أن ینسی فی عالم الأسباب،و لا ینبغی للإنسـان أن یغفـل أن وراء هـذا العـالم یـدا قویه أخری تـدیره کیف شـاءت! فأحیانا-و وفق مشـیئته-توصـد جمیع الأبواب بوجه الإنسان مهما سـعی و جـدّ فی الأمر،و قد یرحم الإنسان و ییسّـِر له الأمور الی درجه انه ما أن یخطو خطوه...و إذا الأبواب متفتحه أمـامه! فمـا نری فی حیاتنـا من هـذه المفارقـات،بالإضـافه إلی أنّه یحـدّ من الغرور المتولـد من وفور النعمه،و الیـأس الناشـئ من الفقر،فهو فی الوقت ذاته دلیل علی أن وراء إرادتنا و مشیئتنا یدا قویه أخری«تسیّر أعمالنا».

لذلک یقول القرآن فی نهایه الآیه: إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ .

و ینقل بعض المفسّـِرین کلاما بهـذا المضـمون و هو:سـئل أحـد العلماء:ما الدلیل علی أنّ للعالم صانعا واحدا؟ فقال هناک ثلاثه أدله:«ذل اللبیب،و فقر الأدیب،و سقم الطبیب». (1)

أجل إن وجود هذه المستثنیات و المفارقات دلیل علی أن الأمور بید قادر آخر،کما

ورد فی کلام الإمام علی علیه السّلام أیضا «عرفت اللّه سبحانه بفسخ العزائم،

1- 1) -تفسیر روح البیان،ج 7،ص 29،ذیل الآیه محل البحث.

و حلّ العقود،و نقض الهمم». (۱)

و حیث أن کل نعمه و موهبه ینالها الإنسان تحمّله وظائف و مسئولیّات و علیه أداؤها،فإن القرآن یوجه الخطاب للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی الآیه التالیه قائلا: فَآتِ ذَا الْقُرْبیٰ حَقَّهُ وَ الْمِسْکِینَ وَ ابْنَ السَّبِیلِ .

و ینبغی أن لا تتصور عند سعه الرزق أن ما عندک هو لک فقط،بل إنّ للآخرین فی مالک حقّا أیضا،و من هؤلاء الأقارب و المساکین الذین باتوا متربین لشده الفقر،و کذلک الأعزه الذین ابتعدوا عن الوطن و انقطع بهم الطریق نتیجه حوادث معینه و هم محتاجون!...

و التعبیر ب«حقّه»کاشف عن أنّهم شرکاء فی أموال الإنسان،و إذا دفع المرء شیئا من ماله إلیهم فإنّما یؤدی حقهم،و لیس له منّ علیهم!.

و هناک جماعه من المفسّرین یرون أنّ المخاطب فی هذه الآیه هو النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فحسب،و أن«ذا القربی»أرحامه،و

قد ورد فی روایه عن أبی سعید الخدری و غیره ما یلی: «لما نزلت هذه الآیه علی النّبی أعطی فاطمه فدکا و سلّمها إلیها». (۲)

و بالمضمون نفسه نقل عن الإمام الباقر و الصادق علیهما السّلام أیضا. (۳)

و قد ورد المعنی نفسه مفصلا فی احتجاج فاطمه الزهراء علیها السّلام علی أبی بکر فی قضیه فدک،و ذلک فی روایه عن الإمام الصادق علیه السّلام. (۴)

غیر أنّ جماعه من المفسّرین قالوا:إنّ الخطاب فی هذه الآیه عام،و هو یشمل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و غیره،و طبقا لهذا التّفسیر فإنّ جمیع الناس علیهم أن لا ینسوا حق ذوی القربی أیضا.

۱- ۱) -نهج البلاغه،الکلمات القصار الجمله ۲۵۰

۲- ۲) -مجمع البیان.

۳- ۳) -مجمع البیان.

۴- ۴) -تفسیر علی بن إبراهیم،طبقا لنقل نور الثقلین عنه،ج ۴،ص ۱۸۶.

و بـالطبع فـإنه لا منافاه فى الجمع بين التّفسـيرين،و على هـذا فإن مفهوم الآيه مفهوم واسع،و النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و قرباه و خاصه فاطمه الزهراء عليها السّلام هم المصداق الأتم لهذه الآيه.

و من هنا يتّضـح أن لا منافاه لأى من التفاسـير الآنفه مع كون السوره مكّيه، لأنّ مفهوم الآيه مفهوم جامع ينبغى العمل به فى مكّه و فى المدينه أيضا،و حتى خبر إعطاء«فدك»لفاطمه عليها السّلام على أساس هذه الآيه مقبول جدّا.

الشـىء الوحيـد الـذى يبقى هنا،هو جمله«لما نزلت هذه الآيه...»فى روايه أبى سـعيد الخدرى،إذ أن ظاهرها أن إعطاء فدك كان بعـد نزول الآـيه،و لكن لو أخـذنا كلمه«لمـا»به معنى العله،لا بمعنى الزمان الخاص،ينحل هـذا الإشـكال، و يكون مفهوم الآيه أن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أعطى فاطمه فدكا لأمر اللّه إياه،أضف إلى ذلك فإن بعض آيات القرآن يتكرر نزولها!.

و لكن لم ذكر هؤلاـء الثلاـثه من بين جميع المحتـاجين و أصـحاب الحق؟ لعل ذلك لأهميتهم،لأنّ حق ذى القربى أهم و أعلى من أى حق سواه،و من بين المحرومين و المحتاجين فإنّ المساكين و أبناء السبيل أحوج من الجميع!.

أو أن ذلـك لمـا أورده«الفخر الرازى»هنـا إذ يقول:«فى تخصـص الأقسـام الثلاـثه بالـذكر دون غيرهـم،مع أن اللّه ذكر الأصـناف الثمانيه فى الصدقات،فنقول:

أراد هاهنـا بيـان من يجب الإحسـان إليه على كـل من له مـال،سواء كـان زكويـا أم لم يكن،و سواء كان بعـد الحول أو قبله،لأنّ المقصود هاهنا الشـفقه العامه،و هؤلاء الثلاثه يجب الإحسان إليهم و إن لم يكن للمحسن مال زائـد،أمّا القريب فتجب نفقته و إن كان لم تجب عليه زكاه كمال القاصـرين أو مال لم يحل عليه الحول، و المسـكين كذلك فإنّ من لا شـىء له إذا بقى فى ورطه الحـاجه حتى بلغ الشـده، يجب على من له مقـدره دفع حـاجته و إن لم يكن عليه زكاه،و كـذلك من انقطع فى مفازه و مع آخر دابه يمكنه بها إيصاله إلى مأمن،يلزمه ذلك،و إن لم تكن عليه

زكاه،و الفقير داخل فى المسكين،لأنّ من أوصى للمساكين شيئا يصرف إلى الفقراء أيضا «فما ذكرته الآيه من ترتيب لهؤلاء إنّما يناسب شأنهم». (۱)

و على كل حال فإنّ القرآن يبيّن فى نهايه الآيه ترغيبا للمحسنين،و شرط القبول ضمنا،فيقول: ذٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللّٰهِ وَ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

أولئك المفلحون فى هذه الدنيا،لأنّ الإنفاق يجلب معه البركات العجيبه، و فى الآخره أيضا،لأنّ الإنفاق هو أكثر الأعمال ثقلا فى ميزان اللّه يوم القيامه.

و مع الالتفات إلى أن المراد من وَجْهَ اللّٰهِ ليس هو المحيّا الجسمانى،إذ ليس له تعالى وجه جسمانى،بل هو بمعنى ذاته المقدّسه،فإن هذه الآيه تشير إلى أن الإنفاق و إيتاء حق الأقارب و أصحاب الحق الآخرين ليس كافيا،بل المهم هو الإخلاص و النيه الطاهره و الخاليه من أى أنواع الرياء و المنه و التحقير و انتظار الأجر و الثواب.

و خلافا لما ذهب إليه بعض المفسّرين.من أنّ الإنفاق لغرض الوصول إلى الجنّه ليس مصداقا لوجه اللّه،فان جميع الأعمال التى يؤديها الإنسان و فيها نوع من الارتباط باللّه،سواء كانت لمرضاته أو ابتغاء ثوابه أو للنجاه من جزائه،فكلها مصداق لوجه اللّه،و إن كانت المرحله العليا و الكامله من ذلك أن لا يبتغى الإنسان من وراء عمله إلاّ الطاعه و العبوديه المحضه!.

و تشير الآيه التاليه-بمناسبه البحث المتقدم عن الإنفاق الخالص-إلى نوعين من الإنفاق:أحدهما للّه،و الآخر يراد منه الوصول إلى مال الدنيا،فتقول:

وَ مٰا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوٰالِ النّٰاسِ فَلاٰ يَرْبُوا عِنْدَ اللّٰهِ وَ مٰا آتَيْتُمْ مِنْ زَكٰاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللّٰهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ

.

مفهوم الجمله«الثّانيه»و هى إعطاء الزكاه و الإنفاق لوجه اللّه و الثواب واضح،إلاّ أن الجمله الأولى وَ مٰا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً مختلف فى تفسيرها مع

۱- ۱) -ذيل الآيات محل البحث«الفخر الرازى».

الالتفات إلى أنّ«الربا»معناه فى الأصل«الزياده».

فالتّفسير الأوّل،و هو أوضح من جميع التفاسير،و منسجم مع مفهوم الآيه أكثر،و متناسق مع الروايات الوارده عن أهل البيت عليهم السّلام،أن المراد من الربا هو الهدايا التى يقدمها بعض الأفراد للآخرين،و لا سيما إلى أصحاب الثروه و المال، كى ينالوا منهم أجرا أحسن و أكثر! و بديهى أنّه فى مثل هذه الهدايا لا يؤخذ بنظر الاعتبار استحقاق الطرف الآخر و لا الجداره و الأولويه،بل كل ما يهدف اليه أن تصل الهديه إلى مكان،تعود على مهديها بمبلغ أوفر و من الطبيعى أن مثل هذه الهدايا ليس فيها«جنبه» إخلاص،فلا قيمه لها من الجهه الأخلاقيه،و المعنويه!.

فعلى هذا يكون معنى«الربا»فى هذه الآيه هو«الهديه و العطيه»و المراد من جمله لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النّاسِ هو أخذ الأجر الوافر من الناس! و لا شك أن أخذ مثل هذه الأجره ليس حراما،إذ ليس فيه شرط أو قرار،إلاّ أنّه فاقد للقيمه الأخلاقيه و المعنويه...و لذلك فقد ورد التعبير عن هذا الربا-فى روايات متعدده عن الإمام الصادق عليه السّلام فى مصادر معروفه،ب«الربا الحلال» فى قبال«الربا الحرام»الذى يستلزم الشرط و العقد أو الاتفاق.

و نقرأ فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام فى كتاب تهذيب الأحكام،فى تفسير الآيه هو

قوله عليه السّلام: «هو هديتك إلى الرجل تطلب منه الثواب أفضل منهما، فذلك ربا يؤكل»! كما نقرأ حديثا آخر

عنه عليه السّلام «الربا رباءان،أحدهما حلال و الآخر حرام،فأمّا الحلال فهو أن يقرض الرجل أخاه قرضا يريد أن يزيده و يعوضه بأكثر ممّا يأخذه بلا شرط بينهما،فإن أعطاه أكثر ممّا أخذه على غير شرط بينهما فهو مباح له،و ليس له عند اللّه ثواب فيما أقرضه،و هو قوله: فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللّهِ و أمّا الحرام فالرجل

یقرض قرضا و یشترط أن یردّ أکثر ممّا أخذه فهذا هو الحرام». (۱)

و هناک تفسیر آخر لهذه الآیه،و هو أن المراد من الربا فی هذه الآیه هو الربا الحرام،و طبقا لهذا التّفسیر فإن القرآن یرید أن یقیس الربا بالإنفاق الخالص لوجه اللّه،و یبین أن الربا و إن کان ظاهره زیاده المال،إلاّ أنّه لیس زیاده عند اللّه، فالزیاده الحقیقیه و الواقعیه هی الإنفاق فی سبیل اللّه.

و علی هذا الأساس فقد عدّوا الآیه مقدمه لمسأله«تحریم الربا»التی ذکرها القرآن فی بدایه الأمر و قبل الهجره علی سبیل الإرشاد الأخلاقی و النصح،و لکن تمّ تحریم الربا بعد الهجره فی ثلاث سور«البقره و آل عمران و النساء»بصوره تدریجیه«و کانت لنا إشاره أیضا فی الجزء الثّانی من التّفسیر الأمثل علی هذا الأساس».

و بالطبع لیس بین المعنیین أیّ تضاد،و یمکن أن تؤخذ الآیه بمعناها الواسع الذی یجمع«الربا الحلال»و«الربا الحرام»و یقاس کلاهما بالإنفاق فی سبیل اللّه، إلاّ أن تعبیرات الآیه أکثر انسجاما مع التّفسیر الأول،لأنّ الظاهر من الآیه هنا أن عملا قد صدر لیس فیه ثواب،و هو مباح،لأنّ الآیه تقول:إن هذا العمل لا یربو عند اللّه،و هذا یتناسب مع الربا الحلال الذی لیس فیه وزر و لا ثواب،و لیس شیئا یستوجب مقت اللّه و غضبه...و قد قلنا:إن الروایات الإسلامیه ناظره إلی هذا المعنی.

و ینبغی الإشاره إلی هذه اللطیفه اللغویه،و هی أنّ کلمه«مضعفون»التی هی صیغه لاسم الفاعل،لا تعنی أنّهم یزیدون و یضعفون بأنفسهم للمال،بل معناها أنّهم أصحاب الثواب المضاعف،لأنّ اسم الفاعل قد یأتی فی لغه العرب و یراد منه اسم المفعول،مثل«الموسر»أی:صاحب المال الکثیر.

و ینبغی أیضا أن یعرف بالنظره البعیده أن المراد من الضعف و المضاعف

۱- ۱) -تفسیر نور الثقلین،ج ۴،ص ۱۹۱.

ليس معناه«مثل الشـيء مرّتين»بل يشـمل المثل مرتين و يشـمل أمثال الشـيء، و الحـدّ الأقل فى الآيه هنا عشـره أمثال،لأنّ القرآن يقول: مَنْ جٰاءَ بِالْحَسَنَهِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثٰالِهٰا . (۱)

و تبلغ الزياده أحيانا كما فى القرض إلى ثمانيه عشر كما نقرأ فى هذا

حديثا للإمام الصادق عليه السّلام يقول فيه: «على باب الجنّه مكتوب:القرض بثمانيه عشر و الصدقه بعشر». (۲)

و قد تبلغ الزياده إلى سبعمائه«ضعف»كما هو فى شأن الإنفاق فى سبيل اللّه، إذ تقول الآيه: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوٰالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّهٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنٰابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَهٍ مِائَهُ حَبَّهٍ وَ اللّهُ يُضٰاعِفُ لِمَنْ يَشٰاءُ (۳) و فى الآيه الأخيره-من الآيات محل البحث-عوده أخرى إلى مسأله المبدأ و المعاد،و هى الموضوع الأساس الذى ورد فى كثير من آيات هذه السوره...

و تصف الآيه«اللّه»بأربعه أوصاف لتكون إشاره للتوحيد و مواجهه الشرك،و دليلا على المعاد أيضا فتقول: اَللّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكٰائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذٰلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ .

و من المسلّم به أن المشركين لم يكن أىّ منهم يعتقد بأن الخلق كان من قبل الأوثان،أو أن أرزاقهم بيد الأوثان و الأصنام،أو أن نهايه حياتهم بأيدى هذه الأوثان كذلك!!بل لأنّهم جعلوا هذه الأوثان المصنوعه واسعه و شفعاء بينهم و بين اللّه،فعلى هذا يكون الجواب على هذه الأسئله هو النفى،و الاستفهام هنا استفهام إنكارى!.

الموضوع الآخر الذى يثير السؤال هنا هو أن أولئك المشركين لم يكونوا

۱- ۱) -الأنعام،الآيه ۱۶۰.

۲- ۲) -نور الثقلين،ج ۴،ص ۱۹۰.

۳- ۳) -البقره،الآيه ۲۶۱.

يعتقدون بالحياه بعد الموت،فكيف يستند القرآن فی آخر وصف للّه تعالی إلی ذلک؟! لعل هذا التعبير هو لأنّ مسأله المعاد و الحياه بعد الموت-كما ذكرناها فی بحوثنا المتقدمه-لها«جنبه»فطريّه،و القرآن هنا لا يستند إلی معتقداتهم،بل إلی فطرتهم.

إضافه إلی ذلک فقد يتفق أن متكلما ذلقا حين يواجه شخصا آخر ينكر موضوعا ما،فيستدرجه بما لديه من حقائق يتقبلها ذلک الآخر و يستند إليها بشكل قطعی ليظهر أثرها،و ينزل صاحبه من مركب الإنكار.

ثمّ بعد هذا كله فإن بين الحياه الأولی من قبل اللّه و قدرته علی ذلک،و الحياه بعد الموت رابطه لا تقبل الانفصام،و مع ملاحظه هذه الرابطه المنطقيه فإن«كلا الأمرين»جاءا فی عباره واحده.

و علی كل حال فإن القرآن يقول:عند ما يكون الخلق و الرزق و الموت و الحياه بيد اللّه،فالعباده ينبغی أن تكون له فقط،و يكشف هذه الحقيقه بقوله:

سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالیٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ

و هی أنّ المشركين أهانوا كثيرا مقام رب العزه إذ أشركوه فی العباده مع أوثانهم.

ص :۵۴۴

الآیات [سوره الروم (۳۰): الآیات ۴۱ الی ۴۵]

اشاره

ظَهَرَ اَلْفَسٰادُ فِی اَلْبَرِّ وَ اَلْبَحْرِ بِمٰا کَسَبَتْ أَیْدِی اَلنّٰاسِ لِیُذِیقَهُمْ بَعْضَ اَلَّذِی عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ (۴۱) قُلْ سِیرُوا فِی اَلْأَرْضِ فَانْظُرُوا کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَهُ اَلَّذِینَ مِنْ قَبْلُ کٰانَ أَکْثَرُهُمْ مُشْرِکِینَ (۴۲) فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ اَلْقَیِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَ یَوْمٌ لاٰ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اَللّٰهِ یَوْمَئِذٍ یَصَّدَّعُونَ (۴۳) مَنْ کَفَرَ فَعَلَیْهِ کُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ یَمْهَدُونَ (۴۴) لِیَجْزِیَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لاٰ یُحِبُّ اَلْکٰافِرِینَ (۴۵)

التّفسیر

اشاره

أساس الفساد و مصدره أعمال الناس أنفسهم:

کان الکلام فی الآیات السابقه عن الشرک،و نعلم أنّ أساس جمیع المفاسد هو الغفله عن أصل التوحید و التوجه نحو الشرک،لذلک فإنّ القرآن-فی هذه الآیات محل البحث-یتحدث عن ظهور الفساد فی الأرض بسبب أعمال الناس أنفسهم،فیقول: ظَهَرَ الْفَسٰادُ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِمٰا کَسَبَتْ أَیْدِی النّٰاسِ .

و اللّه یرید أن یریهم ما قدموه و لِیُذِیقَهُمْ بَعْضَ الَّذِی عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ

يَرْجِعُونَ

.

و الآيه الآنفه الذكر تبيّن المعنى الواسع حول ارتباط الفساد بالذنب، الذى لا يختصّ بأرض«مكّه»و الحجاز،و لا بعصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله،بل هو من قبيل القضيه الحقيقيه التى تبيّن العلاقه بين الموضوع و المحمول! و بعباره أخرى:حيثما ظهر الفساد فهو انعكاس لأعمال الناس و فيه-ضمنا- هدف تربوى،ليذوق الناس«طعم العلقم»نتيجه أعمالهم،لعلهم ينتهون و يثوبون إلى رشدهم! و يقول بعضهم:إنّ هذه الآيه ناظره إلى القحط و«الجدب»الذى أصاب المشركين بسبب دعاء النّبى صلّى اللّه عليه و آله على مشركى مكّه!...فانقطعت المزن و يبست الصحارى،و صار من الصعب عليهم الصيد من البحر الأحمر أيضا.

و على فرض أن يكون هذا الكلام صحيحا تاريخيا،إلاّ أنّه بيان لأحد المصاديق و لا يحدد معنى الآيه فى مسأله ارتباط الفساد بالذنب،فهى ليست محدّده بذلك الزمان و المكان،و لا بالجدب و انقطاع«الغيث».

و ممّا ذكرناه آنفا يتّضح جيدا أنّ كثيرا من التّفاسير المحدوده و الضيقه التى نقلها بعض المفسّرين فى ذيل الآيه غير مقبوله بأى وجه.

كما فسّروا الفساد فى الأرض بأنّه قتل«هابيل»على يد«قابيل»،أو أن المراد بالفساد فى البحر هو غصب السفن فى عصر موسى،و الخضر عليهم السّلام.

أو أنّ المراد من الفساد فى البر و البحر هو ظهور الحكّام المتسلطين الفاسدين الذين يشيعون الفساد فى جميع هذه المناطق!.

و بالطبع فإنّ الممكن أن تكون مصاديق الآيه مثل هؤلاء الأفراد الذين يتسلطون على الناس نتيجه الدنيا و المجامله و جرّ الناس للذل،و لكن من المسلّم به أن هذا المصداق لا يعنى تخصيص مفهوم الآيه!.

كما أنّ جماعه من المفسّرين بحثوا فى معنى الفساد فى البحر أيضا،فقال

بعضهم:المراد بالبحر هو المدن التی إلی جانب البحر،و قال بعضهم: إنّ المراد بالبحر هو«المناطق المخصبه ذات البساتین و الأثمار».

و لا نجد دلیلا علی هذه التمحّلات،لأنّ البحر معناه معروف،و الفساد فیه لعله قلّه المواهب البحریه،أو عدم الأمن فیه،أو الحروب البحریه.

و نقرأ

حدیثا عن الإمام الصادق علیه السّلام فی هذا الصدد «حیاه دواب البحر بالمطر،فإذا کفّ المطر ظهر الفساد فی البحر و البرّ،و ذلک إذا کثرت الذنوب و المعاصی» (۱) .

و بالطبع فإنّ ما ورد فی هذه الروایه هو مصداق واضح للفساد و ما ورد فی شأن نزول المطر«و حیاه دواب البحر به»فهو موضوع دقیق،تؤکّد علیه التجربه، فکلما قلّ ماء السماء«المطر»قل السمک فی البحر،حتی أنّنا سمعنا ممن یقطنون ساحل البحر یقولون:إن فائده الغیث للبحر أکثر من فائدته للصحراء!.

و فی الآیه التالیه یأمر اللّه الناس بالسیر فی الأرض لیروا شواهد کثیره «حیّه»من مسأله ظهور الفساد فی الأرض بسبب المعاصی و الذنوب من قبل الناس.و یوصی نبیّه صلّی اللّه علیه و آله أن یأمرهم بذلک،فیقول: قُلْ سِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَانْظُرُوا کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَةُ الَّذِینَ مِنْ قَبْلُ .

انظروا قصور«الظالمین»المتهدمه،و أبراجها المتداعیه و الخزائن المطموسه،و جماعاتهم المتفرقه،ثمّ انظروا إلی قبورهم المدروسه و عظامهم النخره! و انظروا عاقبه أمر الظلم و الشرک و ما آلی إلیه.

أجل کٰانَ أَکْثَرُهُمْ مُشْرِکِینَ .

و الشرک أساس الفساد و الانحراف و الضلال! ممّا یستلفت الانتباه،أنّه حین کان الکلام فی الآیات السابقه عن نعم اللّه،

۱- ۱) -تفسیر القمی:طبقا لنقل تفسیر المیزان،ج ۱۶،ص ۲۱۰.

كانت بدايته حول خلق الإنسان ثمّ رزقه من قبل اللّه اَللّهُ الَّذِی خَلَقَکُمْ ثُمَّ رَزَقَکُمْ إلاّ أن الكلام فی الآيات محل البحث التی تتحدث عن العقاب يبدأ الكلام فيها أوّلا بالإشاره إلی زوال النعم علی أثر المعاصی و الذنوب،ثمّ الهلاک علی أثر الشرک،لأنّه عند الهبه و العطاء«أوّل الأمر يذكر الخلق ثمّ الرزق»..و عند الاسترجاع،«فأوّل الأمر زوال النعمه ثمّ الهلاک».

و التعبير ب کانَ أَکْثَرُهُمْ مُشْرِکِینَ مع الالتفات إلی أنّ هذه السوره مكّيه و كان المسلمون فی ذلک الوقت قلّه،فلعل ذلک إشاره إلی أن لا تخافوا من كثره المشركين،لأنّ اللّه أهلک من قبلهم من هو أشدّ منهم،و اكثر جمعا،و هو فی الوقت ذاته إنذار للطغاه ليسيروا فی الأرض فينظروا بأم أعينهم عاقبه الظالمين من قبلهم!.

و حيث أن التصور و الوعی و الانتباه،ثمّ العوده و الإنابه إلی اللّه،كل ذلک لا يكون-دائما-مفيدا و مؤثرا،ففی الآيه التاليه يوجه القرآن الخطاب للنبیّ الأكرم صلّی اللّه عليه و آله قائلا: فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ الْقَیِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَ یَوْمٌ لاٰ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللّٰهِ یَوْمَئِذٍ یَصَّدَّعُونَ (۱) أی يتفرقون«فريق فی الجنّه و فريق فی السعير».

و وصف الدين بأنه«قيّم»مع ملاحظه أن«القيّم معناه الثابت و القائم»هو إشاره إلی أن هذا التوجه المستمر«أو الإقامه»هی للدين..أی لأنّ الإسلام دين ثابت و مستقيم و ذو نظام قائم فی الحياه الماديه و المعنويه للناس،فلا تمل عنه أبدا،بل أقم وجهک للدين القيم! و إنّما وجه الخطاب للنبیّ صلّی اللّه عليه و آله ليعرف الآخرون واجبهم و وظيفتهم أيضا.

۱- ۱) -كلمه«مردّ»فی جمله«لا مرد له من اللّه»مصدر ميمی و هو هنا بمعنی اسم الفاعل فيكون معنی الجمله:لا رادّ له من اللّه.و الضمير فی«له»يعود إلی«يوم»و يكون المفهوم العام للجمله.لا يستطيع أی كان أن يعيد ذلک اليوم من اللّه، أی يقف بوجه القضاء و المحاكمه بتأخير ذلک اليوم و«تعطيله». و الخلاصه:إنّه لا يخلف اللّه وعده ليعيد ذلک اليوم،و ليس لأحد سواه القدره علی ذلک؛فوقوع ذلک اليوم لا بدّ منه و هو يوم محتوم»(فلاحظوا بدقه).

و التعبیر ب«یصدعون»من ماده«صدع»معناه فی الأصل:کسر الإناء،ثمّ انتقل بالتدریج إلی أی نوع من أنواع التفرق و التشتت.و هنا إشاره إلی انفصال صفوف أهل الجنان عن صفوف أهل النیران،و کل من هذه الصفوف یتفرق إلی عده صفوف،و ذلک لسلسله المراتب فی الجنان،و درکات النیران«و العیاذ باللّه».

و الآیه التالیه-بیان لهذا الانفصال فی یوم القیامه،إذ تقول: مَنْ کَفَرَ فَعَلَیْهِ کُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ یَمْهَدُونَ .

کلمه«یمهدون»مشتقّه من«المهد»علی زنه«عهد»و کما یقول الراغب فی مفرداته فإنّ معناه السریر المعدّ للطفل،ثمّ توسعوا فی المعنی فصار المهد و المهاد لکل مکان مهیأ و معد«و فیه منتهی الدعه و الراحه»و قد انتخب هذا التعبیر لأهل الجنّه و المؤمنین الصالحین،من هذه الجهه.

و الخلاصه:لا-تحسبوا أن إیمانکم و کفرکم و أعمالکم الصالحه و الطالحه لها أثر علی اللّه،بل أنتم الذین تفرحون بها أو تساءون یَوْمَ تَرَوْنَهٰا .

و من الطریف أنّ القرآن اکتفی فی شأن الکفار بالتعبیر ب مَنْ کَفَرَ فَعَلَیْهِ کُفْرُهُ و لکن بالنسبه للمؤمنین تضیف الآیه التالیه:أن المؤمنین لا یرون أعمالهم فحسب،بل یولیهم اللّه من مواهبه و فضله فیقول: لِیَجْزِیَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ مِنْ فَضْلِهِ .

و من المسلّم به أن هذا الفضل لا یشمل الکفار إذ إِنَّهُ لاٰ یُحِبُّ الْکٰافِرِینَ ...

و لا شکّ أنّ اللّه یعاملهم وفق عدالته،و یجزیهم ما یستحقون،لا أکثر، لکن لا ینالهم منه فضل و موهبه أیضا.

بحوث

اشاره

١-العلاقه بين الذنب و الفساد

ممّا لا شك فيه أن كل ذنب يترك أثره فى المجتمع،كما يترك أثره فى الأفراد عن طريق المجتمع أيضا...و يسبب نوعا من الفساد فى التنظيم الاجتماعى، فالذنب و العمل القبيح،و تجاوز القانون،مثلها كمثل الغذاء السيء و المسموم،إذ يترك أثره غير المطلوب و السيء فى البدن شئنا أم أبينا،و يقع الإنسان فريسه للآثار الوضعيه لذلك الغذاء المسموم.

«الكذب»يسلب الاعتماد.

و«خيانه الأمانه»تحطّم الروابط الاجتماعيه.

و«الظلم»يسبب إيذاء الآخرين و ظلمهم.

و الإفراط فى الحريه يجرّ إلى الديكتاتوريه،و الديكتاتوريه تجر إلى الإنفجار.

و«ترك حقوق المحرومين»يورث العداوه و الحقد و البغضاء،و«تراكم الأحقاد و العداوات»يزلزل أساس المجتمع!.

و الخلاصه،أن كلّ عمل غير صحيح له أثره السيّء سواء كان ذلك فى دائره محدوده أم واسعه،و أحد تفاسير الآيه ظَهَرَ الْفَسٰادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِمٰا كَسَبَتْ أَيْدِي النّٰاسِ هو هذا(و هذا يبيّن العلاقه الطبيعيه بين الذنب و الفساد-«هنا»).

إلاّ أنّه يستفاد من الروايات الإسلاميه أنّ كثيرا من الذنوب-إضافه لما ذكرنا -تجلب معها سلسله من الآثار السيئه،و علاقتها و ارتباطها مع تلك الآثار-من الناحيه الطبيعيه على الأقل-غير معروفه.

فمثلا ورد فى الرّوايات الإسلاميه أن قطع الرحم يقصر العمر،و أن أكل المال الحرام يورث ظلمه القلب،و أن كثره الزنا يورث فناء الناس و يقلل الرزق (١) .

١- ١) - فى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال: «للزنا عقوبات ثلاث منها فى الدنيا و ثلاث فى الآخره،فأمّا العقوبات فى

حتی أنّنا لنقرأ

حدیثا عن الإمام الصادق علیه السّلام یقول فیه: «من یموت بالذنوب أکثر ممن یموت بالآجال» (۱) و

قد ورد فی القرآن نظیر هذا المعنی فی تعبیر آخر،حیث یقول القرآن: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُریٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَیْهِمْ بَرَکاتٍ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ وَ لٰکِنْ کَذَّبُوا فَأَخَذْنٰاهُمْ بِمٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ (۲) .

إذن فالفساد-فی الآیه محل البحث-هو الفساد الأعمّ«الذی یشمل المفاسد الاجتماعیه،و البلایا،و سلب النعم و البرکات».

و ممّا یستلفت الانتباه أن الآیه المتقدمه یستفاد منها ضمنا أن واحدا من حکم الآفات و البلایا تأثیرها التربوی علی الناس،إذ علیهم أن یروا رد الفعل الناتج من أعمالهم..لیفیقوا من نومهم و غفلتهم،و یعودوا إلی الطهاره و التقوی! و لا نقول:إنّ جمیع الشرور و الآفات هی من هذا القبیل،و لکننا نقول:إن قسما منها-علی الأقل-فیه هذه الحکمه و الغایه و بالطبع فإنّ له حکمه أخری بحثناها فی محلها.

۲-فلسفه السیر فی الأرض

لقد وردت مسأله«السیر فی الأرض»ست مرات فی القرآن المجید،(فی سوره آل عمران و الأنعام و النحل و النمل و العنکبوت و الروم)حیث وردت مرّه بقصد التفکر فی أسرار الخلق(سوره العنکبوت الآیه ۲۰)و خمس مرات بقصد العبره من العواقب الوخیمه التی نالها الظالمون و الجبابره و الطغاه الآثمون!

(۱)

- الدنیا فإنه یسلب النور من الإنسان،و یبتله بموت الفجأه،و یقطع الرزق.و أمّا التی فی الآخره فهو علی سوء الحساب و غضب اللّه و الخلود فی نار جهنم»(سفینه البحار-ماده زنی).

۱- ۱) -سفینه البحار(ماده ذنب).

۲- ۲) -الأعراف،الآیه ۹۶.

و القرآن يهتمّ بالمسائل العينيه و الحسيه-التى يمكن لمس آثارها فى الأمور التربويه-اهتماما خاصا،و لا سيما أنّه يأمر المسلمين أن ينطلقوا من محيطهم المحدود إلى المدى الأرحب،و يسيروا و يسيحوا فى هذا العالم، و ليفكروا فى أعمال الآخرين و سجاياهم و عواقب أمورهم،و أن يستوحوا من هذه«الحياه»العابره«و يدخروا ذخيره قيمه»من العبره و الاطلاع! إنّ القوى الشيطانيه فى العصر الحاضر-من أجل سعه استثمارها فى العالم كافه-مشطت و فحصت جميع الدول و البلدان و الأمم و طريقه حياتهم و ثقافتهم و نقاط القوّه و الضعف فيهم بصوره جيده.

إنّ القرآن يقول:بدلا من هؤلاء المستكبرين سيروا أنتم فى أرجاء الأرض و بدلا من خططهم و مؤامراتهم الشيطانيه تعلموا دروسا رحمانيه.

العبره و الإعتبار من حياه الآخرين أهم من التجارب الشخصيه و أكثر قيمه، لأنّ الإنسان ينبغى أن يتحمل خلال تجاربه أضرارا ليتعلم مسائل جديده إلّا أن الإنسان عند استلهام العبره من الآخرين يربح معارف جمه و ثمينه دون أن يتحمل ضررا.

و أمر القرآن بالسير فى الأرض ينطبق على أكمل الأساليب و الطرق التى حصل عليها البشر فى العصر الحاضر،و ذلك بأن يأخذوا بأيدى التلاميذ-بعد استيعاب المسائل فى الكتب-و يسيروا فى الأرض،و يطالعوا الشواهد العينيه التى قرءوها فى الكتب! و بالطبع فهناك اليوم نوع آخر من السير فى الأرض بعنوان«السياحه»فى العالم،و ذلك من قبل«الحضاره الشيطانيه»لجلب الأموال و الثروه«الحرام»التى راجت سوقها،و غالبا ما تكون فيها أهداف منحرفه و تضليليه،كنقل الثقافه السقيمه و إشاعه الهوى و السفاهه و الحماقه و اللهو هذه هى«السياحه المخربه»!

و لکن الإسلام یؤید السیاحه التی تکون وسیله لنقل الثقافات الصحیحه و التجارب المتراکمه،و استکناه أسرار الخلق فی عالم البشر و عالم الطبیعه، و استلهام دروس العبره من عواقب المفسدین و الظالمین الوخیمه.

و لا بأس بالإشاره إلی أنّ هناک سیاحه منعها الإسلام و نقرأ

حدیثا یقول:

«لا سیاحه فی الإسلام» (۱) .

و المراد من هذا الحدیث هو فی جمیع سنوات حیاتهم-أو بعضها-منفصلین عن الحیاه الاجتماعیه تماما،و دون أن یکون لهم نشاط ملحوظ،فهم یسیحون فی الأرض و یعیشون کالرهبان!فیکونون عاله علی الآخرین.

و بتعبیر آخر:إنّ عمل هؤلاء بمثابه«الرهبانیه السیاره»مقابل الرهبان الثابتین المنزوین فی الدیر و المنعزلین عن المجتمع،و حیث أن الإسلام یخالف هذا الاتجاه و الانزواء الاجتماعی،فهو یعد هذه«السیاحه»غیر مشروعه أیضا.

۳-الدین القیّم

کان الخطاب فی الآیات المتقدمه للنّبی صلّی اللّه علیه و آله أن یجعل تمام توجهه نحو الدین المستقیم و الثابت،الذی لیس فیه اعوجاج و لا انحراف و لا تزلزل فی قواعده أبدا.

و من الطریف أن تعبیرات أخری فی آیات القرآن المتعدده جاءت بصدد هذا الدین،ففی الآیه(۱۰۵)من سوره یونس جاء التعبیر عنه بالحنیف فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ حَنِیفاً .

و فی الآیه(۳)من سوره الزمر وصف بالخالص أَلاٰ لِلّٰهِ الدِّینُ الْخٰالِصُ .

ص:۵۵۳

۱- ۱) -مجمع البحرین ماده«سیح»،و فی حدیث آخر عن النّبی العظیم صلّی اللّه علیه و آله فی هذا الکتاب نفسه نقرأ قوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «سیاحه أمتی الغزو و الجهاد».

و فی الآیه(۵۲)من سوره النحل،وصف بأنّه واصب،أی لا یتغیر وَ لَهُ الدِّینُ وٰاصِباً .

و فی الآیه(۷۸)من سوره الحج وصف بأنه خال من الحرج و الشده وَ مٰا جَعَلَ عَلَیْکُمْ فِی الدِّینِ مِنْ حَرَجٍ ! و نظائر هذه الآیات کثیره فی القرآن! و کل واحد من هذه الأمور یمثل بعدا من أبعاد الدین الإسلامی،و هو فی الوقت ذاته من باب اللازم و الملزوم.

أجل ینبغی أن ینتخب مثل هذا الدین،و أن یسعی فی معرفته،و أن یحفظ حتی آخر رمق!

۴-لا عوده فی یوم القیامه!

قرأنا فی الآیات المتقدمه عن یوم القیامه قوله تعالی: یَوْمٌ لاٰ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللّٰهِ و لا طریق للعوده إلی الدنیا! و یلاحظ فی آیات القرآن الأخر ما یشبه هذا التعبیر،و من ذلک الآیه (۴۴) من سوره الشوری-حین یری الظالمون العذاب یقولون: هَلْ إِلیٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِیلٍ .

کما وصف یوم القیامه فی الآیه(۴۷)من سوره الشوری-أیضا-بقوله تعالی: یَوْمٌ لاٰ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللّٰهِ .

و الحقیقه أن عالم الوجود له مراحل لا عوده فیها إلی مرحله سابقه،و هذه سنه اللّه التی لا تتبدل و لا تتحول! تری،هل یرجع الطفل-سواء ولد کاملا أو ناقصا-جنینا مرّه أخری إلی رحم أمه؟!

ص :۵۵۴

و هل ترجع الثمره المقطوفه من الشجره-ناضجه كانت أم لا-إلى أغصانها؟! فانتقال الإنسان من هذا العالم إلى العالم الآخر على هذه الشاكله،أى لا طريق للعوده أبدا...و هذه حقيقه تخيف الإنسان و تهزّه و تنذره ليكون يقظا!.

ص :۵۵۵

الآيات [سوره الروم (۳۰): الآيات ۴۶ الی ۵۰]

اشاره

وَ مِنْ آيٰاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ اَلرِّيٰاحَ مُبَشِّرٰاتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِتَجْرِيَ اَلْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۴۶) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلىٰ قَوْمِهِمْ فَجٰاؤُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ فَانْتَقَمْنٰا مِنَ اَلَّذِينَ أَجْرَمُوا وَ كٰانَ حَقًّا عَلَيْنٰا نَصْرُ اَلْمُؤْمِنِينَ (۴۷) اَللّٰهُ اَلَّذِي يُرْسِلُ اَلرِّيٰاحَ فَتُثِيرُ سَحٰاباً فَيَبْسُطُهُ فِي اَلسَّمٰاءِ كَيْفَ يَشٰاءُ وَ يَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى اَلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاٰلِهِ فَإِذٰا أَصٰابَ بِهِ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ إِذٰا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (۴۸) وَ إِنْ كٰانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (۴۹) فَانْظُرْ إِلىٰ آثٰارِ رَحْمَتِ اَللّٰهِ كَيْفَ يُحْيِ اَلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا إِنَّ ذٰلِكَ لَمُحْيِ اَلْمَوْتىٰ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۵۰)

التّفسير

اشاره

انظر إلى آثار رحمه اللّه:

قلنا:إن فی هذه السوره قسما مهمّا«يستلفت النظر»من دلائل التوحيد

ص :۵۵۶

و آيـات اللّه،مبينـا فى سـبع آيـات تبـدأ كل منها بقوله: وَ مِنْ آيَاتِهِ قرأنا ست آيات منها بصوره متتابعه،و الآيه الأولى من الآيات أعلاه هى سابع الآيات التى مرت.

و آخرها.

و حيث كـان الكلام فى الآيات السابقه عن الإيمان و العمل الصالـح،فبيان دلائل التوحيـد-أيضا-تأكيـدا على ذلك! تقول هـذه الآيه: وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ فهى تمضـى سابقه للغيث فى حركتها،فتجمع القطع المتفرقه من الغيوم و تربط بينها و تؤلفهـا و تحملهـا إلى الأرض اليابسه العطشـى،و تغطى صـفحه السـماء،و مع تغير درجه حراره الجو تهىء المطر للنزول من هـذه الغيوم.

و لعلّ أهميه قـدوم الريـاح المبشـرات-لأهـل المـدن المتنعمه-ليست جليّه واضـحه..إلاّ أن أهـل الصـحارى اليـابسه الظمأى إلى المطر،ما إن تتحرك الرياح مصحوبه بالسحاب التى هطلت فى نقطه أخرى-و النسيم يحمل رائحه الطلّ و الرطوبه منها،حتى يلمع و ميض الأمل فى قلوبهم.

و بالرغم من أنّ آيات القرآن تسـتند إلى البشاره فى نزول الغيث أكثر من غيرها،إلاّ أنّه لا يمكن تحديـد كلمه«مبشـرات»فى هذا المضمون فحسب،لأنّ الرياح تصحب بشائر أخر أيضا.

فالرياح تبدل حراره الجو و برودته الشديده إلى«الاعتدال».

و الرياح تستهلك العفونه فى الفضاء الكبير و تصفى الهواء.

و الرياح تخفف من وطء حراره الشمس على الأوراق و النباتات،و تمنع من احتراقها بحراره الشمس.

كمـا أنّ الريـاح تنقـل غـاز الأوكسـجين المتولـد من النباتـات و أوراق الشـجر- إلى الإنسان،و تهب غاز ثانى أوكسـيد الكاربون الخارج مع زفير الإنسان و تنفسه إلى النباتات أيضا.

و هی کذلک تؤدی وظیفه أخری،فقد أرسلها اللّه لواقح تنقل معها لقاح الأزهار الذکور للإناث.

و الریاح تحرک الطواحین الهوائیه و تصفی البیادر.

و الریاح تنقل البذور من المناطق التی قد تجمعت فیها و تنثرها و تبسطها علی الصحراء،کأنّها فلاح مشفق،فتغدو خضراء ممرعه بعد أن کانت یبابا.

و الریاح تنقل السفن مع مسافریها و أثقالهم إلی نقاط مختلفه.

و حتی فی هذا العصر الذی حلت الوسائل الحدیثه«الماکنات»مکان الریاح،فما تزال الریاح ذات أثر بالنسبه للسفن فی اتجاهاتها المخالفه لها أو الموافقه لها...سرعه و بطأ! أجل،أنّ الریاح مبشرات من جهات شتی.

و لذلک فنحن نقرأ فی تعقیب الآیه قوله تعالی: وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

أجل،إنّ الریاح هی وسیله لتکاثر النعم العدیده فی مجال الزراعه و التدجین،و هی وسیله للحمل و النقل أیضا،و أخیرا فهی سبب للازدهار التجاری.

و قد أشیر إلی الموضوع الأوّل بجمله وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ و إلی الثّانی بجمله وَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ و للثالث بجمله وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ! و الطریف هنا أن جمیع هذه البرکات منشؤها الحرکه،الحرکه فی ذرات الهواء فی الفضاء الجوی لکن لا یعرف قدر أیه نعمه حتی تسلب عن الإنسان!فیعرفها حینذاک. فما لم تتوقف هذه الریاح و النسائم،فلا یعرف الإنسان ما ذا یحلّ به من بلاء؟! فتوقف الهواء یجعل الحیاه فی أفضل الحقول کالحیاه فی أشد المطامیر و السجون ظلمه!و علی العکس فلو أن نسیما علیلا هب فی خلایا السجون

الانفراديه لجعلها كالفضاء الرحب«المفتوح»،و عاده فإنّ واحدا من أساليب التعذيب فى السجون هو سدّ منافذ الهواء!.

حتى أنّ الهواء لو توقف فى المحيطات و هدأت الأمواج،لأصبحت حياه الحيوانات البحريه مهدده بالخطر على أثر قلّه الأوكسجين،و يتحول البحر حينذاك إلى مستنقع متعفن موحش! يقول«الفخر الرازى»إن جمله وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ مع ملاحظه أن الإذاقه تستعمل فى الشىء القليل،فهى إشاره أن جميع الدنيا و نعمها لا تتجاور الرحمه القليله،أمّا الرحمه الواسعه(من قبل اللّه)فهى خاصه بالحياه الأخرى!.

و فى الآيه التاليه يقع الكلام عن إرسال الأنبياء إلى قومهم،فى حين أن الآيه التى بعدها تتحدث عن هبوب الرياح مرّه أخرى،و لعل وجود هذه الآيه بين آيتين تتحدثان عن نعمه هبوب الرياح له جانب اعتراضى،كما يذهب إلى ذلك بعض المفسّرين.

و لعل ذكر النبوّه إلى جانب هذه المسائل،إنّما هو لإكمال البحث المتعلق بالمبدأ و المعاد،إذ ورد البحث عنهما مرارا فى هذه السوره كما قاله بعض المفسّرين.

و يمكن أن يكون وجود هذه الآيه إنذارا لأولئك الذين يتمتعون بجميع هذه النعم الكثيره و يكفرون بها.

و على كل حال،فإنّ الآيه تقول: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ أى المعجزات و الدلائل الواضحه و البراهين العقليه،فاستجاب جماعه منهم لهذه الدلائل،و لم يستجب آخرون لها برغم النصائح فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا و نصرنا المؤمنين وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ .

و التعبير ب«كان»التى تدل على أن هذه السنه لها جذر عميق،و التعبير ب«حقّا»و بعده التعبير ب«علينا»هو بنفسه مبين للحق و مشعر به،جميع هذه

الألفاظ تأكيدات متتابعه فى هذا المجال و تقديم«حقا علينا»على«نصر المؤمنين»الذى يدل على الحصر،هو تأكيد آخر.و بالمجموع تعطى الآيه هذا المعنى«إن نصر المؤمنين من المسلّم به هو فى عهدتنا و هذا الوعد سنجعله عمليا دون الحاجه إلى نصر من الآخرين».

و هذه الجمله-ضمنا-فيها تسليه و طمأنه لقلوب المسلمين،الذين كانوا حينئذ فى مكّه تحت ضغوط الأعداء و اضطهادهم و كان الأعداء أكثر عددا و عددا.

و أساسا فإنّ أعداء اللّه طالما كانوا غرقى فى الآثام و الذنوب،فإنّ ذلك بنفسه أحد عوامل انتصار المؤمنين،لأنّ الذنب سيدمرهم آخر الأمر و يهىء وسائل هلاكهم بأيديهم،و يرسل عليهم نقمه اللّه.

أمّا الآيه الأخرى فتعود ثانيه لذكر نعمه هبوب الرياح فتقول: اَللّٰهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيٰاحَ فَتُثِيرُ سَحٰاباً فَيَبْسُطُهُ فِى السَّمٰاءِ كَيْفَ يَشٰاءُ وَ يَجْعَلُهُ كِسَفاً (۱) أى القطع الصغيره المتراكمه ثمّ تخرج قطرات المطر منها على شكل حبات صغيره فَتَرَى الْوَدْقَ (۲) يَخْرُجُ مِنْ خِلاٰلِهِ .

أجل،إن واحدا من الآثار المهمه عند نزول الغيث،يقع على عاتق الرياح،إذ تحمل قطعات السحاب من البحر إلى الأرض العطشى و اليابسه،و الرياح هى المأموره ببسط السحاب و الغيوم فى السماء جعلها متراكمه بعضها فوق بعض، و بعد أن تلطف الجو و تصيره رطبا تهىء الغيث للنزول.

إن مثل الرياح كمثل راعى الغنم المحنّك،الذى يجمع قطيع الغنم عند الاقتضاء من أطراف الصحراء،و يسير بها فى مسير معيّن ليقوم بالتالى على حلب

۱- ۱) -«الكسف»جمع«كسفه»على وزن«حجله»و معناها القطعه،و هى هنا-كما يبدو-إشاره إلى القطعات من الغيوم المتراكمه بعضها فوق بعض فتجعلها غليظه و شديده،و ذلك حين تكون الغيوم مهيأه لنزول المطر.

۲- ۲) -«الودق»على وزن(الحلق)و تطلق على ذرات الماء الصغيره كمثل الغبار أحيانا،إذ تتناثر عند نزول الغيث فى السماء،كما تطلق على قطرات«المطر»المتفرقه أحيانا...

لبنها!.

و جمله فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاٰلِهِ لعلهـا إشـاره إلى أن غلظه الغيوم و شـده هبوب الريـاح،ليسـتا فى تلـك الـدرجه التى تمنع خروج قطرات الغيث الصـغيره من الغيم و نزولهـا على الأرض،بـل إن هـذه الـذرات الصـغيره-على الرغم من الغيوم المغطـاه بها صفحه السـماء-تجد طريقها من خلال الغيوم إلى الأرض، و تتناثر ناعمه على الأراضـى العطشـى حتى ترويها بصوره جيده و فى الوقت ذاته لا تدمر الثمر.

إن الرياح الشديده و الأعاصير التى تقلع الشـجره من أصـلها أحيانا-على عظمتها و تحرك الصـخور،تأذن للقطره الناعمه أن تمرّ من خلالهـا و تسـتقر على الأرض! و ينبغى الالتفـات الى أن كون السـحاب قطعات متراكمه«كسـفا»-و إن لم يكن لنا جليا بهـذه الصوره-فى اليوم الغائم،حيث تغطى هذه القطع صـفحه السـماء،فلا نحس بأنّها على شـكل قطع،بل نراه سحابا مبسوطا..لكن حين تقلّنا الطائره و تحلق بنا فوق السحاب أو من خلاله،نلمس هذه الظاهره بوضوح! و يضيف القرآن فى نهايه الآيه قائلا: فَإِذٰا أَصٰابَ بِهِ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ إِذٰا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ .

ثمّ تأتى الآيه الأخرى بعدها فتقول: وَ إِنْ كٰانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (۱) .

و إنّما يدرك هذا اليأس أو تلك البشاره أمثال العرب الذين يعيشون فى رحلاتهم و تنقّلهم فى الصحراء،و لحياتهم علاقه و صله قريبه مع هـذه القطرات، فأولئـك يتفق أحيانـا أن يلقى اليـأس ظلالـه السوداء على أنفسـهم الظمأى،كما أن أراضـيهم و مزارعهم تبدو عليها آثار العطش،و فجأه تهب الرياح المبشره بنزول

۱- ۱) -«مبلس»مأخوذه من ماده الإبلاس،و معناها اليأس و عدم الرجاء.

المطر،الرياح التى يشمّ من خلالها رائحه«الغيث»!و تمرّ لحظات،فتتسع الغيوم فى السماء ثمّ تغلظ و تكون أكثر كثافه،ثمّ ينزل«القطر»و الغيث،و تمتلئ الحفر بالماء الزلازل،و تفيض الروافد و السواقى الصغيره و الكبيره من هذه المائده السماويه،و تعود الحياه النضره إلى الأرض اليابسه،كما تتبر عم الآمال فى قلوب الرحّل فى الصحراء و يشرق الأمل فى قلوبهم،و تنجلى عنها غيوم الظلمه و اليأس و القنوط! و يبدو أن تكرار كلمه«من قبل»فى الآيه للتأكيد،إذ تبيّن الآيه أن الوجوه كانت عابسه متجهمه من قبل المطر بلحظات،أجل...لحظات قبل المطر،و هم قلقون و لكن حين ينزل عليهم الغيث...تشرق فجأه الوجوه و تبتسم الشفاه،فكم هو موجود ضعيف هذا الإنسان!و كم هو رحيم هذا الربّ.

و مثل هذا التعبير وارد فى كلماتنا العرفيه حيث نقول مثلا:إن فلانا كان بالأمس،نعم بالأمس صديقا لنا،و اليوم هو من أعدائنا...و الهدف من هذا التكرار هو التأكيد على تغيير حالات الإنسان.

و فى آخر آيه-من الآيات محل البحث-يتوجه الخطاب إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله قائلا:

فَانْظُرْ إِلىٰ آثٰارِ رَحْمَتِ اللّٰهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا

.

و الاهتمام أو الاعتماد على كلمه«انظر»هو إشاره إلى أن آثار رحمه اللّه فى إحياء الأرض بالمطر،هى من الوضوح بمكان بحيث تكفى نظره واحده لمشاهده هذه الآثار،دون حاجه للبحث و التدقيق.

و التعبير ب رَحْمَهِ اللّٰهِ فى شأن المطر هو إشاره الآثار المباركه فيه من جهات مختلفه!.

فالمطر يسقى الأرض و يرعى بذور النباتات... و يهب الأشجار الحياه الجديده! و هو ينقىّ الجو و المحيط من الغبار المتراكم أو المتناثر فى الفضاء.

ص :۵۶۲

و هو يغسل النباتات و يمنحها النضره و الطراوه!.

و هو يمضى إلى أعماق التربه و الأرض،و بعد فتره يعود على شكل عيون و قنوات إلى سطح الأرض.

و المطر يدفع الأنهار و السيول و بعد تجمعها خلف السدود يتولد منها «الكهرباء»أو الطاقه و النور و الحركه!.

و أخيرا فإنّ قطر السماء يحسّن الجوّ إذ يخفف من شدّه الحر،و يهدئ من شدّه البروده.

و التعبير ب«الرحمه»عن المطر مذكور فى عده آيات من القرآن كما فى الآيه (۴۸)من سوره الفرقان،و الآيه(۶۳)من سوره النمل،و نقرأ كذلك فى سوره الشورى الآيه(۲۸)قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِی یُنَزِّلُ الْغَیْثَ مِنْ بَعْدِ مٰا قَنَطُوا وَ یَنْشُرُ رَحْمَتَهُ .

و مع الالتفات إلى العلاقه بين المبدأ و المعاد فى المسائل المختلفه فإن «القرآن»يضيف قائلا فى نهايه الآيه: إِنَّ ذٰلِکَ لَمُحْیِ الْمَوْتیٰ وَ هُوَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ .

و التعبير ب«محيى»بصيغه اسم الفاعل مكان الفعل المضارع،و خاصّه مع كونه مسبوقا بلام التوكيد،دليل على منتهى التأكيد.

و لقد رأينا مرارا فى آيات القرآن الكريم،أن هذا الكتاب السماوى-من أجل إثبات مسأله المعاد-ينتخب نزول الغيث و إحياء الأرض بعد موتها شاهدا على ذلك!.

ففى سوره(ق)الآيه(۱۱)يعقب القرآن بعد التعبير بحياه الأرض بعد موتها قائلا: کَذٰلِکَ الْخُرُوجُ ! و يشبه هذا التعبير فى الآيه(۹)من سوره فاطر إذ يقول القرآن: کَذٰلِکَ النُّشُورُ .

و الواقع أن قانون الحياه و الموت فى كل مكان متشابه..فالذى يحى الأرض الميته بقطرات السماء،و يهبها الحركه و البهجه،و يتكرر هذا العمل على طول السنه،و أحيانا فى كل يوم،فإن له هذه القدره على إحياء الناس بعد الموت، فالموت بيده فى كل مكان،كما أن الحياه بأمره أيضا.

صحيح أن الأرض الميته لا تحيى ظاهرا،بل تنمو البذور التى فى قلب الأرض،و لكننا نعلم أن هذه البذور الصغيره تجذب مقدارا عظيما من أجزاء الأرض إلى نفسها،و تحوّل الموجودات الميته إلى موجودات حيه!و حتى بقايا هذه النباتات المتلاشيه-أيضا- تمنح القدره و القوه للأرض لكى تحيى من جديد.

و فى الحقيقه لم يكن لمنكرى المعاد أى دليل على مدعاهم سوى الاستبعاد، و القرآن المجيد إنّما يستشهد بهذه الأمثال لإحباط هذا الاستبعاد منهم أيضا.

ص: ۵۶۴

الآيات [سوره الروم (۳۰): الآيات ۵۱ الی ۵۴]

اشاره

وَ لَئِنْ أَرْسَلْنٰا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (۵۱) فَإِنَّكَ لاٰ تُسْمِعُ اَلْمَوْتىٰ وَ لاٰ تُسْمِعُ اَلصُّمَّ اَلدُّعٰاءَ إِذٰا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (۵۲) وَ مٰا أَنْتَ بِهٰادِ اَلْعُمْيِ عَنْ ضَلاٰلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاّٰ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيٰاتِنٰا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (۵۳) اَللّٰهُ اَلَّذِی خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَ شَيْبَةً يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ وَ هُوَ اَلْعَلِيمُ اَلْقَدِيرُ (۵۴)

التّفسير

اشاره

الموتى و الصّمّ لا يسمعون كلامک:

حيث أنّ الكلام كان-فی الآيات السابقه-عن الرياح المباركه التی كانت مبشرات بالغيث و الرحمه،ففی أوّل آيه من الآيات أعلاه إشاره إلی الرياح المدمّره و التی تجلب الضرر،إذ يقول القرآن فی هذا الصدد: وَ لَئِنْ أَرْسَلْنٰا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ .

أولئک هم الضعفاء الحمقی فهم قبل نزول الغيث مبلسون آيسون،و بعد نزوله مستبشرون،و إذا هبت ريح صفراء فی بعض الأيّام و ابتلوا مؤقتا تراهم يتصارخون و بالكفر يجأرون و يتجرءون!

ص: ۵۶۵

على العكس من المؤمنين الصادقين الذين هم بنعمه اللّه مستبشرون و عليها يشكرون،و عند نزول المصائب و المشاكل تراهم صابرون،و لا يؤثر التغيير المعاشى و الحياتى المادى فى إيمانهم أبدا،و ليسوا كعمى القلوب ضعيفى الإيمان،الذين يظهرون إيمانهم بمجرّد هبوب الريح،و يكفرون مرّه أخرى إذا هبت الريح بشكل آخر! و كلمه«مصفرا»مشتقّه من«الصفره»على زنه«سفره»و هى لون معروف، و يعتقد أكثر المفسّرين أن الضمير فى«رأوه»يعود على الشجر و النباتات التى تصفر و ذبل على أثر هبوب الرياح المخربه.

و احتمل بعضهم أنّ الضمير يعود على السحاب،و السحاب المصفّر طبعا سحاب خفيف،و هو عاده لا يحمل قطرا،على العكس من الغيوم السود الكثيره، فإنّها تولد الغيث و القطر.

كما يعتقد بعضهم أنّ الضمير فى«رأوه»يعود على الريح،لأنّ الرياح الطبيعيه عاده لا لون فيها(فهى عديمه اللون)إلّا أن الرياح التى تهب و هى مصفره،فهى ريح سموم و هجير،و فى كثير من الأحيان تحمل معها الغبار.

و هناك احتمال رابع،و هو أنّ«المصفّر»معناه الخالى،لأنّه كما يقول الراغب فى مفرداته،يطلق على الإناء الخالى،و البطن الخاليه من الطعام،و الأورده من الدم أنّها(صفر)على وزن(سفر)،فعلى هذا يكون هذا التعبير آنف الذكر فى شأن الرياح الخاليه من القطر و الغيث.

و فى هذه الصوره يعود الضمير فى«رأوه»على الريح(فلاحظوا بدقه).

إلّا أنّ التّفسير الأوّل أشهر من الجميع! و ما يستلفت النظر،هو أنّ الرياح النافعه ذات الغيث جاءت هنا بصيغه الجمع،و لكن على العكس منها الريح التى تجلب الضرر فقد جاءت بصيغه المفرد،و هى إشاره إلى أنّ معظم الرياح نافعه و مفيده،غير أن ريح السموم هى من

الحالات الاستثنائيه التی تهب أحيانا فی السنه مرّه أو فی الشهر مرّه..لكن الرياح المفيده تهب دائما(ليل نهار).

أو أنّها إشاره إلی أنّ الرياح النافعه إنّما تكون كذلك و يكون لها أثرها المفيد، إذا تتابعت،غير أن الريح السيئه تترك أثرها عند هبوبها فی المرّه الأولی.

و آخر ما ينبغی الإشاره إليه من اللطائف الضروريه فی ذيل هذه الآيه،هو التفاوت ما بين يَسْتَبْشِرُونَ فی شأن الرياح النافعه التی ذكرتها الآيه المتقدمه، و جمله لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ الوارده فی الآيه محل البحث.

و هذا الاختلاف أو التفاوت يدل علی أنّهم يرون هذه النعم العظيمه المتتابعه التی أنعمها اللّه عليهم فيفرحون و يستبشرون،غير أنّهم لو أصيبوا مرّه واحده أو يوما واحدا بمصيبه،فإنّهم يضجون و يكفرون حتی كأنّهم غير تاركين للكفر،حل بهم!.

و هذا تماما يشابه حال أولئك الذين يعيشون عمرا بسلامه و لا يشكرون اللّه، لكنّهم إذا مرضوا ليله واحده بالحمی«و اشتعلوا بحرارتها»فإنّهم يظهرون الكفر و هذه هی حال الجهله من ضعفاء الإيمان.

و كان لنا فی هذا الصدد فی الآيه(۳۵)من هذه السوره،و الآيتين(۹)و(۱۰) من سوره هود،و الآيه(۱۱)من سوره الحج بحوث أخر أيضا.

و فی الآيتين التاليتين-بمناسبه البحث الوارد فی الآيه السابقه-فإن الناس يقسمون إلی أربعه طوائف:

۱-طائفه«الموتی»الذين لا يدركون أيه حقيقه،و إن كانوا أحياء فی الظاهر! ۲-و طائفه«الصم»الذين هم غير مستعدين للاستماع إلی الكلام الحق.

۳-و طائفه«العمی»الذی حرموا من رؤيه وجه الحق! ۴-و أخيرا طائفه المؤمنين الصادقين الذين لهم قلوب يفقهون بها،و لهم

أعين يبصرون بها،و لهم آذان يسمعون بها.

فتقول الآيه الأولى: فَإِنَّكَ لاٰ تُسْمِعُ الْمَوْتىٰ و لذلك لا تؤثر مواعظك فى أصحاب القلوب الميته.

و كذلك وَ لاٰ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعٰاءَ إِذٰا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ .

و تأتى الآيه الثّانيه لبيان بقيه الطوائف فتقول: وَ مٰا أَنْتَ بِهٰادِی الْعُمْیِ عَنْ ضَلاٰلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاّٰ مَنْ یُؤْمِنُ بِآیٰاتِنٰا فَهُمْ مُسْلِمُونَ .

و كما قلنا من قبل،فإنّ القرآن لديه ما هو أفضل من«الحياه و الموت الماديين و الجسمانيين»و أفضل من السمع و البصر الظاهريين فلديه نوع اسمى من هذه الحياه و الموت و السمع و البصر،و تكمن فيها سعاده الإنسان أو شقاؤه! فالقرآن لديه معيار لتقييم هذه الأمور،لا بالقيمه الماديه و الفيزيائيه،بل القيمه المعنويه و الإنسانيه.

و الشرط الأوّل لإدراك الحقيقه أن يكون للإنسان قلب مهيأ و مستعد،و عين باصره و أذن سميعه،و إلاّ فلو اجتمع جميع الأنبياء و الأولياء و تلوا جميع الآيات الإلهيه على من لا يدرك الحقيقه لما اقترفه من الذنوب و اللجاجه و العناد،فإنها لن تؤثر فيه!.

و إنّما أشار القرآن إلى هاتين الحاستين الظاهرتين،بالإضافه إلى الإدراك الباطنى فحسب،فلأجل أن أكثر معلومات الإنسان،إمّا أن يكون عن طريق هاتين الحاستين العين و الأذن،أو عن طريق الوجدان و التحليل العقلى! و الطريف هنا أنّ المراحل الثلاث-الوارده فى الآيات الآنفه الذكر-هى ثلاث مراحل مختلفه من الانحراف و عدم درك الحقيقه،و هى تبدأ من شديدها و تنتهى بالخفيف منها! فالمرحله الأولى:هى موت القلوب المعبر عنها ب«الموتى» و هذه المرحله ليس للحقيقه أى طريق للنفوذ فيها.

و المرحله الثّانيه:مرحله«الصمم»و عدم السمع،و لا سيما عند أولئك الذين يديرون ظهورهم و هم فى حاله الفرار،فقد يؤثر فيهم الصراخ الشديد لو كانوا قريبين،لكن فى مثل هذه الحال و هم يفرون،فلا! و بالطبع فإنّ هذه الطائفه ليست كالموتى،فمن الممكن أحيانا أن يتمّ تفهيمهم بالإشاره أو العلامه،إلاّ أنّنا نعرف أن كثيرا من الحقائق لا يمكن بيانها و إيصالها إلى الذهن بالإشاره!و خاصه حين يدير الطرف الآخر ظهره و يكون بعيدا.

المرحله الثّالثه:(العمى)،و بالطبع فإن الحياه مع العمى أسهل بمراتب من الحياه مع«الصم»أو الحياه مع«الموتى»،فعلى الأقل لديهم آذان سميعه،و يمكن إيصال كثير من المفاهيم إليهم...لكن اين السمع فى إدراك الحقائق من البصر؟! ثمّ بعد هذا كلّه،فإنّ تبيين المسائل غير كاف وحده،فلنفرض أن يقال للأعمى سر باتجاه اليمين أو اليسار،فإنّ تطبيق هذا الأمر ليس سهلا،و ربّما بأقل خطأ-أحيانا-فى تحديد المقدار،يؤدى بالأعمى إلى السقوط! و فى بحثنا المفصل فى ذيل الآيتين(٨٠)و(٨١)من سوره النمل،بيّنا-ضمن التحليل لحقيقه الحياه و الموت-الإشكال الواهى الذى أثاره جماعه من الوهابيين،إذ يستعينون بمثل هذه الآيات-محل البحث و غيرها-لإثبات عدم جواز التوسل بالنّبى و الأئمّه الطاهرين،و يقولون:إنّ الموتى(حتى النّبى) لا يفهمون شيئا.

غير أنّنا أثبتنا هناك أن الإنسان-خاصّه من هو بمستوى الأئمه الكرام و الشهداء العظام-له نوع من الحياه البرزخيه بعد الموت،و هناك وثائق كثيره و أدله متعدده من القرآن و الأحاديث تشهد بذلك و تؤيده،و فى هذه الحياه البرزخيه إدراك و بصر أوسع من الحياه الدنيويه(لمزيد الإيضاح يراجع التّفسير الأمثل،ذيل الآيات المشار إليها آنفا).

ص :٥٦٩

و هنا ينبغى أن نضيف هذه الجمله،و هى أن جميع المسلمين فى صلاتهم- دائما-يخاطبون النّبى صلّى اللّه عليه و آله و يسلمون عليه بهذه الجمله«السّلام عليك أيّها النّبى و رحمه اللّه و بركاته»و نعرف أنّ المخاطبه الحقيقه لا المجازيه يجب أن تكون-حتما-مع إنسان يسمع و يدرك! فعلى هذا الأساس لازم السلام على النّبى بهيئه المخاطبه من بعيد أو قريب، أن روحه المقدسه تسمع جميع هذه التحيات،و لا دليل يقودنا إلى أن نحمل هذه التحيات على المجاز!.

و فى آخر آيه-من الآيات محل البحث-يشير القرآن إلى دليل آخر من أدله التوحيد،و هو دليل الفقر و الغنى،و يكمل البحوث التى تدور حول التوحيد فى هذه السوره،فيقول: اَللّٰهُ الَّذِی خَلَقَکُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّهً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّهٍ ضَعْفاً وَ شَیْبَهً .

كنتم فى البدايه ضعافا إلى درجه أنّكم لم تكن لكم القدره على طرد الذباب عنكم،أو أن تحافظوا على لعاب أفواهكم أن يسيل،هذا من الناحيه الجسميه، أمّا من الناحيه الفكريه فمصداقه قوله تعالى: لاٰ تَعْلَمُونَ شَیْئاً بحيث لم تعرفوا حتى أبويكم المشفقين عليكم.

لكن-قليلا قليلا-صرتم ذوى رشد و قوّه،و صار لكم جسم قوى،و فكر جيد،و عقل مقتدر إدراك واسع! و مع هذه الحال لم تستطيعوا أن تحافظوا على هذه القوّه،فمثلكم كمن يصعد من طرف الجبل إلى قمته،ثمّ يبدأ بالانحدار من القمه إلى قعر الوادى،الذى يمثل «مرحله ضعف الجسم و الروح».

هذا التغير و الصعود و النّزول خير دليل لهذه الحقيقه،و هى أنّه لم تكن القوّه من عندكم و لا الضعف،فكل منهما كان من جهه أخرى،و هذا بنفسه دليل على أن وراءكم من يدبّر أموركم و يسيّر حياتكم و ما عندكم فهو أمر عارض!

و هذا هو ما

أشار إليه الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام فى كلامه النيّر إذ قال: «عرفت اللّه بفسخ العزائم و حل العقود و نقض الهمم» (۱) .

لقد عرفت من هذا الاختلاف و التغير أن القوه الأصليه ليست بأيدينا،فهى بيد اللّه،و ليس لدينا بنحو مستقل أى شىء سوى ما وهبنا إيّاه! و من الطريف أنّ القرآن يضيف-عند بيان الضعف الثّانى للإنسان-كلمه وَ شَيْبَةً غير أنّه لم يذكر«الطفوله»فى الضعف الأول...

و هذا التعبير ربّما كان إشاره إلى أن ضعف الشيخوخه و الشيب أشدّ ألما،لأنّه على العكس من ضعف الطفوله،إذ يتجه نحو الفناء و الموت...هذا أوّلا.

و ثانيا فإن ما يتوقع من الشيبه و المسنين مع ما لهم تجارب ليس كما يتوقع من الأطفال،على حين أن ضعف كل منهما مشابه للآخر،و هذا الموضوع يدعوا إلى الإعتبار كثيرا.

فهذه المرحله هى التى تدفع الأقوياء و الطغاه إلى الانحناء،و تجرهم إلى الضعف و الذله! أمّا آخر جمله فى الآيه فهى إشاره إلى علم اللّه الواسع و قدرته المطلقه:

يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ

و هى بشاره و إنذار فى الوقت ذاته،أى إن اللّه مطلع على جميع نيّاتكم،و هو قدير على مجازاتكم و ثوابكم!

ص:۵۷۱

۱- ۱) -نهج البلاغه،الكلمات القصار،الجمله ۲۵۰.

الآيات [سوره الروم (٣٠): الآيات ۵۵ الی ۶۰]

اشاره

وَ يَوْمَ تَقُومُ اَلسّٰاعَةُ يُقْسِمُ اَلْمُجْرِمُونَ مٰا لَبِثُوا غَيْرَ سٰاعَةٍ كَذٰلِكَ كٰانُوا يُؤْفَكُونَ (۵۵) وَ قٰالَ اَلَّذِينَ أُوتُوا اَلْعِلْمَ وَ اَلْإِيمٰانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتٰابِ اَللّٰهِ إِلىٰ يَوْمِ اَلْبَعْثِ فَهٰذٰا يَوْمُ اَلْبَعْثِ وَ لٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ (۵۶) فَيَوْمَئِذٍ لاٰ يَنْفَعُ اَلَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَ لاٰ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (۵۷) وَ لَقَدْ ضَرَبْنٰا لِلنّٰاسِ فِي هٰذَا اَلْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ مُبْطِلُونَ (۵۸) كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اَللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِ اَلَّذِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ (۵۹) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اَللّٰهِ حَقٌّ وَ لاٰ يَسْتَخِفَّنَّكَ اَلَّذِينَ لاٰ يُوقِنُونَ (۶۰)

التّفسير

اشاره

يوم لا ينفع الاعتذار:

قلنا إن فی هذه السوره أبحاثا منسجمه و متناغمه تتعلق بالمبدأ و المعاد..

و فی الآيات-محل البحث-يعقب القرآن على البحوث التی كانت حول المبدأ و المعاد أيضا،فيعود إلى بيان مشهد من مشاهد يوم القيامه الأليمه،و ذلک بتجسيمه حاله المجرمين فی ذلک اليوم،إذ يقول: وَ يَوْمَ تَقُومُ اَلسّٰاعَةُ يُقْسِمُ

الْمُجْرِمُونَ مٰا لَبِثُوا غَيْرَ سٰاعَهٍ

فی عالم البرزخ أجل كَذٰلِكَ كٰانُوا يُؤْفَكُونَ فإنّهم فیما سبق کانوا محرومین من إدراک الحقائق و مصروفین عنها.

و التعبیر ب«الساعه»عن یوم القیامه-کما أشرنا إلیه سابقا-هو إمّا لأنّ یوم القیامه یقع فی لحظه مفاجئه،أو لأنّه من جهه أن أعمال العباد تحاسب بسرعه هناک، لأنّ اللّه سریع الحساب،و نعرف أنّ«الساعه»فی لغه العرب تعنی جزءا أو لحظه من الزمن (۱) .

و بالرغم من أنّ الآیه المتقدمه لم تشر إلی مکان(اللبث)حتی احتمل بعضهم أنّ المراد منه هو لبثهم فی الدنیا،الذی هو فی الواقع بمثابه لحظه عابره لا أکثر، إلاّ أنّ الآیه التی بعدها دلیل واضح علی أن المراد منه هو اللبث فی عالم البرزخ..و عالم ما بعد الموت..و ما قبل القیامه،لأنّ جمله لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِی كِتٰابِ اللّٰهِ إِلیٰ يَوْمِ الْبَعْثِ تنهی هذا اللبث إلی یوم القیامه،و لا یصح هذا إلاّ فی شأن البرزخ (فلاحظوا بدقه).

و نعرف-هنا أیضا-أن«البرزخ»لیس للجمیع علی شاکله واحده،فقسم له فی البرزخ حیاه واعیه،و قسم مثلهم کمن یغط فی نوم عمیق-فی عالم البرزخ- و یستیقظون فی یوم القیامه،و یتصورون آلاف السنین ساعه واحده (۲) .

مسألتان

الأوّل:کیف یقسم المجرمون مثل هذا القسم الکاذب؟ و الجواب واضح،فهم یتصورون-واقعا-مثل هذا التصور،و یظنون أن فتره

۱- ۱) -کان لنا فی هذا الصدد بحث مفصّل ذیل الآیه(۱۴)من هذه السوره.

۲- ۲) -بیّنا هذا البحث«المتعلق بموضوع البرزخ»فی ذیل الآیه ۱۰۰،من سوره المؤمنون،کما نوّهنا عن هذه اللطیفه و المسأله الدقیقه هناک.

البرزخ كانت قصيره جدّا،لأنّهم كانوا فى حاله تشبه النوم،أ لا ترى أن أصحاب الكهف الذين كانوا صالحين مؤمنين،حين أفاقوا بعد نوم طويل،تصوروا أنّهم لبثوا يوما أو بعض يوم فى منامهم.

أو أن أحد الأنبياء الوارده قصته فى سوره البقره(الآيه ٢٥٩)بعد أن أماته اللّه مائه عامه ثمّ بعثه للحياه ثانيه،لم يظهر فى تصوره غير أنّه لبث يوما أو بعض يوم.

فما يمنع أن يتصور المجرمون-مع ملاحظه حالتهم الخاصه فى عالم البرزخ و عدم اطلاعهم-مثل هذا التصور!؟ لذا يقول المؤمنون الذين أوتوا العلم-كما تذكره الآيه التى تأتى بعد هذه الآيه-:إنّكم غير مصيبين فى قولكم،إذ لبثتم فى عالم البرزخ إلى يوم القيامه، و هذا هو يوم القيامه!.

و من هنا تتّضح المسأله الثّانيه.أى تفسير جمله كَذٰلِكَ كٰانُوا يُؤْفَكُونَ لأنّ «الإفک»فى الأصل معناه تبدل الوجه الحقيقى و الانصراف عن الحق،و هذه الجماعه ابتعدت عن الواقع لحالتها الخاصه فى عالم البرزخ،فلم تستطع أن تحدد لبثها فى عالم البرزخ.

و مع ملاحظه أنّه لا حاجه لنا إلى الأبحاث الطويله التى بحثها جمع من المفسّرين،و فى أنّه لم يكذب المجرمون عمدا فى يوم القيامه،لأنّه ليس فى الآيه دليل على كذبهم العمد فى هذه المرحله!.

و بالطبع فإنّنا نرى فى آيات القرآن الأخر أمثله من أكاذيب المجرمين يوم القيامه،و قد بيّنا الإجابه المفصله على كل ذلک فى ذيل الآيه(٢٣)من سوره الأنعام،لكن ذلک البحث لا علاقه له بموضوع هذه الآيات! أمّا الآيه التاليه فتتحدث عن جواب المؤمنين المطلعين على كلام المجرمين الغافلين عن حاله البرزخ و القيامه فتقول: وَ قٰالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمٰانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتٰابِ اللّٰهِ إِلىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهٰذٰا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لاٰ

تَعْلَمُونَ

.

و تقديم العلم على الإيمان هو لأنّ العلم أساس الإيمان.

و التعبير فِي كِتٰابِ اللّٰهِ لعله إشاره إلى الكتاب التكوينى،أو إلى الكتاب السماوى،أو إشاره إليهما معا،أى كان-بأمر اللّه التكوينى و التشريعى-مقدّرا أن تلبثوا مثل هذه المدّه فى البرزخ،ثمّ تحشرون فى يوم القيامه (1) .

و فى أن المقصود ب اَلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمٰانَ من هم؟! قال بعض المفسّرين:هى إشاره إلى ملائكه اللّه الذين لهم علم و هم مؤمنون أيضا.

و قال بعضهم:المقصود هم المؤمنين العالمون،و المعنى الثّانى أظهر طبعا.

و ما ورد فى بعض الرّوايات من تفسير هذه الآيه بالأئمّه الطاهرين،فهو من قبيل المصداق الواضح لها،و لا يحدد معناها الوسيع.

و هذه اللطيفه جديره بالالتفات،و هى أن بعض المفسّرين قالوا:إنّ ما قاله المجرمون مقسمين بأنّهم ما لبثوا غير ساعه،و ما ردّه عليهم الذين أوتوا العلم و الإيمان بأنّهم لبثوا إلى يوم البعث،هذه المحاوره و الكلام منشؤهما أنّ الطائفه الأولى-لأنّهم كانوا يتوقعون العذاب-كانوا يرغبون فى تأخيره،و كانت الفاصله و إن طالت بالنسبه لهم قصيره جدّا عندهم.

أمّا الطائفه الثّانيه فلأنّهم كانوا ينتظرون الجنّه و نعمها الخالده و راغبين فى تقديمها، فكانوا يرون الفاصله طويله جدّا (2) .

و على كل حال،فحين يواجه المجرمون واقعهم المرير المؤلم يظهرون

---

1 - 1) -فى كون الآيه،هل فيها تقديم و تأخير،أم لا؟هناك كلام و نقاش بين المفسّرين و العلماء،فقال بعضهم«فى كتاب اللّه»متعلق بجمله«أوتوا العلم و الإيمان»فيكون معنى الآيه هكذا:الذين أوتوا العلم فى كتاب اللّه و يؤمنون به قالوا مثل هذا الكلام،و قال بعضهم«فى كتاب اللّه»متعلق بجمله«لبثتم»و نحن اخترنا هذا الرأى أيضا فى شرحنا للآيه،لأنّ الحكم بالتقديم و التأخير يحتاج إلى قرينه واضحه و لا نجد هنا قرينه على ذلك!.

2- 2) -تفسير الفخر الرازى ذيل الآيات محل البحث.

ندمهم و يتوبون و يعتذرون ممّا صنعوا،لكن القرآن يقول فى هذا الصدد: فَيَوْمَئِذٍ لاٰ يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَ لاٰ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (١) و تجدر الإشاره إلى هذه المسأله،و هى أن فى بعض آيات القرآن تصريحا بعدم الإذن للمجرمين أن يعتذروا وَ لاٰ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٢) غير أنّ الآيه محل البحث تقول:لا ينفعهم الاعتذار هناك،و ظاهرها أنّهم يعتذرون،إلّا أنّه لا أثر لاعتذارهم.

و بالطبع فإنّه لا تضاد بين هذه الآيات،لأنّ يوم القيامه فيه مراحل مختلفه، و فى بعض المراحل لا يؤذن للمجرمين بالاعتذار أبدا و يختم على أفواههم...

و إنّما تتحدث الجوارح بما أساءت فحسب...و فى بعض المراحل تنطلق ألسنتهم بالاعتذار،إلّا أنّه...لا ينفعهم الاعتذار أبدا...؟! و واحد من أعذارهم أنّهم يلقون تبعات ذنوبهم على أشياخهم فى الكفر و النفاق،فيقولون لهم: لَوْ لاٰ أَنْتُمْ لَكُنّٰا مُؤْمِنِينَ (٣) ،إلّا أن أولئك يردون عليهم بالقول: أَ نَحْنُ صَدَدْنٰاكُمْ عَنِ الْهُدىٰ بَعْدَ إِذْ جٰاءَكُمْ (۴) و أحيانا يلقون اللوم على الشيطان فى تضليلهم و انحرافهم و أنّه وسوس لهم، إلاّ أن الشيطان يجيبهم فَلاٰ تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ (۵) ،أى لم أكرهكم على الكفر،إلاّ أنّكم استجبتم لى برغبتكم.

و فى الآيه التاليه إشاره لجميع المواضيع الوارد بيانها فى هذه السوره...إذ تقول: وَ لَقَدْ ضَرَبْنٰا لِلنّٰاسِ فِي هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لقد ذكرنا فيه الوعد

١- ١) -كلمه«يستعتبون»مشتقه من«عتب»على وزن«حتم»و معناها فى الأصل الاضطراب النفسى«الداخلى» و حين يصاغ هذا الفعل من باب الإفعال فيكون معناه ازاله هذا الأثر و الاضطراب،كما جاء فى لسان العرب أن الاستفعال يؤدى معنى الإفعال هنا،لذلك يقال فى شأن الاسترضاء معناه طلب الرضا و التوبه،و معنى الكلمه هنا فى الآيه هو بمثل ما ذكرناه،و معنى ذلك أنّ المجرمين فى يوم القيامه ليس لهم القدره على التوبه.

٢- ٢) -المرسلات،الآيه ٣۶.

٣- ٣) -سبأ،الآيه ٣١.

۴- ۴) -سبأ،الآيه ٣٢.

۵- ۵) -إبراهيم،الآيه ٢٢.

و الوعيد،الأمر و النهى،البشاره و الإنذار،الآيات الآفاقيه و الأنفسيه،دلائل المبدأ و المعاد و الأخبار الغيبيه و الخلاصه ذكرنا فيه كل شىء يمكن أن يؤثر فى نفوس الناس.

و فى الحقيقه،إنّ فى القرآن-بشكل عام-و سوره الروم-بشكل خاص- حيث نحن الآن فى مراحلها النهائيه،مجموعه من المسائل و الدروس الموقظه لكل فئه،و لكل طبقه،و لكل جماعه،و لكل فكر و أسلوب...مجموعه من العبر، و المسائل الأخلاقيه،و الخطط و المناهج العمليه،و الأمور الاعتقاديه،بحيث استفيد من جميع الطرق و الأساليب المختلفه للنفوذ فى أفكار الناس و دعوتهم إلى طريق السعاده! و مع هذه الحال،فهناك طائفه لا يؤثر فى قلوبهم المظلمه السوداء أى من هذه الأمور،لذلك يقول القرآن فى شأنهم: وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَهٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاّ مُبْطِلُونَ .

و التعبير ب«مبطلون»تعبير جامع يحمل كل معانى الدجل و الافتراء و النسب الكاذبه و الفاسده من قبل المشركين،كنسبه الكذب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و السحر و الجنون و الأساطير الخرافيه،إذ أن كل واحد من هذه الأمور يمثل وجها من وجوه الباطل،و قد جمعت كل هذه الأمور تحت كلمه«مبطلون».

أجل،إنّهم كانوا يتهمون الأنبياء دائما بواحد من هذه الأمور الباطله، ليشغلوا عنهم الناس الطيبين الطاهرين و لو لعدّه أيّام-بما ينسبونه للأنبياء ممّا أشرنا إليه.

و المخاطب فى كلمه«أنتم»يمكن أن يكون النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين الحقيقيين، و يمكن أن يكون جميع أصحاب الحق من الأنبياء و الائمّه المعصومين عليهم السّلام و أتباعهم،لأنّ هذه المجموعه من الكفار تخالف جميع اتباع الحق.

و الآيه التى بعدها تبيّن السبب فى مخالفه هذه الطائفه،فتقول:إن لجاجه هؤلاء التى لا حدّ لها و عداءهم للحق،إنّما هو لفقدانهم الإحساس و الإدراک

ص: ۵۷۷

بسبب كثره ذنوبهم،و لأنّهم لا يعلمون شيئا...إذ تقول: كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ .

و كلمه«يطبع»مأخوذه من الطبع،و معناها ختم الشيء،و هي إشاره إلى ما كان يجري في السابق،و هو جار أيضا اليوم إذ يختم على الشيء كيلا يتصرف به و يغلق بإحكام،و قد يضعون عليه القفل و يضربون عليه ماده لزجه مختومه بإشاره معينه كما بيّنا بحيث لا يمكن فتح ذلك الشيء إلاّ بكسره،فيفتضح أمره بسرعه.

و كان القرآن استعمل هذا التعبير كنايه عن القلوب التي لا ينفذ إليها النصح، و الذين فقدوا الوجدان و العقل و العلم،و لا أمل في هدايتهم.

و ممّا يسترعي الانتباه أنّ في الآيات السابقه ذكر العلم أساسا للإيمان،و في هذه الآيه ذكر الجهل أساسا للكفر و عدم التسليم للحق.

أمّا آخر آيه-من الآيات محل البحث-التي تقع في آخر سوره الروم،فهي تأمر النّبي صلّى اللّه عليه و آله أمرين مهمين،و تبشره بشاره كبرى،لتحثه على مواصله الوقوف و التصدي للمشركين و الجاهلين و السفهاء بالاستقامه و الصبر.

تقول أوّلا:إذا كان الأمر كذلك،فعليك بالصبر و الاستقامه امام الحوادث المختلفه،و في مقابل انواع الأذى و البهتان و المصاعب فَاصْبِرْ .

لأنّ الصبر و الاستقامه هما مفتاح النصر الأصيل.

و ليكون النّبي صلّى اللّه عليه و آله أكثر اطمئنانا،فإنّ الآيه تضيف إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ فقد وعدك و المؤمنين بالنصر،و الاستخلاف في الأرض،و غلبه الإسلام على الكفر، و النور على الظلمه،و العلم على الجهل.و سوف يلبس هذا الوعد ثوب العمل!.

و كلمه«الوعد»هنا إشاره إلى الوعود المكرره التي وعدها القرآن في انتصار المؤمنين،و من ضمنها الآيه(۴۷)من هذه السوره وَ كٰانَ حَقًّا عَلَيْنٰا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ .

و الآيه(۵۱)من سوره غافر إِنّٰا لَنَنْصُرُ رُسُلَنٰا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيٰاهِ الدُّنْيٰا

وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهٰادُ! .

و تقول الآيه(۵۶)من سوره المائده أيضا فَإِنَّ حِزْبَ اللّٰهِ هُمُ الْغٰالِبُونَ .

و تأمر ثانيا بضبط الأعصاب و الهدوء و عدم الانحراف فى المواجهه الشديده و المتتابعه،حيث تقول الآيه: وَ لاٰ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاٰ يُوقِنُونَ .

إنّ مسئوليتك أن تتحمل كل شيء،و أن يتسع صدرك و خلقك لجميع الناس فهذا هو الجدير بقائد و زعيم لأمثال هؤلاء.

كلمه لاٰ يَسْتَخِفَّنَّكَ مشتقّه من«الخفه»و هى خلاف الثقل،أى كن رزينا قائما على قدميك لئلا يهزك مثل هؤلاء الأفراد و يحركوك من مكانك،و كن ثابتا و مواصلا للمسيره باطمئنان،إذ أنّهم فاقدو اليقين،و أنت مركز اليقين و الإيمان!.

هذه السوره بدأت بوعد انتصار المؤمنين على الأعداء،و انتهت أيضا بهذا الوعد،إلاّ أن شرطها الأساس هو الصبر و الاستقامه!.

ربّنا،هب لنا صبرا و استقامه حتى لا يهزنا طوفان الحوادث و المشاكل من مكاننا أبدا.

إلهنا،نلتجئ إلى ذاتك المقدسه،ألاّ نكون من زمره الذين لا تؤثر فى قلوبهم الموعظه و النصح و الإرشاد و العبر و النذر!.

إلهنا،إن أعداءنا متحدون،و هم مسلّحون بأنواع الأسلحه الشيطانيه،فانصرنا -ربّنا-على أعدائنا فى الخارج،و شيطاننا فى الداخل.

آمين يا رب العالمين انتهاء سوره الروم و نهايه المجلد الثانى عشر

ص :

ص :

ص :

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسّس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية فى أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامى عام ١٤٢٦ الهجرى فى المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين فى الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلة المراكز القائمة بتوفير المصادر فى العلوم الإسلامية وتبعثرها فى أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية فى أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين فى العلوم الإسلامية وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الكترونية من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهى منظمة فى برامج إلكترونية وجاهزة فى مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها.

وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدة على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبىّ عليهم السلام

تحفيز الناس خصوصا الشباب على دراسة أدقّ فى المسائل الدينية

تنزيل البرامج المفيدة فى الهواتف والحاسوبات واللابتوب

الخدمة للباحثين والمحققين فى الحوازت العلمية والجامعات

توسيع عام لفكرة المطالعة

تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها فى ملفات الكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية

إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة

الاجتنباب عن الروتينية وتكرار المحاولات السابقة

العرض العلمى البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فی نشر المعلومات

من الواضح أن یتحمل المؤلف مسؤولیهٔ العمل.

نشاطات المؤسسهٔ:

طبع الکتب والملزمات والدوریات

إقامهٔ المسابقات فی مطالعهٔ الکتب

إقامهٔ المعارض الالکترونیهٔ: المعارض الثلاثیهٔ الأبعاد، أفلام بانوراما فی الأمکنهٔ الدینیهٔ والسیاحیهٔ

إنتاج الأفلام الکرتونیهٔ والألعاب الکمبیوتریهٔ

افتتاح موقع القائمیهٔ الانترنتی بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافیهٔ وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمی لنظام استلام الأسئلهٔ والاستفسارات الدینیهٔ والأخلاقیهٔ والاعتقادیهٔ والردّ علیها

تصمیم الأجهزهٔ الخاصهٔ بالمحاسبهٔ، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ویب کیوسک kiosk، الرسالهٔ القصیرهٔ ((sms

إقامهٔ الدورات التعلیمیهٔ الالکترونیهٔ لعموم الناس

إقامهٔ الدورات الالکترونیهٔ لتدریب المعلمین

إنتاج آلاف برامج فی البحث والدراسهٔ وتطبیقها فی أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ویمکن تحمیلها علی ۸ أنظمهٔ؛

JAVA.۱

ANDROID.۲

EPUB.۳

CHM.۴

PDF.۵

HTML.۶

CHM.۷

GHB.۸

إعداد ۴ الأسواق الإلکترونیهٔ للکتاب علی موقع القائمیهٔ ویمکن تحمیلها علی الأنظمهٔ التالیهٔ

ANDROID.۱

IOS.۲

WINDOWS PHONE.۳

WINDOWS.۴

وتقدّم مجاناً فی الموقع بثلاث اللغات منها العربیهٔ والانجلیزیهٔ والفارسیهٔ

الکلمهٔ الأخیرهٔ

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة فى تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزى

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اى، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم ۱۲۹، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكترونى : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزى ۰۳۱۳۴۴۹۰۱۲۵

هاتف المكتب فى طهران ۸۸۳۱۸۷۲۲ ـ ۰۲۱

قسم البيع ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹شؤون المستخدمين ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹.